

# الغريب (ظاهرة الغريزية)

تأليف: ألكساندر زينوفيف

ترجمة: عادل إسماعيل

نوفل نيوف

1630







**الفرب**

(ظاهرة الغريوية)

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1630

- الغرب (ظاهرة الغريبة)

- ألكساندر زينوفيف

- عادل إسماعيل، نوفل نيوف

- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

# ЗАПАД

by : Александр ЗИНОВЬЕВ

© Александр ЗИНОВЬЕВ, 2007

All Rights Reserved

---

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

E.mail:egyptcouncil@yahoo.com

Tel.: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554



# الفرب

## (ظاهرة الغريوية)

تأليف : ألكساندر زينوفيف  
ترجمة : عادل إسماعيل  
نوفل نيُوف



2010



بطاقة الفهرست  
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشؤون الفنية

زينوفيف ، ألكساندر.  
الغرب : ظاهرة الغربية / تأليف : ألكساندر زينوفيف ؛ ترجمة  
عادل إسماعيل، نوفل نيوف .  
ط ١ - القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٠ .  
٥١٢ ص ؛ ٢٤ سم .  
١ - الفلسفة الغربية  
أ - إسماعيل ، عادل ( مترجم )  
ب - نيوف ؛ نوفل ( مترجم مشارك )  
ج - العنوان  
١٩٠

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٦٠١٠  
الترقيم الدولي 978 - 977 - 704 - 221 - 5 I.S.B.N.  
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .



## المحتويات

- 7 - ألكساندر زينوفيف (حياته وأعماله) بقلم : د/ عبد السلام حسيوف
- 21 - مقدمة الطبعة الروسية : بقلم / المؤلف .....
- 23 - عرض مفاجئ .....
- 51 - الجانب العملى .....
- 75 - بنية المجتمع الخليوية .....
- 205 - المكانة الاجتماعية والعلاقات الشخصية .....
- 251 - أحزاب الغريوية .....
- 409 - مجتمع الإنسان الخارق .....







## ألكساندر زينوفيف

(حياته وأعماله)

بقلم د. عبد السلام حُسَيْنُوف (\*)

ألكساندر ألكساندروفيتش زينوفيف عَلمٌ روسي في ميادين الفلسفة، والمنطق، والسوسيولوجيا، والأدب، والفن. ولد عام ١٩٢٢ في أسرة فلاحية متماسكة، متحابّة، راسخة الجذور، فكان الرابع بين أحد عشر أخاً وأختاً. انتقل أفراد هذه الأسرة في ثلاثينيات القرن العشرين إلى العاصمة موسكو واحداً بعد الآخر إلى أن استقروا فيها جميعاً.

تميّز زينوفيف منذ نعومة أظفاره بالموهبة، والشغف بالدراسة، وخاصة بالرياضيات. كان يتمتع بذاكرة قوية جامعة، لم تَخُنْهُ حتى آخر أيامه. جادت عليه الطبيعة برجاحة العقل وصحة البدن. كان متوسط القامة، ربعةً، متين البنية، حسن الطلعة، جسوراً لا يهاب المخاطر، سريع الخطو، أجشّ الصوت.

أنهى دراسته الثانوية في موسكو بامتياز عام ١٩٣٩، وانتسب إلى معهد الفلسفة والأدب والتاريخ، وهو المعهد الذي كان الجامعة الأساسية للعلوم الإنسانية في الاتحاد السوفيتي آنذاك. يقول زينوفيف إنه كان في تلك الفترة قد كوّن تصوراً سلبياً عن

---

(\*) مدير معهد الفلسفة لدى أكاديمية العلوم الروسية.

سياسة ستالين، وراحت تراوده أفكار حول اغتياله، ولما تسرب ذلك إلى أجهزة أمن الدولة، لاذ زينوفيف بالفرار. فهجر معهده ودراسته، ومضى ينتقل من مكان إلى آخر في شتّى أنحاء البلاد إلى أن التحق بالجيش الأحمر عام ١٩٤٠، فقاتل في جبهات الحرب الوطنية العظمى (العالمية الثانية) ضد ألمانيا النازية، جندياً في سلاح المدرعات، ثم طياراً حربيّاً، إلى أن وضعت الحرب أوزارها، فذاق حلاوة النصر في العاصمة الألمانية برلين وهو ضابط برتبة ملازم أول. وفي عام ١٩٤٦ عاد زينوفيف إلى مقاعد الدراسة فأمضى ثماني سنوات (١٩٤٦ - ١٩٥٤) طالباً ومعيداً في كلية الفلسفة بجامعة لومونوسوف الرسمية في موسكو.

دافع في عام ١٩٥٤ عن رسالته لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان "الارتقاء من المجرّد إلى الملموس (تطبيقاً على كتاب كارل ماركس "رأس المال")"<sup>(١)</sup> وقد سجلت هذه الأطروحة خرقاً حقيقياً لتقاليد البحث العلمي التي كانت سائدة في الفلسفة السوفيتية قبلها، وأرست أساساً لمدرسة زينوفيف ذات الاتجاه التحليلي في تطوير الفلسفة السوفيتية، المدرسة التي تخرّجت فيها شخصيات فكرية بارزة في النصف الثاني من القرن العشرين، أمثال ب.أ. غروشين، وم.ك. مامارداشفيلى، وإ. شُدروفسكى. فقد أثبت زينوفيف في هذه الأطروحة أن منهج الارتقاء من المجرّد إلى الملموس هو ذاته منهج ملموس، يمثّل أسلوباً معقداً ومتنوعاً في بنيته، يتضمّن عدداً كبيراً من الطرق الأكثر ملموسية، والمهارات التفكيرية. وتندرج في هذه الأخيرة أيضاً قواعد المنطق الصورى التي لا تظهر في إطار المنهج العلمي كضوابط جامعة، بل كمجرد تفاصيل، ووسائل تقنيّة. على أن منهج الارتقاء الذي يتجلى في بنيته المنطقية الجامعة، لا يرى فيه زينوفيف خطاطةً (مقدمة عامة) لا تحتاج إلا إلى تعميمها على مختلف الحالات الخاصة. واستخدام هذا المنهج يجب أن يأخذ كل مرة بالحسبان مجمل ما طرأ على علم من العلوم من خصوصية وتطور. ليست أطروحة زينوفيف وحدها ما كان حدثاً

---

(١) صدرت أول مرة عام ٢٠٠٢ كهدية من معهد الفلسفة لدى أكاديمية العلوم الروسية إلى زينوفيف بمناسبة عيد ميلاده الثمانين.



اجتماعياً كبيراً، بل وحيثيات الدفاع عنها أيضاً. فقد استمر الدفاع عدة أيام في قاعة  
تغصّ بجمهور يؤيد زينوفيف في تصديده المنهجي الواثق لأعضاء المجلس العلمي نوى  
الميل المحافظة.

مارس زينوفيف عمله الأكاديمي باحثاً علمياً في معهد الفلسفة التابع لأكاديمية  
العلوم السوفيتية ما بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٧٦، إلى جانب التدريس في عدد من  
المؤسسات التعليمية في موسكو، ومنها جامعة م.ف. لومونوسوف التي ترأس فيها قسم  
المنطق ما بين عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٨، وكان يعدُّ تلك السنوات أجمل سنوات حياته، إذ  
لازمه التعلق بمعهد الفلسفة والحنين إليه طول عمره. كما كان يعدُّ منصبه في ذلك  
المعهد، بصفته باحثاً متمرساً، تجسيداً لأقصى أحلامه.

تركز اهتمامه العلمي في تلك السنوات على مسائل المنطق. ونشر زينوفيف نتائج  
أبحاثه في هذا الميدان في ستة كتب<sup>(٢)</sup> صدرت بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٢، سرعان ما  
ترجم خمسة منها (بعد الصدور بعام أو عامين) إلى اللغة الإنكليزية أو الألمانية  
("المنطق المركب" باللغتين فوراً)، ونُشرت في بلدان أوروبا الغربية. وفيما بعد رقد  
زينوفيف أعماله في مجال المنطق بمؤلفين إجمالين جامعين، صدر الأول منهما عام  
٢٠٠٠ تحت عنوان "موضوعات في المنطق المركب"، والثاني عام ٢٠٠٥ تحت عنوان  
"العقل المنطقي"، فضلاً عن بحث خاص بعنوان "السوسيولوجيا المنطقية" عام ٢٠٠٢،  
كان زينوفيف واحداً من رواد تطوير المنطق الرياضي في روسيا، وساهم بقسط في  
ميدان المنطق المتعدد الدلالة، ونظرية التتابع المنطقي. وفي الوقت نفسه وضع  
نظريته المنطقية الخاصة التي أسماها بـ المنطق المركب، وتنطلق من فهم خاص لمادة  
المنطق ذاتها.

---

(٢) "المشكلات الفلسفية في المنطق المتعدد الدلالة" (نال عليه درجة دكتوراه دولة عام ١٩٦٠)؛ "منطق الأقوال  
ونظرية الاستنتاج" ١٩٦٢؛ "أسس النظرية المنطقية للمعارف العلمية" ١٩٦٧؛ "المنطق المركب" ١٩٧٠؛  
"منطق العلم" ١٩٧٢؛ "الفيزياء المنطقية" ١٩٧٤؛ "القواعد المنطقية في اللغة" ١٩٧٥ (بالاشتراك مع هـ.  
فيسل باللغة الألمانية).

ويرى زينوفيف أن علاقة المنطق باللغة تنحصر في واحدة من صفاتها فقط، أي من حيث هي نظامٌ علاماتٍ مصنوعٌ ومنفصلٌ عن جسم الإنسان، غايته تسجيلُ المعارف، وحفظها، وتناقلها، وتطويرها. والمنطق يُبرزُ باللغة مكونات بنية المعارف، فيُخضعها لعملية صقل خاصة، ويحدّد قواعد استعمالها. وقد رفض زينوفيف الاستعاضة عن المنطق بجهاز المفاهيم الرياضية، وشدد على إعادة الاستقلال للمنطق كعلمٍ مميزٍ تقوم عليه العلوم الأخرى جميعها، بما فيها الرياضيات. وصاغ مبدأً أساسياً ينفي أن يكون أمام العلم مسائلٌ عصيةٌ على الحل بسبب المنطق. وعموماً، كان إصلاحه المنطق يهدف إلى إعادة النظر في أسسه بطريقة تخدم أهداف العلوم الإمبريقية.

على أن المنجزات التي حققها زينوفيف، والاعتراف العالمي به كمنطقيٍّ، جرّت عليه كثيراً من المتاعب في عمله، وعقدت علاقاته مع زملائه والمسؤولين الأكاديميين الذين اتصف موقفهم بالغيرة من نجاحاته. وكان ذلك حافزاً مباشراً دفعه لتغيير موضوع إبداعه، وبمعنى ما مجمل طيف هذا الإبداع.

في عام ١٩٧٦ أصدرت دار النشر السويسرية "L'AGE D' HOME" كتاب زينوفيف "الأعلى السحيفة" الذي كتبه وأرسله إلى الغرب سراً، فكان هذا الكتاب إيذاناً باتجاه جديد في جهود زينوفيف الفكرية، وانعطافة حادة في مصيره الشخصي. وقد حظى هذا الكتاب بشهرة عالمية، وترجم إلى أكثر من عشرين لغة. ويضعه بعض النقاد في عداد أفضل عشر روايات في القرن العشرين. ونظراً إلى سعة هذا العمل الأدبي ونفاذه إلى عمق الحياة، قارن كثيرون زينوفيف بكبار أساتذة السخرية الفنية العالميين، أمثال رابليه، وسويفت، وسلطيكوف شدرين. وكتاب "الأعلى السحيفة" بحث نقدي في النظام الاجتماعي السوفيتي، صاغه زينوفيف في قالب أدبيٍّ، وتلقاه القراء والنقاد عبر منظور المواجهة الإيديولوجية إبان الحرب الباردة، فألصقت بشخص زينوفيف دمغة معاداة الشيوعية. وكان أن طرد من عمله، وأبعد من بلده، وجرد من جنسيته ومن ألقابه ومناصبه العلمية وأوسمته الحربية جميعها. وضرب



في الاتحاد السوفيتي حول اسمه ستار من الصمت المطبق، فحُظر على الباحثين حتى الاستشهاد بأعماله في مجال المنطق. وأوصدت أبواب الأرشيف على هذه الأعمال في مكتبات البلاد.

أمضى زينوفيف الفترة الممتدة من عام ١٩٧٨ وحتى عام ١٩٩٩ في المهجر، في مدينة ميونيخ الألمانية، دون عمل ثابت، أو مورد للرزق. وتقل كثيراً بين بلدان العالم مشاركاً في المؤتمرات، ومحاضراً في الجامعات، ومُحاوراً لكبار الكتاب والمفكرين والسياسيين. وواصل خلال تلك السنوات تحليل المجتمع السوفيتي تحليلاً علمياً أدبياً في رواياته وقصصه، وهي: "المستقبل الوضاء" عام ١٩٧٨، و"على مشارف الجنة" عام ١٩٧٩، و"يوميات حارس ليلي" عام ١٩٧٩، و"البيت الأصفر" (جزءان) عام ١٩٨٠، و"هومو سوفيتيكوس" عام ١٩٨٢، و"بارا بيلوم" عام ١٩٨٢، و"تحليق صيبانا" عام ١٩٨٣، وأصدر زينوفيف عام ١٩٨٠ عملاً فكرياً، هو "الشيوعية واقعاً"، نال عليه جائزة ألكسيس دي توكفيل، بتزكية من عالم الاجتماع الفرنسي الشهير ريمون أرون. وفي الوقت نفسه نشر زينوفيف العديد من المقالات، والمدخلات، والمحاضرات، والحوارات العلمية الاجتماعية التي صوب وطور فيها مواقفه النظرية والاجتماعية السياسية. وقد نشر قسماً منها في ثلاث مجموعات هي "بلا أوهام" عام ١٩٧٩، و"نحن والغرب" عام ١٩٨١، و"لا حرية، لا مساواة، لا إخاء" عام ١٩٨٣.

سادت في علم الاجتماع السوفيتي الرسمي نظرة إلى المجتمع القائم واقعياً محكومةً بجملة الخطاطات الماركسية، وتحدد درجة شيوعية المجتمع بمدى تطابقها مع هذه الخطاطات. أما زينوفيف فكان يرى أن مجتمع النمط السوفيتي هو الشيوعية في الواقع، ولا شيوعية غيرها، بل ويستحيل وجود شيوعية غيرها. وانتقد، من وجهة النظر هذه، تصورات الماركسية عن الشيوعية. وعدّ هذه التصورات إيديولوجيا دنيوية، وإن كانت متقنة الصنع، مهمتها سترُ جوهر النظام الاجتماعي الجديد من أجل ترسيخه وبقائه. أمّا ما كان يُدرج في خانة السمات والشروط اللازمة للرأسمالية تاريخياً، وينبغي القضاء عليها مع الرأسمالية نفسها، كالظلم الاقتصادي والاجتماعي،

والطبقات، وضرورة الدولة، والنقود وغير ذلك من العوامل، بما فيها العلاقات المشوّهة بين البشر، فقد كان زينوفيف ينظر إليه على أنه فى الواقع تعبير طبيعى عن قوانين الاجتماع البشرى.

ويرى زينوفيف أن قوانين الاجتماع البشرى هى قوانين الأناىة الوجودية التى تختلف عن قوانين الفردية فى عالم الحيوان بكونها تتجلى بقدر أكبر من التفنن والحتمية، وذلك نظراً لقدرة البشر على إدراك العالم وتنظيم نشاطهم تنظيمًا عقلاًياً. ويعنى زينوفيف بقوانين الاجتماع البشرى القوانين التى تحكم قيام الجماعات البشرية الكبيرة بوظائفها. فالتزام الأفراد بهذه القوانين شرط لا بد منه لقيامهم بنشاط فعّال، بوصفهم نواتاً اجتماعية، أى أعضاء فى متّحدات اجتماعية. ويتألف المتّحد الاجتماعى من ثلاثة جوانب أساسية: عملى، وكومونالى، وإيديولوجى (فكرى)، هى ما تتصف به العلاقات بين الأفراد تبعاً لفعاليتهم العملية، وموقعهم فى البنية الاجتماعية، وتصوراتهم الذهنية. وتختلف المجتمعات فيما بينها باختلاف الموقع الذى يحتله أى من هذه الجوانب الأساسية فى علاقات العيش الإنسانى المشترك، ويغدو جانباً مهيمناً يفرض قوانينه الداخلية الخاصة التى تضى على ملامحه المميزة. لقد نشأ مجتمع النمط السوفيتى بالاعتماد بالدرجة الأولى على العلاقات الكومونالية التى تحولت فيه من قوانين اجتماعية عامة إلى قوانين داخلية خاصة تحكم قيام المجتمع الشيوعى بوظائفه. ولذلك فإن تحليل العلاقات بين الناس ضمن جماعة العمل، والعلاقات بين الجماعات فى المجتمع أمر مفصلى لفهم الشيوعية كما هى فى الواقع.

فى سياق تفحص الشيوعية كما هى فى الواقع يستخدم زينوفيف أجناس البحث المألوفة فى مجال العلوم الإنسانية، كالمقالة، والبحث، والرسالة، إلى جانب جنس جديد ابتكره خصيصاً لهذا الغرض، وهو مزيج من الأدب والعلم تجلّى فى رواياته وقصصه السوسولوجية. ويُطبّق زينوفيف فى النوع الأول معايير المنطق على اللغة التى يفكر بها الناس، ويعبرون بواسطتها عن أفكارهم (حديثاً، وقراءة، وكتابة) حول المواضيع الاجتماعية عموماً، والمجتمع الشيوعى على وجه الخصوص. وفى النوع الثانى، أى فى



رواياته وقصصه السوسولوجية، يكشف عن القوانين الداخلية المحددة، عن الآلية التي تتحكم بعمل المجتمع الشيوعي ليرسم صورته الجسمة الحية. وعندما يصف زينوفيف الشيوعية السوفيتية في رواياته يعيد تصوير جوهرها الاجتماعي الداخلى بكل جلاء، مستبعداً جميع التفاصيل غير الجوهرية بالنسبة لفهم خاصيتها الاجتماعية، سالكاً في هذه الحال سلوكَ فنان الكاريكاتير الذى يبالغ فى إظهار الملمح الأبرز فى الوجه الذى يصوره، فما البلد الذى يدعوه "إبانيا" فى رواية "الأعلى السحيفة"، والهومو سوفيتيكوس، ومعهد الإيديولوجيا فى رواية "البيت الأصفر"، إلا الاتحاد السوفيتى، والإنسان السوفيتى، وجماعة العمل السوفيتية، بعد أن أعاد زينوفيف تصوّرَها ذهنياً، ونقّأها مخبرياً على أساس دراسة هذه الظواهر دراسة علمية.

وتكمن الخصائص الجمالية التي تنطوى عليها روايات زينوفيف وقصصه السوسولوجية فى ما يلى:

أولاً: أن خط الأحداث (الحبكة) لا يلعب إلا دوراً ضئيلاً جداً، بل هو معدوم عملياً. ويستعاض عنه بحالات إنسانية متبدّلة، كما فى صندوق الفرجة.

ثانياً: لا وجود تقريباً لوصف الطبيعة، والمكان الداخلى، ولا لذكر الأحداث؛ وإنما ينصبُّ الاهتمام كله على ما بين الناس من علاقات مباشرة، وأحاديث، وتصرفات.

ثالثاً: ليس الأبطال أفراداً أحياء، بل هم تجسيد لوظائف اجتماعية معينة، وغالباً ما يكونون بلا أسماء، يُعرفون بالأدوار التي يقومون بها ("المفكر"، "الثرثار"، "المدعى"، "الأخ"... إلخ).

رابعاً: لا يمكن تقييم الأبطال والمواقف بصفة قطعية، إذ يتحد فيهم عضويًا كلُّ من الخير والشر، السامى والوضيع، البطولة والإسفاف... إلخ.

بدأت أواسطَ ثمانينيات القرن العشرين مرحلةً جديدةً فى إبداع زينوفيف، فقد غير الأولويات والنبرة فى تحليل الشيوعية السوفيتية، ووسّع أيضاً إطار المواضيع التي

يدرسها، فأتجه نحو دراسة النظام الاجتماعي في الغرب المعاصر. ويعود ذلك إلى ما بدأ يومها في الاتحاد السوفيتي من تغيرات عُرِفَت بالبيريسترويكا، وبآثارها المحتملة على العالم.

وصف زينوفيف البيريسترويكا بأنها ردٌّ غير متكافئ على أزمة النظام الشيوعي، إذ كان ينبغي أن تتوجّه الأنظار في الواقع إلى أزمة الإدارة. ولكن قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي، وعلى رأسها ميخائيل غورباتشوف، لم تعر هذه الأزمة بشكل صحيح، فرأت أنها أزمة في نمط الحياة، وأزمة النظام نفسه. وقد تنبأ زينوفيف بأن البيريسترويكا لن تفضي إلى تجديد الاشتراكية، على نحو ما جرى الترويج له رسمياً، وإنما إلى انهيارها. وحين عبّر عن موقفه من البيريسترويكا بحدّة ووضوح وصفها بـ "الكارثوسترويكا"، بمعنى أنها ستجرُّ كارثة حقيقية على البلاد ونظامها الاجتماعي. ولعل نبوءة زينوفيف هذه التي تحققت فعلاً، واحد من البراهين القاطعة على صواب تحليله الشيوعية السوفيتية. ويتضح من هذا المثال مدى الشجاعة التي كان يتحلّى بها زينوفيف في الدفاع عن مواقفه العلمية. ويجب أن ندرك أنه كان يسبح بعكس التيار عندما شكك بالأهداف التي طرحتها البيريسترويكا، وكشف منطقتها المناقضَ تماماً لما طرحته. لقد كنا جميعاً، نحن المثقفين الذين نُسمّى عادة بممثلي البشرية التقدمية، داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه، في حالة من النشوة العارمة والآمال النبيلة. أمّا صوت زينوفيف فكان يصدح خارج هذا السرب. إذ لم يكتفِ الرجل بتحديد موقفه الجديد، بل راح يعمل جاهداً على تعليل هذا الموقف، والدعوة له بكل جسارة وحمية. لقد كرّس لهذه الغاية عدداً من مؤلفاته: "الكارثوسترويكا" ١٩٨٨، و"الغورباتشوفية" ١٩٨٨، و"الفتنة" ١٩٩٤، و"التجربة الروسية" ١٩٩٤، و"روسيا ما بعد الشيوعية" ١٩٩٦.

يغلب في مؤلفات زينوفيف التي تتناول التجربة السوفيتية فهمٌ يلتزم مصلحة معينة. وقد رأى النقد والرأي العام في ذلك تغيراً في موقفه، ولكنه شخصياً كان يرى أن موقفه من الشيوعية لم يتغير، وإنما الأولويات هي ما تغيّر. وعدّ نفسه ناقداً



للشيوعية، لا معادياً لها. بل ورأى في انهيار الشيوعية خطراً مزدوجاً: أولاً، على روسيا، ليقينه بأن الشيوعية هي الشكل الأمثل للتنظيم الاجتماعي في روسيا تحديداً، نظراً لخصوصية المادة البشرية التي يمثلها الشعب الروسى (كان يعبر عن موقفه بقوله المأثور: "لقد سدّدوا على الشيوعية فأصابوا روسيا")؛ وثانياً، على العالم بأسره، وذلك بسبب انقطاع واحد من الخطين الأهم في التطور الاجتماعي الذي عرفته البشرية المعاصرة، أى الخط الذى كان يقف فى مواجهة خط الغربوية ويكمله.

باعتباره باحثاً وإنساناً، كان زينوفيف الذى تلازم، بل امتزج فى حناياه الولاء لروسيا مع الشيوعية الرومنسية، يقف أمام سؤالين ممضين: ما تلك القوة التى تسمى الغرب وسحقت الجبروت السوفيتى؟ وما المستقبل الذى تُعدّه لروسيا والعالم أجمع؟ إن دراسة الغرب المعاصر وظاهرة الغربوية (فى كتابه "الغرب" ١٩٩٥، وفى روايته السوسولوجية ذات الصلة به "وكُرُّ البشر العالمى" ١٩٩٧)، أوصلته إلى استنتاج مفاده أن الغرب شهد بعد الحرب العالمية الثانية قيام نظام اجتماعى جديد سمّاه الغربوية، يتّصف - كالشيوعية السوفيتية - بطبيعة كونية (عالمية)، وهو نظام المجتمع الخارق.

لا بد من الإشارة، قبل كل شىء، إلى أن الغرب والغربوية لا يعنيان الشىء نفسه. ذلك أن الغرب موضوع إمبريقى وحيد وفريد من نوعه، واسم يدلّ على شعوب ومجتمعات معينة، هى الشعوب والمجتمعات الأوروبية الغربية بالدرجة الأولى، أى إنكلترا، وفرنسا، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها. أما الغربوية فهى النظام الاجتماعى الذى تكوّن فى هذا الغرب خلال النصف الثانى من القرن العشرين. ويعتقد زينوفيف أن مفهومي الرأسمالية والديمقراطية اللذين كثيراً ما يُستخدمان للدلالة على الأساس الاقتصادى والنظام السياسى فى البلدان الغربية، واللذين يقدّسهما ويرعاهما الإيديولوجيون فى هذه البلدان، لا يعبران عن جوهر العلاقات الاجتماعية السائدة هناك. والحقيقة هى أن الغربوية نظام يضمن وضعاً سيادياً للشرائح "الطفيلية" المتحررة من القيام مباشرة بإنتاج القيم والخدمات المادية. ويرتكز هذا النظام من

الناحية الاجتماعية الاقتصادية على العمل الحرّ (البنس) الذي لا يرتبط حتماً بالملكية الخاصة، أما من الناحية الاجتماعية السياسية فهو يرتكز على أساليب غير ديمقراطية في السلطة، وعلى استخدام الديمقراطية وسيلة للتلاعب بال جماهير، ولستر الطرق غير الديمقراطية الفعلية في الإدارة. ثم إن الغربوية بوصفها شكلاً للمجتمع الخارق، ومرحلةً نوعية جديدة في تطور البشرية، تهدف - موضوعياً وبجوهرها نفسه، وليس فقط بحكم مبادئها الذاتية - إلى ضمان سيادة الغرب في العالم أجمع، بل وعلى العالم أجمع.

ويكلام أكثر تحديداً، إن المادة البشرية التي ترتكز عليها الغربوية تتصف بالتشديد على الفردية، فالـ "أنا" عند الأفراد أبناء الغربوية تعلو على الـ "نحن". وهم يتّصفون أيضاً بقدرة متطورة على التنظيم الذاتي. والخلايا الأولية التي يتّحدون فيها، بغضّ النظر عما إذا كانت تنشأ بقرار من السلطة أم عفويًا، تتمتع بطابع عقلائي، وظيفي إلى آخر درجة: إنها منقاة إلى أقصى حدّ ممكن من "شوائب" العلاقات التي تقوم على العاطفة والصداقة، وغيرها من العلاقات غير العملية. إن التنظيم الاجتماعي في المجتمعات الغربية، أي ما يشكل بناها الكبرى (Macro-structures) يتصف بغلبة الجانب العملي المتمثل بالدرجة الأولى في الاقتصاد، على الجانب الكومونالي الذي يتجسد أساساً في مؤسسة الدولة. على أن الاقتصاد والدولة كليهما يكتسبان صفة نوعية جديدة، وينتقلان إلى مستوى جديد نوعياً، يسميه زينوفيف المستوى الاقتصادي الخارق، والحكومي الخارق. أمّا المستوى البنيوي الأعلى (super-structural) في المجتمعات الغربوية، أي علاقاتها بالشعوب والبلدان غير الغربية، فإنه - بتعبير زينوفيف - توسعياً محض. والحديث هنا لا يدور حول تقييم أخلاقي أو حقوقي، بل حول أن الغربوية تجتذب إلى مدارها باقي الشعوب والبلدان الأخرى كافة، كأطرافٍ مختلفة المستويات بالنسبة إلى المركز الغربي.

واليكم باختصار شديد، وبمصطلحات المؤلف نفسه، جوهر نظريته عن الغربوية. لقد نشأت الغربوية في خضمّ الصراع ضد الشيوعية، وحققت سيادتها بعد انتصار



الغرب فى هذا الصراع. على أن هزيمة الشيوعية تفتح أمام الغربية الطريق للهيمنة على العالم، وإقامة بنية هرمية للبشرية تجعل الغرب مركزاً مميّزاً تتوضع حوله الشعوب الأخرى على شكل أحزمة اجتماعية أدنى منه مرتبة، ومتصارعة فيما بينها من أجل التقرب منه. وجوهر المسألة هنا لا ينحصر فى السيادة بالمعنى التقليدى، ولا فى مصادر جديدة للطاقة، أو فى استغلال الأيدي العاملة الرخيصة... إلخ، بل فى السيطرة على عملية التطور نفسها، وإعطائها طابعاً غريباً لا مردّ له. ويرى زينوفيف أن مفاهيم الغربية westernisation، والأمركة، والعولمة هى وصف لعلمية واحدة فى الواقع.

اشتقّ زينوفيف مصطلح "الغربية" من كلمة "الغرب"، على غرار مصطلح "الماركسية" المشتق من اسم ماركس، مثلاً. وبهذا المصطلح القريب نطقاً بالروسية من لفظة "مصيدة"<sup>(١)</sup> كان زينوفيف يؤكد أن انتصار الغربية على صعيد العالم قد ينقلب إلى مصيدة حقيقية للبشرية. إن أبحاث زينوفيف السوسولوجية تتصف بطابع انتقادى بارز لا يمكن عدّها أبحاثاً بدونه. غير أن النقد ليس عداوة. ويرى كثيرون فى نظرية زينوفيف حول الغربية موقفاً معادياً للغرب، على غرار تفسير تحليله للشيوعية أيضاً على أنه عداة للشيوعية. وكلا الموقفين خاطئان. إذ يتلخّص جوهر موقفه فى أن الخطر يكمن فى عدم وجود خطوط تطور بديلة، وفى تشييد عالم وحيد القطب. ويذهب زينوفيف أبعد من ذلك فيرى أن القوى القادرة على التصدى للغربية وانتشار البشرية من المخاطر المميتة الملزمة لها قد تظهر على الأرجح فى الغرب تحديداً.

وفى خلاصة دراساته حول الشيوعية والغربية والصراع بينهما، أعطى زينوفيف لتصوراته السوسولوجية شكلاً منظماً، وأضاف إليها مفاهيم جديدة عن وكر النمل البشرى، وما قبل المجتمع، والمجتمع، والمجتمع الأعلى Super-Society انظر كتابه "فى

---

(١) كلمة الغرب بالروسية (زابد)، والمصيدة (زابدنيا). - م.

الطريق إلى المجتمع الأعلى" (٢٠٠١). إن أنماط المتحدات البشرية، كالشيوعية والغربية، تختلف فيما بينها من حيث طابع التنظيم الاجتماعي، ودرجة التكافؤ مع المادة البشرية، وليس من حيث معيار التقدمية. إن سوسولوجيا زينوفيف لا تعرف أحكاماً قيمية من هذا النوع، وترفض التاريخانية Historism كمبدأً منهجياً لمعرفة المجتمع. وينظر زينوفيف إلى انتصار الغربية على الشيوعية في الحرب الباردة على أنه هزيمة تاريخية عالمية منيت بها روسيا، وخطرٌ على البشرية جمعاء، ولكن ذلك لا يعنى البتة أنه يعدّ انتصار الشيوعية السوفيتية وانتشار تأثيرها على العالم بأسره كان الحل الأفضل والمحبذ لو تحقق. بل هو يعتقد بأن هذا السيناريو لو نجح لكان أسوأ بكثير.

أعيدت الجنسية لزينوفيف في العام ١٩٩٠، وبذلك بات بإمكان مواطنيه أن يطلعوا على مؤلفاته. وفي العام ١٩٩٩ عاد إلى وطنه وأقام في موسكو، وعمل أستاذاً في جامعة م. ف. لومونوسوف الحكومية بموسكو، ودرّس في مؤسسات جامعية أخرى في البلاد، واستأنف عمله في معهد الفلسفة التابع لأكاديمية العلوم الروسية، وشارك مشاركة نشطة في الحياة الاجتماعية السياسية ككاتب، وخبير، وشخصية اجتماعية مرموقة، وخاصة في الأوساط ذات التوجهات اليسارية. وقد تأسس في جامعة موسكو للعلوم الإنسانية مركز للبحث العلمي سُمي باسمه. وجرت بمشاركته وحوله أحداث مختلفة كبيرة الأهمية من الناحية الاجتماعية (مؤتمرات، معارض، محاضرات... إلخ). فقد اتخذ زينوفيف موقفاً انتقادياً من النظام الاجتماعي الذي نشأ في روسيا بعد العام ١٩٩١، وكان يعدّه كياناً ثانوياً يمثّل مزيجاً من الاستعارات الغربية، والموروث السوفيتي، وعناصر الماضي القيصري (انظر كتابيه: "إيديولوجيا حزب المستقبل" ٢٠٠٣، و"مفترق الطرق" ٢٠٠٥). وفي هذه السنوات استأنف أيضاً اهتمامه بالمسائل الفلسفية الأخلاقية، والفلسفية المنهجية.

في العام ٢٠٠٣ أعيد إصدار قصّته السوسولوجيتين "سرّ إلى الجلجلة" ١٩٨٥، و"عش" ١٩٨٨، وكذلك ملحمته: "إنجيل لإيفان" ١٩٨٤، و"دارى هي غربتى" ١٩٨٣،



يعرض زينوفيف في هذه الأعمال، وفي سيرته الذاتية بعنوان "اعتراف منشق" (طبعة أخيرة، مزيدة، ٢٠٠٥) برنامج الأخلاق المعيارى، الذى سماه تعاليم العيش أو "الزينوفيوغا". ويعتقد زينوفيف بأن الطريقة العلمية لمعرفة المجتمع تكمن فى التعاطى معه بالموضوعية والحيادية اللتين يدرس بهما خبير بعالم الحيوان وكر النمل من غير أن يقترح أية مشاريع لترتيبه على نحو أكثر عقلانية. إن تحسين المجتمع بالمعنى الذى طرحته الماركسية وسواها من الإيديولوجيات والطوباويات أمر مستحيل أساساً. يقول زينوفيف إن الشيوعية مستحيلة بالمعنى الاجتماعى، أى كمجتمع خال من التناحرات الاجتماعية، ولكن ذلك لا يعنى أنها مستحيلة كموقف شخصى. لقد كان يعدّ المثال الشيوعى أفضل اختراعات البشرية. فالإنسان عاجز عن فعل أى شىء فى مواجهة المجتمع وقوانين الاجتماع البشرى القاسية. ولكن ذلك لا يعنى أنه عاجز عن فعل أى شىء بحياته الشخصية. فهو قادر على فعل شىء، لكن فقط بمقدار ما يقف فى وجه قوانين الاجتماع البشرى، فى وجه اجتماعية الإنسان<sup>(٤)</sup>، ذلك أنه لا مكان فى فضاء الاجتماع البشرى. لحرية الإنسان والأخلاق التى ظهرت: أولاً، كأداة لوجود شخصية متفردة؛ وثانياً، خارج حدود الاجتماع البشرى، ويمنأى عن قوانينه. هذه هى المقدمات التى تنبنى عليها نظرية العيش. ويقصد زينوفيف بالنأى عن الاجتماع البشرى تلك المواجهة النشطة لقوانينه الوحشية. إن نظرية العيش تبين كيف يكون المرء ذاتاً، شخصية، رغم كل شىء، كيف يحقق ذلك وسط سفالة الوجود، فى ظروف عريضة الجماعية والكومونالية، "كيف يكون قديساً دون أن يقلع عن ارتكاب الذنوب". إن اجتماعية الإنسان وأخلاقه فى منظور زينوفيف أمران مترابطان فى تضادهما. فاجتماعيته تجعل الأخلاق نسبية من أجل تسهيل الانتقال من الخير إلى الشر وبالعكس، مستفيدة من هذين المفهومين لخدمة الأنانية الوجودية، وإلا تعذر عدّها شكلاً

(٤) نستخدم تعبيرى "الاجتماع البشرى" و "اجتماعية الإنسان" كمرادفين، ترجمة لمفهوم واحد يشير إلى كون الإنسان كائناً اجتماعياً، إلى اجتماعيته. - م.

ونتيجة للنشاط البشرى، إن الأخلاق، كما يفهما زينوفيف، تعلّم العيش فى مقطع من الوجود يفقد فيه مفهوما الخير والشر معناهما، فهى موجودة كنفى لاجتماعية الإنسان فى إطار اجتماعيته نفسها، وليس لها أى وجود مادى غير هذا النفسى.

قبل أسابيع من وفاته أنجز زينوفيف كتابه الأخير "عامل الفهم" الذى صدر عام ٢٠٠٦، بعد رحيله. وقد أجمل فى هذا الكتاب خلاصة حياته، وعرض نظرتة إلى العالم عبر وحدة الجوانب الفلسفية المنهجية، والمنطقية، والسوسيولوجية، والأخلاقية.

لقد عبّر زينوفيف عن فهمه العالم فى إبداعاته الشعرية، والتشكيلية أيضاً. فقصاصه، فضلاً عن ملحمتيه المذكورتين أعلاه، كثيراً ما تتخلل أعماله النثرية السوسيولوجية. وقد ظلّ، كفنّان تشكلى، غير مشهور على نطاق واسع، رغم عرض لوحاته فى عدد من المعارض التى أقامها فى موسكو، وجنيف ومدن أخرى، وصدر عدة ألبومات تضم أعماله. ولم يبق إلا جزء يسير من لوحاته ورسومه لدى أسرته، أما أغلبها فقد أهداه لأصدقائه ومعارفه، أو ضاع فى أثناء تنقلاته الاضطرارية، وبات مجهول المصير.

لم تصدر حتى اليوم طبعة لأعمال زينوفيف الكاملة، ولا يزال كثير من محاضراته، ومقالاته، ومدخلاته، ومقابلاته غير مدرج فى المراجع البيبلوغرافية عنه. وبالرغم من صدور عدة كتب وأعمال مشتركة عن زينوفيف وإبداعاته، بالإضافة إلى عدد كبير من المقالات التحليلية، والكتابات التعريفية والنقدية، تظل الحاجة قائمة إلى دراسة منهجية عميقة نأمل أن تظهر فى المستقبل.

توفى زينوفيف فى موسكو يوم العاشر من أيار/ مايو عام ٢٠٠٦. وبناء على وصيته نُثر جزء من رُفاته فوق الأرض التى كانت تقوم عليها يوماً قريته التى اندثرت وأصبحت الآن أثراً بعد عين؛ بينما وُرى الجزء الباقى من رُفاته الثرى فى مقبرة نوفوديفيتشى بموسكو. وفى الذكرى الأولى لرحيله أقامت أسرته على قبره نصباً نُقشت عليه كلمتان للتعريف بشخصيته: "مفكر ومواطن".

موسكو ٢٦ / ١ / ٢٠٠٩

## مقدمة الطبعة الروسية بقلم المؤلف

يعرّف النظام الاجتماعي في البلدان الغربية حتى الآن بأنه الرأسمالية من حيث أساسه الاقتصادي؛ والديمقراطية من حيث نظامه السياسي. وأعتقد أن هذا التعريف لا ينسجم مع الواقع. على أنني باعتقادي هذا لا أعني أن الغرب لم تعد فيه رأسمالية ولا ديمقراطية (فهما موجودتان فيه وبوفرة)، بل ما أعنيه هو أن النظام الاجتماعي الفعلي في البلدان الغربية لا يمكن اختزاله في الرأسمالية، ولا في الديمقراطية. ذلك أن في الشكل الذي اتخذته هاتان الظاهرتان والمكانة التي تشغلانها ما يجعل النظر إليهما وكأنهما الركنان الأساسيان اللذان يقوم عليهما النظام الاجتماعي الغربي تجاهلاً للجوهر الحقيقي لهذا النظام، واهتداءً بفهم له متحيزٍ إيديولوجياً، وباطلٍ في نهاية المطاف.

إنني أطلق على النظام الاجتماعي في البلدان الغربية مصطلح "الغربوية" *Westernism*، دون أن أضمن هذه الكلمة أي معنى آخر سوى أنها ليست تسمية للبلدان الغربية عامة، وإنما لنظامها الاجتماعي فقط. أما ماهية هذا النظام فمسألة ينبغي أن يكشف عنها البحث العلمي النزيه.

لقد توصلتُ - نتيجة تحليلي للغربوية - إلى خلاصات يمكن إيجازها بنقطتين. فمن وجهة النظر الاجتماعية الاقتصادية تسعى الغربوية إلى إيجاد أماكن عملٍ ومداخلٍ مضمونة لمن يمارسون أنواعاً من النشاط ليست هي بحد ذاتها المنتج المباشر للأشياء والخدمات المادية. وتسعى الغربوية أيضاً إلى زيادة قوة العمل الحر بوصفه الوسيلة الأكثر فعالية لإرغام الناس على ممارسة العمل وزيادة إنتاجيته. على أن الأعمال الحرة ليست بالضرورة مرتبطة بالملكية الخاصة. إذ يمكن أن يظل العمل



حرّاً حتّى عندما لا يبقى فى مجال العمل مالك خاصّ واحد تعود له ملكية المنشأة قانونياً، وفى المجال الاجتماعى السياسى تسعى الغربية إلى تشديد الجانب اللاديمقراطى فى نظام السلطة والإدارة، وإلى تقوية دور الدولة، وتأصيل العناصر غير الديمقراطية فى نظام السلطة، وتحويل الديمقراطية إلى وسيلة للتلاعب بال جماهير، وقناع يحجب الجانب الشمولى فيها.

إن تطوّر الغربية فى كلتا هاتين النقطتين، فى هذين المجالين الأساسيين من مجالات النظام الاجتماعى، يسير فى اتجاه التقريب بين المجتمع الغربى والمجتمع الشيوعى. وكان المنظرون الغربيون، لا الشيوعيون، هم الذين طرحوا نظرية التحول، أى التقارب بين هذين النظامين. وبعد إنزال الهزيمة بالشيوعية فى "الشرق" انطلق الغرب نفسه فى ذلك الاتجاه، وإن بطرقه الخاصة التى تصفها الإيديولوجيا والدعاية بأنها طرق ديمقراطية. وكان الغرب كان يستشيط غضباً على الروس "المتوحّشين"، ليس بسبب الشيوعية، وإنما لأنهم سبقوه فى هذا المجال وأقاموا شيوعية على الطريقة الروسية، أى بشكل غير صحيح، اعتباراً، ليس وفق الطريقة الغربية.

صهنيغ ١٩٩٣

## عرضٌ مفاجئٌ

دهشتُ عندما عَرَضَ عليَّ أحدُ الناشرين الفرنسيين أن أضع كتاباً عن الغرب. ومصدر دهشتي أن هناك آلافاً من الكتب التي تتحدث عن الغرب، فلمْ إضافة كتاب آخر إلى هذا اليمِّ الزاخر بالكتب؟ لم يسبق لي أبداً أن قمت بدراسة الغرب دراسة خاصة منهجية، وتجربتي الحياتية في الغرب كانت محدودة جداً. بالطبع، لقد زرت العديد من البلدان الغربية، والتقيت هناك شتى ضروب الناس، واستمعت للإذاعات، وشاهدت بزامج تلفزيونية، وقرأت الصحف والمجلات والكتب... ولكن ذلك كله كان على نحوٍ عشوائيٍّ وعَرَضيٍّ، دون أن يكون عندي أيُّ نيةٍ لجمع المعلومات وتصنيفها بقصد وضع كتاب عن الغرب.

بُحْتُ لجليسى بما جال في خاطري، فقال إنه لم يكن ينتظر مني جواباً آخر غير ما أقول، وأن ما يبغيه مني ليس دليلاً سياحياً عن بلدان الغرب، ولا كتاباً مدرسياً، بل تسجيل ما تكوّن لديّ من انطباعات عن الغرب خلال سنوات إقامتي فيه<sup>(٥)</sup> لأنني إذا ما ربّبت تلك الانطباعات على نحوٍ ممنهج، قد ينتج عنها كتاب يحظى باهتمام القارئ الغربي. وأضاف أنني، بصفتي مراقباً محايداً، أستطيع، فضلاً عن ذلك، أن أسلّط الضوء على ما يتجاهله المراقبون الغربيون في نمط الحياة الغربي، أو أن أقدم فهمي لبعض ظواهرته المعروفة، أو سواها. وأن مثل هذه الحالات موجودة في التاريخ. فقد

---

(٥) عبّرت عنها في كتيبي: "نحن والغرب" (١٩٨١)، و"لا حرية، ولا مساواة، ولا إخاء" (١٩٨٣)، و"هومو سوفيتيكوس" (١٩٨٢)، و"بارابيلوم"، و"اعترافات منشق" (١٩٩٠).

رأى ألكسيس دي توكفيل<sup>(٦)</sup>، على سبيل المثال، خلال إقامته القصيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، أكثر مما كان يراه الأمريكيون أنفسهم، حتى صار مؤسس نظرية الديمقراطية الحديثة في أوروبا الغربية.

اعترضتُ على ذلك قائلاً إن الديمقراطية التي اكتشفها توكفيل في أمريكا تعيش انتصاراتها منذ زمن بعيد في العديد من بلدان العالم. وعددٌ من يعرفونها حقَّ المعرفة يقدرُ بالملايين. ثم إنه ليس هناك حاجة لأن أُغريَ بها أبناء جلدتي الروس، إذ إنهم تحوّلوا إلى ضربٍ ضارٍ من التوكفيلية بتصوّرهم أن الغرب هو تلك الجنة الأرضية من الرفاهية والوفرة التي كانت تبشّرهم بها الإيديولوجيا الشيوعية والقادة الشيوعيون، وأن أية محاولة للحديث عن الغرب من وجهة نظر الحسّ السليم ستبدو في نظرهم دعايةً شيوعيةً، أو أنهم سيتجاهلونّها عموماً.

استمهلت جليسى ريثما يتسنّى لي التفكيرُ بما عرضه عليّ. وبعد ذلك كنت كُما أمعنت التفكير بالعرض خيلاً إليّ أن المهمة أضخمُ مما تبدو، وأن قدراتي على أدائها أكثر ضآلة. حتى إنني كنت على وشك الرفض. ولكن الوضع في روسيا كان قد وصل آنذاك إلى مرحلة أضحت معها جميعُ الاعتبارات في المقام الثاني. وغداً جلياً أن وطني قد مُني بالهزيمة في "الحرب الباردة" مع الغرب، ووضع قدميه على طريق الاستسلام المشين، وعقد العزم على تبني النماذج الغربية من غير ما تفكير. كانت أسئلةٌ ممضّة عديدة تهبُّ في وجهي بإلحاح متزايد. فما هذه الظاهرة التي تسمي "الغرب"، وكيف تمكّنت من إنزال تلك الضربة القاصمة بدولة عظمى جبّارة دون أن تُطلق رصاصة واحدة؟ أين يكمن مصدر قوتها؟ وما آفاق تطور البشرية، تأسيساً على هذا المآل الذي ألت إليه معركة الغرب التاريخية ضد الشيوعية؟ وهل هذا انتصار حاسم ونهائي حقاً؟ هل الغرب هو، بالفعل، كما تُصوّره الدعاية الغربية المزهوة

---

(6) Alexis de Tocqueville. Democratia en Amerique. 1835.



بنفسها، والدعاية الروسية الموالية للغرب؟ وما الذى تحمله فى واقع الأمر هيمنة الغرب العالمية لبقية بنى البشر؟ لم يكن بوسعى الفرار من مواجهة هذا النوع من الأسئلة، فقبلت العرض.

من السخف أن أعكف على دراسة الغرب دراسة منهجية، كما كنت سأفعل لو عزمت على ذلك قبل ثلاثين أو أربعين سنة خلت. لقد بات لزاماً عليّ الآن، خلال المهلة القصيرة التى منحت لى من أجل إنجاز الكتاب، وفى لجة قضايا ملحة لا تؤجل، وبإمكانات زهيدة... أن أقدم شيئاً لا يكون مبعث خجل فى ما تبقى لى من سنوات عمرى. وهنا خطرت ببالى المبادئ المعرفية التى اكتشفتها لنفسى أيام صباى، عندما بدأت بدراسة المجتمع السوفيتى خفية، بمفردى، وفى ظروف لم تكن تشجع أبداً على ممارسة العلم بجدية.

إننى أورد هنا، على سبيل المثال، اثنين من هذه المبادئ. ينص الأول منهما على أن أى كمية من المعلومات، حتى ولو أخذت بشكل عشوائى، لا بد أن تتضمن كل ما هو ضرورى لفهم جوهر موضوع البحث الاجتماعى، شريطة أن تكون على قدر كافٍ من الاتساع، وعلى صلة بهذا الموضوع. ويقول المبدأ الثانى إن أعمق خفايا ظواهر المجتمع الأساسية ليست مخبأة فى مكان ما من أقبية البناء الاجتماعى، ووراء كواليس المسرح السياسى، وفى المؤسسات والمكاتب السرية لجبايرة هذا العالم، بل إنها ماثلة أمام الرؤية الشاملة فى ما هو جلى من وقائع الحياة اليومية. غير أن الناس لا يرونها، وذلك لسبب رئيس هو أنهم لا يريدون أن يرووها، ولا أن يعترفوا بأنها شىء جدير بالاهتمام. أما المؤلفات المثيرة التى تفضح بعض ما يحرك الحياة الاجتماعية وتاريخ البشرية من دوافع سرية وخفية، فإنها لم تقدم اكتشافاً علمياً جدياً واحداً. وهى، على العموم، لا تتضمن من الحقيقة ما يتجاوز قدرة الحس السليم على ملاحظته فى شئون الحياة اليومية الشديدة الاعتيادية.

استرشاداً بهذه المبادئ قررت أن أواصل استكشاف الغرب على ذلك النحو من العشوائية، كما سبق لى أن كنت أفعل فى الماضى، وأن أركز جهودى على تأمل

الظواهر الشائعة التي يستطيع المراقب العادي إدراكها. إن الأسماء، ومصادر المعلومات، والوقائع التي سيجدها القارئ في كتابي هذا، هي ما طفا على سطح الذاكرة من معارف الماضي، أو ما وقع تحت يدي أثناء العمل على إنجاز هذا الكتاب. وهي ليست ذخيرة احتراف علمية جرت مراكمتها على مدى سنوات. وإنني، في نهاية المطاف، لا أهيّب. بالقارئ أن يعدّ هذا الكتاب نظرية ناجزة عن المجتمع الغربي؛ فهو لا يعدو كونه عرضاً لتلك المبادئ والأفكار التي كنت سأسترشد بها فيما لو توفرت لديّ الإمكانيات والوقت والنية من أجل بناء مثل هذه النظرية. إنه، بكلمة أخرى، عرضٌ للطريقة التي فهمتُ بها الغرب.

## المعرفة والفهم

أن تعرف شيئاً عن مجتمع ما، وأن تفهم ذلك المجتمع، أمران بعيدان عن أن يكونا متطابقين. إذ يمكن للمرء أن يعرف الكثير من غير أن يفهم إلا القليل. إلا أن عدد من يظنون أنفسهم خبراء في فهم مجتمعهم، بناءً على أنهم يعرفون شيئاً عنه وحسب، أكبر مما هو في أي مجالٍ آخر من مجالات المعرفة. ذلك أن كل من يتمتع بتجربة حياتية في مجتمع معين يعدُّ نفسه ضليعاً بمعرفته، ويخيّل إليه أنه ما من شيء أكثر يسراً من فهم الظواهر التي يراها بعينيه، ويعيش بينها، ويشارك فيها، ويصنعها بنفسه. أما من كان منهم يشغل مكانة رفيعة في المجتمع، ويتمتع بإمكانية التعبير عن رأيه في المواضيع الاجتماعية علانية، فيعدّون أنفسهم، ويعدّهم الآخرون، خبراء في هذه الأمور من طراز رفيع. وحتى الممثلون، والرياضيون يطلقون الآراء في المواضيع الاجتماعية على نحوٍ من العجرفة، وكأنهم محترفون في دراستها. على أن فهم المجتمع لا يتأتى ألياً عن طريق التجربة الحياتية في هذا المجتمع، ومراقبة بعض ظواهره، ولا عن طريق مراكمة معطيات معينة عنه. فالأغلبية الساحقة من الناس يُمضون حياتهم من غير أن يفهموا المجتمع الذي يعيشون فيه، بل وحتى من غير أن يحاولوا ذلك. هذا ما كان على الدوام، وهذا ما سيكون، ما دامت البشرية على قيد الحياة. والحال، أن مئات الملايين من

البشر يعيشون في بلدان الغرب، ويتقنون العيش فيها، ويوسعهم أن يحكوا الكثير عنها. ولكننا لو أجرينا اختباراً لمعرفة الكيفية التي يفهمون بها مجتمعهم لأمكننا التحقق من أن أغلبيتهم الساحقة لا تختلف بشيء في هذا المجال عن متوحشى الماضى السحيق.

صحيح أن ملايين البشر يتعلمون ويتقنون العيش في مجتمعاتهم. ولكن إتقان العيش في المجتمع، وإتقان فهمه، ليسا أمرين مختلفين وحسب، بل وينفى أحدهما الآخر، بقدر ما. ذلك أن البارعين في إتقان العيش في المجتمع (من وصوليين، ورجال أعمال، وشطّار، ومحتالين) يكونون في العادة بلهاء في فهمه، بينما يكون من يفهم مجتمعه (وهو أمر نادر للغاية)، كقاعدة عامة، لا يُجيد التكيف مع الحياة العملية في هذا المجتمع.

يتوقّف فهم هذا المجتمع أو ذاك على كثير من العوامل، بما في ذلك المبادئ المنهجية التي يسترشد بها الباحث. وهذه المبادئ هي التي تتحكّم بـ/ وتحدّد ما يلتفت إليه الباحث بالضبط في المجتمع الذي يدرسه، وكيف يفسّر ما يلتفت إليه. على أن الغرب لم يشك من نقص في المذاهب والنظريات الفلسفية العامة، ولا السوسيوولوجية العامة. ولكنني، من بين كل ما تسنّى لي معرفته حول هذا الموضوع، لا أستطيع أن أوافق إلا على بعض من آراء عدد من المؤلفين. علماً بأنني لا أتبنى أيّاً من هذه المذاهب والنظريات تبنيّاً كاملاً.

لقد احترفتُ العملَ سنواتٍ عديدةً في مجال المنطق ومناهج العلوم، وصغتُ منظوري المنطقيّ الفلسفيّ الذي يستطيع القارئ المهتمُّ أن يطّلع عليه من خلال ما نشرته من أعمال<sup>(٧)</sup>.

---

(٧) يجد القارئ أسس منهجية العلوم التي صغتها في اثنتين من كتبي، هما: "أسس النظرية المنطقية للمعارف العلمية" (١٩٦٧)، و"الفيزياء المنطقية" (١٩٧٢)، وغيرهما.



كما قُدِّرَ لى ذات حين أن أُطَّلِعَ فى مجال السوسىولوجيا على أعمال مؤلِّفين، منهم أوغست كونت، وف. تينيس، وغ. زيمل، وإ. دوركهايم، و ه. سبنسر، وف. باريتو، وم. فيبر، وت. فيبلن وكثيرين غيرهم. ومن نافل القول إننى درست نظرية المجتمع الماركسية دراسة وافية.

لقد كنت وما أزال أقدرُ حقَّ التقدير كلاً من هذه النظريات، ولكن ليس إلى الدرجة التى تجعلنى واحداً من أتباع أى منها. وقد صغتُ لِنَفْسِي "السوسىولوجيا العامة" التى تخصُّنى، وبوسع القارئ المهتم أن يطَّلِعَ على ما تتضمنه من أفكار ومبادئ فى أعمالى السوسىولوجية والأدبية عن المجتمع الشيوعى<sup>(٨)</sup>.

تناول العديد من المفكرين المجتمع البشرى بوصفه كياناً عضوياً (Organism). إذ يمكن العثور على مثل هذه الفكرة عند فيكو. وقد عمل فى روسيا على بلورة فكرةٍ مماثلةٍ كلُّ من ن. يا. دانيليفسكى، وف. كلوتشيفسكى. وفى القرن العشرين درس شبنغلر، وبعده توينبى، تاريخ البشرية كمجموعة من الكائنات العضوية العملاقة الراقية التى تمرُّ بمراحل النشأة، والطفولة، والصبا، والنضوج، والازدهار، والانحطاط، ثم الشيخوخة فالموت<sup>(٩)</sup>. كما أن فكرة النظر إلى المجتمع ككيان عضوى (كجسم)، وردت عند أو. بلزك، ون. فينر، وسواهما. ومضت الداروينية الاجتماعية والسوسىولوجيا شوطاً أبعد فى هذا المجال، فعممتا القوانين البيولوجية لتشمل الظواهر الاجتماعية (إدوارد ولسون، مثلاً).

---

(٨) مقالاتى السوسىولوجية: "الشيوعية واقعاً" (١٩٨١)، و"قوة الكفر" (١٩٨٦)، و: "الغورياتشوفية" (١٩٨٧)، و"أزمة الشيوعية" (١٩٩١)، وكذلك مقالاتى: "بلا أوهام" (١٩٧٩)، و"نحن والغرب" (١٩٨١)، و"لا حرية، لا مساواة، ولا أخوة" (١٩٨٣)، وكذلك فى أعمالى الأدبية: "الأعلى السحيفة" (١٩٧٦)، و"المستقبل الوضاء" (١٩٧٨)، و"البيت الأصفر" (١٩٨٢)، و"على مشارف الجنة" (١٩٧٩).

(٩) معروف أن صاحب "المقدمة"، ابن خلدون، كان من السابقين إلى اكتشاف ملامح هذه النظرية. - م.

حقاً، إن المجتمع البشرى يشبه فى كثير من ملامحه كيانات بيولوجية كالحوانات والبشر، ولكن هل يكفى هذا التشابه لكى ننظر إلى المجتمع بوصفه كياناً حياً؟ إنه سؤال يتعلّق بالمصطلح. إذ يمكننا تعريف مصطلح "الكيان العضوى" على نحو يجعل الكائنات الحية الأفراد التى لها حيّز مكاني، تدرج وحدها دون سواها فى عداد الكيانات العضوية. غير أن بإمكاننا تعريف هذا المصطلح على نحو أوسع إذا ما أدرجنا فى عداد الكيانات العضوية كذلك تجمعات عضوية بالمعنى الضيق للكلمة، كأسراب الطيور، وقطعان الحيوانات، وأوكار النمل. فمن الواضح أن المجتمع لا يندرج فى عداد الكيانات العضوية من النوع الأول، بينما يندرج فى عداد كيانات العضوية من النوع الثانى.

وتحاشياً للتشوش فى المصطلحات، سوف أستعمل عبارة "الكيان العضوى القاعدى" للدلالة على الكيانات العضوية بمعنى الكلمة الضيق الذى ورد أعلاه، وتعبير "الكيان العضوى الاجتماعى" للدلالة عليها بالمعنى الواسع. وهكذا، فإن المجتمع البشرى، وفقاً لهذا الاستعمال للكلام، هو كيان عضوى اجتماعى يتألف من كيانات عضوية قاعدية بيولوجية هى البشر.

ثمة قوانين معينة فيما يخص العلاقة المتبادلة بين الكيان العضوى الاجتماعى بوصفه كلاً متكاملًا، وكياناته العضوية القاعدية، وهذه القوانين هى قوانين عضوية المادة. وهنا يسرى مفعول قانون تكافؤ الكيانات العضوية القاعدية والكيان العضوى الاجتماعى الذى ينبى منها. فلا يمكن أن نقيم من البق والصراصير مجتمعاً من النوع والحجم اللذين تمثلهما البلدان الغربية. وأكثر من ذلك أنه ليس كل مادة بشرية صالحة لذلك<sup>(١٠)</sup>.

---

(١٠) تحدثت مرغريتا برانوففا (أبراكسينا) عن دور المادة البشرية فى عمل لها لم ينشر، هو رسالة إلى زينوفيف.

لا بدّ من التفريق بين الكيفية التي يبنى بها الكيان العضوى الاجتماعى من تلقاء ذاته بفعل قوانين بنائه هو، وطريقة الباحث فى تجزئة هذا الكيان وتصنيف أجزائه بغية تسهيل وصفه. فقليلاً ما نقع على تطابقٍ بين هاتين المسألتين. ذلك أن القصاب يقوم بتقطيع الذبيحة وتصنيف أجزائها على نحوٍ آخر، يختلف عن الطريقة التى تسم عمل عالم التشريح، وإن كان موقف الاثنين قد يتطابق جزئياً.

لقد لاحظت فى أغلب ما اطّلتُ عليه من أعمال المؤلفين الغربيين، فى مجالات علم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد، أنهم يجزّئون المجتمع الغربى وفقاً لـ "مبدأ القصاب"، وليس وفقاً لمبادئ عالم التشريح. فليس فى هذا المجتمع عندهم، مثلاً، أجزاء إمبريقية، أى شرائحُ عليا ووسطى ودنيا يحددها حجمُ المداخل. على أنه يمكن اقتراح طرق مختلفة لقياس المداخل، الأمر الذى ينجم عنه تغييرٌ فى تقسيم الناس إلى شرائحٍ أيضاً. ولكن سگان البلدان الغربية لا يزالون حتى الآن يقسمون، بالدرجة الأولى، إلى شرائحٍ وفقاً لمبدأ القصابين "العلميين" على وجه التحديد. بل وتوضع المقاربة "الطبقية" الماركسية موضع سخرية رغم أنها ليست، بأى حال من الأحوال، أسوأ من المقاربة "الشرائية".

وخلافاً للكيان العضوى البيولوجى، يبنى الكيان العضوى الاجتماعى فى الوقت ذاته ضمن أبعاد عديدة، أى أنه متعدد الأبعاد. غير أنه ليس لـ "أعضائه" و"أنسجته" أشكالٌ واضحة كما هى فى الكيان العضوى البيولوجى. ذلك أن الحدود بينها غير ثابتة، وغير محددة. بل هى تتداخل فيما بينها عبر قنوات من شتى الأنواع. وهذا ما يجعل متعذراً تصنيف عناصر الكيان العضوى الاجتماعى تصنيفاً له معيارٌ واحد. إن العديد من حالات سوء الفهم والمصاعب والسجلات فى الأبحاث السوسيوولوجية، إنما ينجم فى معظمه عن محاولات النظر إلى الكيان المتحرك، المتعدد الأبعاد بنيوياً كشىء ثابت بدقة بنيوياً، ووحيد البعد. فما هو، مثلاً، المجال الاجتماعى الذى ندرج سلطة الدولة فيه؟ من الطبيعى أن ندرجها فى المجال السياسى. وهذا صحيح. ولكن الدولة، فى الوقت ذاته، عنصرٌ من عناصر المجال الاجتماعى الاقتصادى. والأمر هنا لا يقتصر



على كونها تؤدي وظائف اقتصادية ما، و"تتدخل في الاقتصاد" فتثير غضب المنافحين عن المنافسة الحرة، ذلك أن الاقتصاد، بكل بساطة، لاعمى له من دون الدولة بوصفها عنصراً مكوناً من عناصره. أو في أي مجال ندرج إنتاج القيم الروحية؟، إنه يندرج في وقت واحد في مجال الاقتصاد، وفي مجال الثقافة، وفي مجال الإيديولوجيا على حد سواء. ومرة أخرى نجد أن المسألة ليست مجرد تدخل من جانب الاقتصاد في الثقافة. فالثقافة نفسها تشكل جزءاً مكوناً من أجزاء الاقتصاد، وعلى النحو نفسه تشكل الإيديولوجيا جزءاً من الثقافة، مثلما أن الثقافة هي مجال للإيديولوجيا ووسيلة لها. والمثال الأكثر مدعاة للعجب في مجال تعدد أبعاد الكيان العضوي الاجتماعي الغربي إنما تجسده حالة مجال وسائل الإعلام الجماهيري التي تتقاطع فيها مجالات العمل الحر، وإدارة الدولة، والإيديولوجيا، والدعاية، والمجتمع المدني.

لقد مرت صيرورة الإنسان تاريخياً عبر تحوُّله إلى كائنٍ عاقلٍ بوصفه عضواً في جماعة بشرية، أي في أسرة، أو قطع، أو سرب، أو عشيرة، أو قبيلة. وإلى جانب ذلك كانت تجري، في الوقت نفسه، عملية تأثيرٍ من جانب عقل الإنسان على طبيعة الجماعة البشرية التي مضت تتحوَّل تدريجياً إلى حشدٍ منظمٍ من البشر، أي إلى حشدٍ بشريٍ يشارك عقل الإنسان في ضبطه. وهذا مستوى أرقى بين مستويات تجمع الكيانات العضوية القاعدية المتجانسة في كلِّ واحد، مقارنة بوكر النمل، وخليّة النحل، وسرب الذئب أو قطع القروء. وهذا يعني أن المجتمع البشري هو، على الأرجح، تنظيمٌ أكثرُ ممّا هو كيانٌ عضويٌّ، نظراً لأن كلمة "تنظيم" تشير إلى ما تتّصف به عملية تشكُّل المجتمع من وعى، بينما كلمة "الكيان العضوي" تشير إلى عفويةٍ ما ( إلى "مسار طبيعي").

إنني لا أرى ثمة تناقضاً بين المقاربتين. فكلُّ منهما مشروعة، لكن في حدودٍ معينة، ومع بعض التحفظات. إن التشريع هو الشكل الأرقى للتنظيم الاجتماعي الذي يبلغه المجتمع ويرسخه في قواعد ما. فالمجتمع البشري الذي يتمتع بمستوى عالٍ من التطور نسبياً هو كيان عضوي تمّ تنظيمه بمساعدة العقل، أو هو منظمة نشأت وفق قوانين الطبيعة العضوية.

ما يكون نمط المجتمع هو جملة ثابتة من السمات تستمر على امتداد حياة المجتمع كلها. على أن أكثر التعاليم أهمية حول نمط المجتمع هي، حسب اعتقادي، تعاليم ماركس عن التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية. إلا أنني لا أتبنى هذه التعاليم من ناحية مضمونها الملموس، علماً بأن الفكرة المنهجية لتصنيف أنماط الكيانات العضوية الاجتماعية فكرة علمية تماماً.

لم ولن يشهد تاريخ البشرية مجتمعات "صافية"، أي مجتمعات تتطابق تمام التطابق مع هذا النمط أو ذاك من أنماط المجتمع. ذلك أن المجتمعات التي وُجدت، والموجودة الآن، والتي ستوجد في المستقبل هي، كما لاحظ م. فريدمان وأصاب مجتمعات خليطة. وهذا يعني أن بالإمكان أن نجد فيها عناصر وخصائص مجتمعات من أنماط مختلفة. وهذا أمر جلي، كما أظن. فالملكية الوراثية، مثلاً، هي من علائم المجتمع الإقطاعي، بينما قد نراها في العديد من البلدان الديمقراطية (الرأسمالية) في القرن العشرين. كذلك العلاقات السلعية النقدية هي من سمات المجتمع الرأسمالي، ولكننا نستطيع أن نجدها في المجتمع الإقطاعي. وأنا أعرض في هذا الكتاب فهمي لمجتمع النمط الغربي، غير ملتفت إلى تلك "الشوائب" الجانبية، أي أنني أتناوله بشكله "الصرف".

## الغرب

"الغرب". ما "الغرب"؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد، أولاً، من تمييز الغرب بوصفه موضوعاً خاصاً بين كثرة من المواضيع الأخرى. وهذا ما يمكن القيام به بإحدى طريقتين مختلفتين، الأولى هي تعداد بلدان محددة يشملها مفهوم "الغرب"، أو تُعدُّ "غربية". وهذه البلدان هي فرنسا، إيطاليا، إنكلترا، ألمانيا، بلجيكا، سويسرا، الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، أستراليا... ودول كثيرة أخرى يمكن العثور على قائمة بأسمائها في أي دليل أو كتاب مدرسي في هذا المجال. والطريقة الثانية هي

التعريف الذي يشير إلى ما هناك من سمات تميز البلدان التي نَعُدُّها غربية، أى الديمقراطية، والمبادرة الخاصة، واقتصاد السوق، والتعددية وغير ذلك.

على أن هاتين الطريقتين، كقاعدة عامّة، تتداخلان، أو على الأقل لا تتباينان بوضوح، ويتزايد هذا الأمر يوماً بعد يوم. وثمة تفسير لذلك. فبعد الحرب العالمية الأولى وثورة أكتوبر الروسية عام ١٩١٧، انقسم العالم إلى معسكرين متعاديين، معسكر الرأسمالية ومعسكر الشيوعية (وَقَدْ استخدم الدارج). وكثيراً ما راح الباحثون يطلقون على المعسكر الأول اسم "الغرب"، مقرنين هذه الكلمة بالظروف الاجتماعية السياسية فى بلدان أوروبا الغربية، بينما أطلقوا على المعسكر الثانى اسم "الشرق"، مع التشديد على النظام الاجتماعى السياسى فى الاتحاد السوفيتى، أى الإمبراطورية الروسية السابقة. وبعد الحرب العالمية الثانية توسّع المعسكر الاشتراكى وتعزّز على نحوٍ بات يهدّد المعسكر الآخر، وغدا الصراع بين المعسكرين أساس التاريخ العالمى على امتداد عقودٍ عديدة. وقد اكتسبت كلمة "الغرب" معنى أكثر تجرّيداً، واتّسع مداها، وأصبحت تعنى تلك البلدان التى فيها نظام اجتماعى سياسى معيّن، أى ما يسمّى بالبلدان الديمقراطية. واندرج فى عداد هذه البلدان كلٌّ من الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وأستراليا وغيرها ممّا هو مشابه لها وبلدان أوروبا الغربية من وجهة نظر النظام الاجتماعى، والاقتصاد والبناء السياسى. وجرى إدخال اليابان، وكوريا الجنوبية، وتايوان وغيرها من البلدان المؤمّركة ضمن هذه "الكثرة" من البلدان. وبعد تدمير الكتلة السوفيتية والاتحاد السوفيتى ذاته فى "الحرب الباردة"، أخذ الغرب يُدرج فى كلمة "الغرب" حتّى بلدان أوروبا الشرقية التى انتقلت للسير على طريق تقليد بلدان الغرب، أى على طريق التغريب. وأصبح استخدام هذه الكلمة أكثر إبهاماً ولَبْساً.

أعتقد أن تمييز الغرب بواسطة تعريفٍ مجردٍ يسجّل بعض جوانب أو سمات هذه الظاهرة، إنما هو تمييز باطل منهجياً، ولا يتطابق مع واقع الأشياء. فالغرب ظاهرة إمبريقية، ولا يمكن تمييزه بوصفه كذلك إلا عن طريق وصفٍ مسبقٍ لجسمه فى حدود

مكانية زمانية معينة، وعلى وجه التحديد عن طريق تعداد بلدان وشعوب محددة تماماً. أما خصائص هذا الموضوع المعطى إمبريقياً، فسوف يبينها هذا البحث لاحقاً عن طريق قواعد تحليل المواد الإمبريقية تحديداً. وعلى هذا الأساس وحده يمكن استخدام التعريفات بوصفها خلاصات موجزة يفضى إليها البحث.

إن ما قيل أعلاه لا يخص الغرب وحده بصفة عامة، بل وينطبق على عناصره المكونة، وجوانبه، وتفرعاته أيضاً. ومما يسم المؤلفات الغربية التي تتناول المواضيع الاجتماعية، هو النزوع إلى إعطاء هذه المواضيع تعريفات تجريدية منذ لحظة الانطلاق في وصفها. ويمكن القول إن ما تتصف به هذه المؤلفات هو الأسلوب التعريفي البيروقراطي في التفكير. وهذا ما ينجم عنه تعقيد المسائل البسيطة، وتبسيط المسائل المعقدة حقاً. إن البداية الباطلة تتحكم بما يأتى من وصف يظهر، فى الأغلب، كتوليفة كليشيات لفظية مألوفة ومنتظمة بهذا القدر أو ذاك.

## فراة الغرب

إن الخلط بين الطريقتين المذكورتين أعلاه فى النظر إلى الغرب، كموضوع اهتمام خاص، ينجم عنه إلحاق بلدان وشعوب بـ "الغرب" لا لشيء إلا لوجود شبه ما بينها وبين فرنسا، وإنكلترا، وإيطاليا، والولايات المتحدة الأمريكية... وغيرها من البلدان التي يتألف منها جسم "الغرب" حقاً، أو تسعى للتشبه به تحت تأثيرها. على أن هذه البلدان ما هي فى الحقيقة بالنسبة للغرب إلا مجال سيطرة ونفوذ ومصالح، مهما بلغت درجة تشبهها بالغرب.

فالغرب تشكيلة سوسيوولوجية بيولوجية محددة تماماً. وليس بوسع اليابانيين، أو الصينيين، أو الكوريين، أو البولونيين، أو التشيك، أو الروس، أو أبناء غيرهم من الشعوب، كمواطنين فى بلدانهم تواقين إلى النماذج الغربية، أن يصبحوا عناصر فى جسم الغرب ما لم يغادروا بلدانهم ويندمجوا فى بلدان ذلك الغرب. على أن هذا المطلب ليس بالأمر



اليسير. فثمة عشرات الملايين من الأجانب الذين يعيشون في بلدان الغرب، ولكنهم يظلون هناك ظاهرة غريبة رغم كل شيء. وليس من المستبعد أن يصبح هؤلاء الوافدون من بلدان غير أوروبية أغلبية ساحقة ذات يوم في بلدان الغرب تقرر مجرى الأحداث فيها. وكما جاء على لسان إحدى شخصياتي الأدبية: "سيصبح المؤذن من على برج إيفيل بأعلى صوته "الله أكبر". ولكن الغرب لن يكون عندئذ هذا الغرب الذي أعتزم الحديث عنه هنا، وإنما سيكون شيئاً آخر. إن علاقة هذا الغرب (إذا ما احتفظ بهذا الاسم)، أعنى الغرب الافتراضى، بالغرب الحالى ستكون أشبه بعلاقة الإمبراطورية التركية ببيزنطة، أو علاقة روما، يوم كانت مكتظة بالبرابرة وبمن كانوا من قبل عبداً، بالإمبراطورية الرومانية في مرحلة ازدهارها.

الغرب ظاهرة فريدة، أى أنه الظاهرة الوحيدة من نوعها في تاريخ البشرية. أكرز وأؤكد أنه لم يكن على هذا الكوكب في الماضى من وجودٍ لظاهرة اجتماعية تُماثل الغرب من حيث صفاته الأكثر جوهرية (سنتحدث عنها فيما بعد)، ولا يوجد الآن، ولن يوجد في المستقبل، إذا ما انهار هذا الغرب وغادر مسرح التاريخ. لماذا أؤكد هذا الأمر بكل هذه القطعية؟ أولاً، لأن كوكبنا ليس على ذلك القدر من الضخامة، والغرب موجود، ويشغل حيزاً على هذا الكوكب، وهو قادر في المستقبل المنظور على الاحتفاظ بهذا الحيز، وألا يسمح بظهور غربٍ آخر إلى جانبه. وثانياً، لأن اجتماع الظروف التى بفضلها نشأ الغرب تاريخياً، أمرٌ فريد، لا يتكرر. وطبيعياً أننا نستطيع، إذا ما نظرنا إلى المسألة بطريقة رياضية مجردة، أن نُقيم "البرهان" على إمكانية اجتماع عددٍ لا يُحصى من الظروف المماثلة مرةً أخرى في مكانٍ ما من الكون. غير أننى لا أومن بمثل هذه البراهين، فهى تقوم على سلسلةٍ كاملة من الأخطاء المنطقية التى لا مجال هنا لتحليلها. ولكن، حتى لو سلّمنا بوجود شيء من هذا القبيل في مكانٍ ما، فإن ذلك لن يكون إلا ظاهرةً من طبيعة سوسولوجية أخرى، غير الغرب الواقعى، الأرضى الذى نعرفه.

عندما اعتزمت شعوب بلدان أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي أن تتشبه بالغرب وتتحو منحاه، تجاهلت تماماً حقيقة أن "تغريب" بلدانها لا يمكن أن يكون تحويلاً لها إلى أجزاء من الغرب، أو إلى بلدان غربية، وذلك لسببين أساسيين: الأول يكمن في أن فرض بعض خصائص الغرب (الديمقراطية، السوق، الخصخصة... إلخ) على هذه الشعوب والبلدان لا يعنى تحولها إلى أجزاء من الغرب، إذ إن الغرب عموماً لا يختزل في هذه الخصائص. فالغرب ظاهرة هائلة متعددة المناحي، نشأت وترسخت عبر قنوات لا عد لها، وعلى مدى العديد من القرون. والسبب الثانى هو أن مكان الغرب ودوره ليسا شاغرين، وسقف ما بوسع هذه الشعوب المتغربة أن تأمل به هو أن تقع فى مجال سيطرة الغرب ونفوذه واستعماراه، بل وأن تلعب من الأدوار ما يسمح لها به هذا الغرب الوحيد الذى لا يتكرر.

مهما أمعن الروس فى شتم المرحلة الشيوعية من تاريخهم، ومهما اجتهدوا فى تدمير كل ما تم تحقيقه خلال تلك المرحلة، ومهما زحفوا على ركبهم أمام الغرب وداهنوه، ومهما قلدوا كل ما هو غربى، ومهما اقتبسوا من الغرب عيوبه كلها... فإن روسيا، بالرغم من ذلك كله، لن تصبح جزءاً من الغرب. أما المصير الذى ينتظرها فى مجال التغريب فقد تحدث عنه هتلر فى حينه، وأفصح عنه بصراحة ووضوح. طبيعى أنه ما من أحد يتحدث الآن عن ذلك بصوت عالٍ، ولكنهم يسعون للقيام بما قامت به النازية فى جوهر الأمر. ولا بد أن يكون المرء معتوهاً تماماً لكى يتخيل أن أولى الأمر فى الغرب سينذوبون فرحاً إذا ما ظهر فى الأسواق العالمية منافسون جبابرة من روسيا، وأخذوا يزاحمون فيها رجال الأعمال الأمريكين والأوروبيين الغربيين.

ثمة مؤلفون آخرون<sup>(١١)</sup>. كتبوا أيضاً عن فرادة الغرب. ولكنهم كانوا يؤكّدون على فرادة الغرب بوصفه ظاهرة اقتصادية واجتماعية سياسية، إيديولوجية وثقافية. وإنى

---

(١١) على سبيل المثال ، فيرنر زومبارت ، فى كتابه "الرأسمالية المعاصرة" ، ١٩٢٦.

لأعتقد أن الحديث عن فرادة الغرب بهذا المعنى خطأ من الناحية المنطقية. فحتى لو لم يكن في الغرب إلا بلد واحد يتَّصف بهذه السمات لكان من العبث أيضا أن نعدَّ نظامه الاجتماعي ومواصفاته ظواهر فريدة. ذلك أن الإقطاعية أيضا "فريدة"، وكذلك الشيوعية وأيُّ نظام اجتماعي آخر، بالمعنى الذي نطلق به هذه الصفة على الرأسمالية الغربية. ومن المنطقي والصواب هنا ألا نتحدث عن "الفرادة"، وإنما عن شمولية الرأسمالية، والشيوعية... إلخ، ما دامت قوانين هذه الظواهر الاجتماعية واحدة في كل مكان توجد فيه. فالغرب ليس فريداً إلا بوصفه كياناً سوسيوبيولوجياً ملموساً، أيّاً كان نظامه الاجتماعي.

## الهوية الغربية

إنَّ تمييز أيِّ تجمعٍ بشري عن محيطه الاجتماعي يفترض وجود أناس كثيرين يعون أنفسهم بوصفهم أعضاء في هذا التجمع، وبصفتهم هذه يميزون أنفسهم عن غيرهم، وهذه هي (الهوية الداخلية)، فيما جماعة كبيرة من أولئك الناس الآخرين تعي نفسها بوصفها جماعة غريبة بالنسبة للبشر الذين في ذلك التجمع، وتميزهم عن نفسها بوصفهم تحديداً ممثلين لتجمعهم ذاك، وهذه هي (الهوية الخارجية). لقد بدأت هوية الغرب الخارجية تتشكّل قبل هويته الداخلية. وقد حدث ذلك في روسيا منذ القرن التاسع عشر. أمّا الهوية الداخلية فلم تبدأ إلا بعد الحرب العالمية الثانية، عندما وجدت شعوب الغرب نفسها أمام خطر الشيوعية العالمية بزعامة الاتحاد السوفيتي. على أن هذه الهوية الداخلية لم تبلغ حتى الآن درجة من القوة تجعل الفرنسيين، والإنكليز، والألمان، واليطاليان، والأمريكان وغيرهم من شعوب البلدان الغربية يعون أنفسهم بوصفهم أناساً غربيين في المقام الأول، ومواطنين في بلدانهم في المقام الثاني. ومن العسير أن نقول ما إذا كان ذلك سيتحقق ذات يوم. فأننا، عندما أنظر إلى الأمريكان المنتشرين بفكرة أنهم هم الأمريكان الذين يحملون للبشرية القيم الأمريكية والنظام الأمريكي العالمي، أو إلى الألمان الذين يخوضون من أجل الهيمنة في أوروبا كفاحاً

على قدر كبير من الخطر على بلدان أوروبا الغربية الأخرى، لا يسعنى فى حال من الأحوال أن أتصور الفرنسيين، والأنكليز، والإسبان وغيرهم من الغربيين يفتخرون بتطلعات الأمريكان العالمية، وبنجاحاتهم على أنها تطلعاتهم ونجاحاتهم الخاصة، الأوروبية المشتركة. فقد كان هتلر على ثقة فى وقت من الأوقات بأن الأمريكان، والإنكليز، والفرنسيين، ما داموا غربيين أيضاً، مثلهم مثل الألمان، سيكونون عوناً له على سحق الروس.

إن وحدة كيان عملاق، كالغرب، لا تتطلب بتاتاً هوية داخلية تكون عاملاً دائماً الفعالية. فقد تظهر هذه الهوية لفترة قصيرة، كعامل سياسى وأيديولوجى دعائى، عندما تقوم البلدان الغربية بأعمال مشتركة، كعمليات إنزال العقاب بليبيا، والعراق أو صربيا. وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف لم يكن جميع من فيها من شعوب وفئات سكانية يشعرون بهويتهم الرومانية. وكذلك الأمر بالنسبة للإمبراطورية الروسية، إذ إن عدداً قليلاً من رعاياها كانوا يعون أنفسهم بوصفهم روساً قبل كل شىء، واللافت، أن أشدهم حماسة لـ "روسيّتهم" كانوا غرباء تروّسوا، أحسنوا ترتيب أوضاعهم جيداً فى روسيا، وطاب لهم العيش فيها.

## المجتمع الغربى

سأطلق هنا عبارة "المجتمع البشرى"، أو "المجتمع" باختصار، على كل تجمع من البشر، يشغل أو يستخدم أرضاً معينة، ويتّصف بشىء من الانغلاق النسبى، يعيد إنتاج نفسه من جيل إلى جيل على مدى زمن طويل بهذا القدر أو ذاك. إن البلدان الأوروبية المعاصرة (الدول القومية)، هى المثال الواضح على المجتمعات البشرية. وعندما أستخدم عبارة "المجتمع البشرى" فإن ما أعنيه بالضبط هو هذه البلدان كحالات خاصة.



إن أى مجتمع غربى، باستثناء حالات "منقرضة" من شاكلة موناكو وليختنشتاين، ينقسم داخلياً إلى وحدات أصغر: ولايات، دوائر، مقاطعات، كانتونات. وهذه بدورها تنقسم إلى أجزاء أقل حجماً، وصولاً إلى أصغر الجماعات المحلية. ومن ناحية أخرى، تتوحد المجتمعات الغربية فى مجموعات، وتشكل بكيبتها وحدة من نوع ما. وثمة نزعة قوية نحو اتحادها فى مجتمع متكامل واحد. ولكن المجتمعات الغربية بالمعنى الصارم للكلمة، لا تزال حتى الآن متمثلة فى البلدان الغربية السيادية المعروفة للجميع، وليس فى أجزاء منها، ولا فى اتحاداتها. ففيها تحديداً تجد خصائص هذه الظاهرة الاجتماعية تعبيرها الأكثر اكتمالاً ودقة. لذلك فإن دراسة هذه البلدان حصراً، هى ما يجب أن يكون نقطة الانطلاق فى دراسة الغرب.

### ظاهرة الغربية

لا ينحصر استخدام كلمة "الغرب" فى مجرد الدلالة على ظاهرة فردية، أى على مجموعة بلدان وشعوب محددة تماماً، بل وتستخدم هذه الكلمة أيضاً كمفهوم تجريدى، أى للدلالة على جملة من الظواهر لا ترتبط بالضرورة بخصائص بلدان غربية بعينها، وهى خصائص مشتركة بين تلك البلدان. وتستعمل أيضاً فى مثل هذه الحالات كلمات "الديمقراطية"، و"الرأسمالية"، و"التعددية"، و"المجتمع المفتوح" ... إلخ. أعتقد أن هذه الكلمات قد تحولت إلى أصنام إيديولوجية دعائية، لا تضىء جوهر المسألة بقدر ما تزيده إبهاماً. سوف أستخدم مصطلح "الغربية" للدلالة على النمط الاجتماعى فى البلدان الغربية، أى على ما هو مشترك بينها ويعكسه، بهذا الشكل أو ذاك، الاستخدام المجرى المذكور أعلاه لكلمة "الغرب"، وكذلك مجمل كلمات القاموس السياسى، والإيديولوجى، والدعائى. أما كلمة "الغرب" فسوف أبقى عليها للدلالة على جملة من بلدان وشعوب محددة هى التى يدور حولها الحديث، ولكن بعد إضافة تصويب واحد.

إن الغربية ظاهرة اجتماعية معقدة واحدة، نستطيع أن نرى فيها الرأسمالية، والديمقراطية، والاشتراكية (الشيوعية)، وسوى ذلك من الظواهر المعروفة. غير أنها، بوصفها كلاً من نوع خاص، ليست الرأسمالية، ولا الديمقراطية، ولا الاشتراكية (الشيوعية)، وليست أيًا من صفاتها الأخرى منفردة. والغربية، من ناحية أخرى، ليست بمجملها إلا صفة وجزءاً من كيانات أكثر اتساعاً هي البلدان الغربية بالتحديد. لقد نشأت الغربية في هذه البلدان، وفيها بلغت سن الرشد، وصارت جزءاً من طبيعتها لا يتجزأ. وراحت تلعب في هذه البلدان دوراً على قدر من الأهمية جعل تخيل هذه البلدان من دون الغربية مستحيلًا. وقد انطلقت الغربية من هذه البلدان لتنتشر في أرجاء الكرة الأرضية بوصفها بالضبط تغريباً لباقي البلدان والشعوب الأخرى.

لا تنحصر الغربية في كونها جملة كبيرة من الخصائص المشتركة بين البلدان الغربية، وإنما هي كيان كامل من نوع خاص في جسم هذه البلدان. إنها، بعُجالة، مجتمع من مستوى ثانٍ مقارنة بالمجتمع الموجود في هذه البلدان منذ غابر الأزمنة. وتتأني صعوبة فهم هذه العلاقة بين ظاهرتين اجتماعيتين مختلفتين، من كون الغربية موجودة في حيزٍ مكاني وزماني واحد توجد فيه نفسه شعوب بلدان معينة، ومادة بشرية واحدة. وفي وقت واحد يشارك مواطنو هذه البلدان في حياة جماعتهم البشرية ككل، وفي حياة الغربية أيضاً، وما من تطابق تامً هنا. ذلك أن لشعب كل بلد بحد ذاته تاريخه الذي لا يختزل بتاريخ الغربية. وليس كل شيء في حياة الناس اليوم هو حياتهم بوصفها لبنة في صرح الغربية. ولكن عندما غدت الغربية ظاهرة مهيمنة في حياة الشعوب الغربية، حولتها إلى بيئة وأداة لوجودها هي. لقد امتزجت الغربية مع البلدان الغربية إلى درجة جعلت كلمة "الغرب" لا تعني مجرد عدد معين من البلدان، بل تعني بلداناً هي تجسيد للغربية. إن الغربية في الواقع هي الغرب المعاصر.

## الغرب والحضارة الأوروبية الغربية

الغرب كائن حي. وكل كائن حي، كما هو معروف، يمرّ بمراحل معينة من حياته هي الولادة، والنضج، والانحدار، والشيخوخة، ثم الموت. لقد بلغ الغرب الآن مرحلة النضج. وبالرغم من أنه يقع بين وقت وآخر في أزمات تعطي حُجّة للمذعورين والمعادين كي يتحدثوا عن انحطاطه ودنو هلاكه، فإنه لم يبلغ بعدُ قمة ازدهاره. لذلك فإن من السخف التكهن بحدّه الزمني، أي بنهايته في المستقبل. ولكن ينبغي تعيين حدّه الزمني، أي بدايته، في الماضي، نظراً لأهمية ذلك من أجل تحديد وفهم ظاهرة الغرب نفسها.

متى وُكِدَ الغرب وتشكّل؟، يعودون عادة ببداية تاريخ الغرب إلى مرحلة انحطاط الإمبراطورية الرومانية. وهذه الخرافة هي نتيجة مقارنة معينة للتاريخ يتلخّص جوهرها بما يلي: يؤخذ حينئذٍ مكانى ما (أوروبا الغربية، مثلاً) ويُدرس ما جرى فيه على مدى زمنى معين (مثلاً، منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية وحتى أيامنا هذه). ثم يخترعون تحقيقاً معيناً للأحداث. وتُقيّم تلك الأحداث من وجهة نظر أهميتها بالنسبة لعصرها وللأحداث التالية. ومن وجهة نظر هذه المقاربة يبدو المسار التاريخى خطأً واحداً للتطور تتخلّله مراحل مختلفة، أو مجرد تعاقب للأحداث التى سبقت اللحظة المعنية فى تاريخ الحيز الاجتماعى المعنى. ومن الطبيعى فى هذه الحالة أن يقفز انهيار الإمبراطورية الرومانية إلى الأذهان تلقائياً على أنه بداية الغرب.

إننى أطرح فى مواجهة هذه المقاربة مقارنةً أخرى يتلخّص جوهرها بما يلي: يتمّ تحديد ظاهرة اجتماعية ما، وتجرى دراستها كظاهرة إمبريقية بما لها من خصائص جوهرية وقوانين داخلية. وانطلاقاً من ذلك يتمّ استبيان جذور تلك الظاهرة فى الماضى، وولادتها، وتشكّلها. ومن وجهة نظر هذه المقاربة لا يكون كل ما جرى فى الماضى فى الحيز المكانى المعنى تاريخاً للظاهرة المعنية. وليس كل ما جرى فى أوروبا الغربية منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية تاريخاً لما أحدهه مادة لبحثى، أى لظاهرة الغربوية المتجسدة فى بلدان الغرب، أو للغرب بوصفه تجسيداً لظاهرة

الغربية، أو للغرب ككل اجتماعي. إذ يمكن أن نكتشف في الماضي من تاريخ أوروبا الغربية إرهابات هذه الظاهرة وشروطها وجذورها، ولكن ليس هذه الظاهرة نفسها في تحددها النوعي.

إن تاريخ البلدان الغربية هو نفسه تاريخ الحضارة الأوروبية الغربية، ولكنه ليس بعدُ تاريخ الغرب كتشكيكة اجتماعية متميزة. إنه واحد من ظروف الغرب التاريخية لا أكثر. لقد أعدَّ تاريخ الحضارة الأوروبية مادةً "بناءً" الغرب، إى مادة بشرية محددة، وقيماً مادية وروحية، ومؤسسات اجتماعية، وثقافة، وإيديولوجيا. ولكن الغرب، كظاهرة اجتماعية متميزة، يظل تشكيكة فتيّة. إنه لم يظهر إلى الوجود إلا منذ عهد قريب. فمنذ متى دخلت حيزَ الاستخدام على نطاق واسع عباراتُ من نوع "عندنا في الغرب"، "عندهم في الغرب"، "السياسة الغربية"، و"الثقافة الغربية"... إلخ؟ ومنذ متى أخذ الناس كجماعات يحددون هويتهم بوصفهم غربيين، يضعون انتماءهم القومي أو الإثني في مرتبة ثانوية، أو يتجاهلونه عموماً؟

لقد نشأت الغربية وتطورت تاريخياً وسط مجتمع من نمط آخر. وقد تمتلّت شروطُ نشأتها ونضوجها في عواملَ تكونت تاريخياً. وهذه العوامل هي سلطة الدولة القوية والمتطورة نسبياً، ووجود تشريع ما، ونظام نقدي، والاعتراف بالملكية الخاصة للأموال المنقولة، ووجود أناس يتمتعون بالحرية الشخصية، قادرين في إطار القانون وتحت حماية سلطة الدولة على إنتاج شيء ما وبيعه نقداً، وكذلك وجود فئة من الناس يتمتعون بالحرية الشخصية ويستطيعون استئجار أحرار آخرين، أو العمل بالأجرة عند آخرين.

لقد كان تطور الغربية يعنى تطورَ هذه الشروط ذاتها، وتعزيزها، وتوسيعها. على أن هذه الشروط راحت تصبح جزءاً من بنية الغربية نفسها، وتغدو عناصر لا غنى لها عنها. وبدءاً من اللحظة التي اكتسبت فيها الغربية ما يكفي من القوة لكي تبدأ كفاحها من أجل السيادة في المجتمع، أخذت تمارس تأثيراً عكسياً على شروطها (على سلطة الدولة، والعلاقات الحقوقية، والنظام النقدي... إلخ)، مرغمة إياها على التكيف مع



مصالحها هي. وكان ما يسمّى بالثورات البرجوازية مؤشراً على نقطة انعطاف في التاريخ شهدت "انقلاباً" في العلاقات بين مكونات العملية التاريخية، وتحديداً عندما غدت شروط الغربية محكومة هي نفسها بتلك النزعة التي انتقل موقعها في بنية المجتمع الغربي من كونها إحدى ظواهر "البناء الفوقي" في المجتمع الذي كان موجوداً إلى "بنية تحتية" في المجتمع الجديد.

لم ينشأ المجتمع الغربي في فراغ، ولا هو موجود في فضاء منعزل، وإنما في وسط بشري متطور، بل وكأرفع مستوى في تنظيم الكائنات البشرية. إن العلاقة بين الغربية والوسط البشري العام تشبه علاقة عالم الحيوان بعالم النبات، وعلاقة أنواع الحيوان الأرقى بالأنواع الأدنى، وعلاقة البشرية بعالم الحيوان. إنني أفترض أن هذا الوسط البشري العام الموجود في كل بلد غربي وفي العالم المحيط بالغرب هو معطى موضوعي، وأهمّل النظر في هذا الجانب من المسألة.

## ما قبل تاريخ الغربية وتاريخها

إنني أميّز بين ما قبل تاريخ الغربية في الغرب من جهة، وتاريخ الغرب بوصفه تاريخ الغربية الناجزة، من جهة أخرى. الحالة الأولى هي ولادة الغربية، وانتشارها، ونضجها في أحشاء (في جسم) المجتمع الذي نشأ، وتكوّن على مدى العديد من القرون في أوروبا، وبشكل رئيس في جزئها الذي صار يسمّى في أواسط القرن العشرين بالغرب. والحالة الثانية هي اكتساب الغربية وضع السيادة في البلدان الغربية، وبداية تاريخ هذه البلدان على أساس الغربية. من المستحيل تحديد تاريخ دقيق لبداية هذه المرحلة، لأن هذه العملية بدأت في أوقات مختلفة في مختلف أجزاء الكوكب (وليس فقط في أوروبا الغربية!)، بل وامتدت زمنياً طويلاً، وترافقت مع جملة عمليات من نوع آخر. غير أننا نستطيع أن نشير إلى معالم تاريخية بارزة تشهد على أن الغرب قد وُلد وبدأ بالحياة. وهذه المعالم هي ما يسمّى بالثورات البرجوازية في كلِّ

من إنكلترا، وفرنسا، وكفاح الهولنديين من أجل الاستقلال عن إسبانيا، وكفاح المستعمرات الأمريكية من أجل الاستقلال عن أوروبا، وظهور "الولايات المتحدة الأمريكية" إلى الوجود.

لقد تشكلت الغربية على نحو متفاوت، عبر مسارات مختلفة، وعلى مدى زمني طويل. وكذلك كان تجليها الواضح إلى حد ما على حلبة التاريخ لغيرها أو لنفسها. ولو كان هناك حاجة لاختيار تواريخ رسمية للاحتفال بيوبيلها، لاخترت إلى جانب ١٤ تموز/ يوليو ١٧٨٩ في فرنسا، مثلاً، تواريخ أخرى، وهي ٢٦ آب/أغسطس ١٧٨٩ تاريخ إقرار الجمعية التأسيسية "إعلان حقوق الإنسان والمواطن"، و٦ كانون الثاني/يناير ١٨٠٠ تاريخ تأسيس البنك الفرنسي، و٢١ آذار/مارس ١٨٠٤ عندما أقر تطبيق "القانون المدني" (قانون نابليون). فقد بينت هذه الأحداث على نحو جلي أن الغربية بلغت درجة من النضج تؤهلها لكي "تخرج إلى النور". كما شكلت هذه الأحداث شروطاً مهمة لكي تبدأ الغربية بإخضاع هذا العالم.

ربّ معترض يقول إن ما اعتبره معلماً لبداية تاريخ الغرب ما هو إلا معلّم لمرحلة جديدة في تاريخ أوروبا الغربية، هي المرحلة الرأسمالية (البرجوازية) تحديداً. ولكن سقوط الإمبراطورية الرومانية، لن يكون، في هذه الحالة، بداية ظاهرة اجتماعية ما، بل مجرد مرحلة جديدة في تاريخ البشرية المجردة إياها. إن هذه المقاربة تُسقط أهمّ عنصر من عناصر تاريخ البشرية، ألا وهو ظهور مختلف الكائنات البيو - اجتماعية الحية وخروجها من إطار حياة البشرية المشترك إلى أنماط خاصة من الحياة الاجتماعية. وبهذه الطريقة يصبح تاريخ الإنسان مجرد مرحلة في تاريخ عالم الحيوان، وتاريخ الحيوان مرحلة في عالم العضويات الحية عموماً.

إن ما أسميه الـ "غرب"، من وجهة نظر مقاربتى، ليس مجرد مرحلة في تاريخ أوروبا الغربية، بل هو شيء آخر. إنه نوعية جديدة في تاريخ البشرية، ظاهرة اجتماعية جديدة لها مراحل نشوئها، وارتقائها الخاصة بها. كما أن من الخطأ حصر جوهر الغرب (وإن يكن مرحلة جديدة في تاريخ البلدان الغربية) في الرأسمالية. لقد لعبت

الرأسمالية دورها في نشأة الغرب، وكانت إحدى مقدماته. ولكن نشأة الغرب كانت ظاهرة أكثر اتساعاً وتعقيداً من مجرد وصول البرجوازية إلى السلطة.

لقد تشكلت في الحقبة التي تهمنا تجمعات بشرية سيادية كبيرة عُرفت بـ "الدول القومية" (كلمة "دولة" هنا لا تستخدم بمعنى منظومة أجهزة السلطة، بل كمرادف لكلمة "بلاد"). وهذه الدول هي فرنسا، وإنكلترا (بريطانيا)، وهولندا، وبلجيكا، وإيطاليا، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وأستراليا، وكثير غيرها. وبغض النظر عن تنوع هذه البلدان، والعلاقات غير السلمية فيما بينها، فقد تشكل فيها ما أتاح اعتبارها بلداناً من النمط الغربي، أو بلداناً غربية، أي أن الغريوية تشكلت فيها كظاهرة من نوع خاص. لقد غدت هذه الغريوية أهم شرط من شروط تشكيل "الدول القومية". مع ذلك، كانت هذه الدول الإطار الوحيد الذي تطورت داخله الغريوية إلى درجة السيطرة على المجتمع بكامله، وصارت بناءه التحتي، أي أنها حددت نمط النظام الاجتماعي ذاته في تلك الدول.

وقد كانت هذه الحقبة من تاريخ الغرب تاريخاً "للدول القومية" التي يتألف منها، والعلاقات فيما بينها، ولا يجوز أن نعد مصادفة حقيقة أن الغرب نشأ بوصفه مجموعة كبيرة من البلدان التي يسود فيها نمط اجتماعي واحد، وبصرف النظر عن العداء المتبادل، وإشعاله الحروب بين تلك البلدان، فإن ظاهرة الغريوية لم تتمكن من البقاء على قيد الحياة تاريخياً إلا بفضل تعدد تلك الدول. وإلا لظلت الغريوية ظاهرة ثانوية بين جملة ظواهر من نوع آخر، أو لُقِضَ عليها تماماً. غير أن الغريوية احتلت مكاناً لها تحت الشمس في العديد من بلدان الكرة الأرضية، كجبهة عريضة واحدة.

وتشكل خلال هذه الحقبة في البلدان الغربية نمطها الاجتماعي، ونظامها السياسي، واقتصادها، وثقافتها، وإيديولوجيتها، أي مختلف جوانب الغريوية التي تطورت إلى مستوى مجتمعات كاملة واحدة. وسوف أتطرق أدناه، بشكل خاص، إلى جميع هذه الجوانب. أما هنا فأشير إلى أن تشابه البلدان الغربية في هذه الجوانب كلها لم يكن نتيجة التأثير المتبادل فيما بينها بقدر ما كان نتيجة القوانين الداخلية

المقترنة بالغربوية ذاتها. صحيح أنه لا يجوز نفي التأثير المتبادل، فقد لعب دوره، إلا أنه لا يجوز تضخيمه أيضاً، لكي لا نقلل من شأن أعمق أسس هذه الظواهر. لقد أصبح من المتعذر الآن أن نحدد زمن وحجم ما جرى من تأثير متبادل بين البلدان الغربية، وزمن توافق مسارات التطور المستقلة التي لم يكن مفهوماً أنها نتيجة التأثير المتبادل إلا مصادفة أو بعد فوات الأوان. بل وما من حاجة لذلك التحديد، فقد فعل التاريخ فعله على هذا النحو أو ذاك، ولا يبقى لنا إلا أن نسجل تشابه المسارات في مختلف أرجاء العالم.

وقد تكشف في هذه الحقبة بشكل جلي أن الغربوية تمثل مستوى جديداً في تطور البشرية، أو بكلام أكثر دقة، هي التشكيل الاجتماعي الذي يقتضى وجود شريحة بشرية أدنى منه، كشرط لوجوده ذاته. وهذا ما تجلّى في أن جميع البلدان الغربية قامت ببناء إمبراطوريات عالمية تحت سيادتها، أو حاولت القيام بذلك، أو حاولت السيطرة على أراضى جيرانها. وأهم إمبراطورية من هذا النوع هي الإمبراطورية البريطانية التي كانت رائدة في تطوير الغربوية. ولم يكن ذلك من قبيل المصادفة. ثم إن أهم محاولات إقامة إمبراطوريات في إطار أوروبا هي حروب نابليون التوسعية أوائل القرن التاسع عشر، وحروب هتلر أواسط القرن العشرين. ويستخدم مصطلح "الإمبريالية" في الأدبيات النقدية عادةً للإشارة إلى هذا الجانب من تاريخ البلدان الغربية. لقد اكتسب هذا المصطلح معنى سلبياً للغاية. وهو، فضلاً عن ذلك، يخفي خلطاً بين ظواهر مختلفة، وهو على وجه التحديد خلطاً بين السعى لإقامة إمبراطوريات لأسباب ودوافع لا علاقة لها البتة بالغربوية (الإمبراطورية الرومانية، بيزنطة، الإمبراطورية النمساوية الهنغارية... إلخ) من جهة، وطموح ظاهرة الغربوية باتجاه هيكله البشرية "أفقياً"، وترسيخ نفسها كظاهرة اجتماعية أرقى مستوى، من جهة أخرى.

واتضح في هذه الحقبة أيضاً نزوع البلدان الغربية إلى الاتحاد، ما تجلّى في إقامة تحالفات من شتى الأنواع، وفي نزوعها، بشكل رئيس، لتحقيق أهداف عسكرية



وتجارية، ومن هذه التحالفات (حلف أنتانتا) فى الحرب العالمية الأولى، وكذلك بلدان الحلف الهتلرى وبلدان الحلف المعادى لهتلر فى الحرب العالمية الثانية.

وفى القرن العشرين، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الغرب. فقد بلغ المجتمع الغربى درجة النضج الاجتماعى، وصار مجتمع النزعة الغربية الشاملة. ثم أحرز الغرب أكبر انتصار فى تاريخه على عدوه التاريخى (العالم الشيوعى)، واتضح استراتيجيته إزاء بقية العالم. وبدأ تكامل حثيث بين البلدان الغربية فى إطار كل اجتماعى واحد. وظهر نزوع قوى نحو إقامة مجتمع كونى على أساس الغربوية وبزعامة الغرب. لقد تكون فهمى للغرب، وفقاً لعرضه هنا، على أساس متابعتى الغرب فى المظهر الذى اتخذته فى هذه الحقبة.

### مصادر الغربوية وجوانبها الأساسية

سيكون من الخطأ الاكتفاء فى استدلالنا على الغربوية بمصدر واحد بعينه، لأنها تشكلت وفق خطوط عديدة، ونشأت من مصادر مختلفة خلقت بتداخلها وتضافرها سيلاً تاريخياً عارماً واحداً حطّم فى طريقه كلّ الحواجز، وجرف حطامها معه. وهذه المصادر مختلفة النوعية، لا بمعنى درجة أهميتها، بل بمعنى نمط الدور الذى لعبته.

ثمة فى الغرب، وفى بلدان أخرى أيضاً، قناعة مفادها أن المجتمع الغربى مدين بكل إنجازاته الإيجابية للملكية الخاصة والرأسمالية. ومن ناحية أخرى، لا تزال حياة حتى اليوم قناعة مناقضة، سيطرت فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين على عقول العديد من ملايين البشر فى الكرة الأرضية، ومفادها أن الملكية الخاصة والرأسمالية هما مصدر جميع الشبرور. وهذه القناعة الثانية نافست القناعة الأولى بنجاح على مدى قرن كامل. ولم يتراجع تأثيرها إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين، إلى أن كاد يخمد عند نهاية هذا القرن.

أؤكد أن القناعتين كليهما باطلتان. وأنا لا أنفي دور الرأسمالية في تاريخ الغرب وبنيتها، ولكنني أؤكد أن ثمة ما هو أكثر عمقاً واتساعاً في المجتمع الغربي، ثمة ما هو أساس الرأسمالية ذاتها. وهذا الشيء هو الغربوية. فقد سادت الرأسمالية المجتمع عندما تطورت على قاعدة الغربوية، ثم أخضعت ظاهرة الغربوية ذاتها بعد أن غدت هي عنصراً عضوياً من عناصر الغربوية. وحين بلغت الرأسمالية ذروة تطورها عادت إلى أصلها وهي في مستوى أرقى بعد أن تحولت إلى الغربوية كما هي.

يمكننا أن نميز جانبين في حياة كل شخص بالغ، قادرٍ على العمل، أو في حياة مجموعة أشخاص من هذا النوع، وفي حياة المجتمع ككل. وهذا الجانبان هما الجانب العملي، والجانب الجماعي. ففي الجانب العملي، الأول، يتصرف البشر، وينخرطون في علاقات مع بعضهم البعض، تبعاً لما يجب عليهم أن يمارسوه من عمل ضروري لهم من أجل الحصول على وسائل تلبّي حاجاتهم الحياتية. إن العمل الأهم في المجتمع هو خلق القيم المادية وتداولها. غير أن العمل يمكن أن يكون أيضاً خلق قيم ثقافية، وتقديم خدمات، وخلق وسائل ترفيه. وفي الجانب الجماعي نجد الناس مضطربين للقيام بأفعال، والانخراط في علاقات متبادلة تخضع لحقيقة واحدة هي أن عددهم كبير جداً، وهم مرغمون على العيش المشترك معاً جيلاً بعد جيل.

إن هذين الجانبين على علاقة وثيقة فيما بينهما، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر إلا من باب التجريد. ومع ذلك فهما مختلفان. ولكي نتصور الجانب العملي كما هو، خلافاً للجانب الجماعي، يتعين علينا أن نمنع النظر في تلك الحالات التي لا يؤثر فيها على تصرفات الناس وسلوكهم أي شيء آخر سوى مصالح العمل. وهذه الحالات مألوفة وبادية للعيان. أما تصور الجانب الجماعي في شكله "الصرف" فيتطلب منا أن نمنع النظر في تلك الحالات التي يتعمد فيها الناس القيام بأفعال تمس مصالح أناس آخرين وتؤثر على مواقعهم في الحياة. وكمثال على التباين في المجتمع الغربي المتطور المعاصر، يمكن أن نأخذ التباين بين مؤسسات إنتاج مواد الاستهلاك من ناحية، ومؤسسات السلطة، من ناحية أخرى.

قد يكون دور هذين الجانبين فى حياة الناس مختلفاً من حيث الأهمية. ويحدث أن يسود أحدهما، فيُخضع الآخر، وربما يخمده. بل إن هذه السيادة قد تكون نمطاً مألوفاً فى حياة الناس. إننى أؤكد أن تباين هذين الجانبين بالذات، والعلاقات الثابتة بينهما، وسيادة هذا أو ذاك منهما، فى جميع جوانب حياة الناس هو ما يشكل الأساس الأعمق للاختلاف بين نمط المجتمع الغربى وذاك النمط الذى تطور فى الاتحاد السوفيتى بعد ثورة ١٩١٧، وفى عدد من البلدان الأخرى (الصين، فيتنام، بلدان أوروبا الشرقية حتى ثمانينيات القرن الماضى)، والذى أسمّيه بالنمط الشيوعى. وإننى أمتنع عن استخدام صفة "الرأسمالى" فى ما يتعلق بنمط المجتمع الغربى للأسباب التى سبق وتحدثت عنها أعلاه.

لكل من الجانبين، موضع بحثنا، قواعد العِامة. والأساسى من هذه القواعد بسيط، يعرفه الجميع إلى حد ما، أو يعرفه - على الأقل - جزء كبير من أعضاء المجتمع. ولو لم يكن الأمر على هذا النحو لكانت الحياة الاجتماعية مستحيلة عموماً، ولما كان بمقدور الناس أن يمارسوا الأعمال التى تضمن لهم كل ما هو ضرورى للحياة، ولما استطاعوا الاتحاد فى مجموعات أكبر، وفى مجتمعات كاملة. أما القواعد الأكثر تعقيداً فتصوغها مجموعات صغيرة من المنشغلين بهذا العمل تخصيصاً، وتفرضها على بقية الناس كافة، ويرسخها أيضاً أناس من فئة خاصة. فالناس يعيشون واقعياً فى مجتمعهم وفق هذه القواعد ويعونها بالضرورة.

ولكن وعى هذه القواعد والتمكن منها عملياً ليسا كافيين لوعيتها كقواعد تعبر عن قوانين اجتماعية. إن الوضع هنا شبيه بواقع كون الناس يتعلمون مراعاة قوانين الطبيعة دون أن يكون لديهم أى مفهوم عنها. وهنا يلعب الوعى دور أداة لاكتساب مهارات السلوك، ولكن ليس دور أداة لإدراك قوانين الوجود الموضوعية الكامنة فى صلب هذه المهارات.

أما ثالث مصادر الغربوية وجوانبها فهو العامل البشرى. وقبل الشروع بالبحث التفصيلى فى ما أشرنا إليه من تلك المصادر والجوانب، سأحدث باختصار عن كل منها بشكل عام.





## الجانب العملى

نبتت بذور الغربوية أو خلاياها الأولية أول ما نبتت فى الجانب الأول ( العملى )  
تحديداً .

وتمثل ذلك فى البداية ببعض الأفراد والمجموعات التى تقوم بوظائفها بشكل رئيس ليس وفق قوانين الروح الجماعية، وإنما وفق قوانين العمل. ومن الطبيعى هنا أن تكون الغلبة لمن يقوم بالعمل وينظّمه على نحو أفضل. وقد ظهرت هذه المجموعات بأعداد كبيرة فى مختلف البقاع من كرتنا الأرضية، وبشكل رئيس فى أوروبا الغربية. وبدأت هذه المجموعات مساراً طويلاً على طريق الصراع من أجل البقاء، واصطفاء من هو أكثر أهلية للحياة، وبالتوازي مع ذلك بدأ اصطفاء وتشجيع الصفات الإنسانية التى يتمتع بها من كانت أفعالهم أكثر فائدة وجدوى لتلك المجموعات. وفى هذه المجموعات ذاتها بدأ يتبلور موقف محدد إزاء هذه الصفات وحاملها، موقف جعل جميع المشاركين فى هذا العمل نواة لولادة شعب يتمتع بهذه الصفات، وراح يزداد عدد المجموعات من هذا النوع. كما ازدادت أحجامها، وتمايزت. وأخذت المجموعات الصغيرة تتكثّر فى مجموعات أكثر تعقيداً. وأخذ يشتد دورها فى المجتمع، وينمو تأثيرها على المحيط. ثم تسربت إليها مؤثرات خارجية، مثلما تسربت هى بدورها إلى الخارج. وباختصار، شرعت تدور عملية تاريخية بالغة التعقيد مصحوبة بجميع الصيغ والاحتمالات الممكنة منطقياً.

وقد شكلت الخلايا الأسرية مجموعات الانطلاق الطبيعية لهذا النمط موضع بحثنا، فاتحدت فى تعاونيات راحت بدورها تشكل مجموعات أكثر أو أقل عدداً، أى أحياءً بكاملها، وجماعات (كومونات)، ومدناً، ومناطق بكاملها. لم تكن هذه

الجماعات تمارس أعمالاً اعتباطية من أى نوع، بل أعمالاً مميزة تتطلب مقدرة عالية المستوى نسبياً، وكفاءة ذهنية، ومؤهلات... كانت أعمالاً لا يستطيع أن يضطلع بها إلا مهرة قليلو العدد نسبياً. فالمؤسسون الحقيقيون للمجتمع الغربى الصناعى على التطور هم الكادحون المهرة المجهولون، وليس أصحاب الكنوز المكدسة، والمرابون، والمضاربون. والحقيقة، فإن وضع الناس فى المجتمع تغير مع مرور الزمن، بفعل قوة القانون العام للتطور الذى بموجبه يقوم التافهون والطفيليون باستغلال ثمار جهود الكادحين الرواد.

بودى أن ألفت الانتباه بشكل خاص إلى بعض سمات هذه العملية موضع بحثنا؛ وأول تلك السمات هو أن المجموعات المذكورة لم تظهر بمعزل عن المجتمع على شاكلة قبائل البدائيين، وإنما فى متحّدات كانت قد بلغت درجة كافية من التطور ومن الأهمية بمكان أن نتذكر أن الغريوية ولدت فى بيئة بشرية كانت منذ البداية ظاهرة ثانوية، ظاهرة يمكن القول إنها أرقى مستوى بالمقارنة مع ما كان قبلها. على أن صفتها الثانوية هذه لم تكن ملحوظة فى البداية، ولم يكن ظاهراً أنها أعلى مستوى بين كل ما هو حى، ولم يغدُ ذلك واضحاً إلا بعد قرون عديدة. ثمة قانون اجتماعى عام يقول: "إن كل ما هو عظيم حقاً يظهر على حلبة التاريخ من غير ما ضجيج فى بداية الأمر". وعلى هذا النحو ظهر الإنسان نفسه، كما يقول غيار دى شاردان. فعندما نشأ لم يكن يخطر على بال أحد أن هذا المخلوق الحرك سيكون الإكليل الذى يتوّج عملية الخلق. وعندما غدا الإنسان ما هو عليه لم يعد بوسع أحد تقصّي نهايات جذوره التى كانت ضاربة فى عالم الحيوان فى الماضى. ومع مرور الزمن مضت هذه العملية عميقاً نحو الطبقة الأدنى فى تاريخ البشرية، لتشمل أشكال النشاط الاستثنائية، بل والمألوفة أيضاً، وتغدو نموذجاً عاماً. ومع ذلك ظلت "نقطة نمو" الظاهرة الاجتماعية الجديدة تشكل رأس السهم المنطلق نحو المستقبل.

وتكمن السمة الثانية لهذه العملية فى أن الناس الذين أصبحوا أحراراً من الناحية الاجتماعية بفضل هذه الظروف أو تلك، أى أولئك الذين لم يكونوا مثقلين

بالعلاقات الإقطاعية فى تلك الأزمان، هم الذين غدوا حَمَلَة هذا التوجّه الغربى الجديد. لقد كانوا أحراراً بمعنى الحرية التى اكتسبها الناس، فيما بعد، بموجب القانون. فلا ينبغى أن نطبّق على الماضى مفهوم الحرية الشخصية بمعناه فى الغربوية. أنذاك لم يكن الناس أحراراً إلا بالقدر الذى يكفى لإقامة مجموعات عمل غير إقطاعية، لا أكثر من ذلك. ولكن هذا كان كافياً للبداية. ولم تتطور الغربوية بوصفها تعديلاً لعلاقات الناس الإقطاعية، ولا داخل هذه العلاقات، بل خارجها، وبالرغم عنها، وإن كان ذلك التطور يجرى فى حيز اجتماعى واحد معها، وإنما إلى جانبها. لقد نمت الغربوية فى أزمنة المجتمع الإقطاعى، فى أماكن حرّة (نسبياً طبعاً). وقد حطمت العلاقات الإقطاعية وأزاحتها. وحين اشتد عودها هضمت تلك العلاقات وتمثلتها على طريققتها. ولكن الغربوية منذ نشأتها لم تكن إقطاعية.

والسمة الثالثة لهذه العملية هى أنها جرت بالتوافق مع القوانين الاجتماعية الموضوعية، وبالدرجة الأولى، وفق قوانين تنظيم العمل وإنجازه. سأورد بضعة أمثلة على هذا النوع من القوانين. إن نتيجة العمل يجب أن تلبى حاجة من حاجات الناس، أى أن العمل يجب أن يكون نافعاً اجتماعياً، ويجب أن ينجز بالتوافق مع خصائص المواد المشاركة فيه، وإلا فإنه لن يصيب نجاحاً. ثم إن كل عمل يتطلب مستوى مناسباً من الكفاءة، وهذا يعنى أنه لا بد من تعلم العمل. كما أن نفقات العمل يجب أن تتناسب مع قيمة نتائجه. والمبدأ الأساسى فى هذا المجال هو: "أفضل نتيجة بأقل كلفة". لقد عبّرت الحكمة الشعبية عن هذه القواعد فى ما لاحصر له من الأمثال والعبر، من قبيل: "المسألة لا تستحقّ (أو تستحقّ) التعب"، "ما تزرع تحصد"، "يهرف بما لا يعرف"، "من كبر ما ضرب"، "اعطِ خبزك للخبّاز"،... ويمكننا العثور فى الأدبيات العلمية على مبادئ العمل العامة التى ما هى فى الحقيقة إلا بديهيات حياتية سُجّلت بمصطلحات احترافية.

إن قانون جدوى العمل المذكور أعلاه ("أفضل نتيجة بأقل كلفة") طبيعى وواضح للعيان من تلقاء ذاته. وهو لا يحتاج إلى أى تعليل، بل على العكس، هو نفسه أساس

القواعد الأكثر ملموسية في حياة الناس العملية في المجتمع الغربي. وهو أعمق أساس لتقدم وسائل الإنتاج وإنتاجية العمل.

لقد كان هذا القانون ساري المفعول، بصرف النظر عن وجود المنافسة أو عدم وجودها. فالمنافسة عموماً ظاهرة متأخرة، رأسمالية. أما في البداية فلم يكن ثمة أية منافسة. كل ما كان هناك هو الحاجة لمواد من نوع خاص فقط، وكان من يلبي هذه الحاجة هم أسلاف المجتمع الغربي. وكان ثمة طلب على هذه المواد يتزايد أحياناً تحت تأثير الإنتاج ذاته. على أن تزايد الطلب حفز نمو الإنتاج وفق القانون المشار إليه. أما المنافسة التي ظهرت فيما بعد فلم تكن أكثر من تعزيز لمفعول هذا القانون، لكنها لم تخلقه. إن تزايد عدد المنتجين المتنافسين شدد، من ناحية، النزوع إلى تزايد إنتاجية العمل، وأفاق، من ناحية أخرى، هذا التزايد؛ فقد كان المتنافسون يحاولون وضع العراقيل بعضهم في طريق بعض. على أن هذا القانون الوقائي (كما أسميه أنا) لا يزال ساري المفعول حتى الآن.

والسمة الرابعة هي أن تهيئة الناس في إطار الغربوية جرت، بالطبع، تبعاً لمصالح العمل بالدرجة الأولى، ووفق قواعد الجانب العملي، لا الجماعي، وتحديداً وفق طبيعة المشاركة في العمل ودرجة أهميتها. ولذلك بات صاحب العمل ومنظّمه (أي سلف المالك صاحب المشروع الخاص) الشخصية الرئيسة هنا. ومرة أخرى فإن مفهوم الملكية الحقوقى الذى كان سائداً فى أزمنة متأخرة لا يجوز تطبيقه هنا على المالك المعروف قبل هذه الظاهرة التى يحسن بنا أن نستخدم بشأنها مفهوم الحياة. كما أن من الخطأ أيضاً تطبيق مفهوم البروليتاريا (أى العمال المأجورين المحرومين من الملكية) على المشاركين فى العمل ضمن الخلايا الجنينية فى الغربوية، الذين كانوا فى موقع الخاضع لمالك العمل ومن يقوم بتنظيمه. إذ أمكن أن يكون هؤلاء بالقدر نفسه أحراراً من التبعية الإقطاعية، ولكنهم أعضاء فى أسرة، أو أقرباء، أو جيران، أو أناس عرّضيون انضموا إلى ("التصقوا ب") أسر ربّ العمل.



لقد أعطت قوانين العمل الأفضلية لمادة بشرية من نوع خاص، بينما تكفل الزمن بإنجاز عملية الاصطفاء المناسبة. وسوف أتحدث في هذا الموضوع بشكل خاص فيما بعد. أما هنا فأشير إلى أن قوانين العمل هذه لم تخلق من تلقاء نفسها أناساً عمليين. بل هي لم تخلق شيئاً البتة. كان ينبغي أن تظهر المادة البشرية إلى الوجود مع إرهاباتٍ عملية، بفعل أسباب ما، وربما صدفة. ولكنها كانت تظهر، وتلقى التشجيع، ويجرى اصطفائها على أساس قوانين العمل. ثم غدت المادة البشرية تقليدية، وتضاعف عددها، وتحسن وضعها وأداؤها. وبذلك كانت تمارس تأثيراً معاكساً على مجرى العمل ذاته، وعلى القواعد التي يقوم عليها. إن الصيرورة التاريخية هي دائماً تضافرٌ كثيرٌ من العوامل المتفاعلة فيما بينها والتي تتغير أدوارها ضمن تفاعلها هذا.

### الجانب الجماعى فى المجتمع

إن الجانب الجماعى هو أيضاً جانب إنسانى عام. وأكراً، إنه ثمرة سلوك الناس وما بينهم من علاقات يشترطها الظرف نفسه الناجم عن أن الناس كثيرون، ومضطرون، بهذا الشكل أو ذاك، للتصادم، والتواصل، والانقسام إلى مجموعات، والإخضاع والخضوع. وفى هذا الجانب يضطر الناس لأن ينظر كل منهم إلى الآخر بوصفه محيطه الخارجى. وهنا يدور صراع من أجل الوجود وتحسين المواقع ليس فى الوسط الطبيعى، بل فى الوسط الاجتماعى الذى يتعايشون معه كشىء معطى من الطبيعة، غريب عنهم وعدائى لهم فى الكثير من الأمور، وفى جميع الأحوال كشىء لا يمنح خياراته للإنسان دونما جهد وكفاح. إن قوانين الجماعة واحدة دائماً، وفى كل مكان تتشكل فيه تجمعات بشرية كبيرة يكون حجمها كافياً للحديث عنها كمجتمع. وهذه القوانين لا تبالى بما يوحد البشر، ويجعل منهم مجتمعاً. فهى تفعل فعلها، بهذا الشكل أو ذاك، ما دام أن البشر يتوحدون فى جماعات كبيرة، ولزمن طويل.

إن الإنسان، بوصفه فرداً جماعياً، ليس إلا كائناً يملك جسداً وجهازاً للتحكم بهذا الجسد. على أن هذه المقاربة تجريد علمي، وتبسيط علمي. ولكن بدون ذلك لا يمكن البدء بتحليل علمي. بعد ذلك نستطيع أن نضع في دائرة اهتمامنا خصائص الإنسان الأخرى. ولكن هذا لا يكون إلا بعد حين، وبالتدرج، وفي المكان المناسب. إذ يجب البدء من أقصى درجات التبسيط. إن مهمة جهاز التحكم عند الفرد الجماعي هي أن يضمن له أفضل تكييف (من وجهة نظره، في حدود إمكانياته ومصالحه) مع ظروف وجوده الاجتماعي، وأن يجعل سلوكه يتوافق مع ظروف الحياة ومعاييرها في متحبه الاجتماعي. ثم إن جهاز التحكم نفسه جزء من الجسد الذي يتحكم به، ولكنه جزء يختلف عن كامل الجسد، بوصفه نوعاً من نقطة أمره في النشاط الحيوي عند الكائن الحي المعقد. وكنتيجة للتطور السوسولوجي نشأت بين جهاز التحكم (الرأس) عند الإنسان وجسده علاقة من نوع جعل الأول سيداً على الثاني.

من المفترض أن يكون الناس في الجانب الجماعي أحراراً، يتصرفون دون قسر، وفق قواعد الاعتبارات الاجتماعية. والمبدأ الأساسي هنا هو: "لا تفعل ما يلحق الأذى بك، وامنع الآخرين من أن يفعلوا ما يلحق الأذى بك. تجنب تردّي ظروف حياتك، واعط الأفضلية للظروف الأحسن". وينجم عن هذا المبدأ الأساسي مبادئ مشتقة منه، هي: "احصل على أكثر ما يمكن بأقل الجهود، استفد من وضعك لما فيه أقصى حد من مصلحتك، تجنب العقاب". من الطبيعي ألا يكون واضحاً دائماً ماذا ينفع الفرد، وماذا يضره، ما هو الأسوأ وما هو الأحسن له. ولكن ذلك لا يلغى المبدأ ذاته. إن الفرد يلتزم بهذا المبدأ بفعل قدرته على تقييم وضعه. والظروف التي يتصرف ضمنها كل فرد وفق هذا المبدأ، يغدو العدو الرئيس للفرد فيها فرداً آخر يعيقه في سلوكه وفق المبدأ نفسه.

يتحقق مبدأ الاعتبارات الاجتماعية الأساسي ضمن منظومة كاملة من قواعد السلوك يتطلب إتقانها سنوات عديدة. ومع ذلك لا يتقنها الناس كافة إتقاناً تاماً وبدرجة واحدة. وغالباً ما يرتكب الناس أخطاء في سلوكهم: وفي العادة تفعل هذه القواعد

فعلها مجتمعة، عبر عملية تحولٍ وتمويهٍ متبادلةٍ فيما بينها. إن الناس يتعلمون هذه القواعد من خلال تجربتهم الخاصة وهم ينظرون إلى الآخرين، وفي أثناء عملية التربية، ويفضل التعليم.

إن سلوك الناس وفق قواعد الجماعة ليس سلوكًا وفق قواعد الأخلاق، حتى ولو كانت تصرفاتهم موضع استحسان من جهة الأخلاق. وما ذلك إلا توافقًا بين مختلف طرق تقييم التصرفات. لقد تم اختراع قواعد الأخلاق في وقت من الأوقات كوسيلة من وسائل دفاع الناس عن النفس في وجه القتل الذي تمارسه الجماعة، أي في وجه أنفسهم بالذات ككائنات جماعية. وثمة قواعد أخلاقية تظل قائمة أيضًا في ظروف سيادة الجماعة. ولكن تلك القواعد تلعب دورًا ثانويًا وشكليًا للغاية. وهنا يصبح الإنسان الأخلاقي عن قناعة (الإنسان الذي يتصرف وفق مبادئ الأخلاق بالضبط) استثناءً نادرًا، وانحرافًا عن المعيار العام. فالناس في هذه الحالة يراعون بعض القواعد الأخلاقية لأن هذا ما تتطلبه قواعد الجماعة، ولا يكونون أخلاقيين، بل يتظاهرون بذلك فقط، وهذا كافٍ. لذلك تختفي عندئذ ظاهرة تأنيب الضمير. ولذلك أيضًا يغدو الناس عندها حرباوات اجتماعية فائقة المرونة. إن الشخص الذي يجعل مبادئ الأخلاق أساسًا لسلوكه وجزءًا لا يتجزأ من طبيعته محكوم عليه هنا بعذابات روحية ونزاعات مع محيطه. وإذا كان الشخص يريد تحقيق النجاح فإن أول ما يجب عليه أن يفعله هو أن يتخلص بالكامل من أخلاقه الداخلية، وأن ينمى في نفسه التشبه بالأخلاق، أي القدرة على استخدام أشكال السلوك الأخلاقي الخارجية كوسيلة لستر جوهره اللاأخلاقي، وكوسيلة لإظهار سلوكه منسجمًا مع قوانين الجماعة.

ليست قواعد الجماعة مجرد شيء سلبي لا أكثر. وهي ليست سلبية أصلاً. إنها موضوعية. إنها تفرز نتائج ينظر إليها بعض الناس على أنها سلبية. ولكنها تفرز أيضًا وسائل حماية من هذه النتائج. ولما كان عدد الناس كبيراً، وكل واحد منهم يتصرف وفقاً لقوانين الجماعة، فإنهم مجبرون، بهذا الشكل أو ذاك، على أن يضعوا حدوداً لبعضهم البعض، وأن ينشئوا وسائل جماعية للدفاع عن النفس.

إذا ما نظرنا إلى أفعال الناس منفردة، بمعزل عن بعضها البعض، وأخذنا كل واحدة من قواعد الجماعة على حدة، خُيِّلَ إلينا أن هذه القواعد ترهاتٌ قليلةُ الشأن. ولكي نفهم الدور الذي تلعبه هذه القواعد في المجتمع حقاً، يجب أن نأخذها في مجملها ومجتمعة، أي أن نأخذ في الحسبان عدد ونوع الأفعال التي يقوم بها ملايين البشر كل ثانية وفقاً لهذه القواعد. ذلك أن هؤلاء الرُّعاعَ بالذات، وليس الجبابرة الطغاة، هم الذين يلعبون دوراً حاسماً في حياة المجتمع، ويجعلون أهم الشخصيات (من وجهة نظر الإنسان العادي المحدود الأفق) دُمى وأدواتٍ في أيديهم. إن جوهر الاكتشافات العلمية في مجال علم الاجتماع لا يكمن في التنقيب عن سرِّ هائل دفين من أسرار حياة المجتمع، وإنما في رؤية الدور الهائل الذي تلعبه الترهات الواضحة للجميع.

ما كل العلاقات القائمة بين الناس خارج الجانب العلمي من المجتمع علاقات جماعية. فالعلاقات بين الأطباء والمرضى، والمعلمين والتلاميذ، والواعظين ومستمعيهم، والفنانين والجمهور، والوالدين والأبناء، وغير ذلك الكثير، ليست علاقات جماعية، وإن كان أطراف هذه العلاقات ينخرطون في علاقات جماعية من مختلف الأنواع. فهذه العلاقات يتطلبها عامل كثرة الناس ذاته، وحتمية نشاطهم الحيوي المشترك بوصفهم متَّحداً واحداً. إن علاقات الأفراد الجماعية الأساسية هي علاقاتهم بالمجموعة، والعلاقات داخل المجموعة، وبين المجموعات. وتتصف علاقة الفرد بالمجموعة بدرجة تبعيته لهذه المجموعة، وعلاقة هذه المجموعة به. كما تتصف درجة التبعية في الحالة الأولى بنزوع نحو التزايد، وفي الحالة الثانية بنزوع نحو التقلص. على أن الفرد يحاول التقليل من تبعيته للمجموعة، بينما تنزع المجموعة للسيطرة التامة على سلوك الفرد وإخضاعه لإرادتها. وتنقسم العلاقات الجماعية بين الأفراد داخل المجموعة إلى علاقاتٍ تبعية (رئيس ومرؤوس)، وعلاقاتٍ تنسيق (تلاحم تعاضد). ويتلخص مبدأ التبعية في أن الموقع الاجتماعي للرئيس أعلى وأهم من موقع المرؤوس، والرئيس يكافأ على نحو أفضل من المرؤوس. فالرئيس يسعى لأن تبلغ تبعيته في

العلاقة مع مرؤوسيه حدّها الأدنى، وتبعية مرؤوسيه في علاقتهم معه حدّها الأعلى. وهذا المبدأ يحكم علاقات التبعية المشتركة. إن الخطر الأكبر على الفرد يأتي من فرد آخر يفوقه بقدراته الاجتماعية في عيون الآخرين والرؤساء. ولذلك فهو يسعى إلى إضعاف موقع هذا الفرد الآخر، أو إلى الحيلولة دون تعزيز هذا الموقع. وهكذا تكون المضايقة المتبادلة، سعى كل طرف لإضعاف الطرف الآخر هنا، أي (الفعل الوقائي)، هو أساس السلوك.

تولى الأدبيات السوسيولوجية الغربية اهتماماً هائلاً لعلاقات الناس العملية، وقدراً ضئيلاً من الاهتمام للعلاقات الجماعية. بل وجلى أن الظواهر الجماعية (الأحزاب، ومؤسسات الدولة) تُدرّس عادة من وجهة نظر عملية (وظيفية)، وليس من وجهة نظر جماعية<sup>(١٢)</sup> ومن ناحية أخرى، فإن العلاقات الجماعية بين الناس تجد في الأدب والأفلام المعدة مشروعيتها الشاملة والموضوعية. ونادراً ما ظهر كُتّاب يلفتون الانتباه إليها كسوسيولوجيين على وجه التقريب<sup>(١٣)</sup>.

إن الظواهر الجماعية موجودة في أي مجتمع كان، ولها قوانينها الشاملة. ولكنها تتخذ في المجتمعات المختلفة أشكالاً مختلفة. وتضرب جنورها عميقاً في هذا الجانب الأشكال الغربية المتميزة في تنظيم الناس الذين لا يربط بينهم العمل، ومبادئ الإدارة، وكل مجال مؤسسة الدولة كمجال. وتبعاً لتشكل الجماعات وتضخّمها كانت الخلايا العملية تطرح مشكلات إدارتها الذاتية، وتنظيمها الداخلي، أي مشكلات تنظيمها في إطار الجانب الجماعي. على أن نظام الإدارة الذاتية في مثل هذه الحالات لم يظهر في إطار مؤسسة الدولة الإقطاعية، بل خارجها وبمعزلٍ عنها، لقد ظهر كسلف للنظام

(١٢) الاستثناءات نادرة. ومنها، على سبيل المثال، دراسة ماكس فيبر للديمقراطية.

(١٣) أذكر، مثلاً، سُلطيكوف شُدريين، وفرانس، ودانينوس، وباركنسون. ففي مؤلفاتهم نقع على وصف الظواهر الجماعية كظواهر شاملة.



السياسى القادم الذى حطم مؤسسة الدولة الإقطاعية وأزاحه. وفى الجاليات الأمريكية ولدت الديمقراطية الغربية أيضاً.

## الغربية، الرأسمالية، الشيوعية

فى كتابٍ عن الغرب لا يجوز أن نتجاهل موضوع الشيوعية. على أن هذه المسألة لا تتعلق باهتماماتى الشخصية، وإنما بكون المجتمع الغربى لا يمكن تصوُّره، فى جوهر الأمر، بمعزلٍ عن ارتباطاته بالشيوعية. ذلك أن إيديولوجيا الشيوعية ولدت فى الغرب، وبوصفها انعكاساً لمشكلات المجتمع الغربى. وقد نشأ المجتمع الشيوعى الفعلى فى روسيا، وإلى حدٍ كبير، تحت تأثير الغرب، بوصف ذلك المجتمع شكلاً متميزاً من أشكال تغريب روسيا. وابتداءً من ثورة أكتوبر ١٩١٧ سار تاريخ الغرب كله تحت راية الصراع ضد الشيوعية الفعلية. وفى غمار هذا الصراع صار الغربُ هذا الغربَ الذى نعرفه. وأخيراً، فإن تحليلَ المجتمعين، الغربى والشيوعى، يبيِّن أن الأوَّل (المجتمع الغربى) ينطوى بصورة "مجردة" على جميع خصائص الثانى (المجتمع الشيوعى) ونزعاته الأساسية. وظواهر الشيوعية ليست مجردُ شىء خارجى بالنسبة للغرب، وليست فقط ما تعرّض لسخرية الإيديولوجيا الغربية وكان مادةً لصبِّ غضب الوعاظ الغربيين، وإنما هى عناصر نمط الحياة الغربى نفسه. وقد كتبوا، وما زالوا يكتبون عنها فى الغرب بانتظام، ولكنَّ طبعاً ليس بمصطلحات ماركسية، بل بمصطلحات أخرى هى مصطلحاتهم" هم. فتأكيد دور الدولة، مثلاً، فى ضبط الاقتصاد وفى حل المشكلات الاجتماعية، كان ولا يزال أمراً مألوفاً فى الإيديولوجيا الغربية. أما موضوع تصميم المستقبل وتخطيطه بأكثر الأشكال والمقاييس تبايناً، فقد صار الآن واحداً من المواضيع الرئيسة. هذا فى حين كان دور الدولة فى الضبط والتخطيط يُعدُّ واحداً من الشرور الرئيسة فى الشيوعية التى شنَّ نقادها عليه هجوماً استمرَّ عقوداً عديدة من السنوات. ولئن كانت الإيديولوجيا والدعاية الغربيتان قد شنَّتتا نقداً ضارياً ضدَّ تضخم جهاز الدولة والفساد وسط الموظفين فى البلدان الشيوعية، فإنهما كانتا تتجاهلان واقع

أن البلدان الغربية لم تكن تتخلف بأى قدر عن البلدان الشيوعية من وجهة النظر هذه، وذلك على طريقة من قال عنه المسيح: يرى القشة في عين جاره ولا يرى الخشبة في عينه. إن الغرب، وبكل بساطة، لا معنى له من دون أفكار الشيوعية وعناصرها. وليس من قبيل المصادفة أن الغرب كان مهدّ نظرية التقريب بين المجتمعين الغربي والشيوعي بوصفهما شكلين من المجتمع الصناعى<sup>(١٤)</sup> قرييين من بعضهما البعض.

ليست الغربية شيئاً جامداً. لقد عاشت وتعيش الآن تطوراً يلعب فيه جانبها - موضعُ بحثنا - أدواراً مختلفة، وتتغير العلاقات بين هذين الجانبين. ويجد ذلك انعكاسه فى الأدبيات الاقتصادية والسوسولوجية، والدعاية المتوافقة مع هذه الأدبيات، على شكل تطيلٍ، مثلاً، فى مرحلة معينة للمشروع الخاص (المبادرة الفردية) والسوق والمنافسة، وإصرارٍ على خصخصة كل ما هو تحت وصاية الدولة بحجة أنه غير قادر على المنافسة وغير مربح، أو غير مهم استراتيجياً<sup>(١٥)</sup>؛ ثم على العكس من ذلك فى مرحلة أخرى، أى على شكل تطيلٍ وتعظيم لدور الدولة كعامل لضبط الاقتصاد وحل المسائل الاجتماعية<sup>(١٦)</sup>.

وقد نجد فى مسار تاريخى معين أن عناصر ظاهرة اجتماعية واحدة وجوانبها وخصائصها المختلفة ربما تتخذ أشكالاً متباينة وتدخل فى علاقات مختلفة تصل بها درجة الانقسام، والتجسد فى تشكيلات اجتماعية مختلفة، بل ومتعادية. وهذا ما جرى للغربية. ذلك أن جانبها المذكورين تمحورا على شكل منظومتين اجتماعيتين، هما الرأسمالية والشيوعية. فعرفت الأولى جُلَّ تطورها فى بلدان الغرب، ولا سيما فى الولايات المتحدة الأمريكية، بينما تطورت الثانية فى بلدان الشرق، وفى روسيا بالدرجة الأولى.

---

(١٤) تطورت نظرية تقارب الرأسمالية والاشتراكية (الشيوعية) فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى على أيدى المفكرين الغربيين أ. غيلبرت، و ب. سوروكين، و ر. أرون، و يا. تينبرغن وسواهم.

(١٥) كما حدث فى ثمانينيات القرن الماضى.

(١٦) كما حدث فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، وكذلك بعد الحرب العالمية الثانية.

بدأ استعمار أمريكا بعد أن كانت ظواهر الغربية قد بلغت مستوى عالياً في أوروبا. فقد تخلصت تلك الظواهر من البيئة الإقطاعية في أوروبا، ومضت تتطور وهي حرة من قيودها بقوة وسرعة مذهلتين، بل في اتجاه واحد، على شكل رأسمالية أساساً، وبالدرجة الأولى. وقد لعبت تلك الجماعات غير الإقطاعية (وغير الرأسمالية بعد)، التي تحدثنا عنها أعلاه، دوراً في هذا التطور معلوماً للجميع. وعلى هذا الأساس، وليس في الفراغ، شبت الرأسمالية الأمريكية. إذ ازدهرت، بالمعنى الحرفي للكلمة، داخل الجماعات الأمريكية تلك المادة البشرية التي غدت مادة بناء الغربية وحصنها المنيع. ثم مارس المجتمع الأمريكي تأثيراً معاكساً على أوروبا التي كانت لا تزال بعد إقطاعية بكتلتها الأساسية، وهذا ما شكّل عاملاً ميسراً ومعززاً لظواهر الغربية وانتصارها في القارة القديمة<sup>(١٧)</sup>.

غير أن ما تطور في أمريكا ليس هو الغربية كاملة، إذ إن التطور الأشد هناك كان من نصيب قطب واحد من قطبي الغربية يسمّى بالرأسمالية على وجه من وجوه التقريب. أما قطب الغربية الآخر فقد وجد التربة الأكثر ملائمة له خارج بلدان أوروبا الغربية، وبالتحديد في روسيا التي كانت منذ بداية دخولها التاريخ تلعب مؤسسة الدولة فيها الدور المهيمن. وبعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ قام فيها نمط نظام اجتماعي سُمي بالشيوعية. وهكذا اتخذت العلاقة بين قطبي الغربية الواحدة (بين الرأسمالية والشيوعية) شكل تناقض تناحري. وفي خضم المواجهة بين الغرب الذي وعى نفسه كرأسمالية، والشرق (روسيا بالأساس) الذي وعى نفسه كشيوعية في أواخر القرن العشرين، تخلص الغرب من نفوره السطحي إزاء مؤسسة الدولة، وسلك طريق

---

(١٧) زار توكفيل الولايات المتحدة الأمريكية عامي ١٩٣١ - ١٩٣٢، وحين أدرك جوهر المجتمع الأمريكي صار داعية للديمقراطية الأمريكية. ولم يكن وحيداً. فقد أصابت دعايته نجاحاً، لأن أوروبا نفسها كانت قد نضجت لقبول شكل حياة جديد. ثم مرت مائة عام، وجاءت الولايات المتحدة إلى أوروبا ولكن ليس على شكل أفكار ونموذج يحتذى، بل كقوة مادية ذات تطلعات للسيادة على العالم.

التصالح بين قطبي الغربية. على أن ما حصل ليس تقارباً بالمعنى الذى كان يتنبأ به منظرُ الغرب، بل كان خلُعاً للحجاب عن جوهر الغربية التى تنطوى فى ذاتها على العناصر الأساسية لكل من الرأسمالية والشيوعية، على حدٍ سواء.

قد يَحُولُ اختلاطُ المصطلحات هنا دون فهم جوهر القضية. ذلك أن ظواهر الجماعة موجودة فى أى مجتمع، بما فى ذلك المجتمع الغربى. وفى ظروف خاصة، كما فى روسيا، قد تغدو هذه الظواهر مهيمنة، وتسفر عن نمط خاص من أنماط المجتمع، شيوعى (أو عن شيوعية فعلية). فإذا ما ألقينا نظرة على تلك الظواهر من وجهة نظر هذا النمط من المجتمع، أمكن أن نَعُدَّها مقدّمات أو عناصر للشيوعية. وبهذا المعنى تكون الشيوعية العنصر الأساس فى الغربية، جنباً إلى جنب مع كلِّ ما وُلدته الرأسمالية.

إن الرأسمالية والشيوعية هما التجسيد الأقصى، والمستوى الأعلى من تطور جانبى الغربية التى تناولناها أعلاه، بل وتجسيد على شكل قطبين ضمن ظروف القرن العشرين التاريخية الملموسة. على أن قوانين الجانبين تعمل معاً وبشكل دائم فى الغربية. ولتوضيح ما قلناه أضرب المثل الافتراضى التالى. لنأخذ منشأة رأسمالية فى بلد غربى. إنها تعمل وفق قوانين الرأسمالية من حيث تنظيم صنع منتوجاتها، والعمل المأجور، والعلاقات مع البنك، والوضع فى السوق. ولكن لنفترض أن هذه المنشأة مضطرة للتخلص بطريقة ما من نفايات الإنتاج المضرّة بالبيئة. فإذا ما أتيحت لأصحاب المنشأة فرصة من أجل التخلص من تلك النفايات دون التعرض للعقاب، ألن يفعلوا ذلك، يا ترى؟ طبعاً، سيفعلون. وسيدفعون رشوة للأشخاص المعنيين. وإذا ما كانوا قادرين على مضايقة المنافسين لهم ليس فى سوق حرّة ما، بل فى مسائل لا صلة لها بالسوق، ألن يقدّموا على ذلك؟ بلى، سيقدّمون. وهذا ما يجرى على الدوام. ذلك يعنى أنهم يتصرفون وفق قوانين الجماعة، أو وفق قوانين الشيوعية، إذا ما نظرنا إليهم من موقع الشيوعية المتطورة.

فتضخّم الجهاز البيروقراطي، وامتيازاتُ الموظفين، ورواتبُ المدراء العالية، والفسادُ، وسوى ذلك من ظواهر الحياة اليومية في الغرب، كل ذلك ظواهر مشتركة بين البلدان الغربية والبلدان الشيوعية، أي كلُّه ظواهر شيوعية. وينحصر الفرق بين الجانبين في أن هذه المظاهر تشكل في البلدان الشيوعية الجزء الأكبر من الحياة، بينما لا تشكّل في الغرب إلا جانباً واحداً من جوانب الحياة، بالإضافة إلى الرأسمالية.

## العامل البشري

للغرب محرّماته. وبالرغم من أن هذه المحرّمات لا يرد ذكرها في أي من القوانين، فإن المجتمع يعاقب بلا رحمة كل من يخالفها. ومن هذه المحرّمات الحديث عن حقيقة المشاكل القومية والعرقية.

إن محاولة الحديث، بمستوى ما من الموضوعية العلمية، عن أولئك الذين بنوا الغرب كظاهرة اجتماعية تاريخية، لا بد أن تؤدي حتماً إلى اتهامات بالعنصرية. والخوف من مثل هذه الاتهامات يرغم الباحثين إمّا على تجنب الخوض في هذا الموضوع باللجوء إلى الصمت، وإمّا على الاكتفاء في الحديث عنه بعبارات مطّاطة تجعل النتائج العلمية في مستوى الصفر، وإمّا على الانخراط في جدل مع العنصريين يأخذ الباحثين كلياً إلى مجال الإيديولوجيا. على أنه يتعدّر فهم ظاهرة الغربية فهماً علمياً موضوعياً ما لم نأخذ بالحسبان مادة البناء الأساسية التي صنّع منها المجتمع الغربي، أي المادة البشرية تحديداً.

ومما لاجدال فيه أن نمط النظام الاجتماعي يحدّد جوهرياً نمط الناس الذين يملكون هذا النظام. كما أن نمط حياة الجماعة البشرية يحدّد أيضاً طبيعة أعضائها. فالناس يتكيفون مع ظروف وجودهم الاجتماعي. وصحيح بالقدر نفسه أن هذا النمط من النظام الاجتماعي يخلقه أناس من نمط محدد. إن ظروف الحياة في الغرب تولّد عند الناس صفات محدّدة لا غنى لهم عنها من أجل الحياة في هذه الظروف. غير أن



الغرب، كظاهرة اجتماعية متميزة، هو نتيجة عمل أناس من نمط محدد خلال عدد كبير من الأجيال. وهكذا، فإن التأثير هنا متبادل، يأتى من الجائين. إن أناساً من نمط معين ينشئون حضارة من نمط معين، وهذه الحضارة تنتج أيضاً من يكون صورة عنها. وما من أثر للعنصرية فى هذا القول إطلاقاً.

قبل الحديث عن الصفات النوعية لدى مجمل الشعوب التى شكلت، وأنشأت بنشاطها الحيوى، كائناً سوسيوولوجياً اسمه "الغرب"، سوف أطرح أفكاراً عامة، منطقية بخصوص تقييم صفات الشعب.

عندما يتوجب عليك تقديم توصيف لشعوب بكاملها، أو لمجموعة من الشعوب (الغرب جملةً شعوب عديدة)، تجد بعض أبناء هذه الشعوب يعدون ذلك توصيفاً لهم. وهم بذلك يرتكبون خطأً منطقياً فاحشاً عندما يعممون على أنفسهم ما يقال عن شعوب بكاملها، أى عن جماعات تضم عدداً كبيراً من البشر الذين ولدوا على مدى أجيال كثيرة. ذلك أن الشعب ليس مجرد كتلة من الناس المتماثلين. إنه متَّحدٌ يتألف من أناس متنوعين، إنه ظاهرة متكاملة. ويمكن أن نرى فى كل شعب كبير جميع ما يخطر على البال من أنماط البشر. وما من نمط من أنماط الإنسان فى فرنسا، وإيطاليا، وإنكلترا وغيرها من البلدان، إلا ويمكن أن نجد مثيلاً له بين الناس من النمط ذاته. إن إنكليزياً أو فرنسياً بمفرده قد يبدو وكأنه روسى. كما أن روسياً بمفرده قد يبدو وكأنه إنكليزى أو فرنسى. ومع ذلك، فإن هذا ليس برهاناً على تماهى الشعوب. ذلك أن الشعب كائن حى، ولئن كان يتألف من أفراد، فإنه لا يُختزل فيهم. إن صفات الشعب ليست مجرد صفات إجمالية لكل من أبنائه على حدة. إنها صفات الشعب من حيث إنه كلٌّ، مثلما أن صفات الغابة ليس صفات كل شجرة فيها. ولكى نعرف ماذا يمثل شعب بعينه يجب أن ننظر إليه من خلال مجموع أبنائه، وهم فى وطنهم، أى فى بيئة حياتهم الطبيعية، وفى جميع جوانب هذه الحياة. ولا بد أيضاً من تبين صفات الناس التى تتكرر ويعاد إنتاجها بهذا القدر أو ذاك، وعلاقة مواطنيهم بهم، وكيفية تأثير هذه الصفات على

مصير الناس، ولذلك يمكن أن نجد شعباً لا يتكرر فيه كثيراً ظهور بعض المواهب. غير أن هذه المواهب إذا ما ظهرت يمكن أن تلقى التقدير والتشجيع، وأن تجلب لأصحابها النجاح، كما أن الشعب عامة قد يراكم تجليات هذه المواهب فيكسب سمعةً ويذيع صيته على أنه شعب موهوب.

تتألف شخصية الشعب من جملة معينة من الصفات، وليس من صفات متفرقة. وهذه الجملة من الصفات ليست هي ما يميز شعباً عن غيره من الشعوب، ويمكن أن تندرج في عداد الصفات التي تكون شخصية الشعب صفات مشتركة بين هذا الشعب وغيره من الشعوب، أو صفات ليست موجودة عند الشعوب الأخرى. ولكن جوهر الأمر هنا ليس في تمييز شعب عن غيره من الشعوب (فهذا تمييز ساذج)، وإنما هو موجود تحديداً في شخصية ذلك الشعب بوصفه ظاهرة سوسولوجية، بصرف النظر عما تتصف به الشعوب الأخرى.

إن شخصية الشعب مركبٌ معقد ومتناقض من الخصال، ينعكس بكثرة وجلاء كبيرين في تصرفات بعض الناس، وفي بعض تصرفات الناس، ومن غير المجدى تقسيم هذه الخصال إلى سيئة وأخرى حميدة، إيجابية وسلبية. ذلك أن صفات معينة تكون إيجابية في بعض الظروف، وسلبية في ظروف أخرى، وتكون في بعض الظروف قوة، وفي ظروف أخرى ضعفاً. فمن المعروف أن عيوبنا هي استمرار لمزاياتنا، ومن العدل بالقدر نفسه أن نقول إن مزاياتنا استمرار لعيوبنا.

نادراً ما تجتمع صفات شخصية الشعب في أفراد منه. وما هذه الصفات بالنسبة لأفراد منه إلا احتمالاً كامناً. إنها مبعثرة في عدد كبير من الناس، يتجلى جزء منها بمزيد من الحدّة عند بعضهم، وجزء آخر بمزيد من الحدّة عند بعض آخر. وهكذا تتجمع هذه الصفات فتنتج عنها أنماط مختلفة في إطار كل شعب، وغالباً ما يكون من نصادفهم في الواقع ليسوا أنماطاً شائعة تجسد جميع صفات الشعب، وإنما هم أنماط شائعة تجسد جزءاً من هذه الصفات.

## الغريوى

كان لأفكار المساواة بين البشر تأثير هائل منذ القرن الثامن عشر. ولن أجادل فى أن هذه الأفكار لعبت دوراً هائلاً فى تاريخ البشرية عامة، وفى تطور الغرب على وجه الخصوص. لقد اتصفت هذه الأفكار فى البداية بطابع سياسى حقوقى. ولم يكن ثمة جديد أبداً فى ما حملته من معنى أخلاقى، إذ إن المسيحية أعلنت منذ البداية مبدأها القائل إن جميع الناس متساوون أمام الله. ولكن فيما بعد وصل منظرون ووعاظ "تقدميون" من شتى الأصناف بأفكار المساواة إلى حدِّ العبث، إذ حملوها معنى انعدام الفروق بين أبناء مختلف الشعوب حتى فى القدرات الطبيعية الكامنة. أما الآراء القائلة بأن الشعوب تتباين من حيث الملكات الطبيعية، فصارت تقيم على أنها تجلُّ للعنصرية والقومية الشوفينية.

مما لاشك فيه أن ثمة صفات إنسانية عامة، وهى معروفة للجميع. ومنها، قبل كل شىء، أن كل إنسان سوىَّ يتمتع بعضوٍ توجيهِ فطرى (الدماغ)، وجسمٍ خاضع للتوجيه. ومهمة الأول هى أن يضمن للجسم الحفاظ على نفسه، والتكيف مع ظروف الوجود. وكل إنسان سوىَّ يسعى لأن يقوم بذلك على أفضل نحوٍ (من وجهة نظره)، أى لما فيه مصلحته الشخصية. على أن هذه الحقيقة البديهية كانت معروفة للبشر منذ غابر الأزمان. وقد رسَّخوها فى مآثورات الحكمة الشعبية ("ما حكَّ جلدك غير ظفرك"، و"يبحث السمك عن الأعماق، والناس عما هو أفضل...") قبل أن يبدأ المفكرون المحترفون باستخدامها فى نظرياتهم بوقت طويل.

منذ أيام آدم سميث (ولم أعمد للبحث عن مراجع أقدم عهداً) شاع تقليد ينظر إلى صفة الإنسان العامة الأزلية المتمثلة فى الاسترشاد بمصالحه الشخصية على أنها مرتبطة بالملكية الخاصة والعمل الحر، ويرى فى هذه الصفة أساساً طبيعياً للرأسمالية. وهذه قناعة إيديولوجية محض. إنها باطلة من وجهة نظر العلم. صحيح أن المصلحة الشخصية، كأساس لسلوك الإنسان، صفة فطرية حقاً. ولا ترتبط ارتباطاً ضرورياً بآى نظام اجتماعى، ولا بآى نمط من أنماط المجتمع. لقد كان الناس موجودين

قبل ميلاد الرأسمالية بمئات آلاف السنين (إن لم يكن بملايين السنين). وكانوا دائماً يتصرفون بناء على مبدأ المصلحة الشخصية. وفي المجتمع الشيوعي كان الناس يسترشدون بهذا المبدأ على النحو ذاته تماماً. وعندما كان الناس في البلدان الشيوعية يتقاعسون عن العمل، ويمارسون التنبئة، والخداع، والتمويه، والغش، ويسرقون، ويرتشون ويرشون، ويشغلون بالوشاية والنميمة... إلخ، إنما كانوا يسترشدون بمصالحهم الشخصية، وليس بأى مصالح أخرى.

ما من نمط من أنماط النظام الاجتماعي يقوم على أساس صفات الإنسان العامة، بما فيها دافع السلوك الذي نتحدث عنه. فهذه الصفات تظل فعالة في أى من تلك الأنماط، وتتخذ شكلاً مختلف باختلاف ما تتصف به حياة الناس من خصوصيات في تلك الأنماط. وكما تتكيف الكائنات الحية جميعها في عالم الحيوان مع ظروف وجودها، كذلك يتكيف الناس في العالم الاجتماعي. إن صفات الإنسان العامة لا تفضل أى نمط على غيره من أنماط المجتمع. بل هي، على العكس من ذلك، تتخذ من المظاهر وأشكال التجسد ما يتطلبه نمط المجتمع الذي تكون فيه. وطبيعة المادة البشرية تؤثر في هذه الجماعة البشرية أو تلك على اختيار نمط المجتمع، وكذلك على نوع القوانين الداخلية التي تطبق في هذا النمط من المجتمع. على أن ما يلعب دوراً هنا ليس ما لدى جميع الناس من صفات عامة، بل ما لدى أناس معينين من صفات خاصة هي صفات الشعب بأكمله، وليست صفات كل شخص بمفرده. إنها صفات الأفراد أيضاً، ولكن ليس بوصف كل منهم نسخة عن روبنسون كروزو، بل كأفراد في كتلة بشرية معينة تتوالد جيلاً بعد جيل على مدى قرون وآلاف كثيرة من السنين.

لقد نشأ الغرب وتطور، وتدعم، وحمى نفسه، واحتل مكاناً على الكوكب ليس فقط بفضل كائنات بشرية ما، وإنما بفضل وجود بشر من نمط معين أسميهم "الغربيين". فقد كان من المستحيل أن يتكون الغرب عن طريق أية مادة بشرية أخرى غيرهم. وليس بوسع أى مادة بشرية أخرى إعادة إنتاج الغرب والحفاظ عليه في المستوى نفسه الذي وصل إليه.

سأذكر صفات الغربيين المميزة، أو بالأحرى صفات غربييتهم، إنها الروح العملية، تغليب المصلحة على العاطفة، الحرص وحسن التدبير، القدرة على الصراع التنافسي، روح الابتكار، القدرة على المجازفة، البرودة، الخشونة العاطفية، الميل إلى الفردية، الشعور العالي بالكرامة الشخصية، الطموح إلى الاستقلال والنجاح في العمل، الميل إلى إتقان العمل، الميل إلى الشهرة والاستعراض، الشعور بالتفوق على الشعوب الأخرى، الميل إلى التحكم بالآخرين أشد مما عند الشعوب الأخرى، القدرة على الانضباط الذاتي والتنظيم الذاتي<sup>(١٨)</sup>.

هناك اعتقاد بأن الغربي فردى، وذلك بخلاف كثير من أنماط الناس الآخرين الذين يعدون تعاونيين. وإذا لم نُضف على كلمة "فردى" و "تعاونى" أى معنى وعظى أو قيمي، نستطيع أن نوافق على هذا الرأى. ذلك أنه ما من شخص سوى إلا ويعى نفسه، بهذا الشكل أو ذاك، على أنه فرد ("أنا")، وعضو فى متّحد يضم من هم على شاكلته ("نحن"). ولكن موضع الاختلاف هو أشكال هذا الوعى، ونسبة الـ "أنا" والـ "نحن" فى ذهنية الشخص، والعلاقات المتبادلة بين هذين الحدين وتجلياتها فى سلوك الناس. ذلك بمجمله ما يعطى أنماطاً مختلفة من الناس بهذا المعنى.

لقد ظهر الغربيون وبلغوا ما هم عليه اليوم فى إطار الحضارة الأوروبية الغربية التى لعبت فيها الـ "أنا" دوراً مهيمناً ضمن ثنائية "أنا - نحن"، وكانت هذه الـ "أنا" أكثر تطوراً مما عند الشعوب الأخرى، ومما فى الحضارات الأخرى، بينما كانت الـ "نحن" اتحاداً مجموعة من الـ "أنا" الشديدة التميز، ويمكن القول إنها كانت اتحاداً

---

(١٨) عرف أ. إ. غيرتسن آخر صفة ذكرناها من صفات الغربيين بأنها انعدام الحرية الداخلية. فهو يقول (فى كتابه "ماض وأفكار") إن حرية الإنكليزى فى المؤسسات السياسية أكبر مما هى فيه بالذات. أما الأمريكان، حسب رأى غيرتسن، فقادرون بصفة عامة على تدبير أمورهم بدون حكومة، فهم أنفسهم يقومون بدور القيصر ومديرية الشرطة والجلاد. وقد قدمت م. بارانوقا وصفاً فائق الجمال للغربيين، من وجهة النظر هذه.



فى إطار "أنا - الحضارة". وبفضل الغربية تطورت صفة الغربيين هذه إلى أن بلغت أعلى مستوى حتى شملت مجالات وجودهم كافة. فالحضارة الأوروبية الغربية، والغربية التي تطوّرت على أساسها، هما من وجهة النظر هذه ظاهرتان فريدتان فى تاريخ البشرية. والغربويون بهذا المعنى فريديون، ومجتمعهم مجتمع فردي.

إن نمط حياة البلدان الغربية كلّ نتيجةً لفرديّة الغربيين، وتجسيد لهذه الفرديّة. وإذا ما أردنا التعبير عن جوهره السيكولوجي بوضع كلمات أمكننا القول إن المبدأ الأساس فى وجود الغربيين هو: اعملْ لنفسك وأنت تنظر إلى الآخرين جميعاً بوصفهم وسطاً وأداة وجود. وهذا، بالطبع، قول فيه قدرٌ عظيم من القسوة. وإذا ما أشار القارئ، فى معرض الدفاع عن الغربيين، إلى صفات إيجابية عندهم، فإننى لن أجادله. ذلك أننى، أولاً، لا أرى ما يشين فى المبدأ الذى أوردته. وكان المفكر الروسى ن. غ. تشرنيشيفسكى، الذى ترجم أعمال جون ستيوارت ميل وروج لها فى روسيا فى القرن التاسع عشر، قد أشاد عالياً بهذه الميزة عند الغربيين، وسماها "الأناية العاقلة"<sup>(١٩)</sup>. وثانياً، لأن مبادئ الفرديّة الاجتماعية لا تحول دون أن تتطور عند الناس صفات إيجابية كثيرة من وجهة النظر الأخلاقية، مثلما لا تحول مبادئ التعاون الاجتماعى دون أن تتطور عندهم صفات سلبية. فمن المستحيل، مثلاً، أن نتصور الشعور الراقى بالكرامة الشخصية، والسعى إلى الحرية الشخصية من دون الفرديّة الاجتماعية، (من دون "الأناية العاقلة"). فى حين أن قمع الشخصية أمر مألوف فى المجتمعات التعاونية.

ووفقاً لفهمى فإن الغربوى ليس إنساناً نمطياً، متوسط الإمكانات أو كثيراً ما نصادفه، ووصفى له هو توصيفٌ مجردٌ وإجمالىٌ لمادة الغرب البشرية بوصفها تضم

---

(١٩) يوضّح ن. غ. تشرنيشيفسكى نظرتة إلى "الأناية العاقلة" فى روايته "ما العمل؟"، وقد ترجمها الأستاذ يوسف سلمان إلى العربية ونشرتها وزارة الثقافة السورية أواخر ثمانينيات القرن العشرين.

أعداداً كبيرة وكتلة من الناس. فصفت الغربي منحلّة في هذه الكتلة، وموزعة بين عدد كبير من الأفراد بنسبٍ وتوليفاتٍ ومقاديرٍ مختلفةٍ أشدّ الاختلاف. ولكن "محلول" الغربية هنا على درجة من القوة تسمح لنا، توجّياً لمصلحة التبسيط العلمي، أن ننظر إلى كتلة الناس كلها كعدد كبير من الغربيين النمطيين.

لقد آلت بلدان أوروبا الغربية إلى حالة أهلتها لإنجاب ما يكفي ممّن هم من هذا النمط، أي من الغربيين الذين كانوا ملائمين لبناء المجتمع الغربي تحديداً. وهنا أكرّر وأؤكد أنه كان متعذراً فعلُ أيّ شيء من هذا القبيل بمادة بشرية أخرى، وحتى مثال الولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن أن يكون حجةً ضد هذا القول. صحيح أن الناس جاءوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية من شتّى أصقاع الأرض. ولكن من صنع الحضارة الأمريكية ليسوا هم، وإنما صنعها أناس من الطراز الغربي، أي أناس من نمط معين جاءوا من أوروبا الغربية. هؤلاء هم الذين شكّلوا نواة المبادرة، والقوة المحركة لهذه العملية، وهم الذين استخدموا الآخرين وشجّعوهم على المشاركة فيها. وبعد أن تم إنجاز العمل الرئيس في هذه العملية، أي بعد أن نهضت هذه الحضارة واكتسبت قوة على المضيّ قدماً في اتجاه محدد، وجدت كتلة الناس الذين هم من نمط آخر نفسها في وضع يؤهلها لدعم هذه العملية. إلا أن المجددين في هذا الإبداع التاريخي كانوا أناساً من النمط الغربي. وأعتقد أنهم باقون إلى الأبد الأساس والضمانة لوجوده.

إن كل شعب من الشعوب قادر على الإفادة من خيرات الحضارة الغربية إذا ما قدّمت له مجّاناً. ولكن ليس كل شعب قادراً على بناء حضارة من هذا النوع، أو حتى على أن يكون مشاركاً في بنائها وإعادة إنتاجها. والرأي القائل بأن مختلف النظم الاجتماعية درجات في تطور "البشرية" المجردة ذاتها، وبأن في مقدور أي شعب أن يجتاز هذه الدرجات في سياق تطوره، هو رأي باطل عملياً ومن وجهة نظر العلم أيضاً. فالحضارة الغربية بنتها شعوب ذات طباع وشخصية محددة، وهي إبداع فريد لا يتكرر، ويندرج في طبيعة تلك الشعوب وشخصيتها. أما الشعوب الأخرى فقد أقامت حضارات من نمط آخر، أكثر توافقاً مع شخصيتها وظروف حياتها.

ويمكن أن نقسم تاريخ الغريبيين إلى مرحلتين، فقد جرى في المرحلة الأولى منهما اصطفاء فردي للناس الذين يتمتعون بصفات الغريبيين، وهذه الصفات ليست من اختلاق المفكرين وأصحاب النزعات الإنسانية، وإنما كانت موجودة في الناس المصطفين على شكل ملكات حبّتهم بها الطبيعة، ومقدّرات متطوّرة إلى هذا الحدّ أو ذاك. وكان أصحاب هذه الصفات يتفوّقون على الآخرين في بعض الجوانب، أي أنهم، مثلاً، كانوا أكثر فطنة، ودهاءً، وغروراً، وبرودة دم... إلخ. ومع مرور الزمن تزايد عدد هؤلاء، فصاروا قدوة للآخرين، ومهدوا الطريق لظهور مثل تلك الصفات فيهم، ثم حظيت هذه الصفات بالرعاية والتشجيع. لقد جرى شكل من أشكال الاصطفاء يشبه الاصطفاء الاصطناعي الرامي إلى استيلاء أنواع جديدة من النبات والحيوانات الداجنة.

وقد بزغت تباشير المرحلة الثانية في النصف الأول من القرن العشرين، ثمّ تكشّفت بكامل قوتها بعد الحرب العالمية الثانية. وفي هذه المرحلة حلّت محلّ الاصطفاء الاصطناعي طرائق جديدة، حيث راحوا يصنّعون أعداداً كبيرة من الناس في قالب واحد، عن طريق وسائل اصطناعية، وتحديدًا وفق مواصفات معيّنة تستخدم فيها وسائل التربية، والتعليم، والإيديولوجيا، والدعاية، والثقافة، وعلم النفس، والطب. فكان ما جرى شبيهاً بما حدث عند تحسين سلالات من الحيوانات الداجنة والنباتات الزراعية بواسطة المحفّزات الصناعية، والأسمدة الكيماوية، وهندسة الجينات.

### جانب الغريوية العمليّ

يُعَدُّ الاقتصاد، بل والاقتصاد الرأسمالي على وجه الخصوص، أساس المجتمع الغربي. أمّا أنا فأعتقد أن ما يشكل أساس المجتمع الغربي هو الغريوية ككلّ واحد، في حين أن الدور الحاسم في إطار الغريوية ما يزال يلعبه حتّى الآن جانبها العمليّ الذي يشمل الاقتصاد بالمعنى المذكور، ولكنه لا يقتصر عليه. على أن العلاقة بين

الجانبيين العملى والجماعى لا تظلّ ثابتة بالملق. ونحن نعيش الآن حقة يكتسب فيها الجانب الثانى وضعا متعاظم الأهمية فى المجتمع. وليس من المستبعد أن يقدو هو الجانب المهيمن. ولكن ذلك لن يلغى الدور التاريخى للجانب العملى، ولن يعنى تغيير نمط المجتمع نفسه.





## بنية المجتمع الخليوية

منذ كتاباتي الأولى في المواضيع الاجتماعية خلال سبعينيات القرن العشرين<sup>(٢٠)</sup>، عبّرت عن فكرة مفادها أن حياة الأغلبية الساحقة من أعضاء مجتمع معاصر، كبير ومتطور بقدر كافٍ، إنما يحددها العامل الأساسي التالي. إن أفراد تلك الأغلبية مضطرون في حياتهم اليومية للتعاطي ليس فقط مع مجرد أفراد متفرقين، بل مع أفراد يمثلون تجمّعات من الناس، أي مع منشآت، ومؤسسات، ومنظّمات ومجموعات. وهذه التجمّعات هي ما يعرفه الجميع من متاجر، ومعامل، وفروع بنوك، وشرطة، ومؤسسات سلطة، ومستشفيات، ومدارس، وجامعات، ومطارات، ومحطات سكك حديدية، ومسارح، ودور نشر، وأحزاب... إلخ. زدّ على ذلك أن الأغلبية الساحقة من الناس ملزمة بالعمل من أجل تأمين وسائل العيش لأنفسهم ولأفراد أسرهم، ولتحقيق النجاح، والترقّي في العمل، واكتساب الكفاءة ورفع سويتها، وتلبية الحاجة للعمل والتواصل مع الناس الآخرين، ليس كأخرين لا على التعيين، بل تحديداً مع الناس ضمن تلك التجمّعات، ومن خلالها، وبمساعدها. ذلك أن وضعهم كأعضاء في المجتمع يحدده بالدرجة الأولى وضعهم في هذه التجمّعات. لقد أطلقتُ على تلك الأغلبية الساحقة اسم "خلايا المجتمع"<sup>(٢١)</sup>. فالكيان العضوي الاجتماعي يتكوّن من خلايا.

---

(٢٠) في كتيبي "القمم السحيقة"، و"على مشارف الجنة"، و"الشيوعية بوصفها واقعاً".

(٢١) بدأ كارل ماركس وصف الرأسمالية من "السلعة" بالنظر إليها كخلية. ولا يوجد أيّ شيء آخر هنا، سوى الكلمة العامّة "خلية"، يشبه فهمي خلية الكيان الاجتماعي الحي.

ولكنه لا يتكوّن من أفراد إلا بمقدار ما تتكوّن منهم الخلايا، أو بمقدار ما هم فعّالون كخلايا. إن تشابك الخلايا وحده ما يضيف على جماعة كبيرة من الناس الذين يعيشون في مكان معيّن صفة الكل المنظّم. لذلك ينبغي أن ينطلق التحليل العلمي للمجتمع من دراسة خلاياه.

لقد قمت بتطوير هذه الفكرة بأكبر قدر من التفصيل في جملة من الكتب والمقالات التي كرّستها لتحليل المجتمع الشيعي. وقليل من أولى هذا الموضوع الاهتمام المطلوب. إذ إنني لم أقع على أية دراسات تتناول بنية المجتمع الغربي الخليوية. أمّا ما أتيج لي أن أقرأه حول هذا الموضوع فلا يتعدّى كلاماً له صلة بمواضيع أخرى، كمشكلة الإدارة والتسيير، على سبيل المثال (٢٢).

تتنوّع خلايا المجتمع المعاصر، وتتباين من حيث الحجم، والبنية، والتخصص، والوضعية القانونية، ومن حيث ديمومتها، وكذلك من حيث كثير من المؤشرات الأخرى. ثمة خلايا تتألف من آلاف كثيرة من البشر (٢٣)، وثمة خلايا تتألف من بضعة أشخاص فقط. وثمة خلايا تدوم عشرات، بل مئات السنين، كمؤسسات الدولة وبعض البنوك والمنشآت. ومثل هذه الخلايا المعمّرة تشكل قوام الكيان الاجتماعي. وثمة خلايا لا تدوم سوى بضعة أعوام، بل وأحياناً بضعة أشهر، كما هو حال الشركات الصغيرة التي تعود إلى الظهور من جديد في البلدان الغربية، ثم سرعان ما تفلس بأعداد كبيرة (أكثر من ٥٠٪). وينتشر بعض هذه الخلايا على مساحات كبيرة، بينما يظل بعضها الآخر محصوراً في حيز ضيق. كما أن بعضها قانوني، وبعضها الآخر غير قانوني يحافظ على بقائه بقوة التقاليد، أو سرّاً، كما في مجال الجريمة المنظمة، مثلاً.

---

(٢٢) انظر: Peter Drucker. The Function of Management. New York, 1986

(٢٣) عام ١٩٨٥ كان عدد العاملين في شركة "جنرال موتورز" ٨٠٠ ألف شخص.

ليس للخلايا الاجتماعية نظرية عامة (علم الخلية الاجتماعية، مثلاً). ثم إن دراسات المجموعات الاجتماعية في إطار سوسولوجيا "لموسسة"، رغم كونها ممتعة وقيمة بحد ذاتها، لم تسع للقيام بهذا الدور، على حد علمي. لذلك أراني مضطراً لإبداء بعض الملاحظات بخصوص الملامح العامة للخلايا الاجتماعية.

لا تُعدُّ كلُّ جماعة أو تجمُّع من الناس خليةً من خلايا المجتمع. فلا ينطبق مفهوم الخلية على جمهور في متجر، أو على ركاب قطار أو طائرة، ولا على مشاهدين في مسرح أو ملعب رياضي. ذلك أن الخلية تجمُّع من الناس لهم اختصاص معين يشكِّل كلاً واحداً، وفي إطار هذا الاختصاص تعمل الخلية بوصفها كلاً واحداً. كما أن للخلية عضواً، أو جهازاً تحكِّم قد يكون شخصاً بعينه، أو مجموعة من الأشخاص. أمَّا في الخلايا الكبيرة فقد يكون تنظيمًا معقدًا. وبدون هذا العضو، جهاز التحكم، لا تستطيع الخلية أن تعيش. على أن الناس الذين تتألف منهم الخلية ينقسمون منذ البداية إلى من يوجِّه ومن يخضع للتوجيه. وهذه العلاقة بين الطرفين واحدة من العلاقات الاجتماعية الأساسية في أي مجتمع ذي بنية خلية. إنها مصدر لعدم المساواة الاجتماعية بين الناس لا يمكن التغلب عليه، وذلك لأن الموجهين من حيث المبدأ يكافئون على نحو أفضل ممَّا يكافئون من يخضعون للتوجيه، ووضعهم أرفع مكانة من وضعهم أيضاً.

إن أهم سمة من سمات الخلية هي أن الناس يعملون داخلها ويتلقون جزاء عملهم. وهم، كما أشرنا أعلاه، يرفعون من مستوى كفاءتهم داخل الخلية، ويحققون النجاح ويترققون في عملهم... إلخ. إنهم، باختصار، يؤدِّون وظائفهم الأساسية، ويكسبون وسائل عيشهم لقاء ذلك. على أن هذه السمة من سمات الخلية هي الحاسمة. وثمة عدد كبير من الحالات التي يكون فيها لتجمع الناس جهازاً موجِّه، ويعمل بوصفه كلاً واحداً، ولكنه لا يكون خلية. مثال ذلك مجموعة من السياح يقودها دليل سياحي. وسأورد على شكل مثالٍ آخر حالةً ربَّما تكون طريفة. فعندما يجتمع رؤساء الحكومات، والوزراء، وأهمُّ المصرفيين أو غيرهم من الشخصيات المهمة لمناقشة بعض المشكلات وحلِّها، فإن من يجمعهم في إطار كلِّ واحدٍ لبعض الوقت هم موظفون من فئة خاصة

يشرفون على إجراءات إدارة الاجتماع. ورغم أن هذه الشخصيات المهمة تدير حكومات، ومجالات اقتصادية، وبلداناً بكاملها، فهي من وجهة نظر هذه الإجراءات تصبح خاضعة للتوجيه. إلا أن اجتماعها ليس خلية، ما دام لا يتمتع بالصفة الأساسية من صفات الخلية.

وتنقسم الخلايا إلى مجموعتين وفقاً السمة التالية. إذ تندرج في المجموعة الأولى تلك الخلايا التي تقدم للمجتمع كُله الغذاء، واللباس، والسكن، ووسائل المواصلات وغيرها مما يلبي حاجات الناس. فلنسم هذه الخلايا إنتاجية، أو عملية. بينما تندرج في المجموعة الثانية تلك الخلايا التي تضمن وحدة الكيان الاجتماعي وحمايته، والنظام العام، وصوغ قواعد سلوك الناس، وأشكال تجمعاتهم، واحترام تلك القواعد والأشكال. ولنسم هذه الخلايا جماعية. على أن الفرق بين المجموعتين ليس فرقاً مطلقاً. فخلايا إحدهما تقوم أحياناً وجزئياً بأداء وظائف خلايا المجموعة الأخرى. وثمة خلايا مختلطة. كما أن كلا من المجموعتين يخضع لمفعول قوانين كِلا الجانبين العملي والجماعي، ولكن بدرجات وأشكال مختلفة. ومع ذلك فإن الفرق موجود ويلعب دوراً مهماً في تحديد طابع الكيان الاجتماعي.

يؤدي الناس ضمن الخلايا أدواراً مختلفة، ويشغلون مواقع مختلفة. وهرمية، هذه المواقع هي أساس لا خلاص منه يقوم عليه عدم المساواة الاجتماعية والمادية بين الناس في المجتمع، وتنشأ بين أعضاء الخلايا علاقات اجتماعية من شتى الأنواع تشكل أساس الهيكل الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي للسكان. ومن وجهة النظر هذه فإن بنية المجتمع الخليوية هي التي تشكل نظامه الاجتماعي. على أن هذا النظام الاجتماعي ليس شيئاً موجوداً بمعزل عن الاقتصاد، والسياسة، والإيديولوجيا، والثقافة ومجالات المجتمع الأخرى، أو بمحاذاتها. بل إنه يخترق مجالات المجتمع كافة، نظراً لأنها جميعها ذات بنية خليوية، وتتصف، من وجهة النظر هذه، ببعض السمات المشتركة.

## الخلايا العملية في الغربية

كلُّ ما قيل أعلاه ينطبق تماماً على خلايا المجتمع الغربي. ولكن ذلك، بالطبع، لا يحيط بخصوصية سمات تلك الخلايا. وسنتناول بالبحث أدناه الخلايا العملية أولاً. إنها تلك المنشآت التي يعرفها الجميع وتزود المجتمع بالأشياء والخدمات النافعة مقابل مكافآت محددة، فهي تباع هذه الأشياء والخدمات. وهناك دراسات اقتصادية لا حصر لها عن تلك المنشآت التي سيكون على، مع ذلك، أن أقول شيئاً عنها، نظراً لأنه بغير ذلك يتعدّر تماماً فهم الغرب بأي شكل من الأشكال، ناهيك عن أنني أودُّ لفت الانتباه إليها من منظورٍ له صفةٌ نظرية محددة.

نستطيع تلخيص العلاقة بين الخلايا العملية والمجتمع باختصار على النحو التالي: إن هذه الخلايا "تعمل نفسها" مقابل "إعالتها" المجتمع كله. ويمكن تأويل ذلك بالقول إنها موجودة بفضل استغلالها المجتمع، وعلى نحوٍ يجعل المجتمع موجوداً بفضل استغلاله تلك الخلايا أيضاً. على أن لهذه التأويلات ظلالاً إيديولوجية. وأعتقد أننا إذا ما استبعدنا المعنى الإيديولوجي من كلمة "استغلال"، وأبقينا على معنى "الاستفادة" وحده، وجدنا أنفسنا أمام استغلال متبادل. ومن الصواب القول أيضاً إن المجتمع "يعمل نفسه" على حساب كونه يتيح للخلايا العملية أن "تعمل نفسها". ولكن ذلك لا يلغى أن بعض الناس في المجتمع يستغل بعضهم الآخر بالمعنى الإيديولوجي.

لقد ظهرت الخلايا العملية في الغربية، وما زالت تظهر حتى الآن أساساً بمبادرة الأفراد، وبأموالهم، وإقدامهم على المجازفة، أي "من تحت". وهؤلاء الأفراد هم الذين كانوا، وما يزالون، يقررون ما الذي ينبغي أن تمارسه الخلية التي ينشئونها (بما تتخصص)، وكيف ينبغي أن تؤدي وظيفتها، وكيف تُصرف منتجات نشاطها. على أن الخلايا العملية تتمتع بقدرٍ معلوم من الاستقلالية الذاتية في نشاطها. ذلك أن القائمين على تنظيمها وإدارتها أسياد في اتخاذ القرارات. وهذه طبعاً سيادة محدودة بإطار القوانين والتقاليد، وكذلك بالعلاقات المتبادلة بين خلية وأخرى. ولكن "الدول القومية" ذاتها لا تتمتع بسيادة مطلقة.



تاريخياً كانت الملكية الخاصة لوسائل العمل، والعمل الحر شرطين ضروريين لظهور الخلايا العملية فى الغربية. وهذه القاعدة لا تزال تحتفظ بأهميتها الآن أيضاً. غير أنه لابد هنا من تصويبات جدية بخصوص الأفكار المتعارف عليها فى هذا الشأن. ولما كنت سأعود لاحقاً إلى وقفة خاصة عند هذا الموضوع، فإننى سأكتفى هنا بالإشارة إلى أن مفهوم الملكية لا ينطبق البتة على الخلية العملية. ذلك أن الخلية هى تجمع من الناس. وهؤلاء الناس أحرار قانونياً، وليسوا ملكاً لأحد (على غرار العبيد والفلاحين الأبقان). ولا ينطبق مفهوم الملكية فى هذه الخلية إلا على الوسائل (الأشياء والمال) التى بفضلها يمكن للخلية أن تقوم بوظيفتها.

وتبعاً لمن يملك هذه الوسائل تتفرع الخلايا العملية الغربية إلى خلايا الملكية الخاصة (بما فى ذلك الخلايا المساهمة)، والملكية الحكومية، والملكية الاجتماعية (الملكية العامة). على أن خلايا الملكية الخاصة هى التى تشكل، تاريخياً وحتى الآن، أساس الغربية. ولكننى لا أريد أن ألفت النظر فى هذه الواقعة إلى أن المسألة هى مسألة الملكية الخاصة، بل إلى أن الكتلة الأساسية من الخلايا العملية الغربية مضطرة لأن تستعيد التكاليف (مبدأ الربعية)، وذلك بالضبط لأنها خلايا خاصة. إلا أن ما هو أشد عمقاً هنا ليس واقعة الملكية الخاصة، وإنما هو كون الخلايا متروكة لقدرها، كونها عاجزة عن البقاء ما لم يزودها المجتمع بوسائل الاستهلاك. فهى مرغمة على إنتاج الأشياء والخدمات وتقديمها للمجتمع، بأكبر كميات ممكنة، وبأجود نوعية ممكنة، وإلا أدرك الهلاك هذه الخلايا فى بنيتها القائمة. وهذا يعنى أن الدافع الذى يحرك الغربية هو السعى إلى البقاء، والحفاظ على الذات، وهو دافع متأصل فى صلب الخلايا العملية، بصرف النظر عن قوانين رأس المال الذى يأتى مصطحباً دوافعه معه، ولكنها لا تلغى ذلك الدافع.

تتصف الخلايا العملية الغربية بطابع مزدوج، فهى، من ناحية، تنتج مواد استهلاكية (أشياء) ما، أو تقدم خدمات لأناس ما، وهى، من ناحية أخرى، استخدام

للمال بهدف الحصول على المال، أى أنها استثمرت لرأس المال. وهذان الجانبان يشكّلان كلاً واحداً، ولكن لكلٍ منهما قوانينه الداخلية التى تميّزه عن الآخر. ولناخذ، على سبيل المثال، شركتى "هيلتون" و"ماكدونالدز" الشهيرتين عالمياً. إذ تنتشر فنادق الأولى ومطاعم الثانية بأعداد لا حصر لها فى كثير من مدن العالم وبلدانه. ويمثّل كل واحد من هذه الفنادق أو المطاعم خليةً عملية متخصصة تتمتع باستقلال ذاتى. وما من حاجة لتوحيدها فى كلٍ واحد، إذا ما نظرنا إليها من ناحية قيامها بوظائفها العملية. بل وذلك متعذّر عملياً، لأنها "مبعثرة" فى كثير من المدن والبلدان والقارات. ولو أمكن، فَرَضاً، تجميعها فى أماكن متقاربة، أو حتى فى مبنى واحد، لتفرّعت هذه المنشأة العملاقة إلى أقسام سرعان ما تصبح خلايا عملية مستقلة. وسيحدث ذلك بفعل قوانين تنظيم العمل بوصفه ظاهرة اجتماعية. على أن توحيد هذه الخلايا فى كلٍ واحد محكومٌ بأسباب اقتصادية، أى بقوانين رأس المال. صحيح أنها مدينة بظهورها للشركتين اللتين نشأتا، ولا تزالان موجودتين، بفضل قوانين رأس المال. ولكن تلك الخلايا ما إن ظهرت حتى راحت تعمل وفق قوانين العمل، وهذا ما أصبح شرطاً للجانب الرأسمالى فى الشركتين.

إن الخلط بين الجانبين المذكورين، وتضخيم أحدهما على حساب الآخر، هما الأساس الذى قامت عليه مذاهب المجتمع الغربى الإيديولوجية، سواء تلك التى توجه إليه سهام نقدها، وتلك التى تمجّده. لقد ضخمت الماركسية الجانب الرأسمالى، بينما يجرى تضخيم الجانب العملى المحض فى الأدبيات الحديثة التى تمجّد الغربوية وتختزل الرأسمالية فى شكل من أشكال تكنولوجيا الاقتصاد. وأعتقد أن العلاقة بين جانبي الخلايا العملية الغربوية هى علاقة بين الشكل والمضمون فى منشآت المجتمع. ذلك أن نشاط الخلايا العملية من حيث المضمون هو حقاً آلية "تغذية" المجتمع. أمّا من حيث الشكل فهذه الآلية هى الرأسمالية.

## خلية الحد الأدنى

تحدثنا أعلاه عن تنوع الخلايا، وهذا ينطبق على الخلايا العملية الغريبة. أضيف إلى ما سبق أن انقراض الخلية حالة عرفتتها الخلايا المؤلفة من شخص واحد. فـ "الشركات" المؤلفة من شخص واحد لا يمكن أن توجد كخلايا بالضبط إلا لأن الكتلة الأساسية من الخلايا تتألف من منشآت ومؤسسات ومنظمات تضم كثيراً من الناس. أضف إلى ذلك أن أناساً آخرين ينخرطون عادة في نشاط هذه الخلايا على نحو غامض وبين حين وحين، ما يجعلها عملياً خلايا غير ثابتة الشكل، مؤلفة من عدد كبير من الناس، يتغير أعضاؤها بين حين وآخر. وتوجد خلايا تتألف من تجمعات بشرية كثيرة، هي بدورها خلايا تولد خلايا. وتندرج في هذا الصنف من الخلايا شركات عملاقة لها منشآتها في كثير من المدن وفي مختلف البلدان. كما توجد خلايا بسيطة، وهي منشآت صغيرة، قليلة العدد، يعمل في كل منها بضعة أشخاص.

وبغية توضيح الآراء الشائعة، من المفيد أن ندرس واحدة من أصغر الخلايا العملية تتمتع بما للخلية العملية من صفات أساسية. ولتكن هذه الخلية شخصاً حراً من الناحية القانونية، لديه مال، ولكنه غير كاف للعيش مدى الحياة. إنه يبدأ بهذا المال عملاً يستطيع أن يؤمن منه مصدر دخل دائم (إلى أجل طويل إلى هذا الحد أو ذاك). وهو يضيف عمله وقدراته إلى المال الذي وظفه. وفي المحصلة يمضي في إنتاج مواد استهلاكية أو خدمات يبيعها للآخرين. وهذا يستلزم أن يكون هناك إقبال (طلب) على منتوجاته، أي أن تلبى منتوجاته حاجات أناس آخرين، وأن يدفعوا ثمنها. على أن عائد هذه العملية ينبغي أن يكون كافياً لتعويض النفقات وبقاء جزء منه لحياة صاحب العمل نفسه. إنه حتى هذه اللحظة لا يفكر بالربح. إذ يكفي أن يبقى على قيد الحياة، وأن يعيش على مستوى يرضيه. فهو لم يفكر بعمله إلا كوسيلة لكسب القوت حصراً. ويُعد مشروعاً رابحاً (لنقل، رابحاً في الحد الأدنى) إذا كان يحقق هذه الغاية. أما إذا لم يتأت له تحقيق ذلك فإن مشروعته يزول من الوجود. وبديهي أن صاحب المشروع سيعمل على تخفيض نفقات العمل إلى الحد الأدنى، أي أن ينتج بالنفقات نفسها كمية

أكبر، أو ينتج الكمية نفسها بنفقات أقل. فهو يريد أن يعود عليه إنتاجه أو خدماته بأكبر مردود ممكن، في حين يسعى المستهلك (المشترى) لأن يدفع أقل ثمن ممكن. ولكي يجذب المشتري (المستهلك) ويحتفظ به، يسعى صاحب المشروع إلى إعطاء عمله أفضل المواصفات الممكنة، وإلى كسب سمعة جيدة. وإذا كان هناك آخرون مثله فإنه يسعى لأن يكون قادراً على المنافسة، أى لأن يقوم بعمله على نحو أفضل منهم، وأن يصرف منتج عمله بسعر أقل من أسعارهم.

ولكى يستمر صاحب المشروع في الوجود، يكون عليه أن يحصل من بيع منتوجه على ما يزيد على نفقاته. فهل يعنى هذا ربحاً؟ إنها مسألة مصطلحات. والجواب على هذا السؤال يتوقف على تعريف الربح. يمكن أن نعد ذلك مكافأة له على عمله. وإذا ما استطاع صاحب المشروع الحصول على ما هو أكبر مما أنفقه على عمله ومما اعتاد أن ينفقه على نفسه فلن يفوت هذه الفرصة. ومرة أخرى يعود السؤال عما إذا كان هذا الدخل الإضافي ربحاً؟، المسألة هنا مسألة مصطلحات أيضاً. نعم، يمكن أن نسمى هذا الدخل الإضافي ربحاً. ولكننا نستطيع أيضاً أن نسميه أجراً يتقاضاه صاحب المشروع مقابل عمله. وكثيرون في علم الاقتصاد الغربي من ينظرون عموماً إلى أى عائدات تأتي من أى مشروع على أنها أجر مقابل العمل، حتى وإن بلغ هذا الدخل مقادير هائلة وتأتى عن طريق استغلال العمال المهاجرين.

تنطوى الخلية الأصغر في مرحلتها الأولية على جميع ما للخلية العملية الغربية من قدرات أساسية. وقولنا هذا تجريد بالطبع، إلا أنه تجريد واقعى. فثمة عدد كبير من الناس في البلدان الغربية ممن يعملون من أجل الحصول على وسائل عيشهم بهذه الطريقة تماماً، مثلما يفعل صاحب أصغر الأعمال. وهؤلاء لا يتدبرون أمورهم فى العادة إلا بشق الأنفس. وإذا كانوا يدخرون بعض المال من أجل توسيع عملهم، فإن ذلك يتطلب منهم سنوات كثيرة. ولا يرتقى من بينهم إلى مستوى أعلى قليلاً سوى عدد ضئيل لا يُذكر. وفى معظم الحالات سرعان ما يفلسون، ويخرجون من جلودهم للتشبث بعمل آخر من النوع نفسه. وأغلبهم يبدأون عملاً جديداً بعد الحصول على قرض من بنك يتحولون إلى عبيد له .

إن أحد السبل التي تؤدي إلى تعقيد الخلية الأصغر هو أن يشرك صاحب المشروع في العمل أفراد أسرته وأقرباءه، وكذلك شركاء على شاكلته هو. ففي هذه الحالة تتزايد فرص النجاح بعض الشيء، ولكن ليس بالقدر الذي يسمح بتحقيق قفزة نوعية تنقله من المشروع الأصغر إلى مستوى أرفع. وهنا أيضاً يكون الجهد الشخصي، بل الجهد الشاق، الذي يقوم به المشاركون في العمل، هو العامل الرئيس. على أن هذا التعقيد يجرى في إطار الخلية الأصغر.

بل وحال عدد هائل من المنشآت الأكبر حجماً، والتي تستخدم عمالاً مأجورين، لا يختلف إلا قليلاً عن حال الخلايا الأصغر. وحسب متابعتي، فإن أغلب تلك المنشآت يرضى أيضاً بمستوى الربح الأدنى، وأحياناً بما هو أسوأ من ذلك. إن حالات الإفلاس التي لاحصر لها تدلُّ على أنه ليس من السهل تغطية نفقات المنشأة والإبقاء على مبلغ من المال يكفل لها مستوى القدرة على الاستمرار. وما الحالات التي يثرى فيها أصحاب المشاريع في غضون آجال قصيرة، ويتحولون إلى رجال أعمال ناجحين كبار، إلا استثناءات نادرة. على أن الإيديولوجيا والدعاية الغربية تصوران هذه الحالات على نحو يهدف إلى الحفاظ على روح العمل الحر في المجتمع. وقد اشتد هذا المسعى على نحو خاص في السنوات الأخيرة نظراً لانتهيار البلدان الشيوعية. غير أن الحماسة للعمل الحر تتراجع بين مجمل السكان باضطراب أمام الوعي بأنه عمل اضطراري، أمام الوعي بمصيره التاريخي المحتوم في هذا الاتجاه. ومن هذه الزاوية لعب انهيار الشيوعية دوراً مصيرياً بالنسبة إلى الغرب نفسه أيضاً.

إن رجل الأعمال الحرة الصغرى يجمع في شخصه بين وظائف منظم الخلية وصاحبها ومديرها، ووظائف منفذ العمل. ونرى في ما أشرنا إليه أعلاه من تعقيد الخلية الصغرى بداية تقاسم هذه الوظائف، أي بداية انقسامها بين المشاركين في العمل إلى مدير (صاحب عمل، مدير، أو شخص مسئول عموماً)، ومرؤوسين. في البداية يكون هذا التقسيم وتقسيم الجهد في تنفيذ العمل شيئاً واحداً. ولكن مع تعقيد العمل تنفصل وظيفة المسئول (صاحب العمل) كوظيفة اجتماعية، يرتبط بها تنظيم العمل، واتخاذ القرارات، ومسئولية المجازفة.



## العمل المأجور

لم يكن العمل المأجور في البداية استغلالاً لعمل الغير بالمعنى الماركسي. ذلك أن استقدام العمال المأجورين يكون ناتجاً عن أن صاحب العمل الحر وأفراد أسرته عاجزون عن الاضطلاع بالعمل وحدهم، ويجري استئجار العاملين بصفة مساعدين، أما الحالات التي أصبح فيها أولئك العاملون بمقام أعضاء في الأسرة، فقد تحدث عنها الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، مثلاً. ولا يتحول هؤلاء إلى فئة اجتماعية متميزة إلا عندما يتضخم عمل المشروع، ويزداد عدد العاملين فيه. بل وقد نصادف حتى في أيامنا هذه كثيراً من الحالات التي لا يجلب فيها العمل المأجور أي ربح لصاحب العمل، وفي أحسن الأحوال يتيح له تغطية النفقات، بينما يعمل أصحاب المشروع أنفسهم أكثر مما يعمل العاملون المأجورون.

ومن وجهة نظر العمل الذي يستخدّم فيه شخص كعامل مأجور، يصبح صاحب المشروع ربّ عمل. إنه صاحب العمل. وهذا عمله. أما الشخص المأجور فيصبح منفقاً مأموراً. وفي هذه الحالة يجري تقسيم اجتماعي لوظائف الأشخاص في عمل واحد، ما ينتج عنه ظهور فئات اجتماعية مختلفة من الناس، هم من يملك المشروع (أصحابه ومديره)، والعاملون المأجورون فيه.

وبديهي أن ربّ العمل يسعى لإرغام العاملين المأجورين على تحقيق أكبر وأفضل إنتاجية ممكنة، ولدفع أقل أجر ممكن لهم، تعبيراً عن المسعى العام لتخفيض الأجر إلى الحد الأدنى. أما العاملون المأجورون فعلى العكس، يسعون للقيام بأقل ما يمكن من العمل، والحصول على أكبر أجر ممكن. وهذا هو قانون الغريزية الموضوعي الذي يظلّ ساري المفعول دائماً وفي جميع الظروف مادامت الغريزية موجودة. على أن نتيجة مفعول هذا القانون هي حياة المجتمع على شكل صراع دائم بين أشخاص من مختلف الفئات الاجتماعية يجرون وراء مصالحهم.

## هيكل المجتمع (\*)

يوجد في البلدان الغربية عدد هائل من الخلايا العملية. فقد كان عدد المنشآت الخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩١، مثلاً، أكثر من ستة ملايين منشأة. أما في العالم الغربي كله فيبلغ هذا العدد عشرات الملايين. ويمكن أن نكتشف في هذا العدد الكبير جميع الأشكال التي يتصورها العقل. إنها تتشكل وفق قوانين التوليف الاجتماعي. كما يمكن "استبيانها" منطقياً بالاستناد إلى وقائع إمبريقية جلية. فهي تنشأ واقعياً، ويُعاد إنتاجها بانتظام بنسب مختلفة تتنوع في مناطق وبلدان ومجالات اجتماعية مختلفة، وتتغير بمرور الزمن، بل وتتغير المؤشرات نفسها باتجاه زيادة أو نقصان حصة فئاتها المختلفة. ومع هذه التذبذبات تتغير أيضاً النظريات الإيديولوجية التي ترفع التغيرات قصيرة المدى إلى مستوى قوانين داخلية أساسية.

لقد سبق أن ذكرتُ أعلاه بعض الخطوط التي يسلكها تعقيد الخلايا والبنية الخلية في المجتمع. وأضيف على سبيل المثال خطوطاً أخرى هي ظهور الوسطاء بين إعداد المواد والسلعة الجاهزة، وكذلك بين إنتاج السلعة الجاهزة ومستهلكها الأخير. على أن الوسطاء أنفسهم شركات كثيرة (إن لم نقل عادةً) ما تكون صغيرة ومتوسطة بالمقارنة مع شركات كبيرة تنتج سلعة جاهزة أو خدمات. ويمكن أن نضرب مثلاً على وسطاء النوع الأول بشركات التوزيع لدى المجمعين الصناعيين الألمان العملاقين "سيمنس" و"كروب". فقد كان لدى "سيمنس" في عام ١٩٦٥ ثلاثون ألف شركة توزيع، ولدى "كروب" (٢٣) ألف موزع. أما الأمثلة على وسطاء النوع الثاني فيمكن أن نجدها في أعداد لا حصر لها من الأكشاك في محطات القطارات، وفي المطارات، وفي الأماكن المكتظة بالناس عموماً. على أن شركة "مطاعم ماكدونالدز للوجبات السريعة

(\*) استعملنا تعبير "هيكل المجتمع" بمعنى "تشكيل بنية المجتمع" - م.

(٢٣) عام ١٩٨٥ كان عدد العاملين في شركة "جنرال موتورز" ٨٠٠ ألف شخص.

"McDonald's Fast Food Restaurants" تملك حوالى تسعة آلاف مطعمٍ يعمل ثلاثة أرباعها عن طريق الوسطاء. ويوجد فى الولايات المتحدة الأمريكية ٣٥٠ ألف شركة وسطاء تقدم خدماتها لثلاث تجارة التجزئة، وتستخدم سبعة ملايين شخص، أى ١٠٪ من العاملين. وفى بريطانيا يوجد ٤٠ ألفاً من هذه الشركات<sup>(٢٤)</sup> على أن ما يقوم به أصحاب هذا النوع من الأعمال الحرة الصغيرة لا يشبه فى شيء ما كان الإيديولوجيون المناهضون للرأسمالية يصورون به الرأسماليين.

قد يبدأ صاحب المنشأة عمله بموارده الخاصة فقط ، وقد يقترض من البنك (أو من أشخاص آخرين) بالفائدة. وبذلك تنشأ علاقة اجتماعية جديدة، علاقة الدائن والمدين. ونظراً لأن هذه العملية تتكرر بانتظام، يصبح صاحب المنشأة بشكل من الأشكال عاملاً استأجره البنك، أو شريكاً للبنك فى تنظيم المنشأة وتقاسم دخلها.

أما الخط الآخر لهيكل المجتمع، فهو تزايد أحجام الخلايا وتعقد بنيتها الداخلية. وأسباب ذلك كثيرة، أشير إلى اثنين رئيسيين منها. الأول هو سبب عملى محض يتمثل بظروف العمل ذاته بمعزل عن الشكل الاجتماعى الذى يجرى فيه. فليس فى مقدور فرد أن يبني طائرة أو سفينة. كما أن تشغيلاً عادياً لمطار كبير يتطلب بالضرورة عشرات آلاف الناس. والسبب الثانى اقتصادى محض، يتمثل بظروف عمل رأس المال المستثمر فى المشروع المعنى، أو الذى يملك المشروع. إن ضرورة تعزيز رءوس الأموال ومركزتها تؤثر بهذا الشكل أو ذاك على تعزيز وتوحيد ومركزة الخلايا العملية الخاضعة لها.

---

(٢٤) هذه الأرقام حصلت عليها من صحف ومجلات مختلفة كانت تقع فى يدي بين حين وآخر.

تنقسم الخلايا العملية إلى خلايا صغيرة، ومتوسطة، وكبيرة، وضخمة، وذلك وفقاً لعدد العاملين، وحجم رؤوس الأموال المستثمرة فيها. ومهما قوى دور البنزس الكبير والبنزس الضخم، فإن البنزس الصغير والمتوسط يحتفظان، وسيظلان يحتفظان بأهميتهما دائماً. وهذا ليس عائداً للأسباب الاقتصادية التي يركز عليها الأنظار من يمجّد اقتصاد السوق، بقدر ما هو عائداً لحاجات ملايين الناس وشروط العمل الذي يلبي هذه الحاجات، وكذلك لضرورة تأمين العمل لكافة السكان الأساسية وضمان موارد لها.

ليست مركزة المنشآت وتعزيزها شيئاً يجب أن يحل محل المنشآت الأصغر. ذلك المركزّة والتعزيز عملية طبيعية إلى جانب عمليات أخرى. ولو كانت نزعة تعزيز المنشآت ومركزتها هي الوحيدة التي يجرى تطبيقها لكفّت عن الوجود في العالم منذ زمن بعيد تلك المنشآت الصغيرة والمتوسطة التي نرى عددها يتزايد في الواقع، ليس بالمطلق فقط، بل ونسبياً أيضاً. إن عملية تصفية بعض من هذه المنشآت تترافق مع عملية ظهور غيرها. كما تترافق عملية تعزيز المنشآت مع عملية تقلص عددها. إن المجتمع الغربي العادي يجب عليه نظرياً أن يتسع لجميع ما هو محتمل منطقياً من الخلايا العملية، تبعاً للحاجة الاجتماعية إليها.

إن عملية تعزيز المنشآت تصطدم بعملية تحديث تلك المنشآت، ونمو إنتاجية العمل، وتحديث تنظيم المنشآت وإدارتها. ومن المحتمل أن نجد هنا حركة عكسية أيضاً. فقد ظهرت بوضوح في العقد الأخير ميل نحو تقليص حجم المنشآت بسبب ذلك. وعلى سبيل المثال قامت ٨٠٠ من كبريات الشركات الأمريكية في عام ١٩٧٩ باستئجار ٢٣ مليون شخص، بينما لم تستأجر إلا ٦, ٢٠ مليون شخص في عام ١٩٨٦، ولكن ذلك لا يلغى النزوع نحو تعزيز المنشآت. إن هذه النزعة يمكن أن تتكيف مع مختلف الظروف على نحو يجعلها تبدو ظاهرياً فقط وكأنها فقدت قوتها. إنها واحدة من نزعات

تطورٍ عديدة، وليست شيئاً مطلقاً لا يتزعزع<sup>(٢٥)</sup> كما أن هذه الأرقام يمكن أن تكون أيضاً لما يقال عن دور الـبزنس الصغير والمتوسط، وهي في الوقت نفسه مثال على التناسب بين جانبي الغريزية الاقتصادية والعملية، وكذلك على ضرورة الـبزنس الكبير والـبزنس الصغير لبعضهما البعض، وعلى تعايشهما الذي يتقاسم أصحاب المشاريع في إطاره مداخيل عملهم، ولكنهم هنا ينخرطون في علاقة رئيس ومرؤوس، إذ إن صاحب مشروع التجزئة يغدو تابعاً من نوع ما للشركة صاحبة العمل بمجمله.

إن تزايد حجم المنشأة من ناحية عدد الأشخاص المأجورين وتعقيد العمل (بما في ذلك العمل التكنولوجي) يؤدي إلى تقسيم الوظائف، ليس بمعنى التقسيم التكنولوجي وحسب، بل وبمعنى ظهور فئات اجتماعية جديدة تتمثل في المراقبين، ورؤساء المجموعات والأقسام، والموظفين في مجموعة التسيير، والمدراء، وأؤكد أن هذه ليست مجرد مهن جديدة، وإن كان هؤلاء يتلقون إعداداً مهنيّاً. فإذا كان ذلك مجرد مهن، فإن دور صاحب المشروع ذاته يمكن اعتباره مجرد واحدة من المهن أيضاً. من المهم هنا أن المشاركين في العمل ينقسمون إلى فئات مختلفة حسب أدوارهم الاجتماعية، ومواقعهم الاجتماعية. ويظهر مشاركون في العمل لم تعد وظيفتهم المميزة تتمثل في تنفيذ العمل مباشرة، وإنما في التعامل مع المكلفين بتنفيذ العمل. ويجري في وسط هؤلاء المشاركين أيضاً تقسيم وظائف، وقيام هرمية في المواقع الاجتماعية. يجري تقسيم وظائف صاحب المشروع الأولى إلى وظائف مالك المشروع ووظائف إدارة المشروع. وهذه

---

(٢٥) إن مركزة رؤوس الأموال وتعزيز المنشآت لا يعنيان تصفية المنشآت الصغيرة والمتوسطة. فلكل منها مكانه. وثمة مثال ساطع في هذا الصدد ورد في مقالة بقلم أ. زيلر بعنوان: "Kernstück der Marktwirtschaft" في (Bayernkurier , 19.29.1990) عن الوضع في بافاريا حيث كانت المنشآت الصغيرة والمتوسطة تشكل ٩٠٪ من مجمل المنشآت. وكانت تنتج آنذاك ٥٠٪ من المنتج الاجتماعي، وتوفر نصف مناصب العمل. إن الـبزنس الصغير والمتوسط يحتفظ بأهميته في كافة البلدان الغربية، وذلك بفعل شروط الحياة العملية، وتوزع السكان وطابع الحاجات، وضرورة عمل أصحاب المشاريع الشخص.



الأخيرة تتحول إلى أشخاص مأجورين من نوعٍ ما، يتزايد باستمرار دورهم في العمل، بل ويغدو دوراً رئيساً.

في سياق الكلام عن التغيرات التي طرأت على بنية المجتمع الغربي الاجتماعية بعد الحرب العالمية الثانية، يتحدث عدد من المؤلفين الغربيين (وخاصة روبرت راينخ) عن فئة اجتماعية متميزة هي بيروقراطية الشغل. إنها، حسب راينخ، منظمة تنظيمياً عسكرياً: أولاً، هناك هرمية في المناصب؛ ثانياً، علاقات الرئيس والمرؤوس موجودة بين مختلف الدرجات؛ ثالثاً، موظفو هذه الفئة يتلقون أجراً ثابتاً مقابل المنصب الذي يشغلونه.

إن مركزة رؤوس الأموال، واتساع حجم المنشآت، وظهور مختلف أنواع الاتحادات العملية والمالية... كل ذلك يؤدي إلى قيام أجهزة إدارة تعمل بشكل دائم، ومجالس تضم مدراء، ورؤساء، ومديرين منتخبين، ومستأجرين أو معينين. وعلى هذا النحو تحديداً تنشأ فئة جديدة من المواطنين الذين لا يجوز تصنيفهم، حتى عندما يكونون عاملين مستأجرين، في فئة العمال المأجورين الذين يعملون في المنشآت. فئة العمال المأجورين هذه لها دور آخر. ومداخلها غالباً ما تفوق مداخل أصحاب المشاريع المتوسطين وحتى الكبار. إن هيكل السكان الاجتماعية تجرى وفق كثير من المؤشرات، ومؤشر الأجر ليس هو الحاسم دائماً.

## الحياة داخل الخلية

تنقسم حياة المواطنين في البلدان الغربية (وغير الغربية) إلى قسمين: داخل الخلية، وخارج الخلية. وقد نُشر عن الحياة خارج الخلية ما لا حصر له من الكتب، وصُور ما لا حصر له من الأفلام السينمائية. أما وصف الحياة داخل الخلية فإن الاختصاصيين لا يعيرونه إلا القليل من الاهتمام، بينما يكتفى الأدب والأفلام بعلامتها عَرَضاً، كتحصيل حاصل وأمر معلوم للجميع. ومع ذلك فإن المعلومات

الشحيحة والعابرة عن حياة الخلية الداخلية في الغرب، تلك المعلومات التي يمكن استقاؤها من الجرائد والكتب والأفلام، كافية تماماً لكي نكون عنها تصوراً معيناً. ولعل مؤلفي الكتب والمقالات ومخرجي الأفلام كشفوا عن جوهر هذه الحياة من حيث لا يعلمون. فعندما كنت أطلب من معارفي وجلسائي العابرين- وما أكثرهم - أن يحدثوني كيف تسير حياتهم داخل الخلية، كانوا يهزون أكتافهم عادة. إذ لم يكن لديهم ما يقولونه. إن المجتمع الغربي من هذه الناحية هو النقيض الحقيقي للمجتمع الشيوعي الذي تؤلف الحياة داخل الخلية فيه جزءاً أساسياً من حياة المواطنين<sup>(٢٦)</sup>.

توجد في المجتمع الغربي خلايا عملية كما توجد خلايا جماعية (كومونالية)<sup>(٢٧)</sup>. ولئن كانت الخلايا العملية هي التي تحدد نبض الحياة، فإن الخلايا الكومونالية قليلاً ما تختلف عنها من ناحية الحياة الداخلية. إن كون أعضاء الخلايا الكومونالية موظفين عند الدولة يتلقون رواتب مضمونة حتى التقاعد، وتقاعداً مضموناً أيضاً، هو حقيقة تنعكس على نشاطهم على نحو يجعلهم شبيهين بالموظفين في المجتمع الشيوعي، أما في ما عدا ذلك، فإن أعضاء هذه الخلايا يتصرفون على نحو مماثل لتصرفات أغلبية المواطنين الآخرين. ويمكن أن نجد في الخلايا العملية أيضاً كلا الجانبين العملي والجماعي، علماً بأن الجانب العملي على درجة متدنية من التطور تجعلنا لا نلتفت إليه عند دراسة هذه الخلية الملازمة للغربية.

إن الخلية الملازمة للغربية لا تحددها قرارات السلطات "من الأعلى"، مثلما لا تحدد سلوكها في العالم المحيط، فهناك قانون عام. والخلية حرة النشاط في إطار هذا القانون. وقد سبق وتحدثت عن هذا الموضوع أعلاه.

---

(٢٦) تناولت بالتفصيل حياة الخلية الداخلية في المجتمع الشيوعي في كتيبي التي أشرت إليها أعلاه.

(٢٧) تفادياً للتداخلات الاشتقاقية العربية المربكة (جماعة، مجموعة، جماعية... إلخ.) التي تنشأ عن وجود كلمات في الروسية لها هذه المعاني ولكن ليس بينها تشابه لفظي، فإننا غالباً ما سوف نعتمد لاحقاً كلمة (كومونالي) بدلاً من (جماعي) بعد أن اتضح للقارئ في الصفحات السابقة المعنى الذي يستخدمها فيه المؤلف. - م.

إن المجتمع عمومًا منظم وفق مبادئ أخرى تختلف عن المبادئ التي تنظم الخلية الغربية. وهناك عدد كبير من الخلايا (إن لم يكن معظمها) لا يتمتع البتة ببنية اجتماعية داخلية. ولا مجال للحديث عن هذه البنية إلا بخصوص الخلايا الكبيرة نسبيًا. ثم إن الخلية الغربية خلية مبسطة اجتماعيًا بالمقارنة مع الخلية الشيوعية. ويمكن القول إنها تميل باتجاه تضيق بنيتها الاجتماعية إلى أدنى حد. فلا وجود فيها نظريًا لأي أشخاص، أو مجموعات، أو منظمات لا لزوم لها من ناحية مصالح العمل. ولا تشكل أي منظمة هنا، سواءً أكانت حزبية، أو نقابية، أو شبابية، أو سواها، عنصرًا من عناصر البنية الاجتماعية لعدد كبير من الناس العاملين ضمن الخلية. وقد يكون موظفو الخلية أعضاء في تنظيمات، ومجموعات، وحركات من هذا النوع، ولكن ليس في إطار الخلية، بل خارجها، وبمعزل عنها. وهذا الجانب من حياتهم لا يؤثر على أدائهم الوظيفي في إطار الخلية، ولا على الخلية عمومًا. وقد تمارس الأحزاب، والنقابات، وغيرها من المجموعات والحركات الاجتماعية ضغطًا على أصحاب الخلايا، وعلى إداريها، ولكن خارج الخلية، وليس داخلها.

ليست الخلية الغربية جماعة بالمعنى الذي ينطبق على الخلية الشيوعية. فالناس فيها يعملون وحسب. إن حياة المجتمع الغربي الاجتماعية والخاصة تجري خارج الخلايا العملية، وليس ضمنها. ذلك أن الناس يقومون داخل هذه الخلايا بتنفيذ واجباتهم العملية، ويترقون في الخدمة، أو يرفعون من كفاءتهم. وقد تكون لديهم ميول تعاطف أو نفور متبادلة. كما قد تنشأ عندهم مواقف غير عملية، كالعلاقات الغرامية أو الإجرامية، مثلًا. ولكن ذلك كله لا يغدو معيارًا متعارفًا عليه، وعاملًا مهمًا من عوامل حياتهم الرسمية. ففي الخلية الغربية لا تقوم بين العاملين علاقات وثيقة وطويلة المدى بهذا القدر أو ذلك.

ولا يوجد في الخلايا العملية الغربية أية ديمقراطية داخلية. أمّا السائد داخل تلك الخلايا فهو انضباطية العمل، بل ويمكن القول إنه دكتاتورية العمل. إن المجتمع الغربي الديمقراطي عمومًا، الديمقراطي سياسيًا، هو مجتمع دكتاتوري اجتماعيًا، أي في الخلايا العملية. وما الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والحريات المدنية، وغيرها

من نعوت المجتمع الحر، بضرورة للغرب إلا كتعويض خارجي عن افتقادها في الحياة العملية<sup>(٢٨)</sup>.

كما أن المبادئ الأساسية لعمل الخلايا الغربية مناقضة تماماً لمبادئ الخلايا الشيوعية. فمبدأ الخلية الغربية هو القيام بالعمل على أفضل وجه ممكن، والحصول على أفضل نتيجة، بأقل قدر من النفقات. أما مبدأ الخلية الشيوعية فهو القيام بالعمل على نحو يبدو جيداً من حيث الشكل، ويرضى أجهزة السلطة والإدارة. ثم إن مبدأ الخلية الغربية هو استغلال قوى العاملين إلى أقصى حد، واستبعاد التقاعس في أوقات العمل، ومنع العاملين من استغلال وقت العمل وموارد الخلية لمصالح شخصية لا تمت لأهداف الخلية بصلة. في حين أن مبدأ الخلية الشيوعية هو بذل أقل جهد في العمل، واستغلال وقت العمل ووسائل الخلية لخدمة الأغراض الشخصية. كما أن مبدأ الخلية الغربية هو تقليص عدد العاملين إلى الحد الأدنى، فيما مبدأ الخلية الشيوعية هو تشغيل أكبر عدد ممكن من الناس.

على أن تقييم العاملين في الخلية الغربية يجرى أساساً (إن لم يكن حصراً) بناء على مؤهلاتهم العملية، بينما يتضمن التقييم في الخلية الشيوعية كثيراً من الصفات غير العملية (الانتماء الحزبي، العمل الاجتماعي، النشاط، والصفات الأخلاقية، وعلاقات المحسوبية) التي غالباً ما تُبعد الصفات العملية إلى موقع ثانوي. وفي الخلية العملية الغربية تكون الأفضلية لمن هو أكثر تكيّفاً مع الجانب العملي، بينما الأفضلية في الخلية العملية الشيوعية لمن يحسن التأقلم مع الجانب الكومونالي. وفي الخلية الشيوعية يحصل العاملون على منافع إضافية غير الأجور (مكافأة، بطاقة استجمام...)، وهو ما لا وجود له إطلاقاً في الخلية الغربية، أو هو موجود فيها بشكل ضعيف.

---

(٢٨) أحد رموز المجتمع الأمريكي، الملياردير التكناسي روس بيرو الذي ترشح لرئاسة الولايات المتحدة عام ١٩٩٢، يحكم إمبراطوريته الاقتصادية - حسب ما يرد في الصحافة - بوسائل شبه عسكرية، منها مظهر العاملين الخارجى، وحياتهم الأسرية اللائقة، وتحريم اللواط.

إن المثال التالي يوضح الفروق الكبيرة بين الخليتين الغربية والشيوعية. فلنقارن بين مطعمين لهما قدرة إنتاجية واحدة على وجه التقريب (من حيث عدد الرواد). سوف نرى أن عدد العاملين في المطعم الغربي أقل بكثير، وأحياناً بعشر مرات، من عددهم في المطعم السوفيتي. وسنرى أن نوعية الخدمة في المطعم السوفيتي لا تقارن بشكل من الأشكال بجودة الخدمة في المطعم الغربي. وسنجد أغلبية العاملين في المطعم السوفيتي متقاعدسين، في حالة من الكسل، بينما سنراهم في المطعم الغربي يعملون بطريقة لا يحلم بها السوفيت. وسنجد في المطعم السوفيتي أن أكثر من نصف العاملين يمارسون الأعمال الإدارية والمكتبية، في حين أن هذه الأعمال منخفضة العدد إلى الحد الأدنى في المطعم الغربي. وبينما يحصل العاملون في المطعم الغربي على وسائل عيشهم من المداخل التي يدرها عليهم عملهم في خدمة الزبائن، يحصل العاملون في المطعم السوفيتي على أجرٍ تافه، ولكنهم يعوّضونه بدخل كبير عن طريق الاحتيال، وغشّ الزبائن، و"البخشيش". ولا مصلحة لهم في تحسين عمل المطعم، بل سيكون من الأفضل لهم شخصياً إذا ما تحولّ عمل المطعم كله إلى منطقة "الظل"، أي إذا ما أصبح عمالاً غير شرعي، لا يطاله القانون.

من المؤلف الآن أن تُنسب حسنات المجتمع الغربي كلها إلى الرأسمالية، بما في ذلك إنتاجية العمل العالية، ومردوديته الاقتصادية. غير أن ذلك تضخيم إيديولوجي لدور جانب واحد من جوانب الغريوية. وبغضّ النظر عن الشكل النقدي - الرأسمالي للاقتصاد الغربي، فإن هذا الاقتصاد يخضع لقوانين ترغم العاملين في الخلية على العمل بشكل أفضل ممّا في أي نظام آخر. وهذه القوانين تشترط ما يلي من مبادئ الخلية العملية: ١- تنظيم العمل تنظيمًا عقلانيًا؛ ٢- الانضباط الصارم؛ ٣- الاستخدام الأقصى لوسائل الإنتاج واليد العاملة. إن المجتمع الغربي مجتمع غير ديمقراطي ("توتاليتاري") في أساسه نفسه، أي على مستوى الخلية. وهو لهذا السبب بالذات ديمقراطي جملةً، في حياته ما فوق الخليوية. ففيه يعمل قانون من نوع خاص هو قانون ثبات كمية الديمقراطية والتوتاليتارية.

لكن الخلية الغربية، والشيوعية أيضاً، ليست تجسيدا للفضيلة وحدها، إذ إن عيوبنا، كما يقال، هي استمرار لمزايانا. فإذا ما قصدنا بدرجة الاستغلال النسبة بين حجم جهود الشخص عند قيامه بالعمل من جهة، وحجم المكافأة على ذلك من جهة أخرى، نرى أن درجة الاستغلال في المجتمع الغربي أعلى بكثير مما هي في المجتمع الشيوعي. إن من يعملون في المجتمع الغربي يتمتعون بخيرات مادية أكثر من نظرائهم في المجتمع الشيوعي، ولكنهم مقابل ذلك يبذلون جهداً أكبر. والناس في البلدان الشيوعية يملكون أقل مما يملك الغربيون، ولكنهم يبذلون من الجهد، مقابل ما يملكون، أقل مما يبذل الغربيون بكثير. وظروف العمل في البلدان الشيوعية أسهل، زد على ذلك مشكلة البحث عن عمل، وكذلك مشكلة الأجر والتسريح. فقبل الأزمة التي بدأت في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٥ نتيجة البيريسترويكا، كانت نسبة العمالة ١٠٠٪، ولم تكن ثمة مشكلة في إيجاد عمل، بل إن المتهربين من العمل الدائم كانوا يعتبرون خارجين على القانون. أما بالنسبة للغربيين فإن إيجاد عمل هو ما يعدُّ في أغلب الحالات المشكلة الرئيسة في الحياة. إنهم يحرصون على الوظيفة، إذ لا ثقة لديهم بأنهم باقون فيها لمدة طويلة. إن صعوبة إيجاد عمل، والخوف من فقدانه، هما الوسيلة الجبارة للحفاظ على انضباط العمل ومردوديته. ومن هذه الناحية فإن المجتمع الشيوعي، في حالته الطبيعية كما كان في الاتحاد السوفيتي أيام خروشوف وبريجنيف، هو جنة أرضية مقارنة بالمجتمع الغربي. والمواطنون السوفيت لم يدركوا بعد أنهم، بمحاولتهم السير في طريق الغرب، قد خسروا أكثر مما كسبوا.

إن الخلية التي تقوم بعملها بشكل ممتاز في المجتمع الغربي تظل خلية خاوية تماماً، لا روح فيها، من ناحية الحياة الاجتماعية داخلها. وإذا ما كان يجري فيها بعض حياة من هذا القبيل، فإن ذلك يأخذ وقتاً طويلاً، وغالباً ما يكون دفيناً في الأعماق، يحرص العاملون على إخفائه بجميع السبل. فتلك الخلية آليّة عمل، وليست متحداً من بشر بكل ما لهم من مزايا وما فيهم من عيوب. وإذا كان من غير الجائز أن



نقول إنها خلية لا إنسانية، فمن غير الجائز أيضاً أن نقول إنها خلية إنسانية. ذلك أن كل المشاعر الإنسانية فيها مقصورة على التصنع الظاهري، وهي مشاعر شكلية، مبالغ فيها على نحو مصطنع، محفوظة عن ظهر قلب، لا عمق لها، وليست طويلة الأمد. ومشاركة الناس مشاعرهم لا تتحول إلى شيء ذي أهمية حقيقية، ولا تولد مكابدات عميقة. صحيح أن الإنسان في هذه الخلية حرٌّ من سلطة الجماعة في العمل، تلك السلطة التي نجدها في المجتمع الشيوعي، غير أنه لهذا السبب أيضاً محروم من ذلك الاهتمام وتلك الحماية اللذين تحيط بهما الجماعة الشيوعية. فلا أهمية للإنسان من وجهة نظر الحياة العملية الغربية إلا ككائن ينفذ وظيفة عملية محددة. إنه يخضع لعملية تبيدٍ من الناحية الإيديولوجية، وهو محدود من الناحية السياسية على نحو ما، ولكن ليست الخلية العملية من تجعله كذلك.

وباختصار، إذا كانت الخلية العملية الشيوعية مشبعة بالعلاقات الكومونالية، فإن هذه العلاقات في الخلية العملية الغربية ضعيفة، أو لا وجود لها البتة. وبالمقابل، إذا كانت الخلية العملية الغربية مشبعة بقواعد أفضل أداء لوظيفتها العملية، فإن هذه القواعد في الخلية العملية الشيوعية ضعيفة، أو تحوَّلت إلى شيء شكليٍّ محض. وهنا يكمن أحد أعمق الأسباب التي تجعل المجتمع الشيوعي مجتمع أناس ذوي تركيبة داخلية معقدة، ولكنهم متبطلون متقاعسون في العمل، طفيليون، يتصنعون النشاط، فيما المجتمع الغربي آلية خاوية الروح، تتألف من أناس هم أشباه روبوتات مبسطة داخلياً، ولكنها تؤدي عملها على نحو جيد.

هناك أدبيات واسعة الانتشار تتحدث عن التنظيم الشكلي لحياة الخلايا الغربية العملية، ولكن من النادر للغاية أن نقع على وصف لما يجري فيها على مستوى العلاقات الإنسانية. ولا يمكننا الحصول على معلومات عن ذلك إلا بطرق ملتوية، أي باستخلاصها من الأعمال الأدبية، والأفلام السينمائية، ومقالات الجرائد، بل - وكقاعدة عامة - من تجلّي تلك العلاقات فيها بأشكالٍ متطرّفة أو إجرامية. وقد كنت أقع أحياناً على موادٍ تتضمن وصفاً مباشراً لتلك العلاقات، إلا أنها موادٌ نادرة وشحيحة للغاية.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى كتاب شيق، حسب تقديري، لاثنين من المؤلفين الأمريكيان، هما جيمس باترسون وبيتر كيم<sup>(29)</sup>. إذ يخبرنا هذان المؤلفان بأن مدراء الشركات يخالفون أبسط قواعد الأمن وسلامة العمل، ويمارسون التمييز والاضطهاد ضد الأقليات والنساء، وينتجون سلعا تشكل خطراً على الحياة، ويبتزون العاملين، ويرتكبون جرائم عديدة دون عقاب. ويمضي العمال أكثر من سبع ساعات من أسبوع العمل يعاقرون فيها الخمر، ويتعاطون المخدرات، ويثرثرون، ويتمارضون. وعشر العاملين فقط راض عن العمل. صحيح، بالطبع، أن الخلايا الغربية لا تجارى الخلايا الشيوعية في هذا المجال، ومع ذلك يمكن أن نرى داخلها كثيراً من هذه الأمور التي تعد شيئاً عادياً في المجتمع الشيوعي. فقوانين الكومونالية موجودة فيها أيضاً. وعلى أية حال، عندما كنت أقرأ كتباً وأشاهد أفلاماً تتطرق بشكل ما إلى الحياة الداخلية في خلية المجتمع الغربي، كنت أقع على ظواهر أعرفها جيداً من حياتي في روسيا، ولكن مع بعض التعديل، إذ تتخذ هذه الظواهر في الخلايا الغربية شكلاً أكثر قسوة، والفرد فيها أقل حماية في وجه زملائه الأقوى اجتماعياً.

لم تكن لدى أوهام بخصوص العلاقات داخل الخلية في الغرب. ومع ذلك، فقد صعقتني ما قدر لي أن أعرفه عن طريق مصادر رسمية في ألمانيا. إذ تقول دراسات علم الاجتماع وعلم النفس إن أكثر من مليون عامل مأجور في ألمانيا يقعون ضحايا ما يمارسه عليهم زملائهم من إرهاب نفسي منهجي. ويرى العديد من الباحثين في ظروف العمل هناك أن المشكلة الرئيسة في تسعينيات القرن العشرين، هي قيام مجموعة من العاملين باضطهاد زملائهم "الأضعف" بينهم. إن مكان العمل يتحول إلى جحيم بالنسبة لعدد هائل من الناس، لأن المكائد والإهانات والابتزاز والتهديد والتحرش

---

(29) Games Patterson and Peter Kim. The day America told the truth. Prentic Hall, 1991.

الجنسى... إلخ، مظاهر مألوفة هناك. وتدور فى أماكن العمل حرب يومية من هذا النوع. أما أجواء العمل الجماعى فى البلاد الشيوعية فيجد المرء فيها (عبر المنظمة الحزبية، ومنظمة الشبيبة، والاجتماع العام، والإدارة، وجريدة الحائط... إلخ.) شيئاً من الحماية من هذه الممارسات، الأمر الذى لا وجود له تقريباً فى جماعات العمل الغربية.

وقد لفت النظر مؤلفون آخرون<sup>(30)</sup>، ليسوا البتة أعداء للرأسمالية ولنمط الحياة الغربى عموماً، إلى أن هناك منظرين يتجاهلون عمداً جوانب عديدة من أجواء العمل السائدة فى المنشآت الغربية.

## الإدارة

ثمة عنصر مهم فى نشاط الخلية العملية الحيوى، هو إدارة حياتها الداخلية وسلوكها فى الوسط الخارجى. على أننى قبل الخوض فى هذا الموضوع سأطرح جملة من الملاحظات بخصوص الإدارة عموماً.

إن دماغ الإنسان وجملته العصبية هما جهاز التحكم (الجهاز الأمر، الإدارة) عنده. فهما يتيحان له، بهذا القدر من الموضوعية أو ذاك، تقييم وضعه فى الوسط المحيط، وطرح أهدافه، والتنبؤ بنتائج تصرفاته، واتخاذ القرارات، وتنبيه جسمه لتنفيذها، وكذلك تقييم نتائج تصرفاته الهادفة. وعندما يتحد الناس فى مجموعات فإنهم ينقلون إليها ما حببهم به الطبيعة، أى الانقسام إلى جهاز تحكم (أمر)، وجسم محكوم (مأمور). غير أن ما جرى فى الحياة ليس إلا تقسيم الوظائف المتجسدة فى الإنسان بوصفه كلاً واحداً، وتوزيعها بين أناس مختلفين، فتنتقل وظيفة جهاز التحكم (الأمر)

---

(30) Robert L. Heilbroner. On the limited "relevance" of economics. Capitalism today.

إلى بعض الناس، ووظيفة الجسم المحكوم (المأمور) إلى البعض الآخر. وهذه حالة خاصة من حالات قانون التطور العام للمادة الحية تقول بانقسام وظائف الجسم الواحد، وبتحولها إلى وظائف خاصة لأجسام مختلفة من النوع نفسه.

يمكن أن يكون جهاز التحكم في الخلية فردياً، أو مجموعة أفراد، أو منظومة معقدة من الناس، أو مجموعات من الناس. وإذا كان الحديث يدور عن إدارة متّحد اجتماعي أكبر، فإن جهاز التحكم (الأمر) يمكن أن يكون خلية خاصة، أو منظومة قوامها كثير من هذه الخلايا، مختصة بالتحكم، ويكون منوطاً بجهاز التحكم حقاً وواجب إعداد القرارات واتخاذها بخصوص ما يتعلق بنشاط الجسم المأمور، وتنفيذ هذا القرارات، ومراقبة تنفيذها، ودعم ما يلائم من ظروف ضرورية لهذا النشاط، وتشجيع بعض المواطنين ومعاينة بعضهم الآخر. إن هذه الحقوق والواجبات يمكن أن يتم الاستيلاء عليها بالقوة. وقد يتم الحصول عليها بموجب التقاليد، وربما تكون مثبتة بواسطة اتفاقيات، أو عن طريق القانون.

ثمة تلازمات بين جهاز التحكم والجسم المحكوم. وكل إخلال بهذا التلازم يجعل الجماعة (الكائن الاجتماعي) أقل قدرة على الحياة، والحال، فإن إشراف جهاز التحكم في التعاضم يكون خطيراً بقدر ما هو خطير قصوره في التحكم بالجسم المسرف في التضخم والتعقيد. وتاريخ عالم الحيوان والبشرية يمدُّنا بما لاحصر له من الأمثلة في هذا المجال.

إن الحكم هو نشاط أجهزة التحكم (الإدارات). وتوجد هنا قواعد معينة يؤدي التقيد بها إلى النجاح المتوخى، أما العكس فيؤدي إلى الفشل غير المرغوب. غير أنه لا وجود لنظرية متكاملة ومعدة بالتفصيل تنطوي على هذه القواعد. وقد غدا موضوع التحكم (الإدارة) في الآونة الأخيرة مادة تحظى باهتمام الخبراء، نظراً لنمو دور الإدارة في الاقتصاد الغربي. ولكن مناقشة هذا الموضوع تجرى ضمن الأطر الضيقة للاقتصاد والسياسة. ثم إن ما يحول دون وضع نظرية عامة للإدارة هو النفاق الإيديولوجي. ذلك أن الإقرار بفكرة من هذا القبيل، كما نرى عند مكيافيللي، يعدُّ لا

أخلاقياً، أما تجربة ألمانيا الهتلرية وروسيا الشيوعية فتعدُّ جريمة. على أن قواعد الإدارة لا يمكن أن تكون جزءاً من قواعد الأخلاق والحقوق. هناك فريق من الناس يجرى إعدادهم لتولى الإدارة. إنهم يدرسون كثيراً من العلوم المختلفة. أما قواعد الإدارة بوصفها كذلك، فيعلمون بها بطرق غير مباشرة، أو كشيء مبتذل (مثل الابتسام، الانحناء، وربطات العنق)، ويدركونها أساساً في التجربة.

ينبغي التفريق بين إدارة العمل الذي ينخرط فيه عدد معين من الناس، وبين إدارة الناس، بصرف النظر عن عملهم، ما داموا قد اجتمعوا معاً لأسباب ما. إن إدارة عمل معين هي دائماً إدارة أناس منخرطين في هذا العمل، أما إدارة تجمع بشري معين فهي، بهذا الشكل أو ذاك، إدارة القضية التي جمعت بين هؤلاء الناس، حتى ولو لم تتعدَّ هذه القضية قرارهم بأن يعيشوا معاً. إن غلبة هذا الجانب أو ذاك (العمل والاشتراك في قضية) تسفر عن نمطين من الإدارة مختلفين، هما النمط العملي والنمط الكومونالي (التسلسلي). فالأول يخضع لقوانين العمل العامة، أما الثاني فيخضع لقوانين الكومونالية، ولكن كلاً منهما يتضمن خصائص الآخر في شكل مخفف.

ثم لا بد من التفريق بين جانبيين في العلاقات المتبادلة بين العضو الموجه والجسم الموجه. فالأول يتكيف مع الثاني، والثاني يتكيف مع الأول. وتدرجياً ينشأ بينهما توازن نسبي، ولكن تكون الغلبة فيه لأحدهما تبعاً لطابع الكيان الاجتماعي. إن غلبة الجانب الأول تعطي نمط إدارة تكييفياً، أما غلبة الثاني فتعطي نمط إدارة إرادوياً.

ثم إنه لا بد أيضاً من التفريق بين العلاقات المتبادلة بين مختلف أجهزة الإدارة ضمن حيز اجتماعي واحد، كالعلاقات المتبادلة، مثلاً، بين الإدارة داخل الخلية وإدارة مجموع الخلايا كلها. وهنا أيضاً من المحتمل، مرة أخرى، وجود أشكال مختلفة من تلك الأجهزة، وسأشير إلى شكلين اثنين منها بوصفهما أساسيين. الأول، تكون فيه

أجهزة الإدارة ومبادئ الإدارة من نمط واحد، تسود بينهما علاقة تبعية، وسأطلق على هذا الشكل اسم "المجانس". وفي الشكل الثانى تكون أجهزة الإدارة ومبادئ عملها مختلفة النمط ، وتسود فيما بينها علاقة تنسيق وتضافر. وسأسمى هذا الشكل بـ "المغاير". وقد تكون هناك أشكال أخرى، بما فى ذلك توليفة من هذين الشكلين، وحتى من ثلاثة، أو أكثر، من أشكال الإدارة.

ويجرى التمييز أيضاً بين الإدارة المباشرة وغير المباشرة. إذ يوجد فى الثانية وسيط بين جهاز الإدارة وموضوع الإدارة. وتوجد إدارة قليلة المستويات، وأخرى متعددة الدرجات، مركزية ولا مركزية، لها رئيس فرد أو رئاسة جماعية.

يجب أخيراً أن نميز بين جانبيين فى الإدارة، هما الجانب الأوامرى والجانب التوافقى. فغلبة أحدهما هى التى تسفر عن نمط إدارة أوامرى أو توافقى. على أن إدارة النمط الأول تكون عن طريق أوامر (مراسيم، توجيهات، تعليمات) يصدرها الجهاز القيادى إلى القيادات الأدنى، أو إلى المواقع الخاضعة لإدارته وتوجيهه. وفى الثانى يكون الاعتماد على منظومة من القواعد يشرف الجهاز القيادى على عملية الالتزام بها. وتتجم عن النمط الأوامرى السلطة التنفيذية فى الدولة، وعن النمط التوافقى السلطة التشريعية وعلاقات المجتمع الحقوقية. وفى الواقع تشمل إدارة مجتمع متعدد الملايين عدداً هائلاً من أعمال الإدارة، وأساليبها، ومؤسساتها، وجوانبها. كل ذلك يتضافر ويتداخل معاً ليؤلف نظام إدارة معقداً ومتعدد الجوانب لا تحيط به صفة واحدة تكون بادية للعيان وقد ضخمتها الإيديولوجيا والدعاية، وإنما يتمتع بصفات عديدة لا تكون دائماً متناغمة فيما بينها، بل وتخوض أحياناً نزاعات فيما بينها وتسفر عن نتائج متناقضة. ومع ذلك فإن كل نمط من أنماط المجتمع ينشئ نظامه الإدارى الخاص الذى تكون الغلبة فيه لظواهر محددة تماماً هى التى تسمح بالحديث عن نمط هذا النظام. والحال، فإن المجتمع الشيوعى يتميز بنظام إدارة تسلسلى، إرادوى، متجانس، ممرکز، أوامرى، مباشر، متعدد



الدرجات، فيما يتميز المجتمع الغربي بمنظومة إدارة عملية متكيفة، متغايرة، غير مباشرة، وتوافقية.

لكل من هاتين المنظومتين مبادئها فى أداء وظيفتها. وإليك، على سبيل المثال، بعضاً من مبادئ الإدارة الشيوعية: أقصى حدّ من الرقابة على جميع جوانب حياة المجتمع والمواطنين كل بمفرده. العمل قدرُ المستطاع على منع كل شيء لا يمكن مراقبته. وإذا ما تعذّر المنع يُسمح بالشيء فى حدود لا تجعله يهدد القاعدة العامة التى تتيح وضعه تحت أقصى درجات الرقابة. العمل قدرُ الإمكان على تقليل عدد المواقع الخاضعة للإدارة، وتقليص عدد "نقاط" الإدارة وفعاليتها إلى الحد الأدنى. عدم السماح بالنزاعات بين أجزاء الكل الواحد. وفى حال نشوب مثل هذه النزاعات تعطى الأفضلية للطرف الأسهل قياداً. عدم السماح بوقوع مفاجآت.

وهاكم، على سبيل المثال أيضاً، بعض مبادئ الإدارة الغربية: الاكتفاء بمراقبة "نقاط" من الجسم الخاضع للرقابة تتيح مراقبتها مراقبةً الجسم كله. تقليص عدد هذه النقاط إلى الحد الأدنى. فإذا كان الجسم الخاضع للرقابة يقوم بتنفيذ وظائفه الحياتية بشكل طبيعى لا يكون هناك حاجة للإثقال عليه برقابة زائدة. عدم مضايقة الظواهر غير المراقبة إذا لم تكن تلحق أذى بالقضية. إعطاء الأفضلية للعمل فى حالات النزاع كافة.

على أن المبادئ المذكورة أعلاه يجرى خرقها بشكل دائم، إذ يظلّ المجتمع، رغم كل شيء، كائناً حياً يتألف من عدد كبير من البشر ذوى المصالح والصفات المختلفة. وينخرط فى نظام الإدارة عدد هائل من الناس الذين يتبعون أهدافهم الخاصة، ويقىمون علاقات مع بعضهم البعض، وهم مرغمون على الخضوع لقواعد إدارية عامة، بوصف الإدارة مهنة مميزة. وينجم عن مجموع أفعالهم نوع من النتائج التى جعلت النظام الشيوعى يبدأ بالظهور شبيهاً بالغرب، والنظام الغربى شبيهاً بنظيره الشيوعى.

## الإدارة داخل الخلية

إن المنشآت الصغيرة، وحتى المتوسطة، في الغرب لا تحتاج إلى أى جهاز إدارة خاص، فصاحب المشروع نفسه يقوم بوظائف جهاز الإدارة، وقد يستأجر عند الحاجة مساعداً أو عدة مساعدين. والحالة الأكثر شيوعاً هي توظيف سكرتيرة. ولا تظهر الحاجة إلى عدد محدد من العاملين المأجورين الذين يحترفون العمل الإدارى، أى بوصفهم جهازاً خاصاً بالإدارة، إلا عند مستوى معين من تعقيد العمل، سواء من حيث بنيته الداخلية، أو من حيث ظروف قيامه بوظائفه فى العالم المحيط.

يتألف جهاز إدارة المنشأة<sup>(31)</sup> من مدير مأجور وموظفين مأجورين، تناط بهم مسائل تنظيم العمل، والموارد البشرية (أى العاملين فى المنشأة)، والمال، وتأمين المواد، والتجارة، والدعاية، والتخطيط، والعلاقات العامة *public relations*. وإذا كانت المنشأة شركة مساهمة فإنها تنتخب مجلس مدراء هو من يستأجر موظفين لإدارة المنشأة. وإذا كانت المنشأة ملكاً لشخص واحد، فإن وظيفة الإدارة تظل مهنة، ولا يعنى شكل الملكية شيئاً بالنسبة لإتقانها والقيام بها، أى أن من يصبح رئيساً للمنشأة فى جميع الأحوال ليس المالك، بل هو مدير محترف.

إن نظام اتخاذ القرارات نظام مركزى. وعندما يتحدثون عن اللامركزية يكون المقصود إعطاء قدر أكبر من حرية المبادرة لبعض الأشخاص فى طاقم الإدارة، أى توزيع السلطة والمسئولية داخل جهاز الإدارة. ولكن الكلمة الفصل، مع ذلك، تظل لكبير الإداريين (الرئيس) فى الشركة.

يتصف جهاز الإدارة ببنية هرمية، أى بسلم من العلاقات بين الأمر والمأمور. فالموظفون لا يحصلون على عمل وحسب، بل وتتاح لهم فرصة الصعود على درجات الهرم الوظيفى، أى الارتقاء عالياً.

---

يمكن العثور على وصف هذا الجهاز فى كثير من المؤلفات، وخاصة فى كتاب: Paul R. Lawrence, (31) Chalambo A.Vlachoutsicos. Behind the Factory walls. Boston, 1990.

وألفتُ الانتباه إلى أن تشكيل جهاز الإدارة، وتقسيم الوظائف داخله، وهرمية الأمر والمأمور، أو الارتقاء الوظيفي ... كل ذلك مظاهر كومونالية موجودة في أى منشأة كبيرة الحجم بالقدر الكافى، ومعقدة بالقدر الكافى من حيث أداء عملها .

كل منشأة غربية تتمتع بحرية اختيار نوع نشاطها (أى ما تنتجه، وما هى الخِدْمات التى تقدمها) والبحث عن الزبائن، والحصول على رأس المال والمواد، واستئجار العاملين وفق ما تراه مناسباً. غير أن هذه الحرية ليست مطلقة، بل هى محدودة بأطرٍ ما فى الدولة من قوانين ومؤسسات تكبح المنشأة وتساندها فى الوقت نفسه. وفيما عدا ذلك فإن هذه الحرية لا تلعب دوراً عملياً إلا عند تأسيس المنشأة وتعايشها فى حياة بيئتها، وكذلك فى الحالات الحرجة، عندما يتطلب الأمر اتخاذ قرارات استثنائية، أو تغيير نوع العمل ومجاله. ولكن ذلك لا يحدث بشكل متكرر. إذ إن الجزء الأساسى من أداء المنشأة هو روتين مستقر، إلى هذا الحد أو ذاك، فى إطار العمل القائم .

تعمل المنشأة الغربية وفق خطة قصيرة المدى (سنوية)، وأخرى طويلة المدى. والخطة شرط ضرورى لعمل أية منشأة معقدة بهذا القدر أو ذاك، فى الكيان الاجتماعى المعاصر المعقد. على أن مهمة الخطة فى المنشأة الغربية، هى جعل المنشأة رابحة رأسمالياً، وقادرة على المنافسة فى سوق تصريف منتجاتها وخدماتها. وترمى الخطة بالدرجة الأولى إلى تحقيق مصالح المنشأة، وتلبية حاجات مجتمعية معينة، كشرط ونتيجة لتنفيذ الخطة. فالدولة لا تصدر الأوامر للمنشأة، ولا ترسم لها أى شىء، ويقتصر دورها على مراقبة تنفيذ الخطة وإلزام المنشأة بمراعاة قوانين المجتمع. ذلك أن خطط المنشأة الغربية هى من قبيل الاستراتيجية (خطة طويلة المدى) والتكتيك (خطة سنوية) لسلوك المنشأة فى سوق المنتجات والخدمات. وهذه الخطط ليست أداة لإدارة المنشأة.

إن الفرق، فى واقع الأمر، بين المجتمعين الشيوعى والغربى لا يكمن فى وجود أو عدم وجود تخطيط لعمل المنشأة، بل فى أهداف هذا التخطيط وطبيعته. فهناك اعتقاد

بأن الخطة فى المجتمع الشيوعى تفرض من فوق، "من قبل الدولة"، ولكن الأمر ليس على هذا النحو تماماً. ذلك أن الخطة تعد "من تحت"، أى من قبل المنشأة التى تأخذ إمكاناتها بالحسبان، بينما تقوم الدولة بتصويب الخطة، وتوافق عليها كقانون لعمل المنشأة. أمّا فى واقع الأمر فإن أعمالاً كثيرة تنفّذ وهى ليست فى الخطة، فى حين لا تنفّذ أشياء كثيرة مما هو فى الخطة. إن الهدف من الخطة هو دمج الخلية فى الكيان الاجتماعى الواحد بحيث تلبى حاجات اجتماعية ما. وهذا الهدف يتم تحقيقه بهذا الشكل أو ذاك. على أن الشئ الرئيس هو أن تقوم المنشأة بعمل ما يجب أن تعمله، وأن توفر العمل لعدد محدد من المواطنين. وتتوخى الخطة مصلحة المجتمع بالدرجة الأولى، وهى تلبى حاجة العاملين فى المنشأة كشرط ونتيجة لتنفيذها.

يختلف نظام اتخاذ القرارات فى قيادة كل من الخليتين الغربية والشيوعية اختلافاً جذرياً. فمن ناحية نجد أن اتخاذ القرارات فى قيادة الخلية الشيوعية أبسط مما هو فى قيادة الخلية الغربية، إذ توجد لدى الأولى خطة مرسومة من قبل الدولة، وما على قيادة الخلية إلا تنفيذها، بينما يتوجب على قيادة الخلية الغربية أن تقوم بالإنتاج، ومتابعة الأوضاع، وتنفيذ القرارات. ولكننا، من ناحية أخرى، نجد أن اتخاذ القرارات فى الخلية الغربية مبسط جداً مقارنة بالوضع فى الخلية الشيوعية. ذلك أن تنفيذ خطة الدولة من قبل الخلية الشيوعية يتحول فى الممارسة العملية إلى مهمة فائقة التعقيد. فالمدير والإداريون يضطرون لبذل جهود مضيئة لكى تبقى منشأتهم فى إطار الخطة. وهذا يعنى حياة مفعمة بالدرامية، فهنا تفعل فعلها الخصومات، والمكائد، والافتراءات، والوشايات، وتدور اجتماعات لا نهاية لها، وتتدخل فى الأمر أحياناً هيئات رسمية وحزبية مختلفة، منها هيئة المدراء، واللجان الحزبية، ومجالس السوفيت المحلية. وتضطر الإدارة العامة للمنشأة إلى القيام على نحو منتظم بأعمال ممنوعة فى القانون.

سبق أن أشرت إلى أن أحد مبادئ الخلايا العملية الغربية، وبلدان غربية بكاملها، هو السعى إلى تقليص نفقات العمل إلى الحد الأدنى، بما فى ذلك نفقات

الإدارة، وفي هذا الخصوص قاوم الغرب مدة طويلة تضخم الجهاز الإدارى داخل الخلية، وفي المجتمع عامة، ولكن التطور سار فى طريق أدى إلى انكسار هذه المقاومة. فقد وجد الغرب نفسه مضطراً للحاق بالبلدان الشيوعية، ليس فقط فى ما يتعلق بتضخم الجهاز الإدارى، بل وفى دور هذا الجهاز أيضاً، وإذا كان الغرب قد قدم الدعم للقوى الهدامة فى البلدان الشيوعية من أجل تدمير جهازها الإدارى، فإن هذا الغرب بالذات لم يتمكن من تفادى "المرض" نفسه الذى تمليه قوانين الكومونالية.

وقد أصبح الآن لكل شركة تتمتع بقدر ولو قليل من الأهمية مكتب يجرى فيه تسيير الشركة والإشراف على نشاطها فى العالم المحيط. وتوجد مكاتب منفصلة على شكل شركات مستقلة، تقيم صلات عملية مع شركات أخرى تنتج سلعاً ما، أو تقدم خدمات ما، ولهذه الشركات مكاتبها الخاصة، فى حين أن للمكاتب/الشركات أقسامها العملية. وعلى هذا النحو يظهر فى المجتمع عدد هائل من المكاتب المستقلة التى تكتسب سلطة كبيرة جداً، وبذلك يغدو المجتمع نوعاً من نظام المكاتب، ويصبح الجزء العملى خاضعاً للجزء المكتبى. على أن نظام الإدارة وهو يتزايد تلقائياً، بعد أن يحتل مواقع متينة فى المجتمع، يبدأ بالتعاظم وفقاً لقوانينه الخاصة (الحالة الخاصة التى تعرفها قوانين الكومونالية).

## الإدارة والمعلومات

إن أية إدارة تقتضى وجود سبل من المعلومات، ومن الطبيعى أن يكون تقدم تقنية المعلومات قد خلق قدراً هائلاً من الحماسة لتقدم مجمل نظام الإدارة. ولم تقتصر هذه الحماسة على الكلام، بل انتقلت إلى مجال الممارسة. فقد أضحي اليوم العديد من الخلايا العملية فى الغرب يستخدم التقنية المعلوماتية وإمكاناتها فى إدارة نشاطه، حيث حصرت شركات من نوع خاص عملها فى تقديم الخدمات المعلوماتية للمؤسسات والمنشآت الأخرى، ويتحدث المنظرون والإيديولوجيون بإصرار عن بداية عصر

المعلومات، وعن انتقال المجتمع الغربى إلى مجتمع ما بعد صناعى، أو معلوماتى. ومن المتوقع أن يكون للجانب المعلوماتى دور غالب فى الإدارة مستقبلاً. وما دمت أعتزم الحديث عن هذا الموضوع فيما بعد، فإننى أكتفى هنا بتسجيل بعض الملاحظات حول المعلوماتية على مستوى الخلية.

من المعروف أن المنظومة المعلوماتية الجديدة القائمة على استخدام تقنيات المعلوماتية الحديثة تقدم معلومات للمسئولين أكثر دقة واكتمالاً وسرعة مما تقدمه المنظومة القديمة القائمة على التقارير الشخصية من قبل العاملين لرؤسائهم. زد على ذلك أن مسئولاً واحداً فى المنظومة القديمة لا يمكن أن يكون لديه أكثر من ستة رؤوسين يقدمون له التقارير. أما فى المنظومة الجديدة فإن عددهم غير محدود من حيث المبدأ، بل إنه، بالأحرى، ليس محدوداً إلا بصفات الرؤوسين الملزمين بتقديم التقارير لرئيس واحد.

كل ذلك صحيح إذا ما تحدثنا بشكل تجرىدى، أما فى الواقع فإن هناك عوامل أخرى تتدخل لتعيد إلى جادة الصواب أولئك المتحمسين لإدارة بدون نظام هرمى فيه أمر ومأمور، فقدرات المدير على استيعاب ما يحصل عليه من معلومات، هى قبل كل شىء قدرات محدودة. إذ يمكن لأى عدد من الأشخاص أن يقدم له معلومات، ولكن ما حجم المعلومات التى يستطيع المدير أن يهضمها؟! وهل بإمكان أجهزة المعلومات أن تتعامل مع سيل المعلومات كما يتعامل معه على مختلف مستويات الهرم المعلوماتية أناس يعرفون واقع الحال، ويتمتعون بخبرة انتقاء المعلومات وتقييمها؟ من الناحية التجريدية يمكننا أن نتخيل أجهزة من هذا النوع بعد تلقينها معايير الانتقاء. ولكن هذه المعايير يجب أن تكون ثابتة. غير أن الواقع المتغير والمتنوع يتطلب وجود أشخاص يأخذون بالحسبان ما يطرأ من تغيرات ويلقّمون الأجهزة معايير جديدة. وهذا يعنى حلول أشخاص مزودين بأجهزة محل أشخاص ليس لديهم تلك الأجهزة.

كما أن باقى مزايا النظام الجديد نسبى أيضاً. ذلك أن اكتمال المعلومات وسرعة حركتها أمران متوفران هنا بكثرة، إلا أن الأجهزة لا تجعل المعلومات أكثر دقة بأى



قدّر كان. أضِفْ إلى ذلك أنه ما من تقنية، أيّاً كانت، تستطيع أن تكون بديلاً كاملاً عن جانبيين هما الإرادة والقدرة على التقييم. إذ إن من يقرر هنا هم، بهذا الشكل أوذاك، أشخاص يشغلون وضِعاً معيناً في المنشأة.

لقد حققت الغربية ما حققته من نجاح دون وجود تقنيات معلوماتية متخصصة، بغض النظر عن أن هذه التقنيات أصبحت اليوم ضرورية في عدد كبير من الأعمال والمنشآت والمؤسسات. ولكن الأغلبية العظمى من الخلايا العملية، كالمنشآت الصغيرة والمتوسطة، لا تتطلب أية تقنيات معلوماتية مميزة. ولم تغدُ هذه التقنيات ضرورية إلا للمؤسسات الكبيرة والضخمة التي تُعدُّ مولِّدات للخلايا، وكذلك للمؤسسات التي تتعامل مع كمّ هائل من المعلومات، وللتحكم بكتل هائلة من الناس، أي أنها باختصار، ضرورية على مستوى ما فوق الخلية.

### ثقافة العمل :

إن ما قدّر لي أن أقرأه من أدبيات عن الغرب لا يتضمّن شيئاً تقريباً عن أهمّ عامل من عوامل الجانب العملي في الغربية، ألا وهو ثقافة العمل. فقد كان هذا الجانب، ثقافة العمل، يُعدُّ تحصيل حاصل، نظراً لأنه لم تكن تظهر هناك مشكلات من نوع خاص. بالأحرى، كانت تظهر مشكلات، ولكنها كانت تعالج في سياق الحياة اليومية بوصفها مشكلات "اعتيادية". أمّا الآن، ونظراً للتغيرات العميقة في العالم عامة، وفي الغرب ذاته، فإن مشكلة ثقافة العمل تطرح نفسها، في هذا الشكل أو ذاك، كمسألة رئيسة.

لقد كان ماركس على حق عندما أشار إلى أن قوة الإنتاج الأساسية في المجتمع هي الناس، أي عشرات ومئات الملايين من البشر. ويجب على هؤلاء جميعاً أن يتعلموا ويتدربوا بالشكل المناسب لكي يؤديوا وظائفهم العملية، ويحافظوا على بقاء ثقافة العمل القائمة في المستوى المطلوب. غير أن هذه الثقافة تكوّنت في الغرب على امتداد قرون

كثيرة، وغدت جزءاً عضويًا من الناس فيه. إنها تشكّل جزءاً ثابتاً ومتوارثاً إلى هذا الحدّ أو ذاك من "الهيكل العظمى" للمجتمع. وعلى الرغم مما تشهده هذه الثقافة من تغييراتٍ داخليةٍ تتعلّق بطبيعة إعداد الناس مهنيًا، يظل ثابتًا معيار المطالبة بجودة أداء أى عمل من الأعمال. وبهذا المعنى تكون ثقافة العمل واحدة من القوى القسرية التي تحدّد سلوك الناس.

لم يكن رجال الأعمال فيما مضى يصدّعون رءوسهم بمشكلة إعادة تشكيل المادة البشرية في منشآتهم. إذ كانت هذه المادة شديدة الوفرة بمعزل عنهم. فكانوا يستخدمون مادة جاهزة. وإلى حدّ كبير يظل هذا الوضع مستمرًا حتى الآن. فالولايات المتحدة الأمريكية ما زالت حتى في وقتنا الحاضر "تقطف زبدة" الكرة الأرضية كلها عن طريق إغراء ورشوة ما في البلدان الأخرى من قوة عاملة مبدعة، وذات كفاءات عالية. ولكن هذه الطريقة في الحياة لا تسدُّ جميع حاجات البرنيس في الغرب، وهي على حافة النفاد.

لقد ظهر في العقود الأخيرة ثلاث مسائل رئيسية تتعلق بثقافة العمل. الأولى، هي أن التقدم التكنولوجي تطلّب تأهيل عدد هائل من الناس ليكونوا نمطًا جديدًا من الاختصاصيين ذوي القدرات الذهنية العالية. إذ تبين أن نظام التعليم القائم لم يكن مهياً لهذه الثورة التكنولوجية. والمشكلة الثانية، هي أن تعقّد مجمل الوضع العملي بالنسبة للمنشآت، واشتداد الصراع من أجل البقاء، تطلّبًا إيجاد جيش كامل من المدراء المتخصّصين، والمرنين ذهنيًا، وذوى المبادرة الذين ليس أى مواطن من بلد غربي قادرًا على القيام بدور واحد منهم. وتطوّعت شركات ضخمة كثيرة لإنشاء مدارس متخصصة، وتنظيم دورات، وحلقات بحث، ومحاضرات بغية حل هذه المشكلة. أمّا المشكلة الثالثة، فهي أن سيول الوافدين من بلدان أخرى على بلدان الغرب خلقت نزوعًا نحو تدنّي مستوى ثقافة العمل. وقد اطلّعت في الصحف على شكاوى من هذا القبيل، إليكم واحدة منها. في الفترة ما بين ١٩٦٥ - ١٩٩٠ انتقل للعيش في الولايات المتحدة الأمريكية حوالي ١٢ مليون شخص من أمريكا اللاتينية وآسيا. وهؤلاء المهاجرون "لا

يلتزمون بقواعد الحياة البروتستانتية فى العمل"، كما كتب المؤلف خوفاً من اتهامه بالعنصرية، وأشار إلى أن هذه المادة البشرية لا تتلاءم مع ظروف المجتمع الأمريكى. ويتمثل عدم التلاؤم هذا فى تدنى نوعية العمل وإنتاجيته. أضيف من ناحيتى أن معظم هؤلاء المهاجرين لا يصلحون إطلاقاً للمهن التى تتطلب كفاءة عالية، وهم يستخدمون فى أعمال من أدنى مستوى.

## الملكية الخاصة

عند الحديث عن النظام الاجتماعى الغربى يشيرون عادة قبل كل شىء إلى الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. فقد كانوا وما زالوا يرون أن للملكية الخاصة أهمية حاسمة. كما كانوا وما زالوا يعتقدون أن النتيجة الأساسية بين نتائج الثورات البرجوازية هى الاعتراف بأن الملكية الخاصة شىء مقدس لا يمس. وهذا ما كرسته دساتير البلدان الغربية، بحيث صار صاحب الملكية الخاصة يُعدُّ دعامة المجتمع الغربى. إن جميع نقاد المجتمع الغربى تقريباً (ت. مور، ت. كامبانيا، ك.أ. سان سيمون، ف.م. ش. فوريه، ر. أوين، ب.ج. برودون، ك. ماركس، ف. لينين وغيرهم) رأوا فى الملكية الخاصة مصدر الشرور كافة. وأعلن العديد من المنظرين أن تباين أنواع الملكية، هو أساس تباين أنواع المجتمع. وقد قطع ماركس وأتباعه شوطاً أبعد من الآخرين فى هذا المجال. وتحت شعارات تصفية الملكية الخاصة قامت الثورات الاشتراكية. ورأى هؤلاء أن أساس النظام الاجتماعى الشيوعى يكمن فى إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، وإقامة الملكية العامة. ولقد رأى كثيرون من سياسة القرن العشرين أن الخطر الداخلى الرئيس الذى يهدد الغرب يكمن فى إشاعة الاشتراكية، فى تأميم المصانع، وشدُّوا على الخصخصة. أما "الإصلاحيون" من قادة الاتحاد السوفيتى السابق وبلدان أوروبا الشرقية فرأوا فى الخصخصة ترياقاً يشفى من جميع العلل، وراحوا يطبقون سياسة الخصخصة بدأبٍ جدير بأن يُقتدى، متجاهلين العواقب الكارثية لهذه السياسة على بلدانهم.

إننى لا أنفى ما للملكية الخاصة من دور فائق الأهمية فى قيام الغربوية والغرب والحفاظ عليهما. ولكننى أعتقد أن من الضرورى أن ندخل على فهم هذه الظاهرة عدداً من التعديلات، وهى ليست تعديلات سياسية الطابع بقدر ما هى ذات طابع استرشادى. ولأشرح ما أقصده!

أودّ القول، قبل كل شىء، إنه لا وجود لأى شعور فطرى بالملكية. فالملكية ظاهرة اجتماعية محض. بل وتظهر عند مستوى عالٍ بما فيه الكفاية من تطور المجتمع. وينبغى، ثانياً، التفريق بين الملكية والحياسة. فحياسة الشىء لا تعنى امتلاكه، لأن الملكية هى حياسة شرعية بحكم القانون. عندما رفعت الثورات البرجوازية الملكية إلى مصاف القداسة، لم تكن تقرر أمراً واقعاً، إنما حولت ما كان بحياسة الناس عملياً إلى ملكية لهم. إن الاعتراف القانونى بواقع الحياسة يعنى ظهور الملكية كظاهرة اجتماعية. فالملكية ظاهرة حقوقية، وبالتالي فإن من السخف اعتبارها أهم سمة بين سمات التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية، كما يفعل الماركسيون.

نجد فى الإيديولوجيا الغربية (وفى غيرها أيضاً) وجهة نظر ترى فى الملكية الخاصة شيئاً فردياً، شخصياً، وفى طبقة المالكين مجرد طبقة منطقية، أى طبقة أفراد لهم صفة واحدة. غير أن المالكين الخواص لم يظهروا بوصفهم مجرد عدد من الأفراد لهم ملكية خاصة، وإنما ظهروا كطبقة بالمعنى الاجتماعى للكلمة، أى كشىء متّحد فى كل واحد بفضل القانون (الحق الدستورى) والدولة الحامية لحق الملكية. ومن وجهة النظر هذه فإن الملكية الخاصة ليست إلا ملكية اجتماعية (عامّة)، موزعة على أفراد وهى قيد الاستخدام. وهكذا فإن تصفية الملكية الخاصة لا يمكن أن تكون أى شىء آخر غير قيام الدولة بتحويل ما كان من قبل فى حوزة أفراد إلى يد مالك ومتصرف.

بعد ذلك لا يعود أصحاب الملكية الخاصة مجرد عدد من الناس يجمع بينهم مبدأ الملكية، بل يصبحون هرمية متعددة الدرجات وفقاً لحجم الملكية. وعلى الرغم من أن

الذساتير البرجوازية أعلنت مبدأ المساواة، إلى جانب حق الملكية، فإن الملكية الخاصة بوصفها ظاهرة حقوقية تحديداً، سمحت منذ البداية، وشرعت واقع عدم المساواة في إطار التمتع بالملكية.

وأخيراً، فإن الملكية الخاصة ليست مجرد حق الفرد بالتصرف بشيء ما وفق ما يراه، بل هي موقع اجتماعي محدد لهذا الفرد. إنها مكانة اجتماعية للفرد تضىء عليها الدولة صفة القانون وتحميها، وهي أيضاً دور اجتماعي معين لهذا الفرد. والملكية الخاصة من هذا المنظور نظام معقد من العلاقات الاجتماعية.

## الملكية الخاصة

### تطورها وبنيتها

لجدال في أن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وما تنتجه هذه الوسائل هي نقطة انطلاق المجتمع الغربي، وتعد شرطاً من شروطه الضرورية. وقد تمثلت إرهابات تاريخ الغرب في تقوية هذا الشرط وتوسيع مداه. وكانت الثورات البرجوازية نتيجة لذلك، واعترافاً اجتماعياً بقوة ودور هذا النمط من طبقة المالكين الخواص، أي مالكي المصانع، أصحاب المشاريع الخاصة. ويحتفظ هذا العامل بدوره في أسس الغرب المعاصر أيضاً. ولكن في أثناء تطور الغربية (وفق فهمي لها كما عرضته أعلاه) كانت ظاهرة الملكية تشهد تغيرات جوهرية عدلت صفاتها الأولية. وهذه العملية ذاتها، في شكلها "المحض"، يجرى إعادة إنتاجها في حياة المجتمع الغربي المعاصر أيضاً، حيث إن ظواهر المجتمع العميقة في أشكالها الأكثر تطوراً، والأكثر سطحية أيضاً، تبدو الآن على نحو آخر تماماً، وتتحول أحياناً إلى نقيض سابقاتها. باختصار، يجب أن ننظر إلى ظاهرة الملكية ليس على أنها شيء ثابت، لا يتغير مدى الدهر، بل

فى سياق تطورها التاريخى، وفى ضوء تلك التحولات التى تطرأ عليها فى المجتمع الغربى المتطور<sup>(٣٢)</sup>.

ثم يجب بعد ذلك دراسة واقع الملكية ليس فى شكله التجريدى والتعميمى، بل ضمن العلاقات الملموسة فى المجتمع الغربى المعاصر. فقد بلغت الملكية هناك مستوى عالياً من التطور، وتحولت إلى منظومة معقدة من العلاقات داخل طبقة المالكين. وانقسمت هذه الطبقة إلى فئات مختلفة، أى إلى شرائح مختلفة كثيرة نشأت فيما بينها علاقات من شتى الأنواع. وقد أزاحت هذه العلاقات جانباً ما كان ولا يزال مشتركاً بين مختلف المالكين وحلّت محلّها. إن العلاقة بين درجات أهمية ما يجمع وما يفرق بين المالكين يمكن أن نقارنها بالعلاقة بين صفة جميع العسكريين وهى الخدمة فى الجيش، والفوارق بينهم كجنود، وضباط صف، وضباط، وجنرالات. إن الشئ الأهم من أجل فهم بنية الغرب الاجتماعية لا يتمثل فى أن من يملك سهماً بقيمة دولار واحد، ومن يملك أسهماً ثمنها مليار دولار كلاهما مالكان، وإنما يتمثل فى أنهما شخصان ينتميان إلى طبقتين اجتماعيتين مختلفتين نوعياً فى المجتمع.

كذلك أصبح لمفهوم الملكية الخاصة عدد من المعانى أيضاً. فإذا كانت مادةً هى ( أ ) ملكاً خاصاً لشخص (أو لمجموعة أشخاص) هو (ب)، فلا ينجم عن ذلك بعد أن (ب) يستطيع أن يفعل ما يريد بـ ( أ )، ما هو مسموح، وما هو ممنوع أن يفعله (ب) مع ( أ ) يتوقف على عدد من العوامل، منها العادات، والتقاليد، والرأى العام، والمعايير الأخلاقية، والأعراف (الحقوق والقوانين غير المكتوبة). كما يجب أن نميز بين نمطين من الملكية تبعاً لطابع القيود التى يتصرف (ب) فى إطارها مع ( أ ) بوصفها ملكه الخاص. فهناك فرق بين ملكية سيارة، مثلاً، وملكية قطعة أرض؛ ذلك أن السيارة يمكن

---

انظر: (32) Rolf Dahrendorf. Class conflict in industrial Society. Stanford, 1959



بيعها لأي كان، إذا كان هناك من يشتريها، حتى ولو كان أجنبياً. أمّا بيع قطعة الأرض فليس متاحاً دائماً. ومالك الحصّة الراجعة من مجموعة الأسهم في مؤسسة يستطيع إتلاف حصته، ولكنه لا يستطيع تدمير المؤسسة التي يملك فيها هذه الأسهم. وكثيرون من الناس يملكون أموالاً في البنوك دون أن يكون لهم حق التصرف بها حسب هواهم. وعلى سبيل المثال، إذا غدت شركة طيران ألمانية ملكاً للأمريكيين فلا يعنى هذا أنها تنتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وباختصار، إن مفهوم الملكية الخاصة بحد ذاته لا يعنى فى الواقع إلا القليل جداً بالنسبة لعلاقة المالك (ب) بالمادة (أ) التي يملكها. ثمة احتمالات عديدة وممكنة يحددها القانون العام والاتفاقيات الخاصة بين المالك (ب) وغيره من الأشخاص والمنشآت.

لقد سلك تطور ظاهرة الملكية الطرق الأساسية التالية. الطريق الأول هو تمركز موارد ضخمة، على شكل وسائل إنتاج وأموال، فى أيدي بعض الأشخاص (حيازة خاصة). وبذلك فقد مفهوم الملكية نفسه المعنى الذى كان وما يزال له فى نظر المالك الصغير، بل والمتوسط أيضاً. على أن المالك المتوسط هو حقاً (أو كان) صاحب عمله، وذلك، بالطبع، إذا لم يكن مكبلاً بالقروض، والاتفاقيات، أو الديون. وهذا المالك الحر له حق التصرف بملكيتته على هواه. فهو يستطيع أن يبدأ عملاً أو أن يقضى عليه، وأن يعطى العمل لآخرين. ولكن ذلك كله ليس بهذا القدر من البساطة بالنسبة للمالك الكبير اليوم. إنه يستطيع أن ينسحب شخصياً بطريقة ما من المشروع، ولكنه لا يستطيع التصرف به كما يفعل المالك الحر. إذ ليس له سلطة كاملة على ملكيته، بل سلطته عليها محدودة. إنه شبيه بمن يمثّل هذه الملكية ولا يلعب فى عملها إلا أدواراً جزئية. وما بين يديه من أموال كثيرة لاستهلاكه الشخصى لا يؤثر على جوهر وضعه. ذلك أنه لا يلعب فى منشأته إلا دور مالك مثالى لا غير، وجزئياً فقط. إنه لم يعد قادراً على إغلاق المنشأة حسب هواه. بينما يستطيع أن يقوم بوظائفه الرئيسة أشخاص آخرون مستأجرون، أو منتخبون، أو معينون. إن كونه مالِكاً يجعله قادراً على احتلال مكانة لم

تَعُدُّ تَعُدُّ مكانة مالك. وهكذا تغدو الملكية شرطاً يستطيع المالك بفضلها أن يحتل فوراً مكانة رفيعة في هرم المواقع الاجتماعية. ولولا هذه الملكية لاضطر أن يهدر عمره كله في سبيل الوصول إلى هذا المستوى، بل وشريطة أن يحالفه الحظ، طبعاً، ومن بين عشرات ومئات آلاف الناس الذين يتسلقون سلم الهرم الاجتماعي لا يصل إلى القمة سوى أفراد معدودين.

لقد كان تطور طبقة المديرين (المسيرين)، وتفرُّع وظائف أصحاب المشاريع إلى وظائف مالكين ووظائف مديرين للعمل، أهم نتيجة من نتائج تعقد وتعزيز المصانع، وتمركز رءوس الأموال وتعقد وضع السوق. وقد أسفر ذلك عن فقدان المالكين جزءاً من سلطتهم على العمل، وتقاسم هذه السلطة مع غير المالكين، بل والتنازل لهم عنها بالكامل أحياناً.

وبذلك اكتفت ظاهرة الملكية، وهي في أعلى مستويات تطورها، بوظيفتها البدئية، أي بأن تكون مجرد شرط للعمل. ولكنها الآن تفقد صفة الشرط الضروري، إذ يمكن الاستغناء عنها، من حيث المبدأ. وها هو دورها يصبح رمزياً إلى حد كبير.

إن معظم الشركات الكبرى لا يديرها من يملكها، بل مديرون محترفون. إلا أن العديد من المديرين يملكون جزءاً مهماً من الشركات التي يديرونها، ولهم حصص في غيرها. وتعود ملكية حصة مهمة في الشركات الكبيرة لشركات متحدة كبرى، هي في العادة بنوك، وشركات تأمين، ومؤسسات مالية أخرى تسيطر على الشركات ومديريها، وتتشكل شبكة لقيادة الأعمال الحرة (البرزنس) تتخذ قرارات ليس داخل بعض الشركات فقط، بل وخارجها، أي في الشركات الأخرى، لأن الشركة الكبرى تملك فيها حصة معينة. على أن رؤساء مختلف الشركات الكبرى يتعاونون مع بعضهم البعض. وبهذه الطريقة يسيطر مالكو جزء من رءوس أموال الشركات على المديرين داخلها. وباختصار شديد، تنشأ شبكة من علاقات الملكية وإدارة المنشآت تكون شبكة معقدة متعددة الأبعاد، متعددة الدرجات، فعلاقات الملكية لا تزول. إنها فقط تتغير وتحتل مواقع مختلفة في منظومة علاقات اجتماعية من نوع آخر.

تجرى إعادة هيكلة علاقات الملكية وفق خطوط عديدة لم يلتفت إليها المنظرّون. ففي ألمانيا، مثلاً، تفيد معلومات الصحافة أن عدداً كبيراً من المنشآت المتوسطة التي تعود ملكيتها لعائلات لا يوجد فيها من هو صالح لمواصلة العمل فيها. فإما أن الورثة لا يريدون ممارسة البنس، وإما أنهم غير قادرين على ذلك، لأن ظروف هذا العمل اليوم تتطلب مديرين محترفين. وكثيرون من مالكي مثل هذه المنشآت يبيعونها لمديريها، أو لمديرين تقترحهم شركات خاصة بهذا الغرض. وبذلك يصبح المديرون الذين يشترون هذه المنشآت مالكين لها. ولكنهم يحصلون على المال المطلوب لمثل هذه الصفقات من مؤسسات مالية متخصصة بعمليات من هذا النوع. وعلى سبيل المثال، فإن ما يسمى "مجموعة Z" في ألمانيا أصبحت عام ١٩٩٢ بهذه الطريقة شريكة في أربعة آلاف شركة. إن المديرين المالكين المذكورين أعلاه يصبحون مدينين للشركات المتخصصة بنوع خاص من بنس الإدارة.

وقد جرى في الطريق الآخر الذي سلكه تطور ظاهرة الملكية ما يشبه نوبان هذه الظاهرة في كتلة السكان. لقد توسّعت شريحة المالكين حتى بات يندرج فيها الآن، بهذا الشكل أو ذاك، معظم السكان البالغين<sup>(٢٣)</sup>. وأصبح ملايين الناس يملكون أسهماً، أى أصبحوا مشاركين في ملكية منشآت ما. غير أنه ليس لهم أى تأثير على نشاط تلك المنشآت، لأنها تخضع لسلطة مجموعة صغيرة من المساهمين. ذلك أن وظيفة الملكية تعنى بالضبط أن الشخص يملك شيئاً ما، وليس أنه يقيم منشأة ما. ومالك الأسهم حرٌّ في أن يبيعها حسب هواه. إنه يحصل من هذه الملكية على دخل ما وحسب. وهنا تنتهى وظيفة الملكية. وما تبقى فليس شيئاً من وظيفة الملكية بوصفها كذلك.

---

(٢٣) يؤكد جوزيف لابلومبارا أنه لم يكن هناك إلا واحد فقط من كل أربعة إيطاليين عام ١٩٨٧ ليس صاحب ملكية. انظر:

Joseph la Palombara, Democracy italian style, New Haven/ London. 1987.

أما الدعاية فتصوّر مشاركة العاملين المأجورين في منشأتهم على نحو مختلف بعض الشيء، أي بوصفهم مالكين لها. وقد بلغ انتشار هذه النزعة في السنوات الأخيرة حدًا من الاتساع<sup>(٣٤)</sup>. جعل بعض الباحثين في الدراسات المستقبلية<sup>(\*)</sup> (Futurology) يرون في ذلك مستقبل الاقتصاد<sup>(٣٥)</sup>. إن القول بأن العاملين في الشركات هم شركاء في ملكية هذه الشركات، هو نفسه فكرة اشتراكية قديمة. ولكن، مهما كان اتساع الانتشار الذي تبلغه هذه الحركة، فإنه سيكون أمامها، كما أرى، طريقان: إما أن تتحول هذه المنشآت إلى ملكية "عامة"، وإما أن تتحول المشاركة في ملكيتها إلى وهم يُخفى أمرًا آخر، هو هيكل اجتماعية حقيقية للمشاركين في المشروع.

وتضم شريحة المالكين أيضًا أصحاب الريع الذين يعيشون على فوائد ودائعهم، والمتقاعدين الذين يستلمون رواتبهم عن طريق البنك، وعمومًا جميع المواطنين الذين يستفيدون من خدمات البنوك. فهم، بهذا الشكل أو ذاك، يملكون أموالاً ما تشارك في منشآت ما عبر البنك، وإن كان ذلك لا يعود على معظمهم بأرباح. إلا أن الأساس

---

(٣٤) يورد غونتر أوفنر (Gunter Ofner) معلومات تفيد بأن في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ١٢ مليون عامل مأجور يملكون حصصًا في ثمانية آلاف منشأة، وفي ألمانيا الغربية مليون ونصف المليون، وفي فرنسا ٦ ملايين، وفي إنكلترا مليونان. انظر: Gunter Ofner. "Von Mitarbeiter zum Mit-eigentümer", "Conturen" No 13, 1992

(\*) الدراسات المستقبلية Futurology وفقاً لـ (الدكتور أحمد زكي بدوي. معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت ١٩٧٨) هي علم التكهّن بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المستقبل، ويُستند في دراستها على الاستقراء والاستنباط بجمع الوقائع الفردية المتعددة ليستخلص منها المبادئ العامة التي تحكمها ويخرج بعد ذلك بالصورة التي سيكون عليها المجتمع في الأجيال المقبلة. - م.

(٣٥) انظر، على سبيل المثال، John Naisbitt في كتاب:

"Megatrends 2000". New York, 1990.

الاجتماعى الذى يقوم عليه المجتمع الغربى لا يتشكل من الحصول على أرباح، بل من الجانب العملى الذى يقتصر دوره على خلق فرص الربح، وينصاع لتأثير هذا الربح بوصفه نتيجة له.

إن ملايين الناس الذين يدور الحديث عنهم هنا لم يعودوا مالكين بالمعنى البدئى للكلمة، بل هم مالكون افتراضيون، وهميون. فعندما يكون الجميع مالكين يفقد مفهوم الملكية معناه. وهؤلاء الملايين هم مالكون بالإكراه، رغماً عنهم. لقد تحول المجتمع بأسره إلى آلية عملية واحدة، بعد أن أخذ على عاتقه جزءاً من وظائف المالكين، وجعل مفهوم الملكية ذاته عديم المعنى.

والطريق الثانى الذى سلكه تطور الملكية هو تزايد العلاقات التعاقدية، والحقوقية عموماً، إلى درجة جعلت الحديث الآن عن حرية العلاقات بين مختلف فئات الناس الاجتماعية شيئاً مستحيلاً. إن الناس أحرار فى أن يعقدوا اتفاقيات أم لا، ولكنهم إذا ما عقدوا اتفاقيات كانوا مرغمين على التصرف فى إطارها، وبذلك يحدون من حريتهم كمالكين.

إن امتلاك الدولة جزءاً مهماً من المنشآت، هو الذى يقلص إلى حد كبير مجال الملكية الخاصة. وسياسة الخصخصة التى تعاضم زخمها فى ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين لم تسفر عن تغييرات ذات شأن فى هذا المجال.

وأشير أخيراً إلى أهم طريق سلكه تطور المجتمع الغربى هو تنامى مجال مؤسسة الدولة، ونشوء طبقة من الموظفين الحكوميين تضم ملايين كثيرة من المواطنين القادرين على العمل، وأحياناً أكثر من ١٥٪ من السكان العاملين فى البلاد<sup>(٣٦)</sup>. إن هذا الجيش

---

(٣٦) جاء فى " (1990) The Universal Almanac أن الحكومة الفدرالية فى الولايات المتحدة الأمريكية كانت تشغل عام ١٩٩٠ أكثر من ٣ ملايين موظف، وكان عدد العاملين فى جميع مستويات الحكومة ١٧ مليون و ٣٠٠ ألف إنسان.

الهائل العدد من الموظفين لا يعيش وفق قوانين الملكية، بل وفق قوانين علاقات كومونالية بين أناس لا يملكون. على أن المدافعين عن الملكية الخاصة يسجلونهم فى عداد المالكين، إذ يعتبرون أن ملكيتهم هى مكانُ العمل الدائم والصندوق التقاعدى. إلا أن هذا التعاطى مع مفهوم الملكية ما هو إلا تحايل لفظى يقوم على التباس التعابير وتعدد معانيها. ذلك أن من لديه مكان عمل فى المجتمع الغربى لا يحق له إعطاؤه لشخص آخر، أو بيعه بالمال الذى لا وجود لملكية خاصة من دونه.

لا ينبغى أن نفهم ممّا تقدم أن طبقة المالكين الخواص فى الغرب قد زالت من الوجود، أو أنها لم تعد تلعب دوراً مهماً. إن هذه الطبقة موجودة وتتمتع بسلطة هائلة. ولكنها لا تشمل كل من بحوزته ملكية ما. وإنما يندرج فيها أولئك الذين يستخدمون ملكيتهم على شكل رأسمال. وهى تضم أيضاً من يستطيع، بفضل ملكيته، أن يشغل موقعاً رفيعاً ومربحاً إلى هذا الحد أو ذاك فى البنية الاجتماعية، أو على الأقل أن يملك الظروف للاستفادة من قدراته وعمله بغية تحصيل وسائل العيش. وهؤلاء يلعبون دوراً مهماً فى المجتمع ليس بصفاتهم مالكين، بل بصفاتهم أشخاصاً لهم وضع محدد فى المجتمع، ويستخدمون الملكية كوسيلة للعمل والنجاح العملى.





## العمل الحرّ

كثيراً ما يصوِّرون العمل الحر مرتبطاً بالملكية الخاصة ارتباطاً ضرورياً. وهذا خطأ. لأن صاحب العمل الحر شخص أو مجموعة أشخاص ينشئون مشروعاً لإنتاج أشياء أو تقديم خدمات. والشرط الضروري للعمل الحر هو توفر الإمكانية وحق التصرف بأموال ما، واستخدامها في عمل، وتصريف منتجات ذلك العمل. على أن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج هي واحد من تلك الشروط، وقد تكون الشرط الحاسم. ولكن ليس كلُّ صاحب ملكية خاصة رجل أعمال. إذ توجد بين السكان في البلدان الغربية شرائح مهمة لها أملاك خاصة، ولكن أفرادها ليسوا رجال أعمال. وليس بالضرورة أن يكون رجل الأعمال هو صاحب المعدات في المنشأة، فبوسعُه أن يستأجر هذه المعدات من مالكها (الفرد، الجماعة، الدولة). وبإمكانه أن يحصل على قرض من البنك، وقد يكون وسيطاً في شركة. إن مالكي المعدات، وهم يؤدون وظيفة المالكين هذه، ليسوا رجال أعمال. لأن رجل الأعمال الحرة هو من تتوفر فيه الشروط الأساسية التالية: أولاً، أن يكون شخصية اعتبارية في العمل يعترف بها القانون، أي أن يكون له الحق في ممارسة العمل الحر (البرزنس)؛ ثانياً، أن ينشئ عملاً (مصلحة) ويديره على مسؤوليته شخصياً، ولا يخضع في هذه الوظيفة للدولة، وأن يتحمل مسؤولية نتائج هذا العمل ومسئولية مصيره وما يترتب عليه.

إن المنشأة ليست ملكية خاصة إذا كانت تتصرف بها مؤسسات السلطة، بدءاً بالسلطات المحلية وانتهاءً بالسلطة المركزية. فهذا النوع من المنشآت يدخل ضمن القطاع "العام". ورغم أن نشاطها يديره أشخاص معينون أو منتخبون، فإن شخصيتها القانونية تتمثل في هذا المستوى أو ذاك من مستويات نظام السلطة والإدارة. والمنشآت الخاصة تدخل ضمن قطاع الأعمال "الخاصة" (من الاقتصاد).

لقد اعتاد الناس النظر إلى القطاع العام والاقتصاد الشيوعي على أنهما شيء واحد، وهم يَعُدُّون عمله الرديء (مقارنة بالقطاع الخاص) دليلاً على فشل الشيوعية من الناحية الاقتصادية. وهذا خطأ. ذلك أن كلا القطاعين (العام والخاص) عنصران من عناصر الغربية، وثمة منشآت تنتمي إلى القطاع العام لأسباب غير اقتصادية، وكذلك منشآت تكون مهمة بالنسبة للمجتمع، ولكنها غير قادرة على الحياة كمنشآت خاصة. والعنصر الغالب في الغربية هو القطاع الخاص، أى قطاع الأعمال الحرة الذى يظل كذلك بصرف النظر عن التغيرات التى طرأت على بنية الملكية الخاصة، وتحدثت عنها أعلاه. وسيظل محتفظاً بهذه الغلبة حتى ولو لم يبق فى مجال العمل مالك خاص واحد يكون صاحب المنشأة قانونياً. صحيح أن الاقتصاد الشيوعي شبيه بالقطاع العام الغربى، ولكن ذلك تشابه لا أكثر. ذلك أن للاقتصاد الشيوعي أسساً أخرى. إنها، كما سبق وقلت، علاقات الكومونالية، وليست علاقات العمل.

## الاقتصاد

باختصار، هو إنتاج مواد الاستهلاك (بما فى ذلك تحصيلها وجمعها)، وتوزيع مواد الاستهلاك (الخيرات المادية) والخدمات.

ويُعدُّ الاقتصاد أساس المجتمع الغربى (قاعدة بنيته التحتية). وليس فى ذلك ما يدعو للخوف إذا لم نضمّن كلمة "أساس" أى معنى سوسيوولوجى، واكتفينا بحقيقة أن الاقتصاد يمدُّ الكيان العضوى الاجتماعى بوسائل عيشه ووجوده. غير أن ما يجرى عادة هو تخطى هذا المعنى المجازى لكلمة "أساس"، بالذهاب تحديداً إلى القول بأن طابع (نمط) الكيان الاجتماعى جملةً محكوم بطريقة تنظيم الاقتصاد والعلاقات بين الناس فيه. وقد وجد هذا المذهب أوضح تعبير عنه فى نظرية الماركسية عن التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية، وهى النظرية التى لا تزال حتى اليوم تؤثر بشكل أو بآخر على العقول فى هذا المجال من مجالات المعرفة، والإيديولوجيا.

ينبغي النظر إلى اقتصاد المجتمع الغربي من وجهتي نظر اثنتين، إذا ما تجردنا مؤقتاً عن علاقات ذلك الاقتصاد مع غيره من ظواهر المجتمع. سأسمّي الأولى منهما وجهة النظر المضمونية، أو المادية، قاصداً بذلك ما له صلة بإنتاج الأشياء والخدمات المادية وإيصالها إلى المستهلكين. والثانية سأسمّيها وجهة النظر الشكلية، أو النقدية، قاصداً بذلك كل ما له صلة بالنقود، والربح، ورأس المال، والبنوك، والأسعار، والسوق، وسواها من عناصر الاقتصاد النقدي. إذ إن ما يفهمه الناس عادة من كلمة (اقتصاد) هو الثروة النقدية تحديداً، ظناً منهم أن الثروة المادية ما هي إلا مجال لعمل تلك الثروة النقدية. إنني لا أحبذ أياً من وجهتي النظر هاتين، إذ أعتبرهما جانبيين لظاهرة واحدة. ولا بد عند دراسة أحد هذين الجانبين من نسيان الجانب الآخر، ولكن ذلك لا يعنى الفصل بينهما، ودراستهما كظاهرتين موجودتين جنباً إلى جنب.

## بنية الاقتصاد

تحدثت أعلاه عن بنيته الاقتصادية والاجتماعية. والآن أضيف إلى ذلك ما يلي.

إن معظم المؤلفين الذين اطلعت على أعمالهم يقسمون اقتصاد البلدان الغربية إلى ثلاثة مجالات: الزراعة، والصناعة، والخدمات. وثمة مؤلفون يقدمون تصنيفاً آخر<sup>(٣٧)</sup>، فيُدْرَجون في المجال الأول: الزراعة، واستخراج الخامات، والعناية بالغابات، ويدرجون في المجال الثاني: معالجة المواد الخام، وتحويلها إلى سلع جاهزة. أما المجال الثالث فيضمُّونه الخدمات، بما في ذلك الرعاية الصحية، والتعليم، والإدارة، والكنيسة.

---

(٣٧) انظر: Antony Giddens. Sociology. Cambridge. 1989.

أعتقد أن هذه التصنيفات ليس لها معنى سوسيوولوجي، فمعالجة اللحم النيء وتحويله إلى لحم مفروم وشرحات، هي معالجة مواد خام وتحويلها إلى سلع جاهزة، ولكن من المستبعد أن ندرج ذلك في مجال الصناعة. ثم إن مفهوم "مجال الخدمات" لا معنى له البتة، لأنه، حسب التصنيفات إياها، لا يشمل من يمارسون في قطاعي الصناعة والزراعة عملاً لخدمة الإنتاج، وليس عملاً إنتاجياً مباشراً. على أن هولاء، وفق بعض المصادر، يشكّلون الأغلبية في قطاع الصناعة (تصل نسبتهم إلى الثلثين، حسب معطيات الصحافة في ألمانيا). وتجتمع في فئة الخدمات وحدها منشآت ومؤسسات من مختلف الأنواع، بعضها يخدم الناس مباشرة (كالحوانيت، والمطاعم، وصالونات الحلاقة... إلخ.)، وبعضها الآخر يخدم مؤسسات أخرى، بما في ذلك مؤسسات صناعية وزراعية (كشركات النقل، ومؤسسات البحوث والمعلومات... إلخ). غير أن من السخف إدراج المشافي، والمدارس، والجامعات، والكنيسة، والمؤسسات الإدارية في دائرة الاقتصاد. وإلا أمكننا، وبحجة لا تقل قوة، أن ندرج في دائرة الاقتصاد أيضاً أجهزة السلطة، والشرطة، والجيش. وباختصار، فإن هذه التصنيفات التي نتناولها بالبحث، لا تعطينا وصفاً مناسباً للاقتصاد، فهي أقرب إلى مجال الإيديولوجيا مما إلى مجال العلم.

عندما يقسم المنظرون الاقتصاد وفق "مبادئ القصاب"، يتجاهلون جوانبه المهمة الأخرى، أو يبعدونها إلى مكان ثانوي. فهم، على سبيل المثال، يقسمون الاقتصاد إلى قطاعات رئيسة وأخرى ثانوية، حسب درجة أهميتها للبلاد؛ وكذلك إلى قطاعات متصاعدة ومحافظة، من وجهة نظر إنتاجية العمل. إن التقسيم الأول معروف وواضح، ولذا ليس ثمة داع لإطالة شرحه: فإنتاج الفحم والفولاذ، مثلاً، أكثر أهمية من إنتاج معجون الأسنان، ومنافض السجائر. والمقصود في الحالة الثانية أن فروع الاقتصاد لا تتطور جميعها بالتساوي. فبعضها يتقدم بسرعة، نظراً لحاجة المجتمع والظروف الملائمة، كما حدث، مثلاً، في صناعة الطائرات، والسيارات، والإلكترونيات، والكمبيوتر. إن العمليات الاجتماعية الجارية هنا لم تدرس بعدُ بالقدر الكافي من العمق والإحاطة.

ولستُ متخصصاً في هذا المجال من العلم. ولكنني، بناءً على المعلومات التي قُدر لي الاطلاع عليها، أرى أننا أمام عرقلة متبادلة، وليس فقط أمام عملية تحفيز متبادل. إن موارد المجتمع ليست بلا حدود، وازدهار بعض الفروع ينجم عنه ميل بعضها الآخر نحو التدهور. ومهما بدا ذلك غريباً للوهلة الأولى، فإن فروع الاقتصاد الرئيسية هي الأكثر تضرراً من جرأ ذلك. وهذا ما يجعلها بحاجة إلى مساعدة من جانب الدولة، أي أن النزوع إلى جعلها اجتماعية (ذات طابع اشتراكي) ليس مصادفة، أو نتيجة إيديولوجيا ما.

تتشر مصادر متعددة أرقاماً مختلفة عن توزُّع المواطنين العاملين في البلدان الغربية على فروع الاقتصاد الرئيسية الثلاثة. وغالباً ما ترد النسب التالية: ٢٠ - ٢٥ ٪ يعملون في الصناعة، و ٣ - ٦ ٪ يعملون في الزراعة، و ٧٠ - ٧٥ ٪ في قطاع الخدمات. إنه لمن المفهوم تماماً أن تُفسَّر هذه الأرقام كمؤشر على إنتاجية العمل العالية جداً، وفعالية الاقتصاد في الغرب. وأنا لا أجادل في هذا الرأي، ولكنني أعتقد أن هذه الأرقام خالية من الدلالة السوسولوجية، مثلها في ذلك مثل تصنيف مجالات الاقتصاد تماماً.

وبناءً على الأرقام المذكورة أعلاه نجد أن أقلُّ من ثلث العاملين في بلدان الغرب يعملون في مجال إنتاج الخيرات المادية، بل إن نسبة هؤلاء تميل إلى الانخفاض. ثمة ما يبرر الافتراض بأن هذه النسبة سوف تتدنَّى بعد قرابة خمسين عاماً لتصل إلى عشرة بالمائة، وربما إلى خمسة بالمائة، ما لم يحدث شيء استثنائي. ومما لا جدال فيه أن ذلك مؤشر على نمو إنتاجية العمل. ولكن أيُّ عمل؟ إنه عمل الكادحين. سأسمِّي هذه الإنتاجية بالإنتاجية المجردة. غير أن إنتاجية عمل المجتمع عموماً محكومة كذلك بالعديد من العوامل الأخرى، ومنها وجود كتلة من السكان القادرين على العمل لا تمارس عملاً في الاقتصاد. فإذا ما أضفنا هذه الكتلة إلى ذلك الجزء من العاملين المنخرطين في إنتاج الأشياء المادية، فإن اللوحة لن تعود بهيجة إلى هذا الحد. ثم إن هذا الجزء من السكان ذو نزعة نحو التزايد. وأعتقد أنه بعد الأعوام الخمسين نفسها، ومرة أخرى إذا



لم تقع أحداثٌ استثنائية تقطع هذه المسار، سيبلغ هذا الجزء من السكان حجماً تضيع معه منافع تقليص الجزء المنتج من السكان، أى منافع نمو إنتاجية العمل المجردة. وأعتقد أن الغرب هنا قد بلغ سقفاً يستحيل تجاوزه.

إن أولئك الذين يشكلون ٢٠ - ٢٥ ٪ من العاملين فى الصناعة ليسوا جميعاً ممن يعملون فى الإنتاج بالضبط. بل معظمهم يعمل فى مجال خدمة الجزء المنتج بالمعنى الدقيق للكلمة. وإذا صنفناهم فى خانة الخدمات فإن ما يقال عن ارتفاع إنتاجية العمل فى البلدان الغربية سيكون أكثر إثارة للدهشة، بل وأكثر سخفاً لأنه لا وجود لمعايير واضحة للتفريق بين الكدح المنتج وغير المنتج. ومن المشكوك فيه أن يكون وجودها ممكناً أصلاً. وإذا ما اعتبرنا، مثلاً، إنتاج الأشياء المادية عملاً منتجاً، فماذا نقول عن إنتاج الأسلحة، ومواد البذخ، والأشياء التى يستعملها الطفيليون والمجرمون؟.

يعمل فى الزراعة من ٣ - ٦ ٪ من مجمل العاملين. ولكن هل يعبر ذلك عن سمة جوهرية من سمات بنية المجتمع الغربى الاجتماعية الفعلية؟ ولماذا لا نحصى عدد مجمل الناس الذين يعملون فى ذلك المجال من الاقتصاد الذى يُعنى بإنتاج السلع الزراعية، وخبزها، ونقلها، وإيصالها إلى المستهلك، وليس عددهم داخل البلد المعنى فقط، بل وفى كل العالم الذى يقدم الغذاء لهذا البلد؟ أعتقد أننا لو فعلنا ذلك لتغير الوضع.

### الإنتاج، التوزيع، الاستهلاك

إن أى اقتصاد فى خطوطه العريضة، أى فى الخطاطة الأيسر، والأكثر تجريداً، هو: (إنتاج سلع وخدمات جاهزة للاستهلاك، ووصول هذه السلع والخدمات إلى المستهلكين). والخطاطة الأكثر إيجازاً يمكن تصورها على النحو التالى: (إنتاج - استهلاك). وهذان العنصران من الخطاطة مفترقان ومعزول كل منهما عن الآخر

فى الاقتصاد الغربى بحيث إن الجزء الأكبر مما ينتجه الناس لا يستهلكه منتجوه، والجزء الأكبر مما يستهلكونه ليسوا هم منتجيه.

وتزداد هذه الخطاطة تعقيداً نظراً لما يشهده إنتاج السلع الجاهزة للاستهلاك من تنوع، ولنشوء علاقة بين إنتاج مواد للسلع النهائية، وإنتاج مواد (أجزاء) للسلع الجزئية. ويمكن أن يزداد هذا المخطط تعقيداً لأن إنتاج السلع الجاهزة للاستهلاك النهائى تسبقه مرحلتان من مراحل الإنتاج أو أكثر. والمهم هنا هو أن بعض المنتجين يقومون بدور المستهلكين. ففى خطاطة "إنتاج المواد - إنتاج الأجزاء - إنتاج قطع أكثر تعقيداً - إنتاج السلع النهائية"، تكون الحلقات الثانية والثالثة والرابعة حلقات استهلاك فى الحين ذاته.

كما تتعدّد العلاقة بين الإنتاج والاستهلاك نتيجة دخول وسطاء بين مرحلتى إنتاج السلع النهائية واستهلاكها. ووظيفة هؤلاء الوسطاء (المحلات التجارية، على سبيل المثال) هى إيصال السلع النهائية إلى المستهلك. أى إن مهمة الوسطاء هى توزيع السلع الجاهزة على المستهلكين. ويمكن أن يكون الوسطاء متنوعين أيضاً، أى أن يجرى التوزيع على مرحلتين أو أكثر، فتقوم شركة كبرى بتنفيذ المرحلة الأولى، بينما تقوم المحلات التجارية التى تشتري منها السلع بتنفيذ المرحلة الثانية.

على أن جميع عناصر هذه الخطاطات يتألف من ذرّات، أى إنها تتألف من كثير من منشآت المنتجين المنفردة، وكثير من المستهلكين المنفردين. إذ إن نهاية أى سلاسل لحركة الأشياء والخدمات قد تكون بداية سلاسل أخرى. كما أن السلاسل تتقاطع، ويمكن للمنتجات أن تسلك سبلاً مختلفة فى طريقها من المنتج إلى شتى الوسطاء والمستهلكين. ويمكن للمنتجات أن تصل إلى المستهلك عبر طرق مختلفة (المستهلك يشتري أشياء مختلفة ويستعمل خدمات مختلفة). وتتشكل نقاط توزيع تصب فيها المنتوجات عبر خطوط مختلفة، وتغادرها عبر خطوط مختلفة أيضاً.

تتكون فى المجتمع شبكة متداخلة من المنتجين والموزعين والمستهلكين. ويتم العثور على العلاقات بين خلايا هذه الشبكة بطريق التجربة، كما تنبنى هذه العلاقات على

أساس اتفاقيات تعاقدية. إنها شبكة بين أفراد في منطقة ما من البلاد، وفي البلاد عامة. وتنتشر هذه الشبكات في البلاد انتشاراً مختلف الاتساع، وهي مستقلة إلى درجة معينة، ثم تتضافر في شبكات أكثر تعقيداً، وأخيراً في شبكة اقتصادية واحدة تشمل مجمل اقتصاد البلاد.

أؤكد أن شبكات من هذا النوع تنشأ على مختلف المستويات عن طريق التجربة، على أساس الاتصالات الشخصية بين مالكي خلاياها، أو بين مالكيها الذين يحق لهم على نحو ما أن يتفاوضوا، ويتخذوا قرارات، ويعقدوا اتفاقيات باسمها، أي - باختصار - بين رجال الأعمال، أصحاب المشاريع الحرة. وهذه عملية حية، تتضمن التجربة والخطأ والتغيير، كما في سياق حياة أي كائن عضوي معقد. والناس الذين يشاركون في هذا العمل هم محترفون في مجال عملهم، وحتى عندما ينخرطون فيه لأول مرة فإنهم سرعان ما يكتسبون الخبرة ويصبحون محترفين. ذلك أن هذه العملية عمل أيضاً، وتخضع لقوانين العمل (البرنس).

ورغم أن هذه الظواهر يُفترض أن تكون معلومة للجميع، فإنني ألفت الانتباه إليها نظراً لما تلقاه من تجاهل منقطع النظير، أو من بخس لها في البحوث العلمية المتخصصة، ولا سيما في مجال الإيديولوجيا. على أنها هي نفسها ما يُشكّل بيئة الترابط الاقتصادي، أونسيجه الذي له قوانينه الخاصة، ويلعب في النشاط الحيوي لدى الكائن العضوي الاجتماعي دوراً أكثر أهمية من العمل الحر وعلاقات "السوق الحرة"، أعنى العمل والعلاقات المجترأة من تلك البيئة (النسيج) والمبالغ فيها من كل الجوانب.

كما أن لفهوم "التوزيع" معنى آخر يختلف عن المعنى الذي تطرقنا إليه أعلاه، ونقصد تحديداً توزيع الخيرات بين مواطني المجتمع تبعاً للوضع الذي يشغلونه فيه، ولما يتمتعون به من قدرات. وسأعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

## العرض والطلب

إن نقاط التوزيع التي تحدثت عنها هي السوق التي يلتقى فيها المستهلكون والمنتجون. وفيها يجرى التأثير المتبادل بين المستهلك والمنتج. فالأول يؤثر على الثاني عبر اختياره ما يرغب به، أو يقدر على شرائه من بين كثير من السلع والخدمات المعروضة. والمنتج يؤثر على المستهلك من خلال عرض ما يريد تصريفه وفرضه عليه بهذا الشكل أو ذاك. فما الذى يحدد خيار المستهلك؟ إنه العادات، والأذواق، والدعاية، والصدفة، والقدرات الشرائية، وعدم توفر الوقت لاختيار أكثر دقة، وعدم الخبرة، وعدم الاكتراث... وغير ذلك من العوامل. إن مبدأ اختيار أجود السلع المعروضة بسعر واحد، وأرخص السلع المتساوية الجودة، أى المبدأ الذى يشكل أساس ما يسمى بالمنافسة الحرة بين المنتجين، ليس إلا واحداً من المبادئ التى يسترشد بها المشتري، وليس مبدأً يفسر كل شيء. كما أن الفرق بين ما يُعرض من السلع والخدمات التى يستطيع المشتري اقتنائها، ليس فى العادة بالفرق الكبير الذى يدفعه إلى القيام باختيار واع ومحسوب. ثم إن الفرق فى أسعار الأشياء والخدمات التى يكتفى بها المستهلك ليس فى العادة بالفرق الكبير. وهذا عملياً يعنى أن دور الصراع التنافسى الحر من أجل الفوز بالمشتري فى سوق حرة ما، ليس بالدور الحاسم، كما يصوره دعاة السوق الحرة والمنافسة الحرة. ذلك أن ما يتحكّم بدورهما هو بالدرجة الأولى مسار حياة الناس الذين يتعاملون مع السوق، وليس ما تتخذه الدولة والاحتكارات والكارتيلات من إجراءات، ولا عوامل خارجية أخرى. ولا يقيم للحساب التجارى المحض وزناً إلا الناس الذين يمتهنون هذا العمل عندما يتعلق الأمر بمشتريات كبيرة. ولكن ما حجم هذه المشتريات ضمن إجمالى حجم المشتريات؟

إن قائمة المنتجات والخدمات تحددها حاجات المستهلكين التى تكوّنت تاريخياً، كما أن المستهلكين تحددهم السلع والخدمات التى يجرى إنتاجها عادة. وهنا ينشأ، تاريخياً، معيار يحفز إنتاج السلع والخدمات، أى العرض، من ناحية؛ ويقيد الإنتاج، من ناحية ثانية. فالطلب ليس بلا حدود. وهنا ينشأ شيء من التوازن، مستقر ودينامي،

بين الطلب والعرض (الاستهلاك والإنتاج)، لا تُخْلِ به إلا أحياناً، وجزئياً فقط، ظروف خارجية طارئة، وابتكارات يأتى بها المنتجون. باختصار، ينطوى الاقتصاد الغربى، فى عمقه، على "محور" ("هيكل") صلب يجعل دينامية هذا الاقتصاد أمراً ممكناً.

ما قيل أعلاه يمكن أن يكون مثلاً يوضح واحدة من خاصيات العمليات التى تجرى فى الكيان العضوى الاجتماعى، فهذه العمليات لا تسير فى خط مستقيم، بل هى دورية، بمعنى أن الأسباب والنتائج فيها تتبادل المواقع، ويحفز بعضها بعضاً، وبالتالي لا يمكن العثور فيها على نهايات. وبديهي أن لهذه العمليات الدورية "نقطة انطلاق"، (لها بداية) فى تاريخ الكيان العضوى، وتدعمها دائماً "نقاط انطلاق" خارجية وداخلية. غير أنها، أساساً، تكتسب استقلالية ما تشبه عملية الاستقلاب فى الكيان العضوى الحى.

ومختصر القول، إن الاقتصاد كعملية إنتاج وتوزيع واستهلاك للسلع والخدمات، له قوانينه الداخلية الخاصة، بغض النظر عن الشكل النقدي الذى يتخذه، وهو يشكل نوعاً من "الاستقلاب" بين عضوية المجتمع ومحيطه، وكذلك بين أجزاء العضوية التى تتمتع بدرجة عالية من الفاعلية تلقائياً، وبمعزل عن شكلها النقدي. على أن هذا الشكل يضيف إلى عملية "الاستقلاب" ما يجعلها محمومة، بل ومتعاظمة السرعة على الدوام.

## قوى الإنتاج

كثيراً ما يطلقون تعبير "رأس المال" على الأدوات المادية الضرورية لإنتاج الأشياء والخدمات، وليس على النقود وحسب. وهذا ما يؤدي إلى ازدواجية، ولبس فى المعنى. ذلك أن تلك الأدوات هى نفسها وسائل لإنتاج الأشياء والخدمات. إنها أدوات تُقدر قيمتها بالنقود، وتُقنتى بالنقود، ففيها توظف النقود كرأسمال. وإذا ما اعتبرنا أن كل

ما توظف فيه النقود هو رأسمال، فإن قوة العمل هي أيضاً رأسمال. وعلى هذا الطريق من التلاعب اللفظي الصرّف يجرى الخلط بين أكثر المسائل بساطة.

أعتقد أن مفهوم "قوى الإنتاج" الذي وضعه ماركس (وربما كان موجوداً قبله) هو هنا مفهوم علمي وفي محله تماماً. إنه يشمل وسائل الإنتاج المادية وقوة العمل التي تستخدم تلك الوسائل من أجل إنتاج السلع والخدمات.

لم تنشأ الغربية بوصفها مجرد شكل جديد للتنظيم الاجتماعي، بل وبوصفها مستوى أرقى لقوى الإنتاج. لقد كان ماركس على حق عندما لفت الانتباه إلى هذه الحقيقة، ولكنه هو نفسه من تعامل معها بابتذال. فمن الناحية التاريخية لم يكن تقدم قوى الإنتاج هو ما أدى إلى "علاقات إنتاج" جديدة (نمط جديد من أنماط النظام الاجتماعي)، بل على العكس من ذلك تماماً، أي إن تطور "علاقات الإنتاج" في ظل الغربية هو ما حفّز تطور قوى الإنتاج. فقد ولدت الغربية مع قوى الإنتاج التي ورثتها من التاريخ الماضي، ثم طورتها وحسنتها. أما قواها الإنتاجية الخاصة والجديدة نوعياً فلم تطورها إلا بوصفها نتيجة لتوسعها وازدياد قوتها. ومن وجهة نظر تراتبية الظواهر المختلفة في إطار المجتمع الغربي ذي النمط المتطور تكون الأولوية للعلاقات الاجتماعية الاقتصادية (لـ "علاقات الإنتاج"، حسب المصطلح الماركسي)، وليس لقوى الإنتاج.

لئن كان وصف قوى الإنتاج التي بدأت بها الغربية صعودها التاريخي لا يحتاج إلى أكثر من بضع عشرات من الصفحات، فإن وصف قوى الإنتاج في المجتمع الغربي المعاصر يحتاج إلى مئات المجلدات. وهيئات أن يكون في الإمكان إحصاء مختلف أنواع الأشياء التي تستخدم بهذا الشكل أو ذاك في إنتاج مواد الاستهلاك والخدمات. إذ بلغت وسائل الإنتاج الحديثة درجة من التعقيد والكمال والقوة فاقت جميع ما كان في وسع خيال البشر حتى الماضي القريب أن يتصوروه. وقد درج الناس على النظر إلى هذا التقدم المذهل على أنه ثمرة الرأسمالية. غير أن ذلك ليس صحيحاً إلا جزئياً.



وتقتضى منا الدقة أن نرى أساس هذا التقدم فى الغربية التى ليست الرأسمالية إلا جزءاً منها.

لقد سار تقدم وسائل الإنتاج فى وقت واحد مع تقدم القوى العاملة التى توجب عليها أن تكون قادرة على استخدام تلك الوسائل وخدمتها، والمحافظة عليها فى المستوى المطلوب، وتحسينها. وقد تطلب ذلك تعليم وتدريب الملايين من الناس على مدى عدة أجيال، وكان لا بد للقوى العاملة أن تكون متناسبة ومتماشية مع وسائل الإنتاج، وفقاً لما يسمّى بالقانون الموضوعى لقوى الإنتاج. وهذا التناسب يتأرجح حسب اتساع المدى الذى تدور فيه العملية، وقد يصاب بخلل أحياناً، كما هو ملحوظ فى الآونة الأخيرة. إذ يصدر عدد كبير من الكتب والمقالات التى تقول إن نظام التعليم والتدريب يعانى أزمة، ولا يواكب حاجات العصر. ويجرى الإفصاح أيضاً عن مخاوف علنية بخصوص المادة البشرية التى لا تلبى متطلبات التكنولوجيا التى تتعقد على الدوام، وليس متطلبات التنظيم الاجتماعى.

## المجمّع العلمى التقنى

كان لتشكل الغربية شرطاً ونتيجةً فى الوقت نفسه، هو تشكّل ظاهرة اجتماعية متميزة، أسميها المجمّع العلمى التقنى. وإبنى أضمن هذا المجمّع كلاً من العلم والتقنية، والمعارف العلمية التقنية وتعليمها، وتأصيل الاكتشافات العلمية والاختراعات التقنية فى الإنتاج.

لقد أثبت العلم والتقنية (الاكتشافات العلمية والاختراعات التقنية) منفعتهما لحياة الناس قبل فترة طويلة من ظهور الغربية. وتلك المنفعة كتب عنها أرسطو. وفى عصر النهضة وصل الاهتمام بالعلم والتقنية مستوى بالغ الرفعة بالنسبة لذاك الزمن. وقد استمر ذلك الاهتمام وارتقى إلى المستوى الفيلسفى فى مؤلفات فرنسيس بيكون، ورينيه ديكارت ومن تبعهما. وكان المنورون الفرنسيون (وخاصة ج. أ.

كوندورسيه)، والاشتراكيون الطوباويون بعدهم (ك. سان سيمون) يرون في العلم والتقنية أهم وسيلة لحل المشكلات الاجتماعية. لقد كانوا أسلاف الإيديولوجيا التكنوقراطية المعاصرة.

ولعب العلم والتقنية والمعارف العلمية التقنية (بما في ذلك التعليم المتخصص) دوراً واحداً من أهم الشروط التي نشأت الغربية فيها وتشكلت، سواءً بمعنى التأثير على القوى الإنتاجية في المجتمع، أو بمعنى التأثير على حالته الإيديولوجية. وليس من قبيل الصدفة أن نابليون، الشخصية الرمزية لصيرورة الغربية، كان راعياً للعلوم إلى جانب كونه راعى الاقتصاد البرجوازي، وأحد واضعي قانون الحق الغربي، وبُناة مؤسسة الدولة الغربية. كان هو نفسه على قدر من الثقافة في الرياضيات والتقنية، وعضواً في الأكاديمية الفرنسية. وحقيقةً كون نابليون لم يستطع أن يقدر اختراع فولتون العظيم حق قدره، كان لها دور (وإن كان هذا الدور صغيراً جداً) في مجمل أسباب هزيمته الشخصية.

لقد بلغ المجمع العلمي التقني في القرن التاسع عشر مستوى من التطور لم يسبق له مثيل من قبل، وكشف عن خصائصه الاجتماعية. فقد بدأت عملية تحول العنصر الإبداعي في الإنتاج وتحسين وسائل العمل إلى مجال مستقل من مجالات تقسيم العمل، وإلى نشاط احترافي لفئة مخصوصة من الناس. وغدت هذه العملية ممكنة، وأعطت نتائج مذهشة لأن الغرب نفسه أنجب عدداً كبيراً بما فيه الكفاية من ذوى المواهب والقدرات الذهنية العالية جداً، وكذلك لأن الغرب استطاع أن يجتذب من أجل ذلك عقولاً ومواهب عظيمة من بلدان وشعوب أخرى.

وفي القرن العشرين، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية، تحول المجمع العلمي التقني إلى عامل اجتماعي، وأصبح مجالاً مستقلاً في حياة المجتمع يضاهاى تماماً المجالات الأساسية الأخرى، كالبنس، والسياسة، والعلاقات الحقوقية، ووسائل الإعلام الجماهيرى؛ وذلك من حيث الدور الذى راح يلعبه فى اقتصاد البلدان الغربية وفى نشاط الدولة (وخاصة فى تسليح الجيوش) وفى حياة المواطنين اليومية، وكذلك من

حيث عدد الناس العاملين فيه، وإعدادهم المهني، وصفاتهم الإبداعية والذهنية، ومكانتهم في بنية السكان الاجتماعية.

وفي السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى غدا الدور العلمي التقني الذي يلعبه المجمع كبيراً جداً إلى درجة ظهرت معها في الغرب خلال عشرينيات القرن العشرين نظرية خاصة عرفت بالنظرية التكنوقراطية وضعها الاقصاديان الأمريكيان غ. سكوت، وت. وييلن. والفكرة الرئيسة في هذه النظرية هي جعلُ السلطة السياسية في أيدي خبراء تكنوقراطيين يتعينُ عليهم أن يُسيروا المجتمع ليس على أساس ما لمجموعات اجتماعية ما (طبقات و شرائح) من مصالح خاصة ، وإنما على أساس المعارف العلمية التقنية، ولصحة المجتمع بأسره.

وفي السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية ازداد الاتجاه التكنوقراطي في الفكر الاجتماعي الغربي قوة، بعد أن صار يستند إلى أساس و طيد من الاكتشافات العلمية والاختراعات التقنية التي لم يكن ليجرؤ على أن يفكر فيها مجرد تفكير حتى أشجع الباحثين، والمخترعين، وأصحاب الخيال في الماضي القريب. والشخصيات الشهيرة التي تمثل هذا الاتجاه هم ج. ك. غلبرايت، و د. بيل، ول. شتاينبوخ، و غ. كراوخ<sup>(38)</sup>. وغيرهم. فقد أدخل الأول مفهوم "البنية التقنية"، أي تراتبية الاختصاصيين التقنيين التي لا تكتفي بلعب دور حاسم في إدارة الإنتاج، بل وتساهم باضطراد في اتخاذ القرارات السياسية. وفي الاتجاه نفسه تسير نظرية "الطبقة الجديدة" عند د. بيل. أما تطور تقنية الكمبيوتر والإنسان الآلي فقد وجدت تعبيرها في أفكار شتاينبوخ، وكراوخ وكثيرين آخرين. إذ يطرح هؤلاء المؤلفون فكرة مفادها أن المجتمع المعاصر يجب أن يديره علماء الرياضيات، والمهندسون، والمبرمجون، والاقتصاديون وغيرهم من

---

(38) John Kenneth Galbraith. The New Industrial state. 1971

Daniel Bell. The Coming of post-industrial Society.1973

الاختصاصيين القادرين على إيجاد أفضل الحلول لمختلف المشكلات الاجتماعية. ذلك أن تطور تقنية المعلوماتية الحديثة وانتشارها سيمكّنان، حسب رأيهم، من حل التناقضات الاقتصادية والسياسية في المجتمع، والارتقاء بالديمقراطية إلى مستوى أعلى.

لقد سبق أن ذكرت أعلاه أن المجمع العلمي التقنى كان منذ البداية شرطاً لتطور الغربية، أما في المرحلة الراقية من تطور الغربية فإن هذا المجمع واحدٌ من أهم عناصرها، وصفة ملازمة من صفات المجتمع الغربي. غير أنه في جميع الأحوال لا يستطيع أن يحلّ محلّ المجالين العملي (البنزس) والسياسي (الحكومي) في المجتمع. ذلك أن لكل شيء مكانه. فللبنزس وإدارة المجتمع قواعدهما الخاصة، ويتطلب من ينخرط فيهما إعداداً حرفياً يختلف عن إعداد متخصصين يعملون في مجالات الرياضيات، والهندسة، والبرمجة، والاقتصاد، وغيرهم من الخبراء في المجمع العلمي التقنى. فمشكلات المجالات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والأعمال الحرة ليست مشكلات أكاديمية صرفة يكفي لحلّها توفيرُ ذهنية "رياضية"، أى ذهنية تبحث عن الحقيقة العلمية وعن الحلول التقنية الأمثل. إنها، بالدرجة الأولى وأساساً، مشكلات تنشأ في الحالات التي تتصادم فيها مصالح الأفراد، والمجموعات، والشركات، والطبقات، والفئات، والتجمعات البشرية الكبيرة، وحتى دول بأكملها، تلك المصالح المتنوعة والتي كثيراً (إن لم يكن في أكثر الأحيان) ما يكون التوفيق بينها مستحيلاً. ففي تلك الحالات يدور صراع يحسب الحساب، في المقام الأول، لقوى المشاركين فيها، وليس لمصالح المهام العلمية التقنية بحد ذاتها. لأن المعارف العلمية التقنية في هذه الحالات تستخدم وفقاً لدورها الخاص، أى كوسائل مساعدة، وليس كتعليمات سلوكية للقوى المتنازعة، أو المتعاونة فيما بينها. ويشارك ممثلو المجمع العلمي التقنى في هذه الحالات بوصفهم مستشارين، وليس مسئولين. وإذا ما دخلوا في عداد المسئولين فإنهم يتصرفون وفق قواعد السلوك الخاصة المتبعة في مجالى البنزس أو السياسة، مكتفين بمراعاة ما يعرفونه بوصفهم وافدين من المجمع العلمي التقنى.

## التوتاليتارية النقدية

لقد تناولتُ اقتصاد الغريوية من وجهة نظر مضمونه، وأنتقل الآن إلى دراسته من ناحية الشكل، إن هذا الفصل بين الشكل والمضمون ليس فصلاً مطلقاً، ففي مسار تطورهما تقع تغيرات تجعلهما يتبادلان الأماكن في تجلياتهما. ورغم ذلك لا بد أن ننطلق من تسجيل الفارق المبدئى بينهما.

فالنقود هي أحد أعظم اختراعات البشرية، اختراع يمكن مقارنته من حيث الأهمية باختراع اللغة. والنقود مصدر عظيم للشقاء والمصائب. ولكن تاريخ البشرية لم يشهد، وإن يشهد أبداً، أى شىء ذا أهمية اقتصر على الخير وحده، وحتى اختراع اللغة لم يكن خيراً مطلقاً. لقد كانت اللغة، ولا تزال وستبقى، واحداً من أقوى مصادر الشر وأدواته.

ظهرت النقود قبل الرأسمالية والغرب بزمان طويل. لقد ظهرت كدلالة على قيمة السلع والخدمات، وكمعيار كمى (وسيلة قياس) لقيمة الشىء، أى كإشارات إلى مقدار القيمة. وصارت وسيلة للتبادل والتجارة، ولراكمة الأشياء ذات القيمة (الثروات)، ووسيلة لإقامة مختلف أنواع العلاقات بين الناس، بما فى ذلك علاقات الزواج، والعلاقات الأسرية، والعملية، والسياسية، والأفعال أيضاً. ثم مضى دور النقود يتوسع ويتوطد ويتنوع ليشمل جميع مناحى حياة البشر. وكان ذلك أحد أهم شروط تشكُّل ظاهرة الغرب. غير أنه مع انتصار الغريوية نشأت ظروف لا مرد لها من أجل قيام ما أسميه بالتوتاليتارية النقدية. وتحولت النقود من شكل (أداة) للعلاقات الاجتماعية بين الناس إلى جوهر مكتف بذاته، بعد أن جعلت الناس أداة لوجودها.

كانت النقود منذ غابر الأزمنة تقوم بأداء وظائف الإشارة إلى قيمة الأشياء ومعيارها. ثم انضمت إلى هذه الوظائف وظيفة أخرى، هي وظيفة رأس المال. وفى المجتمع الغربى المعاصر، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، تطورت بقوة كبيرة وظيفة أخرى من وظائف النقود، إذ غدت النقود وسيلة جامعة، كونية، وشاملة لقياس

وحساب ومحاسبة عمل الناس والمؤسسات والمنشآت، وسيلة لإدارة الاقتصاد وغيره من مجالات الحياة الاجتماعية، ولتسيير الناس ومراقبة سلوكهم الاجتماعى والتحكم به. نجد أحياناً فى الأدبيات الاقتصادية والسوسولوجية من يقارن دور النظام النقدى بدور نظام الدورة الدموية عند العضويات الحية. ولنا كامل الحق فى أن نضيف إلى ذلك أن النظام النقدى يقوم بجزء كبير أيضاً مما تقوم به الجملة العصبية عند الكائن العضوى من وظائف.

لقد صارت النقود (أؤكد على أنها صارت الآن ولم تكن كذلك منذ البدء!) الضابط الرئيس لمجمل نشاط البشر الأساسى فى المجتمع الغربى، والدافع المحفز الأهم، وهدفهم وولعهم، وهمهم، ورقيبهم، وناظرهم... باختصار، صارت صنمهم وربهم. إن الغربيين مهووسون بالنقود، وليس ذلك على الإطلاق لأنهم فاسدون أخلاقياً (فهم من الناحية الأخلاقية ليسوا أسوأ من الناس فى مجتمعات النمط الآخر)، بل لأن النقود صارت شرطاً ضرورياً بالمطلق لنشاطهم الحيوى، ووسيلة وشكلاً لهذا النشاط. إن جوهر حياة الناس كله فى هذا المجتمع يتركز، ويجد رمزه فى النقود. إنها ذاك الجو الاجتماعى الحقيقى الذى يتنفسون فيه، والغذاء الاجتماعى الذى يقتاتون به، والوسط الاجتماعى الذى يتحركون فيه بحثاً عن سبل العيش. والنقود بالنسبة للإنسان الغربى هى إمكانية امتلاك كل ما هو ضرورى من أجل الحياة، وامتلاك ما هو فوق الضرورى. إنها إمكانية الحصول على الرفاه، والتعليم، والثقافة، والصحة، ومتع الحياة. إنها الثقة بالغد، والثقة بمستقبل الأولاد. وأياً كان الإنسان الغربى، فهو بهذا الشكل أو ذاك، مباشرة أو مداورة، بنفسه أو عبر الآخرين، مرغم على أن يكون مشاركاً فى الشمولية النقدية، وأن يكون ذاتاً وموضوعاً لها.

تنقسم النقود من حيث الشكل الشئى إلى الفئات التالية:

(١) نقود سلعية (بضاعية) لها قمية كأشياء، أى بحد ذاتها.

(٢) أوراق نقدية (بنكنوت) وقطع نقدية معدنية.



(٣) أوراق مالية، صكوك (شيكات)، بطاقات ائتمان، ووثائق مالية قانونية.

إن الأمر الحاسم في نظر المجتمع الغربي المعاصر هو الأوراق النقدية التي تصدرها بنوك من نوع خاص تحميها الدولة، أي أوراق النقد الرسمية. أمّا ما يسمى بالنقود البضاعية فتبدأ بلعب دور النقود في الحالات القصوى. ذلك أنها في الظروف الطبيعية قيم مادية يجرى تقديرها بعملة الدولة، وتبادلها أيضاً من حيث المبدأ. أما الأوراق المشار إليها في البند الثالث فهي في الأساس نقود رسمية ويمكن امتلاك أوراق نقدية بواسطتها. وهذا يعني أن النقود التي لا معنى لرأس المال وللرأسمالية من دونها، هي عامل من عوامل مؤسسة الدولة، أي إنه ظاهرة ليس فقط في الجانب العملي من المجتمع، بل وفي جانبه الكومونالي أيضاً.

### النقود الافتراضية

وحدها النقود الرسمية / نقود الدولة هي أداة المجتمع الجامعة والشاملة التي تحدثنا عنها أعلاه. وهي، بوصفها كذلك، تغدو أساس المرحلة الأرقى من تطور نظام النقد، أساس نظام النقود الافتراضية، أي أساس التعامل المالي والضبط فيما يخص نشاط الناس وعلاقاتهم في مجال النقود المتخيلة، ولكن دون مشاركة أوراق نقدية حقيقية. فالناس يستلمون أجورهم، ويتسوقون، ويسددون ثمن الخدمات العامة، ويدفعون الضرائب، ويسحبون القروض... وباختصار، ينجزون ما لاحصر له من العمليات المالية دون أن يلمسوا النقود بأيديهم. وجميع المنخرطين في هذه الأمور لا يمسون هذه النقود أيضاً في معظم الأحوال. وتجرى الحسابات المصرفية بأموال موجودة على ورق، ويجرى تحريك أموال متخيلة عن طريق التعامل بأرقام على ورق يعود إلى جهة معينة من الناس، أو المؤسسات، أو المنظمات، أو الشركات.

وفي كثير من الحالات يتوجب على المواطنين العاديين وعلى الشركات سواء بسواء أن يسدّدوا حساباتهم نقداً. ولكن ذلك غالباً ما يكون عمليات صغيرة. أما العمليات

التي تكون بمبالغ كبيرة فتجرى بواسطة الشيكات، وبطاقات الائتمان (النقود البلاستيكية) التي تجعل هذه العمليات غير عينية، أى لا يتم فيها الدفع نقداً<sup>(٣٩)</sup> فهناك مبالغ مالية هائلة، تعود جملة وتفصيلاً لمواطنين شرفاء، تدور فى مجال الجريمة والعمليات غير المشروعة، غير أن ذلك لا يقلل من الدور المهيمن الذى تلعبه النقود الافتراضية.

لا تنحصر النقود الافتراضية فى الأموال الفعلية فقط . إنها شىء نوعى جديد فى العلاقات الاجتماعية بين الناس. وحجم الأموال الافتراضية التى يجرى تداولها فى المجتمع يفوق بعشرات المرات حجم الأموال الفعلية التى كان بالإمكان أن تكفى لحياة المجتمع الطبيعية لو لم تكن الأموال الافتراضية موجودة. ولكن المجتمع لم يعد قادراً على العيش بدونها.

لم يكن بالإمكان أن تصل النقود الافتراضية إلى هذا المستوى الشامل والسائد لولا أجهزة الحاسوب وتطور تقنيات دقيقة معينة. على أن المزايا العملية لهذا المستوى لا مجال للشك فيها. ولكن ذلك لم يضعف سلطة المال على الناس، بل جعلها أكثر قوة، فارتدت أشكالاً أكثر قسرية، ووسّعت فى هذا السياق دائرة الخاضعين لها إلى درجة لا تصدق. وأصبح جميع العاملين تقريباً رعايا لنظام النقد الشمولى. فلا يمكنهم إضعاف سلطة هذا النظام عليهم إلا بطريق واحد، هو تعزيز فعاليتهم العملية، والسعى بشتى السبل لزيادة حساباتهم فى البنوك، أو على الأقل تدبّر أمور حياتهم بشق الأنفس.

---

(٣٩) تقول صحيفة "فرانكفورتر أليمانيه تسايونج" فى عددها الصادر بتاريخ ٢٨/١٢/١٩٩١، إن ٤٠٠ مليون عملية تسديد أثمان سلع وخدمات فى ألمانيا الغربية عام ١٩٩١ تمت بواسطة الشيكات الأوروبية حصراً. وبلغ عدد بطاقات الائتمان (البطاقات البلاستيكية) فى ألمانيا عام ١٩٩٢ سبعة ملايين بطاقة. وفى أوروبا الغربية أجرى سبعة آلاف بنك عمليات بواسطة وسائل الدفع هذه.

وعلى الرغم من أن البنك لا يقوم بوظائفه دون أشخاص موظفين فيه، فإنه يتعامل بالأرقام المجردة. إنه عديم الرحمة. وسلطة التوتاليتارية المالية ترغم الناس على بذل مجهود متعاضم، وترغم المجتمع بأسره على القيام بعملية استقلاب متسارعة لم تعرفها مجتمعات نمطٍ آخر من قبل، ولا تعرفها الآن. ولا سبيل للإفلات من سطوة هذا النظام بشكل تام إلا بالطرق التالية: أن يولد المرء غنياً جداً، أو أن يصبح فائق الغنى، أن ينضم إلى فئة الديكتاتوريين، أن يكتفى بمصدر ثابت للدخل، أن ينخرط في عالم الإجرام، أو أن ينحدر إلى أدنى درجات الفقر.

ليس هناك أى علاقة بين النقود الافتراضية (الحساب المالى بلا سيولة) والفكرة الشيوعية القائلة بزوال النقود فى مجتمع مقبل يتسم بالخير العميم. ذلك أن الحاجة إلى النقود ستكون معدومة فى مجتمع شيوعى موعود، ما دام ذلك المجتمع يلبي جميع حاجات الناس، إلا أن سخافة هذه الفكرة واضحة الآن للجميع، وليس ثمة داع لانتقادها. لأن المجتمع الغربى المعاصر فاق، من ناحية وفرة الثروات المادية، جميع ما كان يمكن أن يتصوره شيوعيو الماضى. ولكن دور النقود لم يتراجع، بل على العكس ازداد فى جميع المجالات، مثل النقود فى ذلك مثل الدولة التى ليس فقط لم تضحل، بل وتعززت قوتها فى المجتمع الشيوعى، على الرغم من أن الملكية الخاصة قد صفيت فيه بالكامل تقريباً.

والنتيجة الأعلى لتطور النقود هى أنها بدأت تزول من حياة الناس اليومية كظواهر مادية ملموسة. ومع ذلك حافظت النقود على أهميتها وعززتها فى ما للمؤسسات المالية من حسابات غير ملموسة. لقد تخفت النقود تحت غطاء الآلية النقدية، أو اختبأت خلف كواليس مسرحية الحياة اليومية، محتفظة لنفسها بوظيفة المخرج لهذه التمثيلية.

## الآلية المالية :

ليس ثمة داع للبرهان على أن حجم العمليات المالية فى المجتمع الغربى المعاصر يصل إلى أرقام فلكية. وكان مدهشاً لو لم تنشأ فى مجتمع الشمولية النقدية هذا آلية تطبق هذه الشمولية وترسخها. لقد تكونت هذه الآلية وبلغت أبعاداً هائلة، وغدت واحدة من أهم دعائم المجتمع. ويمكن العثور على توصيف لها فى ما لا حصر له من المؤلفات السوسولوجية والحقوقية والاقتصادية، وفى الكتب التعليمية وسواها من الأدبيات والمطبوعات.

إن ما يشكل آلية الشمولية النقدية هو منظومة المجتمع العملاقة التى يتطلبها الآن عدد هائل من العمليات النقدية التى تشمل جوانب حياة الناس كافة فى المجتمع ككل، بما فى ذلك كل ما له علاقة بالرأسمالية. وهذه الآلية هى آلية فرع خاص من فروع الجانب العملى فى المجتمع، هو فرع العمل النقدى. ولكن هذه الآلية تحولت إلى آلية للمجتمع بأسره، نظراً للدور الخاص الذى يلعبه هذا الفرع من المجتمع. وهى تتضمن نوعين من المؤسسات والمنشآت:

١ - البنوك وغيرها من المؤسسات المالية التى تسمى بأسماء أخرى، ولكنها تقوم بالدور ذاته، أو تشاطر البنوك بعض وظائف البنس النقدى (صناديق التوفير، شركات التأمين، مؤسسات التسليف... وغيرها)، وكذلك الشركات الكبرى والاتحادات الاحتكارية التى تتصرف بمبالغ كبيرة من الأموال، وتقوم بوظائف مماثلة لبعض وظائف البنوك.

### ٢ - المؤسسات المالية التابعة للدولة.

إن عدد المؤسسات المالية هائل. وثمة تقسيم معقد لوظائفها (هو تخصص)، وكذلك تقاسم مناطق العمل ومجالات المجتمع فيما بينها. كما أن هناك بنوكاً خاصة وأخرى عمومية، منفردة ومتحدة فى مجموعات، شخصية ومساهمة، عامة وفرعية (حسب الفروع أو القطاعات)، تسليفية، وعقارية، وتجارية، ووطنية، ودولية. وتتصف

هذه البنوك نفسها ببنية معقدة، أى بهرمية فى أقسامها تبدأ من الفرع المركزى وتصل إلى الفروع المحلية التى تتعامل مع الزبائن مباشرة، ويعمل فى هذه المؤسسات ملايين الناس. وهى تستخدم فى نشاطها أحدث التقنيات التى بات مستحيلاً على الآلية النقدية أن تؤدى وظائفها بدونها.

لن أرهق القارئ بالأرقام المملة فى هذا الشأن، وسأكتفى ببعض الأمثلة. ففي العام ١٩٨٨ كان لدى الاتحاد المصرفى الأمريكى ٢٥٠ ألف موظف<sup>(٤٠)</sup>، وكان عنده مدرسة خاصة تستقبل كل سنة ١٥٠ ألف شخص، وكان يصدر مجلتين، هما: "Capital" و "Banking"، أما شركة بادن - فيورتيمبرغ المساهمة فكان لها ١٣٢ فرعاً، وكان لبنك صقلية ٣٥٨ فرعاً فى إيطاليا، وكذلك فروع وممثلات فى العديد من مدن أوروبا وأمريكا. وكان يعمل فى بنك ويستمنستر الوطنى ٨٢ ألف موظف. وهذا كله مجرد جزء من الشبكة العامة لمؤسسات الغرب المالية .

يقوم تنظيم آلية القطاع المالى على نحو يجعل هذه الآلية تجمع بين مبادئ العمل ومبادئ الكومونالية جمعاً وثيقاً. وقد بلغت مبادئ التبعية الكومونالية والتنسيق فى هذه الآلية مستوى من الدقة يعادل دقة الساعة وصرامة الآلة عديمة الروح، وبالتالي فإن الأنظمة الشيوعية والدكتاتورية الأخرى تبدو بالمقارنة معها نوعاً من الاسترخاء والاستهتار الديمقراطيين.

### الاقتصاد الحقيقى والاقتصاد الرمزى

يصل مقدار الأموال المتداولة بهذا الشكل أو ذاك فى العالم المعاصر إلى أرقام فلكية. وهذا بالطبع انعكاس لما لدى البشرية من ثروات هائلة. ومع ذلك تحول المجال

---

(40) Bank - Lexikon. Gabler, 1988.

النقدى إلى كيان ذاتى يتمتع بقدر مهم من الاستقلال عن الاقتصاد الحقيقى. يشير دروكر<sup>(٤١)</sup> إلى ثلاثة تغيرات بالغة الأهمية شهدتها الاقتصاد العالمى فى العقود الأخيرة، ويرى أن محرك هذا الاقتصاد الآن ليس تجارة السلع والخدمات، بل هو حركة رءوس الأموال، أى الكتل النقدية. لقد حدث انتقال من الاقتصاد "الحقيقى" إلى الاقتصاد "الرمزى".

على أن الاقتصاد "الحقيقى" والاقتصاد "الرمزى" مستقل كل منهما عن الآخر إلى حد كبير فى الاقتصاد العالمى. وحركة رءوس الأموال بمعزل عن التجارة تفوق مرات عديدة ما هو ضرورى للتجارة. وعلى سبيل المثال، فقد مرَّ عبر سوق الدولار فى لندن ما يزيد بخمس وعشرين مرة عن إجمالى حجم التجارة العالمية. أضف إلى ذلك أن حركة العملات فاقت باثنتى عشرة مرة حجم التجارة العالمية. وعلى هذا النحو فاق الاقتصاد "الرمزى" عام ١٩٨٦ الاقتصاد "الحقيقى" بحوالى أربعين مرة.

أودّ أن أشير إلى أن هذا النوع من الاختلالات عادى بالنسبة للظواهر الاجتماعية الأخرى أيضاً، فهو موجود، مثلاً، فى العلاقة بين مجالى الإنتاج والخدمات، بين جهاز الإدارة والمواقع الخاضعة لها، بين مؤسسة الدولة البيروقراطية ومجالات المجتمع الأخرى. ويجب التمييز فى هذا الفائض بين الجزء الضرورى منه والجزء الذى يمكن الاستغناء عنه من حيث المبدأ، ولكنه ينشأ بقوة قانون العطالة، بحكم قدرته على احتلال مكان فى المجتمع دون حسابان لمصالح الكل.

---

(41) Peter Drucker. The Frontiers of Management. New York, 1986.



## الدولة، القانون، النقود

سأطرق بشكل خاص إلى مسألة الدولة والقانون فيما بعد. أما هنا فسوف أكتفى بالنظر إليهما كعنصرين من عناصر الآلية النقدية في المجتمع الغربي.

إن الخطأ الماركسية التي لا تزال حتى اليوم تؤثر على عقول المفكرين معروفة للجميع. وتنص هذه الخطأ على أن الرأسمالية هي البناء التحتي للمجتمع الغربي، والدولة الغربية هي بناؤه الفوقي. والرأسماليون يشتركون سلطة الدولة، وهذه تخدمهم. ثم إن الدولة الغربية دولة برجوازية، رأسمالية. لقد رفضت هذه النظرية لأنها باطلة علمياً، وذلك قبل الحرب العالمية الثانية، دون أن أكون أعلم آنذاك شيئاً عن النقد الغربي للماركسية، معتمداً على واقعة جلية هي توسع وتعزز مؤسسة الدولة السوفيتية التي بدت لي استمراراً مباشراً لمؤسسة الدولة الروسية قبل ثورة ١٩١٧، فالدولة ليست بناء فوقياً يتربّع على بنية تحتية ما، بل للدولة جذورها الخاصة بها، المستقلة عن الرأسمالية. صحيح أنها قادرة على انتهاج سياسة لمصلحة الرأسماليين. وهؤلاء قد يمارسون تأثيراً عليها، ولكن ذلك لا يعنى أن الدولة تصبح جهازاً من أجهزة الرأسمالية. بل هي نفسها تستخدم الرأسمالية لما فيه مصلحتها ومصلحة الدور الذي تقوم به في المجتمع. فلم يكن نابليون، ولا قيصر ألمانيا، ولا إمبراطور روسيا، ولا ملكة بريطانيا خدماً للرأسماليين أكثر مما كان الرأسماليون خدماً لهم.

ما كان بوسع الرأسمالية أن تشغل مكانة وطيدة في العالم لولا رعاية سلطة الدولة وحمايتها. وكانت الدولة نفسها بحاجة لأن يتوسع العمل الحر ويتعزز. فقد سعت هذه السلطة لإقامة نظام مالي وطيد، وضبط الضرائب، وتطبيق معايير قانونية تحدد قواعد العمل الحر. وساهم هذا النشاط الذي قامت به السلطة أكبر مساهمة في التمهيد للثورات البرجوازية. وبدورها أسفرت هذه الثورات عن تغييرات بنيوية في السلطة، واستبدال الوجوه، غير أن الدولة حافظت على وجودها ووظائفها. لقد ازداد حجمها وتكيفت مع ظروف وجودها الجديدة (وليس بصفة خادم!). وعززت دورها بصفاتها أهم عنصر من عناصر آلية النقود.

كانت حماية النظام النقدي وظيفية مناصرة بالدولة منذ أقدم العصور، وليست حكومات البلدان الغربية بهذا المعنى بدعة جديدة فى هذا المجال. وإنما الجديد هنا هو الأمداء التى بلغها النظام النقدي ومكان الدولة فيه.

إن وظائف الدولة فيما يتعلق بالنظام النقدي ليست خافية على أحد. ذلك أن أولى تلك الوظائف هى سكُّ العملة وضبط دورة الأموال وتداولها. وهذه الوظيفة يقوم بها البنك المركزى (كما فى ألمانيا)، أو بضعة بنوك محدودة قانونياً (كما فى إنكلترا)، ويمكن لواحد منها أن يكون البنك الرئيس (كما فى الولايات المتحدة الأمريكية). وتعد هذه البنوك مستقلة عن الدولة. ولكن ماذا تعنى هذه الاستقلالية فى واقع الأمر؟ إن البنك الفدرالى الألمانى الذى يُعدُّ الأكثر استقلالية بين البنوك قد يكون النموذج الأفضل لأن نستجلى من خلاله العلاقات المتبادلة بين الدولة والمؤسسات النقدية<sup>(٤٢)</sup>.

فالبنك الفدرالى الألمانى ملك للدولة، وهذا بحد ذاته دليل على مدى جدية الحديث عن استقلالية البنوك عن الدولة (استقلالية المملوك عن المالك). ومهمة هذا البنك هى ضبط الأموال المتداولة، وتقديم القروض للاستثمارات والمشاريع، والمحافظة على استقرار النظام النقدي، وضبط إصدار الأوراق النقدية. وهو بموجب القانون ليس خاضعاً لأوامر الحكومة. كما أنه بموجب القانون نفسه ملزم بدعم السياسة الاقتصادية التى تنتهجها الحكومة إذا كان ذلك يتوافق مع مهمته فى حماية عملة البلاد. وهو يقدم النصائح للحكومة بشأن السياسة النقدية. ومن ناحية أخرى، يستطيع أعضاء الحكومة المشاركة فى مناقشات البنك، وطلب تأجيل هذا القرار أو ذاك من قراراته. إلا أنهم لا يتمتعون بحق التصويت فيه. والحكومة هى التى تعين أعضاء مجلس إدارة البنك، بمن فى ذلك رئيسه ونائب رئيسه، لمدة زمنية معينة. ولكن أعضاء الإدارة لا يمكن استبدالهم بآخرين ما لم يكونوا راغبين بالتخلى عن مناصبهم. وعندما تتغير الحكومة لا تستطيع

---

(٤٢) نشرة "Die Deutch Bundsbak" 1989

الحكومة الجديدة تغيير أعضاء إدارة البنك قبل انتهاء مدة عملهم. وهكذا، فإن الاستقلالية والتبعية هنا متبادلتان ونسبيتان.

إن البنك المركزي (بنك الدولة، البنك الرئيس) ليس مرتبطاً بالحكومة، ولكن الحكومة ليست إلا جزءاً من الدولة، وليست الدولة كلها. والبنك المركزي لا يمكن أن يكون مستقلاً عن الدولة، ما دام هو نفسه جزءاً من الدولة. وأعتقد أن من الواجب أن نضيف سلطة رابعة، هي السلطة النقدية، إلى السلطات التي ينص عليها نظام الفصل بين السلطات في الدولة الغربية، أي التشريعية والتنفيذية والقضائية.

تضع الحكومة قوانين تضبط وتنظم مجمل ما بين الناس، والمنشآت، والمؤسسات من أعمال وعلاقات تتخذ شكل النقود بهذا الشكل أو ذاك. وتراعى مؤسسات الدولة تنفيذ القوانين، وتفرض الإجراءات الرادعة بحق من يخالفها. كما أن الدولة تطبق سياسة مالية معينة عبر اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتوفير المال والقروض للاقتصاد، وتضبط الكتلة النقدية.

تضع الحكومة نظاماً معيناً للضرائب، وتقوم جهات حكومية خاصة بالسهر على الالتزام بتطبيق ذلك النظام الضرائبي. ذلك أن الضرائب هي ما يجعل الدولة مالكة لمبالغ ضخمة، أي ما يجعلها أكبر مالك للنقود في البلاد. إن ما تنفقه الدولة من المال يفوق جميع النفقات الأخرى.

تعتبر الضرائب في الوعي الاجتماعي شيئاً حتمياً وطبيعياً. وظاهرة الضرائب بحد ذاتها لا تتعرض للانتقاد، بل إن الانتقاد يوجه لسياسة الضرائب التي تتبناها الدولة. كما أن للضرائب، في نظر الأغلبية الساحقة من المواطنين الذين يملكون دخلاً ما، قوة الضرورة الطبيعية. وهم مضطرون لدفع الضرائب عبر تعاملهم اليومي بالنقود (وهم يتسوقون في المتاجر، أو يوقعون عقود شراء الأملاك غير المنقولة، أو يقومون بمعاملات الميراث ... إلخ)، وكذلك على شكل مدفوعات خاصة مرة في السنة، أو كل ثلاثة أشهر (عند دفع جزء من ضريبة الدخل المفترضة). والمنشآت التي تُجرى عملياتها عبر البنك يستحيل عليها التملص من الضرائب في أغلب الحالات.

إن التشريعات الضريبية تتزايد باطراد، فقد كانت قوانين الضرائب في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٣، على سبيل المثال، تتألف من ١٤ صفحة، فأصبحت في عام ١٩٩١ تزيد على مئتي ألف صفحة. وهذا ما يجعل فهم قوانين الضرائب يتطلب تخصصاً معيناً في مجال الحقوق. ذلك أن للمستشارين الضرائبيين دوراً هائلاً. فهم يشكلون شريحة خاصة من الوسطاء بين الدولة ودافعي الضرائب. ومهمتهم إيجاد حل وسط مناسب للدولة، ومقبول لدافعي الضرائب، وذلك في إطار القوانين، وضمن الوضع الاقتصادي الراهن في البلاد. وبالطبع، فإن القيام بهذا الدور ليس مجانياً (ففي الغرب لا يعملون شيئاً من غير ثمن، إلا الترهات). ومع ذلك فإن دفع الثمن أوفر من الاستغناء عن هؤلاء الوسطاء. وفي أغلب الحالات يتعذر الاستغناء عنهم لأسباب عديدة.

ففي ألمانيا، مثلاً، يمكن للمرء أن يشتري من أي سوپرماركت كتاباً سميكاً يشرح لدافع الضرائب كيف يتهرب من دفعها، أو كيف يكتفى بدفع الحد الأدنى منها، وذلك بطرق يعاقب عليها القانون. وهذا النوع من الكتب موجود في البلدان الأخرى أيضاً. ولكن لا بد من الاعتراف بأنني لم أحقق أية منفعة من دراسة هذا الكتاب. وأعتقد أنني لست الوحيد في ذلك. ولا مناص من الاستعانة بالاختصاصيين. أما كيف يقوم أصحاب الأعمال الحرة الكبيرة باستخدام القوانين للالتفاف على القوانين، فهذا ما يجب أن يكون مادة لكتاب مستقل. فإلى جانب الكفاءة العالية التي يتمتع بها مستشارو رجال الأعمال في مجال الضرائب، هناك صلاتهم الشخصية، ومعرفة أحوال الأعمال الحرة والسلطة.

إن كثيرين ممن يعملون، بهذا الشكل أو ذاك، في مجال الضرائب، متباينون من حيث الاختصاص والوضع الاجتماعي، ناهيك عن الفوارق في الملكية. ويغضُّ النظر عن هذه التباينات، فإنهم موظفون في القطاع الحكومي الذي يدير الاقتصاد.

ينبغي أن يكون الحصول على المال في المجتمع الغربي بطريقة شرعية من حيث المبدأ، أي وفقاً للمعايير القانونية، ويجب أن تخضع النقود للرقابة المالية الحكومية التي تدقق في شرعيتها وتقتطع منها الضرائب. وعليه، فإن من المستحيل، كما يبدو، وجود

الكونت مونت كريستو فى المجتمع الغربى المعاصر. إلا أن مبدأ شرعية المال يتعرض للانتهاك على الدوام. ولكتنى لم أقع على معطيات عامة وإجمالية فى هذا الشأن، بل ومن المستحيل الحصول عليها، نظراً لطبيعة الظاهرة نفسها. غير أن المعلومات التى تنشر فى وسائل الإعلام تمكّنا من القول بأن مجال التعامل غير الشرعى بالأموال مجال هائل. إذ يمكن عملياً إنفاق أية مبالغ من المال لا تخضع لرقابة الدولة. ثمة بنوك يستطيع أن يفتح فيها حسابات سرية كل من يسعون للحصول على أموال كبيرة ويرغبون بإخفائها. وقد أصبح "غسل" الأموال المكتسبة بصورة غير قانونية، والجمع بين البنس الإجرامى والبنس الشرعى من الظواهر المألوفة. وأكثر من ذلك، إن قدرة الاقتصاد الغربى المعاصر على البقاء أمر مشكوك فيه، لو ظلّ ذلك الاقتصاد فى إطار الشرعية والقانون بشكل كامل ودقيق.

## الرأسمالية

لقد سَطُرَ عن الرأسمالية من الكتب ما لا يقل عمّا سَطُرَ عن عيسى المسيح، وفاغنر، وموزارت، الذين يعدّهم بعض الخبراء أصحاب الأرقام القياسية فى هذا المجال. لن أطرح هنا إلا ما أراه الأكثر أهمية لفهم جوهر المجتمع الغربى المعاصر، أى لفهم الغربوية.

عندما يتطرق الحديث إلى تعريف المجتمع الغربى من حيث خصائصه الأساسية، سرعان ما تقفز إلى الذهن كلمة "الرأسمالية". لقد دخلت هذه الكلمة حيّز الاستعمال الواسع منذ زمن غير بعيد نسبياً، أى منذ أواسط القرن التاسع عشر. على أن هذه الكلمة ظهرت فى البداية مصحوبة بصبغة سلبية، جاءت من لغة الاشتراكيين<sup>(٤٣)</sup>.

---

(43) Capitalism today. Edited by Daniell bell and Irving Kristol. New York - London, 1970.

وكانت كلمة "الرأسمالية" تعنى عدداً كبيراً من رجال الأعمال الحرة، أصحاب المشاريع والأعمال الخاصة (الرأسماليين) الذين يتصرفون بمبالغ مالية كبيرة نسبياً (رءوس أموال) بهدف جنى أرباح بواسطة تنظيم إنتاج السلع على أساس استخدام العمل المأجور. ونظراً لانتشار الأفكار الشيوعية، صار المجتمع الغربي يُعد مجتمعاً رأسمالياً، أى مجتمعاً يسود فيه الرأسماليون. وصار النظام الاجتماعي في البلدان الأوروبية الغربية والولايات المتحدة الأمريكية يسمى بالرأسمالية. ثم أصبح انتقاد هذه الظاهرة فكرة أساسية تنتظم الحياة السياسية والفكرية في البلدان الغربية، بل وشملت أيضاً مجال الأدب والفنون التشكيلية، واكتسبت كلمات "رأسمال"، و"رأسمالي"، و"الرأسمالية" معنى سلبياً.

لقد فرض الماركسيون طريقهم في فهم المجتمع الغربي، بوصفه مجتمعاً رأسمالياً، على كامل النخبة الثقافية والسياسية في أوروبا. بل إن لينين عدّ المجتمع الروسي أيضاً مجتمعاً رأسمالياً، علماً بأن الرأسماليين فيه بالمعنى الأوروبي الغربي كانوا يُعدّون على الأصابع. ولم يكن لينين وحيداً في هذا الشأن، إذ كانت الكتلة الأساسية من المثقفين الروس تقف هذا الموقف. كما أن الثورة الروسية عام ١٩١٧ قامت تحت شعارات معادية للرأسمالية، وإن كانت الكتلة الأساسية التي شاركت فيها تتألف من فلاحين أشباه أميين، وليس من بروليتاريين من النمط الغربي.

من دواعي الفضول أن سلطات البلدان الغربية، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية، لم تضع عملياً أية عراقيل جدية تمنع انتقاد الرأسمالية والمجتمع الغربي من وجهة النظر هذه. وقد حظى أكثر نقاد الرأسمالية حدة<sup>(٤٤)</sup> باحترام عام، ولم يتعرضوا للملاحقة، لا لأن الديمقراطية كانت تعم البلدان الغربية وروسيا (لم يكن موجوداً شيء من ذلك بعد)، بل لأن المجتمع الغربي، فضلاً عن روسيا، لم يكن يحس بعد بأنه

---

(٤٤) مثلاً، الكتاب توماس مان، و تيودور درايزر، وجاك لندن، ومكسيم غوركي، وأنطون تشيخوف... وكثيرون آخرون.



رأسمالي. ولم تكن السلطات في بلدان أوروبا الغربية وروسيا ترى في الرأسمالية إلا إحدى ظواهر الحياة في بلدانها، بل وظاهرة تحت سيطرتها. فقد كانت سلطة المال ورأس المال في هذه البلدان لا تزال سلطة الرأسمالية في مجال اجتماعي أكثر اتساعاً، ولم تكن بعد تلك القوة المكتفية بنفسها، التي راحت مع مرور الزمن (بعد الحرب العالمية الأولى) تتحول إلى بيئة تحتوي كل ما عداها. لقد كان التقييم الماركسي للمجتمع الغربي كمجتمع رأسمالي بالكامل مبالغة لصالح الصراع الإيديولوجي والسياسي. إذ كان حكام المجتمع الغربي في الواقع خدماً لرأس المال بقدر ما كان رأس المال يخدم مصالح الفئات غير الرأسمالية، صاحبة الامتيازات والحاكمة في المجتمع.

وعلى مدى قرابة ٧٠ عاماً بعد العام ١٩١٧، في ظل نهوض غير معهود للإيديولوجيا والممارسة الشيوعية، ساد العالم تصورٌ عن المجتمع الغربي على أنه مجتمع رأسمالي، بل وبمعنى سلبي حتى في البلدان الغربية ذاتها. ولئن تعالت أصوات تدافع عن الرأسمالية، فإن تلك الأصوات لم يكن لها تأثير ملحوظ على الوضع العام. على أن المدافعين عن المجتمع الغربي كانوا يحاولون تحاشي استعمال كلمة "الرأسمالية"، ويفضلون كلمات محايدة من قبيل "المجتمع الصناعي"، و"التعددية"، و"الديمقراطية". وانتشرت أفكار تزعم أن المجتمع الغربي عامة لم يعد رأسمالياً، وأن الرأسمالية تتطور تدريجياً باتجاه الاشتراكية. حتى إن كتاباً مرجعياً ألمانياً ذكر أن الرأسمالية ما هي إلا دمغة ألصقتها الدعاية الشيوعية بالبلدان الغربية. ولا شك، بالطبع، في أن هذا مدعاة للدهشة. ولكنه شيء مألوف!

سأورد فيما يلي بضعة أمثلة على تعريف مصطلح "الرأسمالية" لكي يتمكن القارئ المتخصص المحايد من تكوين تصور عن الذهنية التي كانت سائدة حول هذه النقطة المركزية من فهم المجتمع الغربي. يقول أحدهم: "الرأسمالية نظام اجتماعي يقوم على الإقرار بالحقوق الفردية"<sup>(٤٥)</sup> انتبهوا: نظام اجتماعي يقوم على الحقوق! ويقول

---

(45) Ayn Rand. Capitalism. New American Library, 1970.

مؤلف ثان إن "الرأسمالية نظام اقتصادى تغلب فيه ملكية الأفراد لوسائل الإنتاج"<sup>(٤٦)</sup> . ولئن تنبّه إلى عبارة: نظام اقتصادى! ذلك أن هذا التعريف ينطبق أيضاً على المجتمع الإقطاعي، وعلى مجتمع العبودية. والرأسمالية عند مؤلف ثالث هي "نظام اقتصادى يجرى فيه تمويل الإنتاج كلّ مسبقاً فتدور عجلته مع الزمن. إنه نظام يتألف من دائنين ومديونين"<sup>(٤٧)</sup> ويقول مؤلف رابع إن الرأسمالية هي "نظام اجتماعى واقتصادى يعطى الأفراد الحرية فى أن يكونوا مالكين لوسائل الإنتاج، وأن يطمحوا إلى أقصى ربح ممكن، بينما نظام الأسعار هو الذى يحدد توزيع الموارد"<sup>(٤٨)</sup>، وهذا المؤلف يعرف الرأسمالية بأنها مجمل الوسائل التى تجعل الإنتاج ممكناً، أى الآلات والمباني ووسائل النقل... إلخ، باستثناء الأرض وقوة العمل. أما المؤلف الخامس فيرى أن الرأسمالية هي "نظام اقتصادى يتخذ القرارات فيه من يملكون وسائل الإنتاج. أما المعلومات عن حالة العرض والطلب فتقدمها السوق المفتوحة لحرية المنافسة. والهدف هو تحقيق الربح"<sup>(٤٩)</sup> على أن الماركسية هي صاحبة تعريف رأس المال بأنه النقود التى تجلب الربح (فضل القيمة)، وهى القائلة بأن الرأسمالية تتلخص بالعلاقة بين الرأسماليين والعمال المأجورين (استغلال الطرف الأول للطرف الثانى).

ونتيجة للتقلبات التاريخية تحولت كلمة "الرأسمالية" إلى عبارة إيديولوجية ذات معنى فضفاض. أما وجهة النظر المنطقية، فهى أن السبب الأساسى لاختلاط معانى

---

(46) John Cornwall. Capitalism. Encyclopedia of Economics. McGraw-Hill book company, 1982.

(47) Paul C. Martin. Der Kapitalismus. Munchen, 1986.

(48) Graham C. Bannock, R.E.Baxter, Evan Davis. Dictionary of Economics. Hutchinson, 1987.

(49) Jurgen Kromphardt. Konzeption und Analysen des Kapitalismus. Gottingen, 1980.

هذه الكلمة يعود إلى أن الناس ينظرون إلى الموضوع ذاته بطرق مختلفة، فيبرزون منه جوانب مختلفة، ويتناولون من تاريخه مراحل مختلفة؛ كما أنهم يُقحمون دوافعهم السياسية والإيديولوجية في فهم هذه الكلمة.

ومع انتصار الغرب في "الحرب الباردة" ضد الاتحاد السوفيتي ومعسكره راحت كلمة "الرأسمالية" تُستعمل بمعنى محايد، ثم بمعنى محترم، بل وبوصفها تسمية للنظام الاجتماعي القائم في بلدان الغرب. لقد رُدَّ الاعتبار لهذه الكلمة، وأُعيد النظر فيها بالمعنى السلبي الذي كانت تستدعيه فيما مضى. وانهاled فيضُ جارف من المديح الملكية الخاصة والرأسمالية وكل تجلياتهما في سلوك البشر (علمًا بأنهما كانتا على مدى بضعة قرون موضوعاً للنقد والاستياء والازدراء من قبل خيرة أبناء الجنس البشري)، فيضٌ من تمجيد الأنانية، وحبُّ الجشع، والقسوة... إلخ، بزعم أن هذه الصفات هي أروع الدوافع لتقدم البشرية. وبلغ الأمر بالمدافعين عن الرأسمالية حدًا من الجنون لم يسبق له مثيل خلال تاريخ الرأسمالية كله. لقد ألقوا جانباً بجميع المبادئ الأخلاقية الرادعة، وضربوا عرض الحائط بأبسط قواعد الحشمة واللباقة.

## تطور الرأسمالية

إننى من أنصار المعنى التالى للمصطلحات: الرأسمالية هي مبلغ من المال الذى يستخدم لمدة تطول أو تقصر من قبل مالكه (مالكيه) من أجل الحصول على مال إضافي فوق ذلك المبلغ، أى على الربح (أو فضل القيمة). إن استعمال المال كرأسمال يعنى استثماره فى عمل يدرُّ ربحاً، أو العيش على الفائدة التى تُجنى منه. وهذه الفائدة فى الحساب الأخير تعنى أيضاً أن هناك من يستخدم مالكاً كرأسمال. وبالطبع ليس مضموناً دائماً تحقيق الربح عملياً. ذلك أن أصحاب المال قد يخسرون، بل وقد يفلسون أيضاً. ومع ذلك يظل هدفهم هو استخدام النقود للحصول على الربح. والرأسماليون هم أصحاب المال (أفراد، أو مجموعات من الناس، أو منظمات) الذين يستعملونه

كرأسمال. والرأسمالية هي مجمل الظواهر التي لها علاقة بنشاط الرأسماليين وقيام رءوس الأموال بوظائفها في مجتمع معين، ويكون المجتمع رأسمالياً إذا كانت الرأسمالية سائدة في اقتصاده، ولكن ذلك لا يعنى أن النظام الاجتماعى يقتصر على الرأسمالية. إن الغربوية تتضمن الرأسمالية، ولكنها لا تقتصر عليها.

ليست الرأسمالية شيئاً معطى مرة واحدة وإلى الأبد. بل يوجد فى تاريخها مرحلتان هما: مرحلة الرأسمالية "القديمة"، ومرحلة الرأسمالية "الجديدة". وأنا أرى الفرق بينهما على النحو التالى: لقد كانت الرأسمالية القديمة فى معظمها عدداً كبيراً من رءوس الأموال الفردية المنتشرة فى مجتمع غير رأسمالى من حيث نمطه العام. وعلى الرغم من أن الرأسماليين كانوا يتمتعون بنفوذ هائل، فإن المجتمع لم يكن بعد رأسمالياً بالمعنى الدقيق للكلمة. وكان انخراط جماهير السكان فى العلاقات النقدية وفق قوانين رأس المال على مستوى يسمح بالحديث عن مجتمع تكون تاريخياً تحتل فيه الرأسمالية مكاناً معيناً، ولكنها لم تكن بعد كليةً وشاملة. ولم يأخذ المجتمع الغربى يتحول إلى مجتمع رأسمالى بالمعنى الدقيق للكلمة إلا فى القرن العشرين، عندما بدأ يفقد بعض خصائص الرأسمالية "القديمة". وهذا ما خلق وهماً بأن المجتمع الغربى أخذ بالكف عن كونه رأسمالياً أصلاً.

وبعد الحرب العالمية الثانية بدا واضحاً نزوع وحدات إقليمية كبيرة وبلدان بأكملها نحو التحول إلى متحدات اجتماعية تعمل وفق قوانين أنظمة نقدية هائلة، ورءوس أموال هائلة. والقضية هنا لا تكمن فى تمركز رءوس الأموال، وإن كان ذلك قد لعب دوره، وإنما فى تنظيم حياة أغلبية السكان على نحو جعلهم يبدون وكأنهم صاروا وسيلة لقيام رأس المال بوظائفه لا غير.

لقد كانت هذه العملية بمعنى ما ضد مركزية رءوس الأموال، وقيام الاحتكارات. ذلك أن هذه الصفة الجديدة فى تطور الرأسمالية لم تظهر بسبب تمركز رءوس الأموال وتشكل الاحتكارات، على غرار ما كتب لينين فى حينه وأخطأ فى عدّه ذلك أعلى وأخر

مراحل الرأسمالية، وإنما بسبب انخراط جماهير السكان فى العمليات النقدية وفق قوانين رأس المال، وتزايد هذه العمليات وتعزز دورها فى حياة الناس. وكانت هذه العملية مرتبطة بتعزيز دور سلطة الدولة فى العمليات النقدية، وتنامى التشريع النقدى وتعزز دوره، وترتيب وضبط العلاقات بين أرباب العمل والعاملين بالأجرة، وهيكله العمل الحر، والحد من المنافسة وحرية الأسعار، وباختصار، كانت هذه العملية مرتبطة بالتنظيم الاجتماعى والضبط اللذين خضع لهما مجمل نظام حياة المجتمع وفق قوانين عمل النقود بوصفها رأسمالاً. على أن تحول الرأسمالية "القديمة" إلى رأسمالية "جديدة" جرى عبر قنوات عديدة. وما دمت قد تحدثت عن هذا الموضوع من قبل، فى القسم الخاص بتطور الملكية الخاصة وبنيتها، فإننى سأكتفى هنا بإضافة ما يلى.

### الرأسمالية الشمولية

إذا كنا نفهم رأس المال على أنه نقود تجلب الربح، أو على الأقل نقود تُستخدم بهدف الحصول على الربح، والرأسمالى على أنه رجل أعمال يستخدم النقود كرأسمال، فإن البنوك هى رأسماليون منذ البدء. ذلك أن تحول النظام المصرفى إلى شمولية نقدية أدّى إلى تحول الأغلبية الساحقة من أعضاء المجتمع الذين يملكون مصادر دخل ما إلى مشاركين فى نشاط البنوك كرأسماليين، إذ وضعوا نقودهم تحت تصرفها، أى قاموا بالجزء الأساسى من أعمالهم النقدية عبر البنوك. وأضيف إلى ذلك نمو المنشآت والبنوك المساهمة. ففي ألمانيا الغربية، مثلاً، كان يوجد فى عام ١٩٨٣ أربعة ملايين مساهم (مالك أسهم)، وارتفع هذا العدد عام ١٩٩١ إلى عشرة ملايين مساهم. وفى الولايات المتحدة الأمريكية كان ثلاثون مليون مواطن عادى يملكون عام ١٩٧٠ ثلثى مجمل رأس المال فى الصناعة. وكان ٨٠٪ من السكان يملكون مبالغ من المال تعمل

بهذا الشكل أو ذاك في إطار إجمالي رءوس الأموال، أي كانوا مشاركين في رأس المال التعاوني<sup>(50)</sup>.

لقد غدا المجتمع الغربي المعاصر رأسمالياً بالمطلق تقريباً، إذ إنه جعل جميع من يحصلون على نقود ما، أو يملكون نقوداً، رأسماليين جزئيين بهذا القدر أو ذاك، على الأقل نتيجة اضطرارهم للقيام بأعمالهم المالية عبر المؤسسات المالية، ناهيك عن ملايين المساهمين (أصحاب الأسهم).

وفي الوقت نفسه، جعلت هذه العملية بالذات مفهومي "الرأسمالي" و"الرأسمالية" عديمي المعنى من الناحية السوسيولوجية. وليس في قولي هذا أي تناقض، إذ لم يعد بالإمكان توصيف خصوصية المجتمع الغربي توصيفاً مطابقاً بواسطة هذين المفهومين. ذلك أن المساهم الصغير، ورجل الأعمال الذي أخذ قرضاً من البنك ويقوم بأعماله عبر البنك، وكذلك المتقاعد ومؤجر الأرض وصاحب رأس المال الكبير، ومدير (رئيس) البنك، والمدير الإداري (المتصرف) الذي يحصل على مال (راتب) أكبر مما يحصل عليه رجل الأعمال المتوسط، هؤلاء جميعاً من فئات اجتماعية مختلفة. إن كلاً من مالك البنك الذي يحرّك مليارات الدولارات، والمساهم الذي يملك أسهماً قيمتها بضعة آلاف من الدولارات، يُعدُّ ممثلاً لطبقة الرأسماليين مثلما يعدُّ الجنود والجنرالات أعضاء في فئة العسكريين الاجتماعية ذاتها. وحتى إذا ما نظرنا إلى مفهوم "طبقة الرأسماليين" على أنه مفهوم ذو معنى، فسوف تواجهنا منذ البداية مشكلة أكثر أهمية، تجعلنا نتساءل: ما البنية الاجتماعية لهذه الطبقة، ما الفئات والشرائح التي تتألف منها هذه الطبقة، وما العلاقات المتبادلة فيما بينها؟ إن هذه الفوارق والعلاقات الداخلية ضمن طبقة الرأسماليين الاجتماعية أكثر أهمية، بالنسبة لفهم جوهر المجتمع، من تلك السمة العامة التي قامت على أساسها طبقة الرأسماليين المنطقية. وهذه الحالة أشبه بحالة العلاقة

---

(50) Peter Drucker. The Frontier of mangement. New York, 1986.



بين مواطنى البلد الشيوعى الذين هم جميعاً كادحون وموظفون مأجورون عند الدولة، ولكنهم يتباينون من حيث سمات أخرى أكثر أهمية.

أما الجانب الآخر فى تطور الرأسمالية فقد سبق أن كتب عنه ماركس، وكذلك لينين على وجه الخصوص. إذ يتمثل تطور الرأسمالية فى عملية توطيد المنشآت ومركزة رءوس الأموال. وبإدراك هذه الحقيقة بنى الماركسيون عليها استنتاجات إيديولوجية وسياسية. ومع ذلك، فقد تجاهلوا ما لهذه العملية من أثر بالغ الأهمية بالنسبة لفهم بنية المجتمع الغربى، وتحديدًا لفهم تطور علاقات الملكية الذى تحدثت عنه أعلاه. لقد أسفرت عملية التطور هذه عن حدوث تمايز داخل طبقة الرأسماليين. فرجال الأعمال المنضوون تحت ظل اتحادات معقدة يفقدون جزءاً من حريتهم كرأسماليين. وأصحاب رءوس الأموال الكبيرة يفقدون إلى حدٍّ ما إمكانية التصرف بها على هواهم، بينما أصحاب الأموال الأصغر لا يملكون هذه الإمكانية بتاتاً. إنهم يظلون مجرد مالكين افتراضيين لا غير. وهكذا تنشأ طبقة من الرأسماليين الافتراضيين، وتجرى عملية تقاسم للوظائف بين مالك رأس المال والمتصرف به، فتنشأ طبقة ربما أسميها طبقة الموظفين الرأسماليين، وتغدو سلطة المالك اسمية إلى حدٍّ كبير ما لم يكن فى عداد طبقة الموظفين الرأسماليين الذين لا يتصرفون بملكيتهم بقدر ما يتصرفون بملكية الآخرين.

## الربح

إن فهم طبيعة الربح هو النقطة المركزية فى فهم رأس المال والرأسمالية. لن أكرر الحقائق المعروفة عن طبيعة التراكم الأولى لرءوس الأموال، بل سأنتقل مباشرة إلى الوضع المعاصر. أولاً، لا يجوز أن نعزو سبب ظاهرة الربح إلى التعطش السيكولوجى للكسب حصراً. إننى لا أنفى وجود هذا النوع من التعطش، ولكنى أؤكد فقط على ضرورة الانطلاق من العوامل الموضوعية، وليس الذاتية، عند ما نقوم

بتفسير ظاهرة الغربوية. فظاهرة الربح تنشأ في البداية بوصفها إمكانية للحصول على مبلغ أكبر من المبلغ الذي أنفقه صاحب المشروع على عمله. ومع تطور الغربوية يغدو الحصول على الربح إجبارياً، أى إن الإمكانية تتحول إلى ضرورة. ويضطر رجل الأعمال إلى تنظيم العمل بطريقة تدرُّ عليه موارد إضافية كشرط لبقاء مشروعه على قيد الحياة. وهذه الضرورة تقوى في النفس الحاجة إلى مزيد من الربح إلى أن تغدو الحافز الرئيس.

لم تظهر الرأسمالية وتتطور إلى ظاهرة عالمية بمبادرة من بعض الجشعين. فعلى الرغم من أن هؤلاء كان لهم دور في ذلك، إلا أن عملية ظهور الرأسمالية وتطورها كانت، بالدرجة الأولى، أمراً أملتة قوانين العمل الموضوعية تحديداً. لقد انخرط في العمل أناس من نمط معين، بينهم جشعون بطبيعة الحال. ونجد في أيامنا هذه أيضاً أن أحكام التنظيم الاجتماعي لجماهير الناس هي التي تشكل الركيزة الرئيسة للرأسمالية، وليس مصالح البعض الذاتية.

لو كان التخلي عن الربح مسألة ممكنة موضوعياً، ولو تخلى الرأسماليون عن الربح من تلقاء أنفسهم، لانهار المجتمع في غضون فترة قصيرة جداً. غير أن الاعتقاد بأن المجتمع الغربي هو مجتمع يمارس فيه الفرد عمله الخاص بحرية، ليس إلا سخافة إيديولوجية، لأن المجتمع الغربي هو مجتمع العمل الحر القسرى. وما يُعدُّ فيه حراً من الناحية القانونية هو في واقع الأمر ثمرة القسر الاقتصادي.

وثانياً، إن مفهوم الربح ليس مفهوماً وحيد الدلالة بالمعنى الاجتماعي، وإن كان كذلك اقتصادياً. ذلك أن هناك فرقاً بين الربح بوصفه شيئاً تفرضه الظروف وضرورة حياة المنشأة، أى الربح الطبيعي كما يقال، والربح بوصفه ازدياداً للمال على نحو يتيح لمالكه أن يكسب خلال فترة وجيزة مبلغاً ضخماً يفوق المعدل الوسطى للربح، أى يحقق ربحاً فائضاً. إن أرباب العمل مرغمون على السعى للحصول على الربح بالمعنى الأول. أما الربح بالمعنى الثانى فلا يستطيع الحصول عليه إلا عدد قليل ممن يسعدهم الحظ بفضل ظروف استثنائية. وعندما يضرب المنافحون عن الرأسمالية أمثلة برجال أعمال

ناجحين، فإنهم يشيرون إلى هؤلاء المحظوظين حصراً، ويتجاهلون آلاف رجال الأعمال  
المفلسين. وهؤلاء المحظوظون الاستثنائيون هم، بالطبع، حاملو رايات الرأسمالية،  
ولهم في ذلك دور لا شك فيه. ومع ذلك فإن ما بين الربح الطبيعي والربح الفائض ليس  
مجرد فرق كمى بين شيئين من نوع واحد، بل هو فرق نوعى. فرجل الأعمال المزدهر  
الذى يتحایل من أجل الحصول على ربح فائض هو حالة نادرة بين عدد كبير من رجال  
الأعمال العاديين، مثلما يكون نجوم السينما الذين يكسبون شهرة واسعة وأموالاً  
ضخمة حالة نادرة بين صفوف جيش من الممثلين العاديين وغيرهم من العاملين فى  
صناعة السينما الذين يعيشون عيشة عادية. إن نجوم السينما هؤلاء ينتمون إلى  
فئة اجتماعية أخرى غير الفئة التى ينتمى إليها ما لا حصر لعدده من زملائهم العاديين  
فى المهنة.

وثالثاً، إن رأس المال المعاصر لا يوجد بمعزلٍ عما سواه، بل هو موجود كعنصر  
فى جملة معقدة من الظواهر. وهناك أموال طائلة تقوم بتنظيم هذه الظواهر ودمجها  
فى كل واحد. على أن هذه المبالغ تدرُّ ربحاً، ولكن ليس جميع ظواهر تلك الجملة  
المعقدة التى تنظمها المبالغ المعنية تجلب الربح من تلقاء نفسها (كل ظاهرة بمفردها).  
فثمة عدد كبير من المنشآت التى تتدبرُّ أمورها بصعوبة بالغة (معظمها، كما أعتقد)، بل  
والتي تخسر أيضاً. وهذه، كقاعدة عامة، منشآت صغيرة ومتوسطة. بل وحتى المنشآت  
الكبيرة تتكبد خسائر غالباً ما تتحدث عنها الصحافة. فقد خسرت شركة "جنرال  
موتورز"، على سبيل المثال، مبلغ ٤٥،٤ مليار دولار عام ١٩٩١، فيما خسرت شركة  
IBM مبلغ ٧٥،٤ مليار دولار عام ١٩٩٢، كما تكبد عدد كبير من الشركات الكبيرة  
خسائر معتبرة خلال تلك السنوات. وأصبح إفلاس الشركات العملاقة أمراً مألوفاً.  
فكانت تنقذها البنوك، أو إعانات الدولة، أو الانتقال إلى أيدي أخرى، أو الاندماج مع  
غيرها من الشركات، أو الاحتياىال، أو تقليص الإنتاج وصرف العمال بالجملة  
(مثلاً، صرفت شركة IBM من الخدمة مائة ألف شخص من بين ٤٠٠ ألف شخص  
يعملون فيها).

غير أن تعرُّض المنشآت للخسارة لا يعنى أنها لم تعد رأسمالية، ذلك أن الخسارة حالة مؤقتة. إذ تجرى داخل مجمل النظام الاقتصادي إعادة توزيع للأرباح، وتظهر شركات جديدة تحل محل الشركات التي أفلست. وهذا يعنى أن مبادئ الرأسمالية تحافظ على مفعولها كمبادئ للرأسمالية الكلية، وليس للرأسمالية الذرية<sup>(٥١)</sup>.

يوجد فى المجتمع الغربى المعاصر عدد كبير ممن يحصلون على ربح دون أن يكونوا أصحاب مشاريع أو أرباب عمل (نتيجة ارتفاع أسعار اللوحات الفنية، وقطع الأراضي والمباني، مثلاً). وهناك أيضاً كثير من المؤسسات والمنشآت غير الربحية (تلك التي لا تعول أصلاً على جنى الأرباح)، أى مؤسسات الدولة، والمدارس، والجامعات، والمشافي، وغير ذلك. فكل واحد من بين أربعة ممن يعملون فى الولايات المتحدة الأمريكية يشتغل فى تلك المنشآت غير الربحية التي يبدو أن نسبتها تميل إلى الارتفاع. وأكرر القول إن الغربية لا تعنى الرأسمالية فقط.

إن المسار العام لشمولية النقود يؤدي إلى زيادة حصنة العمل الحر الذي ينشط على أساس الاقتراض من البنوك أو من الاتحادات الكبرى. وفى مثل هذه الحالات يدفع أرباب العمل فوائد مئوية، فيضطرون لاتباع جميع السبل من أجل أن يحصلوا على ربح ما. وعليه، فإن مبدأ حرية العمل الخاص، بمعنى تحصيل أقصى حد من الربح، إذا ما كانت له فى وقت من الأوقات قوةً كليةً (وهو أمر مشكوك فيه)، يتحول إلى مبدأ الربح الأدنى الإجمالى الذى لا بد منه لبقاء المنشأة على قيد الحياة.

---

(٥١) المشتتة، المتشظية، المفككة، المتذررة. - م.

## السوق

ترفع الدعاية الغربية السوقَ اليومَ إلى السماء. ويعلن "المتهورون" أن السوق أحد أبرز اختراعات البشرية<sup>(٥٢)</sup>. وتكمن كوميديّة تقييم السوق بهذه الطريقة في أن السوق، بالشكل الذي يصفها به هؤلاء المؤلفون، ليست اختراعاً، وإنما هي تخلُّ عن أى اختراع كان في هذا الصدد، بل وإعاقة لاختراع ما هو أكثر عقلانية.

يجرى تصوير السوق على أنها فضيلة رأسمالية مقابل الاقتصاد الشيوعي الأوامري المخطّط بوصفه شراً. علماً بأن بعض الخبراء، ومنهم ميلتون فريدمان، مثلاً، يرون أن الاقتصاد الأوامري المخطّط المحض، واقتصاد السوق المحض لا وجود لهما، وأن كل الأنظمة الاقتصادية مختلطة، وأن مواجهة أحدها بالآخر غدت دوغماً الإيديولوجيا الغربية.

ثمّة الآن قناعة سائدة تزعم أن الاقتصاد الشيوعي قد انهار، وأن المستقبل لاقتصاد السوق. ولكن الأمر لم يكن هكذا دائماً. ففي الأربعينيات من القرن العشرين تنبأ كثيرون بأن المستقبل ليس لاقتصاد السوق بل للاقتصاد الأوامري - المخطّط<sup>(٥٣)</sup>. ويعود ذلك إلى النجاحات التي حققتها الشيوعية والاشتراكية القومية العالمية في العالم. أما الآن فإن كيل المديح للسوق يقوم على أساس انهيار الشيوعية السوفيتية. وإذا ما رسم التاريخ خطأ متعرجاً جديداً ما، فإننا سنعثّر على منظرين ينبشون عيوب السوق من جهة، ومزايا الاقتصاد الأوامري المخطّط من جهة أخرى.

---

(52) Robert Heilborner , Lester Thuvow. Economics Explained.

(53) J.A. Schumpeter. Capitalism, Socialism and Democracy, N.Y. 1942.

لقد ترسخت محفوظة معينة في وصف السوق. وهي تنتقل مع قليل من التحوير من كتاب إلى آخر، ومن مقالة إلى أخرى، ومن خطاب إلى خطاب. وتتلخص هذه المحفوظة، باختصار شديد، في ما يلي<sup>(٥٤)</sup>:

إن صاحب العمل الحر هو من يتحمل مسؤولية قراره بخصوص ما يريد إنتاجه من أشياء، والخدمات التي سيقدمها، وكيف سيقوم بذلك. إنه حرٌّ في نشاطه الخاص. والمستهلك حرٌّ فيما يتعلق بمداخله واختياره بين الأشياء والخدمات التي يعرضها المنتج. وينفذ رجل الأعمال خطته في إطار المنافسة الحرة، والاتفاقيات، والاستثمارات، والأسعار وفق توقعاته للربح. بينما تقدم السوق لرجل الأعمال المعلومات عن العرض والطلب، وتقوم بتنسيقهما، وكذلك تقوم بالعمليات المالية. ويعرف المنتجون عن طريق المستهلكين أنفسهم ما السلع التي عليهم أن ينتجوها لهم، وما الأسعار التي يبيعونها بها. وهؤلاء المنتجون مستقلون، لا يرتبط أحدهم بالآخر. إنهم يسعون لتقديم أفضل ما يمكن من أنواع السلع والخدمات، وبيعها بأرخص ما يمكن، من أجل جذب المستهلكين. وكما يقول آدم سميث<sup>(٥٥)</sup> فإن عمليات السوق تجري وكأن "يداً خفية" تسيّرهما. على أن هذه اليد الخفية هي آلية السوق ذاتها، وليس الدولة. وتتحصر مهمة الدولة في تمكين السوق من أداء وظائفها، وعدم إعاقتها في عملها، وحمايتها من أي تدخل مصلحي<sup>(٥٦)</sup>.

عندما أقرأ مثل هذا الهراء لا يسعني إلا أن أتذكر عفو خاطر نكتة سوفيتية قديمة تقول إن مربية في روضة للأطفال كانت تحدث الأولاد عن الحياة الرائعة في

---

(54) F.A. Hayek. The road to Serfdom. 1944.

The Political Order of a Freepeople. London, 1979.

(55) A. Smith. The Wealth of nations. 1976.

(56) Ludwing Mises. Human Action. Yale, 1949.



الاتحاد السوفيتي، وفجأة شرع أحد الأطفال بالبكاء. وعندما سألته لماذا يبكي؟ أجاب إنه يريد السفر إلى ذلك الاتحاد السوفيتي. أتمنى أن أعرف ما هي مشاعر ملايين المنتجين والمستهلكين عندما يقرءون وصفاً للسوق كالوصف الذي أوردته أعلاه؟! ألا يعترهم الحزن، يا ترى، وهم يفكرون كم كان جميلاً لو أتيح لهم العيش في ظل رأسمالية "حقيقية" ذات سوق "حرة" تديرها "يد خفية" عديمة الملامح؟!!

لا اعتراض لديّ على كلمة "السوق". ولكن المهم هو ما تعنيه هذه الظاهرة التي تسمى بهذه الكلمة. إن ما يُطلق عليه الساسة، ورجال الأعمال، والمنظرون والإيديولوجيون الغربيون اسم "السوق" ويصفونه، على نحو ما نقلت عنهم أعلاه، لا وجود له في الواقع البتة. وما هذا الوصف إلا صورة تجريدية للواقع صنعتها مناهج الإيديولوجيا. أمّا في مؤلفات المنظرين الذين يدعون قدرًا من الموضوعية العلمية، فإن التقريظ الإيديولوجي يتخذ شكلاً أكثر تفنناً. ومن الأمثلة على ذلك أعمال اثنين من أكثر المنظرين رصانة، وهما كاينس وهايك. ذلك أن مؤلفاتهما لا ترمى إلى تحليل نزيه للواقع، وإنما إلى تقديم نصائح لرجال الأعمال البارزين والساسة بخصوص ما يجب القيام به من أجل ازدهار الاقتصاد الرأسمالي. على أن هذه النصائح روتينية لا تكشف عن جديد.

لا يمكننا أن نعرف واقع السوق إلا من مؤلفات نقاد السوق أنفسهم، ومن تلك المقاطع التي تتضمنها أعمال منظري الرأسمالية التي ينتقد فيها بعضهم بعضاً، أو ينتقدون فيها ما ينطوي عليه الواقع من حقائق تحول دون تطبيق مشاريعهم (التي لا تتوافق مع نظرياتهم). سأعرض فيما بعد ما لديّ من تصورات عن السوق بنيتها أساساً على الحس العادي السليم، وعلى ما أدلى به العديد من الخبراء الغربيين من آراء وصلت بهذا الشكل أو ذاك إلى صفحات الكتب والمجلات والجرائد.

وسأطلق تعبير "السوق الواقعية" على مجال من حياة المجتمع هو المجال الذي تتجسد فيه العلاقات بين منتجي الأشياء والخدمات من جهة، ومستهلكيها من جهة ثانية. وسأطلق تعبير "السوق التجريدية" على صورة السوق الواقعية كما تظهر في

توصيفات الإيديولوجيين، والسياسة، ورجال الأعمال المعنيين الذين يقومون عملياً في هذه الحالة بوظائف الإيديولوجيين. ذلك أن السوق التجريدية ليست السوق الواقعية كلها، وإنما هي جوانب وأجزاء وصفات متفرقة مجردة تُجترأ من السوق الواقعية ثم تُجمع في صورة متخيلة تُقدّم على أنها السوق الواقعية، أما في السوق الواقعية فتتقاطع وتتداخل مصالح قوى المجتمع كافة. فالسوق الواقعية هي ساحة المعركة. فيما تبدو السوق التجريدية وكأنها تكنولوجيا الاقتصاد المحايدة.

إن آلية السوق الواقعية ليست "اليد الخفية" التي تحدث عنها سميث، وإنما هي بالنسبة للمشاركين في المعركة استراتيجية وتكتيك ملموسان تماماً من أجل الفوز بالشارى وإمكانية تشكيل الشارى وفق ما تقتضيه مصالح المنتجين. على أن المنتجين لا يصنعون ما يريدون، بل ما هو قابل للتصريف. والمستهلك يختار (إذا ما كان يختار!) من بين ما يُفرض عليه، بل وهو يروض بطريقة لا يستطيع معها التملص من ذلك. ويحاول المنتجون أن يعرقل بعضهم بعضاً بكل الوسائل المتاحة، وليس دائماً بالوسائل الاقتصادية والمشروعة. كما أن المنتجين لا يحصلون على معلومات عن العرض والطلب لحظة دخول السوق، بل قبل ذلك. أما حصولهم على هذه المعلومات في السوق فهو حالة استثنائية. إذ إن حالة السوق تكون في العادة معروفة سلفاً. وإذا ما كان أرباب العمل يقدمون على دخول السوق بغض النظر عن كل شيء، فهذا يعني أنه ليس أمامهم مخرج آخر. إنهم يدخلونها لاختطاف ولو جزء صغير من القرص.

سأتناول بعض مكونات السوق بشيء من التفصيل.

## المنافسة

تحمل كلمة "المنافسة" معنى مزدوجاً. فهي في أحد المعنيين تدلّ على صراع أناس في سبيل مصالحهم وأهدافهم الشخصية في ظروف يكون فيها أناس آخرون مشغولون بالصراع نفسه. على أن صراع أحد الطرفين ينعكس على صراع الطرف

الآخر، أو بكلام أدق، يعيق نجاحه. والمنافسة بهذا المعنى ظاهرة شاملة. وهى فى مجتمع من الطراز الغربى شاملة وعامة. وبهذا المعنى فإن المجتمع الغربى هو مجتمع المتنافسين. وكل منتج للسلع والخدمات هو منافس لغيره من المنتجين فى ميدان الصراع من أجل أن يكسب الشارى. إذ إن القدرات الشرائية عند الناس ليست بلا حدود. وجيش العاطلين عن العمل منافس للشخص الذى يبحث عن عمل. فيما الساسة يتنافسون على كراسى الوزراء والرؤساء وغير ذلك من المناصب. ورجال الثقافة يتنافسون على الشهرة والمردود المالى، وعناصر الإجرام تتنافس على فرص نهب الضحايا. ومختصر القول إن المعادلة القائلة: "إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب" هى معادلة المجتمع الغربى الواقعى. على أن المجتمع يبذل جهوده للحد من مفعول هذه المعادلة وإضعافها ولو قليلاً. غير أنها كانت وستبقى إحدى دعائم القوى التى تحرك المجتمع الغربى بغض النظر عن أى شىء. إنها قانون طبيعى لا خلاص منه.

والمنافسة بهذا المعنى تدل على شكل واحد فقط من أشكال الصراع من أجل البقاء فى المجتمع الغربى. ولإبراز هذه المنافسة تُقرن هذه الكلمة عادة بصفة "الحرّة" لحصر المعنى. وتفترض المنافسة الحرّة أن المشاركين فيها أناس أحرار ومستقلون عن بعض البعض فى المجال الذى يتنافسون فيه. والشىء الوحيد الذى يختلف بعضهم عن بعض فيه من وجهة نظر صراعهم هو نوعية وقيمة ما يملكون. وهذا يعنى فى مجال الاقتصاد نوعية المنتجات والخدمات، وكذلك سعر الأشياء المعروضة. إن المدافعين عن نمط الحياة الغربى عندما يمجّدون المنافسة ويضعونها فى مصاف إحدى دعائم هذا النمط، إنما يقصدون هذه المنافسة "الحرّة" تحديداً.

يمكننا العثور فى الأدبيات الاجتماعية الاقتصادية على جميع أشكال المناقشات المحتملة منطقياً حول الأفكار المتعلقة بالمنافسة الحرّة. بعض المؤلفين يؤيدون المنافسة الحرّة، وبعض آخر يعارضها. ثمة من يرى أن زمانها قد ولى، ومن يرى أنها تقرر الأبواب. على أن الموقف منها يتغير بمرور السنين. ولكننى لم أقع على كتاب واحد يتضمن رأياً أقرب إلى الحقيقة (حسب اعتقادى)، أى أن المنافسة الحرّة لم تكن

فى يوم من الأيام الشكل الوحيد، ولا حتى السائد، المستقل، للنشاط الاقتصادى فى المجتمع الغربى، وأن دورها مبالغ فيه، وأضيفت عليه صبغة مثالية.

فى كتابه "الطريق إلى العبودية" (١٩٤٤) يقدم هايك، على سبيل المثال، وصفاً للمنافسة "الحرّة"، أكتفى باقتباس بعض المقاطع منه. إذ يرى هايك أن الرأسمالية نظام تنافسى يقوم على أساس التصرف الحر بالملكية الخاصة. وفى ظروف نظام المنافسة لا يكون معروفاً سلفاً، حسب رأيه، من الذى سيحالفه الحظ، ومن الذى سيخونه... إن كل شىء يتوقّف على قدرات الناس وحظوظهم تحديداً. فالرأسمالية هى النظام الوحيد الذى لا يعجّل فيه الإنسان إلا على نفسه. ذلك أن المنافسة تؤدّى إلى تنظيم لإنتاج السلع لا يتحقق إلا بوجود مركز مثالى يعرف بدقة كل ما يعرفه الناس جملة، ويستطيع استخدام هذه المعرفة على أكثر الوجوه فعالية. على أن المنافسة الحرّة، وفقاً لهذا الفهم، تشبه الدولة الشيوعية كلياّ الجبروت، ولكن من دون نواقصها.

وفى أجواء نظام المنافسة، كما يضيف هايك، ينتج الناس كل ما يمكن لأى منهم إنتاجه وبيعه بربح مقبول بالنسبة للمشتري، ويشارك فى الإنتاج كل من يستطيع إنتاج شىء لا يقلّ عما ينتجه الآخرون جودةً ولا يفوقه ثمناً، ويباع المنتج بسعر يعادل أو يقلّ عن السعر الذى يمكن من حيث المبدأ أن يحدده شخص ليس هو من يبيع هذا المنتج فى الحقيقة. إن المنافسة تفرض التصرف بحكمة. وهى تدفع إلى الأمام بضعة أفراد أكثر عقلانية يرغمون الآخرين على الانخراط فى الصراع. وهكذا دواليك على المتوال نفسه. وقد ذهب المدافعون الإيديولوجيون الحاليون عن الرأسمالية بعيداً فى مدح المنافسة "الحرّة"، وازداد عددهم أضعافاً مضاعفة.

إن المنافسة فى الواقع لا يجمعها إلا القليل جداً مع هذه الصورة البهيجة. ليس ثمة من يسعى إلى المنافسة عامداً متعمداً. فالمنافسة ليست وسيلة إحسان إلى البشرية. إنها صراع من أجل الوجود. ما يفرضها هو أن عدداً كبيراً من الناس ليس أمامهم فرصة للعيش إلا بإنتاج الأشياء والخدمات، أى هو فائض عدد المنتجين وكميات الإنتاج بالمقارنة مع قدرة المستهلكين الشرائية. إن هدف المنافسة هو إزاحة

المنافسين والقضاء على المنافسة ذاتها في نهاية المطاف. والمنافسة في الواقع هي دائماً واحدة من مجمل وسائل الصراع التي يدخل في عدادها الغش، والعنف، والإعلان، والتشهير بالخصوم، والعرقلة المتبادلة (الاستباق)، والجرائم.

إن مجال المنافسة الحقيقي هو مملكة الإجرام. وتخبرنا الصحف على الدوام عن رشاوى تقدمها الشركات الخاصة لموظفي الدولة بغية الفوز بالعقود. ففي عام ١٩٩٢ مثلاً ضجّت إيطاليا بفضيحة كبرى بعد انكشاف عمليات احتيال إجرامية بين البنزنس ورجال السياسة، وتبين أن عدد المتورطين يبلغ المئات، بينهم بعض كبار سياسة البلد. ولكن كم من الحالات يبقى طي الكتمان؟! إن هذا السلوك عنصر من عناصر السوق والمنافسة "الحرّة"! وقد جرت في ألمانيا والنمسا محاكمات شملت أعداداً كبيرة من المتهمين بعمليات غير قانونية قامت بها شركات كانت تشتغل ببيع الأسلحة وإنشاء المصانع الكيميائية في بلدان عربية. وهذا أيضاً عنصر من عناصر السوق الواقعية القائمة على المنافسة "الحرّة"! وتفيد المصادر الصحفية الألمانية<sup>(٥٧)</sup> بأن ألمانيا "أنتجت" عشرة ملايين طن من النفايات السامة نُقل ثلثها إلى خارج البلاد. ونشأ على هذا الأساس بزنس خاص مربح إلى درجة غير عادية. إذ تنظر القوانين إلى هذه النفايات السامة على أنها سلع عادية! فلنتذكّر - أيها القارئ - ما كتبه معبود الفكر الاجتماعي الغربي هايك عن المنافسة "الحرّة"! إن هذه الواقعة المتعلقة بتسميم الكرة الأرضية مثال يبيّن حقيقتها. وهذه الحالات لا عدّ ولا حصر لها، ولا تخرج إلى العلن إلا في حالات استثنائية. إن المنافسة "الحرّة" لا تخدم عباقرة الخير بقدر ما تخدم عباقرة الشر.

أما المنافسة الحرّة فعلاً فلا يشارك فيها ذاك العدد الكبير من المنشآت ورجال الأعمال. وفي كل المجالات تعود الكلمة الحسم لأقوى المشاركين الذين يحققون النجاح

---

(٥٧) مثلاً: 1992. 40. "TV. Horen und Sehen", No

بفضل إعادة توظيف قدرة السكان الشرائية لمصلحتهم. أما الأغلبية فيعملون خارج ظروف المنافسة الحرة. إن الجدوى الاقتصادية العالية في المجتمع الغربي وليدة عدد كبير من العوامل التي ينبغي أن نبرز من بينها بالدرجة الأولى دكتاتورية العمل، وتخطيط عمل المنشأة، والشمولية النقدية، وديكتاتورية البنوك، وسياسة الدولة ورقابتها، والتقدم العلمي التقني. أما المنافسة "الحرة" فلها مكان آخر ليس في الصدارة بالتأكيد.

عادة يضربون المثل برجال الأعمال الناجحين، وذلك دعاية للمنافسة "الحرة"، فيما يغمضون أعينهم طبعاً عما يجري لملايين رجال الأعمال الذين لا يصيبون نجاحاً. وتبقى في الظل تماماً حقيقة أن الناجحين، كقاعدة عامة، يحققون نتائج كبيرة بفضل ظروف استثنائية تتيح لهم أن يكونوا خارج مجال المنافسة، وليس بفضل منافسة حرةٍ ما.

## العرض والطلب

تبدو السوق الغربية، كما يصورها دعاة اقتصاد السوق، وكأنها مكان مزدحم يتسكع فيه بائعون عابرون يعرضون بضائعهم وخدماتهم، ومستهلكون عابرون يبحثون عما يحتاجون إليه، ويساومون بشأن السعر. ورجال الأعمال، على حد زعمهم، يكتشفون في هذا الزحام ما ينبغي إنتاجه لتلبية حاجات المستهلكين، وبأية أسعار. غير أن الحقيقة شيء مختلف عن ذلك اختلافاً كلياً. فالسوق الحقيقية هي تنظيم معقد لنمط حياة ملايين الناس. ويمكن أن نجد في هذا التنظيم كل ما هو ممكن منطقياً من أشكال العلاقات بين المنتجين والمستهلكين. وفي السوق يحفز الطلب الإنتاج والعرض. كما قد يُنتج أيضاً شيء ما، بغض النظر عن الاحتياجات وخارجها، ثم يُعرض على المستهلكين، ويدخل في دائرة احتياجاتهم. ويحدث أيضاً أن تُفرض على المستهلكين سلعة أو خدمة معينة، ثم يكونون مرغمين على قبولها. ولكن هذا التداخل - المعقد



والمتغير- بين المصالح والعلاقات المتبادلة تكشف في بمنتهى الوضوح نزعة لا تنسجم مع الصورة الإيديولوجية - الدعائية المرسومة للسوق، ألا وهى الدور المهيمن الذى يلعبه العرض.

لقد ظلَّ الطلب وسيبقى محافظاً على دوره كعامل مهيمن فى جزء من مجال الاستهلاك يتضمَّن حاجات الناس الطبيعية والتقليدية، أى حاجاتهم الأساسية. أمَّا ذلك الجزء من الحاجات الذى يخرج عن إطار الحاجات الأساسية، فإن العرض استولى بقوة على الدور المهيمن فيه. وهذا الجزء من الحاجات تحديداً هو ما شغل المكان الأكثر أهمية من الناحية الاقتصادية فى حياة الناس الغربيين.

وتجدر الإشارة إلى أن الرأسمالية قامت على أساس استيراد وإنتاج مواد وخدمات تقع خارج إطار الحاجات الأساسية. والقِطاع الأكثر دينامية بين قطاعات الرأسمالية الآن أيضاً هو عرض السلع والخدمات ما فوق العادية (الجديدة)، وتلك التى دخلت حديثاً مجال الحاجات العادية. فالرأسمالية تبتكر حاجات جديدة ووسائل جديدة لتلبية تلك الحاجات. وهى تسعى لتحقيق الربح عن طريق عرض شىء جديد، مبتكر. ومن هنا بالضبط يأتى السعى الهوسى نحو التجديد، وهو سعى قلماً يكون عقلانياً. إن هيمنة العرض على الطلب شىء من طبيعة الرأسمالية.

ويتحكَّم العرض الآن بطلب الناس وحاجاتهم أكثر ممَّا هو العكس بكثير. فالطائرات، والسيارات، وأجهزة التلفزة، والفيديو، والحاسوب، والفاكسات، وآلاف كثيرة من مواد الاستهلاك والخدمات... لم تكن حاجات متأصلة عند الناس منذ البدء. لقد اخترعت هذه الأشياء بشكل مصطنع، ثم فرضت على الناس "من فوق"، أى فرضها الإنتاج. فالغربيون يعيشون فى عالم من السلع والخدمات التى اخترعتها مجموعة صغيرة من الأشخاص فى بضعة العقود الأخيرة، وهى تعرض على شرائح واسعة من السكان بوصفها ثمرة من ثمار الحضارة الجديدة. لقد سخرَ البنزنس الكبير لخدمته الدعاية الجبارة ووسائل الإعلام الجماهيرى، فحوَّل السوق إلى أداة فى يده من أجل

التأثير القسرى على المستهلكين، ولم يحوّلها مطلقاً إلى ملكوت للحرية. وهذا ما ينطبق انطباقاً تاماً على مجال الإنتاج "الروحى"، أى على الثقافة. بل إن ديكتاتورية السوق تتجسّد فى الثقافة بشكل أكثر وضوحاً وسفوراً.

إن تعميم استخدام الحاسوب فى حياة البشر هو المثال الكلاسيكى الذى يبين كيف يقوم العرض بتشكيل الطلب. فلم يكن الناس يعرفون الحاسوب حتى وقت قريب، ثم فى عام ١٩٩١ أصبح هناك أكثر من ١٠٠ مليون حاسوب قيد الاستخدام الشخصى. وكذلك الأمر بالنسبة للإنارة الكهربائية، والراديو، والتلفزة، والهاتف، والسيارات، والطائرات. إن معظم مواد الاستهلاك التى يمكن أن نراها فى حياة الغربيين اليومية ينتمى إلى هذه الفئة بالذات.

ثم إن الحديث عن حرية تشكّل الأسعار فى السوق ليس إلا خرافة إيديولوجية. فأننا لم أر، طيلة ١٥ عاماً أمضيتها فى الغرب حالة واحدة مارس فيها المشترون تأثيراً على أسعار السلع والخدمات، إذا ما استثنينا أسواق أيام الأحد، والبازارات فى أماكن الاستجمام، وكذلك تنزيلات الأسعار الموسمية. أما كتلة السلع والخدمات الأساسية فيحدّد أسعارها بائعوها، دون أى مجال للمساومة. ويجرى حساب الأسعار من قبل اختصاصيين يأخذون بعين الاعتبار كثيراً من العوامل، وكذلك عن طريق التجربة. صحيح أنتى لست على معرفة بدينامية أسعار مختلف أصناف السلع والخدمات فى بلدان الغرب. ولكننى أستطيع الجزم بأن النزعة التى كانت غالبية خلال سنوات إقامتى فى الغرب هى غلاء المعيشة العام، ناهيك عن التضخم. لقد تواصل ارتفاع أسعار السكن، والسيارات، ومواد الاستهلاك المنزلى، والمواد الغذائية، والملابس، والكتب، والصحف، والنقل، وانخفضت أسعار بعض السلع والخدمات لهذه الأسباب أو تلك (أسعار الحاسوب، مثلاً)، ولكن ذلك لم يؤثر بأى قدر على غلاء المعيشة العام، بغض النظر عن الإمكانيات غير المحدودة لإنتاج السلع والخدمات من ناحية الكم. وكان أرباب العمل يُقدّمون على تقليص الإنتاج وزيادة الأسعار، وهو ما يتناقض بكل جلاء مع دوغما المدافعين عن السوق "الحرّة".

لا شك في أن الطلب يؤثر على العرض، ولكن بمقدارٍ تافهٍ قياساً إلى ما يصوره المدافعون عن السوق. إلا أن الطلب في واقع الأمر يؤثر بدرجة أكبر بكثير على تشويش الوضع في مجال إنتاج السلع والخدمات وعرضها. على أن المستهلكين عندما يقومون بخيار معين في السوق إنما يؤثرون على المنتجين لا بمعنى المنفعة الذاتية المباشرة لهم كمستهلكين، بل لمنفعة غيرهم.

## محدودية السوق

ليس كل ما هو موجود في اقتصاد الغرب يندرج في مجال السوق، فالسوق لا تحيط بكل شيء. إذ لا يندرج في مجال السوق قطاع الخدمات العامة (المشافي والمدارس والنقل... إلخ)، وجزء مهم من الصناعات الحربية، وكل ما له أهمية حيوية بالنسبة للبلاد، ولكنه غير مربح من وجهة نظر السوق، كفروع الصناعة، والمشاريع الحكومية الكبيرة... وسوى ذلك الكثير. وبين ما كان يُظن أنه مجال طبيعي من مجالات السوق، هناك جزء مستقر رسخته التجربة على مدى العديد من السنين. وفيه لا يجازف المستثمرون بشيء يذكر، فهم يعرفون زبائنهم سلفاً، والمنافسة مستبعدة عملياً، ومن السخف أن يتحدث المرء عن أي قائمة أسعار يحددها العرض والطلب. وبهذا المعنى يكون لرجال الأعمال سوقهم المحددة لتصريف إنتاجهم، أي يكون لديهم مستهلكون محدّدون. والسوق بالمعنى المعين أعلاه (مع وجود المنافسة والعرض والطلب المتحركين) لا تشمل إلا الجزء الديناميكي من مجال العلاقة بين المنتج والمستهلك. وهذا الجزء الديناميكي يقع تحت تأثير عوامل عديدة لا علاقة لها بالسوق، بينها العادات والتقاليد والرأي العام والسياسة ووسائل الإعلام.

يظهر في حياة هذا البلد أو ذاك كثير من المشكلات التي ليس بمقدور السوق بحد ذاتها أن تحلها، ولا يمكن حلها إلا بقوى الدولة<sup>(٥٨)</sup> وقد أصرّ قسم مهم من المنظرين

---

(58) Peter Czada, Michael Tolksdorf, Alparslan Yenil, Wirtschaftspolitik. Opiaden, 1987.

والساسة، فى سنوات ما بعد الحرب، على ضرورة وجود اقتصاد اجتماعى، أى اقتصاد مقيد ومراقب من قبل المجتمع. وقالوا بأن التعويض عن عيوب السوق يجب أن يكون بالتشديد على دور الدولة فى الاقتصاد. ثم بدأت فى العقود الأخيرة حركة فكرية عكسية باتجاه تقليص دور الدولة، وإعطاء السوق مزيداً من الحرية<sup>(59)</sup>، إلا أن الدولة كانت قد احتلت موقعاً وطيدياً فى الاقتصاد. وسأعود إلى هذا الموضوع لاحقاً.

والعامل الآخر الذى يحد من حرية السوق هو مركزة رءوس الأموال ورسوخ أقدام المصانع والشركات. على أن هذه النزعة لا تضعف بل تشتد. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، مثلاً، كانت أكبر ٢٠٠ شركة تسيطر على ٤٠٪ من الإنتاج القومى، وفى العام ١٩٧٠ أصبحت تسيطر على ٦٠٪ منه. وقد بلغت رءوس أموال شركة "جنرال موتورز" الأمريكية ٢٨٣ مليار دولار فى العام ١٩٨٥، وكان يعمل فيها ٨٠٠ ألف عامل مأجور. وفى شركة IBM كان يعمل ٤٠٠ ألف شخص. وفى شركة فورد ٣٦٩ ألف شخص. وكان فى ألمانيا الغربية ٢٩٤ شركة كبرى (اتحاد احتكارى) عام ١٩٧٤، و ٨٠٢ فى العام ١٩٨٦، فالشركات المتحدة التى تبلغ رءوس أموالها مليارات، ولديها عشرات الآلاف من العاملين المأجورين، وملاك إدارى ضخم، هى التى تهمين واقعياً على السوق، وتحدد كميات الإنتاج والأسعار. فيما تتحول السوق إلى أداة تنسيق بين مختلف اتحادات الشركات، ويسيطر البنزنس الكبير على أهم الأسواق. وهذا شاهد على صدق التأكيد بأن زمن المنافسة قد ولى<sup>(60)</sup>.

وتُضاف إلى مركزة رءوس الأموال ورسوخ قدم الإنتاج فى إطار بلدان معينة عملياتٌ مماثلة على النطاق الدولى. كما أن طغيان سلطة البنزنس الفائق الضخامة

---

(59) Arthur Seldom. Capitalism. Oxford, 1990.

(60) Jorg Huffschmid. Die Politik; der Kpitals Konzentration und Wirtschaftspolitik in der undsrepublik. Suhrkamp Verlag, 1969. B

يقوم على أساس استخدام جميع الإمكانيات العلمية - التقنية، والإمكانيات المالية والمعلوماتية الحديثة.

وتعمل البنوك في هذا الاتجاه ذاته، فتسيطر على المنشآت الخاصة عن طريق جيازة أسهمها، وتتحكم بأصوات زبائنها الذين يودعون أسهمهم فيها. ذلك أن البنوك معنية بضمان استرداد قروضها التي تمنحها للمنشآت، بينما تشكل حرية المنافسة في السوق خطراً عليها. ومن الطبيعي أن تتخذ البنوك تدابير معينة للحد من حرية السوق.

### المعجزة الألمانية

كثيراً ما يستشهد دعاة حرية السوق "بالمعجزة الألمانية" كحجة يعدونها دافعة لصالح نظريتهم. وبالفعل، كان في الإمكان أن يرى المرء، بالشكل المختبرى المحض، آليات الغربية في تاريخ ألمانيا الغربية ما بعد الحرب العالمية الثانية، مثلما كان بالإمكان أن يرى آليات الشيوعية في ألمانيا الشرقية. لقد بدأوا في ألمانيا الغربية من الصفر تقريباً، ولكن كانت لديهم نماذج يهتدون بها تتمثل في الغربية بشكلها الأمريكي<sup>(٦١)</sup>، إذ لم تحدث "المعجزة الألمانية" بفضل السوق هكذا ببساطة، بل بفضل توظيف رؤوس الأموال الأمريكية (مشروع مارشال)، وبفضل اقتصاد السوق الاجتماعية، أى بفضل الاقتصاد المراقب والموجه من قبل الدولة. ويعود فضل التأسيس النظرى لهذا الاقتصاد إلى كينيس، وفي ألمانيا إلى ميولر - آرماك. أما التطبيق العملى لهذه النظرية فقد تم تحت قيادة لودفيج إرهارد. وغالبا ما يتناسى البعض، أو يذكرون دونما رغبة، أنه كان لهؤلاء اثنان من الأسلاف، هما: منظر السياسة الاقتصادية الهنترية ك. شيلر، فى مجال النظرية، وهنتر نفسه، فى مجال التطبيق.

(٦١) مثلاً: Bernard Keller. Wirtschaftspolitik in der Bundesrepublik Deutschland. Berlin/München, 1980.

## التخطيط

يقارنون عادة بين اقتصاد السوق فى الغرب واقتصاد الخطط الخمسية فى المجتمع الشيوعى. غير أن هذه المقارنة تفتقر لأى مغزى علمى. فهى مقارنة إيديولوجية دعائية، لأنها تنظر إلى الاقتصاد المبرمج وإلى اقتصاد السوق فى شكل متحيز مشوه.

إن برمجة عمل بعض المنشآت، وفروع الإنتاج، واقتصاد البلد عمومًا لا تنطوى بحد ذاتها على ما هو سيئ. فالقضية ليست فى التخطيط بحد ذاته، بل فى الشكل الذى يتخذه التخطيط فى هذا المجتمع أو ذاك، وفى الدور الذى يلعبه والعواقب التى يفضى إليها. فحتى عهد قريب (الستينات والسبعينات من القرن العشرين) كان العديد من المؤلفين الغربيين ينظرون إلى التخطيط نظرة أخرى تختلف عن نظرتهم الآن<sup>(٦٢)</sup>، وهاكم، على سبيل المثال، ما جاء فى كتاب المؤلف الألمانى يورج هوفشميد<sup>(٦٣)</sup> الذى لا يمكن اتهامه بالتعاطف مع الشيوعية (أو الاشتراكية): لقد بلغ تطور الرأسمالية مستوى يتطلب أشكالاً تنظيمية جديدة. فالأشكال القديمة (الملكية الخاصة والمنافسة) أصبحت عائقًا. ولم يعد العمل الحر ينبى وفقًا لمتطلبات المنافسة. لقد راح دور الملكية الخاصة يتراجع باستمرار أمام الكيانات الرأسمالية الكبيرة. وثمة حاجة إذن لتخطيط يخدم مصالح رأس المال، أى لتخطيط رأسمالى خاص. وهذا ليس تبنياً لشكل اقتصادى لا رأسمالى، إنه يخدم مصلحة أولئك الذين كانوا يعملون فى إطار المنافسة سابقًا. لقد بدأ هذا الانتقال من المنافسة إلى الخطة.

كانت هذه الأفكار التى أوردناها أعلاه تنضج وتعبّر عن نفسها عندما كانت ألمانيا الغربية تشهد أزمة اقتصادية أدّى إليها اقتصاد السوق تحديداً، وهكذا نرى أن بعض

---

(62) J.k.Galbraith. Die moderne indusriegesellschaft. Munchen, 1967.

(٦٣) انظر الهامش (٥٦).



التطرف لدى أنصار الرأسمالية يمكن تفسيره جزئياً بالقلق على مصير الرأسمالية. ولكن هذا القلق بالذات هو الذى أرغمهم على تنحية الاعتبارات الإيديولوجية والدعائية جانباً، وقول الحقيقة ولو جزئياً. ففي الثمانينيات، وجرأء تشديد هجوم الغرب على العالم الشيوعى الذى كان يسير نحو الهزيمة فى "الحرب الباردة"، طرأ تغير على التوجه الإيديولوجى فى الغرب جعله يسير باتجاه معاكس. لقد ربط دعائه بين التخطيط والشيوعية ربطاً وثيقاً. وأخذوا يمجّدون السوق والمنافسة كشىء نقيض للتخطيط، يختص به الغرب دون غيره.

لكى يكون ثمة معنى علمى للمقارنة بين الغربية والشيوعية من ناحية التخطيط، ينبغى تحديد حجم الظاهرة التى يجرى تخطيطها فى اقتصاد كل من المجتمعين، بمعزل عن أية مؤسسات، وهيئات، ومنشآت، وأشخاص يمارسون عملية التخطيط. فنسبة الظواهر الخاضعة للتخطيط فى الاقتصاد الغربى لا تقل، حسب تقديراتى، عن نسبتها فى الاقتصاد الشيوعى. والأهمية التى تتصف بها هذه الظواهر فى المجتمع الغربى لا تقل عمّا هى عليه فى المجتمع الشيوعى. أمّا توزيع الوظائف والعمليات التخطيطية على مختلف الفروع، والمجالات، والمؤسسات، والهيئات، فمسألة أخرى. ذلك أن الاختلاف بين المجتمعين من هذه الناحية واضح للعيان، وخاصة على مستوى مؤسسات الدولة ومنشآتها. إن هذين الجانبين (حجم ما يخضع للتخطيط، وتوزيع وظائف التخطيط) كقاعدة عامة، لا يختلفان، حيث تعطى الصدارة للجانب الثانى، بينما يصورون التخطيط وكأنه صفة للاقتصاد الشيوعى حصراً، وهذا غير صحيح، أو لا معنى له.

عندما ندرس الاقتصاد من ناحية حجم الظواهر الخاضعة للتخطيط فيه، يمكننا أن نسجّل أن الاقتصاد الغربى اقتصاد مخطّط بدرجة عالية جداً لا تكف عن التصاعد. وهذه نتيجة لا مناص منها، نظراً لتعدد الجانب العملى فى المجتمع. وأكثر من ذلك، وفقاً لوجهة نظر توزيع وظائف التخطيط، ثمة ميل قوى باتجاه التشابه مع الاقتصاد الشيوعى. إن دور الدولة المتزايد قوةً فى الاقتصاد (سياسة الضرائب، القروض،

طلبيات الدولة، توظيف رءوس الأموال) وتوزيع الميزانية الهائلة يمكن مقارنته تماماً بالدور التخطيطي الذي كانت تلعبه الدولة الشيوعية.

## الدولة والسوق

يدور داخل الإيديولوجيا الغربية، على الأقل ابتداءً من أربعينيات القرن الماضي، صراع بين اتجاهين: اتجاه أنصار الدولة، واتجاه أنصار السوق. وأبرز شخصيتين في هذا المجال هما كينيس وهايك. على أن كلا الاتجاهين يعترفان بدور السوق ودور الدولة، إلا أن كلا منهما يؤكد على واحد من الدورين فقط. ومن هنا، عملياً، يأتي التناقض بين الدورين.

أعتقد أن هذا التناقض يفتقر لأي معنى علمي. فدور الدولة في أداء السوق معروف وواضح للعيان، والقضية لا تكمن في كون مساهمة الدولة في عمل السوق كبيرة جداً أو صغيرة جداً، بل في أن الدولة ليست مجرد حارس للسوق ومنظم لها (إلى حد ما)، وفي أنها عامل من عوامل الاقتصاد ومن أكبر المساهمين في السوق. وهناك، في العادة تشديد على جانب واحد من جوانب الدولة، أي على السلطة وإدارة المجتمع ككل، ولكن الدولة هي - في الوقت نفسه - منشأة عملاقة يتلخص عملها في تحصيل موارد مالية تضمن بقاءها، وهي موارد لـ ١٠ - ١٥٪ من المواطنين العاملين وعائلاتهم.

تملك الدولة مبالغ مالية طائلة، وهي أكبر مشترٍ في السوق، إذ توزع طلبياتها على عدد لا حصر له من الشركات، وتقدم لها القروض. أما تشكُّل الأسواق القومية والسوق العالمية فيحوّل، بالضرورة، سلطة الدولة في "الدول القومية" إلى مشاركة في السوق، جنباً إلى جنب مع الشركات الضخمة والبنوك العملاقة.

وبخصوص ظاهرة ديون الدولة أشير إلى أن ديون ألمانيا الغربية في عام ١٩٥٠ بلغت ١٨ مليار مارك، وفي عام ١٩٩٢ بلغت ١٣٠٠ مليار مارك، وفي العام ١٩٩٥ بلغت

٢٠٠٠ مليار مارك، وفي إيطاليا بلغت ديون الدولة ٢٠٠٠ مليار مارك عام ١٩٩١، أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد حطمت كل الأرقام القياسية في هذا المجال، إذ فاقت ديون الدولة فيها ٤٠٠٠ مليار دولار عام ١٩٩٢ .

إن ديون الدولة ليست ظاهرة عَرَضِيَّة، وهي ليست نتيجة لسياسة سيئة، وإن كان لهذا العامل دور ما. إنها أمر لا مفرَّ منه في ظروف الغريبية، أيًا كانت السياسة المنتهجة. وليس بوسع أي عبقرى سياسى أن يتخلص منها، لأنها ظاهرة اقتصادية. ففي عام ١٩٨٩ دفعت الولايات المتحدة ٢٠٪ من دخلها القومى فوائد لديون الدولة. لمن تذهب هذه المدفوعات؟ وعلى حساب من يتم تسديدها إذا كانت الدولة لا تنتج شيئاً؟ هيات أن نجد فى وسائل الإعلام والكتب التى بين أيدينا جواباً على مثل هذه الأسئلة ضمن تقارير تفصيلية صادقة. ولن نجد تفسيراً مقنعاً علمياً لهذه الظاهرة. ولكن ثمة أمراً واضحاً، وهو أن الدولة تقوم، على هذا النحو، بإعادة توزيع الموارد بما ينسجم مع القوانين الاقتصادية الموضوعية التى تحقق فى هذه الصيغة نوعاً من "العدالة" الاجتماعية. ومع ذلك، فإن تصاعد مديونية الدولة هو دليل على أن المجتمع يشهد تزايداً فى اختلال التناسب بين مجالاته وأجزائه، وهذا جزء من مجمل شروط الأزمة الوشكة وأسبابها.

أعتقد أنه جاء الوقت الذى ينبغى ألا يقتصر الحديث فيه على الاقتصاد والسياسة بوصفهما عاملين من العوامل التى يقوم عليها المجتمع الغربى مترابطين ولكنهما مختلفان، بل يجب أن يدور الحديث حول مركب سياسى اقتصادى، أو اقتصادى سياسى واحد. ما أعنيه بهذا القول ليس اندماج الظاهرتين، وإنما تشكُّل مستوى جديد فى بنية المجتمع الغربى ناجم عن تحول الاقتصاد إلى اقتصاد متعدد القوميات وكونى. وهذا المستوى لا يزال حتى الآن مندمجاً مع الاقتصاد والسياسة بمعناهما القديم، ولم يبتكر لنفسه الأشكال المناسبة بعد. إنها قضية المستقبل. ولكن الأمور تسير فى هذا الاتجاه. وسأعود إلى هذه المسألة فيما بعد.

## إدارة الاقتصاد

تطرقنا أعلاه لمشكلة الإدارة. وأضيف هنا بعض الآراء المتعلقة بهذا الموضوع.

ينظر بعضهم إلى اقتصاد السوق في الغرب على أنه نقيض الاقتصاد الشيوعي، بوصف الاقتصاد الشيوعي اقتصاداً أوامراً، يوجه ويُدَار من "فوق". على أن هذا التناقض إيديولوجي دعائي أيضاً. ذلك أنه ما من مجتمع بلغ حدّاً معيناً من الضخامة والتعقيد إلا ويُدَار فيه الاقتصاد بهذا الشكل أو ذاك، بل و"من فوق"، لأن الإدارة، من حيث مغزى المفهوم ذاته، هي إدارة، وتوجيه "من فوق".

في حقبة الرأسمالية "القديمة" (المذرة) كان ما تتألف منه الرأسمالية ذات قابلية للتوجيه منخفضة المستوى، ويتسبب الإيديولوجيون والمنظرون الذين اقتلعوا الرأسمالية من بيئتها تجريدياً بخلق وهم يصور الاقتصاد الرأسمالي وكأنه ملكوت للفوضى أصلاً. أما في عصر الرأسمالية "الجديدة" ("الشاملة") فأصبحت هذه الرأسمالية هي الاقتصاد كله تقريباً (عملياً كلاً) في المجتمع الغربي. وبشموليتها هذه فقدت حقها الاستثنائي في أن تكون فوضوية، ضعيفة القابلية للتوجيه، أو عصية على التوجيه تماماً. وتحوّلت "اليد الخفية" إلى يدٍ منظورة تماماً، وتمارس التوجيه بشكل محسوس.

ثمة أشكال مختلفة للإدارة والتوجيه. ففي المجتمع السوفيتي كان للاقتصاد إدارة واحدة، مركزية، مباشرة، وأوامرية. غير أنه ينبغي ألا نبالغ بقوة تلك الإدارة وتعالها. فهي إدارة تعرضت للتشويه المتحيز على أيدي الطرفين (أنصارها ومنتقديها). ذلك أن الخروج على القواعد والمعايير المجردة التي وضعها هذا النوع من نظام الإدارة كان في الواقع كبيراً جداً، إذ كان جزء هائل من الاقتصاد السوفيتي خارج مجال نظام الإدارة الحكومية، وينطبق ها الكلام، مثلاً، على اقتصاد الظل. كما ينطبق على "العمل الخاص" الضئيل الشأن كحالة منفردة، والهائل بكتلته الإجمالية، الذي كان شبه شرعي، أو غير شرعي البتة من الناحية القانونية.

إن اقتصاد المجتمع الغربي المعاصر يختلف عن الاقتصاد السوفيتي من ناحية الإدارة، ولكن ذلك لا يعنى أنه غير موجه إطلاقاً. أولاً، لأن نسبة ما يقوم به الناس من أعمال موجهة "من فوق" فى مجال الاقتصاد هناك ليست أقل مما هى فى المجتمع الشيوعى. ثانياً، لوجود جملة من المؤسسات، والمنظمات، والأشخاص فى الغرب تؤدى مجتمعة وظائف مماثلة لوظائف السلطة العليا فى نظام إدارة الاقتصاد الشيوعى. ويتضمن مجمع الإدارة فى الغرب المؤسسات الحكومية، ومجالس إدارات البنوك، وأصحاب المشاريع، والخبراء وسواهم. على أن هؤلاء لا يوجهون الاقتصاد بطرق أوامرية مباشرة، بل بطريقة غير مباشرة، أى عن طريق سنّ قوانين معينة، والتلاعب بالمبالغ النقدية، ولكن يجب أن يكون هناك من يطبق تلك القوانين، وهذا يتطلب طرقاً ومراقبة أوامرية، وهكذا، فإن عنصراً من عناصر النظام الأوامرى موجود فى الاقتصاد الغربى أيضاً، ويميل نحو تعزيز موقعه.

### مشكلة الفعالية

هيات أن نجد فى العالم ولو بضعة أشخاص يجادلون فى الرأى القائل بأن الاقتصاد الغربى هو الأكثر فعالية فى العالم، وفى تاريخ البشرية عموماً. ولكن ماذا يعنى المستوى العالى لفعالية الاقتصاد؟ هل هو المستوى التقنى؟ أم الاكتشافات والاختراعات؟ أم إنتاج أشياء جيدة، وبكميات كبيرة؟ أم إنتاجية العمل العالىة؟ أم التنظيم العقلانى؟ إذا ما دققنا فى ما يكتب ويقال فى الغرب حول هذا الموضوع، أمكننا أن نلاحظ موقفاً أحادى الجانب، متحيزاً فى فهم فعالية الاقتصاد، وفى انتقاء معايير تقييمه التى تتحول إلى تشويه إيديولوجى وتزييف. وهذا ما يتجلى على نحو قوى جداً فى الآونة الأخيرة، بعد أن انتهت "الحرب الباردة" لصالح الغرب. فقد ترافق كيل المديح لاقتصاد الغرب بالحط من شأن اقتصاد البلدان الشيوعية السابقة. إننى لا أنوى هنا أن أتخذ موقف المدافع عن اقتصاد الشيوعية والمنتقد لاقتصاد الغرب. كل ما أريد أن أقوله، بلغة مجازية، ما يلى: عندما ينطلق المرء من أن الطيور تتفوق على

الأسماك بالطيران، ليثبت أن الطيور تتفوق على الأسماك بالسباحة أيضاً، فإنه يصل إلى تصور كاذب عن الأسماك وعن الطيور معاً.

عندما نتحدث عن فعالية الاقتصاد الغربى يجب أن نأخذ بالحسبان أن مقارنة المسألة تختلف باختلاف المستويات، سواء على مستوى منشآت بمفردها، أو على مستوى فروع الاقتصاد، أو اقتصاد البلد عامة، أو العالم الغربى بأسره. وبعد ذلك يجب التمييز بين الاقتصاد المجرى والاقتصاد الحقيقى. فعندما يتعلق الأمر بالفعالية المجرىة لا يأخذون بعين الاعتبار سوى بعض مؤشرات الاقتصاد، بل وفى أكثر نماذجها تطوراً، أما عند الحديث عن الفعالية الواقعية فيأخذون بعين الاعتبار مجمل مؤشرات الاقتصاد المهمة، بل وجميع العوامل الكثيرة الموجودة فعلياً.

بعد ذلك ينبغى التمييز بين طريقتين فى مقارنة الاقتصاد، هما: المقاربة الاقتصادية، والمقاربة الاجتماعية. وفى الطريقة الأولى يُنظر إلى الاقتصاد بحد ذاته، أما فى الحالة الثانية فيُنظر إلى الاقتصاد من ناحية المسائل الاجتماعية (ظروف العمل، العمالة، ضمانات الحياة... إلخ). وأخيراً، يجب التمييز بين فعالية الاقتصاد وفعالية المجتمع الاقتصادية. إذ لا بدّ فى الحالة الثانية من تقييم إجمالى للاقتصاد لا يقتصر على أخذ المعايير الاقتصادية والاجتماعية بالحسبان، بل ويتعداها إلى عوامل من نوع آخر تتعلق بالمجتمع ككل (القدرة على تحمل الكوارث الطبيعية والأزمات، وشنّ الحروب... إلخ). وباختصار، فإن مسألة فعالية الاقتصاد والمجتمع هى فى الواقع، من وجهة نظر الاقتصاد، جملة معقدة من المشكلات المتنوعة، لا تقبل حلاً واحداً ونهائياً لتلك المشكلات.

فلنأخذ المثال التالى. يعمل فى الزراعة فى البلدان الغربية ما لا يزيد عن ٣-٦٪ من مجمل العاملين. ويصور الإيديولوجيون ذلك على أنه مؤشر لا يقبل الجدل يُثبت ارتفاع إنتاجية العمل. ويزعمون بأن هذه النسبة الصغيرة كافية لإنتاج ما يلبي حاجات البلاد من المنتجات الزراعية. غير أن ذلك غير صحيح عملياً، لأن البلاد قد تستورد أكثر



من نصف هذه المنتجات من بلدان أخرى، فيجب إذن أن نأخذ بالحسبان من يعملون في الزراعة في البلدان المصدرة أيضاً. وعلاوة على ذلك يجب أن نأخذ بالحسبان ليس فقط من يعملون مباشرة في إنتاج المواد الغذائية، بل وأولئك الذين يستحيل عموماً بدونهم إنتاج المنتجات الزراعية وتصريفها، أى أنه يجب أن نسلك طريقاً آخر في مقارنة هذه المشكلة، وفي تصنيف فئات المجتمع، وفي عملية القياس.

يضافُ إلى ذلك أن هذه النسبة (٣ - ٦٪) يمكن فهمها على نحو مغاير تماماً، أى أن ٣ - ٦٪ من العاملين يستطيعون إعالة أنفسهم من العمل في الزراعة. وهكذا، فإن هذا المثال يبيِّن بوضوح الفرق بين المقاربتين، بين طريقتي النظر إلى فعالية الاقتصاد: المقاربة الغربية، والمقاربة الشيوعية. فمبدأ المقاربة الأولى يقوم على تقليص عدد العاملين في عمل ما إلى الحد الأدنى، ورفع وتيرة العمل إلى الحد الأعلى. أما مبدأ المقاربة الثانية فيقوم على إتاحة الفرصة لأكبر عدد ممكن من الناس كي يعيشوا من هذا العمل، وتخفيف وطأة ظروف عملهم. على أن الاقتصاد الشيوعي أكثر فاعلية من ناحية حل المشاكل الاجتماعية، ولا يتفوق الاقتصاد الغربي عليه إلا من الناحية الاقتصادية المحضة.

تقاس فعالية المجتمع الاقتصادية، كما هو مألوف، بقيمة إجمالي الإنتاج في المجتمع. وتعتبر نسبة نمو إجمالي الإنتاج مؤشراً على اقتصاد طبيعي بل ومزدهر. وقد أشار العديد من الخبراء إلى سخافة مثل هذا المعيار وعدم انسجامه مع واقع الحال<sup>(٦٤)</sup>. إذ إن هذه المقاربة لا تأخذ بالحسبان عوامل أخرى أكثر جوهرية، كالتضخم، وازدياد الضرائب، وغلاء المعيشة، وازدياد البطالة، وتلوث البيئة، والتغيرات البنوية في الاقتصاد... وكثير غيرها.

---

(64) Stephan Schmidheiny. Kurawechel. Munchen, 1992.

باعتقاد المعايير المتعارف عليها لتقييم الاقتصاد، يستطيع المنظرون تصوير الاقتصاد بالصورة التي يشاءون، وذلك تبعاً لما هو مرغوب ومطلوب اجتماعياً، وسياسياً، وإيديولوجياً. وللتذكير فقط، أشير إلى أن معدل النمو السنوي للناج القومي في الصين الشيوعية عام ١٩٩٢ بلغ ١٢٪، بينما كان في ألمانيا الغربية - وهي بلد طليعى اقتصادياً في الغرب - حوالى الصفر. أما معدلات النمو في الاتحاد السوفيتى فقد كانت في زمن معين تثير حالة من الذعر في الغرب.

## الترهل والطفيلية

لا يقصر الاقتصاد الغربى على إنتاج المواد الضرورية للحياة، بل وينتج أيضاً فائضاً من المنتجات التي يستطيع الناس الاستغناء عنها، مبدئياً، دون أن يؤثر ذلك على مستوى حياتهم. والمثال على ذلك هو إنتاج مواد اللهو والتسلية التي تُستهلك في الاحتفالات والأعياد، وكان يباع منها سنوياً في ألمانيا وحدها ما ثمنه بضعة مليارات من الماركات. وفي الولايات المتحدة الأمريكية نشأ فرع كامل في الاقتصاد يهتم بمراقبة وزن الناس، وبلغت ذورة رأس المال فيه عام ١٩٩٢ ثلاثة وأربعين مليار دولار. كما أنتج في ألمانيا أكثر من ٢٠٠ مادة دوائية للعمليات يستعمل فيها بيض الدجاج. ومن العسير تقدير حجم ما يُنتج من مواد البذخ والكماليات. ربما كانت فعالية العمل في هذا المجال عالية، ولكن ذلك ليس مؤشراً على الفعالية الاقتصادية، بل هو نوع من ترهل المجتمع. إن درجة هذا الترهل في المجتمع الغربى عالية بشكل غير عادى، وتميل نحو الازدياد.

يُتصف المجتمع الغربى أيضاً بدرجة عالية من الطفيلية. وأعنى ذلك العدد الكبير من الناس الذين لا يقدمون شيئاً للمجتمع ويعيشون طفيليين على نفقته، عالةً عليه. إنهم يعيشون ويزدهرون على شكل مجموعاتٍ من البشر، بل وعلى شكل شرائح وفئاتٍ بكاملها. وثمة، بالمقابل، عدد كبير من الناس الذين يعملون بإنتاج

الخيرات لهؤلاء الطفيليين وفي خدمتهم، وبذلك يندرجون فى سلم الطفيلية. على أن لهذه الظاهرة جوانب نلاحظها عند شرائح، ومؤسسات، ومنظمات ليست طفيلية بشكل عام. ومن ذلك، على سبيل المثال، ظهور مناصب ووظائف يمكن الاستغناء عنها من حيث المبدأ. إن نمو مستوى الطفيلية فى الغرب يمثل نزعة قوية جداً، وربما لا يمكن التغلب عليها. وبالمناسبة، فإن تحول المجتمع الغربى إلى مجتمع ما بعد صناعى يعنى عملياً تحوله إلى كيان اجتماعى مترهل على مستوى عال من الطفيلية. ولا بد أن يؤثر ذلك، مع مرور الزمن، وبأكبر قدر من السلبية، على قدرة المجتمع على البقاء والحفاظ على الذات.

## الأزمة الاقتصادية

ليس الاقتصاد الغربى شيئاً جامداً، صلباً، رتيباً. بل هو مسار يشهد حالات نهوض، وفترات ركود وتدهور، وفورات وأزمات. ولا أعرف أبحاثاً نظرية تعميمية حول هذا الموضوع، اللهم إذا استثنينا مؤلفات ماركس ولينين وأتباعهما التى لا تتوافق وحالة المجتمع الغربى المعاصرة. ولذلك فإن ما أعترزم قوله فى هذا الباب ليس إلا نتيجة ملاحظاتي التى لا تندرج فى باب الاختصاص.

بات التدهور الاقتصادى فى الغرب واضحاً للعيان منذ مطلع تسعينيات القرن العشرين، ما جعل الجميع يقرّون به كحقيقة من حقائق الحياة اليومية. وعلى الرغم من أن بعض السياسيين والمنظرين تحدّثوا عن تحسّن قريب، فإن كلامهم لم يقنع إلا قلة من الناس. وفى العام ١٩٩٣ لم يعد الحديث يدور حول "تدهور" وحسب، بل أخذ يتطرق إلى وجود "أزمة". وأعتقد أن العديد من الخبراء وغيرهم ممن يتناولون الأزمة الاقتصادية وموضوع الاقتصاد عمومًا، يعتمدون كمعايير لهم، مؤشرات عدد من العوامل كالبطالة، والضرائب، والأسعار، والتضخم، وأسعار الأسهم... وغير ذلك مما تجاوز حدود المقبول، وصار "غير طبيعى".

أعتقد أن فهم الأزمة الاقتصادية على أنها مجرد خرق لحدود الوضع "الطبيعي" للاقتصاد هو فهم سطحي وغير مطابق لجوهر الأزمة. لا شك في أن الأزمة تتجلى في تدهور الاقتصاد، ولكن ليس كل تدهور أزمة، مهما كان هذا التدهور شديداً. ثمة فرق أكثر عمقاً يرتبط بطبيعة الرأسمالية المعاصرة ("الجديدة"، "الشمولية"). ذلك أن الاقتصاد الغربي المعاصر ليس اقتصاداً رأسمالياً عفويًا، كما كان في زمن ماركس ولينين، وحتى الحرب العالمية الثانية إلى حد ما؛ بل أضحي اقتصاداً منظماً على نحو غربي، وأضيف إلى ما ذكرت أعلاه ما يلي.

يتصف اقتصاد المجتمع الغربي المعاصر ببنية اجتماعية معقدة ذات مستويات من التراتبية تعمل وفقاً لقوانين مختلفة ليست اقتصادية فقط، بل وكومونالية أيضاً. إن المستويات العليا من التراتبية، المستويات التي تلعب الدور الحاسم في الاقتصاد، لا تعمل عموماً كظواهر اقتصادية، بقدر ما تعمل كظواهر كومونالية تتمثل في شتى أنواع الاتحادات بين رؤساء البنوك والشركات الكبرى وممثليها، وفي مختلف أنواع المؤسسات، والمنظمات، والتكتلات... إلخ فوق الاقتصادية التي تتحول إلى ما يشبه تنظيمًا حكوميًا، ومن ناحية أخرى، فإن الدولة تتخرط في مجال الاقتصاد ليس كطرف من خارجه، ولا كمجرد جهاز لحماية الاقتصاد، وإنما كمالك كبير لرءوس الأموال، ومتصرف بها، جنباً إلى جنب مع البنوك والاتحادات الاحتكارية.

إن وضع الاقتصاد الغربي المعاصر يتوقف الآن، وبشكل رئيس، على تنظيمه الاجتماعي وقدرة قيادته ("اليد الخفية") على تسييره بتلك الأساليب التي يعمل وفقاً لها في الظروف الطبيعية، وعلى اتخاذ التدابير التي تمكّنها من إبقائه في أطر معينة. فعندما تغدو إدارة الاقتصاد أمراً متعذراً، والتدابير المألوفة التي تتخذها "اليد الخفية" غير ذات جدوى، يكون بوسعنا الحديث عن أزمة، وليس عن مجرد تدهور اقتصادي. أو لا بد من الإشارة أيضاً إلى أن المسؤولين الاقتصاديين في الغرب يتخذون الآن تدابير تهدف إلى وقف تدهور الاقتصاد، والحيلولة دون نشوب أزمة حقيقية. وهكذا لا

يمكننا حتى تاريخه أن نعتبر الوضع في العالم الغربي بمثابة أزمة، بل هو على الأرجح تدهور وركود على حافة الأزمة.

## التقدم الاقتصادي

إن مصادر التقدم الرئيسية في زمننا ترفد اقتصاد الغرب من الأعلى ومن الخارج، ولا تنبثق فيه من تحت ومن الداخل، وهي ليست مبعثرة ولا عفوية، بل تم تنظيمها وتصميمها والتخطيط لها عن سابق وعى وتصميم. وتتمثل هذه المصادر بالاكشافات العلمية والابتكارات التقنية كحصيلة جهود هائلة تبذلها الدولة والمنشآت التي تشبه الدولة، وتشارك فيها اتحادات اختصاصيين ذوي كفاءة عالية. ومصادر التقدم هي أيضاً عقلنة الاقتصاد طبقاً لما يُعدهُ الخبراء من توصيات. وهي الحاجة إلى حل مسائل كبرى لا يستطيع التصدي لها إلا الدولة واتحادات تضم شركات فائقة الضخامة. إنها تدويل الاقتصاد وعولته، الأمر الذي يخلق مستويات أعلى لاقتصاد من طراز أكثر تطوراً له قوانينه الداخلية.

منذ فترة الاستعداد للحرب العالمية الثانية وحوافز تقدم الاقتصاد الأساسية تأتيه من خارجه، أي من متطلبات النظام السياسي الكوني. أما في سنوات "الحرب الباردة" فقد اشتدت هذه النزعة إلى درجة لم تُبق مجالاً للحديث عن العودة إلى محفزات التقدم السابقة. وأعتقد أن نهاية "الحرب الباردة" التي انتصر فيها الغرب كانت أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى التدهور الاقتصادي واشتداد الاتجاه نحو الأزمة.

لقد تكونت في الغرب قناعة بأن تقدم الاقتصاد على قاعدة الرأسمالية لا حدود له. ولكن هذه القناعة ليست إلا ضلالاً إيديولوجياً. فكل تقدم سقف محدد، بل إن التقدم نفسه يتضمن أسباب محدوديته، ذلك أن تلك العوامل التي تحفز التقدم تخلق عوامل كبحه في الحين نفسه. ويبدو لي أن الغرب بات قريباً من سقف تقدمه الاقتصادي، لأن هذا التقدم يتطلب نفقات تتزايد مع كل خطوة يخطوها إلى الأمام، الأمر الذي يجعل

منافعه تتقلص نسبياً، وفي نهاية المطاف فإن النفقات ستفوق المنافع، وستنتقل هيمنة التقدم إلى جوانب أخرى. وإلى ذلك، فإن التقدم الاقتصادي في الغرب يتحقق على أساس أوسع من مجرد الرأسمالية، أي على أساس الغربوية التي يلعب فيها الجانب الكومونالي (شبه الشيوعي، إن لم يكن شيوعياً) دوراً متزايداً.

## بنية السكان الاجتماعية

ينقسم سكان البلدان الغربية إلى كثير من الفئات والمجموعات والشرائح، أي - باختصار - إلى كثير من التفرعات وفق مختلف المؤشرات، وفي مختلف مقاطع المجتمع. ونحن إذ نتناول شتى مجالات المجتمع، إنما ندرس بذلك تركيبة سكان البلد. وقد تناولت هذا الموضوع مراراً، ومع ذلك لا بد من بعض الإضافات بخصوص تركيبة السكان الإجمالية.

استطاعت المقاربة الماركسية لبنية السكان الاجتماعية في الغرب أن تحتفظ بتأثيرها مدة طويلة من الزمن. وقامت هذه المقاربة أساساً على تقسيم الناس إلى طبقتين رئيسيتين تقف إحداهما في مواجهة الأخرى. وكانت ترى أن مالكي وسائل الإنتاج من جهة، والعمال المأجورين من جهة ثانية، هما الطرفان اللذان يشكلان في المجتمع الغربي، بوصفه مجتمعاً رأسمالياً، طبقتين أساسيتين، هما: طبقة الرأسماليين وطبقة البروليتاريا. وقد طرأ على هذه المقاربة بعض التعديلات في القرن العشرين على يد عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، وما زالت تتمتع ببعض التأثير حتى يومنا هذا. إذ يقسم عالم الاجتماع الأمريكي إريك أو. رايت<sup>(65)</sup> السكان، مثلاً، إلى طبقة من الرأسماليين الذين يسيطرون على رؤوس الأموال ووسائل الإنتاج والقوى العاملة، وإلى

---

(65) Erik Olin Wright. Classes. London, 1985



طبقة من العمال الذين لا يملكون شيئاً، إضافة إلى كثير من الفئات الأخرى غير المحددة بين هاتين الطبقتين. ولكن معظم المؤلفين يرون رأياً آخر ليس عديم الأساس، وهو أن تطبيق هذا التقسيم على المجتمع الغربي المعاصر لا معنى له.

يبين تحليل الخلايا العملية في المجتمع الغربي أن البنية الاجتماعية للعاملين في هذه الخلايا بنية معقدة تتصف بتراتبية المواقع الاجتماعية، وعلاقات الرئيس والمرءوس. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار تنوع الخلايا وتراتبيتها، وكذلك نظام الخلايا الكومونالية، بما في ذلك نظام سلطة الدولة، اكتشفنا أن البنية الاجتماعية لأعضاء المجتمع أكثر تعقيداً بعشرات المرات مما هي على مستوى الخلايا منفردة.

إن البنية الواقعية للبلدان الغربية ينعدم فيها وجود ذلك التمحور الذي استندت إليه الإيديولوجيا الماركسية. فبدلاً من الرأسمالي المجرى في خُطاطة ماركس، يمكننا أن نجد كثيرين ممن ينتمون إلى فئات اجتماعية مختلفة، يقومون بعمل شاق في البنزين الصغير أو المتوسط، ويرزحون تحت وطأة مديونية البنك الأبدية. ويمكننا أن نجد أيضاً أشخاصاً مأجورين يقومون بوظائف المسيرين والنظار والمديرين، ويملكون في الوقت نفسه رأسمالاً مساهماً أو خاصاً. وكذلك نجد مديري بنوك، ورؤساء مجالس إدارة وغيرهم. ولا نجد، رأسمالياً ينطبق عليه توصيف ماركس، إلا في حالات استثنائية ونادرة.

وقل الشيء نفسه تماماً بخصوص عنصر الخُطاطة الآخر، أي الأشخاص المأجورين. إذ نرى في عداد هؤلاء مدراء بنوك يتقاضون أموالاً أكثر مما يحصل عليه رجال الأعمال أصحاب الملايين. ويوجد بين موظفي الدولة رؤساء ووزراء، وجنرالات، ومهندسون، وأساتذة، وفنانون، ورياضيون.... وغيرهم من الأشخاص الذين لا يجمعهم جامع بالبروليتاريا. كما أن عدد العاملين في قطاع الصناعة في البلدان الغربية أقل من ثلث إجمالي عدد العاملين، ونصفهم على الأقل ليسوا عمالاً من حيث المهنة. أما عمال الزراعة فيشكلون جزءاً ضئيلاً جداً من السكان. وكثير من العاملين في مجال الخدمات يمارسون عملاً عضلياً، ولكنهم لا يشكلون أية طبقة اجتماعية. وهكذا، فإن

الطبقة العاملة التي شكلت أساس الأفكار الماركسية حول الصراع الطبقي وديكتاتورية البروليتاريا لم يعد لها وجود عموماً في البلدان الغربية.

لقد تحدثت أعلاه عن ظاهرة في بنية السكان هي تحول ملايين عديدة من المواطنين العاديين إلى أصحاب مبالغ مالية تشكل مجموعها رءوس أموال ضخمة. ومع أن هؤلاء لا يتحولون إلى رأسماليين، فإنهم لا يشاركون في حياة رءوس الأموال كعمال مأجورين، وإنما كمالكين ومشاركين صغار في رءوس الأموال. وبذلك فإن العمال المأجورين ضمن هذه الكثرة يفقدون "نقاءهم الطبقي"، إذا جاز التعبير.

لقد قدم رايت، الذي مرّ ذكره أعلاه، وصفاً تفصيلياً لفئة من مواطني الولايات المتحدة الأمريكية أطلق عليهم اسم "المحللون الرمزيون". وتتألف هذه الفئة من أشخاص مأجورين، يحمل كثيرون منهم شهادات علمية عالية، ويتعاطون مع هذه أو تلك من المسائل الحيوية المهمة بشكل غير مباشر، أى عن طريق معالجة الرموز، والتعامل بمعطيات رمزية عن ظواهر، وعمليات، ومسارات واقعية. وأدواتهم هي اللوغاريتمات الرياضية، والنظريات العلمية، والقوانين، والعمليات المالية، والوسائل السيكلوجية، والمحاكمات المنطقية. وهم يعبرون عن الواقع في صور مجردة يعيدون معالجتها، ويستخدمونها في تجاربهم، وينقلونها إلى اختصاصيين آخرين، إنهم، في نهاية المطاف، يطبقون نتائج نشاطهم في الواقع. وينتمى إلى هذه الفئة، مثلاً، العلماء، ومهندسو التصميم، والحقوقيون، والمستشارون الماليون، ومستشارو الضرائب، والناشرون، والصحافيون، والعاملون في التلفزة، وصانعو الأفلام، والعاملون في الإعلان والإشهار، ورجال الفن، والمخطّطون، الخ. ويعمل ممثلو هذه الفئة منفردين أو في جماعات صغيرة، ونادراً ما ينخرطون في علاقات مباشرة مع من يستفيد من عملهم. وغالباً ما يكون لهم شركاء أو مساعدون، أكثر مما يكون لهم رؤساء أو نظّار. وفي الولايات المتحدة الأمريكية بلغ عدد هؤلاء بداية تسعينيات القرن الماضي ما نسبته ٢٠٪ من العاملين، أى أكثر من عدد العاملين بالمعنى القديم.

ولكن، هل يعنى ذلك أن المجتمع لم يعد ينقسم إلى طبقات متباينة المصالح، وأنه قد حلت مرحلة الوفاق الطبقي ووحدة شرائح السكان كافة؟ كلا، على الإطلاق! لقد تغيرت بنية انقسام أعضاء المجتمع وتوزعهم إلى فئات وشرائح وطبقات مختلفة، وبالتالي فقدت التصورات القديمة معناها الفعلى. وهذا ما يعده البعض زوالاً للانقسام الاجتماعى عمومًا.

فلنتفق بخصوص معنى الكلمات. لقد سبق وقلت إن من الضرورى التفريق بين معنيين لكلمة "طبقة"، وتحديداً: المعنى المنطقى، والمعنى الاجتماعى. ففى المعنى المنطقى، يعنى تشكيل طبقة من مواد أن نأخذ المصطلح "أ" ونبنى عليه مصطلحاً جديداً هو "طبقة أ" (أو "عدداً كبيراً من أ"). ومن مصطلح "طاولة"، مثلاً، يتشكل مصطلح "طبقة (عدد كبير) من الطاولات"، ومن مصطلح "عامل" يتشكل مصطلح "طبقة العمال"، ومن مصطلح "رأسمالى" يتشكل مصطلح "طبقة الرأسمالين". أما بالمعنى الاجتماعى فإن مفهوم "الطبقة" يتضمن شيئاً أكبر، يفترض عادةً وحدة مصالح الناس (أعضاء الطبقة) واشتراكهم فى العمل. وعند الحديث عن الطبقة العاملة يكون المقصود أن الشئ المشترك بالنسبة للعمال هو السعى لتحسين ظروف العمل وزيادة الأجور. أما وحدتهم فتتشكل وتتجلى فى النقابات والإضرابات والأحزاب السياسية. إن موجة الإضرابات الضخمة التى نظمتها النقابات فى ألمانيا عام ١٩٩٢ لزيادة الأجور أعادت إلى الاستعمال مجدداً تعبير "الطبقة العاملة" الذى خُيِّلَ لكثيرين أنه غادر القاموس الاجتماعى إلى الأبد.

## عودة إلى التاريخ

قبل أن أباشر عرض نظرتى إلى تركيبية المجتمع الطبقي سأعود قليلاً إلى التاريخ. هناك اتفاق على أن الطبقتين الأساسيتين فى المجتمع الإقطاعى هما الإقطاعيون (مالكو الأرض)، والفلاحون التابعون لهم بهذا الشكل أو ذاك (نظام القنانة، نظام

السخرة، نظام الإتاوة). ولا جدال في أن المجتمع الإقطاعي كان فيه إقطاعيون، وفلاحون، وتبعية إقطاعية. ولكن هذا التقسيم قائم على أساس مبدأ القصب، وليس على أساس مبادئ الكائن الحي. أما في الواقع فقد حدث، في الأساس، نشوء قطبين، يضمُّ الأولُ منهما المجموعات الإقطاعية الأولية (سألجأ لاستخدام هذا التعبير)، فيما يتمثل الثاني في جماعات الفلاحين. لقد كانت المجموعة الإقطاعية تضم الإقطاعي (وربما عدداً من أقربائه)، وأفراد أسرته، ومن عنده من خدم وحرأس مسلحين. إن من كانوا تلقائياً أعضاء في طبقة "الإقطاعيين" المنطقية ليسوا أفراداً، بل كانوا مجموعات إقطاعية على وجه التحديد. وكان لنظام التبعية (تبعية الموالين)، وللدولة الملكية المطلقة في نهاية المطاف، الفضل في توحيد الإقطاعيين كطبقة اجتماعية.

كذلك لم يكن الفلاحون أيضاً مجرد عناصر في طبقة منطقية، إذ كانت تجمعهم مشاعات متفرقة، يقيم أفراد بعضها علاقات شخصية مع فلاحى بعضها الآخر. ولكنهم لم يكونوا يشكلون طبقة اجتماعية واحدة متكاملة على صعيد البلد، أو في منطقة كبيرة عموماً، كما كان الإقطاعيون. ومع ذلك قامت بينهم علاقات تمكّنا من الحديث عن طبقة بالمعنى الاجتماعي. وقد ساعدت الكنيسة، وكذلك تطور العلاقات البرجوازية، في تشكيل هذه الطبقة. أما التمردات والحروب الفلاحية التي كانت تندلع بين وقت وآخر، فقد كانت مؤشّرات على طبقة الفلاحين. على أن الطبقة العاملة في البلدان الغربية لم يكن يجمعها تنظيم موحد على صعيد البلد، وكانت مقسمة إلى مجموعات مختلفة، بشكل متعمد عادة، بغية عرقلة عملية تغيير المجتمع بطريقة ثورية.

## الطبقات في المجتمع الغربي

يمكننا الاستدلال بكل جلاء على وجود طبقتين أساسيتين في المجتمع الغربي أيضاً، إذا ما نظرنا إليه وفق مبادئ الكائن الحي، وليس وفق مبادئ القصب. وهاتان الطبقتان هما بالضبط طبقة أرباب العمل (أو المستأجرين) وطبقة العاملين

(أو الأجراء). على أن الطبقة الأولى لا تتألف من أرباب العمل وحدهم، بل هي تشمل مجموعات المشاركين في امتلاك موارد العمل وتنظيمه. وفي أيامنا تلعب هذه المجموعات دوراً حاسماً، بغض النظر عن تباين حجم كل منها، إذ يتراوح بين بضعة أشخاص وعدة آلاف من الناس، كما نرى في الشركات الكبيرة. ويندرج في عداد هذه المجموعات على قدم المساواة كل من أصحاب وسائل العمل والأجراء، كالمديرين والموظفين، أي باختصار كل من يمثلون مصالح مجموعة رب العمل ويدافعون عنها من موقعهم كأعضاء في هذه المجموعة. ليست مجموعة الأفراد الذين يملكون أموال شركة خاصة وحق التصرف بها هي وحدها من يمكن أن يكون رب العمل، بل يمكن أن تكونه كذلك مؤسسة اجتماعية، وأخرى تابعة للدولة. وتكمن صفة رب العمل الأساسية في تمتعه بحق التصرف بموارد العمل، واستئجار آخرين، في إطار صيغة "مستأجر وأجير". وخارج هذه العلاقة يتصف أرباب العمل وأعضاء مجموعة أرباب العمل بصفات أخرى، بينها ما يشبه صفات طبقة المأجورين. إن انقسام المجتمع طبقياً ليس إلا واحدة من مكونات بنيته، وليس البنية كلها.

لا تقتصر طبقة المأجورين على العمال، بل هي تشمل مستخدمين من شتى الأصناف، ومنهم موظفو الدولة. وتجدر الإشارة إلى واحدة من صفات أعضاء طبقة المأجورين، هي أنهم أفراد، وليسوا مجموعات بشرية، أو منظمات، أو مؤسسات. لأن رب العمل إذا ما تعامل مع مجموعة، أو مؤسسة، أو منظمة، فإنه لا يتعامل معها بوصفه رب عمل ولا بوصفها مأجورة، بل كرجل أعمال مع رجل أعمال آخر. وهذه علاقة من نوع مختلف، وليست علاقة طبقية.

لقد بينت حركة الإضرابات في ألمانيا خلال السنوات الأخيرة أن العاملين في الخدمات العامة (البريد، والتنظيفات، والنقل) وحتى في مؤسسات الدولة (بما فيها الشرطة) يتصرفون بوصفهم مأجورين إزاء المستأجرين، مثلهم في ذلك مثل العمال تماماً. وهذا ما أثار موجة من الاستياء في أوساط الرأي العام. ولكن أحداً لم يفتن إلى أن النزاعات التي تقع هنا هي نزاعات طبقية، لم يكن يُعترف بها سابقاً إلا بين

المالكين الرأسماليين، والعمال المأجورين الذى يقومون بعمل عضلى أساساً. أمّا الآن فإننا نستطيع أن نسجل نوعاً جديداً من العلاقات الطبقيّة والنزاعات الطبقيّة.

وينتمى إلى طبقة العاملين المأجورين أيضاً أشخاصٌ يملكون مبالغ مالية، وأسهماً، وأشياء ماديّة أخرى (منازل، قطع أرض...)، على أن هؤلاء فى أغلبيتهم الساحقة ليسوا بروليتاريين بالمعنى الذى وصفه ماركس وإنجلز. ومع ذلك فإن هذا لا يلغى كونهم يشغلون موقعاً معيّنًا فى معادلة "المستأجر والمأجور"، وهم فى هذه المعادلة مأجورون. غير أن وضعهم الاجتماعى لا ينحصر فى حدود هذه المعادلة. ولا تتطابق مصالحهم كمأجورين تمام التطابق مع مصالح المستأجرين، بل تدخل أحياناً فى نزاع معها.

يشكّل أعضاء طبقة المستأجرين المنطقية أنواعاً مختلفة من الاتحادات، طبعاً لما فيه مصالحتهم. وبذلك ينظمون أنفسهم فى طبقة من المستأجرين بالمعنى الاجتماعى. إنهم بالضبط ينظمون أنفسهم. ومنظمتهم الطبقيّة هذه هى جزء جوهري من بنية المجتمع. وكذلك يتّحد المأجورون فى طبقة اجتماعية. ويحدث ذلك عن طريق النقابات، والأحزاب، والتظاهرات، والإضرابات، والمنظمة هنا ليست بتلك القوة التى تتّصف بها منظمة المستأجرين، غير أنها على درجة من القوة يرى فيها المنافحون عن الرأسمالية خطراً يهدد الديمقراطية واقتصاد السوق<sup>(٦٦)</sup>.

إن طبقة المأجورين ليست كلاً واحداً على صعيد البلاد بأسرها. فهى تتألف من عدد من الاتحادات الاجتماعية التى ينطبق على كل منها مفهوم الطبقة بالمعنى الاجتماعى. وهذه الطبقات موجودة فى مختلف أنحاء البلاد، وأحياناً توجد عدة طبقات فى منطقة واحدة. وتشكل هذه النقابات والأحزاب المختلفة طبقات فى شتى المناطق، وفى شتى مجالات المجتمع وميادينه. ولا أعتقد بإمكانية وجود طبقة مأجورين موحدة

---

(٦٦) انظر، على سبيل المثال: ر. دروكير. (الهامش رقم ٢٧).



فى الظروف المعاصرة، ناهيك عن أن للقوى الحاكمة فى المجتمع مصلحة فى هذا التفتت. ووفقاً لمقومات أخرى، تتألف طبقة المأجورين المنطقية من أفراد تختلف مصالحهم، بل وتكون متعادية أحياناً. على أن المصالح الطبقيّة ليست كل شىء، بل وقد تكون ثانوية فى بعض الأحيان.

وعلى نحو مماثل ثمة عدة طبقات اجتماعية من أرباب العمل (المستأجرين). غير أن الاتحاد فيما بينها أوفر حظاً ممّا بين المأجورين. وفى بعض الأمور يمكن أن يكون الاتحاد على نطاق البلاد كلها يشمل مجمل المنظمات، والاتحادات، والمؤسسات... وغير ذلك ممّا تتألف منه منظومة إدارة الاقتصاد.

إن المجتمع الغربى متعدّد الأبعاد، أى أنه يتهيكل فى ميادين مختلفة فى وقت واحد. وما الانقسام الطبقي موضع بحثنا سوى واحد منها، وليس الرئيس.

على أن واحدة من سمات النزاعات الطبقيّة التى أشرت إليها أعلاه تستحق اهتماماً خاصاً. ذلك أن الصراع كان يدور من أجل إعادة توزيع المداخيل والأموال التى بحوزة المنشآت والمؤسسات وتحت تصرف أرباب العمل توزيعاً يحقق مصلحة المأجورين، وكذلك من أجل إدخال تغييرات طفيفة (من وجهة نظر اشتراكية) على ظروف العمل. أمّا العلاقات الاجتماعية فلم تتعرض للنقد أصلاً، ولم تكن موضع شك. فقد كانت هذه العلاقات ملائمة للطرفين. ذلك هو الإطار الذى كان الصراع يدور فى حدوده. وبهذا المعنى لم تعد النزاعات الطبقيّة نزاعات معادية للرأسمالية، كما كانت فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وتبعاً لتلك التغييرات التى طرأت على بنية الملكية، فقدت مسألة الملكية عموماً معناها كمسألة صراع طبقي. إن حصة المأجورين من تقاسم الخيرات لا تتوقف على مقدار ما يبقيه الرأسماليون لأنفسهم جرّاء استغلالهم المأجورين، بقدر ما تتوقف على الحالة الاقتصادية الراهنة، ووضع المنشآت والمؤسسات فى هذه الحالة، وكذلك على السياسة الاقتصادية العامة التى تنتهجها الدولة. وعندئذ فإن تقليص حصة أرباب العمل الشخصية نتيجة تقاسم الخيرات لن تلبى مطالب المأجورين ولو بقدر ضئيل. ولهذا السبب نرى أن حل

النزاعات الطبقيّة التي من هذا النوع يأتي عن طريق التفاوض بين الطرفين المتعاضدين، وعبر الحسابات الاقتصادية التي تشكل جزءاً من الحسابات في المجتمع عامة. لقد انقضى عهد الصراع الطبقي بمعناه القديم، وانتقل دوره، كصراع على النطاق الاجتماعي، إلى حركات جماهيرية من نوع آخر، وإلى صراع بين ظاهرات مختلفة داخل نظام الغريوية.

### العبودية المعاصرة

عند دراسة البنية الاجتماعية لسكان الغرب لا يجوز تجاهل ملايين العمال الأجانب والمهاجرين الذين يتعذر تصور المجتمع الغربي المعاصر من دونهم. ففي عام ١٩٩١ كان يعيش في ألمانيا الغربية حوالي خمسة ملايين عامل أجنبي، أي ما يعادل ٥,٦٪ من مجموع السكان. وفي فرنسا يشكل العمال الأجانب ٨٪ من السكان، وفي سويسرا ١٦٪، وفي لوكسمبورج ٢٣٪. لقد تسرب عدد كبير من الأجانب إلى الغرب كمهاجرين. وفي الولايات المتحدة الأمريكية يكاد المهاجرون يشكلون الجزء الأساسي من النمو الديمغرافي. على أن أعداداً كبيرة من الأجانب تسربت إلى الغرب عبر قنوات أخرى غير قناة الهجرة الشرعية. وقد كانت حكومة الولايات المتحدة مضطرة إلى أن تمنح بين حين وآخر حق المواطنة (الجنسية) لملايين المقيمين على أراضيها بصورة غير شرعية، بعد أن بات من المتعذر (بل ومن غير المستحسن) ترحيلهم إلى أوطانهم. وحتى الأوتة الأخيرة كان المعنيون يعضون النظر عن تدفق المهاجرين، ولم يشرعوا باتخاذ تدابير دفاعية حازمة ضد هذه الظاهرة إلا عندما تجاوز الأمر جميع الحدود، وبينما أقامت الولايات المتحدة الأمريكية جداراً معدنياً في مواجهة سيل المهاجرين من المكسيك، فرضت ألمانيا حراسة إلكترونية على حدودها لوقف "الغزو" القادم من الشرق. واضطر الإيطاليون لاستخدام الجيش من أجل منع تدفق سيل الألبانيين.

إن تعطش ملايين كثيرة من البشر في البلدان غير الغربية للهجرة طوعية إلى الغرب لا ينعكس البتة على وضعهم الاجتماعي في المجتمع الغربي. ذلك أنهم يشكلون هناك شريحة اجتماعية متماسكة يمكن تشبيهها بعبيد الإمبراطورية الرومانية. فهم محرومون من الحقوق، كأولئك العبيد. وفي شتى الأحوال تظل حقوقهم محدودة بالمقارنة مع حقوق سكان الغرب الأصليين. كما أن ظروف حياتهم تشبه ظروف حياة العبودية (لا أُصرُّ هنا على كلمة "العبودية" بمعناها العلمي). صحيح، طبعاً، أن معاملتهم أفضل مما كانت عليه معاملة العبيد في روما، أو في أمريكا خلال القرن التاسع عشر. ومع ذلك فإن هؤلاء يفدون إلى بلدان الغرب كقوة عمل رخيصة، ومن أجل ممارسة أنواع من العمل يترفع مواطنو هذه البلدان عن ممارستها. ففي ألمانيا، مثلاً، يحصل العمال الأتراك على أجر أقل من أجر العامل الألماني بمرتين أو ثلاث مرات لقاء العمل نفسه. أما القادمون من البلدان الشيوعية سابقاً ويقيمون هنا بصورة غير شرعية فإنهم مستعدون للعمل لقاء دريهمات (أقل من أجر العامل الألماني بعشر مرات وأكثر). وهؤلاء المهاجرون يتكاثرون في البلدان الغربية وهم في وضعهم هذا، مثلما كان العبيد في روما يتكاثرون (وليس فقط يؤخذون كأسرى في أثناء الحروب). ولا تتطابق صورة شريحة المهاجرين الذين نتحدث عنهم مع تلك الصورة المثالية التي يرسمها إيديولوجيو الغرب زاعمين أن عمال عصرنا مشاركون في ملكية المنشآت، أو على الأقل، مشاركون في العمل، ولهم مصلحة في ازدهاره.

كانت طبقة العبيد في روما أقل عدداً، من حيث النسبة، من طبقة العبيد في بلدان الغرب المعاصر. غير أن المجتمع الروماني يُعدُّ مجتمعاً عبودياً، بينما يُعدُّ المجتمع الغربي مجتمعاً ديمقراطياً. ثم إن العبودية كانت ظاهرة مألوفة في الديمقراطيات الإغريقية، ولكن اللافت هو أن العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية حتى في القرن العشرين، لم تمنع الأمريكيان من اعتبار بلادهم أكثر البلدان ديمقراطية في العالم.

إلى ذلك لا بد أن نضيف أن عدداً كبيراً من المنشآت الغربية قد نُقل إلى الخارج، أى إلى مناطق من الكرة الأرضية تتوفر فيها قوة العمل الرخيصة من جهة، ولا يسرى مفعول التشريعات الغربية على أبناء تلك المناطق العاملين فى هذه المنشآت من جهة أخرى. وهؤلاء العاملون هم أيضاً وبصورة غير مباشرة عنصر من عناصر البنية الاجتماعية التى تشمل عدداً كبيراً من البشر المنخرطين فى الحياة العملية للمجتمع الغربى.

لقد خلق وجود شريحة المهاجرين مشكلات فى الغرب باتت تصنف فى عداد أهم مشكلات العصر وأصعبها. ورسخ أبناء هذه الشريحة أقدامهم فى البلدان الغربية، وأخذوا يناضلون من أجل ظروف أفضل فى الحياة والعمل، تكون قريبة على الأقل من الظروف التى يتمتع بها السكان الأصليون، بينما يرى هؤلاء فى ذلك منافسة وخطراً على مستقبلهم. فكان من الطبيعى أن تندلع نزاعات وصُفّت بأنها عرقية، وصارت مألوفة فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ زمن بعيد. وها هى أوروبا الغربية تتحول إلى مسرح لهذه النزاعات.

لا أهمية للتسميات التى سنطلقها على هذه المشكلات والنزاعات، بل المهم أنها حاضرة، وحضورها بات جدياً وطويل الأمد. المهم أن هذه الشريحة ضرورية موضوعياً لوجود المجتمع الغربى، خاصة فى وضعها شبه العبودى هذا. لقد أوقع الغرب نفسه بنفسه فى فخ الدعوة للحريات المدنية، وحقوق الإنسان، والمجتمع الغربى بوصفه مجتمع الفرص المتكافئة.

لقد كان الغرب محظوظاً إلى حد ما، لأن هذه المشكلات ارتدت لبوس مشكلات عرقية، وهذا ما يتيح له ستر جوهرها الاجتماعى وإخفاء ارتباطها العضوى بالغربوية. ولولا ذلك لافْتُضِح أمرها منذ زمن بعيد وظهرت على حقيقتها كمشكلات طبقية.

## البطالة

- تعتبر البطالة واحداً من أفظع عيوب الغربوية، وهي حالة المجتمع الدائمة، لا المؤقتة. فحتماً في حال العمالة التامة، كما قال وليم بيڤريج<sup>(٦٧)</sup>، سيصل عدد العاطلين عن العمل إلى ٣٪ من مجموع عدد العاملين، وقد كانت نسبة البطالة في العقد الأخير من القرن العشرين في البلدان الغربية تتراوح بين ٧ و ٩ بالمئة من عدد العاملين، وهذا يعنى أنه يجب مضاعفة النسبة التي يتحدث عنها بيڤريج.

يبعث وجود البطالة على الحيرة لجملة من الأسباب. إذ نجد في بلاد واحدة ملايين المواطنين العاطلين عن العمل، وفي الوقت نفسه نجد ضعف عددهم من العاملين الأجانب. ومن ناحية ثانية يقوم أرباب العمل في البلاد المعنية بتوظيف أموالهم وإنشاء مصانعهم في بلدان أخرى ليوفروا بذلك فرص عمل لعدد كبير من أبناء تلك البلدان، أى من غير مواطنيهم. فما هو سبب هذا "الهراء"؟ يعود السبب إلى أن ذلك مربح لأرباب العمل، كما يعرف الجميع. فالعمال الأجانب يتقاضون أجراً أقل من أجر العمال المواطنين، وليس لهم نقابات، ولا داعى لتحمل مصاريف ضمانهم الاجتماعى. إن اليد العاملة في البلدان الأخرى أرخص أجراً، ولا حاجة للتفكير بالمشكلات الاجتماعية التي تخص شعوب تلك البلدان... إلخ. ولكن السبب لا ينحصر في هذه العوامل وحدها. إذ بعد أن ظهرت البطالة كعامل دائم الحضور، راحت تعيد إنتاج نفسها بحكم الضرورة، وتؤدى وظائف متنوعة ليست من طبيعتها في الأصل. إنها تلعب دور عامل من عوامل الانضباط في العمل، وتحث من مطالب العاملين، وتجعل الميسورين يقدرّون قيمة ما يملكون. فكثيرون من المواطنين لا يرغبون بالعمل وفق الشروط التي يقبل بها العمال الأجانب، ولا يريدون القيام بالأعمال المهينة التي يقوم بها الغريباء. على أن بعضهم على استعداد للقيام بذلك، ولكنهم لا يستطيعون لأن الأماكن مشغولة كلّها، وليس لديهم ما

---

(67) William H. Beveridge. Full Employment in Free Society. London, 1944.

يؤهلهم لممارسة تلك الأعمال التي تتطلب إعداداً مهنيًا خاصًا. وهكذا نرى الكثيرين يكتفون بإعانات البطالة.

لا غرابة أن نرى ظاهرة البطالة حتى في ظل الحاجة إلى اليد العاملة. وتفسير ذلك أن ظروف العمل في بعض المهن قاسية وامتدنية الأجور (العاملون في الخدمات الطبية من غير الأطباء، مثلاً)، ما يجعل الناس يعزفون عنها، ويفضلون عليها إعانة البطالة، أو عملاً عرضياً غير ثابت يرتزقون منه بين حين وآخر. ومن ناحية أخرى تظهر إلى الوجود مهن جديدة تتطلب تأهيلاً عالياً وغير عادي لا بد لاكتسابه من وقت طويل، وجهود وقدرات لا تتوفر لكل من يرغب. لقد أدى الاتجاه الذي سلكه تطور الحضارة الغربية إلى تزايد أهمية المشكلة المتعلقة بالقدرات والمواهب التي يتطلبها إتقان مهن جديدة على نطاق واسع. وأعتقد أن نقص القادرين على ذلك سوف يتزايد، وقد يصبح مع الزمن عائقاً أمام التقدم.

وجدير بالملاحظة أن المراجع عندما تورد أرقاماً عن البطالة تقتصر عادة على العمال المسجلين كعاطلين. غير أن ثمة بطالة مقنعة. ففي عام ١٩٩٢، مثلاً، كان عدد العاطلين عن العمل المسجلين في ألمانيا حوالي ثلاثة ملايين شخص، أما البطالة المقنعة فبلغت (حسب ما جاء في الصحف) ما يزيد على مليوني شخص.

وما من حاجة للحديث عما تعنيه البطالة للناس من النواحي المادية، والمعنوية، والنفسية. فهناك في الولايات المتحدة الأمريكية ملايين البشر الذين ليس لهم عمل دائم، ويتوارثون البطالة جيلاً بعد جيل. ولقد تحدث رؤساء أمريكا غير مرة عن أن هؤلاء يعيشون في مستوى دون حد الفقر. إن الخوف من فقدان العمل هو العامل الأهم الذي يتحكم بالحالة الروحية للناس في بلدان الغرب. فحسب ملاحظاتي، وبناء على معطيات الصحافة، لعب الركود الاقتصادي وارتفاع معدلات البطالة في بداية تسعينيات القرن العشرين دوراً كبيراً في زيادة حالات الاكتئاب الروحي عند شرائح عريضة من السكان.



## الثروة والفقير

لا يكفى العامل الطبقي معياراً لتقسيم السكان فى البلدان الغربية. فهناك معايير وطرق أخرى عديدة، بينها معيار توزيع الخيرات المادية. ويبين هذا المعيار أن عدم المساواة بين الناس فى البلدان الغربية فظيع حقاً، إذ تتراكم فى أحد قطبي المجتمع ثروات خيالية، بينما يعانى القطب الآخر فقراً مدقعاً. وهكذا يكون بعض من أبناء المجتمع قادرين على التمتع بشتى نعم الحياة، وبجميع منجزات الحضارة التى لم يكن أكثر الناس حظوة يحلمون بها حتى أمس القريب، بينما يكون البعض الآخر محروماً حتى من فئات الخيرات التى كانت فى متناول الفقراء.

إن أى مجتمع من المجتمعات ينقسم، بهذا الشكل أو ذاك، إلى أغنياء وفقراء. ولكن هذه المسألة تتخذ أشكالاً وأبعاداً مختلفة فى مجتمعات مختلفة، مثلما تختلف أيضاً معاناة الناس من مجتمع إلى آخر. وهاكم بعض الأرقام بهذا الخصوص. ففي بريطانيا<sup>(68)</sup> عام ١٩٨٧ كان ٠.١ ٪ من شريحة السكان العليا يملك ٧ ٪ من ثروات البلاد، بينما ٥٠ ٪ من الشريحتين الوسطى والدنيا لا يملكون إلا ٤ ٪ من هذه الثروات. وفى عام ١٩٨٦ كان تسعة ملايين مواطن (أى ١٧ ٪ من السكان) يعيشون على خط الفقر. وفى عام ١٩٨٩ كان ثلث سكان لندن يعيشون فقراء<sup>(69)</sup>. أما فى فرنسا فكان ١ ٪ من السكان يملكون ٣٠ ٪ من الثروة القومية، بينما كان ١٠ ٪ من أكثر السكان فقراً يملكون ما لا يزيد عن ٠.٣٠ ٪ من الثروة القومية. وكان ثمانية ملايين يعيشون فقراء، كما ذكرت وسائل الإعلام مراراً. وبينما كانت ١٧ عائلة فى ألمانيا الغربية تملك ما قيمته أكثر من ١٠٠ مليار مارك، كان فى البلاد، فى الحين ذاته، حوالى ثلاثة ملايين أمى بين البالغين، وستة ملايين إنسان لم يكن لديهم موارد للعيش،

---

(68) Antony Giddens, Sociology. Polity Press 1989.

(68) Charles Booth. Life and Labour of the People in London. London, 1989.

ولا مأوى، ولا أمل بالمستقبل. على أن الوضع في البلدان الأخرى لم يكن أفضل حالاً. ففي العام ١٩٦٣ أثار كتاب مايكل هارنجتون "أمريكا الأخرى" ضجة كبرى في الولايات المتحدة الأمريكية. ففيه يتحدث المؤلف عن عشرات الملايين من الناس الذين يعيشون فقراء. وعلى الرغم من التدابير التي اتخذتها الحكومة الأمريكية لتحسين الوضع بشكل ما، كان عدد الفقراء في الولايات المتحدة عام ١٩٨٩ يبلغ ٥،١٣ مليون إنسان، وفي عام ١٩٩٠ ارتفع عدد هؤلاء إلى ٦،٣٣ مليون إنسان، ما يشكل نسبة ٥،١٣ بالمئة من السكان (٧٠).

ويمكننا أن نرى هذه الصورة نفسها من التفاوت بين الغنى والفقير إذا ما استعرضنا أحجام مداخيل المواطنين الذين يعملون. ففي بريطانيا عام ١٩٨٥ كان ٥ بالمئة من العاملين يحصلون على ١٦ بالمئة من إجمالي الدخل القومي، بينما كان ٥٠ بالمئة منهم لا يحصلون إلا على ٥ بالمئة من هذا الدخل. وفي فرنسا كان ١ بالمئة يحصلون على دخل شهري لا يقل عن نصف مليون فرنك. على أنه شيء مألوف أن يكون دخل الرأسماليين عالياً، ولكن الجديد في الأمر هو ظهور طبقة من الأجراء (الموظفين) الذين يملكون مداخيل عالية جداً، ويشغلون مواقع مؤثرة اقتصادياً. فعلى سبيل المثال، كان رئيس كونسيريوم شبرينجر في ألمانيا عام ١٩٧٩ يتقاضى مرتباً سنوياً قدره ٢،١ مليون مارك (ما يعادل وفقاً للأسعار اليوم أكثر من ثلاثة ملايين مارك)، علماً بأنه لم يكن يملك مصنعاً. ويرى العديد من المؤلفين أن موقع المرء في الهرم الاجتماعي، وليس ما يملكه، يحدد العامل الحاسم في انقسام المجتمع إلى شرائح (٧١). على أن هذا العامل واحد من أهم صفات المجتمع الشيوعي.

---

(70) Michael Harrington. The Other America. N.Y.1963.

(٧١) انظر، مثلاً: J.Huffschild (الهامش رقم ٥٩)، و Helmut Arntz. Facts about Germany. 1959 ny.

وينبغي أن نصنّف ضمن فئة ذوى الثراء الفاحش زعماء منظمات الإجرام، ونجوم السينما، ومشاهير المطربين والراقصين، والأفذاذ بين الرياضيين والموسيقيين، والمخترعين، وممثلى فئات أخرى ممن يحتفظون بثروات كبيرة، أو يكسبونها، بفضل شروط المجتمع الغربى المستقرة، والمعترف بها من قبل الجميع.

واستناداً إلى المعلومات التى تنشرها وسائل الإعلام وتتضمنها المؤلفات المختصة نجد أن معظم سكان البلدان الغربية يتمتعون بمستوى معيشة عالٍ غير أن ذلك لا يعكس الدور الحقيقى للفقير، وإن كان ذلك الدور من حيث النسبة العامة لا يبدو مثيراً للاستياء. ذلك أن الفقر لا يكون فظيماً عندما يكون عاماً (فى هذه الحالة يبدو وضعاً عادياً)، بقدر ما تظهر فظاعته حين يكون عدد الفقراء قليلاً نسبياً. وذلك لأن الفقراء يشعرون بأنهم بؤساء عندما يرون رخاء الأغلبية؛ فضلاً عن أن هناك عدداً كبيراً من الميسورين الذين يعيشون دائماً خائفين من الانحدار إلى صفّ تلك الأقلية من البائسين. من هنا يأتى النظر إلى الفقر بوصفه المرض الأفظع الذى لا بُرء منه، ونظر المحيطين إلى الفقراء كمرضى ينقلون العدوى.

ليس الفقر وليدَ خطة شريرة تقف وراءها قوى موجودة فى المجتمع الغربى، وإنما هو نتيجة حتمية للقوانين الموضوعية التى تقوم عليها الغربوية. وهيهات أن يتحسن الوضع فى هذا المجال حتى ولو تم انتزاع الثروة فجأة من ذوى الثراء الفاحش. فهؤلاء أنفسهم لا يستهلكون ثرواتهم، وإنما يلعبون دور نقاط من نوع ما لإعادة توزيع ثروات المجتمع. ثم إن حجم الخيرات المادية، ولا سيما الخيرات الحديثة، ليس بلا حدود، وهذه الخيرات لا تكفى الجميع، على كل حال. أضف إلى ذلك أن قوانين الرأسمالية تقضى بأن الحل الأنجع ليس القضاء على الفقر، وإنما هو زيادة فعالية العمل وإنتاجيته عند البعض، والقذف بالبعض الآخر إلى فئة البائسين<sup>(٧٢)</sup>.

---

(٧٢) س. كنيازيف. إلى الأمام نحو الرأسمالية. مجلة "ناش سوفريميتك"، العدد ١٠، ١٩٩١.

## مستويات الدخل

مألف في الأدبيات السوسيوولوجية والاقتصادية الغربية تقسيم السكان إلى ثلاثة مستويات (طبقات، فئات)، هي العليا، والوسطى، والدنيا. والأساس في هذا التقسيم هو حجم الملكية والدخل. وكل مستوى من هذه المستويات ينقسم بدوره إلى مستويات فرعية، هي في العادة ثلاثة. فالمستوى المتوسط، مثلاً، ينقسم حسب أحد هذه التصنيفات إلى مستويات فرعية هي:

١ - مالكو المنشآت الصغيرة، والمتاجر المحلية، والمزارع الصغيرة.

٢ - مديرو الشركات وممثلو المهن عالية المستوى.

٣ - موظفو المكاتب، والمعلمون، والكادر الطبي الأدنى...إلخ.

وتنقسم الطبقة الدنيا إلى عمال مؤهلين، وعمال غير مؤهلين، وعمال من الأقليات الإثنية. وحسب تصنيفات أخرى يندرج في الطبقة الدنيا العاطلون عن العمل، ومن يقل دخلهم عن الحد الأدنى عموماً.

إن هذا النوع من التصنيفات مصطنع بشكل واضح للعيان. إذ لماذا هذه المستويات ثلاثة وليست أربعة أو خمسة؟ فثمة في الواقع خط متواصل من مستويات الملكية والمداخيل، لا وجود فيه فعلياً لنقاط حدود طبيعية. إلا أن الدور الحقيقي لهذه التصنيفات هو دور إيديولوجي يرمى إلى الاعتراف بحقيقة وجود الفوارق الاجتماعية والمادية، ثم توجيه أنظار الناس إلى المعدل الوسطى المريح للدفاع عن هذه التصنيفات. فعندما يقولون إن الفئة العليا تشكل خمسة بالمئة من السكان، والفئة الدنيا عشرة بالمئة، والوسطى سبعين بالمئة، فما على منتقدي المجتمع إلا الصمت. إذ يندرج في الطبقة الوسطى، حسب هذا التصنيف، أصحاب المشاريع الصغار والمتوسطون، وموظفو الدولة، والمحامون، والفنانون، والاختصاصيون المؤهلون، والأطباء...إلخ. فعن أى صراع طبقي، عندئذ، يمكن أن يدور الحديث؟!

وغالباً ما يصعب على سكان البلدان الغربية أنفسهم تحديد هوية فئتهم الاجتماعية اعتماداً على هذا التصنيف. وتفيد بعض معطيات استطلاعات الرأي بأن ٨٠ بالمئة من الأمريكيين يصنفون أنفسهم في عداد الطبقة الوسطى، بينما تفيد معطيات استطلاعات أخرى بأن هؤلاء لا يشكلون سوى ٤٣ بالمئة.

إن تقسيم السكان إلى شرائح عليا ووسطى ودنيا، وتحديد عددهم، ليس نهاية تحليل البنية الاجتماعية للسكان. إنه مجرد بداية التحليل. فالشريحة الوسطى ليست مجرد واحدة من الشرائح إلى جانب شرائح أخرى. إنها سكان البلاد الأساسيون الذين يجب دراسة بنيتهم الاجتماعية أيضاً. ذلك أن هذه البنية تحديداً هي التي تشكل أساس الغربوية.

## المكانة الاجتماعية والعلاقات الشخصية

مكانة المرء الاجتماعية توصيف إجمالي تحدده عوامل عديدة، منها مستوى الثروة والمداخيل، والوضع فى سلم هرم المواقع الاجتماعية، وأهمية المهنة، ودرجة الشهرة، ودرجة التحصيل العلمى، والمستوى الثقافى، وبيئة التواصل والعلاقات مع الآخرين، وآفاق العمل الواعدة، وغير ذلك.

إن المكانة الاجتماعية الواحدة تجمع أناساً من مختلف الفئات فى مجموعة واحدة. فعلى سبيل المثال، قد يندرج فى مجموعة واحدة السياسيون، والمصرفيون، والراقصون، ونجوم السينما، والعلماء الذين لا تجمع بينهم أى علاقات تجارية أو رسمية. أمّا تباين المكانة الاجتماعية فيشتت زملاء العمل، وحتى الأقرباء، فى كثير من الأحيان، إلى مجموعات مختلفة.

تتشكل فى المجتمع مجموعات عديدة يتألف كلُّ منها من أفراد تربط بينهم علاقات شخصية، ويتمتعون بمكانة اجتماعية متماثلة بهذا القدر أو ذاك. وتتنظم هذه المجموعات فى تراتبية معينة، وتقوم فيما بينها تقاطعات من شتى الأنواع، وبناء على ذلك تنشأ متحدات، وفئات، وطبقات... إلخ. أكثر اتساعاً وتعقيداً. وبهذه الطريقة يغدو المجتمع جملة من بشر تربط بينهم علاقات شخصية، ويتخذون مواقعهم تبعاً لوضعهم الاجتماعى.

لم يتح لى الحصول على أرقام تبين نسبة ما يجرى ويؤخذ داخل هذه المجموعات والشرائح من عمليات وقرارات فى مجال البنس، أو تكشف عن دور هذه القرارات والعمليات فى حياة الناس. ومن المستحيل عملياً دراسة هذا الجانب من العلاقات



الاجتماعية في المجتمع الغربي نظراً لطابعه السري، وتعذر التثبيت مما يقال رسمياً. ولكنني أعتقد أن هذه القرارات والعمليات تشكل نسبة عالية، ولها أهمية هائلة.

وبهذا المعنى يبنى الهيكل السكاني (تقسيم السكان) بطريقة تختلف عن الطريقة المعروفة في مجال العمل (البرنس)، ويمكن تسمية هذا التقسيم بالهيكل الاجتماعية. هنا تتشكل خلايا هذه الهيكل وأنسجتها وأعضاؤها. ويمكن أن نجد تصويراً لحياتها في الأعمال الأدبية والأفلام السينمائية، وفي الصحافة أيضاً. غير أنني لست مطلعاً على دراسات علمية تعميمية في هذا الموضوع، وأشك في أنها موجودة أصلاً، لأن ذلك من المحرمات في المجتمع الغربي.

### دينامية السكان العمودية

تطلق عبارة "دينامية السكان العمودية" على انتقال الناس من فئة (طبقة) إلى أخرى، أعلى أو أدنى، أي على صعودهم أو هبوطهم في السلم الاجتماعي. ويحاول رجال الدعاية والإيديولوجيا الغربية خلق مظهر يوحي بأن المجتمع الغربي هو مجتمع الفرص المتكافئة، وأن أي شخص يستطيع الارتقاء، من حيث المبدأ، من الشرائح الدنيا إلى الشرائح العليا. ويضربون الأمثلة بأناس جمعوا خلال أجال قصيرة ثروات هائلة، أو حققوا نجاحات في ميادين أخرى. غير أن العديد من المؤلفين الغربيين<sup>(٧٣)</sup>. يؤكدون أن الدينامية العمودية قليلة الأهمية في البلدان الغربية. ويرى هؤلاء أن الشرط الرئيس، بالنسبة لمعظم الناس، لكي يحظى المرء بالمكانة الاجتماعية التي كانت لوالديه، أو لكي يرتقى إلى مكانة أعلى منها، هو ولادته في فئة معينة، وليس عوامل أخرى.

---

(٧٣) مثلاً: William Rubinstein. The Rich in Britain. 1986

لقد كانت الدينامية العمودية في البلدان الشيوعية إبان فتراتنا الأولى عالية بشكل غير عادي. وهذا أمر مفهوم، إذ راحت تتكون من جديد تراتبية اجتماعية تشكلت مستوياتها العليا من أبناء الفئات الدنيا، أي من "عامّة الشعب". ولكن بعد جيل واحد تراجع هذا المسار، وبعد جيلين أصبحت ميزات المولد هي العامل المهم والثابت في الارتقاء الوظيفي، والنجاح في الحياة عموماً.

أعتقد أن المؤشرات الإجمالية لدينامية السكان العمودية قليلة الدلالة في ما يتعلق بالوضع الحقيقي للمجتمع من وجهة النظر هذه. ولابد هنا من معرفة المؤشرات الخاصة بمختلف فئات المجتمع. فأبناء الفئات التي تعمل في الجانب الكومونالي من المجتمع يتمتعون بفرص أفضل للارتقاء في سلم المواقع الاجتماعية. كما أن الدينامية العمودية في الدرجات الدنيا من السلم أقوى مما هي في الدرجات العليا.

## الإرث

يوجد في المجتمع الغربي شكلان للوراثة، الأول منهما هو الوراثة القانونية للقيم المادية (ممتلكات، أراض، أموال، وسندات مالية) ولشاريع الوالدين وغيرهما من الأشخاص. على أن هذا الشرط، تاريخياً، كان ضرورياً لظهور الرأسمالية وتعززها. وبمرور الزمن طرأت بعض التغييرات على هذا الشكل من الوراثة، إلا أن جوهره بقي كما كان .

غالباً ما يواصل عدد كبير من الورثة عمل أسلافهم في مجال البنزنس الصغير والمتوسط (والكبير إلى حد ما)، بدافع ضرورة كسب العيش. غير أن وراثة مهن الآباء في مجال البنزنس الذي يحدد الاتجاه الرئيس في الاقتصاد لا تقع إلا نادراً، وبطرق غير قانونية. وكثيرون من أبناء رجال الأعمال يفضلون مهناً من نوع آخر.

لا تزال وراثة القيم المادية أساساً ثابتاً من أسس المجتمع. صحيح أن القيود القانونية (الضرائب) موجودة هنا، ولكنها لا تغير من جوهر الأمر، ناهيك عن وجود

سبل للالتفاف عليها. والقيم الموروثة أبعد من أن تستعمل بكاملها كرأس مال، فالكثير منها يُنفق على متطلّبات المعيشة، ولكن قسماً مهماً منها يستخدم كوسيلة للكسب وتكديس الثروة، بمقتضى الظروف الجديدة. وهاكم مثلاً على ذلك. يوجد فى ألمانيا حوالي مليون شخص يملكون منازل، وشققاً، وقطعاً من الأرض تقدر قيمتها بثلاثمائة مليار مارك. وهذه الممتلكات يجرى توارثها، ما يوفر للوارثين مداخيل عالية عموماً. وعلى هذا النحو تنشأ فئة خاصة من الأثرياء يزدادون ثراءً من جيل إلى آخر، نتيجة لحق الإرث حصراً. وفى الوقت ذاته يزداد عدد من لا يملكون شيئاً كهذه، فتغدو أجور السكن هماً يلازمهم مدى الحياة، لأن مالكي المساكن ينهبونهم بكل معنى الكلمة. وينجم عن ذلك أن يجد أصحاب المداخيل، حتى العالية نسبياً، أنفسهم ضمن فئة الفقراء. أمّا على صعيد الاقتصاد إجمالاً، فإن الإثراء بالوراثة لا يشكل الآن الأسلوب الرئيس للإثراء، كما اعتقد، وإن كنت لم أقع على معطيات محددة بهذا الخصوص.

أمّا الشكل الثانى من أشكال الوراثة فهو وراثة المكانة الاجتماعية. وهذا الشكل لا يأتى عن طريق المعايير القانونية، بل بفضل ما يخلفه الوالدان والأقرباء للوارثين من إمكانات تؤهلهم للاحتفاظ بالمستوى الاجتماعى نفسه، وحتى لمزيد من الارتقاء على درجاته. والوارثون لا يشقون طريقهم فى الحياة انطلاقاً من الصفر، وإنما من مستوى عالٍ إلى هذه الدرجة أو تلك، إذ يجرى إعدادهم سلفاً للقيام بوظائف معينة وللصراع من أجل النجاح.

إن الدور الذى يلعبه هذا الشكل من التوريث لا يقتصر على اهتمام الوالدين بالأولاد والأحفاد، بل هو ظاهرة لها دلالتها وجدواها اجتماعياً. ففي مجتمع كبير يتصف بقدر هائل من تنوع الوظائف التى يقوم بها الناس، ويتنوع درجات أهمية هذه الوظائف، يستحيل أن يبدأ كل الأبناء طريقهم فى الحياة من الصفر، وأن يتلقوا التأهيل نفسه. ولا بد أن ينطلق هؤلاء من مستويات مختلفة، وبإمكانات مختلفة. وعليه،

فإن تصوير المجتمع الغربى على أنه مجتمع الفرص المتكافئة ليس إلا خرافة إيديولوجية لا يصدقها أحد.

أما الشكل الثانى من أشكال الوراثة فيتصف بمزيد من الأهمية، ويزيح الشكل الأول إلى المرتبة الثانية. وهذا الشكل هو الرئيس فى المجتمع الشيوعى.

## مبادئ التوزيع

هل ثمة مبادئ عامة لتوزيع الخيرات، يسرى مفعولها على أعضاء المجتمع كافة، أو على الغالبية منهم على الأقل؟ عندما أعلن ماركس أن قوة العمل سلعة، طرح المبدأ التالى: يتلقى العمال المأجورون مقدار ما يساؤون. ولكن كيف تُقدر قيمتهم؟ تُقدر هذه القيمة بالنفقات الضرورية اجتماعيا "لصنعهم". ولكن كيف تُقدر هذه النفقات؟ إن الوسيلة العامة لذلك هى بالضبط بيع قوة العمل. نحن إذن فى حلقة مفرغة.

لقد صاغ ماركس فى نظريته عن المجتمع الشيوعى مبدأين للتوزيع، أحدهما مبدأ الدرجة الدنيا من الشيوعية، وهو: لكل "حسب عمله"، والثانى مبدأ الدرجة العليا من الشيوعية، وهو: لكل "حسب حاجته". ولكن كيف نقارن بين أعمال أناس يعملون فى مهن مختلفة (وعدها عشرات الآلاف!)، مستويات كفاءتهم مختلفة، وقدراتهم مختلفة؟ وماذا يعنى القول "حسب الحاجة"؟ هل يعنى تلبية جميع الحاجات أياً كانت، أم فقط تلك الحاجات التى يعترف المجتمع بأنها حاجات لهذا الفرد؟ مختصر القول، إن كل هذه المبادئ ليست إلا عبارات فارغة، كلاماً نافلاً، أو شعارات إيديولوجية.

أعتقد أنه لا يوجد للتوزيع مبدأ عام، شامل، يسرى مفعوله على الناس كافة فى المجتمع الغربى، إلا إذا نظرنا إلى السفسطة والمواظب الأخلاقية، من قبيل "لكل نصيبه"، على أنها مبادئ للتوزيع عامة، شاملة. أما فى الواقع فيدور صراع من أجل

خيرات الحياة المادية يسعى فيه كل فرد لاستخدام وضعه وقواه وقدراته. بعضهم يستخدمون فى سبيل ذلك رأس المال والأموال المكتسبة أو الموروثة، وبعض آخر يعتمد على الارتقاء فى الوظيفة، وفريق ثالث يبيعون قدراتهم، وفريق رابع يقومون بتحسين مؤهلاتهم، وفريق خامس ينخرطون فى العمل الحر، وبعض سادس يلجأ إلى النهب والسرقه... أى أن الناس، باختصار، يعملون للحصول على الخيرات بالطرق المتاحة لهم فى مجتمعهم.

هناك منظومة مبادئ متداخلة مع المسار العام لنشاط الناس الحيوى. فعن طريق التجربة، ونتيجة لصراع المصالح، يتم العثور على معايير لمكافأة الناس على عملهم. وتترسخ هذه المعايير بالاتفاقات والقوانين والعادات. ولهذا المجال أيضاً مبادئه الخاصة التى يسرى مفعولها فى نطاقات ضيقة إلى هذا الحد أو ذاك. وعلى سبيل المثال، فإن الشخص الذى يشغل منصباً أعلى من منصب شخص آخر، فى إطار مجال الأجر نفسه، يجب أن يتقاضى أجراً أكبر من هذا الشخص الآخر. وقلّة من يعترض على هذا المبدأ. وعلى النحو ذاته، من البديهي أن يحصل رجل الأعمال الذى ينظم عمله على نحو أفضل من غيره، على دخل أعلى. على أن هذه الدخول لا تحددها أى مبادئ.

وتفعل مبادئ الرأسمالية ومبادئ الكومونالية فعلها، سواء بسواء، فى نظام التوزيع فى المجتمع الغربى، حتى إن ذلك يجرى على نحو يصعب معه التفريق بين هذه وتلك. ولنأخذ، على سبيل المثال، القانون الاجتماعى الذى يسعى بموجبه كل فرد إلى نهب أكبر قدر يتيح وضعه وقواه وقدراته. يتجلى هذا القانون فى مجال اليزنس كمبدأ لنشاط رجال الأعمال فى إطار المعايير الحقوقية، بينما هو ينعكس فى "الطبقة السياسية" فساداً، واستغلالاً للمنصب لأغراض شخصية أنانية.

الثروة ورأس المال

أعتقد أن من الضروري أن نشدد على الثروة فى بنية المجتمع الغربى الاجتماعية، لا بوصفها مجرد امتلاك للأشياء، بل كمقولة اجتماعية مميزة، من النمط ذاته الذى ينتمى إليه "رأس المال"، و "العمل المأجور"، و "البيروقراطية" ...إلخ. ولهذا الغرض لا بد فى المقام الأول من تبيان العلاقة بين الثروة ورأس المال.

لا يمكن النظر إلى كل ثروة على أنها ثروة تتراكم وتؤدى وظيفتها كرأس مال، ولا إلى كل شخص غنى على أنه رأس مالى، ولا إلى كل رأس مالى على أنه غنى. فرأس المال عموماً ليس ثروة، بل قد لا يكون إلا وسيلة للحصول على الثروة، ولكنه ليس الوسيلة الوحيدة إطلاقاً. وثمة فى المجتمع الغربى أساليب عديدة جداً للإثراء، تختلف عن الأسلوب الرأسمالى، منها وراثه الممتلكات والأموال، والمرتب العالى لقاء المنصب، والاحتياى فى مجال الممتلكات والمال، والقمار، والسلب، والجريمة المنظمة، وأجور الاكتشافات والاختراعات، والمكافآت الضخمة، والنصب والغش... وسوى ذلك.

فالثروة هى جملة من الأشياء التى لها قيمة، كالأرض، والمباني، والمعادن، والأشياء الثمينة (أثاث، أنية، ملابس، سجاد، لوحات، ومجموعات ثمينة من كل نوع...إلخ) والنقود، والسندات المالية طبعاً. ويدهى أنه ليس أى جملة من القيم ثروة، وما الثروة إلا ما يزيد عن حد يُعتدُّ به اجتماعياً، وتحدده ظروف المجتمع المعنى. فما هو ثروة فى متحد بشرى ما وفى ظروف معينة، قد لا يكون كذلك فى متحد بشرى آخر وظروف أخرى.

ولكن الثروة ليست مجرد جملة من القيم، مثلما أن رأس المال ليس مجرد نقود تدرُّ ربحاً. فالثروة لا توجد بمعزل عن كل شىء، بل توجد كملكية عند نوع من الناس يعيشون بين أناس آخرين، وينخرطون معهم فى علاقات اجتماعية معينة. ومن يمتلكون الثروة يشكلون طبقة اجتماعية متميزة تمثل ظاهرة من ظواهر البنية الاجتماعية فى المتحدات البشرية.



إن البشر، بصرف النظر عن تنوع الطرق التي يتبعونها لاكتساب ثروتهم، وأياً كان تنوع نمط حياتهم، يشكلون مجموعات بشرية على أساس الصلات الشخصية. وتندمج هذه المجموعات في شرائح موحدة على نطاق مناطق كبيرة، وبلدان وقارات بكاملها. وهي تقوم بوظائفها كنسيج واحد، أى تحديداً كطبقة، لا بالمعنى المنطقي فقط بل وبالمعنى الاجتماعي أيضاً.

تنشأ طبقة الأغنياء في كل مجتمع تتوفر فيه فرصة لمراكمة الثروات. وتظهر هذه الطبقة كشيء تفرزه العلاقات الاجتماعية الأساسية. ولكنها بعد أن تظهر وتترسخ تغدو سيدة المجتمع. أى أنها، بكلام أدق، توحد الشرائح السائدة في المجتمع ضمن جماعة من الأغنياء متميزة واحدة. ولا تكون هذه الطبقة كثيرة العدد نسبياً، ولكنها تملك حصة الأسد من ثروات المجتمع، ومصادر الدخل الأساسية، وأفضل سبل النجاح والارتقاء في العمل، ووسائل النجاح في الحياة عموماً.

تحافظ طبقة الأغنياء على ثروتها وتضاعفها بشتى الطرق، سواء في ذلك الطرق غير الرأسمالية (تطرفت إليها أعلاه)، أو الطرق الرأسمالية. بودى أن ألفت الانتباه بشكل خاص إلى أن التعامل بمبالغ مالية ضخمة في المستويات العليا من النظام النقدي، وضم تلك المبالغ إلى الحياة الشخصية مسألة تخرج عن إطار البنزنس الرأسمالي بالمعنى الخاص للكلمة. وما نعينه بذلك هو اللعب في البورصة، وعمليات النصب والاحتيال المصرفية الكبيرة، وما تقوم به المؤسسات المالية العليا من مضاربات بالعملات الصعبة، والعمليات المالية التي تقوم بها الدولة على نطاقات واسعة، والعمليات التي تكون على مستوى الاقتصاد الرمزي عموماً، والعلاقات المتبادلة بين البنزنس وممثلي السلطة. فوسائل الإعلام الجماهيرى تكشف بين حين وآخر عن حالات يتبين منها كيف تتسرب مبالغ هائلة إلى جيوب ممثلي طبقة الأغنياء بطرق لا رأسمالية. وصار من الشائع القول إن لمعظم الثروات الكبرى مصادر إجرامية، أى أنها جاءت بأساليب إثراء غير رأسمالية تنسب إلى الرأسمالية.

ليست طبقة الأغنياء ظاهرة من ظواهر الجانب العملي في المجتمع، بقدر ما هي من ظواهر جانبه الكومونالي، وهذا ما يمكن أن نلاحظه بكل جلاء في البلدان الشيوعية والشيوعية السابقة. ففي روسيا السوفيتية لم تكن ثمة طبقة رأسماليين، ولكن تكوّنت شرائح من الأغنياء في هذا البلد. وهذا ما نبّه إليه العديد من المؤلفين في الأوساط الشيوعية، ورأوا فيه مؤشراً على ارتداد المجتمع الشيوعي إلى مجتمع رأسمالي. أمّا في الواقع فقد كان ذلك عبارة عن تشكل طبقة لا رأسمالية من أناس أغنياء في إطار المجتمع الشيوعي على أساس كومونالي محض. فقد نشأت هذه الطبقة من بين موظفي الحزب والدولة، ومدراء المصانع الذين توفرت لهم فرص للإثراء الشخصي، ومن رجال الثقافة الذين يتقاضون مرتبات عالية، وزعماء التنظيمات الإجرامية، والمحتالين وسواهم من فئات المواطنين الذين كانوا في المجتمع الشيوعي على علاقة بالمال والقيم المادية.

تحولت طبقة الأغنياء الشيوعية هذه لتصبح السيد الفعلي في المجتمع السوفيتي، فراحت تجنّد في صفوفها المواطنين الأكثر نفوذاً وجنوحاً نحو الإثراء. ثم كانت هذه الطبقة ركيزة لتلك التحولات التي بدأت في المجتمع السوفيتي عام ١٩٨٥ وأدّت إلى انهيار الاتحاد السوفيتي، والوضع الكارثي الذي شهدته البلاد. ونتيجة لهذه التحولات طفت على السطح تلك الطبقة من الأغنياء وتم الاعتراف بشرعيتها، بعد أن كان وجودها سرياً، بل وكانت تعد طبقة مجرمة.

لقد صورت الدعاية الغربية هذا المسار على أنه انتقال إلى الديمقراطية واقتصاد السوق الرأسمالية. بينما كان ذلك في واقع الأمر عملية في إطار الشيوعية. إذ كانت تتشكل وتترسخ بسرعة جامحة تلك الطبقة غير المنتجة والمؤلفة من الأغنياء، فوضعت يدها على الاقتصاد برمّته، وأبقت على فرص زهيدة للرأسمالية. وهذا تحديداً ما شكّا منه كثير من رجال الأعمال الروس الذين حاولوا العمل وفقاً لقوانين الرأسمالية.

احتفظت الملكية الخاصة بكامل قوتها بالنسبة لطبقة الأغنياء فى المجتمع الشيوعى كشرط لوجود هذه الطبقة. وفى هذه الحالة لم يكن ذلك وسيلةً لتنظيم حياة المجتمع العملية كما هو الحال فى ظل الرأسمالية، بل كان وسيلة لإرضاء الأناية الطبقيية. ذلك أن طبقة الأغنياء هذه ليست طبقة منتجة، وما من شىء يخفف من وطأة طفيليتها قليلاً إلا إتاحة الفرصة لمثلئى البرزنىس بالانتماء إليها. إن نقاد المجتمع الغربى، كقاعدة عامة، يساوون بين طبقتى الأغنياء والرأسمالين، فينسبون إلى طبقة الرأسمالين عيوب طبقة الأغنياء.

## مجال الكومونالية

لم تنشأ الغربوية كشىءٍ فقس من "بيضة"، أو انبثق من "نقطة انطلاق" واحدة، بل كانت ثمرة اندماج بين كثير من العناصر المختلفة الأنواع فى تاريخ البشرية، ونتيجة لما لا يتكرر من التداخل بين ظروف تاريخية متنوعة. إنها نمط تنظيم للمجتمع، نمط تعددى من حيث المنشأ. وقد أبرزتُ أعلاه من بين مصادرها (منابعها) التاريخية العديدة ثلاثة مصادر أساسية، هى المصدر العملى، والكومونالى، والإنسانى. ولما كنت قد تناولتُ الأول منها بشكل عام، فإننى أنتقل الآن إلى بحث المصدر الثانى، ليكون هذا البحث فى الوقت نفسه بحثاً فى الجانب الكومونالى من الغربوية المكتملة النضج.

لقد تطور الجانب الكومونالى (الجماعية) من الغربوية بقدر واحد من الضخامة التى طبعت تطور جانبها العملى. بل ويمضى الجانب الكومونالى نحو مزيد من الاتساع والقوة. وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن مهيمناً فى البلدان الشيوعية وحدها، بل ونجد شيئاً مماثلاً لتلك الهيمنة فى مصر القديمة، والصين، وفى بيزنطة، وروسيا قبل الثورة. لقد كانت الشيوعية السوفيتية نتيجة وخاتمة للتاريخ الروسى بوصفه فى معظمه تاريخ مؤسسة الدولة، أى بوصفه تاريخاً كومونالياً.

وفى مجرى التطور التدريجى فى إطار النمط ذاته يتغير التناسب بين الجانبين العملى والكومونالى مع مرور الوقت. ولعلّ اتساع الكومونالية وهيمنتها يصبحان نتيجة نهائية للتطور الهادئ لآى كيان اجتماعى كبير بقدر كاف. وفى هذه الحالة لن يكون أمام المجتمع الغربى مفرُّ من هذا المصير. عندئذ سيكون فى مقدورنا أن نقول إن الغرب بلغ سقف تقدمه، وبدأت مرحلة وجوده خارج التاريخ. ولكن ذلك لا يعدو كونه افتراضاً، فقد يحدث بكل بساطة أن تؤدى أسباب خارجية ما إلى جعل الغرب لا يعيش حتى هذه النهاية "الطبيعية".

يتألف طور الكومونالية من اجتماع نوعين من الظواهر:

١ - ظواهر تتيح لعدد كبير من البشر أن يعيشوا ككل واحد، وأن يتوالدوا، ويحافظوا على أنفسهم فى الزمان، وأن يلتزموا نظاماً داخلياً فى العلاقات بين مختلف أجزاء الكل، ويدافعوا عن أنفسهم فى وجه القوى الخارجية الهدامة.

٢ - وأخرى تتيح للظواهر المشار إليها فى البند الأول أن تعيد إنتاج نفسها تلقائياً، وأن تندرج فى أطر معينة.

ولزيد من الدقة، يندرج فى عداد ظواهر كلتا المجموعتين:

أولاً: مجمل أجهزة السلطة والإدارة على صعيد البلاد ككل، وعلى صعيد تقسيماتها الإدارية حتى أصغرهما، والجهاز الإدارى - البيروقراطى، والشرطة، والمحاكم، والسجون، والجيش، والأجهزة السرية، وعموماً جميع المؤسسات الخاضعة لأجهزة السلطة والعاملة فى خدمة أهداف النظام العام وحماية البلاد. أى، باختصار، الدولة بالمعنى الضيق للكلمة، أو مجال مؤسسة الدولة.

وثانياً: مجمل المعايير الحقوقية (القانونية)، وكذلك جملة المؤسسات والأشخاص العاملين على تطبيق هذه المعايير، أى العاملين فى المجال الحقوقى.

وثالثاً: شتى أنواع الظواهر فى حياة السكّان العامّة (الاجتماعية، خلافاً لقطاع العمل الحر) فى البلاد، كالمنظمات الاجتماعية، والأحزاب، والحركات،

وأنشطة المواطنين الطوعية لما فيه مصلحة مختلف مجموعات السكان وشرائحهم وطبقاتهم، وكذلك مصلحة البلاد عامة، أى المجال العام أو المجال المدني ("المجتمع المدني").

لقد تشكلت كومونالية الغربية وترسخت فى نوع خاص من الأجهزة والمؤسسات والتنظيمات، أى فى ما هو مرئى إمبريقياً من أعضاء الكيان الاجتماعى، ونطلق عليه تسميات إجمالية مثل "الدولة"، و"الحق"، و"المجتمع المدني". على أن هذه التسميات لا تحيط بمجال الكومونالية، غير أننى أعتزم دراسته لاحقاً فى تجلّيه هذا.

## النموذج الكلاسيكى

تنقسم البلدان الغربية ("الدول القومية") داخلياً إلى وحدات إقليمية صغرى، بينما تقوم فى اتجاه آخر بتشكيل متحدات كبرى، أى تكتلات، وأحلاف، واتحادات. وتوجد ظواهر الكومونالية على مستويات هذه الأشكال كافة. ولكن الكومونالية بكامل حجمها، وبشكلها الأكثر اكتمالاً تتمركز فى أيامنا هذه على مستوى البلدان ذات السيادة ("الدول القومية")، الأمر الذى سجله ت. هوبس فى زمنه. وهذا المستوى هو الذى يحدد المستويات الأخرى. فمنه "يهبط" جزء معين من عناصر الكومونالية إلى "تحت"، نحو تفرعات أصغر، بينما "يرتفع" جزء منه إلى "فوق"، نحو اتحادات أضخم. وعلى هذه المستويات تنشأ منظومات الكومونالية الخاصة بها، علماً بأنه يستحيل، فى تراتبية المتحدات البشرية، وجود أكثر من منظومة كومونالية واحدة تامة وناجزة نسبياً، هى حصراً تلك التى تتمتع بالسيادة. أمّا أن تنقذ حكومة بلد ما إرادة حكومة بلد آخر، فتلك مسألة لا أهمية لها هنا. إنها مجرد تبعية كومونالية ذات سيادة بالمعنى السيسولوجى لكومونالية أخرى، ولفهم كومونالية الغربية بوصفها كذلك، ينبغى أن ندرس وضعها فى البلدان الغربية المعاصرة (ذات السيادة حتى الآن!)، أى فى شكلها الناجز كلاسيكياً. وإذا ما فقدت هذه البلدان سيادتها القومية و"ذابت" فى

متحد أوسع، فسوف تتشوه الكومونالية وتتمزق على نحو يفرض بالضرورة بذل جهود لاستكشاف القوانين الداخلية التي لا تزال حتى الآن قابلة للمراقبة والدراسة دونما عناء خاص.

عند النظرة الأولى إلى مجال كومونالية البلدان الغربية يلفت الانتباه تفتت هذا المجال وتبعثره بالمقارنة مع الصورة التي كان عليها في البلدان الشيوعية. ومع ذلك ينبغي في نقطة انطلاق بحثنا أن نتناوله ككل واحد، وأن ننظر إلى تفتته كتقسيم للوظائف، وانقسام للأجزاء عند أداء هذه الوظائف. وهذه الطريقة تناسب العلاقة الفعلية القائمة فيما بين عناصر الكومونالية، كما يبين التحليل الأكثر تمحيصاً.

يمكن أن تكون هناك علاقات مختلفة بين أجزاء الكومونالية في إطار نظام من نمط واحد، ويمكن أن تكون هذه العلاقات متقلبة أيضاً. ولنأخذ على سبيل المثال النظام السياسي في إيطاليا، لقد كان هذا النظام على مدى خمسين عاماً تقريباً في حالة أزمة دائمة. وكان ذلك يخلف لدى المراقب الحيادي انطباعاً بأن إيطاليا على حافة كارثة سياسية. غير أن هذه السنوات مرت دون أن تقع أية كارثة. فالأزمات الوزراية في إيطاليا لم تكن بحد ذاتها أزمة مؤسسة الدولة عموماً. إذ إن هذا النظام بوصفه كلاً ظلّ يتمتع بقدر كاف من القوة والثبات مكّنه من الحفاظ على البلاد "دولة قومية" ذات سيادة، والحفاظ على النظام العام في مستوى مقبول. كما شهدت فرنسا في عهد الجمهورية الرابعة أزمات سياسية متكررة ومديدة خلقتها الأحزاب في البرلمان. ولكن ذلك لم يكن عائقاً يحول دون قيام عمال النقل والتنظيفات بأعمالهم، ودون الالتزام بالقانون والنظام العام، ولم يمنع جهاز الإدارة من القيام بوظائفه. فالكومونالية عموماً كانت قوية ما فيه الكفاية بحيث حافظت على حياة المجتمع في حالة طبيعية إلى هذا الحد أو ذاك. وعلى نحو مماثل أيضاً، لم تكن الحكومة المركزية "الضعيفة" في الولايات المتحدة الأمريكية دليلاً على ضعف مجال الكومونالية بشكل



عام، إذ الأرجح أن يكون هذا المجال هناك أقوى مما هو في باقى البلدان الغربية التى فيها سلطة مركزية قوية.

## احتمالات

إن مجالات الكومونالية فى البلدان الغربية على قدر كبير من التنوع. إذ يوجد نظام ملكى فى إنجلترا، وهولندا، وبلجيكا، والدنمارك، والسويد، والنرويج، وإسبانيا، بينما يوجد نظام حكم جمهورى فى فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، والنمسا. ومن ناحية أخرى فإن الولايات المتحدة الأمريكية، وألمانيا، والنمسا دول فيدرالية، بينما فرنسا، وإيطاليا ليستا كذلك. والرئيس فى الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا "قوى"، بينما هو "ضعيف" فى ألمانيا والنمسا. ورأس الدولة فى أنظمة الحكم الملكية ليس الرئيس، بل هو الملك. ثم إن الشخص الأول فى نظام السلطة السياسية فى إنجلترا هو رئيس الوزراء، وفى ألمانيا المستشار، وفى الولايات المتحدة وفرنسا الرئيس. وفى الولايات المتحدة تلعب المحكمة العليا دوراً كبيراً، أما فى أوروبا الغربية فإن هذا العنصر الثالث من عناصر الدولة لا يسمع أحد عنه شىء تقريباً.

ومن السهولة بمكان أن نلاحظ الاختلاف فى الدساتير أيضاً. فلا وجود فى إنجلترا للدستور عموماً بالمعنى الخاص للكلمة. بل تحل محله وتنبو عنه تشريعات أُقرت فى أوقات مختلفة (بدءاً من Magna Charta Libertatum عام ١٢١٥ وانتهاء بالقوانين البرلمانية فى العامين ١٩١١ و١٩٤٩، إضافة إلى الأعراف المتوارثة غير المكتوبة)، وتقاليد "الثقافة السياسية". أما الدستور الأمريكى فقد دخل حيز التطبيق عام ١٧٨٩، وفى العام ١٧٩٠ أبرمته الولايات الثلاث عشرة كلها. كما أُقر دستور بلجيكا عام ١٨٣١، وعُدل عام ١٩٨٨، وأقر دستور الدنمارك عام ١٩٤٩ وعُدل عام ١٩٧٦، وفى إيطاليا أقر الدستور عام ١٩٤٧ وعُدل عام ١٩٦٧. إلخ. وهكذا نرى أن بعض هذه الدساتير عدل مع الزمن، بينما بقى بعضها الآخر دون تعديل.

وقد تبدل رؤساء مجلس الوزراء في إيطاليا أكثر مما تبدلوا في إنجلترا، ولكن ذلك لا يعنى أن النظام السياسى فى إيطاليا أقل استقراراً من نظيره فى إنكلترا. ويشارك فى الانتخابات الإيطالية على الصعيد القومى تسعون بالمئة من الناخبين، فى حين لا يشارك فى انتخابات الرئاسة الأمريكية أكثر من خمسين بالمئة. وفى العام ١٩٩٢ شارك فى الانتخابات الرئاسية الأمريكية ٤٥ بالمئة من الناخبين، الأمر الذى عدّ مشاركة نشطة لم يسبق لها مثيل، ولكن ذلك كله لا يعنى شيئاً فى ما يتعلق بمزايا وعيوب المجال السياسى الإيطالى والأمريكى سواء بسواء. ومن الخطأ هنا تقرير ما يتطابق مع المعايير وما يخالفها، انطلاقاً من مؤشرات ما .

## نمط الكومونالية

بصرف النظر عن الفوارق المذكورة أعلاه، ثمة فى البلدان الغربية ما هو عام، الأمر الذى يسمح بالحديث عن نمط خاص من الكومونالية، هو الكومونالية الغربية. ويتميز هذا النمط بنوع الوظائف التى يؤدىها المجال الكومونالى فى المجتمع، وبالعلاقات بين هذه الوظائف، وبطريقة إعادة إنتاج نظام الكومونالية، وبنيته... إلخ. فليس جوهرياً، مثلاً، اسم هذا المنصب أو ذاك، ولا من يشغله، سواء أكان الملك، أو الرئيس، أو رئيس الوزراء، أو المستشار. المهم هو أن هذا المنصب موجود، وله وظائف معينة، وأن الشخص الذى يشغله يقوم بهذه الوظائف وفق ما تقتضيه قوانين الدولة.

## المقاربة الذاتية والمقاربة الموضوعية

إن المقاربة الذاتية هى الغالبة فى فهم مجال الكومونالية. وهذا أمر عادى، ففى هذا المجال يتجلى بوضوح خاص، بل ومبالغ فيه، طابعُ الوعى والإرادة الذى يسم سلوك الناس. وتتجلى ذاتية المقاربة على وجه الخصوص فى أن الناس يرون مصادر

عيوب الدولة فى صفات كبار الموظفين الشخصية، ويتوقعون أن يحسن الحكام الجدد الوضع جذرياً، ويطرحون خططاً لتحسين الوضع غير ملتفتين إلى القوانين الموضوعية. ولا يحاول إلا عدد قليل من المؤلفين (ماكس فيبر، مثلاً، فى دراسته ظاهرة البيروقراطية) التزام المقاربة الموضوعية وتناول الكومونالية كما هى بحكم قوانين هيكلتها وقيامها بوظائفها، وكذلك فى الوضع الذى تتيحه الظروف لها كجماعة من البشر لهم مصالحهم الأنايية.

ويدهى أن يكون للنظريات التى تُطرح لتحسين المجال الكومونالى، والعمل على وضع تلك النظريات موضع التطبيق تأثير على الوضع فى المجتمع. ولكن ينبغى ألا نبالغ فى تقدير هذا التأثير، فهو يتعلق بالأشكال الخارجية من الكومونالية، وليس بجوهرها. وهو، كقاعدة عامة، لا يؤدى إلا إلى ترسيخ ما هو جارٍ تطبيقه فى الواقع.

إن ما يقوم به الناس فى المجال الكومونالى هو نشاط احترافى من نوع خاص، أساسه القوانين الداخلية الخاصة بهذا المجال. وعندما يؤكد السياسة والإيديولوجيون الغربيون (وخاصة الأمريكان والألمان) على وجوب الاسترشاد فى السياسة بقواعد الأخلاق، فإنهم يتفوهون بترهات محسوبة للمهابيل. ذلك أن قواعد سلوك الناس المحترفين فى مجال الكومونالية لا يجمعها جامع بقواعد الأخلاق. فواحدة من هذه القواعد تتلخص تحديداً بالسعى لإضفاء مظهر أخلاقى على سلوكهم غير الأخلاقى.

كما يجتذبون للقيام بأنشطة فعالة فى المجال الكومونالى هواةً سطحيين، وأحياناً شرائح عريضة من السكان. على أن هؤلاء الهواة يلعبون فى العادة أدواراً ثانوية، أو دوراً الدمى، بينما يتحكم المحترفون بحركة الجماهير.

## الخلايا الكومونالية

إن المجال الكومونالى، شأنه شأن المجال العملى، يقوم فى معظمه على أساس بنية الخلية. والخلايا الكومونالية تنشأ بقرارات من السلطات، أى من الأعلى. ووظائفها محددة بصرامة. فهى لا تتمتع باستقلال ذاتى، ولا بسيادة. ووجودها رهن بالأموال التى تخصصها لها الدولة؛ ذلك أنها لا تنتج شيئاً للبيع. تلك هى مؤسسات السلطة على جميع المستويات، والشرطة، والجيش، وسواها من المؤسسات التى تؤدى وظائف اجتماعية (كومونالية). إننى أسميها "الخلايا الكومونالية".

ليست الخلايا الكومونالية ملكية خاصة، وهى فى الوقت نفسه ليست ملكاً للدولة، ولا للجماعات. ثمة من يتحكم بها، ولكن ذلك أمر من نوع آخر، غير الملكية. فكل الموظفين فيها مأجورون للعمل بصورة دائمة، على وجه العموم، وقسم منهم مأجور لمدة محددة بموجب عقود.

عادةً يقومون فى الخلايا العملية باستئجار عاملين لمدة محددة بموجب عقود. أما الاستئجار للعمل الدائم فهو استثناء. غير أنه ليس من السهل عملياً، كما يؤكد بعض الخبراء، تسريح العاملين الذين على رأس عملهم (طبعاً فى الظروف الطبيعية، وليس فى ظروف تقليص الإنتاج والتسريحات الجماعية). وفى الولايات المتحدة الأمريكية، كما يقول ب. دراكر، غالباً ما يتعذر عملياً تسريح شخص من عمله، نظراً لأن المحاكم، عموماً، تحكم لصالح المأجورين لا المستأجرين. على أننى لا أستطيع شخصياً أن أحكم على مدى صحة ذلك. غير أننى اطلعت فى مؤلفات خبراء آخرين على أن هناك توجهاً نحو تثبيت الشخص فى عمله.

بل ويؤكد ب. دراكر أنه يجوز الحديث عن ملكية منصب العمل. لكننا نرى أن كلمة "ملكية" لا محل لها هنا، لأن الشخص الذى يشغل هذا المنصب ليس بوسعه التصرف به على هواه، كأن يبيعه أو يعطيه لشخص آخر. إننا أمام ظاهرة من نوع آخر. وهى، بالمناسبة، من سمات المجتمع الشيوعى، حيث يلتحق المواطنون جميعاً بالعمل دون

تحديد المدة. على أن هذا الحق بالعمل له وجهٌ نقيض هو ربط الناس بجماعات العمل الأولية، أى بمنصب العمل.

فى الخلايا الكومونالية يمكن صرف الناس من العمل عند الضرورة بغض النظر عن أنهم مستأجرون لمدة غير محدودة. وهكذا نجد أن العلاقة بين المستأجرين والمأجورين فى الخلية العملية لا تختلف اختلافاً مطلقاً عنها فى الخلية الكومونالية، ومن الصعب الآن التكهن بمسار تطور هذه العلاقات. فليس مستبعداً أن يلعب نظام العقود لأجال محددة دوراً متزايد الأهمية فى الخلايا الكومونالية. وليس مستبعداً أيضاً أن يتطور نظام الاستئجار فى الخلايا العملية باتجاه الوظيفة الثابتة، كما كان الأمر فى اليابان حتى وقت قريب. وعلى أية حال، فإن هذا ما يطمح إليه الناس. وإذا ما نجحوا فى منح هذا المكسب للجميع، فإن المجتمع الغربى يكون قد قام بأجراً خطوة صوب الشيوعية الفعلية التى يهزأ منها الغرب.

## الديمقراطية

قبل أن نُشرع ببحث العناصر الملموسة فى كومونالية الغربية، نرى لزاماً علينا أن نطرح جانباً ما يحيط بكلمة "الديمقراطية" من وساوس إيديولوجية.

الديمقراطية، على حد تعريف بوبر<sup>(٧٤)</sup>، هى مجتمع مفتوح، تعددى، يتيح التعبير عن آراء متضاربة، والنضال من أجل تحقيق أهداف متنازعة. ففى المجتمع الديمقراطى يتمتع كل شخص بحرية مناقشة الأوضاع الإشكالية، واقتراح ما يراه من حلول، وانتقاد اقتراحات الآخرين. وفى هذا المجتمع تؤدى ممارسة النقد إلى تغيير سياسة الحكومة، وعزل رجال السلطة خلال فترة زمنية معقولة، واستبدال آخرين بهم دون اللجوء إلى العنف، وتتحقق فيه أيضاً إمكانية تشكيل حكومة بديلة، بل وعن طريق

---

(74) Karl Popper. The Open Society and its Enemies. 1945.

انتخابات حرة. إنه مجتمع يوفر الفرص لرفع مستوى معيشة السكان، والتقليل من معاناتهم واحتياجاتهم إلى الحد الأدنى، وتحقيق الحد الأقصى من السعادة.

إلى جانب هذا الفهم التمجيدى للفضفاض للديمقراطية، والذود عنها كنظام اجتماعى واحد، نجد أن بوبر يعدّها أيضاً وسيلة لمنع أى كان من الحصول على سلطة مفرطة، أى وسيلة للحد من السلطة. وأشير فى هذا السياق إلى أن كلمة "مفرطة" ليست معياراً لتقييم نوع السلطة، فقد وصل هتلر إلى السلطة فى ألمانيا بفضل الديمقراطية.

وعلى نحو مماثل يمكن أن نجد فى مؤلفات ف.هايك شتى أنواع الآراء حول الديمقراطية<sup>(٧٥)</sup>، فهو يرى فى الديمقراطية حماية من الاستبداد، وتداولاً سلمياً للسلطة، ووسيلة للمحافظة على السلم الاجتماعى، والدفاع عن الحرية الشخصية، ونوعاً من الأصول الإجرائية لاتخاذ القرارات على مستوى الحكومة. كذلك يؤكد هايك فى مؤلفاته على أنه لا سبيل إلى الديمقراطية إلا فى إطار الرأسمالية. وإلى ذلك يمكن أن نجد عنده نقداً للديمقراطية، يُعدّ من السمات المميزة جداً لأسلوب الفكر الاجتماعى فى الغرب (سأعود إلى هذه النقطة لاحقاً).

يتعذر علينا سرد جميع التعريفات الصريحة للديمقراطية، والاستدلالات التى تلعب دور تعريفات موارد. وسأقتصر على ذكر بعض الأمثلة. فقد جاء فى "موسوعة السياسة والاقتصاد فى أوروبا الغربية"<sup>(٧٦)</sup> تعريف للديمقراطية على أنها السلطة التى يطبّقها سكان البلد (الشعب) ككل. وتكمن الديمقراطية التمثيلية فى أن المواطنين ينتخبون ممثليهم ليمارسوا الحكم لما فيه فائدة ناخبيهم، ويكونوا مسئولين أمامهم.

---

(75) F. A. hayek. The Road to Serfdom. 1944: The Political Order of a freepeople. Londonk 1979.

(76) Political and Economic Encyclopedia of Western Europe. 1990.



وثمة مؤلفون آخرون<sup>(٧٧)</sup> يرون أن الديمقراطية هي النظام السياسي الذي يقوم المواطنون العاديون في إطاره بمراقبة النخبة الحاكمة، ويمارسون التأثير عليها بواسطة الانتخابات، والأحزاب السياسية، والمجموعات الرسمية وغير الرسمية، والصحافة، والمظاهرات، والعرائض، وغير ذلك. وينظر ماكس فيبر إلى الديمقراطية بوصفها وسيلة لحماية المجتمع من تعسف الزعماء السياسيين، ومن استبدال البيروقراطية. ويرى شومبيتر أن الديمقراطية هي وسيلة لتشكيل حكومة فعالة ومسئولة. ويعتقد بأن الديمقراطية تتيح إمكان استبدال زعيم سياسي أو حزب حاكم بزعيم آخر أو حزب آخر.

ويرى س. ي. فينر<sup>(٧٨)</sup> أن الديمقراطية الليبرالية اختراع إنجليزي. وهي تقيّد الحكومة في تصرفاتها، وفي اتخاذ القرارات، وتجعلها تحكم لما فيه مصلحة الجميع، وليس مصلحة مجموعات معينة. كما أنها تُقرُّ بالتعددية في المجتمع، حيث تتمتع الأقلية بفرص التحول إلى أكثرية. وثمة للسلطة جهاز تمثيلي منتخب. كما توجد معارضة اقتصادية وسياسية للسلطة، تندرج فيها الشركات الخاصة واتحاداتها، وآلية السوق، والاتحادات المهنية، والأحزاب السياسية. وهناك فصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وهو فصل في إطار السلطة التشريعية، فصل بين السلطة الفيدرالية والسلطات المحلية.

وترى نظريات التعددية أن دور الديمقراطية يتمثل في تنظيم العلاقات بين المجموعات المختلفة ذات المصالح المختلفة.

لقد ضمّن س. ي. جولكوفسكي تقريراً قدمه إلى مجلس أوروبا بتاريخ ١٨ - ١٩ أيلول/ سبتمبر عام ١٩٩٠ مجموعة كبيرة من الاستعمالات المختلفة لكلمة

---

(77) Gabriel A and Sidney Verba. The civic culture, 1963.

(78) S.E.Finer.compartive Government.enguin Books,1970.

"الديمقراطية"، هذا بعض منها: الديمقراطية هي إمكانية مشاركة المواطنين في اتخاذ القرارات السياسية التي تؤثر على حياتهم. الديمقراطية نظام سياسي تعمل السلطة في إطاره بموافقة المحكومين. الديمقراطية هي إدارة في إطار قواعد يتم إقرارها بموافقة المحكومين، وفي إطار العدالة والقانون. الديمقراطية هي نظام اجتماعي - سياسي يمكن لكل فرد أو مجموعة أن يعبر في إطاره عن رأيه بالمسائل المطروحة للمناقشة. الديمقراطية هي نظام سياسي ذو سلطة تمثيلية منتخبة، وتعددية حزبية وغير حزبية، ومعارضة، وشفافية تسم تصرفات السلطة.

مختصر القول، إن مصطلح "الديمقراطية" ليس مصطلحاً علمياً، وذلك نظراً لهلامية فحواه، وتعدد معانيه حتى في إطار دراسات مؤلفين بعينهم. فهو مصطلح يخص الإيديولوجيا. على أن الناس، على اختلافهم، يستخدمونه وكأنهم يقصدون الموضوع ذاته، ولكنهم يرونه من جوانب مختلفة، ويفهمونه فهماً مختلفاً، ويضمرون تجاهه مشاعر مختلفة، ويهدفون في وصفه إلى أهداف مختلفة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن جميع التعريفات والمحاكمات من هذا النوع إنما صيغت، بهذا الشكل أو ذاك، تحت تأثير المقارنة بين نظام الغريوية السياسية من جهة، والنظام الشيوعي وأنظمة الحكم الديكتاتورية الأخرى من جهة ثانية.

أعتقد أن الديمقراطية ليست مادة إمبيريقية مشخّصة في حدود إمكانية معينة إلى هذا الحد أو ذاك. كما أن من المتعذر أن نتحدث عنها مثلما يمكن أن نتحدث عن الشرطة، ومؤسسات السلطة، والمصنع، وما أشبه ذلك. فالغريوية، في الواقع، عدد من ظواهر مختلفة، لكل منها كثير من السمات والجوانب الخاصة بها. وتقوم جماعات مختلفة من الناس بانتقاء بعض من هذه السمات والجوانب وتجميعها بأشكال مختلفة، بل وبتفسيرها أيضاً بأشكال مختلفة. ولذلك لا معنى للبحث عن دلالة واحدة لكلمة "الديمقراطية" تكون وحدها، دون سواها، الدلالة الصحيحة. ذلك أن حصر معنى هذه الكلمة أمر مستحيل، نظراً للطريقة التي تستعمل بها. إذ هي تستعمل للدلالة على جملة من عناصر كومونالية الغريوية، تُختار بطريقة متحيزة، وغرض إيديولوجي محدد. فلم يسبق لي أن وقعت على تعريف للديمقراطية يدرج ضمن عناصرها، مثلاً، السجن،

والفساد، والتواطؤات الخفية، وخداع الناخبين المدبر، والعنف وغير ذلك مما يقوم عليه نظام السلطة في الغرب من عناصر ليست أقلّ عضوية فيه من العناصر التي تُذكر عادة. ونلاحظ أن ما يُدرج في عداد عناصر الديمقراطية يقتصر على ما يلائم توصيف نظام الكومونالية الغربي مقارنة بأنماطه الأخرى.

### المقاربة الإيديولوجية، والمقاربة اللا إيديولوجية

ليس لدى من مأخذ على كلمة "الديمقراطية"، ولا على الظاهرة التي توصف بها. ولكنني أعتقد بضرورة التفريق بين الوصف الإيديولوجي للديمقراطية (الديمقراطية الإيديولوجية) والديمقراطية كواقع (الديمقراطية الواقعية). فما الديمقراطية الأولى إلا صورة تجريدية للثانية، وتعكس بعضاً من خصائصها، وذلك في شكل مرفوع إلى درجة المثالية. فلو أن الناس اطلعوا على جميع بواطن الديمقراطية كما هي في الواقع، لهالهم الأمر، ولدمروا مؤسسة الدولة برمّتها. ولكنهم سيقومون بعد ذلك نظاماً أسوأ منه. إن إسباغ المثالية على الديمقراطية في الإيديولوجيا هو ردُّ فعلٍ دفاعي من قبل المجتمع بوجه الأمزجة والأهواء الهدامة. ذلك أن الديمقراطية في الواقع لا يمكن أن تبقى على قيد الحياة إلا إذا احتفظت بكل ما يشكل "بواطنها" الفظيعة. ولو أنها كانت في الواقع كما تصورها الإيديولوجيا، لما استمرت في الوجود أكثر من بضع سنوات.

لقد اطلعت في إحدى المجلات<sup>(٧٩)</sup>. على وصف للديمقراطية الأمريكية جاء فيه: "إن مركزاً خفياً ينظم الانتخابات، ويختار الرئيس، ويشكل الحكومة التي يريدونها. وإن انتخابات "ممثل الشعب" خداع وقح. أما صراع الأحزاب فإهانة فظة للديمقراطية الحقة (لاحظ: الديمقراطية الحقة!)، وتستخدم في ذلك جميع الوسائل، بما فيها

---

(٧٩) ف. بيتروف، الحقيقة عن أمريكا. "ناش سوفريمينيك"، العدد ٢، عام ١٩٩٢.

الابتزاز، والرشوة، والتضليل، والعنف، ويقوم المرشحون بتوزيع الوعود ذات اليمين وذات الشمال، ويمتدّون الناس بأنجع الإصلاحات، ويعدون أنصارهم بالمال والمنصب وغير ذلك من النعم. ومصير الانتخابات الرئاسية يتوقف على مقدار المال الذي يُنفق في سبيل الفوز. كما أن صراع الحزبين على السلطة، والتذبذب الدائم إلى هذا الجانب تارة وإلى الجانب الآخر تارة، يضطران الموجودين في السلطة للتخلي عن مناصبهم. أما الفائزون فإنهم - إدراكاً منهم بأن المصير ذاته بانتظارهم - يحاولون جنى أكبر قدر ممكن من المنافع لأنفسهم. إن شعار "اغتنموا الفرصة!" هو القاعدة التي يسترشد بها الموظفون. كما أن الرشوة، والجشع، والأنانية، والخسة، واستغلال النفوذ لأغراض شخصية من الأمور السائدة في النظام السياسي كله. وعلى رأس الأحزاب أسماك قرش في بحر الحياة اليومية يتلخّص مبدأ عيشها باقتناص أكبر قدر ممكن من المنافع. إن المؤسسات جميعها مشبعة بمبدأ انعدام الضمير، أي بمبدأ تقديم الرشوة وقبولها. ولا وجود لمحاكم مستقلة. فبالمال يمكن شراء كل شيء وتجنّب القصاص العادل. كما أن الصحف خاضعة لنفوذ أولئك الذين يتحكّمون بتقلّبات الطقس السياسي ويرسمون نهج السياسة الداخلية والخارجية في الدولة. ولا تفعل الصحف التابعة لأعطيات سادة المجتمع إلا التزام الصمت، أو الصراخ بما تؤمّر به، على ألا تقول الحقيقة أبداً. ذلك أن الأندال البارعين يستغلون الشعب ويوجهون الرأي العام حسب هواهم. إن الصحف والقادة الحزبيين المأجورين يرغمون الشعب على أن يصدّق تصديقاً أعمى ودونما تفكير بأن كل ما يقومون به ليس إلا لمصلحة الحرية، والحق، والمساواة، والتقدم، والديمقراطية. ولا تتغيّر هذه الصورة في شيء، سواء أكان في السلطة هذا الحزب أو غيره من الأحزاب. ذلك أن الأشخاص يتبدلون، ويبقى النظام".

سيكون من الخطأ القول بأن مؤلف هذه المقالة / الأهجية ليس لديه أي مبرر لما كتبه. ولكن لا يجوز الركون إلى هذا الوصف وكأنه حقيقة علمية، فهو إيديولوجي، مثله مثل وصف الديمقراطية الأمريكية النقيض الذي تقدمه الدعاية الموالية للأمريكان. أما المقاربة العلمية فلها توجه مغاير تماماً، لأن العلم - بحكم مناهجه ذاتها - يجب أن

يدع جانباً الجزء الأكبر مما يشكل غذاء للإيديولوجيا، أيًا كان اتجاهها. ولن يكون بالإمكان فهم جوهر السلطة وقوانينها الداخلية إذا ركزنا انتباهنا على الخصائص الفردية للموجودين في نظام السلطة، وكذلك إذا تتبعنا علاقاتهم الشخصية، ومكائدهم، ودسائسهم، ومناقبهم الذهنية والأخلاقية، وما للأحزاب من خصائص محددة، وسير الحملات الانتخابية، وانتقاء الأشخاص إلى الطغم الحاكمة وسواها من شخصيات نظام السلطة في الحياة الواقعية. لقد كتب العارفون بالمطبخ السياسي ألفاً من الكتب والمقالات التي أظهروا فيها معرفة أتفه التفاصيل، ولكن أيًا منهم لم يتوصل إلى اكتشاف علمي جدّي.

ومن ناحية المقاربة العلمية (على الأقل غير الإيديولوجية) فيما يتعلق بالأهجية التي أوردناها أعلاه، يمكننا القول إنه لا وجود، ولن يكون ثمة وجود، لأية ديمقراطية "حقيقية" على وجه الأرض. فهذه خرافة إيديولوجية، ومحض تجريد. أما الديمقراطية الواقعية فقد كانت، وما تزال، وسوف تبقى مادة للنقد دائماً. فليس بوسعها، من حيث المبدأ، أن تكون "حقيقية"، أي أن لا تتّصف إلا بالفضائل. وهي حقيقية دائماً، ما دامت مستمرة في الوجود زمنًا طويلاً، وتساعد المجتمع في المحافظة على ذاته. ولو أن النظام السياسي الأمريكي لم يكن يتمتع بتلك المؤشرات التي قدمت المبررات للأهجية المذكورة أعلاه، لكان نظاماً مستحيل الوجود أصلاً، ولانهار المجتمع الأمريكي منذ زمن بعيد. ولو سلّمنا جدلاً بأن جميع عيوب النظام السياسي التي عدّتها الأهجية انتفت فجأة، وغدا هذا النظام قدوة في الأخلاق والعقل، فلا يعنى ذلك أنها ستقوم بأداء وظائفها على نحو أفضل مما تقوم به الآن، بل لراحت على الأرجح تعمل على نحو أسوأ.

إن ما قلته للتوّ ليس استحساناً، ولا تبريراً لخصائص النظام السياسي القائم في الولايات المتحدة الأمريكية، والذي يصوره نقّاده كجملة من العيوب والنقائص، بل هو لفتُ انتباه إلى أن هذا النظام ليس مجرد بدعة ابتدعها أناس أذكيا طيبون، أو على العكس، أناس أغبياء أشرار. لقد تكوّن هذا النظام تاريخياً وفقاً لقوانين اجتماعية

موضوعية لا يتحمل مسئوليتها شخصياً أي كان، كما لا يستحق عليها مكافأة أي كان. على أن هذا النظام يمكن تحسينه على نحوٍ ما أو، بالعكس، جعله أسوأ مما هو، ولكن ليس بالقدر الذي تنتفى معه جميع الحجج لنقده، أو جميع الحجج لمناصرته. ففي مجتمع بهذا الحجم، وعلى هذه الدرجة من التعقيد، وبهذا التنوع في مادته البشرية، وعلى تلك الدرجة من النشاط، كما هو مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية، يستحيل وجود نظام للسلطة والإدارة أفضل منه، على الأقل لأن هذا النظام نشأ وترسّخ، وبات على درجة كافية من القوة لحماية نفسه، وهو يلائم الشرائح المهيمنة في المجتمع، بل وغالبية السكان، ويحافظ على وحدة البلاد واستقلالها.

وعلى العموم، فإن الديمقراطية في شكلها الواقعي (بجميع ما لها وما عليها من مزايا وعيوب) موجودة في الغرب لا لأن هذا ما أراده أناس أنكياء وطيبون، ولا لأنها أحسنُ اختراع أبدعته البشرية، بل بكل بساطة لأن المجتمع الغربي لم يكن بوسعِه أن يسمح لنفسه بشيء آخر حتى ولو رغب بالتخلي عن هذه الديمقراطية. إن نواقص الديمقراطية ليست نتيجة نوايا شريرة وأفعال سيئة لبعض المتمسكين بها، بل إنها الوجه الآخر لمزاياها، وهي الشكل الذي لا مناص منه لتحقيق تلك المزايا.

## حول مصطلح الدولة

الدولة ظاهرة إمبريقية، وجليّة لكل راشد، سليم العقل، لا يحتاج لأن يكون عميق التفكير. الدولة هي العناصر المادية تماماً في حياة المجتمع، على الأقل هي العناصر الملموسة تماماً، أي أجهزة السلطة على المستويات كافة، بدءاً من السلطة العليا (البرلمان، الكونغرس، الرئيس، الوزراء... إلخ)، وانتهاءً بأدنى السلطات (المؤسسات المحلية): الشرطة، والمحاكم، والسجون، والجيش. كما أن وظائف أجهزة المجتمع هذه معروفة للجميع تماماً. غير أن المفكرين عندما يتصدّون لهذه المسألة يريدون منذ البداية استعراض ذرى فهمهم، فيقدمون تعريفات لأشياء معروفة وواضحة للعيان، ويحوّلون



هذه الأشياء إلى ما هو عصى على العقل السليم. وتبدأ حالة من التشوش تمتد مئات السنين، ثم يأتي كل مفكر عظيم جديد ليضيف إلى هذه الفوضى شيئاً من حكمته يزيد الوضع تشويشاً.

لقد عرف كائط الدولة بأنها "اتحاد جماعة من البشر يخضعون لشرعية قانونية". من الواضح أن المقصود بالدولة هنا هو اتحاد كامل للبشر، وليس جهازاً ما لهذا الاتحاد، إذ إن من يخضع لشرعية قانونية ليسوا موظفي الدولة وحدهم، بل ومواطنو المجتمع الآخرون. في هذا التعريف تمتزج الدولة كجهاز للمجتمع مع المجتمع الذي يديره هذا الجهاز. ومع ذلك فإن كائط عندما يتكلم عن الدولة يقصد تحديداً جهاز المجتمع، وليس كل المجتمع الذي يملك هذا الجهاز. وبالإضافة إلى ذلك فإن تعريف كائط للدولة يتضمن إشارة إلى الحق. والحق هنا لا يختلف عن الدولة كظاهرة متميزة.

وعرف ج. كيلزن الدولة بأنها "نظام قانوني مركزي نسبياً"، وبذلك أدرج الحق في مفهوم الدولة. وعرف ي. هابرماس الدولة بأنها التنظيم السياسي للمجتمع، وأدرج فيها الحق أيضاً. ومرة أخرى تختلط في تعريف واحد ظاهرتان مختلفتان، ناهيك عن أن الحق هنا أيضاً لا يتميز عن الدولة، وتعبير "التنظيم السياسي للمجتمع" تعبير ملتبس تختلط فيه كيفية تنظيم المجتمع ككل واحد، ووسيلة تحقيق ذلك.

إن ما أطلعت عليه من تعريفات للدولة، جميعه تقريباً، ينص - بهذا الشكل أو ذاك - على أن الدولة سكان يعيشون في أرض معينة. وهكذا يختلط في هذه التعريفات، إذن، مفهوم الدولة كاتحاد معين بين البشر، ومفهوم الدولة كجهاز معين لإدارة هذا الاتحاد. وحتى عندما يكون هناك وعى وإقرار بالفرق بين استعمال الكلمة بهذين المعنيين، سرعان ما يجرى إغفال هذا الفرق كشيء جوهري لفهم الدولة بوصفها جهاز سلطة وإدارة. وعلى سبيل المثال، يعرف ج. غيدنيس الدولة على النحو التالي: توجد الدولة (لا بد من الحديث عنها) حيث يوجد جهاز سياسي (برلمان، محاكم، أجهزة مدنية، موظفون) يدير منطقة معينة تقوم سلطته فيها على أساس منظومة من القوانين، وعلى

قدرته على استخدام القوة لتطبيق سياسته. ثم يضاف إلى ذلك أن الدولة الحديثة هي "دولة قومية" على غرار ما هي عليه البلدان الغربية. يمكن أن نعدّ هذا التعريف نموذجاً كلاسيكياً لعدم مراعاة قواعد المنطق، ففيه يجرى توليف ظواهر مختلفة في كومة واحدة. إذ إن المؤلف يتسرع في الأساس بتحميل تعريف المصطلح ما يُفترض من حيث المبدأ أن يقال فيما بعد عن طريق هذا المصطلح، ولكنه لا يجوز أن يدخل في تعريفه.

## مبادئ أساسية

أعتقد أن السعى نفسه لتقديم تعريف للدولة هو في منطلقه لوصفها خطأ من الناحية المنطقية، لأن أي تعريف هنا سيكون خلطاً انتقائياً، وجمعاً بين ظواهر غير متجانسة. فلا حاجة في أساس توصيف الدولة لأي تعريف لها، بل وهو ضارٌ أيضاً. كما أن من السخف أن نعرّف البقرة عندما نعتزم تقديم نتائج دراسة جسم البقرة، أو ننوي القيام بذلك. يكفي أن نجعل القارئ يفهم عمّا سيدور الحديث، وتعداد جميع الموضوعات المعروفة التي تتألف منها الدولة، أي يكفي "عرض" هذا الموضوع الإمبريقي، على غرار ما يفعل الباحثون في العضويات الحية. إننا نجد مثل هذه المقاربة عند هوبس، وماركس، وعند فيبر أيضاً، وإن لم يكن بالشكل القطعي الذي هنا.

لقد كان يهيمن في الفكر الاجتماعي الغربي دائماً تصورٌ عن الدولة يرى فيها ظاهرة إنسانية عامة (غير طبقية). أما الماركسية فقد أشاعت على نطاق واسع تصوراً يرى في الدولة جهازاً تتحكّم به الطبقات المهيمنة، وأداة اضطهاد تمارسه طبقات على طبقات أخرى. على أن هذا التصور ليس لغواً محضاً، وإنما هو تضخيم إيديولوجي لصفة من صفات الدولة، وأمثلةً *idealization* لتلك الصفة. فالدولة في الواقع تخدم الشرائح والمجموعات والطبقات المهيمنة، وبصفة عامة بعض القوى في المجتمع. وهذه

جميعها تستخدم الدولة لمصلحتها، وتتحكم بأصحاب المناصب الرسمية، وتُنصَّبُ ممثليها في نظام السلطة، وخاصة في مستوياتها العليا. كل هذا صحيح. ومع ذلك فإن الدولة ظاهرة متميزة ومستقلة تابعة لمجال الكومونالية. إنها جهاز الكلِّ الواحد. وهي تنشأ وتتطور كثمرة لوحدة جماعة من البشر، ولمصلحة تلك الوحدة.

هنا تكمن النقطة المركزية في فهم الدولة، وتحديدًا مفهوم الوحدة ومصالح الكل. إن مصالح الكل ومصالح الوحدة ليست مصالح جميع المواطنين في المجتمع، بل ولا هي مصالح الأغلبية. إنها مصالح من نوع خاص. وقد تتعارض أحيانًا مع مصالح مجموعات من المواطنين، أو مصالح الأغلبية، بل وحتى مع مصالح الجميع. وأحيانًا قد يعبر عن هذه المصالح، ويدافع عنها شخص واحد بمفرده. وفي أحيان أخرى لا يعيها أساسًا خصومها أنفسهم، ويدافعون عنها حتى بعكس ما تقتضيه مصالحهم بالذات. وهكذا، فإن رأى أكثرية سكان البلاد ليس بعد دليلًا على مصالح البلاد. كما أن عمليات الاقتراع والاستفتاء بكل أنواعها ليست هي العدالة الأسمى دائمًا. وغالبًا ما يكون رأى الأكثرية غير متطابق مع مصالح الكل، إذ تفرضه أهواء اللحظة الراهنة، بينما تمتد مصالح الكل أحيانًا طيلة عقود وقرون من الزمن، إن لم نقل طيلة تاريخ جماعة بشرية معينة.

إن مصالح الكل والوحدة واضحة في شكلها العام. إنها الدفاع عن البلاد في وجه الأعداء الخارجيين، والاستيلاء على أراض جديدة، وإخضاع شعوب أخرى، والحفاظ على النظام العام، وملاحقة المجرمين، ومكافحة القوى الهدامة في الداخل، وحماية النظام النقدي، وتنظيم البريد، وإقامة نظام تعليمي... إلخ. ويندرج في عداد هذه المصالح نظام الضرائب أيضًا.

ولكن النظر إلى الدولة على أنها أداة لوحدة المجتمع ما هو إلا تأكيد على جانب واحد فقط من المسألة. ذلك أن الدولة لا تستطيع القيام بهذه الوظيفة، ما دام المجتمع "خولها" القيام بهذا الدور في مسار تشكله التاريخي، إلا إذا ما توفر شرط واحد، أي عندما تغدو ظاهرة اجتماعية موجودة من أجل نفسها، وليس من أجل أى شىء آخر،

عندما تغدو ذاتاً للتاريخ يستخدم المجتمع كمجال وأداة لوجوده الخاص، ولا معنى للدولة من دون هذا النوع من "أنانية الدولة"، إذا جاز القول. إذ يجب عليها أن تهتم بنفسها قبل كل شيء، لكي تهتم على النحو اللازم بالكيان الذي هي جهاز له. أما كيف يتحقق فعلياً هذا الاهتمام الثانى الذى هو أساس الاهتمام الأول ومسوغه، فمسألة تظهر بوضوح فى تاريخ البشرية الذى يبين أن الشر، وليس الخير، كان وما يزال هو الغالب فى هذا المجال. إن وظيفة الوحدة ظاهرة لا تنتمى إلى مجال الأخلاق والإنسانية.

إن أفراد وظائف الوحدة، أى تخصيصها كوظائف لفئة خاصة من الأشخاص (أى انقسام الناس إلى أمر ومأمور)، كان أول تقسيم للبشر إلى فئات اجتماعية. وسيرافق هذا التقسيم البشر إلى الأبد، ما داموا يتحدون فى مجموعات كبيرة ومجتمعات كاملة. فهو منذ البدء أساس عدم المساواة بين الناس، وسيبقى كذلك مدى الدهر. إنه قانون موضوعى من قوانين الوجود البشرى. قد يكون فى الإمكان إضعاف مفعوله، أو تشديده، أو ستره، أو تشويبه، ولكن ما من أحد بقادر على إلغائه.

ثمة أيضاً مقاربتان متباينتان لموضوع الدولة. ترى الأولى منهما فى الدولة شيئاً ثابتاً إلى الأبد. وأصحاب هذه المقاربة يعملون على إيجاد تعريف يُحمون فيه ما يعتبرونه الأهم. وهم يقدمون فى هذا الإطار وصفاً تفصيلياً، بهذا القدر أو ذاك، للدولة فى الشكل الذى تكونت وفقاً له، ويعرفه من يقدم التعريف والوصف. أما أصحاب المقاربة الثانية فينظرون إلى الدولة كظاهرة تاريخية، أى من ناحية نشأتها وتطورها التدريجى، والنموذج الكلاسيكى لهذه المقاربة يتمثل فى نظريتى هيجل وماركس. ولئن كنت شخصياً أؤيد النظر إلى الدولة على أنها ظاهرة تاريخية (تظهر فى الزمان وتتطور فى ظروف محددة)، فأنا لا أتفق مع كل ما أعرفه من نظريات معينة فى هذا الاتجاه.

وأعتقد أن من السخف الحديث عن ظهور وارتقاء الدولة بشكل عام. إذ إن هذه الطريقة فى التفكير تخلق انطباعاً وكأن كائناً ما ظهر ذات مرة، فى مكان ما، اسمه

الـ "دولة"، ولا يزال على قيد الحياة منذ ذلك الحين، ينمو ويتطور بصفته تلك، وبذلك يشكّل استمراراً للدولة لا ينقطع. كلا، لم تكن الدولة بهذا المعنى موجودة يوماً، ولا وجود لها اليوم. فتاريخ البشرية هو تاريخ نشوءٍ وارتقاءٍ وفناءٍ للكيانات الاجتماعية التي تنشأ فيها، في أطوار وظروف معينة، أداةً وحدتها، أي الدولة. إن النظر إلى تاريخ عضو واحد بمفرده من أعضاء الكل على أنه تاريخ ظاهرة اجتماعية مستقلة، هو نظر لا يقل سخفًا عن تاريخ "دماغ" ما، مثلاً، بمعزلٍ عن تاريخ الكائنات التي لها أدمغة.

أكرر وأؤكد أن الدولة لا تنشأ وتعيش وتتطور من تلقاء نفسها، بمعزلٍ عن كل شيء، بل في إطار هذه أو تلك من الجماعات البشرية، وكجهاز لها. وهي تنشأ في هذا الإطار لا كنتيجة لظهور الملكية الخاصة، وانقسام المجتمع إلى طبقات متناحرة، كما تقول الخطاطة الماركسية، (وإن كان هذا العامل قد لعب دوراً)، بل تنشأ كظاهرة من ظواهر الكومونالية، أي من واقع كون جماعة من البشر اضطرت للعيش معاً جيلاً بعد جيل ككل واحد، وللمحافظة على النظام داخل الجماعة، والدفاع ضد الأعداء الخارجيين، وتنظيم نفسها من أجل العمل المشترك. والدولة لا تنشأ دفعة واحدة في شكلها النهائي الناجز مع كل وظائفها التي يمكن أن نشاهدها في المجتمعات المعاصرة؛ بل تنشأ مع عدد محدود من الوظائف، وفي شكل بدائي أولاً (مثلاً، حماية الجماعة المعنية من الأعداء الخارجيين). أما الوظائف الأخرى فتتطور بالتدريج، كعملية توسع الدولة الوليدة وترسيخ أقدامها. وهكذا، فإن وظيفة إدارة الحياة الداخلية في المجتمع لا تكتسبها الدولة (إذا ما تسنى لها ذلك!) إلا نتيجة للتطور، وليس في لحظة الولادة.

ثم إن بنية الدولة، البنية التي تتناسب مع جماعة بشرية معينة (مع نمط العضوية الاجتماعية)، لا تنشأ دفعة واحدة. ثمة قوانين عامة تحكم قيام الدولة وبنائها وأداء وظائفها، وتنطبق على أية متحدرات بشرية كبيرة ومعقدة بقدر كاف، تحتاج إلى الدولة، وتتوفر على إمكان ظهورها. ولكن هذه القوانين تتجلى وتفاعل فعلها بشكل يختلف من

متحد بشرى إلى آخر. ودولة المجتمع الغربى ليست استثناء فى هذا المجال. لقد ظهرت هذه الدولة وتطورت (لم تبلغ السقف بعد!) وفقاً للقوانين العامة للكومونالية، ولكن ضمن ظروف الغرب الخاصة، ولأجل تلبية حاجات مجتمع من النمط الغربى. ويجب أن نشير من بين هذه الظروف إلى الدولة فى المجتمع الإقطاعى أيضاً. غير أن دولة الغربوية لم تظهر كمجرد استمرار للدولة الإقطاعية، بل كنوعية جديدة اقتصر على استخدام تلك الدولة كشرط من جملة الشروط .

## دولة الغربوية

منذ بداية نشأة الغربوية كانت دولة المجتمع الإقطاعى ركيزتها ودرعها. فقد كانت هذه الدولة فى وقت واحد تدعم الغربوية وتشجعها، وتمهد ليس لفناء مؤسسة الدولة ككل، بل لفناء شكل تاريخى محدد من أشكالها، لفناء مؤسسة الدولة الإقطاعية. لقد شقت الثورات البرجوازية فى أوروبا الغربية الطريق أمام الغربوية، وأفضت إلى قيام أشكال للدولة أكثر انسجاماً مع الغربوية الظاهرة. إذ أسفرت الثورة الفرنسية الكبرى، أعظم الثورات البرجوازية، عن قيام جهاز بيروقراطى جبار، وتشريع قانونى يتوافقان مع جوهر الغربوية بدرجة تفوق كثيراً توافق إعلان حقوق الإنسان والحريات الديمقراطية مع هذا الجوهر.

وبعد أن اكتسبت الغربوية وضع المهيمن، أو المؤثر على الأقل، فى المجتمع، مارست تأثيرها على شكل الدولة القائم تاريخياً، وحوّلته طبقاً لحاجاتها، وطوّرتة إلى أن بلغ نطاقات لم يُسمع بها من قبل. والدولة التى كانت شرطاً من شروط الغربوية، صارت هى نفسها عنصراً من عناصر الغربوية لا بد منه، مع نزوع لأن تكون المهيمنة فى المجتمع.

تكمّن صعوبة فهم الدولة كأحد عناصر الغربوية فى أن جانبى الغربوية - ومصدريّها الرئيسين كليهما، أى العملى والكومونالى، يندغمان فى الدولة على نحو



عجيب جداً. حيث تنتظم الظواهر الكومونالية وتفعل فعلها وفق قوانين الجانب العملي، بينما تقوم الظواهر العملية بذلك وفق قوانين الكومونالية. وتتضم إلى ذلك بقايا مؤسسة الدولة القديمة، على شكل أنظمة ملكية، مثلاً. أما عملية نشوء مؤسسة الدولة الغربية، العملية في شكلها الأكثر "نقاء"، فقد جرت في الولايات المتحدة الأمريكية. غير أن تداخل الجانبين العملي والكومونالي كان في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر تشوشاً مما في أوروبا. فقد كان في أوروبا نابليون وهتلر اللذان وضعا النقاط على الحروف، كما يقال. أما نابوليون وهتلر الأمريكيان فما يزالان خياليين يلوحان في أفق التاريخ.

إن مجال مؤسسة الدولة في البلدان الغربية هائل من حيث عدد العاملين فيه وما ينفقه عليه المجتمع، ومن حيث دوره في حياة الناس. ونشير، على سبيل المثال، إلى أن الحكومة الفيدرالية وحدها في الولايات المتحدة الأمريكية استخدمت في العام ١٩٩٠ أكثر من ثلاثة ملايين شخص. وفي العام ١٩٨٧ بلغ عدد المواطنين العاملين في مختلف مستويات مجال مؤسسة الدولة في الولايات المتحدة الأمريكية ٣،١٧ مليون شخص، أي ٤،١٥٪ من مجمل العاملين<sup>(٨٠)</sup>، وتجدر الإشارة إلى تعذر الحصول على معلومات دقيقة عما يُنفق على مجال الدولة، وذلك لأن جزءاً مهماً من تلك النفقات لا يمر عبر المؤسسات الرسمية، بل عبر قنوات أخرى كالأعمال الحرة، والصناديق الخاصة، والصناديق الاجتماعية، والأعمال الخيرية، والجماعات الإجرامية. ومع ذلك فإن الأرقام التي نصادفها في الصحافة تترك انطباعاً مروّعاً<sup>(٨١)</sup>، ولا معنى للسؤال عما إذا كانت هذه النفقات تعوّض أم لا، فهي بالأصل نفقات لا يُحسب حساب استرجاعها، وإذا ما

---

(80)The Universal Almanac.1990.

(٨١) يرى لا بالومبارا (انظر الهامش رقم ٢٩) أن النفقات على مجال الدولة في إيطاليا كانت تعادل نصف الدخل القومي، وأكثر من ثلث الدخل القومي في الولايات المتحدة الأمريكية. وتفيد بعض المصادر أن عدد المستخدمين الحكوميين الدائمين، أي الذين لا يسرحون ولا يستبدلون، بلغ ٥،٣ مليون شخص عام ١٩٩٢ في إيطاليا.

كانت تعود بمردود ما فإنه لا يتعدى كونه نتيجة لسياسة معينة من سياسات الدولة. على أن هذه النفقات، من وجهة نظر مصالح الكل، أهم من استثمارات رءوس الأموال التي تدر أرباحاً. إن مردودية نشاط الدولة يجب أن تقاس بمعايير أخرى غير معايير مردودية الاقتصاد. وسنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً.

يُتَّصَف مجال مؤسسة الدولة في البلدان الغربية بنزوعه نحو التضخم<sup>(٨٢)</sup>، وهذا ناجم عن تضخم حدود المجتمع وزيادة تعقده. ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد. ذلك أن مجال مؤسسة الدولة يسعى إلى التنامي الذاتي بصفته مجالاً خاصاً من مجالات المجتمع وفق قوانين الكومونالية، بل ويمعزِل عن حاجات المجتمع، أي بفعل حاجاته الخاصة. وقد جرى هذا التضخم الذاتي على نحو يلحق الأذى بمصالح المجتمع. وليس من المستبعد أن يصل عدد العاملين في مجال مؤسسة الدولة إلى نصف عدد المواطنين العاملين عموماً، وأن تبتلع نفقاته كل مداخيل المجتمع تقريباً، وأن تلتهم الدولة ثمار عمل المجتمع الذي تديره، الأمر الذي قد يشكل سبباً من أسباب انحطاط الغرب.

إن ما جرى ليس مجرد تعاضم للدولة، بل يتعداه إلى مضاعفة حجم وظائف الدولة على النحو الذي سبق أن تنبأ به أ.فاجنر في مطلع القرن العشرين. لقد كانت وظائف دولة الغربية في بداية الأمر وظائف تقليدية: الجيش، والشرطة، والقضاء، والأمن الاجتماعي. ثم أخذت الدولة على عاتقها، بالإضافة إلى ذلك، كلاً من البريد، والسكك الحديدية، والنقل الجوي، والتلفزة، ومرافق المياه والكهرباء، والبحوث العلمية، والتعليم، والأجهزة السرية، والدعاية، وأبحاث الفضاء، والمشاريع الكبرى، وضبط الاقتصاد. ومختصر القول، ليس ثمة مجال في حياة المجتمع إلا وتشارك فيه الدولة

---

(٨٢) وهذا ما لاحظته في حينه أدولف فاجنر (١٨٢٥ - ١٩١٧). وتفيد آخر الإحصائيات أن ٢٠٪ من العاملين في ألمانيا كانوا يعملون في عام ١٩٩٢ في مجال مؤسسة الدولة.

بهذا الشكل أو ذاك، إن خصخصة وظائف كثيرة من هذا النوع ليست إلا خصخصة جزئية، نظراً لأن الدولة تظل تحتفظ لنفسها بالسيطرة والدور الحاسم. زدْ على ذلك أن الخصخصة هنا تبدو في العادة أشبه بعلامة يأس، مما هي شبيهة بشيء عقلائي.

وبغية الوصول إلى فهم أفضل لجوهر دولة الغربوية، وتصور أفاقها، من المفيد أن ننظر إلى الدولة في المجتمع الشيوعي، لأنها ليست مجرد شكل للدولة إلى جانب الأشكال الأخرى، بل لأنها أيضاً مثال ناصع - كما في التجارب المخبرية - لما يجب أن تسفر عنه الدولة إذا ما أطبقت سيطرتها على المجتمع، وأطلقت العنان لكل قدراتها. لقد قام نابليون وهتلر بمحاولات من هذا القبيل في الغرب، ولكن تجربة كل منهما كانت قصيرة من حيث الزمن، ولم تصل إلى خواتيمها المنطقية، وتم سحقها على يد قوى خارجية. وفي الاتحاد السوفيتي تم الوصول بتجربة الدولة إلى حدّها الأقصى. وأظهرت هذه التجربة قدرات الدولة، ووظائفها وغطرستها، بما هي دولة<sup>(٨٣)</sup>.

إذا ما أبرزنا، بشكل مجرد، جميع عناصر الدولة الغربية وخصائصها ووظائفها، وتخيّلناها كياناً اجتماعياً واحداً يستخدم المجتمع حلبة لنشاطه وميداناً لوجوده، فسوف نحصل على ما كان مجسداً واقعياً في الاتحاد السوفيتي. إن الدولة الغربية، كنظام، هي دولة بلغت مستوى عالياً من التطور، ولكنها "ذائبة" في الغربوية وفي الحضارة الغربية. ويمكن أن نرى إقراراً مُضمراً بهذه الحقيقة في شكاوى العديد من المنظرين الغربيين بخصوص اقتحام الدولة تلك المجالات التي ما كان يجب أن تقتحمها، حسب رأي هؤلاء المنظرين<sup>(٨٤)</sup>.

---

(٨٣) أحيل القارئ إلى كتابين لي، هما: "الشيوعية واقعاً" و "أزمة الشيوعية".

(٨٤) يؤكد لا بالومبارا في كتابه -1974- Politics within Nation أن الدولة تسيطر على كل شيء.

تحدد بنية دولة الغربية بعوامل عديدة، منها عاملان أساسيان، يتعلق الأول منهما بالتنظيم الداخلى للدولة، والثانى بدورها فى المجتمع. فالدولة تتألف من عدد كبير من البشر، تبلغ نسبتهم حوالى ١٥٪ من العاملين فى الوقت الحاضر. وهذه الكتلة يجب تنظيمها بشكل ما، وإدارتها بشكل ما، وإلا كانت الدولة عاجزة عن القيام بدورها فى المجتمع. ذلك أن المجتمع المعاصر البالغ الضخامة والتعقيد لا يمكن تسييره إلا عبر التحكم بجهاز إدارته نفسه. وهذه المهمة التى تحتل المرتبة الثانية بين مهمتى الإدارة تميل باتجاه أن تصبح فى المرتبة الأولى.

أما العامل الأساسى الثانى فى بناء الدولة فيتمثل فى وجوب اضطلاعها بعدد هائل من القضايا، الأمر الذى لا يتسنى تحقيقه إلا فى ظروف تقسيم الوظائف، أى فى إقامة مؤسسات عملية مختلفة، ومستويات شتى من التراتبية العملية تُسيرُ مختلف مجالات المجتمع وأجزائه.

تبرز فى بنية الدولة الغربية المعاصرة عادةً عناصر من نوع:

- ١ - الحكومة المركزية.
- ٢ - أجهزة السلطة المحلية (فى الأقاليم والمحافظات...).
- ٣ - الجهاز الإدارى البيروقراطى.
- ٤ - أجهزة حفظ النظام العام والدفاع عن البلد.
- ٥ - النخبة الحاكمة.
- ٦ - الأحزاب السياسية والمنظمات "القريبة من الحكومة". وتقوم بين هذه العناصر شبكة واسعة من العلاقات والشائج، تؤدى وظائف متنوعة ومتشابكة فى إطار منظومة بالغة التعقيد. زد على ذلك أن تلك العناصر ووظائفها أيضاً منهمكة بقضايا مجال الكومونالية المنهمكة هى نفسها بقضايا الكيان الاجتماعى الواحد. ذلك أن للدولة عملياً صلات مع جميع مجالات المجتمع، وفئات السكان، ومناطق البلاد. فهى على هذا النحو أو ذاك تمدُّ مجسَّاتها إليها جميعها.

## السلطة المركزية

يتألف جهاز الدولة الأعلى، أو المركزي، في البلدان الغربية من المجلس النيابي (السلطة التشريعية)، ومن السلطة التنفيذية. والمجلس النيابي يمثل الشعب الذي ينتخبه، ويسمى البرلمان، أو الكونغرس، أو الجمعية الوطنية، أو البوندستاغ... إلخ. ومهمته الأساسية هي سن القوانين والتشريعات، وتمثيل مصالح الشعب ككل وكجماعات مختلفة، والرقابة العامة على الأوضاع في البلاد وعلى نشاط الدولة ككل. ولهذا المجلس بنيته. فثمة مجالس نيابية تتألف من غرفتين، وأخرى تتألف من غرفة واحدة. وفي الحالتين هناك نظام المسؤولين، ونظام اللجان والخبراء، والموظفين المساعدين، أي الجهاز "الفني" الذي لا يمكن لأي تنظيم بشري كبير أن يعمل بدونه.

أما وظائف السلطة التنفيذية فهي تسيير عمل الدولة اليومي. والسلطة التنفيذية أيضاً أنواع مختلفة، غير أن النوعين الأساسيين هما: النظام الرئاسي، والنظام البرلماني. ويوجد النوع الأول تجسيده في الولايات المتحدة الأمريكية، أما النوع الثاني فتمثله بريطانيا. وفي النظام الرئاسي يتولى رئاسة السلطة التنفيذية رئيس يأتي عن طريق انتخابات عامة مباشرة، وهو مستقل عن السلطة التشريعية إلى حد كبير، يتمتع بحق تعيين أعضاء الحكومة (مجلس الوزراء)، ويمكنه استشارة الشعب مباشرة (الاستفتاء). والنظام البرلماني نوعان أيضاً، أحدهما يخول المجلس النيابي حق انتخاب رئيس السلطة التنفيذية. وفي النوع الآخر (الإنجليزي) تتركز السلطتان، التشريعية والتنفيذية، في مجلس الوزراء، حيث الحزب الحاكم هو الذي يقرر من يكون رئيس السلطة التنفيذية. أما الصيغة الفرنسية فتجمع بين النوعين المذكورين. كما أن للسلطة التنفيذية أيضاً جهازها "الفني" الذي يقوم على أساس توزيع الوظائف والمناصب وتراتبيتها.

وفى النظام الأمريكى تضم السلطة المركزية - إلى جانب السلطتين التشريعية والتنفيذية - مكوناً ثالثاً هو السلطة القضائية (المحكمة العليا).

أول ما تتحدث عنه كتابات المؤلفين الغربيين، المتعلقة بطبيعة السلطة المركزية، هو الفصل بين السلطات. وهذه الفكرة التى كان قد طرحها جيمس هارينجتون (١٦٥٦) وشارل مونتسكيو (١٧٤٨) تقضى بأن تتقاسم كل من السلطات الثلاث حصتها من الحكم مع السلطتين الأخرين، ما يقلل احتمال شطط أى منها فى تنفيذ وظائفها. وهذا ما كان يُقصد به تجنب قيام سلطة استبدادية (طاغية) مطلقة.

لقد تحقق نموذج الفصل بين السلطات فى شكله الأكثر "نقاء" فى الولايات المتحدة الأمريكية. ويبدو للوهلة الأولى أن لهذا النموذج الفضل فى تحقيق الهدف المنشود. حقاً إن القضاة هناك مشرعون إلى حد ما. فالسلطة التنفيذية تتناول على المحكمة والوظائف التشريعية. والاتفاقيات التى يعقدها الرئيس مع الدول الأجنبية، وكذلك قيامه بتعيين الأشخاص فى مواقع المسئولية، وفى المحكمة العليا ضمناً، يجب أن تحظى بمصادقة مجلس الشيوخ. والرئيس حق النقض (الفيتو) على قرارات الكونجرس. ويمكن للكونجرس توجيه الاتهام للقضاة الفيدراليين وعزلهم. ومشروع القانون لا يمكن أن يصبح قانوناً ما لم يصادق عليه الكونغرس بمجلسيه، وما لم يوقعه الرئيس. والمحكمة العليا حق الطعن بدستورية تصرفات السلطتين التشريعية والتنفيذية.

غير أن بالإمكان النظر إلى خصائص السلطة بأنواعها الثلاثة، لا كوسيلة لتقييد الحكم، وإنما كمؤشر على وحدة السلطة الجزئية داخلياً بحكم توزيع الوظائف، والدليل على ذلك هو أن الهيمنة فى حكومات العديد من البلدان الغربية تكون لواحدة من السلطات، أى للسلطة التشريعية<sup>(٨٥)</sup> التى لها الكلمة العليا بالمقارنة مع السلطتين

---

(٨٥) كما كان فى فرنسا أيام الجمهورية الرابعة.



الأخرين. ومع ذلك يبقى تقاسم الوظائف بين مختلف مؤسسات السلطة مجرد أمر مريح. وفي بريطانيا تتركز السلطان التشريعية والتنفيذية في جهاز واحد، هو مجلس الوزراء. فإذا فاز حزب بأغلبية الأصوات في الانتخابات يقوم البرلمان بتسمية زعيم هذا الحزب رئيساً للوزراء، ويكون له الحق بتعيين الوزراء، ويتحمل مجلس الوزراء مسئولية جماعية. على أن الشخصية الرئيسة في السلطة هي رئيس الوزراء. فالمجلس مجلسه. وهو يمثل الأمة. إن السلطة التنفيذية هنا ملحق تابع للسلطة التشريعية، فيما السلطة التشريعية استمرار للسلطة التنفيذية. وتعمل السلطة التنفيذية بالانسجام مع السلطة التشريعية التي تمنحها موافقتها. كما أن المبادرات التشريعية تصدر عن السلطة التنفيذية.

أعتقد أن الفصل القائم الآن بين السلطات قد خلط ما أملتته قوانين الكومونالية مع ما هو نتيجة للموروث التاريخي، فخضع هذا الموروث لتلك القوانين عملياً. لقد فقد الفصل بين السلطات ذلك الدور الذي أرادوا أن يعلقوا عليه الآمال فيما مضى. وفي هذا الخصوص وجه العديد من المؤلفين انتقادات قاسية لواقع الحال، دون أن يلقوا بالأل (كما أظن) لما أشرت إليه من تداخل بين القوانين والموروث قبل قليل. ومن بين هؤلاء النقاد أشير هنا إلى كارل شميدت<sup>(٨٦)</sup>، ومن المؤلفين الأحدث عهداً إلى ف. هايك<sup>(٨٧)</sup>.

يرى هايك أن النظرية الكلاسيكية حول تقسيم السلطات إلى جهاز تشريعي وآخر تنفيذي (السلطة القضائية لا تستحق الحديث عنها!) لم تطبق في الواقع عملياً. فالأجهزة التشريعية المعاصرة لا تقوم بمهمة إعداد قانون عام للسلوك والتصديق عليه، بقدر ما تقوم باتخاذ القرارات التي توجه تصرفات السلطة التنفيذية.

---

(86) Karl Schmidt, 1926.

(٨٧) انظر الهامش رقم ٥٠.

لقد اختلف الفرق بين التشريع والأوامر التي تصدر عن السلطات، بين المهام العامة والخاصة للسلطة. وأصبحت الإدارة، لا التشريع، هي المهمة الرئيسية للسلطة التمثيلية. فكل ما يصادق عليه الجهاز التشريعي أصبح الآن يسمى قوانين. وصار بإمكان الحكومة أن تسن لنفسها ما يلائمها من القوانين. لقد خرجت الحكومة من تحت سيطرة القانون. ومفهوم القانون نفسه فقد معناه. وصارت الإدارة مهمة الجهاز التشريعي الرئيسية، فيما غدا التشريع وظيفة جانبية.

وإذ أُقِرُّ بأن آراء هايك الواردة أعلاه على قدر كبير من الصواب، إلا أنني أرفض تأويله للواقعة التي ينتقدها. فهو يعتبر ذلك تشويهاً للنموذج الديمقراطي، ويبحث عن وسائل لتصحيح هذا التشويه<sup>(٨٨)</sup> وأنا أعدُّ ذلك ظاهرة طبيعية من ظواهر الدولة الغربية المعاصرة، وأنظر إلى الفصل بين السلطات على أنه قضية ثانوية، مُبالغٌ فيها على صعيد الإيديولوجيا والدعاية. أما الحالات المثالية للفصل العقلاني بين السلطات فأعدُّها مجرد حلمٍ غير قابلٍ للتحقيق يراود عشاق ماضٍ لم يكن له وجود مطلقاً. وبالإضافة إلى ذلك، فإن السنوات التي أعقبت طرح نموذج الفصل بين السلطات وتحديد وظائف السلطة التمثيلية شهدت تغيرات هائلة أثرت على طبيعة التشريع، وعلى ظروف عمل السلطة التنفيذية. وقد تبين في الواقع، مثلاً، أن المشكلات التي تقع في خانة شقِّ الطرق وجمع القمامة، والتي يدرجها هايك في عداد التوافه من وجهة نظر الجهاز التشريعي، هي أكثر أهمية بكثير من بعض معايير السلوك المجردة والعدالة. وبحكم الضرورة التي تفرضها الحياة هبطت الدولة الغربية من سماوات الثروة التجريدية عن العدالة والصالح العام إلى أرض المشكلات الملموسة التي تمسُّ عيش المواطنين الخاضعين لها.

(٨٨) إن فكرة هايك القائلة باختيار ٥٠٠ شخص عن طريق القرعة، وإمهالهم مدة ٢٠ عاماً لإعداد تشريع، فكرة تبعث على الضحك.

لقد حلت الآن مرحلة من مراحل تطور مؤسسة الدولة الغربية جعلت إدارة حياة المجتمع الداخلية تغدو المهمة الرئيسة للدولة، مثلما جعلت التشريعات تتحول إلى وسيلة للإدارة. فقد أنجزت التشريعات دورها التاريخي الأساسي عندما وضعت أطراً لنشاط الدولة، وصارت جزءاً من لحم المجتمع الغربي ودمه. وتبقى ثمة ضرورة لحماية تلك التشريعات وتصويبها في ضوء ما يجرى من تغييرات مهمة. وليس ثمة ما ينبئ، في إطار الغربية، بانقلابات تاريخية تتطلب دوراً حاسماً من قبل السلطة التشريعية.

إن المرحلة الجديدة في تاريخ دولة الغربية لم تبدأ إلا للتو. وطبيعي أن يكون تطلع الدولة للقيام بدور الموجه لحياة المجتمع الداخلية كلها ما يزال يواجه بعض المقاومة. وهذا الصراع لم يحسم بعد بصورة نهائية. ولا يزال ثمة إمكانية للحديث عن سعي الدولة نحو أقصى درجة من السيطرة على المجتمع الذي يخضع لسلطتها، وعن سعي قوى في المجتمع نحو الحصول على أقصى حد ممكن من الاستقلال عن الدولة. وتؤدي نتيجة الصراع بين الطرفين إلى تسوية ما، والتحام بين الدولة والقوى المتصارعة معها. ولكن مهما جرى في هذا السياق، فإن أي نتيجة ستكون، على هذا النحو أو ذاك، تطويراً لمؤسسة الدولة يستمر إلى أن يبلغ حده المنطقي.

من الطبيعي أن يحتفظ الفصل بين السلطات بأهمية ما، ولكنها ليست تلك الأهمية التي تضيفها عليه خطابات ومؤلفات المنظرين والسياسيين. ويحتفظ هذا الفصل، على وجه الخصوص، بأهمية الدفاع الذاتي الداخلي عند بعض أجزاء نظام السلطة لحمايتها من طغيان الأجزاء الأخرى. ولا نقصد بذلك دور الوقاية من طغيان نظام السلطة إزاء المجتمع الخاضع لها، بقدر ما نقصد الوقاية من الطغيان في إطار نظام السلطة ذاته، بغض النظر عن علاقتها بالمجتمع.

## السلطة المحلية

يبدى الباحثون قدراً كبيراً من الاهتمام بالسلطة المركزية فى الدولة الغربية، بينما لا يعيرون إلا اليسير من اهتمامهم للمستويات الدنيا من مؤسسة الدولة، وغالباً ما يتجاهلون هذه المستويات تماماً، على الرغم من أنها تشكل عنصراً مهماً من عناصره.

يمكننا أن نتصور أبعاد مؤسسة الدولة المحلية وأهميتها اعتماداً على المعطيات التالية: تتألف الولايات المتحدة الأمريكية، على سبيل المثال، من خمسين ولاية، بالإضافة إلى منطقة واحدة من نمط الولاية. وفى العام ١٩٨٦ كان فيها ٣١٣٩ دائرة. أما الوحدات الإقليمية من المستوى الأدنى (مدن، مناطق، ... إلخ) فعددتها عشرات الآلاف، بل ومئات الآلاف، ويعمل فيها بأجر أكثر من ١٤ مليون شخص من المدنيين. وفى عام ١٩٩١ كان فى بريطانيا ٦٠ دائرة كبيرة، و٥٠٠ منطقة ومدينة كبيرة، و١١ ألف "كومونة" (بلدية)، يعمل فيها بأجر أكثر من مليونى شخص، وأنفقت ١٠٪ من الدخل القومى، بينما تألفت الحكومات المحلية من مئة ألف شخص منتخب. وفى فرنسا (فى المتربول) كان فى عام ١٩٨٩ يوجد ٢١ إقليماً إدارياً، و٩٨ قسماً، و٣٧٠٨ كانتونات، و٣٦٤٤٣ كومونة (بلدية). وانتُخب ٥٠٠ ألف مستشار بلدى (محلى). وفى إيطاليا كان يوجد ٢٠ إقليماً، و٩٦ محافظة، و٨ آلاف بلدية. وحتى فى سويسرا الصغيرة كان يوجد ٢٦ كانتوناً، و٣ آلاف كومونة محلية. وكان يعمل فى الأجهزة المحلية بمستوياتها المختلفة فى الدولة عدد معين من الأشخاص يشكل مجموعهم الإجمالى رقماً هائلاً.

ثمة نمطان مختلفان من السلطة، هما النمط الاتحادى (federal)، كما فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، والنمسا، وسويسرا، وألمانيا؛ والنمط الموحد المركزى (unitarian)، كما فى فرنسا. فى النمط الاتحادى توجد داخل الدولة بضعة مستويات من الحكومات، كل منها يتمتع بدرجة معينة من الاستقلالية. والسلطات على المستويات

الدنيا قدر من المشاركة في أمور الحكومة المركزية. وسلطات كل من المستويات لها تأثير على المواطنين مباشرة، علماً بأن المواطنين هنا خاضعون لحكم عدة مستويات في وقت واحد. أما في النمط المركزي الموحد فتركز السلطة في يد الحكومة المركزية، ويمثلها في المستويات الأدنى موظفون مكلفون من السلطة الأعلى. غير أن النظام الاتحادي الفيدرالي لا يلغى المركزية، فهي تظهر في الواقع بطريقة أو بأخرى. كما أن النظام المركزي لا ينفي الحكم الذاتي. وتتشابه في النظامين وظائف السلطات المحلية (تخصّ شئون ومصالح المناطق التابعة لها)، ومصادر التمويل (الضرائب المحلية، أموال الحكومة المركزية، التبرعات) وطرق تشغيل الناس (المنتخبون، العاملون، موظفو الدولة، المتطوعون).

إن المستوى الثاني من مستويات السلطة (الولاية في أمريكا، والمقاطعة في ألمانيا) هو الأقوى بعد السلطة المركزية ضمن هرمية بنية الدولة. وتدرجياً تقل قوة السلطة كلما انخفض مستواها، إذ إن دورها في أدنى مستوياتها يقتصر على حل المشكلات "اليومية"، أي تسيير أمور الخدمات العامة. وهذا أمر طبيعي، إذ توجد في البلدان الغربية آلية يعمل الجانب العملي من المجتمع على تنظيم نفسه وفقاً لها تنظيمًا ذاتيًا. ومع ذلك فإن هذا الفرع من نشاط الدولة يلعب دوراً مهماً. فبفضله تؤخذ الظروف المحلية بعين الاعتبار، وتصل المعلومات إلى أجهزة السلطة المركزية التي تواجه بهذا الشكل أو ذاك ضغطاً "من تحت"، ويتمكن كثيرون من المشاركة في النشاط السياسي والمدني، والترقي في العمل، كما يتاح لعدد آخر الحصول على عمل.

ليس بحوزتي أية معطيات إمبريقية لكي أتحدث عن اتجاهات تطور دولة الغربية في هذا الخط. غير أن الاتجاه العام نحو تنامي مؤسسة الدولة، وتضاعف حجم وظائفها، وتعزيز دورها في مختلف مجالات حياة الناس، من المفترض أن يخلق ميلاً نحو توحيد نظام السلطة، وتحول السلطات المحلية بمختلف مستوياتها إلى جهاز تنفيذي تابع للسلطة المركزية. أتحدث هنا عن مجرد ميل، إذ إن النزعة المقابلة

حضورها أيضاً فى الوقت ذاته. وهذا يعنى أن العملية الحقيقية يجب أن تكون حلاً وسطاً، وقاسماً مشتركاً بين القوى المتصارعة.

## الجهاز السياسى

إن مجال مؤسسة دولة الغربية متعدد الأبعاد. ويجدر بنا التوقف عند أجهزته السياسية، والبيروقراطية، والحقوقية، فضلاً عن جوانب هيكلته المذكورة أعلاه. إننى أعنى الأجهزة تحديداً، أى مجمل المؤسسات والعاملين فيها. على أن هذه الهيكلية لا تتطابق إلا جزئياً مع الفصل بين السلطات الذى سبق أن تناولناه. وتكون السلطتان التشريعية والتنفيذية عنصرين فى الجهاز السياسى، أما الأجهزة القضائية التى تعدُّ فى بعض البلدان جزءاً من السلطة السياسية، فيجب إدراجها فى الجهاز الحقيقى.

ويتألف الجهاز السياسى من مجمل مؤسسات السلطة المنتخبة مع جميع المؤسسات غير المنتخبة التى تخدم مباشرة عمل المؤسسات المنتخبة بوصفها أجهزة للسلطة.

## النظام الحزبى

إن أهم عناصر مؤسسة الدولة الغربية يتمثل فى النظام الحزبى ( بالأحرى، نظام تعدد الأحزاب). وهو يبلغ من الأهمية ما يجعل استخدامه كثيراً فى الإيديولوجيا، والدعاية، بوصفه السمة الحاسمة فى مؤسسة الدولة الغربية عموماً. وقد أصبح ذلك مألوفاً فى النصف الثانى من القرن العشرين عند المقارنة بين مؤسسة الدولة الغربية ومؤسسة الدولة الشيوعية، أى بين التعددية الحزبية ونظام الحزب الواحد.



يرى بعض المنظرين أن نظام التعددية الحزبية ليس جزءاً من الدولة، وإنما هو منظمات قريبة من الحكومة، تنتمي إلى "المجتمع المدني". أعتقد أنه لا أساس هنا لسجال جدّي، لأن نظام تعدد الأحزاب تشكيلٌ معقد لا يعدم الأساس لإدراجه في عداد عناصر مؤسسة الدولة في أحد جوانبها ("الأحزاب البرلمانية")، وفي عداد عناصر المجتمع المدني (التجمعات الطوعية خارج البرلمان). فنحن هنا أمام مثال نموذجي لتعدد جوانب الظواهر الاجتماعية. وعلى أية حال فإن الأحزاب جزء من آلية التلاحم بين مؤسسة الدولة والمجتمع المدني وجسم البلاد ككل.

يتفق المنظرين والسياسيون، بهذا القدر أو ذاك، على تعريف معين للأحزاب السياسية؛ فهم يطلقون عبارة "حزب سياسي" على تجمع يضم أفراداً لهم قناعات مشتركة، ويهدف بالطرق الدستورية حصراً إلى مراقبة الحكومة، أو إلى أن يكون جزءاً منها<sup>(89)</sup> والتعريف الآخر هو أن الحزب السياسي تنظيم رسمي، هدفه المدرك إيصال أشخاص إلى المؤسسات الاجتماعية من أجل مراقبة آلية عمل الحكومة<sup>(90)</sup>، إن الفروق هنا، كما في التعريفات الأخرى، تعبيرية محضة. ومرة أخرى أجد ذلك محاولة لتعريف مادة إمبيريقية عن طريق إبراز الصفة التي تبدو رئيسية، علماً بأن المادة معلومة للجميع وجليّة دونما أية تعريفات. ومن ليس لديه هذا التصور العادي عن الأحزاب لن تفيده التعريفات مثقال ذرة. ومن وجهة نظر الوصف النظري للأحزاب فإن التعريفات نافلة عموماً، أو إنها، وهذا هو الأسوأ، تغدو عقبة أمام فهم الأحزاب.

لم يكن نظام الأحزاب الغربي دائماً على الشكل الذي هو عليه الآن. فقد ظهرت الأحزاب، مثلاً، في ألمانيا في القرن التاسع عشر كمعبر، ومُدافعٍ عن مصالح مجموعات اجتماعية معينة كالعمال، والكاثوليك. ولم تكن الأحزاب تتولّى

---

(89) John Kingdom, Government and Politics in Britain. Polity Press. 1991.

(90) International Encyclopedia of the Social Sciences. N.Y.m 1985.

مسئولية سلطة الدولة رسمياً، بل كانت تقف في مواجهة السلطة، على غرار المنظمات الاجتماعية خارج البرلمان الآن. ولم تعرف ألمانيا النظام الحزبي الحديث إلا بعد الحرب العالمية الثانية، بل وتحت تأثير المنتصرين (الولايات المتحدة وبريطانيا). وهكذا فإن المنظرين الذي يبتدعون الآن مثل هذه التعريفات للأحزاب السياسية في الغرب، كانوا قبل الحرب العالمية الثانية سيقدمون تعريفات للأحزاب السياسية في الغرب مغايرةً تماماً.

ظهرت في البلدان الغربية، وتظهر الآن، أحزاب سياسية تهدف إلى تغيير المجتمع الغربي تغييراً جذرياً، بل وإلى القضاء على الغربية. لقد كان النصف الأول من القرن العشرين مرحلة ازدهار هذه الأحزاب، عندما استولى الحزب القومي الاشتراكي على مقاليد السلطة في ألمانيا، والحزب الفاشي على مقاليد السلطة في إيطاليا. وقبل ذلك أقيم في روسيا نظام اجتماعي شيوعي حفز الحركة الشيوعية في العالم كله. وبعد الحرب العالمية الثانية اكتسبت الأحزاب الشيوعية في بلدان أوروبا الغربية (فرنسا، إيطاليا، إسبانيا) زخماً كبيراً. أما الأحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديمقراطية، فقد شاطرت الشيوعيين - إلى حد كبير - طموحهم نحو تحولات جذرية، وسعت لبناء اشتراكية أكثر إنسانية وأكثر ديمقراطية ("اشتراكية ذات وجه إنساني")، مما هي الاشتراكية السوفيتية.

وقد أسفرت الحرب العالمية الثانية عن هزيمة الأحزاب "اليمنية" الراديكالية. وبعد إلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفيتي في "الحرب الباردة"، وبالشيوعية في أوروبا الشرقية، وصلت الأحزاب الشيوعية في البلدان الغربية إلى حالة بائسة، وفقدت أهميتها ومطامحها السابقة. وكانت قبل ذلك قد شرعت بالتحول إلى أحزاب غربية ("الشيوعية الأوروبية"). وقد سارعت هذه الأحزاب الآن لخيانة مئلتها السابقة، ومضت تتآلف على نحو محموم مع الظروف الجديدة طلباً للبقاء على قيد الحياة في أي شكل من الأشكال. لقد استولت أحزاب الغربية التي تشكل عنصراً من عناصر مؤسسة الدولة الغربية، على حلبة التاريخ الغربي استيلاء لا يشاطرها إياه أحد تقريباً.

## جدلٌ حول النظام الحزبي

قبل أن أقدمُ وصفًا إجماليًّا لأحزاب الغريبة، سأحدثُ القارئ عن مناقشة عامة جرت في ألمانيا عام ١٩٩٢ حول النظام الحزبي. فقد انطلقت الصحافة آنذاك تتحدث عن أزمة مؤسسة الدولة الحزبية. وأدلى رئيس الدولة فايتسزيكر بدلوه، فقدم مداخلة أثارت جدلاً حاداً بين المتناظرين<sup>(٩١)</sup>، وكان أهم موضوعاتها أن الأحزاب تحولت إلى جهاز دستوري عرقي، يتمتع بتأثير قوى (وطاغ أحياناً) على سواه من الأجهزة الأخرى. وهذه الأحزاب تتغلغل في جميع شرائح المجتمع ومجالاته لكي تكسب الناخبين إلى جانبها. وهي التي تصنع سياسيين محترفين، اختصاصهم معرفة طرق إلحاق الهزيمة بالخصوم ودعم المصالح الحزبية. إن الأحزاب مسكونة بمسألة الفوز في الانتخابات، ولكنها بعد الفوز تنسى المهمة السياسية النظرية للقيادة.

ومع أن فايتسزيكر اعتبر أن هذه الظواهر في النظام الحزبي تمثل تراجعاً عن ديمقراطية أصيلة ما، فقد أكد بذلك على وجود تلك الظواهر كأمر واقع. وهذا ما فعله مشاركون آخرون في المناقشة، انطلاقاً من مواقف مختلفة<sup>(٩٢)</sup> وعلى سبيل المثال،

---

(91) Richard von Weizacker im Gespräch mit G. Holfmann und W. Perger. Frankfurt am Main, 1992.

(٩٢) من بين المداخلات العديدة التي نشرت، أشير بشكل خاص إلى :

- Wolfgang Jager " Sensucht nach der goldendn Demokratie",FAZ.19.5.1992.
- Hans Magnus Enzensberger "Erbarmen mit den Politikern", FAZ. 5.09.1992.
- Peter Losch, Franz Walter "Die SPD", Darmstadt. 1992.
- Christine Landfreds "Partiefinzen und politicahe Macht:", 1990.
- Erwin K. und Ute Scheuch "Cliques, Klunge und Karrieren", 1992

اعتبر فولفجانج ياغر موقفَ فايتسزيكر حنيناً إلى "ديمقراطية ذهبية"، وعزا ما آلت إليه الأمور إلى الظروف الجديدة في المجتمع. ويرى أن حالة الأحزاب في الوقت الحاضر هي نتيجة لزوال البيئة الاجتماعية التقليدية التي كانت الأحزاب تتغذى منها، سواءً بالنسبة للأعضاء، أم بالنسبة للأفكار. ولم تعد الأحزاب تلك اليد الطويلة لوسط معين كان يمدُّها بتصورات عن القيم، ويسدى لها التأييد. فقد أصبح الآن على الحزب نفسه أن يهتم بهذه الأمور. وأصبح النواب مرتبطين بالحزب، وملزَمين على الانضباط الحزبي. كما أصبح الحزب تشكياً معقداً، تتألف قاعدته من ناشطين حزبيين، ومن سياسيين بالمهنة.

لقد نشأت "طبقة سياسية" من نوع خاص لها أليتها في التجنيد والتدريب والسلوك. يقدم ه. م. إنسينسبيرجر وصفاً لهذه الطبقة يمكن، مع تعديل طفيف، أن ينطبق على المتفرغين الحزبيين في بلد شيوعي. بل إن هذا الوصف ينسحب، بدرجة أو أخرى، على الأحزاب في البلدان الأخرى، وليس على الأحزاب في ألمانيا فقط. وهنا يظهر مفعول قوانين الكومونالية، وهي قوانين واحدة بالنسبة للبلدان، بغض النظر عن اختلاف النظام الاجتماعي فيها.

وأشير أخيراً إلى عامل مهم جداً في النظام الحزبي الغربي جرى التطرق إليه في أثناء النقاش المذكور أعلاه، ألا وهو تمويل الأحزاب. إذ تتلقى الأحزاب من الدولة جزءاً مهماً من الأموال اللازمة لحملاتها الانتخابية. وسأعود إلى هذا الموضوع لاحقاً.

أعتقد أن تطور النظام الحزبي في ألمانيا خلال العقود الأخيرة من السنين، ليس تراجعاً عن ديمقراطية ما، أصيلة، فهذه الديمقراطية لا وجود لها أصلاً. بل هو تطور طبيعي لمؤسسة الدولة الغربية، أي تطور للديمقراطية الواقعية، إذا لم نضمّن كلمة "الديمقراطية" أي معنى آخر ما عدا أنها تعنى المجال السياسي في المجتمع الغربي. إن النظام الحزبي الغربي يتصف بميل لأن يصبح أكثر تحديداً وجلاءً مما كان عليه النظام الحزبي في روسيا الشيوعية، بل وفي شكل تعددية حزبية.



## أحزاب الغربية

ليست كل المنظمات السياسية التي تظهر في البلدان الغربية من عناصر الغربية. إن الأحزاب الغربية النموذجية (أحزاب النمط الغربي) هي الأحزاب المعروفة في البلدان الغربية، والتي يصبح أحدها حاكماً بمفرده أو بالتحالف مع غيره، وتلعب دوراً فعالاً في عمل أجهزة السلطة، وتؤثر بقوة على سياستها. ومن هذه الأحزاب الحزبان الجمهوري والديمقراطي في الولايات المتحدة الأمريكية، وحزبا العمال والمحافظين في بريطانيا، والحزبان الاشتراكي الديمقراطي والمسيحي الديمقراطي في ألمانيا، والحزب الاشتراكي الديمقراطي وحزب الشعب في النمسا، والحزب الاشتراكي في فرنسا... الخ.

تتصف أحزاب الغربية بالتنوع. وقد تعرضت وما زالت تتعرض لتغيرات معينة في سياق تطورها الذي لا يمكن القول إنه بلغ نهايته. بل على العكس، سوف تطرأ عليها تغيرات في المستقبل، قبل أن يصبح بالإمكان القول إنها بلغت الحالة الأكثر تطابقاً مع جوهرها. وأود أن أشير أدناه إلى ما يبدو لي ثابتاً من سماتها، ويخص جوهرها تحديداً كظواهر غربية تميل إلى الرسوخ.

ليس لدى الأحزاب الغربية أية نوايا للقيام بإعادة بناء راديكالية لمجتمعها، ولا لاستبدال نظامه الاجتماعي، واقتصاده ومؤسسة الدولة فيه. إنها أحزاب تسعى إلى الحفاظ على الغربية وتعزيزها. فهي جزء من الغربية لا يتجزأ. وهي موجودة وتعمل في إطار الشرعية، وليس بخلافها ولا بالضد منها. وهذه الأحزاب هي نفسها حامية الشرعية. وطبيعي أن ممثلي هذه الأحزاب وقادتها ليسوا قديسين، غير أن انحرافاتهم عن الشرعية ليست ذات طابع اجتماعي سياسي، وإنما هي ذات طابع جنائي.



تُعدُّ مشاركة الناس في انتخاب أفراد يمثلونهم في أجهزة السلطة هدفاً رئيساً بالنسبة للحزب الغربي. ويُعرف الحزب أحياناً بأنه مجموعة من المواطنين يجرى تنظيمهم علناً من أجل الاستيلاء على الحكومة والسيطرة عليها عن طريق الانتخابات.

فالحزب، كم يقول ماكس فيبر، أداة لتعبئة الناخبين بواسطة الدعاية والتحريض. ولكن وظائف حزب الغربية الآن لا تقتصر عملياً على انتخاب المسؤولين إلى الحكومة. بل هي على قدر مهم من التنوع، ومن بينها، على سبيل المثال، تجنيد أعضاء جدد، وتعليم الناس وتثقيفهم سياسياً، وتقديم المعلومات، والتأثير على الرأي العام، وطرح الأفكار والبرامج السياسية، وتشجيع المناقشات والمشاركة فيها، وتحديد المصالح وحلّها، وتشجيع نشاط المواطنين السياسي. وعندما يفوز حزب في الانتخابات يقوم بتنظيم الأعمال اليومية للأجهزة التمثيلية (وخاصة البرلمان). وإذا لم يفز فإنه يمارس عمله كمعارضة رسمية. وفي جميع الظروف فإن الحزب يراقب عمل الحكومة ويؤثر عليها، فهو جزء أساسي من نظام مؤسسة الدولة، شأنه في ذلك شأن الحكومة.

يتألف الحزب من عدد كبير من الناس (عشرات ومئات الآلاف)، وبذلك يكون له بنية معينة. وتكون هذه البنية في بعض الحالات ضعيفة (كما في أحزاب الولايات المتحدة الأمريكية)، وفي حالات أخرى تكون قوية نسبياً (كما في أحزاب بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا). ولكن في جميع الأحوال يمكن أن نتبين في الأحزاب كلها ثلاثة عناصر هي: أعضاء القاعدة في الحزب، موظفو الجهاز البيروقراطي في العمل اليومي، والسياسة قادة الأحزاب والمشاركون في الحكومة. وبالإضافة إلى ذلك ثمة بضعة مستويات تنظيمية بين أعضاء الحزب في المناطق وأجهزة الحزب المركزية. وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبر نموذجاً للأحزاب "العديمة البنية" (غير الهرمية)، ثمة منتديات مختلفة المستويات، تتحول على الأقل مرة كل أربع سنوات (أثناء الحملات الانتخابية) ولعدة أشهر، إلى منظمات ممرضة وهرمية. على أن عدم وجود حزب

جمهورى أمريكى واحد، ولا حزب ديمقراطى أمريكى واحد، فهناك واحد وخمسون حزباً فى كل منهما، لا يعنى انتفاء تاماً لبنية الحزب، بل يعنى وجود شكل معين من البنية ما يزال حتى الآن مناسباً لظروف الولايات المتحدة الأمريكية. أقول - حتى الآن - لأن "انتفاء البنية" هذا يمكن عند اللزوم أن يتحول بسرعة فائقة إلى بنية صارمة، أو يثبت أنه كذلك.

ويوجد فى هذه الأحزاب أقسام للعمل مع الشبيبة، والعمال، والنساء، والمزارعين، والطلبة، والمثقفين. وهذه آليات عمل فى يد الحزب يستخدمها من أجل خوض الانتخابات. على أن المسألة هنا لا تقتصر على الحديث عن الانتخابات، بل توضع القضايا التى تهتم الناس فى مركز الاهتمام.

وأخيراً، ثمة منظمات ومجموعات قريبة من الحزب، أو قريبة من الحكومة، تدعم الحزب وخاصة أثناء الحملات الانتخابية (نقابات، روابط رجال أعمال... إلخ).

ليست الأحزاب الغربية معبراً، ولا مُدافعاً عن مصالح شرائح معينة من المواطنين. بل هى تتوجه إلى فئات السكان كلها، وتتطلع لأن تكون أحزاباً لعموم الشعب. وتصور الإيديولوجيا والدعاية هذه الظاهرة اللابديه، أو فوق الطبقيه، كدليل على التصالح الاجتماعى، أى تزعم بأن الصراع الاجتماعى بمعناه القديم قد اختفى وأفسح المجال للمداوات البرلمانية السلمية<sup>(٩٣)</sup>. وهذا ما يذكرنى بالتصوير الإيديولوجى الدعائى للوضع فى البلدان الشيوعية فى حينه. يومها كانوا يفسرون غياب التعددية الحزبية بأنه نتيجة لوحدة الشعب وعدم وجود طبقات متناحرة. لقد كان الصراع الاجتماعى آنذاك يختزل إلى صراع بين الجيد والأجود.

---

(٩٣) انظر مثلاً، Heinrich Schneider. Staatliche Ordnung und politische Bildung. Munchen, ١٩٣٧

أعتقد أن لا طبقية أحزاب الغربية تتطلب تفسيراً أكثر جدية من مجرد الإحالة إلى ما يسمى بـ "التصالح الطبقي". إن هذه الأحزاب التي ظهرت في ظروف تاريخية معينة، تعيد إنتاج نفسها، وتستمر في الوجود كتجمعات خاصة من الناس من أجل نفسها بالدرجة الأولى، فهي تناضل من أجل الحفاظ على الذات، من أجل البقاء. ولكي تحقق أهدافها (تولى المناصب، الظهور على مسرح التاريخ، الارتقاء في السلم الوظيفي، الشعور بالمشاركة في صنع التاريخ... إلخ)، يتوجب عليها أن تقدم شيئاً "للشعب". هذا هو أسلوبها في الحصول على "قوت يومها". إن الحزب بحاجة إلى الفوز بمساندة جزء من السكان، وإلى أصوات الناخبين، والأموال. فعليه إذن أن يقدم وعوداً ما، وأن ينفذ بعضاً من هذه الوعود، فهو بهذا الشكل أو ذاك حزب لجزء ما من الأهالي الذين يفضلونه على غيره. وعليه أن يتوجه إلى جميع الناخبين، أو على الأقل إلى أوسع دائرة ممكنة منهم لكي يحظى بأصوات من يفضلونه على غيره. وما دام الحزب يحافظ على وجوده، ويستمر في الحياة عقوداً بعد عقود، فهذا يعني أنه يناسب قوى مؤثرة في المجتمع، ويعمل لصالحها بهذا الشكل أو ذاك، مقابل مساندتها له.

واللافت أن أحزاباً بعينها تبقى على حلبة التاريخ عقوداً طويلة من السنين. على أن واحدة من الوظائف التي تنال هذه الأحزاب - مقابل القيام بها - دعم القوى المؤثرة، هي الإيهام بوجود تصالح طبقي، والحيولة دون نشوء أو اشتداد عود أحزاب طبقية تكون قادرة على توحيد المستائين ودفن نشاطهم باتجاه تغيير النظام الاجتماعي القائم. وبهذا المعنى فالأحزاب القائمة هي أحزاب القوى المهيمنة في المجتمع.

تفتقر الأحزاب الغربية إلى إيديولوجيا دقيقة ومتسقة، أي إلى نظرية محددة بخصوص المجتمع البشري، والتاريخ والإنسان، ومجمل القيم والمبادئ الأخلاقية، ومبادئ عمل السلطات، والمشاريع المتعلقة بحالة المجتمع في المستقبل. فهذه الأحزاب لا تطرح أهدافاً بعيدة المدى وبرامج لتحقيقها، بل تنشط وازعة نصب أعينها أهدافاً عملية قريبة المدى. وتسعى لاكتساب شعبية بين الجماهير، والحصول على أكبر عدد

ممکن من الأصوات أثناء الانتخابات، وتطلق من أجل ذلك شعارات وبرامج تتناسب مع الظروف القائمة. ومن المعروف للجميع أن هذه الشعارات والبرامج لا تستحق النظر إليها بجديّة. فأولئك الذين يُنتخبون إلى أجهزة السلطة، يريدون أن يعاد انتخابهم. ولذلك فإنهم يتجنبون التصريحات التي تذهب بعيداً. والمبدأ الذي يعملون وفقاً له هو تقديم القليل من الوعود للجميع، وعدم الإعراب عن تهديد جديٍّ لأيٍّ من القوى المهمة في المجتمع.

## الدولة، الحزب، المال

كان تمويل الأحزاب من أهم المواضيع التي تطرق إليها الحديث أثناء المناقشة التي جرت في ألمانيا، كما أشرنا في حينه. وهذا بالطبع ليس من قبيل المصادفة، لأن من المستحيل على أية منظمة تتمتع بهذا القدر أو ذاك من الجماهيرية أن تحافظ على وجودها مدّةً طويلة، وتلعب دوراً ملحوظاً في المجتمع الغربي المعاصر ما لم تتوفر لها مصادر تمويل دائم. ومن المعروف أن وجود أية منظمة ذات وزن، وقيامها بوظائفها، أمر يتطلّب تكاليف مالية. والقضية كلها تكمن في السؤال التالي: من يقدم هذه الأموال وبأي شكل؟ في ألمانيا، مثلاً، تغطى الدولة جزءاً مهماً من نفقات الأحزاب على الحملات الانتخابية، الأمر الذي راح يثير التساؤل والاهتمام علناً وعلى نطاق واسع، حتى أصبح واحدة من حجج القائلين بأن الأحزاب تتحول إلى مؤسسات تابعة للدولة. وأعتقد أن لهذا اللوم مسوغاته، ولكنني أرى أن هذه المسوغات ذاتها ليست انحرافاً عن جوهر مؤسسة الدولة الغربية، بل هي نزعة طبيعية مشروعة في سياق تطورها.

إن أحزاب الغربية عنصر من عناصر مؤسسة الدولة لأنها تدفع بمرشحها إلى مؤسسات الدولة، وتؤثر على نشاط أجهزة السلطة وخطها السياسي. وما تمويل هذه الأحزاب من قبل الدولة إلا الوجه الآخر للاعتراف بوضعها العملي.

ولعل تمويل الأحزاب هو أحد الجوانب الأكثر تعقيداً في حياة المجتمع الغربي. فمن الواضح أن هذا المجتمع يرفض بجلاء أن تنشأ وتُفصح عن نفسها فيه على نحوٍ سافر تلك الآلية من آليات مؤسسة الدولة التي كانت موجودة في البلدان الشيوعية، حيث كان معترفاً رسمياً بأن الجهاز الحزبي هو المحور في مؤسسة الدولة. غير أنه أياً كانت التدابير التي تتخذ في الغرب للحيلولة دون ذلك، يظل نزوعٌ من هذا القبيل موجوداً هناك بشكل أو بآخر. ولا تشكل التعددية الحزبية عائقاً أمام هذا النزوع. ذلك أن كثرة الأحزاب التي تتاح لها المشاركة في الحياة السياسية بوصفها أحزاب الغربية، يمكن النظر إليها ككتل، وطُغَم، ومافيات... إلخ. عديدة تابعة للحزب الحاكم الذي لم ينضج بعد ليصل إلى النموذج الشيوعي، أو هو يفضل الظهور بمظهر التعددية.

لقد اندلعت في إيطاليا مطلع العام ١٩٩٢ فضيحة تسبب فيها حصول الحزب الاشتراكي (الحزب الحاكم آنذاك) على مكافأة من رجال أعمال لقاء فوزهم بعقود مع الدولة في المجال الاجتماعي. وعندها أعلن رئيس الحزب كراكسي صراحةً أن جميع الأحزاب تتصرف على هذا النحو. وقد خضع للتحقيق آنذاك ٤٠٠ شخص، كان بينهم رئيسا الحزبين الاشتراكي والديمقراطي، وتسعة وزراء، و٤٦ نائباً، و١٢ عضواً في مجلس الشيوخ، و١٩٢ من الساسة والموظفين المحليين. ليس بوسعنا هنا أن أحكم على مدى تورط كل فرد من هؤلاء في الفساد، ولكنني أكتفي بإبراز ما له صلة بمصالح الأحزاب.

كما اندلعت في فرنسا فضيحة مماثلة عندما تبين أن كبار الشخصيات في البلاد كانوا متورطين في منظومة الفساد الحزبي. وجاء في دراسة رصينة حول الموضوع، نشرها الخبير في العلوم السياسية إيف ميني، إن الفساد في فرنسا لم يكن في أي وقت من الأوقات يمثل هذه المنهجية والتنظيم.

إن الفساد ظاهرة متعددة الأنواع والوجوه. إلا أن ما يهمنا هنا هو الجانب المتعلق بتمويل الأحزاب. وهكذا، فإن طرق التمويل التي شكلت أساس الفضائح المشار

إليها، لا تزال تعتبر حتى الآن قضايا جنائية. ذلك أن الأحزاب بحاجة إلى المال، ولكن مصادر التمويل الشرعية غير متاحة، بينما الفرصة سانحة أمام الأحزاب للحصول على الأموال بطرق أخرى، غير شرعية. والأحزاب مرغمة على ذلك، وليس في مقدور أى فضائح أو محاكم أن تُجدي نفعاً للحد من اشتداد هذه النزعة الموضوعية.

ومن الطبيعي أن تتعالى أصوات تدعو إلى إضفاء الشرعية على الفساد الحزبي، وتسميته بـ "التمويل الموازي"، أى بعبارة أخرى، لرفع الصفة الإجرامية عنه. وهى أصوات تعبر عن جوهر المسألة، ولكن فى شكل مقنع حتى الآن، على أن جوهر المسألة يكمن فى أن الأحزاب والموظفين الحزبيين يسعون لأن يشغلوا رسمياً وضعا فى المجتمع كالوضع الذى يشغلونه فى نظام مؤسسة الدولة واقعياً، أى يسعون للوصول إلى وضع يجدون نموذج المثلالي فى وضع جهاز الحزب الشيوعى السوفيتى والموظفين الحزبيين فى نظام مؤسسة الدولة السوفيتية سابقاً.

## التعددية الحزبية

ما الحاجة إلى العديد من الأحزاب إذا كانت جميعها "لعموم الشعب"؟ أولاً، ثمة ظروف تاريخية أسفرت عن نشوء عدة أحزاب لا تزال على قيد الحياة.

ثانياً، إن أية مجموعة بشرية كبيرة نسبياً تنقسم إلى عدة مجموعات بفعل القوانين العامة للكمونالية، مهما كانت العلاقات جيدة بين الناس.

ثالثاً، ما من مجتمع كبير إلا ويشهد دائماً وجود مصالح مختلفة للناس، ومجابهات فيما بينهم، الأمر الذى يتخذ أشكالاً مختلفة جداً، بينها شكل التكتلات السياسية.

رابعاً، إن التعددية الحزبية باعتبارها ظاهرة فى مجال مؤسسة الدولة تَضُمُّ حتى تصبح نظام حزبين. وفى حال وجود ثلاثة أحزاب وأكثر تتشكل كتلتان تكون



إحداهما حاكمة (تفوز فى الانتخابات)، والأخرى تبقى فى المعارضة، وتحصل بذلك على جزء من السلطة وما يرتبط بها من خيارات الدنيا.

تذكرنا هذه الحالة بمباراة فى الملاكمة بين بطل العالم ومنافسه على اللقب، حيث يحصل المنتصر على ١٥ مليون دولار، والخاسر على خمسة ملايين دولار. فالحزب الخاسر لا يغادر خشبة المسرح، بل يبقى على شكل معارضة موالية، أملاً بالفوز فى المباراة التالية. وإضافة إلى ذلك يتعذر تصفيته حتى لو أراد المنتصر، إذ إن له جذوره فى المجتمع.

وأخيراً، فإن نواة الحزب أشبه ما تكون بمؤسسة لتقديم الخدمات السياسية. وهى تعيش وفق قوانين السوق العامة. إن اختزال التعددية الحزبية إلى ثنائية حزبية، واختزال هذه الثنائية إلى حل وسط (صفقة) بين المنتصر والمهزوم، إنما يعكس الميل العام للسوق نحو مركزة المصانع وتعزيزها.

أما الأحزاب الجديدة فتشقّ طريقها فى الحياة بصعوبة كبيرة، ولا يتسنى لها ذلك إلا من باب الاستثناء، وليس القاعدة. وحزب "الخضر" فى ألمانيا خير مثال. إن السوق السياسية تحول بكل السبل دون ظهور منافسين جدد، وذلك ما تتعرض له، على سبيل المثال، أحزاب "اليمن" فى ألمانيا وفرنسا، إذ لا تُحاصر بسبب مثلٍ عليها ما (هذه ليست إلا حجة وتمويهاً)، بل خشية أن تكسب الناخبين إلى جانبها، وتفسد الوضع السياسى على الأحزاب المعترف بها.

## الحزبية، والحزبية الزائفة

ينقسم شكل الحكم فى الدولة إلى نوعين، هما: نظام الحزب الواحد، ونظام تعدد الأحزاب. إذ يجد نظام الحزب الواحد نمونجه الكلاسيكى فى النظام الذى كان سائداً فى الاتحاد السوفيتى حتى العام ١٩٨٥، أما أنا فأجزم بأنه لا وجود البتة لهذا النظام، أى نظام دولة الحزب الواحد، وما يسمى نظام الحزب الواحد هو فى واقع الأمر تشبه

بنظام الحزب الواحد، أى هو نظام الحزبية الزائفة. فإذا ما قام حزب بالاستيلاء على السلطة وقضى على الأحزاب الأخرى، واحتفظ لنفسه بالسلطة لمدة طويلة (صار حكمه مستقراً بهذا القدر أو ذاك)، فإنه عندئذ يكف عن كونه حزباً، ويتحول جزئياً إلى عنصر من عناصر جهاز الدولة، وجزئياً إلى عنصر فى بنية الخلايا العملية. وتظل موجودة كلمة "حزب"، كما يظل موجوداً بعض المظاهر الشكلية، كاشتراكات العضوية، والاجتماعات، والشعارات. وما تلك إلا أشياء للتضليل. ويمكننا أن نضرب مثلاً بالحزب الشيوعى السوفيتى كنموذج للحزب الزائف، وكذلك بمؤسسة الدولة السوفيتية كنموذج لمؤسسة الدولة الحزبية الزائفة. ولا يمكن الحديث عن مؤسسة الدولة الحزبية بالمعنى الصارم للكلمة إلا عندما يوصل الحزب رجاله إلى مؤسسات الدولة، دون أن يغدو هو مؤسسة منها، وعندما يكون حزباً حقاً، أى تنظيمياً لا يضمُّ إلا قسماً من مواطنى البلاد، مثله فى ذلك مثل التنظيمات الأخرى فى البلاد.

تشهد البلدان الغربية نزعة نحو تحول حزبية مؤسسة الدولة إلى تشبه بالحزبية، أى إلى حزبية زائفة. والشكاوى المذكورة أعلاه من أن الأحزاب تحولت إلى جهاز حكومى من نوع خاص، إنما تعكس هذه النزعة.

لقد رأيت منذ أول أيامى فى المهجر أن حياة البلدان الغربية مشبعة بالفعالية الاجتماعية السياسية عند عدد كبير من الناس لا يقلُّ عمماً فى روسيا الشيوعية، حيث كان ذلك أمراً طبيعياً، نظراً لغلبة الجانب الكومونالى. عندها كنت أفكر على النحو التالى:

أولاً، إن البشر بغالبيتهم وفى أى زمان ومكان لا يُقدِّمون، دونما غرض، على القيام بأى شىء يتطلب منهم مهارات وجهوداً على مدى طويل. ولما كان جمهور من الناس، ولا سيَّما الأذكىاء والمثقفون والعمليون عادة، يمارسون بانتظام نشاطاً اجتماعياً سياسياً، فذلك يعنى أن هذه الممارسة تلبى عندهم حاجات ما.

ثانياً، إن هؤلاء الناس يعملون فى مجال الكومونالية، ويتصرفون وفق قوانينها المشتركة بين جميع المجتمعات التى تكون الكومونالية متطورة فيها. وطبيعى أنهم

سيستفلون مزايا وضعهم لما فيه مصلحتهم، فكل منهم يسعى لاختطاف حصة من الخيرات تتناسب مع ما تسمح به مكانته.

ثالثاً، ما دام هناك عدد كبير من الناس يقومون بوظيفتهم في مجال معين، فلا بد من أن يقيموا فيما بينهم علاقات متبادلة من نوع معين تتيح لهم استغلال هذا المجال معاً.

رابعاً، يجب أن يصبحوا محترفين في عملهم.

إن المعلومات التي حصلت عليها عبر مختلف القنوات أقنعتني بصواب المواقف التي أوردتها أعلاه. فقد كنت أزداد معرفة من خلالها بأن ظواهر حياة الغرب الاجتماعية السياسية تشبه ما سبق لي أن عرفته خلال حياتي في روسيا السوفيتية. إذ توجد في حياة الغرب الاجتماعية السياسية أيضاً فئة مستورة، وحتى مخفية، لا تُقرها القوانين، بل وغير مشروعة في جزء كبير منها، ولها مثيل في روسيا. وقد كانت هذه الفئة هنا وهناك تحاط بالكتمان، وتُخفى، بل وكانت تتال العقاب أحياناً. ولكنها، على الضفتين، كانت ثمرة طبيعية.

لقد وقع في يدي مؤخراً كتاب المؤلفين إرفن ويوتا شويخ "الزمر، والمجموعات، والوصولية" (١٩٩٢) الذي يضم نتائج دراسات ميدانية تتناول النظام الحزبي في هذا المعنى تحديداً. وجاء في الكتاب أن ألمانيا تشهد على المستويات كافة، بدءاً من الجماعات المحلية وانتهاء بمستوى البلاد ككل، تحول الناشطين الحزبيين (السياسة عموماً) إلى جزء من الشريحة الحاكمة، أي أنه تجرى عملية التحام بين السياسة والإدارة. ومن ناحية أخرى، تتأصل الأحزاب في حياة المجتمع الاقتصادية وغيرها من مجالاته، ويغدو السياسة موظفين في الكونسرنات، ويشغلون مناصب أبعد ما تكون عن السياسية. ويتشكل نوع من الكارتلات بين الأحزاب الكبيرة، وزُمرٍ من السياسة المحترفين. بعضهم يقررون من يشغل هذه المناصب أو تلك في المؤسسات التي في متناول السلطة. وهم يوزعون في أوساطهم فرص الحصول على الخيرات والامتيازات. وتتشكل الزمر على أساس العلاقات الشخصية، ويتحول النظام الحزبي إلى ما يشبه

الإقطاعيات، وعن طريق هذه الزمر يتم الوصول إلى دوائر السلطة. وتقوم الأحزاب والزمير بتحويل الدولة إلى فريسة لها، وإلى مصدر للترقى فى الوظائف (مبدأ الوصولية) وشتى أنواع المكاسب. إن نزعة "المحاصصة الديمقراطية" تؤدى إلى تعذر فقدان السلطة عملياً، وإلى ضمان سلطة ونفوذ السياسة والأحزاب والزمير لمدة طويلة تفوق الآجال التى يعطيها حق الفوز فى الانتخابات للسلطة.

بدهى أن هذا الوصف لمؤسسة الدولة الغربية الفعلية لا يتطابق مع التصوير الإيديولوجى والدعائى للديمقراطية الغربية. ولكنه يتطابق تماماً مع ما للكومونالية من قوانين موضوعية تجعل جميع أنظمة الدولة متشابهة فى كثير من الجوانب، بغض النظر عن النظام الاجتماعى. يراودنى شعور بأن الوصف الوارد أعلاه للنظام الحزبى الألمانى إنما وُضع استناداً إلى تجربة روسيا السوفيتية.

واعتماداً على متابعتى أرى أن فى نظام مؤسسة الدولة الغربية نواة من أحزاب، وزمير، وسياسة محترفين لا تقلُّ رسوخاً عن "النوى" المماثلة لها فى جهاز الدولة فى البلدان الشيوعية. وأنا لا أنظر إلى هذه الظاهرة (شأنها فى ذلك شأن كل ما فى الكتاب المذكور) على أنها شىء لا أخلاقى، أو شىء يعكّر صفاء ديمقراطية "حقيقية" ما. وأعتقد أن من المستحيل عموماً، بدون هذه الظواهر التى تثير السخط والإدانة، أن يقوم نظام مؤسسة الدولة بعمله الفعلى، ويتعذر أيضاً استقراره وتداوله. إن استبعاد هذه "النقائص" من شأنه أن يؤدى إلى نقائص وعيوب من صنف أكثر سوءاً، وخاصة إلى رقد منظومة السلطة بأناس طارئىن وسطحيين وأغرار، قد يبرزون أسلافهم فى كل عيوبهم. والمثال الجلى على ذلك حاضر فى وضع روسيا الراهن (تسعينيات القرن العشرين - م)، حيث بزُّ "الديمقراطيون" الحاكمون أسلافهم الشيوعيين فى الفساد والنفاق وسواهما من الرذائل، ولكنهم كانوا دونهم من حيث المهارة والاحتراف فى الإدارة.

## الانتخابات

ينقسم العاملون في نظام السلطة والإدارة إلى فئتين، من ناحية الطريقة التي يتولون بها مناصبهم، وتحديدًا إلى مَنْ يُوظَّفون ويُعيَّنون في المناصب "من فوق"، ومَنْ يُنتخبون "من تحت". إن الأغلبية الساحقة تنتمي إلى الفئة الأولى، أى إلى سلك موظفي الدولة. أما عدد المنتميين إلى الفئة الثانية فليس كبيراً، مقارنة بالأولى، وهم يشكلون سلك النواب. ولكن الاهتمام بأشخاص الفئة الثانية في الأدبيات المتخصصة وفي وسائل الإعلام يفوق مرات عديدة الاهتمام بأشخاص الفئة الأولى. ولا يعود السبب في ذلك إلى الدور الذي يؤديه في نظام السلطة أولئك الذين اختارهم الشعب، بقدر ما يعود إلى اعتبارات الإيديولوجيا. ذلك أن المنظرين الإيديولوجيين، عندما يعرفون الديمقراطية بأنها نظام تتشكل فيه الحكومة بناء على إرادة أغلبية الناخبين، لا يهتمون بالكشف عن جوهر سلطة الدولة، بقدر ما يحرصون على إخفاء هذا الجوهر.

إن الانتخابات الفعلية لا يجمعها إلا القليل مع ما يُقال لها من مديح إيديولوجي دعائي. إذ إن عدداً كبيراً من المواطنين الذين يتمتعون بحق الانتخاب يتجاهلون الانتخابات (شارك في الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام ١٩٩٢ عدد قياسي من الناخبين هو ٥٤٪)، ويعلمون ذلك بأن مشاركتهم أو عدمها لا تغير في الأمر شيئاً، وأن نتائج الانتخابات لا تغير شيئاً في وضعهم، وأنهم لا يعرفون شيئاً عن معظم المرشحين، وأن هؤلاء يتم اختيارهم ضمن دائرة ضيقة في مكان ما، ومن ثم يفرضون على الناخبين<sup>(٩٤)</sup>.

ولكن التناقض بين الانتخابات الفعلية وصورتها الدعائية لا يعنى أنها انتهاك لمعايير عقلانية ما. إن التصورات الساذجة عن وجود انتخابات عادلة ونزيهة بالمطلق

---

(٩٤) هذا ما تدلّ عليه، مثلاً، نتائج استطلاعات الرأي المنشورة في FAZ بتاريخ ١٧/٢/١٩٩٢.

هي تصورات غير قابلة للتحقق مبدئياً. فحتى عندما تجرى انتخابات المسؤولين في مجموعات تتألف من بضع عشرات من الأشخاص، تبدأ النزاعات، والدسائس، وعمليات الغش، والعنف، والخداع... إلخ. وهذا أمر لا مناص منه، ولا سيما في مجتمع يتألف من ملايين الناس. إن نظام الانتخابات الغربي يمثل أقصى ما يمكن أصلاً، من وجهة نظر النزاهة لأسباب "فنية" تماماً. ولكن حتى لو افترضنا أن العدالة المطلقة تحققت، وترشح للانتخابات أذكى المواطنين وأشرفهم، وأن جميع المرشحين كانت أمامهم فرص متكافئة... إلخ، لما تحسّن الوضع في السلطة، بل لساء على الأرجح، لأن من سيفوز عندئذ هم أفراد ليسوا خبراء في مجال الإدارة، بل هواة لا شخصية لهم، ترضى عنهم الأكثرية، ولا يتصرفون وفق قواعد السلوك في السلطة، وإنما كمبتدئين أغرار. والخلاص الوحيد عندئذ، لو حدث ذلك، هو أن يقوم العباقره الأنقياء أخلاقياً، بعد انتخابهم مباشرة، بتعلم الخداع، وممارسة الديماغوجيا، والسرقه، وغير ذلك من رذائل الساسة الفعليين.

إن جوهر نظام الانتخابات الغربي لا يكمن في العمل على تطبيق فكرة مجردة حول الديمقراطية، بل في إتاحة الفرصة عملياً من أجل اختيار أشخاص إلى أجهزة السلطة ومنحهم الشرعية بصفاتهم هذه. والانتخابات هي شكل ملازم للغربوية يرمى إلى إسباغ الشرعية على السلطة، وما من أساس آخر هنا لعملية إضفاء الشرعية هذه. ومن الخطأ من الناحية المنطقية الصّرف أن نعتبر التشريعات (الدستور) أساساً لشرعية السلطة. فالقوانين لا تحدّد إلا أصول شرعية السلطة. ولكن الشرعية، بصفاتها هذه، أي بوصفها اعتراف المجتمع بأشخاص على أنهم يمثلون السلطة، لا تحققها إلا الانتخابات.

إن نظام الانتخابات الغربي، بالرغم من كل نواقصه (من وجهة نظر النقاد)، يتيح حل واحدة من أهم مسائل السلطة، أي إمكانية تداول السلطة العليا رسمياً، مع الحفاظ على استقرار مؤسسة الدولة واستمراره. وبذلك تتحقق حماية المجتمع من التقلبات الراديكالية والخطيرة التي لا لزوم لها. إن المجتمع الغربي، وبصرف النظر عن ديناميكيه العملية، مجتمع محافظ في جزئه الاجتماعي السياسي، وإن كان قابلاً أحياناً



لاهتزازات جسيمة، على غرار ما حصل في ألمانيا وإيطاليا عندما وصل النازيون والفاشيون إلى السلطة عبر الانتخابات، وظهر خطر مماثل بعد الحرب العالمية الثانية من جانب الشيوعيين. ولكن الغرب استخلص الدروس من الماضي، فمن المستبعد أن تستطيع الأحزاب الراديكالية الوصول إلى السلطة عن طريق الانتخابات، على الأقل في السنوات القريبة القادمة.

## الأغلبية

تُنْتخب أجهزة السلطة التمثيلية وفق مبدأ أغلبية الأصوات، وبعد انتخابها تمارس عملها وتتخذ قراراتها وفق هذا المبدأ نفسه، الذي يتعرض لانتقاد شديد. وإليكم مثلاً نموذجياً عن ذلك.

يؤكد ف. هايك أن الديمقراطية التي تدعى لنفسها الحق بحل أية مسألة بأغلبية الأصوات قد تحولت بالفعل إلى شكل للإدارة يجعل الجهاز الحاكم متحرراً من أى قيد. ويضيف أن ضرورة تشكيل أغلبية منظمة لدعم مصالح مجموعات معينة خلقت مصدراً جديداً للتعسف والتحيز؛ فالأغلبية البرلمانية، من أجل أن تبقى أغلبية، ترى لزاماً عليها أن تقوم بكل ما يخطر على البال من أجل تحقيق فائدة مجموعات لها مصالحها الخاصة. أى أن الأغلبية البرلمانية تشتري مساندة هذه المجموعات مقابل منحها الامتيازات. ويمضى هايك قائلاً إننا - ودون رغبة منا في ذلك - خلقنا ماكينة تتيح المصادقة، باسم أغلبية افتراضية، على إجراءات ليست في مصلحة الأغلبية، أى إجراءات يرفضها الشعب، لو كان القرار بيده.

يرى هايك، ومؤلفون آخرون<sup>(٩٥)</sup>، أن الديمقراطية الغربية في شكلها المعاصر (بعد الحرب العالمية الثانية) هي ديمقراطية شمولية (توتاليتارية)، ويعتقدون أن مبدأ الأغلبية

---

(٩٥) تحدث ج. ل. تالمون عن "الديمقراطية التوتاليتارية" في كتابه The Origin of Totalitarian Democracy، وتحدث ج. ك. غالبرايت في كتابه The Affluent Society، Boston، 1969.

لا يشكل ضماناً للديمقراطية. أما عيوب "الديمقراطية الشمولية" المشار إليها فليست من جوهر الديمقراطية الغربية؛ بل إن المثال الديمقراطي تعرض للتشويه - حسب هؤلاء المؤلفين - أي أن مبادئ الديمقراطية بحد ذاتها جيدة، ولكن تطبيقها يجرى على نحو خاطئ.

إن آراء هايك هذه مثال نموذجي لموقفه الإيديولوجي من المسائل الاجتماعية. وهي تذكرني بآراء بعض إيديولوجيي الشيوعية الذين كانوا يؤكدون أن المثل الشيوعية جيدة بحد ذاتها، ولكن تطبيقها بطريقة خاطئة على أيدي ستالين، وكذلك بريجنيف، هو ما شوَّهها أيما تشويه. وهكذا نرى التماثل التام بين أسلوب التفكير الغربي والشيوعي .

وأودُّ الإشارة بالمناسبة إلى أن آراء هايك حول سلطة الجهاز الحاكم غير المحدودة لا تعدو كونها هُراء، لأن السلطة، أيًا كانت، تبقى محدودةً بقدرة الخاضعين لها على تنفيذ قراراتها، ومقيدةً بأطر مصلحتها في المحافظة على نفسها ذاتياً. إن وضع السلطة القانوني يعكس بشكل أو بآخر هذه العوامل التي تقيدها.

تنطلق المقاربة الإيديولوجية للظواهر الاجتماعية من معنى الكلمات، ومن تعريفات مجردة، وليس من الواقع الإمبريقي. فالخطأ، وفقاً لهذه المقاربة، ليس في التصورات القبليّة عن الواقع، وإنما في الواقع نفسه. إن أصحاب هذه المقاربة يعتبرون سمات الديمقراطية الغربية نتيجةً لتطبيق غير سليم لمبادئ سليمة، بينما هي في الحقيقة نتيجةً لتطور المجتمع وفق القوانين الاجتماعية الموضوعية. فقد سبق وتحدثت أعلاه عمّا للمجتمع ككل واحد من مصالح تختلف عن مصالح مجموعات ما من البشر، وحتى عن مصالح الأغلبية. إن مفهوم الأغلبية، كعامل حاسم في اتخاذ القرارات من قبل السلطة، لا معنى له في حال تأويله حرفياً (أي بشكل مجرد) واستخدامه في غير مكانه. فالحكومة تعبر دائماً عن إرادة الأغلبية، ولا تعبر عن ذلك أبداً. ذلك أن الحكومة هي تلك الأغلبية، هي تجسيدها، أيًا كان موقف الأغلبية الحقيقية (الإمبريقية) ذاتها من قرارات الحكومة. والأغلبية الحقيقية لا تمتلك أية إرادة عموماً. فإرادتها هي دائماً

إرادة الأقلية التي تتحكّم بها. ولا وجود بشكل عام للأغلبية كعامل معطى سلفاً، بل يجب تشكيلها، وتنظيمها باعتبارها شيئاً مصطنعاً. وهذا ما تتمثل فيه وظيفة الحكومة الديمقراطية. إذ جرى تشكيل الأغلبية تحديداً بفضل ما تقوم به السلطة من تدابير ("احتيالات") تتعرض للنقد من طرف الإيديولوجيين في كلا الاتجاهين، اتجاه فضحها واتجاه تحسينها، على حدّ سواء.

إن الأغلبية (المصطنعة، أو الوهمية) ذاتها هي الأداة الوحيدة في يد الحكومة الديمقراطية كي تعمل لمصلحة المجتمع ككلّ واحد. وبهذه الطريقة تحديداً تقوم الدولة الغربية بوظيفتها الأساسية، بل وتقوم بها على أحسن وجه. وقولنا "أحسن" لا يعنى حتماً أنه جيّد، بل يعنى أن الوسائل الأخرى أسوأ منه.

## الطبقة السياسية

دخل تعبير "الطبقة السياسية" حيّز الاستعمال في السنوات الأخيرة بقصد الإحاطة بمن يحترفون النشاط السياسى بوصفهم أعضاء منتخبين في المؤسسات الحكومية، ومن يساعدهم من مستشارين، وكذلك بالمتفرّغين في الأحزاب السياسية وغيرها من المنظمات والحركات الاجتماعية المنخرطة في السياسة على نحو من الأنحاء. ربما كان هذا التعبير قد استُخدم سابقاً، ولكنني لم أحاول البحث عن أصله.

إن هذا النوع من الأشخاص (الذين يمثّلون طبقة السياسيين المنطقية) لا يشكون ظاهرة جديدة، إلا أن النصف الثاني من القرن العشرين شهد قفزة نوعية في هذا المجال. فقد تضاعف عدد أفراد هذه الطبقة عدة مرات. وراح ينخرط فيها أشخاص يمثّلون مختلف شرائح السكان، وليست الشرائح صاحبة الامتيازات وحدها. وغدا نشاط هؤلاء الأشخاص معلناً على الملأ بفضل وسائل الإعلام الجماهيرى، ومكشوفاً بطريقة مسرحية بهدف التأثير على جماهير السكان. يقوم ممثلو هذه الطبقة بوظائفهم

ويترقون في عملهم لا كأفراد، بل ضمن مجموعات، ومنظمات، وحركات من شتى الأنواع. ويظهرون في المستوى الأعلى من السلطة بصفة ممثلين لأحزاب سياسية، وموظفين يتبوءون مناصب في مؤسسات الدولة.

ومع ذلك، ثمة جوانب في حياة الطبقة السياسية يجرى التكتّم عليها بصراحة، أو على الأقل لا يسمح بإذاعتها. من ذلك، مثلاً: كيف يستغل أعضاء هذه الطبقة وضعهم لمصالحهم شخصية؟ ومن أية أوساط يتم تجنيدهم؟ ما هو نوع من يُنتقون للانضمام إلى هذه الطبقة؟ ما هو تحصيلهم العلمي والثقافي؟ كيف يتدربون على دور السياسة؟ وكيف يتدرّجون في السلم الوظيفي؟.. إلخ. ولا يُرفع الستار، جزئياً ولوقت قصير، عن الجوانب المذكورة من حياة الطبقة السياسية إلا بسبب ما يحدث من فضائح. ويتسرّب شيء من ذلك إلى كتب المذكرات، والأعمال الأدبية، والأفلام السينمائية أيضاً، ولكن عادة كحوادث منفردة وجرائم يعاقب عليها القانون فقط. ولم تلتفت هذه الطبقة الانتباه كظاهرة اجتماعية متميزة، بما في ذلك جوانبها الخفية، إلا في الآونة الأخيرة.

يقدم كتاب إرفين ويوتا شويخ الذي ورد ذكره من قبل وصفاً عاماً لممثلي طبقة السياسيين على أساس دراسة شخصيات بعينها. ويرى مؤلفا الكتاب أن المهم للسياسة المحترفين ليس الكفاءة في مهنة من المهن، بل الكفاءة في العمل السياسي كمهنة من نوع خاص، وعلى وجه الخصوص الكفاءة في التواصل وإقامة العلاقات على نحو يتوافق مع روح العصر، والصلات السياسية، والعلاقات الشخصية مع أعضاء الزمرة، والتودّد للقوى النافذة في المجتمع. كما يتمتع السياسة بجملة من الامتيازات منها، على سبيل المثال، السفر المجاني في ظروف مريحة، والاستقبالات، والتكريم، وإمكانية استخدام السيارات مجاناً، وضمان الشيخوخة، ناهيك عن العطايا والمكافآت المختلفة... إلخ. وبالإضافة إلى ذلك كلّه ثمة الفساد الذي يستحيل كشفه عملياً. وإذا ما أسفرت العملية الانتخابية عن خروج سياسي بارز من حلبة السياسة، سرعان ما

يجدون له فى العادة منصباً آخر يكفل استمرار استفادته من الامتيازات المعتادة. وعلى هذا النحو يتشكل نوع خاص من "الوجهاء" الحزبيين.

تشكل الطبقة السياسية ظاهرةً فى مجال الكومونالية التى تبلغ أقصى حدودها فى المجتمع الشيوعى. ففيه تسود هذه الطبقة وتطور قدراتها جميعاً. بينما من المشكوك فيه أن تستطيع هذه الطبقة بلوغ مثل هذا المستوى فى المجتمع الغربى، رغم أنها تتصف بميل نحو ذلك بفعل وضعها فى المجتمع، وإمكاناتها الواقعية، والمادة البشرية التى تتشكل منها. وعلى أية حال، فإن ما توصلتُ إلى معرفته عن الطبقة السياسية فى المجتمع الغربى يشبه شبيهاً مذهلاً ما قُدِّرَ لى أن أرصده فى روسيا السوفيتية على مدى العديد من السنين. ويمكن القول إن المجتمع السوفيتى أفشى فى ثرائته الكثير ممّا يبقى مستوراً فى الغرب، ويتجنب الغربيون التحدث عنه جهراً.

هناك صفات عامة للطبقة السياسية، مثلما هناك صفات عامة يتميز بها البيروقراطيون، والعسكريون، والعاملون فى الأجهزة السرية، وزعماء العصابات، والعاشرات، ورجال الدين، وغيرهم من فئات البشر. وعلى سبيل المثال، فإن من تتوفر لهم أفضليات الوصول إلى هذه الطبقة وتحقيق النجاح فى صفوفها هم أشخاص لا يتمتعون بمواهب بارزة، وليسوا محترفين من الدرجة الممتازة فى مجال من المجالات الضيقة، ولكنهم يتمتعون بطيف واسع من القدرات المتوسطة. والحال شبيهه هنا بما هو موجود فى عالم الرياضة، بمعنى أن الرياضى المتفوق فى ميدان معين من ميادين الرياضة لا يستطيع أن يفوز ببطولة أنواع المصارعة، والساسة يشبهون من هذه الناحية رياضيين يلعب كل منهم مائة نوع من أنواع المصارعة، لو كان هؤلاء موجودين. فلو كان ريغان ممثلاً عظيماً لما صار رئيساً للولايات المتحدة. ولو كان شميدت عازف بيانو عظيماً لما صار مستشاراً لجمهورية ألمانيا الاتحادية.

كما أن الأفضليات فى طبقة الساسة يتمتع بها أناس متحللون من القيود الأخلاقية، مغرورون، ميالون إلى إقامة علاقات خفية ونسج مكائد، قادرين على التصنع

والرياء، نزاعون إلى التباهى والديماغوجيا... إلخ. ويكفى أن نراقب لبعض الوقت سلوك السياسيين المعاصرين لكي نتثبت دون عناء من صفاتهم هذه. وعلى أية حال، فإن من يلتحقون بهم سرعان ما يتقنون هذه المهارات، إذا كانوا يطمحون إلى النجاح ولهم منه بعض نصيب. هكذا، وليس في اليد حيلة، فتلكم هي القوانين الموضوعية التي تحكم سلوك الناس في المجال الكومونالي.

## السياسة

ينظر عدد كبير من المؤلفين إلى السياسة كمقدرة على تحقيق الأهداف بأى وسيلة ("الغاية تبرر الوسيلة")، مقدرة على تمويه الأهداف الحقيقية، وإضفاء مظهر نبيل على الوسائل القذرة المتبعة لتحقيق هذه الأهداف... مقدرة على تضليل الخصم، والتلاعب بالناس، وتوجيههم، وجعلهم ينفذون إرادة الحكام. إن هذا الرأي قريب من الحقيقة، فلا وجود لأية سياسة أخلاقية، ولا مكان لقواعد الأخلاق هنا عموماً. ليست السياسة لأخلاقية. وإنما ليس للسياسة صلة بالأخلاق، أى أن لها قواعد التي ليس بينها وبين قواعد الأخلاق صلة. وما محاولة إضفاء مظهر أخلاقي على السياسة إلا أحد أساليب السياسة لتضليل الجماهير بهدف استغلالها لمصلحة الساسة.

وبالرغم من وجود مهنة تسمى "علم السياسة"، فليس ثمة وجود لعلم مكتمل وممنهج بهذا القدر أو ذلك، يخصّ قوانين العمل السياسي. وهذا أمر مفهوم. إذ لو كان هذا العلم قائماً وأصبح في متناول الجميع، لبدا في أعين الناس العاديين شيئاً منافياً للأخلاق، كلبياً، قذراً، إجرامياً؛ ومن يعملون في مجال السياسة أوغاداً، كذابين، غاصبين، وحوشاً، بلهاء ومحتالين. يعرف الجميع أن هذا التصور قريب من الحقيقة، ولكن الجميع يتظاهرون وكأن هذه الحالات مجرد استثناءات نادرة، وكأن السياسة أيضاً يتصرفون ضمن أطر قواعد الأخلاق (ساسة الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا يتحدثون بحمى عالية عن الأخلاق في السياسة). وبالرغم من أنه لا وجود لعلم عن



قواعد حقيقية (وليست وهمية) للسياسة، فإن السياسة المبتدئين سرعان ما يستقون هذه القواعد من شتى المصادر ويستوعبونها، أو إنهم يعيدون اكتشافها بأنفسهم من جديد. وهذا أيضاً يبيّن جزئياً أنه ما من حاجة لعلم خاص في هذا المجال عموماً. وما وجود بعض نتف من هذا العلم إلا استثناء لا غير، بل وهو استثناء سيئ السمعة، كما هو حال مؤلفات ميكيافيللي، و"بروتوكولات حكماء صهيون" المجهولة المؤلف (٩٦).

ثمة نوعان من أى نظام من أنظمة حكم البشر: نوع أوامرى، وآخر تلاعبى. الأول يسود فى النظام الشيوعى، بينما يغلب وجود الثانى فى النظام الغربوى. ذلك أن سلطة النوع الثانى لا تطالب بتنفيذ إرادتها بشكل مباشر، بل هى تسعى إلى بلوغ ذلك عبر التأثير على وعى الناس بطريقة تفضى إلى ظهور أوامرها المفروضة من "فوق" وكأنها قبول طوعى ممن هم "تحت".

كما أن فى أى نظام من أنظمة حكم البشر نوعين من نمط آخر: علنى وخفى، ففى النظام الشيوعى يسود النوع الخفى الذى يتخذ شكل سرية شمولية. أمّا فى النظام الغربوى فبالعكس، هناك تضخيم لنوع السلطة العلنى تجاوز كل الحدود. إذ لم يعد اجتذاب "الشعب" إلى صنع السياسة هو الغاية الرئيسة فيه، وإنما هناك سعى السياسة إلى اكتساب الشعبية، وإرضاء الغرور، وتحقيق الشهرة. وهذا الغرور يجعل السياسة يفقدون عقولهم تماماً، وينظرون إلى كل كلمة يقولونها، وكلّ وضعية يتخذونها وكأنها قضية ذات أهمية تاريخية تقرر مصائر الشعوب. لقد بات مرض "النجومية" مرضاً مهنيّاً عند السياسة كما هو عند ممثلى السينما وأبطال الرياضة. إن التمثيليات السياسية تشغل حيزاً هائلاً فى وسائل الإعلام الجماهيرى. أمّا ما ينتاب السياسة فى فترات الحملات الانتخابية، وعند وقوع أحداث فى العالم لها نصيب من الأهمية ويستطيعون التمسح بها على نحو ما، فحدث ولا حرج! إننا لو

---

(٩٦) اطلعت على هذه البروتوكولات أول مرة فى عام ١٩٩١.

قدّمنا للعقلاء من الناس عرضاً مكثفًا للتمثيلات السياسية في العقود الأخيرة، لظنّوا أنهم أمام مشاهد من مشفى المجانين، ذلك أن الشعبوية لم تعد صفة لبعض من السياسة، أمثال فرانس جوزيف شتراوس، ورونالد ريغان، وهلموت كول، وإنما أصبحت ظاهرة شاملة<sup>(97)</sup>،

## السلطة والمحكومون

ما من سلطة إلا وتهتمّ بالحفاظ على نفسها وترسيخ وضعها، مثلما تهتم بمصالحها، بما هي مجموعة أشخاص من فئة معينة يعيشون ويتمتعون بنعم الحياة جرّاء قيامهم بوظائف السلطة. وهذا طبيعي تمامًا. ولكنّ هناك فرقًا بين الحاكمين والمحكومين، هو أن السلطة بحكم طبيعة دورها في المجتمع ملزمة بالعناية بالمحكومين. وهنا يسرى مفعول قانون اجتماعي موضوعي، فحواه أن السلطة تسهر على مصالح الخاضعين لها بقدر ما يقتضى ذلك حفاظها على نفسها، وتلبية حاجاتها. ذلك أن السلطة تسعى إلى استخدام وضعها من أجل تحقيق الحد الأقصى من مصالحها، والحد الأدنى من مصالح من هم تحت حكمها. على أن المسافة بين هذين الحدين تتأرجح ضمن إطار معين يشكل تخطى حدوده خطراً ليس على المحكومين وحدهم، بل وعلى السلطة نفسها.

ونظراً لتضخم جهاز الدولة وتزايد الإنفاق عليه، وتعاضم شهية رجال السلطة وفرص استغلالهم مناصبهم، برزت نزعة نحو خفض عناية الدولة بالخاضعين لها، ونحو رفع درجة عنايتها بنفسها. ومن تجليات هذا الاتجاه تزايد فساد موظفي الدولة

---

(97) Populismus und Aufklärung. Herausgeben von Helmut Dubiel. Frankfurt am Main, 1981.

وتدنى إنتاجية عملهم، ونمو روح البيروقراطية، وغير ذلك من الظواهر التي انتقدتها الغربيون بحمية إذ رأوها في البلدان الشيوعية، وتجاهلوها أو قللوا من شأنها في مؤسسة الدولة عندهم.

إن الحياة اليومية لكتلة السكان الأساسية في المجتمع الغربي لا ترتبط بالحكومة ارتباطاً كبيراً. فالجمهور يفهم الديمقراطية كفرصة للغيث بمعزل عن السلطة بالدرجة الأولى. غير أن تدخل الدولة في حياة الشعب يغدو محسوساً أكثر وأكثر. ولا ينجم ذلك عن أخطاء ترتكبها الحكومة، ولا عن نوايا شريرة، وإنما بفعل الضرورة الموضوعية. وهذا الأمر لا يقتصر على المجالات التقليدية من نشاط الدولة، بل ويشمل غيرها من المجالات التي كانت محرمة أو شبه محرمة عليها، بما في ذلك الاقتصاد.

إن الموقف السيكولوجي من سلطة الدولة يتشكل لدى الخاضعين لها تحت تأثير كثير من العوامل. ومن هذه العوامل شخصية الشعب، وتقاليده التاريخية، ووضع الدولة في المجتمع. إذ يمكننا أن نجد ضمن أي جماعة كبيرة من الناس كل ما يخطر على البال من هذه العوامل. ومع ذلك يتشكل في المجتمع موقف جمعي من السلطة. فالروس، مثلاً، يتميزون بصفة تنطوي على نقيضين، هما الخنوع والتذلل أمام السلطة من جهة، واحتقار السلطة وانتهاك حرمتها من جهة ثانية. وهذه الصفة جزء من شخصية الروس وتاريخهم كشعب لم يعرف سلطة سوى سلطة الإكراه من فوق، ومن الخارج.

إن اطلأ على ما في الغرب من أدب، وسينما، ووسائل إعلام، وكذلك متابعتي الشخصية كان أساساً للانطباع الذي تكوّن لدى بأنه لا وجود في الغرب لما هو موجود في روسيا من خنوع وعدمية في الموقف من السلطة. ففي الغرب تغلب العلاقة المدنية (علاقة المواطن)، أي أن الناس يعون شرعية وجدوى مؤسسة الدولة القائمة، ويعترفون بها. وإذا كان عمل مؤسسة الدولة يتعرض لانتقاد منهجي دائم، فإن هذا الانتقاد محدد، لا يهدف إلى القضاء على هذا النظام. إننا لا نجد في الغرب تراكم أمزجة معادية للدولة تتحول إلى رفض تام لنظام السلطة عموماً. فالأمزجة الانتقادية تغدو

علنية بالتدريج، وكأنها تتلاشى. وأياً كان مستوى الانتقاد في موقف المواطنين الغربيين من السلطة، كنت ألاحظ دائماً حداً لا يتخطاه أحد. أما في روسيا فالجميع يتخطونه، بدءاً من منتقدي النظام وانتهاءً بممثلي السلطة ذاتها. وهذا الحد هو حد احترام المواطن للسلطة، حد المواطنة والمسئولية المدنية إزاء مصير المجتمع.

## الدولة والاقتصاد

إن الترابط بين الدولة والاقتصاد موضوع متعدد الجوانب والأبعاد، ناهيك عن أنه في الواقع نتيجة ظروف عديدة. أودّ التطرق إلى بعض جوانب هذا الترابط، وبشكل مبسّط (مثالي) حسب مقتضيات الضرورة.

تشكل الدولة والاقتصاد وحدة لا انفصام لهما. فالدولة هي التي توفر، وتحافظ على الظروف التي تمكن الاقتصاد من أداء وظائفه بشكل طبيعي؛ بينما يُنتج الاقتصاد موارد وجود الدولة، ويعيد على الدوام إنتاج هذه الموارد. أما شكاوى المنظرين من تدخل الدولة في الاقتصاد، أو العكس، أي تدخل الاقتصاد في السياسة، فليست أكثر من شكاوى عديمة المعنى. وهي، بالأحرى، انعكاس إيديولوجي لنواقص وعيوب موجودة في حياة البلد تُلصق إما بالسياسة "السيئة"، وإما بالاقتصاد "السيئ"، أو بالعلاقات غير السليمة بينهما. وتبعاً للأمزجة العامة يلحّ الإيديولوجيون على تشديد دور الدولة في الاقتصاد (كينيس وشيلر، مثلاً)، أو على عدم تدخل الدولة في الاقتصاد (هايك وفريدمان، مثلاً). وفي واقع الحال نرى تذبذباً بين هذا الاتجاه وذاك<sup>(٩٨)</sup>.

---

(٩٨) على سبيل المثال، اشتداد دور الدولة في السويد وفرنسا مع وصول الاشتراكيين إلى السلطة، والسياسة المناقضة لذلك التي اتبعتها مارغريت ثاتشر في بريطانيا، ورونالد ريغان في الولايات المتحدة الأمريكية. لقد استُبعد كينيس، وتقدّم عليه كل من هايك وفريدمان.

يتصور بعض الإيديولوجيين (وربما هم الأغلبية) أن مهمة الدولة على صعيد الاقتصاد، هي التشريع، وإرغام المشاركين في المجال الاقتصادي على الالتزام بالقوانين والمحافظة على النظام الضروري في هذا المجال. فيما ينبغي أن تتلقى الدولة من القطاع الاقتصادي على شكل ضرائب ما يكفيها من الموارد الضرورية لقيامها بوظائفها. ولكن في الواقع لا يجرى التقيد بهذه الصيغة المثالية حرفياً، بل تصبح الدولة ذاتها ظاهرة من ظواهر المجال الاقتصادي، بل وتكون مرغمة على ذلك، ولا تفعله بمقتضى هواها.

ومن بين الظروف التي ترغب الدولة على لعب دور اقتصادي يجب أن نشير، بالدرجة الأولى، إلى احتفاظها لنفسها بحق إصدار النقود، ومراقبة النظام النقدي عموماً، فهو بحد ذاته أهم عوامل الاقتصاد. وقد تخوّل الدولة هذا الحق بنكاً ما (٩٩)، ولكنها تحتفظ لنفسها بحق مراقبته. إن المبالغ الهائلة التي تجنيها الدولة على شكل ضرائب هي رأسمال بكل ما لرأس المال من مقومات، وليست مجرد رزْم من الأوراق المالية. والدولة هي المصرفي الأكبر في البلاد. وخلافاً للمصرفيين العاديين لا تستعمل الدولة الأموال كرأسمال، بقدر ما تستعملها كنفقات. بل إن إنفاق الدولة، كقاعدة عامة، أكبر من دخلها، ومن هنا يأتي نمو ديون الدولة (١٠٠)، ومع ذلك فإن الدولة، بوصفها مصرفياً، تقدم قروضاً للشركات الخاصة.

والظرف الثاني الذي يرغب الدولة على لعب دور اقتصادي هو جملة من الاحتياجات الاجتماعية التي يعجز القطاع الخاص (السوق) عن تلبيتها. وهذا ما يستدعى نشوء ما يسمى بالقطاع العام الذي من الصعوبة بمكان رسم حدوده. ولكنه

---

(٩٩) استحدث نابليون "بنك فرنسا" كمؤسسة خاصة تضم ٤٠ ألف مساهم.

(١٠٠) في العام ١٩٨٧ وحده بلغ ما دفعته حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فوائد على ديون الدولة حوالى ٢٠٪ من نفقاتها.

بشكل عام يشمل منشآت لا تعمل بالكامل وفقاً لقواعد السوق، على أن هذا الفصل ليس دقيقاً دائماً، فما يسمى بالغرف التجارية، مثلاً، يتمتع بسلطة حكومية لضبط النشاط التجارى على المستوى المحلى، ولكن تلك الغرف عملياً ليست مؤسسات حكومية. وتلجأ الحكومة أحياناً إلى مؤسسات خاصة تعهد إليها بالتأمين الصحى للمواطنين، وتأمين ممتلكاتهم، وجباية الضرائب أيضاً.

ويندرج فى القطاع العام كذلك ما شاخ من منشآت، وفروع صناعية غير قادرة على المنافسة كمؤسسات خاصة، ولكنها ضرورية، أو على الأقل مفيدة للبلاد. إنه "قطاع النفايات" على حد تعبير لابلومبار. ويضم هذا القطاع، تالياً، منشآت وفروعاً صناعية ومشاريع ذات أهمية للبلاد عامة، ولكنها أكبر من قدرات الشركات الخاصة منفردة. ونعنى بذلك الطاقة، والنقل، والاتصالات، والطرق، والبريد، والتعليم، وخدمات المعلومات، والأمن، والضمان الاجتماعى، ورعاية المسنين والعجزة، والوقاية من الأوبئة والكوارث... والكثير غير ذلك.

إليك ما كتبه لابلومبار من وجهة النظر هذه عن الوضع فى إيطاليا. وأعتقد بأن هذا الوصف ينطبق على البلدان الأخرى أيضاً. إن القادة الصناعيين (كما يقول لابلومبار) يؤيدون لفظياً العمل الحر وغير ذلك من عناصر الاقتصاد الليبرالى، بينما هم يؤيدون فى الواقع شيئاً آخر. ذلك أن ما يصدر عنهم من تصريحات ورعة تدعى أن من الأفضل للاقتصاد ألا يحشر السياسة والحكومة أنوفهم فى البرنس، ليس إلا واجهة تخفى وراءها العلاقة الوثيقة بين الحكومة والبرنس. إن كبار رجال الصناعة الإيطاليين غير منغمسين بالسياسة علناً، على طريقة أوساط رجال الأعمال الكبار فى الولايات المتحدة الأمريكية. فهم لا يحتلون مناصب سياسية، ولا مناصب وزارية، ولا يشاركون بشكل منظور فى مدقنوات الدعم المالى للمرشحين، وللأحزاب السياسية على الطريقة الأمريكية (الأمريكان يقومون بذلك علناً!). وإنما يتبع الإيطاليون أساليب أخرى، منها الرشوة، والصحافة، والتلفزة، والإدارات المتداخلة، والشركات المالية، والتلاعب بالبورصات، والسيطرة على البنوك التجارية التى تعود ملكيتها وهمياً للدولة والمجتمع.



ومن ناحية أخرى، هناك مؤسسات حكومية كثيرة منغمسة في الاقتصاد. على أن جزءاً كبيراً من الاقتصاد موجود في قبضة شركات عمومية. إن الدولة عامل مهم في الصناعة والبنوك، وفي سوق العمل ورأس المال، وفي التجارة الخارجية.

## ازدواجية السلطة

ليس هناك تناغم ثابت وأبدى في العلاقات بين الدولة والبنزس. فالحياة تشهد تغيرات ترغم ثنائى "الدولة - البنزس" على التأثر بها. على أن تأرجح الكفة لصالح هذا الطرف أو ذاك، بمعنى اختلال التوازن بين طرفى هذا الثنائى، أمر طبيعى تماماً، كتقلب أمزجة الناس إزاء أدوارهما، أى دور الدولة ودور البنزس.

والمثال الساطع فى هذا الصدد هو حالة الـ "العائلات المائتين فى فرنسا"<sup>(١٠١)</sup>، إذ بحلول ثلاثينيات القرن العشرين حدث تداخل بين البنزس والدولة. فقد كان كثير من كبار أغنى مائتى عائلة فى فرنسا نواباً فى الجمعية الوطنية ومجلس الشيوخ. وفى الوقت نفسه كثيراً ما كان سياسيون يتبوءون مناصب فى قيادة الشركات. وكان بين أولئك السياسيين وزراء سابقون، وكان مائتان من أبناء ٥٣ عائلة فرنسية يشغلون أكثر من ألف منصب إدارى فى مختلف الشركات، وكثيراً من المقاعد فى أجهزة الدولة التمثيلية (المنتخبة). وفى السنوات التى تلت الحرب انتقلت الحكومة إلى الهجوم على جبروت العائلات المائتين تلك. فأُمت عددًا من البنوك وشركات التأمين، والطاقة، وسكك الحديد، وصناعة الفحم. وظلت إدارة الاقتصاد فى يد الدولة حتى العام ١٩٨٤، ولكن الأمور بعد ذلك التاريخ بدأت تسير بالعكس، فلم تتمكن الدولة من الاحتفاظ بسيطرتها على الاقتصاد. ومرة أخرى استعادت العائلات المائتان سلطتها الهائلة السابقة.

---

(101) G. Milesi. Les nouvelles deux cents fanulles. 1991.

طبعاً، إن هذا الصراع بين البرزنتس والدولة ليس محصوراً في مائتي عائلة. ويتلخص جوهر الأمر في أن نظام السلطة في المجتمع الغربي لا ينحصر في السلطة السياسية، أي الدولة، بل هو كيان أكثر تعقيداً بكثير، وليست الدولة إلا جزءاً واحداً من أجزائه، فيما الجزء الآخر هو نظام إدارة الاقتصاد المستقل عن الدولة إلى حد كبير، أي السلطة الاقتصادية. إن فرعى السلطة الأساسيين هذين يتلاحمان ويتداخلان، ولكن أياً منهما لا يبتلع الآخر بالكامل، بل يحتفظ باستقلاله إلى حد معلوم، وأحياناً يتنازعان، ويخوضان صراعاً جدياً فيما بينهما، تحت ضغط المجتمع أساساً.

ليس للسلطة الاقتصادية بنية تقرها القوانين، كما هو حال السلطة السياسية. إنها لا تعلن عن نفسها جَهاراً، إلا أن حضورها محسوس إلى درجة تجعل كثيراً من المنظرين والإيديولوجيين يعدونها السلطة الرئيسة في المجتمع الغربي، وما الدولة إلا دُمية بين يديها. إن هذا التصوير مبالغاً، طبعاً، ولكنه يعكس الواقع. وهكذا، فإن من يتحدث عن الفصل بين السلطات في المجتمع الغربي يكون عليه أن يتحدث بالدرجة الأولى عن الفصل بين السلطتين السياسية والاقتصادية. وأعتقد أن ذلك سيتخذ صفة شرعية مع مرور الوقت.

## الجهاز الإداري - البيروقراطي

إن ثاني العناصر الأهم في دولة الغربية، إلى جانب السلطة التمثيلية المنتخبة والمتداولة، هو الجهاز الإداري البيروقراطي، وهذا الجهاز لا يمثل أحداً، وليس منتخباً، ولا يطرأ عليه إلا قليل من التغيير في ظل جميع التقلبات التي تقع في المجتمع والسلطة التمثيلية. والسلطة في نظر الغالبية الساحقة من مواطني الدولة الغربية هي شبكة من مؤسسات هذا الجهاز، قبل كل شيء، فيما نشاط الحكومة المركزية أشبه ما يكون بعرض مسرحي. ولا تُحسُّ الفئات العريضة من السكان بحضور السلطة التمثيلية

المباشر إلا أحياناً، أى عندما تقوم السلطات العليا بمناقشة وإقرار قوانين تمس مصالح هذه الفئات بشكل مباشر (زيادة الضرائب، مثلاً). على أن المواطنين يعرفون من خلال التجربة أن القوانين مبدتوت أمرها فى كواليس السلطة، ولا يبنون أية أوهام على المسرحيات البرلمانية. وتتمثل لهم السلطة بكل روتينها الباهت الجائر فى هيئة موظفين مجهولين فى متاهات الدوائر الرسمية.

لقد قدم ماكس فيبر<sup>(١٠٢)</sup> وصفاً كلاسيكياً للبيروقراطية، فأشار إلى مقوماتها التالية:

١- هرمية المناصب.

٢- قواعد العمل المكتوبة.

٣- الموظفون مثبتون فى أعمالهم، ويتقاضون أجوراً مضمونة تتناسب والمنصب الذى يشغله كل منهم.

٤- الفصل بين الوظائف داخل المؤسسات.

٥- لا أحد يملك الموارد التى يتعامل بها.

إنه جهاز هائل الحجم، يعمل فى إطاره غالبية العاملين فى مؤسسة الدولة، ويزيد عددهم عن ١٠٪ من إجمالى عدد المواطنين العاملين. وهو مبنى وفق المبدأ العسكرى للعلاقة بين الرئيس والمرءوس. وفيه كثير من درجات التراتبية. فقد كان فى بريطانيا عام ١٩٨٨، مثلاً، اثنتا عشرة درجة<sup>(١٠٣)</sup> فى فئة واحدة فقط من فئات الموظفين الثلاث (فئة العاملين فى الحكومة، وفئة الموظفين المدنيين، وفئة الموظفين

---

(102) Max Weber. Economy and Society, Berkley. 1978

(١٠٣) جون كنفدم. انظر الهامش رقم ٨٥،

فى الوزارات). وهذة الدرجات هى: سكرتير دائم، نائب سكرتير، مأمور سكرتير، مساعد سكرتير، مسئول قديم، مسئول، موظف قديم، موظف رفيع، موظف، موظف ديوان، مساعد موظف ديوان. وعموماً، يمكننا أن نحصى عشرات الدرجات فى تراتبية الموظفين.

يتمتع العاملون فى الجهاز الإدارى بجملة من الامتيازات مقارنة مع بقية المواطنين. وهى، قبل كل شىء، العمل الدائم، وفرصة الترقى التدريجى فى الخدمة، والتقاعد المضمون، وظروف العمل المريحة نسبياً. على أن هذه الامتيازات هى مقومات نمط الحياة الشيوعية. ثم إن إغراءاتها قوية جداً. وهناك نزوع فى المجتمع الغربى نحو تحويل بقية فئات المواطنين (أساتذة الجامعات، والعلماء، والعاملين فى الإعلام... إلخ) إلى الفئة نفسها التى يندرج تحتها موظفو الدولة.

## السلطة الداخلية

يتألف نظام مؤسسة الدولة فى البلدان الغربية من عدد هائل من البشر. وهو نفسه بحاجة إلى من يديره، أى بحاجة لعدد كبير من الأشخاص الذين يديرون السلطة ذاتها كنظام. سأسمى هذا العدد الكبير من الأشخاص بالسلطة الداخلية. وهذه السلطة يمكن أن نراها حاضرة فى نظام أى دولة. وهى فى الحالات الأكثر بساطة تتمثل فى أصحاب الحظوة، والمستشارين السريين، و"الأيدى الخفية" التى تحرك الدمى. أمّا فى الحالات الأكثر تعقيداً، فهى مجموعات من طراز المافيا. وفى جميع الأحوال، فإن السلطة الداخلية لا تتخذ صفة دستورية، أى لا تكون عنصراً من عناصر بنية الدولة يحظى بالاعتراف الرسمى. إنها تبقى فى الظل، ويجرى على الصعيد الرسمى نفى أى وجود لها. إنها لا تظهر إلى العلن إلا فى أثناء المهاترات والفضائح.

ويدخل فى عداد جهاز السلطة الداخلية أيضاً ممثلو السلطة العمومية، ولكنهم يؤدون فيه وظائف تختلف عن الوظائف الرسمية. وفضلاً عن هؤلاء يضم الجهاز المذكور ممثلى الإدارة وموظفى الدواوين الشخصية، وموظفى الأجهزة السرية (المخابرات)، وشخصيات نافذة تشارك بصفة غير رسمية فى عمل الحكومة، وأقرباء أعضاء جهاز السلطة... إلخ. وقد تلعب زوجة رئيس الحكومة فى جهاز السلطة الداخلية دوراً أهم من دوره هو.

ويلتصق بالسلطة الداخلية، ويتقاطع معها جزئياً، عدد كبير من الناس المقربين من الحكومة، وهم أصحاب مصالح خاصة، وناقدون، ومجموعات مافيا، ومعارف شخصيون، وعشيقات... إلخ، إنهم "مطبخ السلطة" الذى كثيراً ما تتحدث عنهم مذكرات السياسيين البارزين والمقربين منهم.

## المخفى والمكشوف

تشغل المؤسسات السرية التابعة للسلطة الرسمية، ومجمل أولئك الذين ينظمون وينفذون الجانب السرى من عملها، مكانة متميزة فى نظام السلطة. ومن المتعذر أن نعرف أبعاد هذا الجانب، والوسائط التى يستخدمها. ذلك أن المعلومات التى تصل إلى الصحافة هى معلومات مجتزأة، ووهمية على الأرجح. على أن هذا الجانب كثيراً ما يلعب الدور الحاسم فى السياسة. فالسلطة العلنية لا تقوم بخطوات مهمة دون علمه.

إن الحياة الواقعية التى يعيشها الناس والجماعات يتداخل فيها على الدوام خطآن، مكشوف (ظاهر)، ومخفى (باطن). فليس كل ما يقع فى حياة البشر يظهر على السطح، ويغدو مكشوفاً. والقول بأن كل سر سينكشف، هو قول باطل، وإذا ما صح فإنه لا يصح إلا على سفساف الأمور، أو على ما فقد أهميته، أو أضحي أداة فى صراع سياسى سافر. إن الأجهزة السرية، والاتفاقات السرية، وعمليات النصب

والاحتيايل السرية، والجمعيات السرية... إلخ. هي ظواهر مألوفة في حياة البشر وتنظيماتهم.

هناك في العادة تضخيم لدور الجانب المكشوف وإشهار له، وتقليل من دور الجانب المخفي وتمويه له. وأحياناً لا يظهر دور الجانب المخفي على السطح إلا عندما تقع الفضائح والمهاترات. ولكن هذا من باب الاستثناء. وكذلك من النادر أيضاً أن تنشر كتبٌ عنه. وإذا ما نشرت جاءت مكتوبة على نحو يتعذر معه فهم جوهر الأحداث المبعثرة في بحر، بل قل في مزبلة، من الأسماء والوقائع المحددة.

ربما لو أن كل ما هو مخفيٌ صار مكشوفاً بالفعل، لبدت العملية التاريخية في كثير من جوانبها مختلفة عما يصورها به المنظرون الآن؛ بل ولربما سارت على نحو آخر أيضاً. غير أن من العسير القول أكانت سارت على نحو أفضل أم أسوأ. والأرجح أنها كانت سارت على نحو أكثر سوءاً بعد.

### السلطة العليا

تتردد كثيراً عبارة "النخبة الحاكمة" في الأدبيات السوسبيولوجية<sup>(١٠٤)</sup>، لكنني سأستخدم بدلاً منها عبارة "السلطة العليا"، لأنها أدقُّ تعبيراً عن جوهر هذا العنصر من عناصر نظام السلطة في المجتمع الغربي.

تتألف السلطة العليا من عدد كبير من الشخصيات النشطة التي تحتل مرتبة رفيعة في سلم الهرم الاجتماعي. وهذه الشخصيات هي الأكثر تأثيراً في المجتمع. فبحكم مرتبتها وما يخضع لسلطتها من موارد، ونظراً لوضعها القانوني، وثروتها وشهرتها... إلخ. تكون هذه الشخصيات هي الأقوى نفوذاً في المجتمع. ويندرج في

---

(١٠٤) مثلاً: C. Wright Mills. The Power Elite. 1956



عداد هذه الشخصيات كبار المصرفيين والصناعيين، وكبار ملاك الأراضي، وكذلك العائلات العريقة، وأصحاب الصحف والناشرون، وزعماء النقابات، والمنتجون السينمائيون، ومشاهير الممثلين، وأصحاب الفرق الرياضية، والكهنة، والمحامون، وأساتذة الجامعات، والعلماء، والمهندسون، وأصحاب وسائل الإعلام ومديروها، وكبار الموظفين، والساسة.

ومن البديهي أن فئات السكان المذكورة أعلاه لا تدخل جميعها في عداد السلطة العليا، وإنما يقتصر الأمر على شخصيات مختارة وزعماء قطاعات من المجتمع يحظون بالاعتراف.

وهذا الوسط النخبوي ليس موجوداً على المستوى القومي فقط، بل وعلى المستويات الأدنى أيضاً، أى على المستوى الإقليمي (الجهوى) والمحلى. وهو يشكّل ما يشبه "مديريات" غير رسمية تسيطر على المؤسسات المفصلية فى المجتمع كافة. وأعضاؤه يعرف بعضهم بعضاً معرفة شخصية، وفى دوائرهم يضعون سياسة منسقة، ويُعدّون ويتخذون أهم القرارات، والمصالح الشلية هنا ضعيفة، أو لا تأثير لها البتة.

ليست السلطة العليا مجرد نوع معين من التواطؤ بين أشخاص، مع أن هذا التواطؤ موجود أيضاً. إذ لا مجال للقيام بأى عمل جدى فى المجتمع بدون هذا التواطؤ بين الأشخاص، فهو عنصر طبيعى وضرورى تماماً فى التجمعات البشرية. أى أن السلطة العليا ظاهرة عادية لا تستطيع السلطة العلنية أن تكون موجودة لولاها فى ظروف أكثر التجمعات البشرية تعقيداً، كالبلدان الغربية. ولا يوجد نص أو اعتراف بوجودها باعتبارها ظاهرة قانونية، دستورية، وليس من حاجة لذلك البتة، إذ إنها من حيث المبدأ تشكيل من نوع آخر تماماً، يختلف عن السلطة السياسية العادية. إنها تُحكّم سيطرتها على مناحى المجتمع كلّها، بما فى ذلك نظام السلطة.

## فعالية الحكومة الغربية

يصعب أن نجد بحثاً منشوراً يتناول مؤسسة الدولة فى البلدان الغربية إلا ويكون جانب من جوانب تلك المؤسسة موضوع نقد فيه. ومع ذلك لم أصادف عملاً واحداً يقدم دراسة متكاملة لمسائل فعالية الدولة الغربية، ناهيك عن فعالية نظام السلطة والإدارة عموماً، بما فى ذلك السلطة الاقتصادية والسلطة العليا، وليس السلطة السياسية وحدها. ولا أعتقد أن السبب فى ذلك هو ممنوعات (تابوهات) إيديولوجية ما، بل هو على الأرجح تعقيد المسألة غير العادى، وارتباط حلها بضرورة وجود نظرية علمية عن المجتمع الغربى عامة، وكذلك انتفاء الحاجة من الناحية العملية لحلها حلاً علمياً. سأقتصر هنا على ذكر بعض الملاحظات المنهجية.

ينبغى التفريق قبل كل شىء بين تقييم نمط الدولة من جهة، ووضعها فى بلاد وزمن معينين، من جهة أخرى. ربما تكون الدولة، بالمعنى الثانى، فى وضع سيئ، ولكن ذلك لا يعنى أن نمط الدولة سيئٌ بحد ذاته. فالوضع السيئ يمكن تصحيحه مع الإبقاء على نمط الدولة.

عند تقييم نمط الدولة من وجهة نظر فعاليتها، ينبغى أن تأخذ بالحسبان العديد من المؤشرات، إذ يجب أن نحدد المسائل التى تندرج ضمن صلاحيات الدولة، وتلك التى لا تندرج، ما المسائل التى تستطيع الدولة حلها، وما المسائل التى لا تستطيع حلها أصلاً، كيف تضطلع بواجباتها الروتينية وكيف تواجه ما يستجد من مسائل أيضاً، كيف تتعامل مع الحالات العاجلة، ما هو حجم نمط الدولة بالمقارنة مع المجتمع الذى يخضع لإدارته، وما التكاليف التى يتطلبها من المجتمع... إلخ. على أن هذه المؤشرات جميعها يجب رصدها على مدى زمنى طويل، وعلى نطاق واسع.

لم تحظ مؤسسة الدولة الغربية بعدُ بدراسة تمكُّنا من الوصول إلى استنتاجات قاطعة حول فعاليتها. ولناخذ مشكلة البطالة مثلاً على ذلك، فما تزال الحكومات الغربية كلُّ عقد من السنين تجددُ الوعد بحلها، ولكن دون جدوى. بينما تمكَّن الاتحاد

السوفيتي والبلدان الشيوعية الأخرى من القضاء على البطالة. ولكن هل يعنى هذا أن الدولة الشيوعية أكثر فعالية من الدولة الغربية؟ كلا، بالطبع. ذلك أن الدولة الشيوعية لم تحلّ هذه المشكلة لكونها دولة شيوعية، وإنما لكونها جزءاً من مجتمع ذى نمط خاص. فقد كان ثمن هذا الحل تدنياً فى إنتاجية العمل، وتوزيعاً لأعباء البطالة المحتملة (المقنعة) على جميع العاملين. بينما تعمل الدولة الغربية فى ظروف مجتمع من نمط آخر، وهى من حيث المبدأ عاجزة عن حل هذه المشكلة. وأقصى ما فى مقدورها فعله هو اتخاذ إجراءات تخفف من وطأة الحياة على العاطلين عن العمل، وتكبح نمو البطالة. وبهذا المعنى فإن جهود الدولة الغربية مهمة جداً.

لقد هزّت الغرب فى السنوات الأخيرة سلسلة من الفضائح السياسية صبّت فى طاحون من يؤكّدون وجود أزمة فى نظام مؤسسة الدولة فى الغرب عموماً. إلا أن هذا الاستنتاج متسرّع بكل وضوح. فالأزمات السياسية كثيراً ما تكررت فى الغرب من قبل أيضاً، وكانت مرضاً مزمناً فى إيطاليا. إنها ظاهرة طبيعية فى ظروف المجتمع الغربى. والمهم هو أن هذه الأزمات تمرّ من غير أن تؤدى إلى انهيار المجتمع. ولنقارن مرة أخرى، من وجهة النظر هذه، بين مؤسسة الدولة فى الاتحاد السوفيتي ونظيرتها فى الغرب. لقد عاش النظام السوفيتي عقوداً طويلة من السنين فى منأى عن الأزمات، مشغولاً بتضليلات إيديولوجية تتغنى بفضائل الشيوعية. ولكن ما إن بدأت فى ثمانينيات القرن العشرين أول أزمة فى تاريخ الدولة الشيوعية حتى أخفق النظام الشيوعى فى تجاوزها، وانهار فى مدة زمنية قصيرة إلى حد الدهشة. أما مؤسسة الدولة الغربية فتعيش أزماتها وتتجاوزها دونما ألام تذكر. غير أن ذلك لا يعود إلى كرم أخلاقها، بل إلى وضعها فى المجتمع، وهو وضع يمكن، لمن يشاء، أن يعدّه عيباً من عيوب تلك المؤسسة. فهى لا تتمتع بسلطة كاملة مثل مؤسسة الدولة الشيوعية. وهى ليست إلا جزءاً من نظام السلطة الأكثر اتساعاً. إنها مقيدة بجهاز التنظيم الذاتى فى المجتمع الغربى، وباحتوائه على نظام الإدارة الذاتية إلى جانب الدولة. ولو أرادت الدولة الغربية تدمير نظامها الاجتماعى لامتنع عليها ذلك. أما الدولة الشيوعية فلم يكن عليها

قيود من هذا القبيل، لقد كانت سلطتها كاملة، ولذلك أدت أزمته إلى انهيار الكيان الاجتماعي برمته، والحال شبيه بذلك في ما يتعلق بجميع الصفات الأساسية الملازمة لمؤسسة الدولة.

## السلطة ووسائل الاتصال

ثمة دائماً علاقة وثيقة بين السلطة ووسائل الاتصال، والسلطة عموماً لا يمكن تصورها من دون وسائل الاتصال. لقد شهدت البلدان الغربية، والعالم بأسره، تغيرات مهمة بعد الحرب العالمية الثانية تتيح لنا الحديث عن ثورة في هذا المجال. فقد بلغت تكنولوجيا الاتصالات أبعاداً ودرى أسطورية. وظهر ما لا حصر له من المنشآت والمؤسسات التي تعمل في جمع المعلومات، ومعالجتها، ونشرها، وتوزيعها (وكالات الأنباء، مؤسسات الرأي العام، مراكز التوثيق... إلخ). وهناك كثير من العلوم والمؤسسات العلمية المنغمسة في معالجة مشكلات المعلومات. ومن المعروف للجميع المكانة التي احتلتها وسائل الاتصال الجماهيرى في حياة المجتمع. لقد غدا مجال الاتصالات شرياناً ضرورياً لعمل المصانع والمؤسسات الكبرى. ولو أن مجال مؤسسة الدولة بقى خارج تأثير هذا العامل، لكان ذلك أمراً يثير الاستغراب.

ولكن، بالرغم من أن الكتب والمقالات التي تنشر عن هذا الموضوع كثيرة جداً، فإنك في الحقيقة لن تجد فيها تحليلاً سوسيولوجياً جدياً، على الأقل للمسائل التالية: ما هي أبعاد تأثير المنشآت، والمؤسسات، والمنظمات العاملة في حقل الاتصالات على مجال مؤسسة الدولة؟ كيف يتجلى عملياً تأثير حقل الاتصالات على سلوك السلطات وقراراتها؟ ما الشكل الذي تتخذه مؤسسات الاتصال في إطار مؤسسة الدولة ذاته، أى كعناصر في بنيته؟ كيف انعكس تقدم وسائل الاتصال على بنية الدولة وعملها؟ على أننى لا أقصد هنا تلك الأشياء المألوفة كالحواسيب في مؤسسات الدولة، والمعالجة الحاسوبية لما يقدم لأعضاء الحكومة، والبرلمان، وقادة الأحزاب من معلومات عن هذا

المجال أو ذاك من مجالات المجتمع، بل أقصد تلك التغيرات الأكثر عمقاً وجدّيه، أى التغيرات الاجتماعية.

## الدولة والقانون

توصف الدولة الغربية على نحو خاص بأنها دولة القانون، وثمة رأى يقول إن أى دولة هى دولة قانون، وهذا ما كان يميل إليه كانط فى فهمه للدولة كتجمع يضم بشراً يخضعون لقوانين شرعية. وفى زمننا أكد هـ. كلز (١٠٥) أن "كل دولة هى دولة قانون". أعتقد أننا هنا أمام لبسٍ اصطلاحى، على الأرجح. صحيح أن من المتعذر على أى تجمعٍ بشرى كبير أن يعيش بلا قواعد (معايير) تضبط سلوك المواطنين. وصحيح أيضاً أن الدولة، أى دولة، ترغم المواطنين فيها على التزام هذه القواعد. ولكن طبيعة هذه القواعد ذاتها، وأسلوب وضعها، وتصرفات الحكومة فى إطارها، وموقف الحكومة منها، أمور تختلف باختلاف أنماط المجتمع. ومن وجهة النظر هذه، فإن الأقرب إلى الحقيقة هو الموقف الذى لا يرى أن كل دولة هى دولة قانون، وليست كذلك إلا الدولة التى تكون السلطة فيها مقيدة بالقانون، وتقوم فى إطار القانون (١٠٦) فالدولة الشيوعية، مثلاً، ليست دولة قانون فى جوهرها، وإن كانت ظاهرياً تتشبه بذلك.

لا بدّ من التفريق بين الجهاز القانونى بوصفه جزءاً من الدولة إلى جانب الجهازين السياسى والبيروقراطى، من جهة، والمجال القانونى فى الدولة ككل، من جهة أخرى. فالجهاز القانونى هو مجمل المؤسسات الحكومية التى تسهر على تطبيق المعايير

---

(١٠٥) Hans Kelsen (1881- 1973) هو أحد كبار المنظرين فى مجال الدولة والقانون.

(١٠٦) كان Carl Schmitt (كارل شميت ١٨٨٩ - ١٩٨٥) من أنصار هذا الرأى.

القانونية وتعاقب من يُخلّ بها. وتندرج في هذا المجال المحاكم، والسجون، والشرطة الجنائية المنوط بها التحقيق في الجرائم. أما المجال القانوني فيتضمن القواعد (المعايير) التي تنص عليها التشريعات، وتصرفات الناس وفقاً لهذه المعايير. وهذا المجال لا يتطابق مع مجال مؤسسة الدولة.

تنقسم المعايير القانونية وتصرفات الناس إلى فئتين، تندرج في الأولى منهما تلك المعايير التي تنص عليها التشريعات الأساسية، وفي مقدمتها الدستور. وهذه الفئة هي التي تحدد الوضع القانوني للمواطنين الأفراد وتجمعاتهم، والتقسيمات الإقليمية في البلاد، وكذلك الوضع القانوني لأجهزة السلطة العليا. أما الفئة الثانية فتتضمن المعايير التي تشمل العلاقات التعاقدية الطوعية بين المواطنين الأفراد، وبين المواطنين والشركات، وبين الشركات نفسها، وبين الأفراد والدولة، وباختصار، تشمل الحالات التعاقدية التي يجد أعضاء المجتمع وتجمعاتهم أنفسهم فيها.

## دولة القانون

إن المعايير القانونية التي تنطوي عليها الفئة الأولى من الفئتين المذكورتين أعلاه هي التي تحدد الوضع القانوني لأجهزة السلطة العليا. وبهذا المعنى يكون المجتمع الغربي مجتمعاً قانونياً، وبتعبير أضيق، مجتمعاً دستورياً.

ويجب أن نفرّق هنا بين مسألتين: كيف أصبحت الدولة دستورية، وكيف تعيش كدولة دستورية. ففي الحالة الأولى كان ذلك فعلاً تاريخياً أعطى الدولة صفة القانون. أما في الحالة الثانية فإن الدولة دستورية على أساس الدستور، وملزمة بأن تعيش وتعمل في إطاره، ملزمة بأن تدير البلاد وفقاً للدستور. ومن وجهة النظر هذه فإن فكرة الفصل بين السلطات، كيفما كان التعامل معها في الواقع، تعكس وضع الدولة كدولة قانون. إذ يجب أن يكون في البلاد، بهذا الشكل أو ذاك، قوات قانونية تحافظ على هذه الصفة الأساسية للدولة. إن المعايير القانونية في الفئة الأولى لا تقتصر على القوانين



الأساسية في البلاد، بل يعاد إقرارها من جديد وبشكل تفصيلي على جميع مستويات السلطة. ومن هذا المنظور يكون للدولة وظيفة تشريعية دائمة. على أن هذه المعايير تختلف عن التعليمات اليومية التي تصدر عن أجهزة السلطة بكونها عامة (في حدود معينة بالطبع)، ومجردة. ويمكن أن تندرج في هذا السياق أيضاً تلك المعايير المتعلقة بشق الطرق، ومعالجة القمامة، وغير ذلك مما ينفى هايك عنه الصفة القانونية، ولكنه رغم ذلك النفي يتمتع بهذه الصفة، ولو على مستوى أدنى في هرمية القوانين العامة في البلاد.

## وضع المواطن

يندرج ضمن معايير الفئة الأولى من الفئتين المذكورتين أعلاه كل ما يسمى بحقوق الإنسان والحريات المدنية. وهذه المعايير ليست شعارات دعائية وإيديولوجية، بل هي في المجتمع الغربي أسس لسلوك الناس سارية المفعول عملياً. ومن وجهة النظر هذه فإن المجتمع الغربي مجتمع حقوقي. ويمثل حق الناس، وتصرفاتهم وفقاً لهذا الحق إحدى ركائز ذلك المجتمع. على أن هذه ميزة تخص مجتمع النمط الغربي. فما لنمط آخر من أنماط المجتمع مثل هذه الركيزة. وقد جرت العادة على الحديث عن حقوق الإنسان كحقوق فطرية، لا تنفصل عنه. وهذا ما يكرسه إعلان حقوق الإنسان الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٨، ومنذ ذلك الحين يعد ذلك (أي فطرية حقوق الإنسان اللصيقة به) شيئاً بديهياً. وما من أحد يلقى بالاً إلى أن ذلك هراء من وجهة النظر المنطقية والعملية على حد سواء. إذ لا وجود أصلاً لأية حقوق فطرية. وما المجال الحقوقي بأكمله إلا اختراع من صنع البشر، ووسيلة لتنظيم حياة المجتمع. فمنذ متى لم يكن أحد يفكر بحقوق الإنسان مجرد تفكير؟! إن هذه الحقوق لا يمكن أن تكون لصيقة بالإنسان، وذلك لأن الزمن الذي بدأ فيه الحديث عنها لا يساوي مثقال ذرة بالمقارنة مع تاريخ البشرية السابق. بل وحتى في عصرنا كثيراً ما تنتزع هذه الحقوق

من الناس. وهناك فى الأمم المتحدة لجنة خاصة بالعمل على الحيلولة دون انتهاك هذه الحقوق، ودون تجريد الناس ممّا هو فطرى وأصيل فيهم.

إن حقوق الإنسان هى بالضبط تلك الحقوق التى تحدد وضع المواطن فى المجتمع الغربوى لا فى سواه. أما فى ما يتعلق ببقية العالم فإن إعطائها شكل حقوق فطرية، أصيلة، هو سلاح إيديولوجى بيد الغرب فى صراعه من أجل الهيمنة العالمية، وحجة للتدخل فى حياة الشعوب الأخرى.

وإنه لسخف مماثل تماماً أيضاً كل ما يقال فى الدعاية والإيديولوجيا الغربيتين عن الحريات الديمقراطية. فالحرية هى إله إيديولوجيا الغربوية، حيث يُنظر إليها كقيمة عليا فى حياة الإنسان. ويمكن الشك بكل شىء إلا بالقيمة المطلقة للحرية. فلم أصادف فى الأدبيات الاجتماعية الغربية كتاباً واحداً يضع أقنوم الحرية موضع الشك. وفى هذا الصدد تعود بى الذاكرة إلى دهشة المؤرخ الروسى ف. كلوتشيفسكى<sup>(١٠٧)</sup> إزاء الوضع الذى كان قائماً فى روسيا أيام القيصر أليكسى ميخائيلوفيتش<sup>(١٠٨)</sup> إذ صدر فى ذلك الزمن قانون يحظر على الناس أن يسلموا أنفسهم طوعاً للإقطاعيين كأقنان. وكان من يخالفون هذا القانون يتعرضون للجلد والنفى إلى سيبيريا. لقد تحول حق الحرية الإنسانى المقدس إلى خضوع ثقيل. ولكن ذلك لم يستطع أن يوقف عبودية الفلاحين الطوعية. فلماذا؟ لأن الحرية لم تكن قيمة مطلقة بالنسبة للأغلبية الساحقة من الناس فى الكرة الأرضية، لم تكن فى الماضى وليست هى كذلك الآن. ذلك أن ملايين الناس مستعدون للتخلى عن حريتهم مقابل الحصول على وضع أشباه العبيد الشبعانيين فى البلدان الغربية.

---

(١٠٧) Vasilii Kliuchevskii فاسيلى كلوتشيفسكى (١٨٤١-١٩١١) مؤرخ روسى مشهور. - م.

(١٠٨) ثانى قيصر من سلاسله رومانوف، ولد عام ١٦٤٥ وتوفى عام ١٩٧٦ - م.

ليست حقوق الإنسان والحريات الديمقراطية خيراً مطلقاً، وهى على العموم ليست خيراً، وليست شراً. إنها مجرد معايير حقوقية تثبت وضع الإنسان كمواطن فى مجتمع الغربية. أما النعم أو المتاعب التى يعيشها الإنسان فى إطار هذه المعايير، فمسألة تتوقف على كثير من الظروف الواقعة خارج إطار الحقوق.

## الحرية

يجب أن نفرق بين الإمكانيات الواقعية لقيام الناس بأفعال، وبين الجانب الرسمى الحقوقى من هذه الأفعال. إذ تبدو الصورة العامة لحرية المجتمع الغربى على النحو التالى: إذا كانت لديك فرصة واقعية للقيام بفعل ما، فأنت حر بالقيام به، أى أن لك الحق بذلك، ولا يجوز لأحد أن يمنعك، ولا أن تتعرض للعقاب جرأ ذلك. فمثلاً، أنت حر - من وجهة نظر رسمية حقوقية - فى اختيار طريقة كسب رزقك. ولكن ما هى إمكانيات الحقيقة؟! ثم أنت حر فى أن تجوب العالم سائحاً، ولكن هل لديك المال اللازم؟ أنت حر فى الانتقال من بلد إلى آخر، ولكن هل بمقدور أى كان أن يفعل ذلك؟ أنت حر فى التعبير عن أفكارك والترويج لها، ولكن ذلك يتطلب أن يكون لديك أفكار، ومال لنشر هذه الأفكار، وهذا المال لا يتوفر عند الجميع. بل وحتى بوجود المال، لن يسمح لك من يملكون دور النشر، والمجلات، والصحف، والإذاعة، والتلفزيون أن تنشر أية أفكار كانت.

فى المجتمع الغربى ثمة نمو متضخم للجانب الحقوقى من الحرية، بينما يجرى تجاهل جانب الإمكانيات الواقعية، أو يظل ثانوياً. أما فى المجتمع الشيوعى، فعلى العكس من ذلك، نجد أن مركز الثقل ينتقل إلى مجال الإمكانيات الواقعية لحرية الناس فى تصرفاتهم. من البديهي أن المقصود هنا ليس الحريات الغربية، بل الحريات الشيوعية التى لا تتطابق مع الحريات الغربية إلا جزئياً. وبالرغم من أن الناس فى المجتمع الشيوعى لا يجسدون قدراتهم إلا بعد جهد، وليس دائماً بنجاح، فإنهم يحققون الكثير فى هذا المجال.

يجدر بنا أن نُبرز على نحو خاص في مجال الفرص الواقعية ما أدعوه هنا بالحرية (أو اللاحرية) الاجتماعية، وأقصد بذلك طابع ودرجة تبعية (أو عدم تبعية) الشخص لغيره من الأشخاص من وجهة نظر كسب وسائل العيش، فبهذا المعنى نجد أن الأغلبية الساحقة من الغربيين ليسوا أحراراً، أى أنهم مرغمون على العمل. فأنت، مثلاً، حرٌّ قانونياً في أن تنتقل في البلاد بحثاً عن عمل، وفي أن تقبل أو ترفض شروط أرباب العمل، ولكن إذا لم يكن لديك مصادر عيش أخرى، وكنت مضطراً للبحث تحديداً عن مكان عمل لكي تعيش، فأنت لست حرّاً من الناحية الاجتماعية. ولكي تكون حرّاً من الناحية الاجتماعية يجب أن تملك مصادر عيش مستقلة عن الآخرين. أما في المجتمع الشيوعي فجميع الناس تابعون لمصانع الدولة ومؤسساتها، والمنظمات الاجتماعية أيضاً، ولكن تبعيتهم لأشخاص آخرين شخصياً أقل من ذلك بكثير، أو هم ليسوا تابعين لهم نهائياً. إن درجة الحرية الاجتماعية هنا أعلى مما في المجتمع الغربي.

عندما أقدم مواطنو البلدان الشيوعية على تدمير نظامهم الاجتماعي طواعية، كانوا يعتقدون بأن فرصهم الواقعية شيء بديهي لا يُنازع، وكانوا يأملون بأن تضاف إليها الفرص الغربية، أى الحريات الحقيقية. ولكن تبين أن ذلك مستحيل. فعندما حصل المواطنون في البلدان الشيوعية سابقاً على الحرية كمعيار حقوقى غربوى، فقدوا الفرص الواقعية التي كانت تكفلها العلاقات الاجتماعية في ظل الشيوعية. وعندما حصلوا على حق الحرية بأن يفعلوا ما كانوا يحلمون به، لم يحصلوا على إمكانية واقعية لتحقيق ذلك عملياً، بل وخسروا إمكانية القيام بالأفعال التي كانت أمراً عادياً قبل ذلك، من غير أن يكون لهم الحق بها، أى أنهم ربحوا شيئاً، وخسروا شيئاً آخر. لقد كشفت الحرية الغربية الواقعية عن نفسها لتظهر لهم على نحو مختلف تماماً عما كانت تبدو عليه من خلال تمجيدها في الدعاية.

## العلاقات التعاقدية

إن مجال العلاقات التعاقدية مجال هائل فى المجتمع الغربى الذى لا يضاهيه أى نمط آخر من المجتمعات فى هذا الميدان، وهو - من وجهة النظر هذه - مجتمع حقوقى فى الأساس الذى يقوم عليه. والعلاقات الاجتماعية بين الناس فيه تتخذ شكل علاقات تعاقدية طوعية.

ومع ذلك فإن العلاقات التعاقدية ليست ألياً موضع التزام، أو أمينةً بالمطلق، فهى عرضة للانتهاك دائماً. والمشاركون فيها يجب أن يمتلكوا وسائل للذود عما ينبغى أن يكون لهم بموجب الاتفاقات. وبالرغم من أن الدولة تحمى هذه العلاقات بما تملكه من أجهزة قضائية، فإن ثمة أساليب للالتفاف عليها، ناهيك عن أن المحاكمات تتطلب وقتاً ومالاً. لذلك فإن العلاقات التعاقدية تتحول إلى ساحة للمعارك فى إطار القانون، وعلى أساسه، من أجل مراعاة الحقوق، أو الإخلال بها دون عقاب. فلا وجود للحياة الرغيدة إلا فى الدعاية والإيديولوجيا.

## طبقة الحقوقيين

نشأت فى المجتمع الغربى شبكة كثيفة مشوشة من المعايير والعلاقات الحقوقية يعجز فيها المواطن العادى بمفرده عن التصرف دون أن يصيبه ضرر أو إجحاف. وهذا ينطبق أيضاً على أصحاب المنشآت ومدرائها من جميع المراتب والحجوم. وذلك ما جعل المجتمع بحاجة إلى عدد هائل من الاختصاصيين فى هذا المجال، فجاء هؤلاء ليصبحوا شريحة مهمة ذات مستوى عالٍ من الدخل.

على أن هذه الشريحة مختلفة فى تكوينها، فجزء من ممثليها موظفون عند الدولة، وجزء آخر عند الشركات الخاصة، وجزء منهم رجال أعمال. ولكنهم جميعاً، بهذا الشكل أو ذاك، يقومون بأعمال فى مجال مؤسسة الدولة. وهم، بحكم قضايا زبائنهم، على اتصال دائم مع أجهزة القضاء ومؤسسات الدولة.

## المحكمة

تقول إحدى دوغمات الإيديولوجيا الغربية إن المحكمة في البلدان الغربية مستقلة. وهذا رأى لا معنى له. فالقوانين لا يخرعها ويقرها القضاة أنفسهم. بل والقضاة موظفون عند الدولة. وقرار المحكمة ليس حلاً لمسألة أكاديمية. إنه نتيجة صراع بين قوى مختلفة، متعارضة المصالح إذا ما كانت القضية تتعلق بمسائل على قدر من الأهمية. فالحقيقة الموضوعية في مثل هذه الحالات أمر مستحيل المنال مبدئياً. ومواد القانون مكتوبة بطريقة تتيح تأويلات مختلفة. إنها متنوعة ويمكن اختيار ما يصلح منها لكل مناسبة. وهكذا تتوقف قرارات المحكمة على حنكة المحامين وعلاقاتهم. وثمة كثير من العوامل التي لا علاقة لها بالقانون تؤثر على قرارات المحاكم، منها وسائل الإعلام، والشخصيات المشاركة في القضية، وطباع المحامين، والمصالح السياسية، والرأى العام... إلخ. وفي كثير من الحالات تستمر المحاكمات سنوات عديدة، وتكلف أموالاً طائلة. وهذا كله من الأمور المعروفة للجميع. ثم إن الصحف تنشر أخبار فضائح المحاكمات. وهذه الفضائح تسيء إلى سمعة المحكمة الغربية كمحكمة موضوعية محايدة ونزيهة. غير أنه لا ينبغي الوقوع في شطط نقدي معاكس. ذلك أن المحكمة تقوم بوظيفتها في ظروف كيان اجتماعي حي، وكعنصر في مؤسسة الدولة، وليس في ملكوت العدالة الإلهية. ففي معظم الحالات تظل المحكمة، كما يبدو لي، في إطار العدالة الواقعية (غير المثالية).

## المجتمع المدني

إن مفهوم "المجتمع المدني"، كأغلبية مفاهيم العلوم الاجتماعية، غامض ومتعدد المعاني، حمّال أوجه. فقد جرت العادة منذ القرن الثامن عشر على تضمين المجتمع المدني ظواهر اقتصادية، ودينية، وأخلاقية، وقومية وغيرها مما ليس له علاقة بالدولة. واستخدام اللفظة في هذا السياق أمر تفسّره ظروف القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عندما كانت الغربية لا تزال في مرحلة إثبات الذات في صراعها ضد الإقطاعية

التي كانت تتجسد في الدولة. أمّا في القرن العشرين فقد حققت الغربية انتصاراً لا رجعة فيه. وغدت مؤسسة الدولة مطابقة للتنظيم الاجتماعي والاقتصادي. ولم يبدأ التفريق بين جملة من الظواهر الاجتماعية المختلفة وبين مؤسسة الدولة والاقتصاد، إلا في إطار الغربية ذاتها. ولكن حتى في هذه الحالة، كقاعدة عامة، كان ولا يزال حتى الآن يجري خلط بين استعمالي الكلمة القديم والجديد<sup>(١٠٩)</sup>.

إنني أستخدم هنا تعبير "المجتمع المدني" (أو "المواطنة") للدلالة على مجمل تجمعات المواطنين الطوعية، غير الحكومية وغير الربحية (غير الاقتصادية) التي تهدف إلى حماية مصالحهم الخاصة، وكذلك إلى حماية المصالح العامة التي تتجاهلها الدولة وأوساط البيزنس.

تنقسم تجمعات الناس في إطار المجتمع المدني إلى منظمات وحركات جماهيرية تنطوي على عناصر التنظيم. وقد تكون هذه التجمعات على درجة أو أخرى من الاستقرار، مثلما يمكن أن تُنشأ للقيام بفعلٍ مرّةً واحدة. وتندرج في عداد هذه التجمعات النقابات وشتى أنواع الاتحادات، كاتحاد رجال الأعمال، والعاملين في مؤسسات الدولة، ورجال الثقافة، والأطباء، والمزارعين، ومؤجري العقارات، والمحامين، والرياضيين، والمسئّنين، والمعوّقين، والنساء، ومدمني الكحول، والشببية، والمستهلكين، والمثليين الجنسيين، والأقليات الإثنية... إلخ. إن عدد هذه التجمعات هائل<sup>(١١٠)</sup>.

---

(١٠٩) انظر مثلاً: John Keane. "Democracy and Civil Society". London/ New York, 1988. حيث يتحدّث المؤلف عن تدخل الدولة في المجتمع المدني بهدف السيطرة على استثمارات رأس المال الخاصة، والتخفيف من حدة البطالة، وسوى ذلك من عمليات.

(١١٠) يقول لابلومبارا إن عدد المنظمات الطوعية في إيطاليا عام ١٩٨٠ بلغ ٧ آلاف منظمة. ويقول Emil Hubner في كتابه:

(Das Politische System der USA. Munchen, 1991) إن عدد هذه المنظمات بلغ في الولايات المتحدة عام ١٩٨٩ على المستوى الوطني وحده ١٢٥٠٠ منظمة.



كما أن نشاطاتها متنوعة. فهناك الاحتجاجات، والتظاهرات، والاجتماعات الحاشدة، والإضرابات، والبيانات، والعرائض. وهي ترمى إلى تحسين ظروف العمل والمعيشة، والتصدي لتخريب البيئة، والعمل على تغيير موقف السلطة والمجتمع منها، ووقف انتهاكات حقوق الإنسان، ووقف ما تقوم به السلطات من أعمال قاتلة، وتقليص دور الاحتكارات الجبارة، وترصد هذه التجمعات عمل الحكومة، وتشارك في تكوين الرأي العام، وتمارس تأثيرها على مختلف جوانب حياة المجتمع.

كذلك ينسب إلى المجتمع المدني أيضاً ما يسمى بالمبادرة المدنية (مبادرة المواطنين)، وهو نشاط تطوعي نزيه يقوم به المواطنون، وكذلك تجمعاتهم المؤقتة، بغية لفت انتباه المجتمع إلى الوقائع السلبية، وحثه على القيام بتدابير للتخلص من السلبيات القائمة. ونجد في كثير من الحالات أن التنظيمات والحركات الجماهيرية تبدأ كمبادرة مدنية. هكذا، مثلاً، نشأت حركة "الخضر"، و"الحركة البديلة" (التي سأحدث عنها فيما بعد).

يرتبط المجتمع المدني بمجالات المجتمع الأخرى ارتباطاً وثيقاً. فالنقابات هي تنظيمات لمن يعملون في الإنتاج، ولكنها لا تدخل في بنية المنظمة الإنتاجية ذاتها. إنها تدافع عن مصالح العاملين بصفقتهم عاملين تحديداً، ولكنها تقوم بذلك خارج عملية الإنتاج. أمّا اتّحادات رجال الأعمال فليست اتّحادات اقتصادية، علماً بأن أعضاءها من رجال الاقتصاد. وحتى موظفو الدولة يقيمون اتّحاداتهم للدفاع عن مصالحهم بصفقتهم مواطنين عاملين، وبصفقتهم هذه يقفون في وجه الدولة كمواطنين عاديين، وليس باعتبارهم ممثلين للسلطة.

ولما كانت الأحزاب السياسية من مكونات مؤسسة الدولة، فإنها في الوقت نفسه من مكونات المجتمع المدني أيضاً. وهذا ما يتضح، مثلاً، بالنظر إلى حزب "الخضر" في ألمانيا الذي اكتسب صفة منظمة سياسية منذ فترة غير بعيدة نسبياً. وتظل الأحزاب الشيوعية ضمن دائرة المجتمع المدني. وكذلك الأحزاب الاشتراكية، فهي تطالب بتقليص

البطالة، وبالضمان الصحى، والخدمات، والسكن لشرائح واسعة من السكان، أى أنها، باختصار، تعبر عن مصالح الجماهير المحرومة.

يقوم المجتمع المدنى فى إطار الشرعية، ولكن تظهر فيه على الدوام نزعات لتجاوز هذا الإطار. ويتجلى ذلك، مثلاً، فى المجموعات، والمنظمات، والحركات المتطرفة بشقيها "اليميني" و"اليسارى".

على أن الجماهير والحركات الجماهيرية تشكّل عنصراً مهماً من عناصر المجتمع المدنى.

## الجماهير

نُشرت آلاف الكتب التى تتحدث عن موضوع الجماهير عندما كان هذا الموضوع حيوياً للغاية (إبان نهوض الشيوعية، والقومية، والفاشية). وكما يحدث فى هذه الحالات، ظلّ مفهوم "الجماهير" هُلامياً. ويشير مؤلفو تلك الكتب عادة إلى صفات تتكشف بشكل جلىّ أحياناً لدى الجماهير، كفقدان العقلانية فى السلوك، والتهيج الشديد، والتجمُّعات الحاشدة... إلخ. ولكن هذه الصفات يمكن أن نراها أيضاً فى سلوك حشود بشرية أخرى يتعذر عدُّها جماهير بالمعنى السوسولوجى، ومثال ذلك يتجسّد فى الطوابير، وفى محطات القطارات، وعند وقوع الكوارث الطبيعية، وفى حشود اللاجئين، على أن الشىء الرئيس هو أن الصفات المذكورة أعلاه هى حالات مؤقتة لدى الجماهير، وليست شيئاً ملازماً لها وثابتاً. عادة ما يتناول المؤلفون الذين كتبوا فى هذا الموضوع أحداثاً ذات طابع خاص عبرت فيها الجماهير عن نفسها فى الحركات الشيوعية، والنازية، والفاشية، وينظرون إلى تلك الأحداث على أنها ظاهرة استثنائية، وليس كظاهرة عامة مألوفة فى الحياة اليومية. بل إن بعضهم يذهب بعيداً فى هذه النظرة فيتحدث عن الجماهير وكأنها خرافة، ومنهم من يعتقد أن الجماهير اختفت بعد انهيار الحركات المذكورة آنفاً. سأستخدم كلمة "جمهور" و"جماهير"

بالمعنى التالى: يتألف الجمهور من مجموع من الناس خارج عملهم الدائم، فى الوقت الذى يكونون أحراراً فى تصرفاتهم إلى حد ما، والجمهور بهذا المعنى يتألف من مواطنين عاديين فى المجتمع كأفراد أحرار يملكون إمكانية التفكير بوضعهم، ويستطيعون إمضاء هذا الوقت على هواهم، والتصرف بحرية، دونما إرغام من الخارج. إنهم قادرون على ذلك خارج وقت العمل أساساً، وبصفة عامة عندما يفقدون العمل، أو عندما يتمردون لأسباب ما على نمط الحياة المألوف. ونجد فى هذا الوضع أناساً من مختلف الأعمار، والأوضاع، والمهن. إننى أؤكد وأكرر أن تشكيل الجمهور (ال جماهير) يتطلب عدداً كبيراً من الناس لديهم وقت فراغ، وقوة لاستخدامها فى ما يفعلونه خارج العمل.

من المهم أن نفهم معنى قولنا: "أحرار فى تصرفاتهم". لأن ثمة دائماً من يتدخل فى حياة الناس من الخارج، ويسعى إلى ممارسة تأثير ما عليهم. ومع ذلك كله يبقى لديهم جزء من الوقت، وجزء من وعيهم ومشاعرهم، يسمح لنا بالقول إنهم أحرار فى تصرفاتهم. على أن الجماهير تبدو للسياسة والمثقفين غامضة، لا يمكن التكهّن بأفعالها، وذلك لأن هؤلاء السياسة لا يأخذون بعين الاعتبار قدرة الناس على التصرف بحرية، وهى قدرة تتشكل بين الحين والآخر وتملأ نفوس الناس بمضمون لا يفهمه السياسيون والمثقفون. لقد استطاعت الكنيسة أن تحافظ على إخضاع السكان لسيطرتها على امتداد قرون طويلة، لا تسمح لهم بأن يكونوا جماهير، لأنها لم تترك لهم حرية التصرف على هواهم.

قد يكون سكان البلاد جميعهم فى مثل هذا الوضع، غير أنهم لا يندرجون كلهم فى هذا المفهوم الذى أسميه "الجماهير". ذلك أن الجماهير تتشكل أساساً من ممثلى شرائح السكان الدنيا وجزء من الطبقة الوسطى. أما ممثلو الشرائح العليا والمتوسطة القريبة منها فيفضلون البقاء خارج الجماهير. إنهم يشكلون تجمعات من نوع آخر.

والناس يتواصلون فيما بينهم، ويتبادلون الآراء، ويؤثر بعضهم على بعض كأفراد ينتمون إلى هذا الجمهور أو ذاك. وعلى هذا النحو بالضبط يملأون ذاك الجزء من وعيهم الذي تحدثت عنه أعلاه، بمضمون محدد، ويوجهون عواطفهم على نحو معين. وفي الوقت نفسه لا يعود لقوانين الجانب العملي تأثير بالنسبة لهم، وتصبح قوانين الجانب الكومونالي هي الفعالة. فيتجمعون على نحوٍ ما، وتتبعثق من بينهم نواة نشيطة، فيبرز زعماء وشخصيات مرجعية، وتجرى اجتماعات حاشدة. ودائماً تتراكم وتنتشر في هذا الوسط أمزجة وانفعالات معينة.

وهذه العملية العفوية إلى حدٍّ ما، تظلّ مدّة من الزمن بعيدة عن أنظار قوى المجتمع التي لا تنضوي تحت مفهوم الجماهير، أو تكون موضعَ تجاهل من جانبها. ولكنها عندما تبلغ حدود الخطر، ثم تتعدّى هذه الحدود، وتبدأ بالظهور للعلن تلت إليها انتباه المجتمع. من الطبيعي أن يكون هناك من يرغب بالتأثير على الناس وهم في هذه الحالة، واستخدامهم لمصالحه الخاصة. ويسرّب أصحاب المصالح أفكارهم وشعاراتهم وتنظيمهم إلى هذه العملية العفوية فتظهر الحركات الجماهيرية.

إن الجماهير هي موضوع نشاط الزعماء، والدعاة، والتنظيمات، والأحزاب، والإيديولوجيات، والأديان. وقد كان الثوريون الروس في القرن التاسع عشر، والبلاشفة بزعامة لينين في القرن العشرين، وكذلك القوميون الاشتراكيون الألمان بزعامة هتلر، أوّل من وضع أهمّ نظرية عن الجماهير وقواعد التعامل معها وتحريكها.

تتلخص المشكلة في مسألتين، هما: كيف، ومن يتعامل مع الجماهير في الغرب. إن جميع من عملوا على فضح الشيوعيين، والنازيين، والفاشيين بوصفهم يضمرون الشرّ ويخدعون الجماهير لأغراضهم الخاصة، هم أنفسهم مصابون بتلك الأمراض. إنهم عاجزون بكل بساطة عن التصرف على نحوٍ آخر، وذلك بحكم قوانين الجماهير والتعامل معها. وهم أنفسهم شركاء في ما يفعله "دين" الغربوية و"كنيستها" من أجل ترسيخ نفوذها وسيطرتها على الجماهير.

## الجماعة والجمهور

يرى بعض المنظرين أن الجمهور من الناس هم الجماعة. ولكن ما هي الجماعة؟ لن أمأرك في الكلام. إننى أعرف الجماعة على النحو التالى: تتألف الجماعة من عدد معين من الناس يعيشون مدة طويلة ويعملون ككلٍ عملياً واحداً، ولا يكتفى أعضاء الجماعة بما ينشأ بينهم من علاقات عملية، بل تستمر علاقاتهم خارج العمل. وفي الجماعة تقسيم للوظائف العملية، وكذلك تقسيم للناس إلى فئات لا تحكها اعتبارات العمل. وتتمثل صورة الجماعات فى العائلات، والعشائر، والقبائل فى الماضى، ومجموعات الناس فى بعثات طويلة الأجل، وفى المصانع والمؤسسات فى البلدان الشيوعية، ومجموعات المجرمين والمتأمرين، ومجموعات الناس الذين يقومون لفترة طويلة بأبحاث مشتركة... إلخ. فإذا ما فهمنا الجماعة على هذا النحو، كان الجمهور شيئاً آخر غير الجماعة. إنه تجمعٌ بشرى من نوع آخر.

يوجد فى مسألة العلاقة بين الجماعة والجمهور جانب يثير الاهتمام من ناحية فهم الحركات الجماهيرية فى المجتمع الغربى المعاصر. فقد تكونَ الإنسان تاريخياً كعضوٍ فى جماعة، ككائنٍ جماعى. وما فرديته، كـ "أنا" مستقلة، إلا أحد اختراعات الحضارة الغربية. إذ إن هذه الحضارة خربت الأسس الجماعية التى يقوم عليها وجود البشر، وطورت بدلاً منها تجمعاً من الأفراد لديهم وعى ذاتى بـ "الأنا"، أى أنها اخترعت تنظيمات هادفة وعقلانية. ولكن الحاجة الطبيعية داخل البشر لم تَمُتْ بالكامل، بل هى غافية فى مكان ما. فهى تعلن عن نفسها بين حين وآخر فى أشكال عفوية، وخاصة فى شكل حركات جماهيرية. غير أن هذه الحاجة لا يمكن أن تتمخض فى ظروف المجتمع الغربى عن نمط حياة مستقر لعدد كبير من البشر.

## مثال ذو دلالة

فلننظر الآن في هذا المثال الدالّ بالإضافة إلى كل ما ذكرنا أعلاه. إنه ما يسمّى بالحركة البديلة. لقد ظهرت هذه الحركة في سبعينيات القرن الماضي في ألمانيا وغيرها من بلدان أوروبا الغربية، كاحتجاج على النظام الاجتماعي السياسي القائم، وضد ظروف العمل ونمط الحياة هناك. والمشاركون في هذه الحركات هم في معظمهم من الشباب "الأكاديميين" العاطلين عن العمل، أي أنهم شباب على هذا القدر أو ذاك من الثقافة. لقد طرحوا أوّل الأمر خطأً طوباوية لتغيير المجتمع بروحية الاشتراكيين الطوباويين والشيوعيين العفويين في الماضي. إذ أرادوا أن يبدأوا العمل فوراً على مستوى طوباوية إيديولوجية ذات أفق سياسي، أن يبدأوا فوراً من حركة واسعة، ولكنها موحّدة. غير أنهم سرعان ما دُفِعوا إلى تغيير هذه الخطط نحو إقامة منشآت صغيرة على طريقة جمعيات فورييه، وكومونات العمل عند أوين، وكذلك مجموعات المبادرة الأهلية التي سمّيت بالمشاريع أو الجماعات البديلة. وفي أوائل ثمانينيات القرن العشرين كان في ألمانيا ١٢ ألفاً من هذه المشاريع والجماعات، وكان يعمل فيها ثمانون ألف شخص (١١١).

أشرت أعلاه إلى أن الحركة لم تأخذ مساراً تطورياً قائماً على الأسباب الداخلية بمعزل عن التأثيرات الخارجية، بل تم تغيير وجهتها. فمن قام بذلك، وكيف قام بذلك؟ لقد تشكلت في الغرب آلية للتحكم بالحركات الجماهيرية. إذ قام المشاركون في الحركة البديلة بتنظيم دعمٍ ماديٍّ عن طريق الدولة، والسلطات المحلية، والمنظمات الاجتماعية،

---

(١١١) حسب المعلومات الواردة في كتاب:

"Akiuell", Chronik Verlag, 1984. "

والشركات الخاصة، وكذلك بتنظيم دعم فكرى عن طريق وسائل الإعلام الجماهيرى والإيديولوجيين.

كان المشاركون فى الحركة يريدون إقامة أشكال جديدة من الحياة المشتركة (الجماعية)، والعمل فى جماعات تختار أعضائها بنفسها وتدير أمورها ذاتياً. وكانوا يريدون أن يُحَلِّوا محلَّ القيم الغربية قيماً أخرى كالتضامن، والتواصل، والتعبير عن الذات، والإبداع. وقد سعوا إلى إلغاء تقسيم العمل إلى ذهنى وعضلى، وإقامة مساواة اجتماعية بين الرجال والنساء، وتربية جماعية للأطفال، وإقامة مصانع هادفة اجتماعياً وصديقة للبيئة. ولم يكن يجوز لأى كان فى تلك المصانع أن يحصل كفرد على ربح شخصى، فالعائدات كلها يجب أن تكون ملكاً للجميع، وأن تنتهى المنافسة، وتنشأ علاقات اجتماعية جديدة خالية من الكسب القائم على الملكية الخاصة، وعلى المناصب، بحيث تحل هذه العلاقات محل العلاقات القائمة.

من السهل أن نرى فى كل ذلك تلك البداية التى انطلقت منها الحركة الشيوعية (أو الاشتراكية) ذات يوم فى الماضى البعيد، والمحاولات التى وجدت صداها فى روسيا بعد الثورة، وما دعت إليه الإيديولوجيا الماركسية وجرى تطبيقه جزئياً فى البلدان الشيوعية. ولكن أولئك الذين تحكّموا بهذه الحركة (البديلة) تجاهلوا تجاهلاً تاماً التجربة التاريخية فى هذا الشأن، وأداروا ظهورهم فى المقام الأول للتجربة الهائلة التى قدّمتها الشيوعية الفعلية فى الاتحاد السوفيتى. فقد كانوا يصوِّرون الاتحاد السوفيتى على أنه "إمبراطورية الشر" زاعمين أنه لا علاقة لها بالمثل السانجة التى يعتنقها المشاركون فى الحركة البديلة.

لقد انخرطت فى هذا المشروع حركاتٌ فى غاية التنوع، بدءاً من الحركات النسوية والإيكولوجية، وانتهاءً بحركات الطب النفسى. وبذلك تشكل عددٌ هائل من مجموعات، ومنظمات، ومنشآت صغيرة ذات طابع اقتصادى، اجتماعى، وثقافى، يتألف كلُّ منها عادة من أعضاء يتراوح عددهم بين ٥ و ٢٠ عضواً. إنها محترفات (ورشات) مهنية، ومجموعات فنون تطبيقية، ومتاجر للمنتجات الزراعية غير المسمّدة،



ومجموعات أطفال، ومنظمات للطب النفسى، وأخرى ضد المخدرات والكحول، وإذاعة حرة، وسينما ومسارح.

وبالرغم من أن هذه الحركة عرفت انتشاراً واسعاً، فقد كانت تسيطر عليها عملياً تلك الآلية ذاتها التي تحدثتُ عنها أعلاه. فقد كان وجود الحركة ووضعها متوقفين على تمويلها، نظراً لأن الجماعات البديلة نفسها لم تكن رابحة. ولدعم تلك الجماعات كانوا يكفلون العمل ومصدر الرزق والعيش لعدد كبير من الناس، بل لمن هم فى أوج قوتهم ونشاطهم. على أن هدف من كانوا يتحكمون بهذه الحركة هو منعها من صوغ إيديولوجيا موحدة من شأنها أن تغدو إيديولوجيا مناهضة للرأسمالية بكل وضوح، وإعاقة عملية اتحادها سياسياً، والإبقاء على الحركة فى حالة تسمح بتصفيتها فى أية لحظة عبر إغلاق مصادر تمويلها وترك المشاركين فيها لرحمة القدر.

غير أن الحركة اتجهت نحو الانحسار من تلقاء نفسها، بالرغم من الدعم الذى كانت تتلقاه. وحلت خيبة الأمل. ذلك أن المثل شىء، وتطبيقها فى الواقع شىء آخر. فالأحلام الرغيدة لا تمتد أكثر من لحظة، ولغاية واحدة هى توفير التربة لخبية الأمل. إذ ما من حركة تستطيع أن تنعزل عن العالم المحيط بكل عيوبه ومغرياته. وما من حركة تستطيع التهرب من فعل القوانين الموضوعية فى الوجود الاجتماعى. لقد كان المشاركون فى الحركة البديلة مضطرين للقبول بنمط حياة أقرب إلى حياة أحياء الصفيح، مع كل ما فيه من كوابيس. فلم يكن بوسع هذه الحركة أن تسفر عن أى شىء جدوى. وإذا لم يكن بوسع بلد عملاق (الاتحاد السوفيتى - م) بكل موارده الضخمة أن يصمد أمام فعل قوى التاريخ الهدامة، فهل كان بإمكان حبة رمل تافهة أن تسلم؟!

## مثال آخر

نظم المثليون الجنسيون مظاهرة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى نيسان عام ١٩٩٣، وهذه المظاهرة مميزة فى الكثير من النواحي. فقد كانت أكبر مظاهرة

معارضة من حيث عدد المشاركين فيها، إذ بلغ أكثر من مليون شخص. وكانت أتفه مظهرة من ناحية أهمية هدفها الاجتماعى الذى تمثل بالمطالبة بوقف التمييز بحق المثليين الجنسيين.

لست أدرى ما هو نصيب الأسباب البيولوجية فى ظاهرة المثلية الجنسية نفسها، ولكنها، كظاهرة جماهيرية، مرض اجتماعى له أسبابه الاجتماعية، بينها ضعف الروح الإنسانية والعلاقات الإنسانية، وعدم ثباتها، وتدهورها، وتفكك الأسرة وتعذر تكوينها أصلاً، والمصاعب التى تحول دون إنجاب أطفال وتربيتهم، ناهيك عن القلق على مستقبلهم، والمبالغة فى موضوع الجنس، والترويج للانغماس فيه، والخلاعة والتهاك... إلخ. إن الإيديولوجيا، إذ تطالب بحق الأقليات بالوجود كواحد من أهم مقومات الديمقراطية الغربية، تؤيد عملياً المثلية الجنسية كحركة جماهيرية. وتجذب هذه الحركة قوى اجتماعية كبيرة كان بالإمكان توجيهها نحو أهداف أكثر أهمية. باختصار، المثلية الجنسية خير من الشيوعية! أما كون هذا المرض الاجتماعى يساعد على تقليص عدد الغربيين، أى الغربية، إلى أقصى حد، فمسألة يمكن إغفالها كحقيقة ليست شديدة الإلحاح بعد.

## ظواهر جماهيرية أخرى

المجتمع الغربى المعاصر مجتمعت الظواهر الجماهيرية بمعنى آخر أيضاً، أى من حيث العدد الكبير من المشاركين فيها. فنحن نقول، على سبيل المثال، إن الرياضة، والسياحة، وإدمان المخدرات، والجريمة... إلخ. أصبحت ظواهر جماهيرية، ونقصد بذلك أن عدداً كبيراً من الناس يمارس الرياضة، والسياحة، وتعاطى المخدرات...

والظواهر الجماهيرية التى من هذا النوع ينبغى أن نشير من بينها بشكل خاص إلى تلك الحالات التى يقوم فيها عدد كبير من الأشخاص الأحرار بممارسة نوع واحد من النشاط ممارسة دائمة. فبفضل ظروف العصر الحديث (التعليم، وسائل الاتصال

والإعلام) يتكوّن لدى أولئك الأشخاص فهمٌ مماثل للعديد من ظواهر الواقع، وردّ فعل مشابهٌ على هذه الظواهر. ورغم أنهم قد لا يكونون على صلة فيما بينهم، فهم يتصرفون في بعض المواقف على نحو مماثل، وكأنهم تواطأوا على ذلك، أو تلقّوا إيعازاً من مركز واحد يوجّههم. وهذا ما نلمسه بمزيد من القوة في مجالات الثقافة، والإعلام الجماهيري، والعلوم. إن آلية الانسجام في المواقف المهمة اجتماعياً بين تصرفات أفراد متفرقين، لم تحظ بالدراسة بعد.

### الرأى العام

تشير هذه العبارة إلى ما يفكر به الناس حول هذا الأمر أو ذاك. ويُستدلّ على الرأى العام بواسطة استطلاعات الرأى، ومنها الاستطلاعات التي يجرى إعدادها وفق المناهج السوسويولوجية، وكذلك عن طريق الإصغاء لما يقوله الناس، وقراءة ما يكتبونه، بمعزل عن الاستطلاعات المتخصصة. إلا أن الاقتصار على ما قيل بشأن الرأى العام بوصفه عنصراً من عناصر المجتمع المدني غير كافٍ إطلاقاً.

ليس الرأى العام كلُّ ما يفكر به الناس، بل هو يقتصر على جزء ممّا يفكرون به ويتوقّف عليه مصير الظواهر المهمة اجتماعياً (قرارات الحكومة، نجاحات السياسة، الكتب، الأفلام .. إلخ). والرأى العام ليس ظاهرة عفوية بالكامل، بل ثمة قوى في المجتمع تقوم بتشكيله والتحكم به. فهو يوظّف لخدمة مصالح وحسابات أفراد وجماعات ما، أى أنّه يلعب دور عامل من عوامل الصراع الاجتماعى. وهو ليس مجرد مجموع آراء لأفراد من الناس... إنه حصيلة تبادل المعلومات، وتبادل الآراء، أى أنه شىء واحد، متّفق بشأنه. وهو لا يؤثر تلقائياً بحكم علانيته فقط. بل له آلية لتشكيل الأحداث والتأثير على سيرها. وفى أيامنا يعود الدور الحاسم فى هذه الآلية لوسائل الإعلام الجماهيري. إن دراسة الرأى العام بحد ذاتها فى ظروف معينة هى واحد من عناصر آلية تشكيله، أمّا إشهار نتائج هذه الدراسة فهو واحد من عناصر الآلية التي يؤثر بها على المجتمع لصالح طرف ما. أعتقد أن الرأى العام عموماً لا وجود له بوصفه كذلك (أى تحديداً كراى عام!) بمعزل عن آلية تشكيله وإشهاره على الملأ. ذلك أنه إذا

لم يكشف عن نفسه علناً يظلّ رأى عدد من الأفراد المتفرقين، ولا يصبح رأى مجموعة اجتماعية ما، أو رأى جماهير ما من السكان بوصفهم كُلاً. والرأى العام، أياً كانت آليته، وكيفما جرى توظيفه، يظلّ عنصراً من عناصر المجتمع المدنى. على أن المجتمع المدنى لا يكون بالضرورة معارضاً للحكومة وغيرها من عناصر الغريوية. فقد يستحسنهما ويؤيدُهُما. إنه تعددى، سواء من حيث تنوع أجزائه، أم من حيث تنوع مواقفه وقابليتها للتغيير.

## نزعتان فى الغريوية

يشمل مفهوم "التعددية" شتى عناصر المجتمع الغربى البنيوية من وجهة نظر تنوعها وتفتُّتها، ومن وجهة نظر كثرة أجزائها المكوّنة. على أن المقصود عادة هو الفصل بين السلطات، والتعددية الحزبية، والعدد الكبير من المنظمات والحركات فى المجتمع المدنى، والتنوع الإيديولوجى.

يفسّر بعض المنظرين التعددية على أنها فضيلة المجتمع الغربى، بينما يرى فيها منظرون آخرون مصدراً لعدم استقرار المجتمع، ويستغربون سبب وجود هذا النظام السياسى المستقر فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى بلد التعددية الكلاسيكية! ولكننى أعتقد أن هذا الاستقرار الأمريكى يقوم أساساً على تفتت المجتمع تحديداً. ذلك أن الحكومة هناك تقوم بدور العامل الموحد، والقاضى الأعلى فى تسوية الخلافات بين المجموعات والمصالح المتنازعة باستمرار.

لقد سبق لأوروبا الغربية أن عرفت التفتت الإقطاعى فى الماضى. ثم تم القضاء على هذا التفتت فى نهاية المطاف بفضل ظهور مؤسسة الدولة المركزية واشتداد عوده. وما يجرى فى الغرب الآن شبيهه بذلك. فهناك يدور صراع بين نزعتين متضادتين، نزعة التفتت التعددى، ونزعة تجاوز هذا التفتت. على أن ما يحفز النزعة الأولى هو الجانب العملى من الغريوية، بينما يحفز الثانية اشتداد قوة مؤسسة الدولة،

أى قوانين الجانب الكومونالي من الغربية. ويتشابه المجتمع الغربي من هذه الناحية مع المجتمع الشيوعي.

لقد شاعت في الغرب، خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، نظرية التحوّل التي تقول بأن هناك تقارباً يجرى بين النظامين الاجتماعيين: الرأسمالي والاشتراكي (الشيوعي)، وذلك عن طريق ازدياد قوة عناصر الاشتراكية في البلدان الرأسمالية، وازدياد قوة عناصر الرأسمالية في البلدان الاشتراكية، وأن المستقبل سيشهد التّحام هذين النظامين في مجتمعٍ خليطٍ يوحد بين ما في كليهما من صفات إيجابية، وكان من أنصار هذه النظرية ج. غالبرايت، ور. آرون، وب. سوروكين، ويا. تينبرغين، وك. كير... وآخرون<sup>(١١٢)</sup>، وفي سبعينيات القرن الماضي انضمت إلى هذه النظرية نظرية أخرى تقول إن الاشتراكية والرأسمالية تتبادلان فيما بينهما استعارة الصفات السلبية أساساً، وليس الصفات الإيجابية. وقد عبّر عن هذه الرؤية في حينه كل من هربرت ماركوزه، وبي. هابرماس، وآخرون.

لقد عكست فكرة التحوّل نزعة موضوعية عند المجتمع الغربي نحو تعزيز مجال الكومونالية، تجلت في تعزيز دور الدولة في الاقتصاد، وفي تشكل طبقة المديرين، وفي عناصر التخطيط، وفي توسيع القطاع العام، وفي تعاظم دور الدولة الاجتماعي. وتمثلت النقطة الأخيرة في تزايد اضطراب الدولة للاهتمام بحاجات مواطنيها الاجتماعية وحقوقهم (الوظائف، التعليم، التقاعد، السكن، الرعاية الصحية .. إلخ). وقد كانت السويد القدوة في هذا الصدد.

غير أن "النموذج السويدي" منى بالفشل. فرأى المنظرّون في ذلك دليلاً على فشل الشيوعية (الاشتراكية) عموماً. إلا أن هذا الاستنتاج، كما أعتقد، لا يقوم على ما يكفي

---

(112) Clark Kerr. Industrialism and industrial Man. Cambridge, 1960; D. Bell, The Coming of Post-Industrial Society. 1973; A. Touraine. The Post- Industrial Society. London, 1974.

من الأسس. بل يواجهنا استنتاج آخر، وهو أن نزعة الدولة في ظل الغربية نحو التماثل مع الدولة الشيوعية لها حدود يؤدي تجاوزها إلى عواقب وخيمة، والاشتراكيون السويديون الذين كانوا في السلطة بالغوا في الأمر.

إن هذه النزعة لا تعنى أن الرأسمالية تتطور لتتحول إلى شيوعية، كما كان يفترض بعض المنظرين<sup>(١١٣)</sup>، ذلك أن هذا التحول مستحيل من حيث المبدأ، لأن للرأسمالية والشيوعية جذرين مختلفين. والسبب ذاته تتعدّر العملية العكسية، أي تحول الشيوعية إلى رأسمالية. فتلك الظواهر التي تطورت في الاتحاد السوفيتي أيام بريجنف، وكانت ذريعة لبعض نقاد المجتمع السوفيتي كي يتحدثوا عن تحوله إلى مجتمع رأسمالي، لم تكن في واقع الأمر إلا تطوراً للقدرات الداخلية في الشيوعية ذاتها، وذلك على غرار ما جرى في المجتمع الغربي من "خطوات اشتراكية" لم تكن إلا تطوراً للقدرات الداخلية في الغربية أيضاً. ففي ثمانينيات القرن العشرين بدأت في بلدان أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي عملية تطبيق الديمقراطية الغربية واقتصاد السوق. ولكن ذلك لم يكن نتيجة تطور الشيوعية الدائم، وإنما نتيجة هزيمة هذه البلدان في "الحرب الباردة" وتغريبها القسري. وهذا ما سأعود إليه لاحقاً.

## العامل البشري

إن وجود مجتمع من النمط الغربي يستدعى إنتاج مادة بشرية مطابقة له كشرط لا بد منه، أي إنتاج عدد كاف من البشر القادرين على أن يعيشوا في هذا المجتمع، وعلى أن يعيدوا، عبر عملهم، إنتاج هذا الكيان الاجتماعي بصفاته الجوهرية، أي القادرين على إنتاج الغربيين. ومن ناحية أخرى، ما دام هذا النمط من

(١١٣) أمثال J.A.Schumpeter الذي أكد ذلك قبل بداية خمسينيات القرن العشرين.

المجتمع موجوداً، يواصل ازدهاره ويسيطر على الكرة الأرضية، فإنه ينتج مادة بشرية مطابقة له هي الغربيون. وهذه العملية بشقيها اللذين يشترط كل منهما الآخر، لا تجرى من تلقاء نفسها، آلياً، وعفويّاً، وإنما يسيّرهما ويغذيها مجال خاص من مجالات المجتمع هو مجال تعليم الناس وتدريبهم وتربيتهم، وكذلك التحكم بهم عبر التأثير على وعيهم ومشاعرهم. وأهمية هذا المجال من أجل أن يحافظ المجتمع على نفسه بالغة، كأهمية الجانبين العملى والكومونالى اللذين سبق أن تناولناهما من قبل.

لقد تزايدت فى العقود الأخيرة وتيرة الحديث والكتابة عن أزمة يعانى منها هذا المجال. وهذا القول ليس عديم الأساس. فمن مظاهر هذه الأزمة فى الغرب الجريمة، والعنف، وتعاطى المخدرات، والانحلال الأخلاقى، وتفكك الأسرة، وإدمان الكحول، والخلاعة الجنسية، وانهيار القيم التقليدية. على أن المذهل ليس وقائع منفردة بحد ذاتها، وإنما الأمداء التى بلغت تلك الوقائع. فعددها يقدر بالآلاف، وبعشرات ومئات الآلاف، وبالملايين. والمذهل أيضاً هو أن الناس يقدون ذلك كله منذ المهد تقريباً. فقد هبطت عيوب المجتمع من مستوى البالغين إلى وسط الأطفال. ووسائل الإعلام مليئة بأخبار عن وقائع من هذا النوع فى حياة تلاميذ المدارس، لم يكن ممكناً للمرء أن يعرف بها إلا من أفلام السينما والكتب التى تتحدث عن عالم الجريمة فى الولايات المتحدة الأمريكية. إن الوعّاظ يستشيطون غضباً، والمنظرين يبحثون عن تفسيرات. فيما الغيورون على سلامة المجتمع يفتشون عن تدابير من أجل التغلب على كل هذه الشرور. غير أن هذه الجهود كلّها تذهب أدراج الرياح، على ما يبدو.

إلا أنتى لا أرى أى شىء كارثى فى وضع العامل البشرى فى الغرب. وأعتقد أنه وضعٌ ينسجم ومعايير هذا المجتمع. وما يهمنى هو هذه المعايير ذاتها، وما ينجم عنها من عواقب.



## التعليم والتدريب

إن مجال التعليم والتدريب الموجود في الغرب هو نتاج الغريزية بكامله تقريباً. فقد استوعبت الغريزية ما ورثته من الماضي، وهو لا يشكل إلا نسبة ضئيلة فيها.

لقد فتح المجتمع الغربي الباب أمام المواطنين على عدد هائل من أنواع العمل والمواقع الاجتماعية لم يسبق لها مثيل في تاريخ الماضي، ولا مثيل لها في أي من مجتمعات عصرنا اليوم. وتتباين هذه الأنواع من الأعمال والأوضاع في مختلف المجالات وعلى شتى المستويات من ناحية إعداد الناس لها. فبعضها لا يتطلب القيام به أكثر من تعليم أولي جداً، وتدريب مهني قصير وبسيط للغاية. إنها أعمال لا تحتاج إلى أي مواهب كبيرة. وتوجد في الجهة المقابلة مهنٌ يتطلب إتقانها سنوات عديدة من التعليم والتدريب، وقدرات غير عادية. فهناك مواقع اجتماعية يمكن أن يشغلها بنجاح أي شخص دون أي نوع من التأهيل. وثمة مواقع تتطلب ممن يشغلها أن يمضي سنوات طويلة يتعلم ويتدرب على قواعد خاصة في السلوك، وفي وسط من نوع خاص. فلو أنه لم يكن هناك أي أسباب لعدم المساواة الاجتماعية، والمادية، والذهنية وغيرها إلا هذا التنوع في أنواع العمل والمواقع الاجتماعية، لكان هذا وحده كافياً لنشوء عدم المساواة، واختلاف المنزلة بين المواطنين.

إن تباين المؤسسات التعليمية وهرميتها في ظروف تنوع المهن والمواقع الاجتماعية، كما هو الحال في الغرب، يشكلان ضرورة مطلقة لكي يحافظ المجتمع على ذاته ويعيد إنتاج الوضع الذي بلغه. وتترك الجوانب الأخرى بصماتها على هذا الجانب من الحياة، أي جانب الفروق الاجتماعية وعدم المساواة، وكذلك على جانب مجال التعليم والتثقيف كمجال خاص لعمل الناس.

تستخدم الفئات المختلفة من السكان مجال التثقيف والتعليم كمجال لإعادة إنتاج نفسها، والنضال في سبيل مصالحها، ومن أجل الحفاظ على وضعها الاجتماعي وتحسينه. ولكن هذا المجال له بنيته ومتطلباته وقوانين وجوده، وتحديدًا كمجال خاص

يختلف عن مجالات المجتمع الأخرى. فهو ليس انعكاساً مباشراً ودقيقاً لحاجة المجتمع إلى أناس تم تعليمهم وتدريبهم على نحو مناسب. ذلك أن بيئة السكان الاجتماعية تؤثر على مجال التعليم والتدريب، إذ تفرض عليه الكثير مما لا يتوافق ووظائفه المهنية. كما يتدخل في هذا المجال كل من الدولة، والأحزاب السياسية، والحركات الجماهيرية، والمنظمات الاجتماعية، والكنيسة، والثقافة، والصحافة.

إن حاجة المجتمع إلى إعادة إنتاج عدد هائل من الأفراد الذين يتعاطون أعمالاً متنوعة ويشغلون مواقع اجتماعية مختلفة، هي حاجة لا تتم تلبيتها كمسألة عقلانية وعمليةٍ صرف، ولا وفق بعض من قواعد العدالة والمعقولية، بل ضمن نظام العلاقات الاجتماعية بكل ما ينطوي عليه هذا النظام من تنوع، وعدم مساواة، وهرميةٍ فرص أمام الشباب في احتلال مواقع معينة. على أن لنظام العلاقات الاجتماعية قوانينه الخاصة بإعادة الإنتاج، وهي لا تتطابق مع قوانين مجال التعليم والتدريب.

وتتجلى هذه الاختلافات، مثلاً، في أن نظام التعليم والتدريب ينقسم إلى قطاعين يجرى فيهما إعداد أناس من نمطين اجتماعيين متباينين في المبدأ. ففي أحد هذين القطاعين يجرى إعداد نخبة بديلة للنخبة القيادية في المجتمع، فيما يتولى القطاع الثاني إعداد بديلٍ للجماهير التي تقودها تلك النخبة. والقطاع الأول هو الآن في الأساس قطاع خاص، أما الثاني فحكومي<sup>(١١٤)</sup>، والقطاع الأول هو بالدرجة الأولى لأبناء الشرائح العليا وأبناء جزءٍ من الشرائح الوسطى القادرين على تسديد نفقات التعليم الغالي الثمن ويتمتعون بعلاقات شخصية وامتيازات. وفي القطاع الأول يجرى حقن الشباب بوعي وتطلعاتٍ تليق بمن سيصبحون في المستقبل حكماً، ومنفذين، وزعماء، ووجهاء في المجتمع. وفي القطاع الثاني يجرى إعداد قوة العمل

---

(١١٤) John Kingdom. انظر الهامش رقم ٨٥.

للمصانع والمؤسسات. على أن الناس في هذا القطاع لا يتلقون المعرفة بل إتقان العمل. إذ جرى تخفيض طموحاتهم اصطناعياً. فما جرى هنا هو - عملياً - إنتاج جمهور ضخم ممن يجيدون العمل، ولكنهم جهلة ومغفلون إيديولوجياً. وإذا ما أخذنا مجمل الناس المتعلمين والمدرسين، ومجمل أصناف الناس المطلوبين للعمل، نجد أن التناسب بين الطرفين يشهد اختلالات دائمة، وصراعاً من أجل تحسين المواقع الاجتماعية. وتقدم ألمانيا مثلاً لافتاً للنظر في هذا الصدد. ففي العام ١٩٩١ كان أكثر من ثلث الشباب يطمحون للحصول على تعليم عال. وفي نهاية القرن الماضي بلغت هذه النسبة أكثر من أربعين بالمائة. ويشير الخبراء إلى أن العامل الحاسم في هذه النزعة هو رغبة الوالدين، وليس مواهب أولادهم ولا تعطشهم للتحصيل العلمي. ثم إن جوهر هذه النزعة الاجتماعي يكمن في أن الألمان يريدون العمل بأدمغتهم، وترك العمل اليدوي للأجانب. فهذا يتوافق ونزعة المجتمع الغربي العامة نحو تنامي نسبة من يمارسون عملاً غير عضلي يغلب فيه دور الذهن. ومع ذلك فقد ظهر هناك اختلال شديد بين حاجات المجتمع ومنتوج نظام التعليم، ما يشكل ظاهرة غريبة عامة، وليست ألمانية حصراً.

تسفر هذه الاختلالات في المجتمع عن ظهور عدد كبير من ذوى التعليم السيئ والإعداد السيئ. وهؤلاء هم من يزيدون أعداد العاطلين عن العمل، والمجرمين، والحثالات المنحلة أخلاقياً. وتظهر أيضاً شريحة ممن حصلوا على تعليم جيد شكلياً، ولكنهم لم يجدوا عملاً يوافق إمكانياتهم واختصاصهم. ويندرج في عداد هذه الشريحة خريجو الجامعات التي تقدم تعليمًا عامًا ضعيفاً وإعداداً مهنيًا سيئاً، وكذلك الفاشلون، والشباب الذين أنهوا مرحلة التعليم الثانوي وليس لديهم عمل دائم. هؤلاء ينمو عندهم تصورٌ مبالغ فيه عن أهميتهم وطموحاتهم لا يتناسب مع أهميتهم الاجتماعية الفعلية. وهذا ما يمنعهم من ممارسة عمل عادي ومتدني الأجر، فيكتفون بتدبير أمور عيشهم بكسبٍ عابر، وعن طريق الأهل والجهات الخيرية في المجتمع.

ويُعدّ التقدم العلمى التقنى والتغيرات الاقتصادية مصدراً لهذه الاختلالات، وينجم عن ذلك نقص فى عدد المتخصصين المؤهلين للمهن الجديدة، وفيض فى عدد المتخصصين ذوى التأهيل العالى فى المهن القديمة. وقد ظهرت فئة خاصة ممن يتعلمون من جديد لتغيير اختصاصاتهم، وتتحدث عنهم معلومات سوق العمل.

سوف أطلق عبارة "منشآت التعليم" على كل ما ينشئه المجتمع ويقدمه للناس كعناصر من أجل تعليمهم. وتبلغ قيمة هذه المنشآت فى المجتمع الغربى رقماً إجمالياً هائلاً. وما من مجتمع فى الماضى، ولا بين المجتمعات المعاصرة بقادر على أن يضاهى البلدان الغربية فى هذا المجال. ثم إن هذه المنشآت التعليمية مبنولة للجميع من حيث المبدأ، أى أن من يرغب بالاستفادة منها لن يصادف أية عوائق اجتماعية ذات شأن على طريق تحقيق هدفه، إذا كان يتمتع بقدر كاف من الإمكانيات الذهنية، ويمتلك مورداً للعيش، وما يكفى من الوقت. على أن شتى أسرار الدولة والعمل ليست بذات شأن، إذ ما هى إلا قطرة فى محيط منشآت التعليم غير المحظورة. وأؤكد أن هذه المنشآت التعليمية متاحة للجميع من حيث المبدأ فقط. ففى الواقع لا يملك جميع الناس ما يكفى من مواردٍ ووقتٍ وقدراتٍ ذهنية للاستفادة من هذه المنشآت.

ونتيجة لوفرة المنشآت التعليمية، ولكونها فى متناول الجميع من حيث المبدأ، فقدّ التعليم قيمته كعنصر من عناصر منظومة القيم. وقد جرى تقليص نسبى (وربما كان مطلقاً) لطبقة ذوى الثقافة الرفيعة القادرين على تثمين منجزات الثقافة، بما فيها التعليم العام، بطريقة منزهة عن الغرض. كما انقضت الأرستقراطية الثقافية كشريحة اجتماعية مميزة. وكان توكفيل قد لفت الانتباه فى حينه إلى هذه النزعة. والوظيفة التى كانت تؤدّيها الأرستقراطية الثقافية ذابت فى كتلة الناس العاملين مهنيّاً فى مجال التعليم والثقافة، وفى كتلة السكان العامة التى تتلقّى شيئاً من التعليم.

إن وفرة منشآت التعليم وكونها فى متناول الجميع من حيث المبدأ لا يعنى أن هذه المنشآت تتوزع فى المجتمع بهذا القدر أو ذاك من التساوى. فهنا، كما فى كل الأمور الأخرى، تتراكم الثروات الهائلة فى طرف، والفقير فى طرف آخر. لقد نشأت

طبقة من نخبة محترفة، رفيعة التعليم والثقافة في مجال العلم والتقنية، وكذلك في مجال إعداد الكوادر اللازمة لهذه الطبقة. إن تعليم أفراد هذه الطبقة هو، كقاعدة عامة، وحيد الجانب، مفرط النمو على نحوٍ ما في اتجاهٍ واحد فقط، ما يجعل هذه الطبقة عاجزة تماماً ليس فقط عن القيام بوظائف الأرسقراطية الثقافية، بل وحتى بوظائف التنويريين العاديين في المجتمع. والأرجح أن العكس هو الصحيح. ذلك أن قصص كهنة العلم عن الصبغيات، والجينات، والذرات، والخلايا، والبنى الفضائية، واللاوعي، والسوق، والفوائد المثوية... إلخ، تؤثر على وعى الناس قدر ما كانت تؤثر عليه في سالف العصور قصص كهنة الطقوس الدينية عن القوى الخفية، وأنواع السحر، والشياطين، والآلهة، والمعجزات... إلخ. فجماهير السكان في البلدان الغربية تظل في مستوى من الجهل والظلامية قريب تماماً مما كان عليه الأمر في تلك العصور. إن وفرة منشآت التعليم بحد ذاتها لا تجعل المجتمع رفيع الثقافة من ناحية حالة المواطنين فيه. ثمة رأى بأن تطور التكنولوجيا الذهنية المعلوماتية يولد ثورة في مجال التعليم والتدريب. فإذا لم نول كلمة "ثورة" أهمية خاصة، توجب الاعتراف بأن تطور هذه التكنولوجيا له آثار جوهرية حقاً في هذا المجال. ولكن ما هي تلك الآثار؟ سأشير إلى واحد منها يتعلق بتصميم الغربية ذاته. إذ تنطوى عملية التعليم والتدريب على جانبين، الأول هو تنمية العالم الذهنى الداخلى فى الإنسان وقدراته الشخصية، والثانى هو تنمية المقدرة على استخدام الثروات المتراكمة فى مجال التعليم والمهارات البشرية. إن الجانب الثانى يشكل ما يشبه المستوى الثانوى من التعليم والتدريب. وقد اشتدت قوته فى العقود الأخيرة بوضوح على حساب الأول، بينما أدى تطور التكنولوجيا الذهنية المعلوماتية إلى جعله مهيمناً.

## التربية

إن من يتولى تربية المواطنين هم الأسرة، والمدرسة، والوسط الشبائى، ووسط الزملاء فى العمل، والمعارف، ووسائل الإعلام الجماهيرى، والسينما، والأدب،

والإعلانات، والمراجع الدينية، أى - باختصار - كل المحيط الذى يتعامل معه الإنسان طول حياته، من المهد إلى اللحد. والتربية ليست شيئاً يستمر زمنًا معينًا، يغدو الشخص بعده مهذبًا، وتنتهى عملية تربيته. بل تستمر التربية مدى الحياة. ولا تقتصر مهمتها على منح الشخص خصائص معينة، بل وهى تعزز تلك الخصائص باستمرار. وهذه الخصائص بطبيعتها تزول، أو تضعف، إذا لم تعزز. فالتربية هى مسار حياة الإنسان، من وجهة نظر تأثره بمحيطه، وتكيفه مع بيئته، والمحافظة على قدرة التكيف فى المستوى المطلوب.

يمكن أن نفرق فى مجال تربية الناس فى الغرب بين ما يتناقلونه من جيل إلى آخر، ما يورثه الراشدون للأطفال تلقائيًا بفعل العادات والتقاليد (التربية الحياتية التقليدية، مثلاً)، من جهة، وما تفعله عن وعى وعمد جهودُ الناس العاملين فى هذا المجال كمحترفين، من جهة ثانية. إن هذا الجزء الهادف من مجال التربية هائل من حيث حجمه، وتنوع وسائله، وعدد العاملين فيه. ولئن لم يتح لى الوقوع على معطيات إجمالية فى هذا الصدد، فإن ما قُدِّر لى شخصياً أن أراه فى المتاجر، وبرامج التلفزة، والجرائد، والمجلات، والأفلام السينمائية فى البلدان الغربية، وكذلك فى العديد من مؤلفات المختصين، ترك لدى انطباعاً صاعقاً، ومكرباً فى الوقت نفسه. ذلك أن إنتاج السلع والخدمات فى مجال التربية شىء، وطابع هذه السلع، والخدمات، والمادة البشرية كمنتج لمجال التربية، شىء آخر. فهناك فرق فى الدلالة، مثلاً، بين العدد الخرافى من شتى أنواع الأفلام المنتجة فى بلدان الغرب، وحرفيتها الفنية وتقانتها القامة، من جهة، ومضامين هذه الأفلام وعواقب تأثيرها على الناس، من جهة ثانية. إن وسائل التربية الجبارة هناك مسخرة عملياً لتجهيل ملايين البشر، واستغفالهم، وإفسادهم إيديولوجياً. وهذا ما يكاد العاملون فى مجال التربية أنفسهم يُجمعون على رفع الصوت عالياً ضده. غير أن المجتمع لم يعد قادراً على الحيلولة دون استمرار هذه العملية.

إن موضوع اهتمامى فى هذا المشهد الذى أرسمه بقلمى هنا ليس الغرب بشكل عام، وإنما هو ظاهرة الغريبة حصرًا. ولذا فإننى سأقتصر لاحقًا على تناول الجزء الهادف من مجال التربية.

إن النظام الغربى، بنواته، ومحوره، وأساسه، النظام الهادف إلى تربية الناس، والتحكم بهم عن طريق التأثير على وعيهم ومشاعرهم، تتمخض عنه جملة من الظواهر الشبيهة بالدين والكنيسة فى المجتمع الإقطاعى. إنه مجال إيديولوجى، سينسولوجى (ثقافى).

### مصطلح الإيديولوجيا

لا يحبذ الغربيون استخدام كلمة "إيديولوجيا"، ويلجأون بدلا منها إلى تعابير أخرى، مثل "الوعى الاجتماعى"، و"النظرة إلى العالم"، و"الملكية العامة"، و"التلقين"... إلخ، وإذا ما استخدموا كلمة "إيديولوجيا" كان ذلك بالمعنى السلبى عمومًا. لقد بدأ هذا التقليد على يد نابليون، ثم عززه ماركس الذى عرف الإيديولوجيا بأنها شكل من أشكال الوعى، كاذب، مشوه، وممسوخ. وفى أيامنا هذه حصروا مصطلح الـ "إيديولوجيا" بإيديولوجيات تُعدّ فى الغرب شياطين الجحيم: كالشيوعية، والاشتراكية القومية، والفاشية. ومع ذلك سوف أستعمل هذه الكلمة مفترضًا أن لها فى هذه الحالة من الأسس أكثر مما لجميع التعابير الأخرى التى تدعى هذا المعنى. بل سأستعملها كمصطلح حيادى من الناحية السوسولوجية، دون أن أضمنه أى معنى، سلبياً كان أو إيجابياً.

### المجال الإيديولوجى

ثمة اقتناع منتشر على نطاق واسع يزعم أن القرن الماضى كان عصر الإيديولوجيات، وأنه عصر انقضى وحلّ محله عصر نزع الإيديولوجيا، أو عصر ما بعد



الإيديولوجيا. والسباقون إلى طرح هذا الاقتناع هم ر.أرون، ود.بل، وك.بوبر<sup>(١١٥)</sup>، وغيرهم من المفكرين الغربيين. ويرى هؤلاء أن البلدان الغربية قد حلت فيها مرحلة خمود النزاعات الاجتماعية، مرحلة الوفاق الوطني العام بين المصالح، وأن الإيديولوجيات التي تعبر عن المصالح الخاصة للمجموعات والشرائح والطبقات في المجتمع قد فقدت أهميتها، وحلّ العلم محلّها. ويقوم هذا الاقتناع بنهاية الإيديولوجيا على حقيقة سقوط الإيديولوجيات النازية، والفاشية، والماركسية. على أن هذه النظرة مدهشة في استخفافها، أو تجاهلها المتعمد حقيقة أن سقوط إيديولوجيات بعينها لا يعنى بعدُ نهاية الإيديولوجيا عامة، وأن هناك أشكالاً أخرى من الإيديولوجيا موجودة، وأنه حتّى الإيديولوجيات التي منيت بهزيمة تاريخية لم تمت بالكامل، بل غيرت مظهرها وفقاً للظروف الجديدة، أو أنها تنبعث مجدداً تحت تسميات أخرى.

لكن القضية لا تكمن في بقايا تلك الإيديولوجيات التي فقدت أهميتها السابقة، أو حتّى المحظورة، فليست هي التي تحدد حالة المجتمع الغربى الإيديولوجية. لقد ظهرت في الغرب كثير من الإيديولوجيات الجديدة التي تلاقى انتشاراً بين الجماهير وتأثيراً فيها، كالإيديولوجيا السلمية، والإيكولوجية (البيئية)، والنسوية، والمثلية الجنسية. أما الأهمّ فهو أن كل ما ينسبه أصحاب نظرية "مجتمع ما بعد الإيديولوجيا" (نزع الإيديولوجيا، نهاية الإيديولوجيا) للشيوعية وغيرها من الإيديولوجيات المذمومة، موجود في الغرب في أشكال أخرى، وفي تجليات غير واضحة، بل وعلى نطاقات أكثر اتساعاً. إن فكرة نهاية الإيديولوجيا هي بحد ذاتها فكرة إيديولوجية صرف، إنها فكرة الإيديولوجيا الغربية التي تعتمد القوانين العامة للإيديولوجيا اعتماداً تاماً فتعدّ نفسها الإيديولوجيا الصحيحة الوحيدة، بينما تعدّ الأشكال الأخرى من الإيديولوجيا باطلة، بل وجريمة أيضاً.

---

(115) D.Bell. The End of Ideology. N.Y., 1961

إن كل ما تيسر لي الاطلاع عليه من مؤلفات تولى الإيديولوجيا قدرًا من الاهتمام، لا يعنى بكلمة "إيديولوجيا" إلا بعض أفكار وتعاليم. غير أن هذه ليست إلا جزءاً من جملة معقدة من الظواهر، سوف أسميها "الجانب الإيديولوجي من المجتمع". ويتألف هذا الجانب من ثلاثة عناصر رئيسية، أولها جملة معينة من التصورات، والمفاهيم، والأحكام، والأفكار، والتعاليم، والمذاهب، والاختناعات والآراء... إلخ، التي يكونها الناس عن كل ما يعتبر في ظروف معينة، وفي كيان بشري معين مهماً لكي يعي الإنسان ذاته ومحيطه الطبيعي والاجتماعي. وسوف أطلق على هذا العنصر من عناصر المجال الإيديولوجي اسم "إيديولوجيا".

ويتشكل ثانياً عناصر المجال الإيديولوجي من مجموع الناس، والمنظمات، والمؤسسات، والمنشآت، وما يستخدمون من وسائل ترتبط على نحو أو آخر بصوغ الإيديولوجيا (يمكن أن نقول: المرتبطة بإنتاج السلع والخدمات الإيديولوجية)، ونشرها وإيصالها إلى المستهلك، أي إلى أفراد المجتمع وتجمعاتهم. وأسمى هذا العنصر بـ "الآلية الإيديولوجية".

أما العنصر الثالث من عناصر المجال الإيديولوجي فيتشكّل من الحالة الفعلية التي يكون عليها وعي الناس ومشاعرهم، وهي حالة تنشأ نتيجة تأثير مجمل عوامل حياتهم عليهم، وليس نتيجة تأثير الإيديولوجيا وحدها. وسوف أسمى هذا العنصر بـ "الحالة الإيديولوجية". فهو يلامس المسائل ذاتها التي تلامسها الإيديولوجيا. ولكنهما لا يتطابقان تماماً. إن النظريات الإيديولوجية قد تظل طي الكتب التي لا تقرأها جماهير الناس، أمّا وعيهم فقد يكون مليئاً بمضمون إيديولوجي من مصادر أخرى، مثل خبرة الحياة، والأدب، والسينما، والصحف، والأحاديث مع المعارف... إلخ. وحتى النظريات الإيديولوجية يستوعبها الناس وفقاً لقدراتهم الفردية واهتماماتهم.

ينبغي التفريق بين الحالة الإيديولوجية لدى أفراد معينين، ولدى تجمعاتهم، وكذلك لدى المجتمع ككل. فالحالة الإيديولوجية لتجمع من الناس ليست حالة عامة يعيشها كل فرد في التجمع، أو شيئاً متساوياً، أو معدلاً وسطياً بينهم. وينطبق هذا على المجتمع

ككل، بصفة خاصة. ويؤدي تقسيم الوظائف في تجمعات الناس إلى بروز أفراد متميزين يقومون بالوظائف الإيديولوجية في التجمع ككل. ويأخذ هؤلاء الأفراد الحالة الإيديولوجية لأفراد التجمع الآخرين بشيء من الحسبان، ولكنَّ جُلَّهم هو أن يفرضوا عليهم الإيديولوجيا التي يعدونها إيديولوجيا التجمع. وليس ضرورياً أن يعترف أفراد التجمع الآخرون بإيديولوجيا التجمع اعترافاً تاماً، ودون تذمُّر. بل وقد يكونون جاهلين بها تماماً، أو لا يعرفونها بالمرّة. والمهم أن يعترف بها جزء من التجمع يتمتع بقدر كاف من النفوذ. على أن هذه الإيديولوجيا تتشكل بطرق شتى. فقد تكون مستوردة من الخارج وتفرض "من فوق". أمّا في ما يخص المجتمع ككل، فهذه العملية طويلة ومعقدة.

ولكى تغدو الإيديولوجيا عنصراً من عناصر الحالة الإيديولوجية للمجتمع، ينبغي أن تكون مطابقة لذلك الجزء من الحالة الإيديولوجية الذي يتشكل عبر قنوات أخرى، وأساساً عبر قناة الخبرة الحياتية لسكان البلاد. وهذا التطابق ليس شيئاً راسخاً إلى الأبد، ليس شيئاً ثابتاً لا يتغير. إذ تحدث في هذا التطابق تذبذبات، واختلالات، ونزاعات، كما في أي عملية حياتية معقدة. على أن الحفاظ على التطابق المذكور هو أحد أهم شروط حفاظ المجتمع على بقائه.

### مجال الغريبة الإيديولوجي

إنّنى أفرّق بين المجال الإيديولوجي في البلدان الغربية بشكل عام، ومجال الغريبة الإيديولوجي ذي الخصوصية. فالمجال الأول ينطوي على كل ما يمكن أن نراه في المجال الإيديولوجي في البلدان الغربية، بما في ذلك الإيديولوجيا الشيوعية، والنازية، والقومية، والاشتراكية... إلخ. كما ينطوي على إيديولوجيا الغريبة أيضاً. أما المجال الثاني فليس إلا جزءاً من الأول. ولكنه جزء ذو خصوصية، إذ إنه أحد دعائم المجتمع

الغربي إلى جانب الأجزاء التي تناولتها سابقاً، وهو أحد العناصر الأساسية في الغربية، وذلك خلافاً للظواهر الإيديولوجية الأخرى.

هناك اقتناع في الغرب بأنه لا وجود لأي إيديولوجيا غربية من نوع خاص، غير أن هذا الاقتناع يتناقض مع تاريخ صيرورة المجتمع الغربي، ومع حالته الراهنة على حدٍ سواء. فالإيديولوجيا الغربية تحديداً كانت أحد أهم شروط انتصار الغربية. ثم إن القضاء على تلك الإيديولوجيا من شأنه أن يؤدي بالمجتمع الغربي إلى الهلاك. إنني لا أحاول على الإطلاق أن أنحو باللائمة على الغرب لأنه أنشأ ونمى داخله مجالاً إيديولوجياً جباراً. فليس ذلك عيباً، بل هو شرط لا بد منه لكي يحافظ المجتمع على وجوده. ويدهشني تماماً أن الإيديولوجيين الغربيين يخشون الاعتراف بهذه الحقيقة التي يظنّ المرء أنها جلية للعيان. على أن موقف الغرب من إيديولوجيته راحت تتغير الآن، بعد أن تخلّص - أقله لبعض الوقت - من رعبه أمام الشيوعية. فقد تغير موقفه من الرأسمالية إلى درجة أن كثيراً من المنظرين الغربيين يُسمّون الرأسمالية الآن صراحة: المستقبل الوضاء للبشرية جمعاء.

إن من ينفون وجود إيديولوجيا غربية خاصة يتصورون الإيديولوجيا في الشكل الذي اتخذته في البلدان الشيوعية، والاتحاد السوفيتي خاصة، أي في شكل تعاليم إيديولوجية واحدة تفرضها على السكان كشيء إلزامي فئة الجهاز الإيديولوجي المركزي الواحد الذي هو جزء من جهاز الدولة. إلا أن عدم وجود إيديولوجيا واحدة وجهاز إيديولوجي حكومي في البلاد لا يعنى بعد عدم وجود أي إيديولوجيا، وأي وسائل لصقل السكان إيديولوجياً في تلك البلاد.

فإذا ما أجرينا مقارنة بين المجال الذي كان يتعرّض في المجتمع لنشاط الجهاز الإيديولوجي وتأثير النظرية الإيديولوجية الرسمية في البلدان الشيوعية وبين مثيله في البلدان الغربية أمكننا أن نلاحظ دون عناء أن النتيجة نفسها تتحقق في البلدان الغربية من دون الوسائل الإيديولوجية المذكورة، بل وأعتقد أن هذه النتيجة أشد فاعلية بكثير

مما هي في البلدان الشيوعية. وكذلك إذا ما أخذنا كلمة "التبليد"<sup>(١١٦)</sup> التي تستخدم عادة في الحديث عن البلدان الشيوعية، يمكننا تأكيد حقيقة هي أن نظام "التبليد" الإيديولوجي في الغرب أقوى بما لا يقاس مما كان عليه في الاتحاد السوفيتي زمن ستالين، وحتى زمن بريجنف، بل ولا يقتصر ذلك على المواطنين العاديين الموجودين طول الوقت في المجال الذي تؤثر عليه الإيديولوجيا، بل ويشمل أيضاً الوسط المهني الذي يقوم بدراسة الظواهر الاجتماعية. إن ما قُدر لي أن أقرأه وأسمعه وأشاهده عن الغرب، كان كله تقريباً، ذا طابع إيديولوجي سافر، أو مشبَّهاً بالإيديولوجيا، أو يرغم المرء على استنتاجات إيديولوجية محددة. فحتى في الدعاية المبتذلة، التي تنتشرها الجرائد، نادراً ما يقع المرء، مثلاً، على تطويل وكيل مدائح للملكية الخاصة والرأسمالية وسواهما من عناصر الغربية يضاهاى ما في الكتب التي تدعى لنفسها مستوى عالياً من العلمية، ككتب هايك وبوبر وغيرهما من ممثلي النخبة الإيديولوجية في الغرب.

لم ينشأ مجال الغربية الإيديولوجي بقرار فرضته السلطات العليا على المجتمع من فوق، أي أنه لم يظهر ككيان مصطنع. لقد نشأ هذا المجال على مدى كثير من العقود وحتى القرون نشأة طبيعية، كجزء من مجمل عملية صيرورة المجتمع الغربي. والناس الذين كانوا يبنونه لم يكونوا يعرفون أنهم يبنون مجالاً إيديولوجياً حصراً، وليس مجالاً من أي نوع آخر. وفي جميع الأحوال، فإنهم لم يضعوا نُصبَ أعينهم مثل هذا الهدف عن وعي، إذا ما صرفنا النظر عن محاولة واحدة من هذا القبيل سأحدث عنها لاحقاً. لقد تكون مجال الغربية الإيديولوجي عبر مسارات شديدة الاختلاف، وعلى مختلف المستويات كشكل محدد لفهم العالم، والإنسان، والمعرفة، والمجتمع عموماً، والنظام الاجتماعي الجديد، وكشكل يعي المجتمع الجديد

---

(١١٦) كلمة روسية تعنى جعل الناس بُلداً، مغفلين، يسهل خداعهم، وتنطلى عليهم أي حيلة. - م.

ذاته من خلاله. وفي الوقت نفسه كان هذا المجال الإيديولوجي يتشكل أيضاً كتنظيم للوعي الاجتماعي، وكتنظيم لوعي الناس، وكجملة من وسائل تحديد الاتجاه والهدف في الوسط الاجتماعي الجديد والتكيف معه، وكنظام يدافع به المجتمع عن نفسه ضد القوى الهدامة التي تواجهه. وكما غدت الغربية بمجملها أساس المجتمع الغربي وهيكله، راح مجالها الإيديولوجي يؤدي هذا الدور خدمةً لكل مجال الوعي الاجتماعي في الغرب.

إن مجال الغربية الإيديولوجي متعدد الأبعاد، شأنه في ذلك شأن باقي مجالات الغربية جميعاً. ويمكن تناول هذا المجال ليس فقط من حيث اختلاف عناصره الثلاثة التي ذكرناها أعلاه، بل أيضاً ومن حيث اختلاف إنتاج السلع والخدمات المادية وتوزيعها واستهلاكها، أي من حيث إنتاج الأفكار وتوزيعها واستهلاكها. وبهذا المعنى يحق لنا تماماً أن نتحدث عن السوق الإيديولوجية بكل مقوماتها، بما فيها "اليد الخفية".

ليس مجال الغربية الإيديولوجي شيئاً استاتيكيًا ثابتاً، لا يتغير إلى الأبد. إنه عملية دينامية تجرى فيها إعادة إنتاج بعض العناصر المستقرة، واضمحلال عناصر، وظهور عناصر جديدة، عملية تجرى فيها غريبة دائمة لما هناك من معلومات عن أحداث تدور على كوكبنا، وتحويل تلك المعلومات إلى منتج إيديولوجي، أي إلى ملايين الكتب، والمقالات، والخطب، والتصويرات.

وثمة تقسيم للوظائف داخل المجال الإيديولوجي نفسه. فإذا قلنا إن إحدى تلك الوظائف هي تزويد الناس بتصوير عن الكون وفقاً لمنجزات العلم، فهذا لا يعني أن المجال الإيديولوجي برمته يمارس هذا العمل التنويري. إذ إن تلك الوظيفة يقوم بها جزء واحد منه، وليس بشكل دائم.

هناك أجزاء أخرى تنطوي وظيفتها على تعمُدِ خلقِ تصور كاذب عن بعض البلدان، عن روسيا والروس، مثلاً. فيقوم بعض الناس والمؤسسات برسم صور لمجتمع

المستقبل، فيما يضع آخرون طرقاً لتشويه صورة الأفكار والحركات المعادية للغربوية. باختصار، ليس لهذا المجال تعريف جامع مانع لا يقبل الجدل. ولا يمكن أن يضطلع بهذا الدور، أى بتعريف ذلك المجال الإيديولوجى، إلا البحث العلمى الرصين. ولكن لم يقدر لى أن أقع على بحث من هذا القبيل. وأعتقد أنه لا وجود له البتة، لأن ذلك ليس فى مصلحة المجال الإيديولوجى نفسه.

### إرهاصات تاريخ إيديولوجيا الغربوية

فى العشرين من حزيران/ يونيو ١٧٩٦ شهدت باريس الثائرة حدثاً كان له تأثير شديد الضالة على سير التاريخ، وترك فى ذاكرة البشرية أثراً ضعيفاً، وإن كان ذلك الحدث - من حيث جوهره - جديراً بأن يُدرج فى عداد الظواهر المميزة فى صيرورة الغربوية. فى ذلك اليوم ألقى أ. ديستودى تراسى، زعيم مجموعة الفلاسفة المعروفين باسم الإيديولوجيين، تقريراً فى حلقة العلوم الأخلاقية والسياسية فى المعهد القومى للعلوم والفنون. وقد تزعم تلك المجموعة كل من كابانيس وكوندورسيه. وطرح ديستودى تراسى فى تقريره الموسوم بـ "مشروع الإيديولوجيا" مشروعاً لتعميم تعاليم المفكرين العظام: ف. بيكون، ولوك، وكونديلياك، وهيلفيتسى وغيرهم، وجعلها منظومة لتكون "نظرية النظريات" على نحو مميز، أو علماً عن الأفكار، أى لتكون إيديولوجيا. وفى وقت لاحق لخص دي تراسى مشروعه فى كتابه "عناصر الإيديولوجيا"<sup>(١١٧)</sup>. *Elements d'ideologie* ولم يدع المؤلف أنه وضع مذهباً إيديولوجياً ناجزاً، بل عدّ كتابه محاولة أولى على هذا الطريق. وقد احتلت الأفكار المتعلقة باستخدام الإيديولوجيا من أجل تحسين النظام الاجتماعى مكانة جوهرية فى مشروعه.

---

(117) A.L.C.Destutt de Trasy. *Elements d'ideologie*. 1801-1815.



غير أن تأثير "الإيديولوجيين" ما لبث أن تلاشى بعد نجاح قصير الأمد وقليل الصخب. فقد عدَّهم نابليون "ديماغوجيين وثرثارين"، أما ماركس فوصف ديستودى تراسى بأنه عقائدى متعصبٌ برجوازى. وتكمن سخرية التاريخ هنا فى أن نابليون تكوّن تحت تأثير أفكار أجداد الإيديولوجيا الغربية (فولتير، مونتسكيو، هيلفيتسى، روسو، مابلى، فولنى وغيرهم)، بينما أصبح ماركس نفسه عقائدياً متعصباً، ولكن معادياً للبرجوازية.

أعتقد أن محاولة ديستودى تراسى كانت الأولى فى التاريخ لوضع نظرية إيديولوجية واحدة ومنهجية للغربية، نظرية إيديولوجية تحديداً، وليس أيّ صفة أخرى. غير أن محاولته لم تنجح، وظلّت الوحيدة من نوعها. وأشير بالمناسبة إلى أن ديستودى تراسى لم يسبق التعاليم الإيديولوجية التى عرفتها البلدان الشيوعية فى القرن العشرين وحسب، بل وسبق ما راج فى أواسط القرن العشرين من مقولات النظريات الكبرى metatheories، والعلوم الكبرى metasciences، واللغات الكبرى metalanguages.

إن ما سبق أن ذكرته عن تشكل مجال الغربية الإيديولوجى ككل ينطبق أيضاً على إيديولوجيا الغربية. فهذه الإيديولوجيا لم يؤت بها إلى الغرب من خارجه، كما هو حال الإيديولوجيا الماركسية فى روسيا، بل هى نشأت وتطورت فى الغرب دائماً. لقد تكونت على مدى قرون بطريق تاريخى طبيعى، عبر سيرورة التطور الروحى والثقافى التى عاشتها شعوب الغرب، ولم يفرضها أحد عليها فرضاً من فوق كشىء ناجز. ولما كانت عنصراً طبيعياً من عناصر الغربية، فإنها ترسخت وفق القوانين العامة للغربية، وككيان اجتماعى مطابق للغربية. ولكن ليس بمعنى تطابق المعارف العلمية (التطابق الحقيقى) مع المواضيع التى تدرسها، بل بمعنى التوافق مع ظروف مجتمعتها، وثقافته، ومادته البشرية، وحاجاته.

إن إيديولوجيا الغربية ثمرةٌ لجهود عدد هائل من الفلاسفة، والاقتصاديين، وعلماء الاجتماع والسياسة، والأدباء، والشخصيات الاجتماعية والسياسية. وكان بين

هؤلاء رجال أفذاذ، أمثال بيكون، ولوك، وهوبس، وسميث، وميل، ومونتسكيو، وروسو، وهيلفيتسي، وديدرو، وفولتير، وهولباخ، وكانط، وهيغل والعديد غيرهم ممن خلدت البشرية أسماءهم إلى الأبد. إذ يمكن وصف القرن التاسع عشر جملةً بالإعصار الإيديولوجي. أما القرن العشرون فقد شهد نشوء بيئة إيديولوجية انخرط فيها عشرات ومئات آلاف المختصين من كل نوع.

لقد استُخدمت في وضع إيديولوجيا الغربية خيرة منجزات الثقافة الأوروبية الغربية. ولم يخطر على بال أوائل مؤسسي هذه الإيديولوجيا أنهم كانوا ينفذون "طلباً اجتماعياً" (يلبّون "حاجة اجتماعية")، أي أنهم كانوا يرسون أسس نظام لصقل وعي الناس وتتميطه، وقيّمون نوعاً من الإحداثيات "الروحية" ليسترشد بها الناس في محيط معقد، وضمن سيل من الأحداث، يضعون نظاماً من القواعد والمعايير لتقييم سلوك الناس. ثم راح من ساروا على طريقهم في المجتمع الغربي المتطور يتصورون هذا المجال شيئاً بديهياً لا يحتاج إلى جدال.

بالطبع، كانت الفروق القومية موجودة في إيديولوجيا الغربية وما تزال إلى حد ما حتى الآن. ولا تخفى تلك الفروق في الآراء بين مؤسسي الإيديولوجيا الإنجليزية (بيكون، لوك، هوبس، ميل وغيرهم)، والفرنسية (مونتسكيو، كونت، فولتير، هيلفيتسي، مونتين وغيرهم)، والألمانية (كانط، هيغل، نيتشه، فيخته، شوبنهاور وغيرهم). فقد كانت الإيديولوجيا تنشأ كثمرة لأفضل عطاءات الثقافة القومية في كل دولة غربية، كوعي للذات القومية. ومع ذلك فقد تكونت إيديولوجيا الغربية كظاهرة أوروبية عامة. ولعل الوحدة الأوروبية في مجال الإيديولوجيا بدأت تتكون كوحدة غربية قبل أن تكون كذلك في مجالي الاقتصاد والسياسة.

### السمات الأساسية لإيديولوجيا الغربية

لم تكن إيديولوجيا الغربية، سواء في صيرورتها التاريخية أم في حالتها المعاصرة، ظاهرة معزولة عن العلم، والأدب، والرسم، والصحافة، بل والدين أيضاً.

إنها ذاتية ومنبئة في كل شيء، بل وعلى العموم لا يُنظر إليها كإيديولوجيا. والغالبية الساحقة من الغربيين لا تعرف ما هي الإيديولوجيا. إن محاولة "الإيديولوجيين" في عهد الثورة الفرنسية الكبرى إبرازَ الإيديولوجيا كظاهرة متميزة لم تكن محاولة يمكن أن يُكتب لها النجاح، وإن كانت تنطلق من نوايا خيرة. وعلى النقيض من ذلك، فقد كان تلاميذ المدارس في البلدان الشيوعية يعرفون ما هي الإيديولوجيا. فهناك تجلّت الإيديولوجيا متميزة على نحو دقيق عن سواها من ظواهر الثقافة، ولم تكن ذاتية فيها. بل كانت بارزة، تلفت الأنظار، وتثير الغيظ والسخرية. وكانت تبدو عموماً كشئ دخيل، لا لزوم له، وإن كان دورها التنظيمي والتربوي هائلاً في الواقع.

ليس في الغرب إيديولوجيا واحدة (تحظى باعتراف رسمي)، تتمثل في تعاليم موحدة، كما كان الأمر في الاتحاد السوفيتي. فلا يوجد في الغرب كتاب يمكن القول إنه يتضمن عرضاً ولو لأسس إيديولوجيا الغربية. فهذه الإيديولوجيا على درجة كبيرة من التبعض، تمكّنا من القول إنها ذاتية في الظواهر غير الإيديولوجية، وكأنما لا وجود لها البتة. إذ يمكن للمرء أن يلاحظ بعضاً من تجلياتها وأجزاء منها، وليس شيئاً ممنهجاً إلى هذا الحد أو ذلك، ومجتمعاً في نصوص إيديولوجية صريحة.

إن إيديولوجيا الغربية معروضة ومشروحة في كثير من الكتب والبحوث التي وضعها علماء رصينون، وفي الكتب التعليمية لتلاميذ المدارس وطلاب الجامعات، وفي الكتب الرائجة والمقالات المخصصة لأوساط واسعة من القراء، وفي المحاضرات التلفزيونية، وفي مقالات الجرائد والمجلات. وكل ما يسمى بالعلوم الاجتماعية يتضمن، على هذا النحو أو ذلك، جرعات كبيرة من الإيديولوجيا.

يصعب القول إن كان سيأتي في يوم من الأيام شخص يبعث فكرة ديستودي تراسي من جديد، وينشئ مذهباً متسقاً، يقوم على تعميمات وخلاصات على غرار مذهب بوذا، ومحمد، والمسيح، أو حتى الماركسية اللينينية، وهل سيحظى هذا المذهب بالاعتراف كعرض موجز لإيديولوجيا الغربية. والأرجح أن ذلك لن يقع، لأن مذهباً كهذا لا يتوافق وطبيعة المجتمع الغربي بوصفه مجتمع الغربية، ولا مع

روح إيديولوجيته. إن الفوضى الإيديولوجية الظاهرية في الغرب ليست وليدة الصدفة، بل هي الأكثر انسجاماً مع أهداف وشروط تفعيل الإيديولوجيا، هي وليس النظرية الناجزة المكرسة.

إن إيديولوجيا الغريوية تعددية، بمعنى أنها تتألف من كم كبير من الأفكار، والتعاليم، والمفاهيم، والنظريات، والاتجاهات الفكرية المختلفة. ومن المتعذر توحيد أجزائها أوتوماتيكياً في كل منطقي واحد. فهذه الأجزاء تتناقض أحياناً فيما بينها، ومع ذلك يمكن النظر إلى هذه التعددية على أنها تقسيم للعمل في إطار وحدة ما، وتعبير عن الفروق الفردية بين مؤلفي هذه النصوص. وعلى أية حال، فإننا نتحدث عن اقتصاد الغرب كشيء واحد، وإن كنا نعرف حق المعرفة ما يدور بين أجزائه من صراع عنيف. إننا نتحدث عن النظام السياسي في البلدان الغربية ونحن نعرف جيداً ما يدور هناك من صراع بين الأحزاب، وبين الكتل داخل تلك الأحزاب. فلماذا لا يجوز الحديث بهذا المعنى بالضبط عن إيديولوجيا غربية، حتى وإن كانت تعج بالعداوات الداخلية؟

## الوسط الإيديولوجي

لئن كان لا وجود في الغرب لمذهب واحد من شأنه أن يقوم مقام إيديولوجيا الدولة، فإن هناك ما يمنح التعددية الإيديولوجية وحدة واستمرارية. إنه الوسط الإيديولوجي الذي يتألف من المختصين العاملين في مؤسسات مختلفة، ولكنهم يشكلون طائفة منغلقة من نوع خاص. إنهم يدرسون ما تم إنجازه في الماضي، فينتقون منه أفكاراً وتعاليم يصقلونها وينظّمونها، وينشرون ويعيدون نشر أعمال مؤلفين مختارين، ويُعدّون الكتب التعليمية والمراجع، أي أنهم يقومون بنوع من تكريس أسماء، وأفكار، وتعاليم معينة. وهؤلاء المختصون يدرسون حياة عصرهم الاجتماعية، ومعطيات العلوم والتقنية، وعموماً كل ما يعدونه مهماً وشيقاً من وجهة نظر جماهير الشعب.

يقومون بتمحيص ما يدرسونه في إطار التقاليد المألوفة لديهم والمعايير المقبولة في وسطهم، ويتابعون انتقاء المادة الصالحة منه للمجال الإيديولوجي. وهم يقومون بهذا العمل المنظم جيلاً بعد جيل، والأشخاص الذين يعاد إدراجهم في هذا المجال يتلقون إعداداً معيناً، ويواصلون عمل أسلافهم وفق القواعد ذاتها. وإذا لم يقوموا بذلك فلن يعاد إدراجهم في هذا المجال، وإذا ما أُدرجوا فيه فلن يصيبوا نجاحاً، ولن يطول بقاؤهم فيه، إنهم ملزمون باتّباع قواعد معينة في الوسط الإيديولوجي المحترف، وذلك لكي يكسبوا عيشهم، ويصعدوا في السلم الوظيفي، وينالوا الشهرة.

وتنشأ في هذا الوسط مجموعات، ومدارس، وتيارات تتنازع فيما بينها أحياناً، ولكنها تبدى تسامحاً وتفهماً تجاه بعضها البعض. إنها تتعايش وتجتمع كلها على القيام بعملٍ مشترك واحد. إذ إن هذه المجموعات، والمدارس، والتيارات أعضاء في تعاونية واحدة، يعرف بعضها بعضاً بسهولة، وتتشرك في حماية مجالها من تدخلات الغرباء التي تهددها كتعاونية واحدة. فقد شهدنا في إطار الدين المسيحي الواحد فرقاً داخلية متعادية، ناهيك عما شهدته الإيديولوجيا الشيوعية في هذا المعنى.

## مستويات الإيديولوجيا

يمكن التفريق في إيديولوجيا الغربية بين ثلاثة مستويات، هي المستوى النخبوي، والمستوى الدعائي التنويري، ومستوى الحياة اليومية. يتكوّن المستوى الأول من المؤلفات التي تدعى لنفسها العلمية، والإبداع، والاستقلال عن الإيديولوجيا. حقاً، هناك اكتشافات علمية أيضاً تنجز على هذا المستوى، فالإيديولوجيا تتغذى بنسخ العلوم. وتتخذ الإيديولوجيا هنا صفة الحرفية الرفيعة، إن المستوى الحرفي هنا عالٍ إلى حد كبير فيما يتعلق ببعض المسائل، وبعض التفاصيل المعينة، وسعة الإطلاع وأدوات البحث الشكلية. ولكنه يتعايش مع سطحية الاستنتاجات، وتجاهل قوانين الوجود الاجتماعي الموضوعية، والموروثات البالية والأحكام المنحازة.

ويتكوّن المستوى الثانى من كمّ كبير من الكتب، والمقالات، والمحاضرات، والتقارير التى تضعها فئة عريضة من الاختصاصيين العاملين فى الصحافة، والدعاية، والترويج للأفكار، وتعليم الطلاب، وإلقاء الخطب فى المؤتمرات. بينما يتكوّن المستوى الثالث من وسائل النشاط الإنسانى القادرة بهذا الشكل أو ذاك على الاضطلاع بدور حوامل الإيديولوجيا، أى الأفلام، والروايات، وبرامج التلفزيون، والدروس فى المدارس، والدعاية اليومية، وحتى الإعلانات.

إن الفروق بين هذه المستويات تبدو للوهلة الأولى على درجة من الضخامة تسمح لكبار الإيديولوجيين بالأى يعترفوا أبدأ بأنهم يقومون بعمل مشترك جنباً إلى جنب مع إيديولوجيا المستويات الدنيا. ومع ذلك فإنهم يخدمون قضية واحدة. والسراً هنا هو تقسيم العمل لصالح القيام بمختلف وظائف المجال الإيديولوجى. فهناك فرق بين صوغ فكرة إيديولوجية منقاة تأخذ بالحسبان مستوى العلم، والوعى الاجتماعى، والوضع السياسى والاقتصادى، إلخ... وبين حشورءوس بسطاء الناس بهذه الفكرة، وإعطائها شكلاً بدائياً بحكم الضرورة.

لقد كان هذا التقسيم "العمودى" للوظائف موجوداً فى إيديولوجيا الاتحاد السوفيتى. وأرستقراطيو هذه الإيديولوجيا الذين كان مسموحاً لهم بأن يكونوا أنداداً لزملائهم الغربيين بالمهنة، كانوا ينظرون بازدراء إلى رجال الدعاية العاديين الذين يوجهون الشتائم للإيديولوجيين الغربيين زملاءً أرستقراطى الإيديولوجيا السوفيت. غير أن كل ما كان يقوم به رجال الدعاية العاديون ليس إلا تعرية لجوهر ما كان يؤلفه أرستقراطيو الماركسية اللينينية. فكما أنه لا يجوز إطلاق الأحكام على الإيديولوجيا الشيوعية بالاعتماد حصراً على مؤلفات ماركس، وإنجلز، ويليخانوف، ولينين وغيرهم من منظري الماركسية البارزين، بل يجب النزول إلى المستوى الذى تصل فيه هذه الإيديولوجيا إلى المستهلك العام، كذلك لا بدّ عند تحليل إيديولوجيا الغربية من أن ننتبه إلى المستوى البدائى الاستهلاكى، ولا نكتفى بالنظر إلى المستوى النخبوى.

إن الإيديولوجيا واحدة للجميع. ولو كان بالإمكان عزلها عن الظواهر الأخرى المتشابكة معها لتبين لنا أنها، من وجهة النظر الفكرية، بدائية على جميع المستويات. وبمزيد من الدقة، فإن الاختلاف قائم ليس بين مستويات الإيديولوجيا، كإيدولوجيا، بل بين مستويات السياقات العامة التي يجرى فيها صوغ هذه الإيديولوجيا، والحفاظ عليها، وتوزيع جرعاتها. على أن هذه السياقات ليست بدائية، بل وهى معقدة قصداً. إن أقراص دواء الإيديولوجيا بحد ذاتها ليست مستساغة تجعل الناس يتناولونها طواعية وبسرور. ولذلك تُحلى هذه الأقراص "بمواد" أطيب طعمًا، تذاب فيها ليستطيع الناس تناولها حتى من غير أن يلاحظوا ذلك. إن التعامل الإيديولوجي مع شعوب البلدان الغربية مبنيٌّ بمجمله لا كواجب قسرى وعبء إضافي، بل كتسليّة ونشاط مفيد لمستهلكي الإيديولوجيا.

### الغربية والإيديولوجيا اللاطبقية

ليست إيديولوجيا الغربية إيديولوجيا مجموعة اجتماعية، أو حزب، أو شريحة، أو طبقة. إنها إيديولوجيا تشمل الكل، إيديولوجيا خارج إطار المجموعات والطبقات. وهذا لا يعنى أنها تلقى القبول من جميع المواطنين، وجميع المجموعات، وجميع الطبقات. ولا يعنى أنها توحد فئات المواطنين ومجموعاتهم كافة، أو أنها تعبّر عن مصالحهم المشتركة، أو أنها إيديولوجيا "صلحٍ طبقي". كما لا يعنى أنها جزء من المفاهيم الإيديولوجية والظواهر الإيديولوجية المحدودة الموجودة فى الغرب. بل يعنى أنه ما من طبقة، أو شريحة، أو حزب، أو مجموعة اجتماعية تبني هذه الإيديولوجيا علناً. إنها تنشأ وتبقى وتنتشر كعنصر مميز ومستقل من عناصر البناء الاجتماعى. ووضعها من هذه الناحية شبيه بوضع الدولة. وهى تحافظ على هذا الوضع حتى لو رفضها بعض الناس، أو المجموعات، وحتى لو تعرضت للنقد فى بعض من تجلياتها. وهى تعيش بحكم كونها مجال نشاط حيوى عند عدد كبير من البشر الذين يشغلون مواقع ثابتة فى المجتمع، ويتمتعون بنفوذ ومقدرة على تصريف منتجاتهم، وحماية وضعهم.



تؤثر الإيديولوجيا، بطريقة أو بأخرى، على جميع المواطنين فى المجتمع، بمن فيهم أعداؤها. فما دام الناس يقرءون الكتب والجرائد والمجلات، ما داموا يتعلمون فى المدارس والجامعات، ما داموا يشاهدون الأفلام والتلفاز والإعلانات، ما داموا يستمعون إلى السياسة والشخصيات الاجتماعية، وما داموا يشاركون فى فعاليات اجتماعية ما... فإنهم، شاءوا أم أبوا، يتشربون إيديولوجيا الغربية، ويخضعون لمعالجة إيديولوجية ("التبليد"). وهم بذلك يدعمون الإيديولوجيا. وهم إذ يستهلكون منتجات الإيديولوجيا إنما يمدونها بفرصة البقاء، ويغذونها. إنهم بكل بساطة لا يستطيعون التخلص منها حتى ولو أرادوا ذلك. وبهذا المعنى تكون إيديولوجيا الغربية هى قضية المجتمع بأسره، قضية جميع ما فيه من مجموعات، وشرائح، وطبقات.

تتأثر إيديولوجيا الغربية بالظواهر الإيديولوجية الأخرى، وتتوثر فيها. ولكنها لا تنطوى فى تركيبها على أى إيديولوجيات خاصة، فهى ظاهرة متميزة بالمقارنة معها. أما مجال إيديولوجيا الغرب فيتضمن كثيراً من التشكيلات الإيديولوجية إلى جانب إيديولوجيا الغربية التى هى إيديولوجيا كل المجتمع القائم على الغربية. أكرر القول إنها، شأنها شأن مؤسسة الدولة، إيديولوجيا المجتمع ككل واحد.

تجدر الإشارة إلى أن إيديولوجيا الغربية ليست استثناء فى هذا الخصوص. فالإيديولوجيا السوفيتية الرسمية أعلنت منذ البداية أنها إيديولوجيا جميع "الشغيلة"، والمجتمع بكامله. ولم يكن هناك إيديولوجيات، منها ما هو خاص بالعمال، أو بالفلاحين، أو بالموظفين. إن إيديولوجى الغربية أنفسهم، وهم يسخرون من الأفكار الشيوعية حول الطبقات المتصالحة، والمجتمع اللاطبقي، يبشرون بأفكار المصالحة الطبقيّة ووحدة مصالح مختلف فئات السكان. ولهذه المسألة أسس معينة، كما فى الإيديولوجيا السوفيتية أيضاً. ومن المناسب القول إن هذا التبشير هو إحدى وظائف إيديولوجيا الغربية بوصفها إيديولوجيا وحدة المجتمع.

لا تفترض إيديولوجيا الغربية اللاطبقية، كما سبق وأشرت، أن الجميع متفقون معها، أو يتبنونها. فهناك خصوم لهذه الإيديولوجيا، وكثيرون لا يكثرثون بها، بل ولا علم لهم بوجودها. ومع ذلك، فهي تسيطر على وعى الناس عبر قنوات لا حصر لها. ذلك أن الجو الذي يستنشقه وعى الناس هو هواء مشبع بتلك الإيديولوجيا. ويستحيل على من يعيش فى المجتمع الغربى أن يتجنب سلطتها. وبينما تمارس إيديولوجيا الغربية تأثيرها على الأمزجة الفكرية المعادية لها، فإنها تحاربها بضراوة لا تقل عن الضراوة التي حاربت الأديان بها هرطقات الماضى.

## الإيديولوجيا والعلم

لقد ولدت إيديولوجيا الغربية وتشكلت كطموح لخلق فهم علمى لكل ما كان ضمن دائرة اهتمامات الناس الفكرية. وذلك فى مواجهة التعاليم الدينية التي تناولت كل شيء، أى الكون، والطبيعة، والمجتمع، والإنسان، والفكر، والمعرفة. ويظل العلم منبع الإيديولوجيا حتى فى أيامنا هذه. وسوف يبقى كذلك ما عاش، وما دامت الغربية موجودة. ولكن العلم لن يصبح إيديولوجيا. فالإيديولوجيا تلتهم العلم، ولكنها لا تتحول إلى ما تلتهمه هى. إن ثمار "عملية الهضم" عندها شيء آخر غير الغذاء.

إن العلم والإيديولوجيا يختلفان من حيث الأهداف، والطرائق، والتطبيقات العملية. فهدف العلم هو استكشاف العالم، وتحصيل المعارف عنه. إنه يسعى إلى معرفة الحقيقة. أما هدف الإيديولوجيا فهو تشكيل وعى الناس والتحكم بسلوكهم عن طريق التأثير على وعيهم، وليس الوصول إلى الحقيقة الموضوعية. إنها تستخدم معطيات العلم كوسيلة، وتعتمد على العلم، وتتخذ مظهراً علمياً، بل وتحاول الوصول إلى بعض الحقائق، إذا لم يكن غيرها قد سبقها إليها. إلا أنها تكيف الحقيقة وفقاً لأهدافها، وتُخرجها بأنجع طريقة تجعلها أكثر تأثيراً على عقول الناس ومشاعرهم، وذلك وفقاً لمصالح جماعات، أو منظمات، أو طبقات، أو حتى شعوب بأكملها.

إن الإيديولوجيا، شأنها شأن العلم، تستخدم مفاهيم وأحكاماً، وتبنى نظريات، وتنتج تعميمات، وتنظّم موادّ، وتصنّف مواضيع، أى أنها - باختصار - تقوم بالعديد من عمليات الفكر المألوفة فى العلم. ولكن حتّى فى هذه المسألة هناك اختلاف جوهري بينها وبين العلم. فالعلم يتطلّب مصطلحات ممحصّة، دقيقة، محدّدة ولها مدلول واحد. على الأقل هذا ما يسعى إليه العلم. ثم إن الأفكار العلمية تفترض إمكانية الإثبات أو النفي. كما يفترض الفهم العلمى إعداداً متخصصاً ولغة احترافية متميّزة. والعلم عموماً منوط بدائرة ضيقة من المتخصصين. على أن الإيديولوجيا فى حلّ من هذه الشروط كلّها. وليس ذلك بسبب صفات الإيديولوجيين الشخصية، وإنما بسبب ضرورة القيام بالدور المطلوب من الإيديولوجيا. فالعمل على تشكيل وعى جماهير الناس والتحكّم بهم يتطلّب استخدام تعبيرات لغوية تتألف من كلمات فضفاضة، متعددة المعانى، بل وعديمة المعنى، ومن تأكيدات غير قابلة للاختبار ( لا يمكن إثباتها ولا نفيها)، ومن مفاهيم نظريةٍ عرجاء، منحازة. وبينما تقاس قيمة نتائج العلم بمدى تطابقها مع الواقع وقابليتها للبرهان، أى بمعايير الحقيقة، تقاس قيمة نتائج الإيديولوجيا بمدى تأثيرها على وعى الناس، أى بمعايير السلوك الاجتماعى.

ولا تتطابق مناهج الإيديولوجيا والعلم إلا جزئياً. ويبلغ الاختلاف بين معظم تلك المناهج حدّاً يؤكّد وجود نمطين من التفكير مختلفين فى المبدأ، هما النمط الإيديولوجى والنمط العلمى. ويتّسم النمط الأول بالقبليّة، أى بحشر الواقع قسراً فى قالب نظرية قبليّة، وبنتهاك قواعد المنطق (اللامنطق) ومنهجية المعرفة، ناهيك عن انتهاك أخلاقيات العلم. وإليك هذا المثال. فى عام ١٩٩٢ وضعت مجموعة من الاقتصاديين، بناء على تكليف من هيئة الأمم المتحدة، تقريراً مفاده أن البلدان التى تتمتع بمستوى حياة عالٍ يكون مؤشرُ الحرية السياسية فيها أعلى ممّا فى البلدان التى يكون مستوى الحياة متدنّياً فيها. إن هذا "الاكتشاف" بحدّ ذاته عديم القيمة. غير أن هؤلاء "المكتشفين" تمادوا، فاستنتجوا أن سبب الفقر هو النظام السياسى فى البلدان

الفقيرة، والتغلب على الفقر يتعين على هذه البلدان أن تعيد بناء نظامها السياسي الاجتماعي وفق النماذج الغربية. إن هذا الاستنتاج يخالف جميع قواعد منطق العلم ومناهجه. على أن المرمى الإيديولوجي هنا جلي للعيان، إذ كان عند هؤلاء "العلماء" موقف مسبق قسروا دراستهم العلمية المزعومة على التطابق معه. وهذه الأمثلة تعجّ بها مؤلفات عدد لا حصر له من الـ "باحثين" الذين يعملون في دراسة الظواهر الاجتماعية.

إن الاختلاف بين مرامي (أهداف، منطلقات، مهام) العلم والإيديولوجيا يؤدي في المحصلة إلى نتائج متناقضة. فالعلم يصنع فهمنا للواقع، أمّا الإيديولوجيا فتصنع عدم فهم في المبدأ، ولكنه يتشبه بالفهم لا غير. إن الإيديولوجيا تخلق توهمًا بالفهم، تشبهاً به. وليس عدم الفهم في هذه الحالة مجرد غياب للفهم، بل هو وليد قدرة عكسية تتضخم، وتتخذ أشكالاً مبتكرة، وتنمى بطريقة خاصة حتى تبلغ قوة تأثير هائلة على أذهان الناس ومشاعرهم، يمتثلون بها. إنها تُسكت الفهم، وتُلقى به وراء الوعي، ثم تغتصب وظائفه، وتتشبه بالفهم الأصيل.

على أن من يسترشدون بمبادئ العلم لفهم الظواهر الاجتماعية هم استثناء نادر، لا يكاد يكون لهم وجود تقريباً، وأحياناً ينعدم وجودهم تماماً، وهذا ليس مصادفة. فالفهم العلمي للظواهر الاجتماعية يتطلب مستوى عالياً من التحصيل العلمي ومرونة الذهن. ونادراً ما يكافأ صاحبه فتكون المكافأة بخسة (ما لم يكن في خدمة الإيديولوجيا والسياسة)، وهو لا يتفق مع تصورات ضيق الأفق، ولا يكاد يحميه شيء من اعتداء الغباء البشري والثقة الكاذبة بأن التجربة الحياتية تؤهل صاحبها للحكم على وقائع الحياة الاجتماعية.

إن العلاقة بين الظواهر الاجتماعية ومصالح الناس قوية إلى حد يجعلهم يتوهمون أنهم يعبرون عن الحقيقة الموضوعية، بينما هم في واقع الأمر يعبرون عن مصالحهم بعد أن ألبسوها ثوب الحقيقة الخداع. وإلى ذلك كله، فإن الناس لا يحتاجون عملياً إلى الحقيقة، الحقيقة كلها ولا شيء غير الحقيقة التي تخص الظواهر الاجتماعية. بل

يكفيهم الحصول على قطرات من الحقيقة محلولة في سائل إيديولوجي، أما الحقيقة العارية من الظواهر الاجتماعية فتولد الإدانة الساخطة من طرف شتى أنواع الديماجوجيين ودعاة الأخلاق. إن استعداد الناس لقبول الشر أقوى من استعدادهم لقبول الحقيقة العلمية التي تفسر واقعية الشر ودوره الاجتماعي.

إن حقائق العلوم الاجتماعية في شكلها الأولى الصافي وسيلة لإرضاء فضول حُفنة من الأفراد الذين لا يلعبون في المجتمع أي دور ذي شأن. هؤلاء لا يقومون بمهمتهم الاجتماعية إلا بصفة مادة للإيديولوجيا. أما الإيديولوجيا فلها مستتبعات عملية ضخمة. فعليها تتبنى البروباغندا (الدعاية) الهائلة برمتها، وتربية الجماهير وفق الطريقة اللازمة ("التبليد الإيديولوجي")، والتحكّم بالجماهير. فعمل السياسيين، وشتى أنواع الأجهزة السرية، ومؤسسات الدولة والأحزاب والشخصيات الاجتماعية... إلخ. يعتمد تحديداً على معطيات الدراسات الاجتماعية بعد معالجتها إيديولوجياً، وليس على ما تصل إليه هذه الدراسات من نتائج علمية مباشرة. ومرد ذلك أن الإيديولوجيا تنتقى من حقائق ممكنة كثيرة ما تكون معرفته مفيدة على نحو مباشر عملياً، ثم تضيف على ما انتقته من حقائق تأويلاً يوجه عمل الأشخاص المعنيين في الاتجاه المطلوب، ويخضع على هذا العمل المظهر المرغوب، ويبرره أخلاقياً في أعين المعنيين أنفسهم، وفي أعين جماهير الشعب أيضاً.

ونخلص ممّا سبق إلى أن الإيديولوجيا يجب أن تتضمن جملة من المعارف التي يمكن أن تكون علمية إذا ما انتزعت من سياق الإيديولوجيا وخلّصت من قشرها الإيديولوجي. ويجب أن تكون مفيدة بمعنى أن يكون بمقدور بعض الناس، بعد أن يستوعبوا مجمل هذه المعارف، أن يتصرفوا في مواقف معينة وكأنهم يملكون المعارف العلمية الضرورية لذلك.

أما معطيات العلوم الطبيعية فهناك أسباب أخرى "لإعادة هضمها" إيديولوجياً لا تقلُّ قسرية. إن شرائح عريضة من السكان تبدي اهتماماً بمنجزات العلوم. واطّلاعها على هذه المنجزات يتطلب تيسيرها بما يناسب مستوى الناس غير المتخصصين، وهذا

بحد ذاته يعنى تشويهاً لنتائج العلم، وتبسيطاً، وتسطيحاً، وإقحاماً لمجال العلم فى شروحات مجازية غريبة عليه... إلخ. والأهم هو الاضطرار للتعاطى عندئذ مع جماهير من الناس الذين تربواً بطريقة معينة. وللاستحواذ على اهتمام تلك الجماهير يتحول المنورون والعاملون على تيسير العلم إلى محتالين يصفون على نتائج العلم المملة بحد ذاتها مظهراً غير مألوف، ساطعاً، مثيراً، بل وغيبياً أيضاً. وعندئذ لا يبقى من العلم إلا الأسماء، والتلميحات الغامضة إلى ما توصلت إليه من نتائج حقيقية. ويكون الجزء الأساسى من هذا المنتج تشويهاً فظيحاً للحقائق العلمية، أحسن تمويهه تحت وصفه بالعلم "الأصيل"، و"المبدع". وتتخذ هذه التشويهات فى بعض الأحيان مظهراً يعجز حتى أبرع محترفى العمل ذهنى عن التفريق بين ما هو أصيل وما هو زائف فيه، ناهيك عن ضيق الأفق ذوى التفكير الساذج. ذلك ما تعرض له فى القرن العشرين كثير من منجزات المنطق، والرياضيات، والفيزياء، وعلم النفس، وعلم الأحياء. إن كل ما يسمى بـ "الخيال العلمى" هو تزييف لمنجزات العلوم، ويمكن وضعه فى مرتبة واحدة مع ما غشى القرون الوسطى من ظلامية وجهل.

ثم إن عملية تحويل معطيات العلوم إلى وسيلة لخدمة الإيديولوجيا، وإلى غش على حساب العلم هى ظاهرة واسعة الانتشار، يشارك فيها مئات آلاف الناس الذين ينتجون لمئات الملايين من المستهلكين غذاء يعاد اجتراره منذ زمن بعيد. وتجربى فى هذه العملية أشياء كثيرة بشكل عفوى، وبغير وعى. إلا أن العفوية هنا نسبية، لأن من يشاركون فى هذه العملية يدركون ما يتطلبه منهم سوق مستهلكى بضاعتهم، وكيف تنتظر وسائل الإعلام كلية القدرة إلى ما ينتجون، وكيف ينظر إلى إبداعهم من يدفعون لهم المال ويضمنون لهم النجاح. وتتكون لهذا العمل تقاليد، وعادات، ومهاراته، ومدارسه، وقوابله.

أما من يُثبِت بطرق علمية لا غبار عليها أن كل ما هنالك تقريباً من كتابات علمية ميسرة وأعمال أدبية مبنية على أساس استخدام أفكار المنطق، والرياضيات، والفيزياء، وعلم النفس، وغير ذلك من العلوم ليس إلا تعالماً، وأن أفلام وروايات

الخيال العلمي ظاهرة منافية للعلم، ذلك الإنسان لن يجد أذنًا صاغية حتى في الأوساط العلمية نفسها.

إن الفهم العلمي للمواضيع الواقعة في مجال اهتمام الإيديولوجيا كان وسيبقى إلى الأبد عصيًا على مدارك الأغلبية الساحقة من الناس. ولا يتيسر هذا الفهم، ولو جزئيًا فقط، إلا لأفراد استثنائيين تؤرقهم رغبة جامحة بالإفلات من أصفاد الإيديولوجيا، شريطة أن يقوموا بدراسات احترافية مستقلة لتلك المواضيع. وسيبقى ذلك الفهم إلى الأبد مجرد ومضة عابرة في ضباب الإيديولوجيا الذي حُكِمَ على البشرية أن تسير فيه خبط عشواء، تتلمس طريقها جُزافًا، على غير هدى، متوهمة أنه طريقٌ مضاء بنور العقل. وما الأمل بأن تختفى الإيديولوجيا ويحلُّ العلم محلها، إلا أمل ساذجٌ على أقلِّ تقدير.

### إمبريقية أيديولوجيا الغربية

تُستخدم الطرائق الإمبريقية والنظرية في معرفة المجتمع، كما في غير ذلك من مجالات دراسة الظواهر الإمبريقية. ويمكن الحديث عن تناول المجتمع بطريقة نظرية أو إمبريقية تبعًا للطريقة المتبعة في البحث. فقد سادت المقاربة النظرية في القرن التاسع عشر وما قبله، أمّا في النصف الثاني من القرن العشرين فأُمدت السيادة التامة تقريبًا من نصيب المقاربة الإمبريقية التي غدت تجميعًا ومعالجة لما هناك من معطيات إحصائية عن الظواهر التي تتصف بأهمية ملحة، كما غدت استطلاعًا لآراء مواطنين يجري انتقاؤهم بطريقة معينة، وفق استمارات مُعدّة سلفًا، ومعالجة لمعطيات تلك الاستطلاعات.

لن أجادل حول جدوى الطرائق الإمبريقية في حل مسائل معينة. غير أن من الخطأ المبالغة في الاطمئنان إلى أنها كافية وسليمة. ذلك أن نتائجها رهنٌ بأهواء الباحثين والمستطلعين، والمصادفات، والمواقف القبليّة، والافتقارات المنحازة، والأهداف



الدعائية، والوضع السياسي. إذ تغص أخبار وسائل الإعلام، والأدبيات المتخصصة كافة بكمية من المعطيات الإمبريقية تسمح بالحديث عن وجود نوع من الإرهاب الإمبريقي. حتى لتكاد الأرقام، والمقادير، والنسب المئوية، وإفادات المواطنين المختارين، والوقائع المنتقاة تبدو حقيقة دامغة ومقنعة. على أنه ما من شيء يشوه الواقع كالتلاعب بهذه الأرقام والمعايير التي "لا يرقى إليها الشك". وتنشر الأدبيات الغربية كثيراً من الأمثلة على ذلك، ففتحدث سيلفى برونيل<sup>(١١٨)</sup> عن معطيات أكدت في العام ١٩٨٢ أن هناك خمسين مليوناً من البشر يموتون سنوياً بسبب الجوع، في حين أن عدد الوفيات لم يتجاوز ٤٨ مليون شخص سنوياً. كما نُشر في مطلع التسعينيات أن ١٥ مليون طفل يموتون في العالم سنوياً بسبب الجوع، في حين كان مجمل عدد وفيات الأطفال حوالي ٩ ملايين. فالطرائق الإمبريقية لم تصبح طرائق لمعرفة المجتمع معرفة علمية بقدر ما تحولت إلى وسائل لخدمة الإيديولوجيا والدعاية. إنها تختزل معرفة المجتمع بمعلومات عن وقائع متفرقة. ولكن معرفة الوقائع لا تعنى الفهم بعد. فهناك الآن فيض هائل من المعلومات عن الوقائع. وقد بات ذلك عقبة على طريق الفهم، بل وعقبة كأداء يستحيل على غالبية الناس تخطيها. إذ إن وسائل الإعلام تُفرق وعى الناس بأكداً من المعلومات تمنعهم من فهم أي شيء عموماً. وهذا تطبيق لمبدأ: "دعهم يعرفوا كل شيء، دون أن يفهموا شيئاً".

### ذاتية إيديولوجيا الغربية

يتألف المجتمع من بشر يتمتعون بالعقل، والإرادة، والقدرة على تحديد الأهداف والعمل على تحقيقها، بالقدرة على تخطيط أعمالهم وتوقع نتائجها. وباختصار، يتألف من بشر يتمتعون بما يمكن أن نسميه بـ العامل الذاتي. وتتصف

---

(118) Sylvie Bruneil. La Tragedie Banalisee. Paris, 1991. 118

إيديولوجيا الغربية بأنها تبالغ في تضخيم هذا العامل، والإشادة بدور بعض الشخصيات، وخاصة الشخصيات السياسية. يكفي أن تدخل أي محل لبيع الكتب لترى جميع الرفوف مثقلة بكتب عن شخصيات بارزة، ويكتب هذه الشخصيات البارزة نفسها! وما إن تفتح التلفزيون حتى تطالعك وجوه شخصيات تكون موضع انتباه لأمحدود، أو يطرق سمعك سيلٌ كلام يتدفق من أفواه من يفترض بهم أن يكونوا محرك عجلة التاريخ.

كان الغرب يسخر من عبادة بعض الأشخاص في البلدان الشيوعية، في حين أن هذه العبادة موجودة في الغرب أكثر مما كانت في البلدان الشيوعية بمئات المرات. إذ لا يكفون في الغرب عن صنع عبادة أشخاص عاديين تماماً، بينهم رؤساء، ورؤساء حكومات، ومستشارون، وجنرالات، وأساتذة، وممثلون سينمائيون، ورياضيون، بل ومجرمون أيضاً. فهناك قطاع صناعي كامل لإنتاج "الأفذاذ" (النجوم) يبلغ من القوة ما يمكن من وصف المجتمع الغربي بأنه مجتمع طقوس وعبادات. على أن ذلك ليس من باب إنصاف الناس وتثمين أعمالهم، وإنما هو عمل إيديولوجي لتبليد جماهير السكان. فلا تمضي دقيقة واحدة إلا ويحشون فيها رؤوس الناس عبر قنوات لا يحصى عددها بما معناه أن مجتمعهم وتطوره ليسا إلا ثمرة جهود هؤلاء الأفذاذ.

وإلى جانب العامل الذاتي ثمة في حياة المجتمع عامل موضوعي لا يتوقف على العقل، والإرادة، والرغبة، والنوايا، والخطط، وقرارات الناس، بمن فيهم جميع الأفذاذ. ولكن إيديولوجيا الغربية تقلل من قيمة جوهر الدور الذي يلعبه هذا العامل الموضوعي، وتتجاهله وتزيّفه.

ومع ذلك فإن حضور العامل الموضوعي ودوره لا يقلان وضوحاً عن العامل الذاتي. إذ يشارك في الحياة الاجتماعية عدد هائل من الظواهر، وليس كل شيء خاضعاً لإرادة الناس، فتسفر أعمالهم عن عواقب غير متوقعة. إن عددهم كبير ومقاصدهم متنوعة. والنتيجة الإجمالية للأفعال لا تتطابق دائماً مع ما يطمح إليه بعض المشاركين في العملية التاريخية. فالناس يخطئون في حساباتهم، وقدراتهم على التنبؤ

بتلك الأخطاء محدودة. إنهم يفكرون بالنتائج القريبة لأفعالهم، ولا يتمعنون دائماً بعواقبها البعيدة. زد على ذلك أن تصرفات الناس ليست كلها محددة الأهداف وتتنبأ بالنتائج. بل كثير من تلك الأفعال ألي، يشبه عمل الآلات، أو الحيوانات. وخلاصة القول، هناك كثير من الأسباب التي تخلق تشابهاً في الملامح بين سيرورة حياة الناس بمجملها والسيرورة الموضوعية في الطبيعة.

إن ما قلناه لا يحيط بالعامل الموضوعي كله، وينبغي أن نضيف إلى ذلك أن الحياة الاجتماعية تجري وفقاً للقوانين الاجتماعية الموضوعية التي لا تخضع لإرادة الناس. ويسود في إيديولوجيا الغربية يقين بأن حياة المجتمع لا تنطوي على أية قوانين موضوعية شبيهة بقوانين الطبيعة. وهذا اعتقاد باطل؛ لأن القوانين الاجتماعية في حياة الناس والمجتمعات البشرية هي ذلك الشيء الذي له صلة بالضرورة، بل وبمعزل عما إذا كان الناس يعون هذه القوانين أم لا، يساعدون على ظهورها أم يحولون دونه. وبهذا المعنى لا تختلف الظواهر الاجتماعية عن ظواهر الطبيعية من حيث المبدأ.

وكمثال على ذلك، ساقارن بين واحد من قوانين الميكانيكا عند نيوتن وواحد من أبسط القوانين الاجتماعية. ويمكن تسجيل قانون نيوتن في شكل واضح منطقياً على النحو التالي: "إذا لم تؤثر على الجسم أي قوى خارجية (هذا هو الشرط X) فإنه يحافظ على حالة السكون أو حالة الحركة الرتيبة في خط مستقيم (Y) وإذا ما أخذنا بالافتراض Y بمعزل عن X كان كاذباً، لأننا نستطيع أن نقدم ما نشاء من الأمثلة التي تبين أنه لا يحتفظ بالحالتين المذكورتين. وكذلك الافتراض X لا يتحقق أبداً في الواقع بدقة مطلقة، بل دائماً يكون تحققه تقريبياً ونسبياً إلى هذا الحد أو ذاك. وقد تطلب اكتشاف هذا القانون من نيوتن أن يقوم بتجربة ذهنية يقبل فيها بالشرط X، ثم يصل إلى Y عن طريق المحاكمة المنطقية.

فلنتصور الآن الوضع التالي. هناك إنسان يبحث عن عمل فتواجهه مشكلة الاختيار بين مكانين متساويين في كل شيء إلا الأجر، أي أن أحدهما يدفع له مقابل

العمل نفسه أجراً أعلى. فأى المكان يختار إنسان سوى قادرٌ على الاختيار ومحتاجٌ إلى وسائل العيش؟ واضح أنه سيختار المكان الأعلى أجراً. إنه في هذه الحالة يتصرف وفقاً للقانون الاجتماعي الذي يقول: إذا وجدَ إنسانٌ سوى نفسه أمام خيار بين عرضين متساويين في كل شيء إلا في نقطة واحدة، فإنه يفضل ما كان منهما أجدي له من ناحية تلك النقطة.

على أنه لا وجود في الواقع مطلقاً لعرضين متساويين تماماً في كل شيء إلا في نقطة واحدة. لأن هناك عدداً كبيراً من العوامل التي تؤثر في الواقع، كجهل الناس بواقع الحال، والعلاقات الشخصية، والخداع، والدعاية، وتغيرات الوضع، والتقاليد، وحساب اعتبارات كثيرة، والخطأ في الحسابات. ومع ذلك يظل القانون المذكور ثابتاً، ساري المفعول كإحدى نزعات السلوك البشري، بل وبين مجمل تصرفات الناس.

ليست القوانين الاجتماعية مبادئ أخلاق، ومعايير حقوقية، وبالعكس، مع أن الناس وهم يضعون معايير الأخلاق والحقوق يتأثرون على نحو ما بالقوانين الاجتماعية دون أن يعرفوا عنها شيئاً عادة. وعندما يتحدث السياسيون والشخصيات الاجتماعية من كل نوع عن تغيير المجتمع وتنظيمه على أساس مبادئ الأخلاق والقانون، يكون حديثهم هراء.

يستطيع الناس ألا يكتراثوا ببعض القوانين الاجتماعية، فيتصرفون وكأنها غير موجودة. ولكن ذلك لا يعني أن هذه القوانين عديمة المفعول. وإذا كان الناس كثيراً ما يتجاهلون قوانين الطبيعة ولا يحسبون لها حساباً، فإن ذلك لا يلغيها، ولكنهم ينالون العقاب عليه بهذا الشكل أو ذاك. وكذلك الأمر بالنسبة للقوانين الاجتماعية. فتاريخ البشرية مليء بأمثلة من هذا النوع، وخاصة في القرن العشرين الذي يُعدُّ ذروة تطور العقل البشري. إن جميع المشكلات الكونية الأساسية التي بدأ الحكام ورجال الأعمال في الغرب يفكرون بها الآن فقط، كانت نتيجة ازديادهم القوانين الاجتماعية.

يتحدث من يكتبون في المواضيع الاجتماعية عن علل المجتمع، ويفتشون عمّن هو السبب فيها. فيرى بعضهم مصدر الشر في الديكتاتوريين والطفاعة، وبعض آخر في الرأسماليين والإقطاعيين، وبعض ثالث في الأحزاب والتنظيمات، كأحزاب النازيين، وأحزاب الشيوعيين، وأجهزة أمن الدولة، وبعض رابع يرى مصدر الشر في التقدم الاقتصادي والتكنولوجي، وبعض خامس في تزايد عدد السكان المفرط، وهناك أخيراً من يراه في الإيديولوجيا. وما من أحد يشير إلى القوانين الاجتماعية الموضوعية كواحد من مصادر شرور البشرية وطفاعاتها. إن البشرية لن تتخلص يوماً، ولا في أى ظرف من الظروف، من هذه الشرور وهؤلاء الطفاعة. فعندما يغير الناس ظروف حياتهم يتخلصون من هذا النوع من الطفاعة، ولكنهم بحكم الضرورة يقعون تحت سلطة طفاعة آخرين، أشدّ ظلماً أحياناً. فليس في العالم، ولن يكون فيه يوماً، مجتمع مثالي يسوده الرخاء العام، غير أن ذلك ليس بسبب الأشرار، وإنما بقوة قوانين الوجود الموضوعية.

هناك رعب غامض إزاء فهم القوانين الاجتماعية، لأن ذلك الفهم لا يمنح الناس أملاً بالأحسن، مقدار ما يحمل إليهم من استنتاجات متشائمة بخصوص المستقبل. زد على ذلك أن السيطرة الإيديولوجية لا تدع جميع القوانين التي يمكن اكتشافها من حيث المبدأ تصل إلى درجة الاعتراف العام بها كقوانين اجتماعية. ذلك أن الإيديولوجيا تفرض على الناس شيئاً آخر تسميه قوانين اجتماعية. وهذه الأشياء الشبيهة بالقوانين الاجتماعية تملأ مجمل المجال الكلامي المتعلق بالسياسة، والاقتصاد، وبنمط الحياة الغربي عموماً. والمدعش هو أن علماء الاجتماع الذين ينكرون القوانين الاجتماعية الموضوعية كثيراً ما يقدمون أمثلة رائعة على وجود هذه القوانين. والمثال البارز في هذا الصدد هو ماكس فيبر الذي قدّم وصفاً باهراً لظاهرة البيروقراطية بوصفها ظاهرة تنبئ وفق قوانين اجتماعية من نوع خاص في هذا المجال.

إن وجود العامل الذاتى لا يلغى مفعول القوانين الاجتماعية الموضوعية، لأن هذا العامل هو بحد ذاته ظاهرة موضوعية، ومفعول القوانين الموضوعية يسرى عليه أيضاً.

## إيديولوجيا الغريبة المعادية للديالكتيك

لقد اكتُشِفَ الديالكتيكُ فى الغرب، بل وقبل ظهور الماركسية. ولكن هيجل، وهو من قدم أكبر إسهام فى الديالكتيك، أضفى عليه صبغة صوفية غيبية. وعندما تسلح ماركس بالديالكتيك فى أبحاثه، لم يعطه وصفاً منهجياً، واكتفى بإبداء ملاحظات متفرقة حوله. أما رفيق دربه إنجلز فقد عدَّ طريقة التفكير الديالكتيكي عند ماركس "تغزلاً ب هيجل". على أن إنجلز هو أول من بسط الديالكتيك بطريقة مبتذلة، حين أعطاه شكل تعاليم عن قوانين الوجود العامة. وبذلك أفرط فى تعميم الديالكتيك حين جعله يشمل مجالات المعرفة (حتى الرياضيات!)، فأفقدته معناه، وأبعده عن مجال الظواهر الاجتماعية حيث كان فى مكانه. أما أتباع ماركس فقد ربطوا الديالكتيك بالنضال السياسى، وأدلجوه، وصوروه سلاحاً للبروليتاريا. وفى الاتحاد السوفيتى باتت نظرية الديالكتيك فى شكلها المبتذل جزءاً من الإيديولوجيا الرسمية. والحال، فلا عجب فى أن يكون قد نشأ فى الغرب موقف سلبي إزاء الديالكتيك.

إن الاستخفاف بالديالكتيك من قبل الباحثين الغربيين فى مجال الظواهر الاجتماعية مسألة لا يقبلها العقل. فالظواهر التى يدرسونها تصرخ بأعلى صوتها أنها لا تعيش وفق الوصفات والدعوات التى يطلقها الساسة، والإيديولوجيون، ودعاة الأخلاق، وإنما وفق القوانين الموضوعية التى كانت تسمى فيما مضى بقوانين الديالكتيك التى تتضمن صراع الأضداد، وانشطار الواحد إلى اثنين، وقطبية الأجزاء، وتحوّل الظواهر إلى ضدها لتعود إلى حالتها الأولى فى مستوى جديد ("نقى النقى")، وتحوّل التغيرات الكمية إلى تغيّرات نوعية... إلخ. أمّا الباحثون فإنهم - خوفاً من

رميهم بتهمة احترام الديالكتيك - يفعلون كل ما فى وسعهم لكى لا يلتفتوا إلى ديالكتيك المواضيع الاجتماعية الواقعى، ويؤلفون كتباً سطحية، متخمة بالتصنيفات والتعريفات "البيروقراطية".

إلا أن طريقة البحث الديالكتيكي (طريقة التفكير) لا تكتفى بـ "قوانين الديالكتيك" المعروفة، بل تتضمن جملة معينة من أساليب التجريب الذهني التي سماها هيجل وماركس طريقة الارتقاء من المجرّد إلى الملموس. وقد سبق لى أن قدّمتُ فى أطروحتي ما بين سنوات (١٩٥١ و١٩٥٤) وصفاً منهجياً لهذا الأسلوب، ولكنه جُوبه بموقف عدائى فى الفلسفة السوفيتية، وأحيلت الأطروحة إلى خزانة المخطوطات الممنوعة لتظلّ هناك حتى الآونة الأخيرة. وأنا على يقين من أن هذا الأسلوب قادر على أن يغدو جليل الفائدة فى وصف ظاهرة الغريوية. على أن كتاب ماركس "رأس المال" لا يزال نموذجاً فريداً فى تطبيق هذا الأسلوب حتى الآن.

## الإيديولوجيا والواقع

منذ أيام نابليون الذى كان يزدري الإيديولوجيا والإيديولوجيين، بدأ تقليد ينظر إلى الإيديولوجيا على أنها انعكاسٌ للواقع كاذبٌ ومشوّه. وكثيراً ما نجد فى المعاجم وقواميس المصطلحات تعريفاً للإيديولوجيا بأنها تعاليم كاذبة. إننى أرفض هذه النظرة إلى الإيديولوجيا. ولكننى رغم ذلك لا أريد القول إن الإيديولوجيا تعطينا صورة الواقع الحقيقية. فهذا القول كاذب أيضاً. وهناك احتمال ثالث، هو أن الإيديولوجيا ليست صادقة، وليست كاذبة. وعموماً لا يجوز النظر إليها من ناحية الصدق والكذب، والصواب والخطأ. إننا إذا ما اجتزأنا مقاطع معينة وأخذناها بمعزل عن غيرها، أى خارج مجالها الإيديولوجي وحصرها من حيث علاقتها بالواقع، فإنها قد تكون صادقة، وقد تكون كاذبة. أمّا تطبيق معايير الصدق والكذب على الإيديولوجيا ككل، فإنه كالنظر إلى لوحات بيكاسو وكاندينسكى وأمثالهما من رسامى القرن العشرين من وجهة نظر تطابقها مع ما يُزعم أنه واقعٌ تُصوره.



ينبغي النظر إلى الإيديولوجيا وأجزائها وفقاً لمعايير قوة تأثيرها على ذهنيات الناس، وأمزجتهم، وسلوكهم. على أن صلة أطروحات الإيديولوجيا بالواقع ليست مباشرة، وإنما هي صلة غير مباشرة، أى أنها تظهر على شكل عوامل فى سلوك الناس وتجمعاتهم، وصولاً إلى بلدان وشعوب بكاملها.

إن الإيديولوجيا تشوّه الواقع، ولكنها فى الأساس لا تفعل ذلك بسبب الحماقة والنوايا السيئة، بل بسبب دورها ووسائل القيام بهذا الدور، أى وسائلها التعبيرية. فعلى هذا الأساس، المتين الوحيد من الناحية الأخلاقية، تتطور عملية تشويه الواقع عمداً، ومنظومة الأساليب المناسبة لذلك. وهنا تتحول الإيديولوجيا إلى دعاية، ويبدأ أصحاب الاختصاص يهيمنون فى مجال الإيديولوجيا مستعدين للترويج لأى خطة دعائية مقابل ما تغدقه عليهم مهنتهم ومكانتهم فى المجتمع من خيرات، وانطلاقاً من اعتبارات أنانية ووصولية. ويتساوى فى هذه الحال أتباع مؤسسى الإيديولوجيا الشيوعية الذين غدوا جيشاً جراراً من الأذئاب التبع اللامبديين، وأقزام الفكر وعبيد المصالح المجرّدون من الأخلاق فى ظلّ إيديولوجيا الغربية الذين لا يقلّون عن ورثة ماركس تجسداً لهذه الصفات، وأصبحوا الورثة الشرعيين لمؤسسى إيديولوجيا الغربية العظام. على أن هذا ليس انحطاطاً، بل هو نتيجة تطور طبيعى تاريخى عادى للمجال الإيديولوجى ذاته، تحكمه قوانينه الموضوعية.

نشأت إيديولوجيا الغربية فى إطار المجتمع الإقطاعى كحلم بأفضل نظام اجتماعى ينسجم مع ما ظنّ أنه طبيعة فطر عليها الإنسان، ومع ما سُمى حاجات وحقوقاً فطرية للإنسان. وعندما أخذت الغربية تحقق لنفسها وضعاً مهيماً فى المجتمع تبين أنها لا تأتى معها بالخير فقط، بل وتأتى بالشر أيضاً. وظهرت الحاجة إلى الدفاع عما تمّ تحقيقه، وإلى تصحيح العيوب، أى الحاجة إلى تمجيد الغربية، فأخذ المجال الإيديولوجى على عاتقه هذه المهمة.

إن تمجيد النظام الاجتماعى ليس شيئاً سلبياً جديراً بالإدانة الأخلاقية. فهو وسيلة طبيعية تماماً لحفاظ المجتمع على نفسه، تشبه من هذه الناحية المعايير

الحقوقية، والمحاكم، والشرطة، والجيش، والبيروقراطية، ولكن ينبغي الاعتراف بأن التيار الأقوى في الغرب حتى أواسط القرن العشرين لم يكن تمجيداً للغربوية، بل نقدها. فقد كانت الأفكار الاشتراكية وحتى الشيوعية التي تكشف فساد الرأسمالية هي الأكثر رواجاً. ثمة أسباب عديدة تفسر هذه الحالة الفكرية في المجتمع الغربي، ومنها أن الديمقراطية الغربية نفسها أوجدت ظروفًا ملائمة لازدهار الميول النقدية، بل والأمزجة الفكرية المناهضة للغربوية. ثم إن الغربوية كانت قد بدأت للتو تاريخها الظافر، وكانت واثقة بنفسها. وعندما صارت الأخطار على وجودها واقعية (بدءاً من عام ١٩١٧)، صار تمجيدها مهمة ملحة تقع على عاتق إيديولوجيتها ودعايتها.

ومع بداية تسعينات القرن العشرين أصبح واضحاً للعيان أن الغرب حقق انتصاراً تاريخياً على الشيوعية العالمية. فاكسب تمجيد الغربوية أسساً جديدة تتمثل بفرحة النصر والأمل بالمستقبل، وهباً في الغرب إعصار حقيقي من المديح لكل ما هو غربي، والانتقاص من كل ما هو شيوعي. ولم يسبق لتمجيد الغربوية أن كان من قبل بهذا القدر من الإفراط والتضخم، وبهذه الصراحة الكليبية السافرة. وكان هناك بين المفكرين من أعلن أن الرأسمالية والديمقراطية، وخاصة في صيغتهما الأمريكية، هما الهدف النهائي لتاريخ البشرية. بل وأعلنوا أن هذا الهدف قد تحقق، وعدوا ذلك خاتمة، وحتى نهاية للتاريخ أيضاً<sup>(١١٩)</sup> ورفعت وسائل الإعلام الجماهيرى هذا الهراء الدعائى عالياً فعدته ذروة العقل البشرى. غير أن الإيديولوجيا الشيوعية كانت حتى عهد قريب تعلن أن المجتمع الشيوعي هو ذروة التقدم وهدفه النهائي، وكان ذلك موضع استهزاء الغرب. أما الآن فقد استعارت الغربوية هذه التبجحات الهوسية من خصمها المهزوم.

من السخف إدانة الإيديولوجيا على كونها ترسم الواقع في صورة متحيزة وغير صحيحة، ذلك أنها تقوم بواجبها ليس إلا. فما كان للإيديولوجيا أن تحقق

---

(119) Francis Fukuyama. Das End der Geschichte, Munchen, 1992.

نجاحاتها في صراعها ضد الشيوعية لو أنها ركزت الانتباه على منجزات الشيوعية، كالقضاء على البطالة والفقر، وتلبية الحد الأدنى من حاجات المواطنين كافة، ومجانية التعليم والرعاية الصحية... إلخ، وبالغت في تضخيم الصفات السلبية وهي تصف نمط الحياة الغربي. فقد تعاملت الدراسات الغربية الخاصة بالنظام السوفيتي بطريقة سلبية متحيزة جملة وتفصيلاً إزاء الشيوعية، وبطريقة إيجابية متحيزة تماماً إزاء المجتمع الغربي. ولهذا السبب تحديداً اتخذها الغرب سلاحاً فعالاً في "الحرب الباردة" ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعية العالمية عامة. ولو أن الغرب تسلح، بدلاً من ذلك، بموقف علمي صارم إزاء المجتمعين الشيوعي والغربي، لما حقق مثل هذا النجاح.

كان تمجيد الغربية بحاجة إلى صورة العدو الذي من شأنه أن يشكل خطراً على المجتمع الغربي، بحيث يبدو هذا المجتمع بالمقارنة مع ذلك العدو وكأنه الجنة على الأرض، أو على الأقل المجتمع الأفضل بين جميع النظم الاجتماعية الممكنة. وقد قدم التاريخ لإيديولوجيا الغربية "هدية" ثمينة عندما قام نظام اجتماعي شيوعي واقعي في روسيا عام ١٩١٧، فمنذ ذلك الحين راحت معاداة الشيوعية تتحول إلى عنصر جوهري من عناصر الغربية.

## القيم الحياتية

القيم الحياتية هي ما يعدّه الناس ذا أهمية في حياتهم، ما يمثل أهداف نشاطهم ودوافعه، ما يحلمون به ويطمحون إليه، وما يشكل بلوغه مغزى حياتهم. وتتضمن الفلسفة الغربية مذهباً مستقلاً يدرس القيم، ويسمى "أكسيولوجيا" (أو نظرية القيم)، يُعدُّ كانط أول من مهد له. وأول من قدم عرضاً مستفيضاً لهذه النظرية هو ر. غ. لوتسه (أواسط القرن التاسع عشر)، ثم ساهم في صياغتها كلٌّ من ريكييرت، وويندلبان، وهوسيرل، ووندت، وبرينتانو، وشيلر وغيرهم من المفكرين المتفاوتي

الشهرة<sup>(١٢٠)</sup>، لن أخوض في مضمون هذا الجزء الشديد الإملال من أجزاء الفلسفة الغربية، وسأكتفى بعرض موجز لأفكارى اعتماداً على متابعتى الشخصية لظواهر جليلة للعيان فى الحياة الغربية والسوفيتية.

يمكن النظر إلى القيم الحياتية وفقاً لكثير من التصنيفات. فهناك القيم الأساسية (الأولية)، والفرعية (الثانوية)، والفردية، والاجتماعية، والواقعية، والرمزية، والطبيعية، والاصطناعية. وهذه التصنيفات لا يلغى بعضها بعضاً، ولذلك يمكن أن تكون عناصر واحدة موجودة فى تصنيفات مختلفة. وتشتمل القيم الفردية الأساسية على حاجات الناس الطبيعية إلى الغذاء، واللباس، والسكن، والأسرة، والتواصل، والصحة، والترفيه، والراحة... إلخ، وعلى وسائل تلبيتها. وتبين التجربة أن هذه القيم ليست دائماً على قدر كاف من الوضوح. فالناس يعتادون عليها وكأنها شىء بديهي، مثلما يعتادون على هبات الطبيعة، سيما وأنهم، فى العادة، لا يلغون بالأى الثمن الذى يدفعونه مقابل تحقيق هذه القيم، وإلى الوسائل التى تتحقق بواسطتها. والناس أحياناً يعترفون عمداً عن فهم هذه الوسائل، لأن الثمن الذى تقتضيه منهم كثيراً ما يكون أعلى من ثمن ما يحصلون عليها بفضل هذه الوسائل. فلو كان هناك، فرضاً، من يشرح للمواطنين فى الغرب بانتظام الطريقة التى يحصلون بواسطتها على هذه النعم فى الحياة، والثمن الذى يدفعونه مقابلها، لخبأ بريق هذه النعم فى أعينهم إلى حد كبير.

على أن إحدى مهام الإيديولوجيا تكمن فى جعل الناس يعرفون ما هى القيم التى يتمتعون بها أو بوسعهم التمتع بها فى مجتمعهم، وما السبب. وبديهي ألا يكون هذا التوضيح من منظور العلم الموضوعى، وإنما من منظور إيديولوجى، أى بإضفاء صفات مثلى على القيم ذاتها، وعلى طرق تحقيقها سواءً بسواء.

---

(120) O.Kraus. "Die Werttheorien" 1937.

F.J.V. Rintelen. "Values in European Thought" (1972).

كل الناس يعرفون القيم الفردية التي لا تكفّ الإيديولوجيا الغربية عن ترويجها وكيل المديح لها. إنها قيم الثروة، والسلطة، والشهرة، والمهارة، والملكية، والرفاه، والنجاح، والقوة، والصحة، والمتعة، والعمل الحر (البنس)، والحرية، والحق... إلخ. وقد بلغ تمجيد هذه القيم ذروة العريضة أواخر "الحرب الباردة"، عندما راح الغرب يمجّد كل ما كان يُعدُّ، على مدى قرون عديدة، عيوباً وتجلياتٍ لأسوأ الصفات في طبيعة البشر.

إنّنى لا أعدّ ذلك انحرافاً عن معايير الغربية. بل بالعكس، ففي هذه العريضة تحديداً أفصحت معايير الغربية عن نفسها بعد أن تحفّظت وتقتنعت زمناً طويلاً نتيجة جملة من الظروف التاريخية. لقد كانت قيم الغربية موضع نقد ضارٍ على مدى مئة عام بوصفها عيوباً للرأسمالية، أى أن الإيمان بهذه القيم كان قد تزعزع قبل أن يتاح له أن يتوطّد. وأعتقد أن التجربة السلبية التي تكشّفت عنها الاشتراكية القومية، والنازية، والشيوعية، فتحت الطريق أمام الناس الغربيين نحو إدراك وتثمين القيم التي أنتجها نظامهم الاجتماعي. ولكن هذه العملية لم تكن عفوية، وإنما نظّمها، وتزعمها إيديولوجيون محترفون، ذلك أن الإيديولوجيا على وجه التحديد هي التي اجتزأت ما في المجتمع الغربى من قيم مميّزة، وقررت أن هذه القيم هي ثمرة الرأسمالية والديمقراطية.

إن إدراك جمهور السكان قيم الغربية وتقبُّله إياها ليسا عملية واحدة. ذلك أن الناس يتعبون من الدعاية، على نحوٍ أو آخر، وتتطور أمزجتهم الانتقادية، وسرعان ما يعتادون ما يملكون، وينسون ما هم مدينون به لما يملكون. وإذا ما تردّت ظروف حياتهم يشرعون بإلقاء أسباب ذلك على أسس مجتمعهم. وباختصار، فإن حالة عقول الناس ومشاعرهم عرضة لتأثير كثير من العوامل. ومهمة الإيديولوجيا هي الحفاظ بشكل دائم على حالة المجتمع الفكرية السيكولوجية الضرورية، وخلق مناعة عند الناس، والحفاظ عليها ضد كل التأثيرات المعادية للغرب، وحشو الرءوس يوماً بعد يوم بمنظومة القيم الغربية ذات الخصوصية. وأخيراً فهم الغرب في زمن "الحرب الباردة"

أن هذا العمل الذى تقوم به الإيديولوجيا يجب أن ينظم على مستوى الدولة، بل  
وكعنصر فعال دوماً ضمن منظومة إعادة إنتاج المادة البشرية.

إن القيم الفردية هى ما يسعى إليه الناس طوعاً، فهم يتعطشون للحصول عليها،  
بل ويضطر المجتمع إلى كبح الناس فى اندفاعهم هذا بقوة السلطة، والقانون، والرأى  
العام، وغير ذلك من الوسائل. أمّا القيم الاجتماعية فهى مرتبطة بمصالح المتحدات  
البشرية، وبواجبات المواطنين إزاء هذه المتحدات. على أن من يسعون طواعية وبنزاهة  
إلى هذه القيم فهم أفراد قليلون يغرّدون خارج السرب. هذه هى القاعدة العامة.  
والناس يتطلّعون إلى هذه القيم بشوق إذا كانوا يكافأون على ذلك شخصياً بسلطة،  
أو ترقية فى الوظيفة، أو ثروة، أو وسام، أو شهرة، أو مغريات فى الحياة والعمل. وفى  
سبيل الحصول على ذلك كله يدور صراع لا يقل ضراوة عن الصراع من أجل الوصول  
إلى القيم الفردية. تنقسم القيم إلى طبيعية وأخرى مصنعة. فالأولى تولد من تجربة  
الحياة وتتعزيز بها. فيما تنشأ الثانية نتيجة السعى إلى الحد من النتائج السلبية التى  
تولدها الأولى. على أن هذه القيم يخترعها أفراد من الجنس البشرى، ثم يفرضونها  
على الآخرين عن طريق الوعظ، والدعاية، وحتى العنف. وهى تشتمل على القيم  
الأخلاقية والروحية أيضاً. إن الهدف من اختراعها هو الحد من التجليات السلبية التى  
تتخذها الطبيعة البشرية، وتلطيف القيم الطبيعية وإخفاء جواهرها، ومنح تعويض  
ومواساة لمن لا ينال من القيم الطبيعية إلا قسطاً ضئيلاً للغاية. على أن الناس لم  
يستقبلوا هذه القيم بالأحضان، ولا بابتهاج عظيم. فقد لجأت الكنيسة المسيحية  
والسلطة إلى ارتكاب أعمال بالغة القسوة لكى ترتقى بالمستوى الأخلاقى لجماهير  
السكان ولو قليلاً.

إن أهم قيمة من القيم الفرعية هى المال، وكل ما يمكن تحويله إلى مال، وما  
يجلب المال. فالمال قيمة شاملة، أى أنه رمز، وادّخار وإمكان لتحقيق أى قيم كانت.  
وابتداء من نقطة معينة يغدو المال قيمة بحد ذاته، ويضفى طابعاً مشوّهاً بالكامل

على مجمل منظومة القيم. ولعلّ ما كُتب وقيل حول هذا الموضوع أكثر مما ناله أى موضوع اجتماعى آخر. وأنا هنا لا أستعمل كلمة "مشوّه" بالمعنى الوعظىّ السلبى، بل أستعمله لوصف التطور العادى الذى تمرّ به فى الحياة الاجتماعية تغيراتٌ ظواهر هذه الحياة بالذات.

والقيمة الفرعية الثانية التى تنافس المال هى السلطة على الآخرين. والقيمة الثالثة هى الشهرة. وقد كُتب وقيل حول هذين الموضوعين أيضاً ما فيه الكفاية وأكثر.

وكما فى المجال العملىّ الذى تكون الغلبة فيه للاقتصاد الرمزيّ والفرعى، مقابل الاقتصاد الحقيقى والأساسى، كذلك فى مجال القيم، تكتسب القيمة الرمزية والفرعية أهمية طاغية. وينتج عن ذلك تشويه يشمل مجمل منظومة المعايير التى يقيم بها النشاط البشرى. ويصبح الممثلون الذين يلعبون دور شخصيات تاريخية فذة أكثر شهرة وشعبية من هذه الشخصيات بالذات. وكذلك من يقومون بعزف أعمال الآخرين الموسيقية يصبحون أشهر من مؤلفيها، ويكسبون أكثر منهم. أمّا الراقصون، والملاكمون، ولاعبو التنس، والمغنون، وسواهم من محترفى اللهو والترفيه فيتصدرون المشهد تاركين الأماكن الخلفية لعظماء العلماء والمخترعين. كذلك تغدو الإجراءات البرلمانية بشأن سن القوانين أهم من القوانين نفسها. والأعاصير التى تثيرها وسائل الإعلام الجماهيرى تلقى ظلاً كثيفاً على الأحداث الحقيقية التى تكون المحرك لها. ومختصر القول، يبدأ الناس ينظرون إلى الظواهر الاجتماعية الفرعية على أنها أهم من الظواهر التى هيأت لها فرصة الظهور كعوامل مساعدة، وتبدأ قيم الظواهر الفرعية تفرض نفسها كقيم أعلى مستوى من القيم الأساسية. وعندئذ يجد من يخلقون القيم الأساسية ذاتها أنفسهم فى أكثر الأوضاع مدعاة للثناء، بينما يكون من يتمتّعون بملذات الحياة على حسابهم فى أحسن حال. على أن هذه معادلة قديمة قدم العالم. وليس ثمة خلاص من "جور" قوانين الوجود الاجتماعى. فكلّ امرئ ينال ما يسعى إليه.



## انهيار قيم الشيوعية

عرف العالم عدداً غير قليل من الناس الرائعين الذين اخترعوا منظومات بديعة من القيم، مفترضين أن الناس ما إن يتمثلوها حتى يغدو العالم جنّة على الأرض، وأمثال هؤلاء الناس يظهرون في أيامنا أيضاً، وهيهات أن ينقرضوا في المستقبل، غير أن التجربة التاريخية بيّنت أن ذلك لم يسفر عن أى شيء حسن، فقد جرت في روسيا طيلة أكثر من سبعين عاماً محاولات لحقن الناس بمنظومة مُتلى من القيم، واستخدم من أجل تحقيق هذا الهدف كل جبروت الدولة والجهاز الإيديولوجي، ولم تكن المسوّغات معدومة، وبالفعل منح المجتمع الشيوعي ملايين الناس نمط حياة كان أساساً حقيقياً لمنظومة قيم راقية، بل ويمكن القول إنها قيم سامية تفوق في تصور دُعائها تلك القيم التي عدّوها قيماً مبتذلة وخسيسية (مادية). ومن هذه القيم، مثلاً، التعليم، وتمكين المرء من تحسين موقعه في الحياة وفقاً لقدراته الشخصية، والعمل البطولي، والسلوك اللائق ضمن جماعة العمل، وكذلك تحصيل ثقافة، ومعارف، ومهنة، والتمتع باحترام وتقدير في المحيط، ثم خدمة الشعب والبلاد، والتضحية بالنفس في سبيل مصالح الجماعة، والتحكم بالرغبات، وقد كان لهذه المنظومة من القيم الرفيعة عدد كبير من الأتباع الذين يعود لهم الفضل في اجتراح ما لا يحصى من المآثر، وهكذا نشأت شريحة من الشخصيات المثقفة والإبداعية التي لم تسع وراء النجاح المادّي والارتقاء في المناصب، لقد رضى هؤلاء بالقليل، وفضلوا القيم السامية، والأخلاقية، والروحية... إلخ. غير أن محاولة تربية إنسان نموذجي جديد على نطاق جماهيري، أى على نطاق مجتمع يضم ملايين كثيرة من البشر، انتهت إلى الفشل، فقد تبين أن واقع المجتمع السوفيتي أقوى من نوايا السلطات والإيديولوجيين، ذلك أن أغلب الناس كانوا ينظرون إلى منظومة القيم المُتلى المفروضة عليهم من فوق نظرة قبول شكلي وسطحي، تظاهراً لا غير، بينما كانت تتغلغل عميقاً في النفوس منظومة القيم التي تمليها على الناس تجربة حياتهم نفسها، وتعدّ رسمياً من "مخلفات الماضي" (بصنمات الرأسمالية).

ولكن مسار سقوط منظومة القيم الشيوعية لا يعنى أن منظومة قيم الغربية جاءت لتحل محلها. فما جرى هنا هو انهيار المنظومة الأولى، وتضخم ظاهرة من نوع آخر لا تشبه المنظومة المنهارة إلا ببعض نقاط ظاهرية. فلنأخذ عمل العمال، على سبيل المثال. لقد شهدت روسيا السوفيتية محاولة لتحويل كل ما كان له علاقة بمسار عمل أولى جماعات العمل القديمة وحياتها إلى قيم حياتية أساسية. وقد أصاب هذا المسعى بعض النجاح. إذ طغت حماسة العمل والصور الوردية الحاملة على ملايين البشر. على أن هذا الموقف من العمل شيء غريب على المجتمع الغربى الذى يعمل الناس فيه على نحو أفضل بكثير مما فى المجتمع الشيوعى. إلا أن عملية الكدح بحد ذاتها والعمل الجماعى ليس لهما فى الغرب قيمة من هذا النوع، أو انتشار جماهيرى إلا كاستثناء فقط، بل وفى مواقع خلقية نادرة. إذ يُنظر إلى العمل هناك على أنه - أساساً وقبل كل شيء - شغلٌ وتنظيم تقنى لهذا الشغل، ولا قيمة لهما إلا بمقدار ما يعودان به من خيرات ضرورية حصراً. إلا أنه لا يُنظر إليهما بحد ذاتهما كقيمة. فهما ليسا هدفاً لذاته، ولا قيمة إلا بقدر ما يأتیان به من خيرات.

لقد أخفقت فى روسيا محاولة فرض العمل الجماعى على المجتمع كله كقيمة حياتية علياً. إلا أنها أصابت بعض النجاح عندما كانت البلاد لا تزال فقيرة، ومستوى الحياة العام فيها متدنياً، والتناقضات الطبقيّة ضعيفة نسبياً، وكانت ظروف العمل الجديدة نعمة بالنسبة للكثيرين مقارنة بالماضى. وتبعاً لارتفاع مستوى المعيشة، وانتشار التعليم والثقافة، وزيادة حدة انقسام المجتمع إلى فئات، راحت تتكون منظومة جديدة من القيم دفعت بقيم العمل والحياة الجماعية إلى موقع خلفى. زد على ذلك إدراك شرائح واسعة من السكان أن النجاح الأكبر فى الحياة لا يتحقق عن طريق العمل البطولى، وخدمة المجتمع بنزاهة، وإنما عن طريق التحلّى بصفات أخرى كالتزلف، والوصولية، والخداع، والديماجوجيا، والنصب والاحتيال، والنفاق، وذر الرماد فى العيون، وسوى ذلك من ظواهر السلوك المذمومة أخلاقياً. وعمّ التلاعب حتى منظومة تقييم صفات العاملين، ومعايير مكافأة الأفضل بينهم. فكان اختيار الأفضل

يتم وفق صفات لا يجمعها إلا القليل مع الصفات العملية والجماعية الفعلية التي يكافأ عليها الناس. وكانت النتيجة أن انتصرت هذه المنظومة من القيم التي دمّرت المنظومة المفروضة رسمياً، انتصرت منظومة القيم المدانة رسمياً بوصفها لا أخلاقية وإجرامية. على أن هذه لم تكن منظومة قيم الغربية، بل كانت ظاهرة تمخّض عنها المجتمع الشيوعي، وأصبحت فيما بعد أحد شروط نجاح الإيديولوجيا والدعاية الغربيتين في روسيا.

إن منظومة قيم الغربية هي انعكاس لواقع المجتمع الغربي، وليست تليفقاً حالمين أبرياء. فهي ليست مفروضة على الناس من فوق كشيء يتطلّب منهم إرهاب أنفسهم والتحكم برغباتهم، والتقتير بطريقة لا تعود عليهم بأى فائدة عملية، بل بالعكس لا تسبب لهم إلا المتاعب. وهنا تكمن أفضليتها مقارنة بمنظومة القيم الشيوعية. ومع ذلك يشعر المرء في الغرب بالحاجة إلى قيم رفيعة، مثلى، وروحية. وهذا ما تدلّ عليه، مثلاً، الحركات الجماهيرية التي تطالب بعمل ذي معنى، وبتضامن إنساني، وعمل جماعي شريف. وهناك حركات شبابية مختلفة تعبّر عن الضيق بمنظومة القيم الغربية، وتطمح لإيجاد بدائل لتلك القيم من نوع آخر.

لئن كانت أعمال أدبية وأفلام سينمائية كثيرة تصوّر مواقف مختلفة يتصرف الأبطال فيها وفقاً للقيم التي كان يراد غرسها في نفوس الناس في روسيا الشيوعية، فإن تلك المواقف مختلفة. وإذا كانت تصادف في الواقع أحياناً، فإنها تصادف كاستثناء، وليس كقاعدة. ولكن لا يجوز القول إنها عرضية. إذ إن الغربية تنطوي على ما تطور منه المجتمع الشيوعي.

## القيم والمثل

ليست القيم والمثل شيئاً واحداً. فالقيم هي ما يثمنه الناس، بينما المثل هي ما يطمحون إليه، والقيم موجودة، ولكن لا يتمتع بها الجميع بالدرجة نفسها. وقد يكون

اكتسابها بالنسبة للبعض غاية الحياة. أمّا المثال فهو إمّا ما ليس موجوداً بعد، أو ما لم يمتلكه الناس بعد، ولكنهم يتمنون تحقيقه أو امتلاكه.

ثمة مُثُلٌ فردية وأخرى اجتماعية. إن صوغ المُثُلِ الاجتماعية وفرضها على المجتمع هما مهمة "دين" الغربية، أى إيديولوجيتها وثقافتها. ويتلخّص المثال فى المجتمع الشيوعى بالخير العام، والمساواة، والعدالة. وكان ذلك يُعدُّ قابلاً للتحقيق عن طريق تصفية الرأسمالية. أمّا المثال فى إيديولوجيا الغربية فهو المحافظة على قيم الرأسمالية، وتوطيدها، وفرضها على البشرية جمعاء. وبعد ذلك، فى مرتبة متأخرة من القائمة وعَرَضاً، تتراعى مُثُلُ الشيوعية أيضاً. ولما كان النظام الاجتماعى القائم ومنظومة قيمه هو ما يُنظر إليه على أنه المُثُلُ، فإن المجتمع الغربى ليس لديه مُثُلٌ بالمعنى الصارم للكلمة، أى ليس لديه شىء ليس موجوداً فى الواقع ويتطلّع المجتمع لبلوغه مدفوعاً بالإيديولوجيا.

وقد وجدت أن المهيمن فى المجتمع الغربى ليس الطموح إلى مستقبل أفضل، وإنما الرغبة فى الحفاظ على الحاضر، والخوف من فقدان ما تمّ تحصيله من خيرات. وإذا كان فى الغرب شىء من الحركة نحو الأفضل فهو نتيجة فعل القوانين الموضوعية الموجودة فى الغربية، وليس نتيجة طموحات البشر إلى مُثُلٍ ما. على أن هذا ليس عيباً، لأن المُثُلَ عموماً لا تلعب إلا دوراً ضئيلاً فى التاريخ. وهى تتمك الناس لمدة قصيرة وكحالة استثنائية. وقد تمثّل هذا الاستثناء التاريخى، أى الشنوذ عن الحالة العامة الخالية من المُثُلِ، فى حالة المُثُلِ الشيوعية. بل ويخيّل إلى أنه لا وجود لأى مُثُلٍ اجتماعية أخرى، بالمعنى الصارم للكلمة، لا من قبل ولا الآن. وما انهيار المُثُلِ الشيوعية بأكثر من انتصار الغربية العادية، اليومية، النثرية، العملية، وما شابه ذلك من صفات.

## منظومة الإغراءات

تحولت منظومة قيم الغربية فى الظروف المعاصرة إلى منظومة إغراءات. وهذا شىء جديد مقارنة بما كان من قبل. فقد حقق المجتمع تقدماً خرافياً فى مجال خيرات

الحياة، لم يخطر على بال أحد في الماضي، صحيح أن الغربوية مهّدت لهذا التقدم، إلا أنه لم يكن مبرمجاً في طبيعة الغربوية ذاتها، مثلما أن القنبلة النووية، وريادة الفضاء، والهندسة الجينية أشياء لا تنبع من طبيعة (جوهر قوانين) الغربوية. ويعود الفضل إلى وسائل الإعلام الجماهيرى التى أطلعت الجميع على كل ما تمّ من إنجازات فى مجال خيرات الحياة، فهى تنشر على الملأ بسرعة البرق كل ما يُصنع، وما سيُصنع، وما يُعدُّ صنعه ممكناً. أمّا الإيديولوجيا والدعاية فتخلقان وهماً بأن هذه الخيرات الخرافية متاحة كلها للجميع، أو يمكن من حيث المبدأ أن تكون متاحة للجميع. وهما فى هذه الحالة تلعبان دور شيطانٍ غوايةٍ يُمنى الناس كلهم بجنة على الأرض.

غير أن خيرات الحياة فى الواقع لا توزع بالتساوى على الناس. وهى كثيرة ولكن ليس بالقدر الذى يكفى الجميع. كما أنها لا توهب مجاناً. فبعض من تلك الخيرات فى متناول قلة قليلة، وبعض آخر فى متناول كثيرين نسبياً، ولكن بمقادير متساوية. بل وهذا الاختلاف فى المقادير عظيم. فبعض لا يصيب إلا الفئات، وبعض آخر ينال ما يحتاج. وفى النتيجة يشعر الملايين من البشر بأنهم محرومون، فيحسدون من يستطيع التنعم بالخيرات الحديثة التى تروّج لها الدعاية أيّما ترويج، ومن هم أقدر منهم بكثير على امتلاكها. كما يصاب المحرومون بعدوى التعطش لامتلاك تلك الخيرات، لامتلاكها فوراً وبأكبر قدر ممكن. ولا يعود هذا التعطش دافعاً يحثهم على العمل المنتج فى المجتمع إلا بقدر ضئيل. بل يغدو فى الأساس حالة فكرية سيكولوجية عند الناس تؤثر على سلوكهم فى اتجاهات أخرى تماماً، بينها اتجاه الوصولية، وارتكاب الجرائم، والنفاق. ويغدو هذا التعطش مصدراً إضافياً لمعاناة سلبية يعيشها أكثر الناس. إنهم يكابدون ألماً مهولة وهم يشاهدون الثروات الخيالية الحديثة بالقرب منهم دون أن يكون بمقدورهم أن يتنعموا بها.

## الإيديولوجيا والأخلاق

من دواعى الفضول أن أشدّ نقدٍ لمجال "إنتاج المادة البشرية" يأتى من الولايات المتحدة الأمريكية. وأريد أن أستشهد بواحد من بين المؤلفين فى السنوات الأخيرة هو

جون زيلبر فى كتابه الذى يحمل عنواناً بالغ الرمزية، وهو "هل يمكن إنقاذ أمريكا؟" (١٢١)، فقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة، شأنه شأن كثير من الكتب الشديدة الغباء التى تدغدغ أعصاب العامة بما تزعمه من كشفٍ جرىء عن أمراض المجتمع المزمنة. فالمؤلف، زيلبر، رئيسُ جامعة بوسطن، لا يكتفى بالتطرق إلى نواقص متفرقة، بل ويتحدث عن انحطاط المجتمع الأمريكى برمته. إنه يرسم لوحة قاتمة إلى حدٍ كبير. ويعزو سبب هذه الحالة التى تعانى منها الولايات المتحدة الأمريكية إلى تجاهل مبادئ الأخلاق، والوضع البائس فى مجمل نظام تعليم الشباب وتربيتهم، ويرى أنه لا بد للمجتمع الأمريكى، لكى يتعافى، من أن يغرس القيم الأخلاقية التقليدية (حب العمل، الانضباط الذاتى، الشعور بالمسئولية .. إلخ)، فى الشباب من جديد، على أن يكون المرءون أنفسهم قدوة لمن فى عهدهم، فى تجنب مغريات عصرنا.

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هنا هو: لماذا لا يضير موظفًا رفيع المستوى فى مجال التعليم (رئيس جامعة مرموقة) تأليف كتاب يتحدث فيه عن انحطاط الولايات المتحدة الأمريكية على المستوى القومى، ويرسم لوحة قاتمة عن المجتمع الأمريكى، بل على العكس من ذلك يجلب ذلك الكتاب له النجاح، وتثنى عليه الصحافة أيما ثناء؟ والجواب هو: لأن هذا الكتاب ظاهرة إيديولوجية. فالجميع فى الولايات المتحدة الأمريكية، ومنذ زمن بعيد، يتحدثون عن انحطاطها. وقد بات ذلك شيئاً مكرراً، ولا يثير أية انفعالات. إنه لا يضير شعور الاعتزاز المبالغ فيه لدى الأمريكين. ثم إن العِلل التى يصفها المؤلف معروفة وواضحة للجميع. وتفسيره تلك العِلل مناسب تماماً لمستوى تفكير العامة، ويرى المؤلف أن سبب انحطاط الولايات المتحدة الأمريكية يعود إلى إهمال مبادئ الأخلاق التقليدية. أما مشروع إنقاذ الولايات المتحدة الأمريكية الذى يقدمه فمبنى على المستوى الفكرى الأعوج ذاته: يجب غرس القيم الأخلاقية التقليدية فى الأطفال

---

(121) John Silber. "ist Amerika zu retten?" Frankfurt am Main, 1992.



لقد أسهبتُ في الحديث عن هذا الكتاب قاصداً أن أتخذ منه مثلاً ملموساً أبين من خلاله مدى صعوبة التفريق بين المقاربة الإيديولوجية والمقاربة العلمية (غير الإيديولوجية) للظواهر الاجتماعية. إذ تتلخص المقاربة العلمية في هذه الحالة، على النحو التالي، كما أرى. إن ما يسمونه انحطاط الولايات المتحدة الأمريكية هو وجودها في نطاق المعايير. إنه ليس مرضاً، بل هو شكل الكينونة السليمة لكائن اجتماعي من هذا النوع. وما يسمونه أزمة منظومة إعادة إنتاج المادة البشرية هو أيضاً، وبدقة، وضعٌ طبيعي منسجم مع طبيعة المجتمع الأمريكي. وعندما يصفها الإيديولوجيون بالأزمة يخلقون انطباعاً وكأن هذا الوضع مؤقت، يمكن تصحيحه على طريقة دعاة الأخلاق الذين على شاكلة مؤلف الكتاب الذي نتناوله هنا، كما يمكن تنظيم التربية والتعليم على نحو يقضى على مجمل ظواهر "التأزم" ليحلّ الخير العميم. إنه انطباع كاذب. إذ لا يؤمن بإمكان تحقيق شيء من هذا القبيل حتى الإيديولوجيون والسياسيون، والخبراء الذين يعملون في هذا المجال متظاهرين بالتفاؤل. فما من حاجة لافتعال التفاؤل ما دامت دواعي التشاؤم معدومة أيضاً. إن غالبية الناس تنظر إلى هذه الحالة التي يعيشها قطاع التربية والتعليم كأمر لا مفرّ منه، وتحاول التكيف معه. وليس مستبعداً أن تتمخض محاولات تصحيحه نفسها وفقاً لوصفات دعاة الأخلاق، عن حالة أكثر سوءاً. يتأتى الانطباع بوجود أزمة دائمة في قطاع التربية والتعليم والتدريب في الغرب من رؤية ما هو واضح وجليّ من انحرافات عن معايير هذا القطاع، وعدم رؤية المعايير الخفية، من رؤية المظاهر الخارجية لقوانين هذا القطاع، وعدم رؤية هذه المظاهر على أنها نتائج حتمية للقوانين نفسها. وهم يطبّقون على الانحرافات عن المعايير ومظاهرها الخارجية مقاييس للتقييم دخيلةً على طبيعة الغربية. إن المجتمع الغربي ليس أخلاقياً في أساسه. وإذا كان لا بدّ من إنقاذ الولايات المتحدة الأمريكية من شيء، فإن الأمريكيين نوى التفكير السليم يعرفون أن ما يتطلبه ذلك ليس قيماً أخلاقية تقليدية، بل هو اقتصاد جبار، وجيش، وأجهزة استخبارات، وتلك الإيديولوجيا نفسها التي يستهلكها التلاميذ الأمريكيون في المدارس بسرور وهم يُمضون من الوقت أمام أجهزة التلفاز أكثر مما يُمضون مع كتبهم.



إننى إذ أؤكد على أن المجتمع الغربى ليس مجتمعاً أخلاقياً، لا أريد القول إن المبادئ الأخلاقية منبوذة فيه، أو إنه خليعٌ، سيئُ الأخلاق. إنه ليس أخلاقياً، شأنه فى ذلك شأن أىّ مجتمعٍ آخر، لأنه لا وجود لمجتمعات أخلاقية عموماً. وليس من مجتمع يقوم أساساً على مبادئ الأخلاق. فهذه المبادئ مجالُ فعلٍ ضيق، وليس مؤكداً أنها تُنتهك خارج هذا المجال، وكلُّ ما فى الأمر أنها تفتقر إلى أى مقومات خارجه. والناس يتصرفون وفقاً لمبادئٍ أخرى، وليس حسب مبادئ الأخلاق.

إن المجتمع الغربى فى جوهره براجماتىٌ نفعىٌ. والسلوك الأخلاقى فيه سطحى واستعراضى. فإذا ما كان الأمر يتعلق بتصرفاتٍ وقراراتٍ ذات أهمية حيوية، إذا ما كان التمسك بمبادئ الأخلاق عائقاً يحول دون النجاح وتحقيق أهداف مهمة حياتياً، أو على الأخص إذا كان ينذر بمتاعب وخسائر جدية، فإن الناس الغربيين لا يترددون فى نسيان الجانب الأخلاقى فى سلوكهم، ويتصرفون وفقاً لما تقتضيه المنفعة والأناية. ذلك أن الغربيين أخلاقيون فى الصفائر التى ليس فيها مجازفة، وشريطة أن تكون مريحة، ويراهم الآخرون. وهذه الصفة فيهم ليست فساداً أخلاقياً. إنها تندرج تماماً فى إطار الأخلاق التى يتصورونها. أما خارج هذه التصورات فالأخلاق غير موجودة أصلاً كعامل من عوامل الوجود.

لقد راح السياسة الأمريكيون، ومن بعدهم كثيرٌ من سياسة البلدان الغربية الأخرى، يتحدثون عن سياسة أخلاقية مزعومة. على أن نفاق أحاديثهم هذه نفاق مزدوج. أولاً، لأن السياسة المبنية على مبادئ الأخلاق هى مجرد هراء منطقى. ولا فرق بينها وبين أن يطهو المرء الطعام ويلعب كرة القدم مسترشداً بمؤلفات الخبراء فى مجال الأخلاق. وثانياً، لأن ما يقوم به هؤلاء السياسة فى الواقع لا علاقة له البتة بما يدعون إليه قولاً.

إن بيل كلينتون الذى انتخب رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٢ أصدر ما سُمى بـ "أحكام الأخلاق" وجاء استمراراً وتعزيراً "للقانون الأخلاقى"

الصادر عام ١٩٧٨، فقد كان كلينتون عازماً على تشكيل إدارته كلها وجعلها تعمل وفق هذه الأحكام.

أعتقد أن فكرة هذه الأحكام هي نفسها إشارة إلى الإخفاق في التعاطي مع الأخلاق، سواءً في الأوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية، أو في سواها من البلدان، أو في أي عهد من العهود، لأن مجال السياسة يقع أصلاً خارج حدود الأخلاق. أضف إلى ذلك أنه لا يجمع بين "القانون الأخلاقي" لعام ١٩٧٨، و"أحكام كلينتون" جامع من حيث الأخلاق سوى الاصطلاحات اللفظية. فالمرجعان كلاهما شكلٌ مموهٌ من وثائق حقوقية موجهة إلى أناس يجعلهم موقعهم في نظام السلطة في مأمنٍ من تطبيق المعايير القانونية عليهم. فما هو الشيء المشترك، مثلاً، بين الأخلاق من جهة، ومنع تشكيل تحالفات اللوبي، واستغلال الوظيفة لأغراض شخصية، والتعاون مع الشركات الأجنبية، من جهة أخرى؟

إن سلوك الناس في المجتمع الغربي عموماً، وليس في مجال السياسة فقط، لا تحكمه بالدرجة الأولى وأساساً مبادئ الأخلاق، وإنما تحكمه مبادئ مجالات الوجود التي سبق أن تناولناها، وكذلك مبادئ "دين" الغربية و"كنيستها"، بما في ذلك الإيديولوجيا. أما إيديولوجيا الغربية عموماً فليس لها أي أحكام أخلاقية، ولا تقوم بتربية الناس أخلاقياً.

### الدوافع التي تحرك الغربية

تنقسم الدوافع (الحوافز) التي تحرك هذا المجتمع أو ذاك إلى دوافع خاصة (أو فرعية)، ودوافع عامة (أو إجمالية). وهذا التقسيم ليس من صنع أحد، إلا أنه جوهري. وتندرج في عداد الدوافع الخاصة، مثلاً، دوافع موجودة في المجال الاقتصادي. فهي في الإيديولوجيا الغربية تنسحب على المجتمع بأسره. وقد اتخذ ذلك أشكالاً فظة على

وجه الخصوص فى ألمانيا بعد إعادة توحيدها<sup>(١٢٢)</sup> فالظواهر التى كانت تُعدّ منذ غابر الأزمنة عيوباً، أعلنوا هناك أنها أنبل دوافع التقدم الغربى وأكثرها نجاعة. يمكننا أن نجد تفسيراً سطحياً لهذه الانعطافة فى أدمغة الإيديولوجيين الألمان. ولكننا نتساءل: هل التعطش للملكية وجمع المال، والسعى إلى الرفاهية المبتذلة والملذات، وباقى الدوافع التى من هذا القبيل هى حقاً دوافع عامّة وشاملة تتحكّم بأعمال الناس فى المجتمع الغربى؟ للعثور على جواب موضوعى (غير إيديولوجى) على هذا السؤال، ينبغى أن نأخذ بالحسبان ما سبق أن أشرنا إليه من تمييز بين الدوافع.

أعتقد بأن الدافع الإجمالى الرئيس للمجتمع الغربى فى حالته المعاصرة هو المعدل العالى قسرياً لمستوى حياة أغلبية السكان التى ترى أن هذا المعدل يتوقف على الجهود الشخصية. ولكى يحافظ الناس على هذا المستوى يجدون أنفسهم مرغمين على أن يبيّنوا أن لديهم من النشاط الشخصى، والقدرة على الإبداع، والروح العملية ما لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية، وعلى أن يبذلوا كل ما فى أعماقهم من طاقات. وهم مرغمون على ذلك بأعداد جماهيرية لم يعرفها التاريخ من قبل.

فى المراحل الأولى من الغربوية كان معظم هذا النوع من الناس يفعل ذلك طوعاً، ولم يكن عددهم كبيراً. أما الآن فإن عددهم فى العالم الغربى بأسره يزيد عن مئة مليون، وليس فيهم من الطوعية إلا قدرٌ ضئيل للغاية. وما أمامهم من خيار آخر. ولعلهم يرضون بمستوى معيشة أدنى، شريطة أن يجعل ذلك حياتهم أكثر هدوءاً وراحة بال وثقة، ولكن ذلك لم يعد ممكناً إلا بعد القضاء على نمط الحياة الغربوى برمّته.

وعلى أساس هذه القوة المحركة الرئيسة فى الغربوية تكتسب الدوافع الأخرى أهميتها، بما فى ذلك السعى إلى تحصيل أرباح فاحشة، وإلى النجاح السريع فى

---

(122) Hermann Reich. Eigennutz und Kapitalismus. Berlin, 1991; Theo Waigel.

Ohne Eigentum keine Motivation. Bayernkurier, 29.09.1990.

العمل، إلا أن ذلك ليس إلا استمراراً ودفْعاً للحافز الرئيس إلى الحدِّ الأقصى، إنه بالضبط استمرار ودفع للسعي إلى الحفاظ على المستوى المتوسط الذي يتضمَّن، بغضِّ النظر عن كل نواقصه، جُرعة معتدلة إلى حدِّ ما من خيارات الحضارة الغربية ومنجزاتها جميعاً. وجوهر هذا الدافع من وجهة النظر الذاتية هو الحصول على الحدِّ الأدنى من خيارات الحياة المعاصرة، أو على حصَّة متوسِّطة من تلك الخيارات عن طريق جهود الفرد الشخصية. على أن أهمَّ ما فى دوافع الغربية ليس التجليات القصوى لتلك الدوافع، بل هو الحدُّ الوسط منها. لأنَّ التجليات القصوى ثمرةُ هذا الحدِّ، وليست مصدره.

أمَّا الدافع الإجمالى الثانى من حيث الأهمية فى المجتمع الغربى المعاصر فهو الطموح إلى نيل الحرية الشخصية الحقيقية (وليس القانونية فقط)، والاستقلال عن المواطنين الآخرين المحيطين بالفرد، وإلى مأمْن من مَلَمَّات الحياة، أى إلى ما لا يمكن تحقيقه إلا فى حال بلوغ مستوى مادى عالٍ للغاية، مستقرٌّ ومضمون. وهذا ما يتحقق على شكل طموح إلى تكديس موارد العيش. فالإنسان العادى الوسط فى الغرب هو من يجب عليه إن يسعى منذ طفولته إلى ضمان شيخوخته ما لم يكن ذلك مكفولاً له منذ الولادة.

والدافع الإجمالى الثالث من حيث الأهمية فى المجتمع الغربى المعاصر هو الطموح إلى تطويع كوكب الأرض كوسيلة لتحقيق الدافعَيْن السابقَيْن. وسأتناول ذلك بشكل خاص فيما بعد.

## الثقافة

تشكُّل إيديولوجيا الغربية وثقافتها كلاً واحداً. وطبيعى أن الثقافة ليست كلِّها إيديولوجيا. ولما كانت الثقافة هى بيئة الإيديولوجيا ووسيلة غرسها فى أذهان الناس فإنها تقوم بوظائف أخرى أيضاً.

وحالة مصطلح "الثقافة" جديرة بأن تكون مثلاً على حالة الفكر الاجتماعي الغربي، إذ يبلغ عدد ما هو متداول من تعريفات هذا المصطلح ١٧٥ تعريفاً (١٢٣) ليس بينها تعريف واحد يحظى بالإجماع والقبول، وأعتقد أن ذلك لا يعود إلى عجز الاختصاصيين عن إيجاد تعريف جيد يناسب الجميع، بل إلى أن تعريفاً كهذا مستحيل أصلاً، بسبب طبيعة الموضوع الذي يحاولون حشره في تعريف ضيق ومجرد. فالثقافة ظاهرة معقدة، متنوعة، يحتاج بعض عناصرها إلى تعريفات متنافرة، بل ومتناقضة. إنها على درجة من التشابك مع الظواهر الاجتماعية الأخرى تجعل من الصعب أحياناً أن نفرق بينها حتى تجردياً. إذ ما إن تحدد بعض الصفات التي يبدو أنها تميزها عن غيرها من الظواهر، حتى تجد في الحال ظواهر أخرى من خارج الثقافة لها الصفات نفسها. زد على ذلك أن مكونات الثقافة ودورها في الحياة الاجتماعية تتغير تبعاً للزمان والمكان. لذلك سأقتصر هنا على المعنى الحدسي لكلمة "الثقافة" الذي يتحدد عن طريق تعداد أجزائها المكونة.

تتألف الثقافة من الأدب، والموسيقا، والرسم، والأزياء، والعمارة، والرقص، والسينما، والديكور... إلخ. ويستطيع كل من يتمتع بقدر من التعليم أن يميز، على الأقل في الحالات المهمة، شخصيات الثقافة ومنتجاتها عما لا يندرج في الثقافة. وهذا كافٍ لاستعمال كلمة "الثقافة" استعمالاً عادياً، يستخمد. بيل (١٢٤) في أحد كتبه الباكراً مصطلح "Sensibility" للتعبير عن حالة المجال الانفعالي عند الناس وعن أنواقهم، أي عما يتكون تحت تأثير الثقافة (كان يتحدث عن الفن). وأرى أن من المفيد أن نستعمل، على غرار مصطلح "مجال الإيديولوجيا"، مصطلح "مجال السنسيولوجيا" للدلالة على الموضوع الذي نتحدث عنه هنا. فهذا ما يجعل الاهتمام يتوجه منذ البداية ليس إلى

---

(123) A.L.Kroeber und C.Kluchhohn.Cambridges/Mss.,1952

(١٢٤) انظر الهامش رقم ٣٩.

الكلام عن الثقافة عموماً، وإنّما فقط إلى دورها المماثل لدور المجال الإيديولوجي،  
والمشترك معه.

## الثقافة الأوروبية الغربية

إن عبارة "الثقافة الغربية" قولٌ مزدوج المعنى، فهو يدلّ على الحالة العامة للثقافة  
فى البلدان الغربية، وكذلك على نمط الثقافة الخاص الذى تطور بشكلٍ رئيسٍ فى بلدان  
أوروبا الغربية، ولذلك يمكن وصفه بأنه أوروبى غربى.

لقد تكوّنت الثقافة الأوروبية الغربية، كنمط خاص من أنماط الثقافة، على أيدي  
شعوب أوروبا الغربية أساساً. وساهم متحدرون من أماكن أخرى من الكرة  
الأرضية بقسط ما فى ذلك، ولكن إمّا تحت تأثيرها، وإمّا كصنّاع حقيقيين لها عاشوا  
خارج بلدان أوروبا الغربية. ومثال ذلك إسهامات الروس والأمريكيين فى الثقافة  
الأوروبية الغربية.

تعود بداية الثقافة الأوروبية الغربية إلى عصر النهضة، وبلغت أوجها فى القرن  
التاسع عشر. وتمثّلها أسماء عظماء يعرفهم العالم كلّ، ولا حاجة بنا لتعداد أسمائهم.  
ويستطيع المختصون فى علم الثقافة أن يعدّدوا المعايير التى يمكن اعتمادها من أجل  
التمييز دونما خطأ بين ظواهر الثقافة الأوروبية الغربية وظواهر ثقافات الأنماط  
الأخرى، وساكّفى أدناه بذكر بعض سماتها العامة التى ساعتمدها للمقارنة بين تلك  
الثقافات وثقافة الغربية.

تكوّنت الثقافة الأوروبية الغربية كأرفع ثقافة من حيث مستواها الفكرى  
والأخلاقى والحرفى، بل وذائقتها الجمالية المرهفة والصارمة للغاية. وكان صنّاعها  
أصحاب مواهب وعبقريات فذة، وعددهم قليل نسبياً. وقد لعبت هذه الثقافة دوراً لم  
يسبق له مثيل فى تنوير البشرية ورقّيها الأخلاقى. إذ كانت ثقافةً أرسنقراطية

ونخبوية، بمعنى أن من صنعوها كانوا أشخاصاً استثنائيين، ومن رعوها كانوا أيضاً أشخاصاً استثنائيين في هذا المجال. ولم تنشأ هذه الثقافة كثقافة جماعةٍ أرسطراطية مغلقة، ولا كثقافة جماعةٍ مغلقة من النخبة. بل نشأت وفق قوانين الثقافة كظاهرة اجتماعية متميزة (وفق قوانين الأدب، والرسم، والموسيقى... إلخ، كما هي الآن) وبكل قوة مبدعيها، وليس وفق القوانين الخارجية (قوانين الثقافة كثقافة) التي تحكم تنظيم المجتمع من الناحية الاجتماعية. أى أن أرسطراطيتها ونخبويتها لم تجعلها تنحدر طوعاً أو قسراً إلى مستوى الدُهْماء، بل هي، على العكس من ذلك، ارتقت بالجمهير إلى أرفع مستوى فكري، وأخلاقى، وجمالى فى زمانها، أى إلى مستوى الجزء الاستثنائى من المواطنين فى المجتمع. فقد اتخذت موقفاً نقدياً إزاء ثوابت مجتمعها وإيديولوجيته. وكانت أكثر الثقافات حرية فى تاريخ البشرية من حيث استقلالها عن سياسة "العامة" وإيديولوجيتها، وأرائها.

وفى القرن العشرين بدأ انحطاط الثقافة الأوروبية الغربية كنمط تاريخى فريد من أنماط الثقافة. وهذا ما أشار إليه كثيرون. ولا أريد الآن أن أتحدث إلا عن الكيفية التى أفهم بها هذا الانحطاط. فهو، فى نظرى، ليس مسخاً لكل ثقافة فى أوروبا. إنه عملية تراجع نسبي لدور النمط الأوروبى الغربى من الثقافة فى حياة الغرب الاجتماعية. فقد فقدت الثقافة هناك دورها كزعيم للتقدم الاجتماعى، وكفت عن كونها حاملة مشعل التنوير، ومعلم الأخلاق والأنواق فى المجتمع. لقد تقلص حجمها نسبياً فى الحياة الثقافية فى بلدان الغرب، وضيقت عليها ظواهر ثقافة من نمط آخر. إنها لم تمت تماماً... وهى ما تزال على قيد الحياة، بمعنى الحفاظ على ما أنجزته. غير أن ما يُعمل الآن كإسهامات فيها، بوصفها نمطاً تاريخياً متميزاً من أنماط الثقافة، ليس إنجازاً رفيعاً للثقافة المعاصرة. إن الاكتشافات الجديدة فى الثقافة تتعدى حدود تلك الثقافة. وهى من طينة مختلفة عن طينتها.



## الإيديولوجيا الغربية والثقافة الجديدة

يقول د. بيل في كتابه المذكور آنفاً إن الثقافة أصبحت العنصر الأكثر دينامية في الحضارة، متخطيةً بذلك دينامية التكنولوجيا. وبات السعى الجامح نحو البحث عن أشكال جديدة متميزة لتظهر في المستقبل سمةً مميزةً للثقافة. لقد تملكها فكرة (أو ربما هوس) التغيير والتجديد. على أن هذا السعى لا يلقى أى عقبات داخل الثقافة، وقد تقبله المجتمع بحماسة. ثم إن الثقافة ملأت السوق بمنتجاتها التي راحت تُستهلك بنهم. وصار للثقافة دور لا مثيل له من قبل، هو دور البحث عن حساسية *Sensibility* جديدة. فقد "تحرر" الفن، وأخذ يحطم جميع الأجناس والأساليب، أخذ يستخدم جميع الوسائل من أجل إنتاج ما يدهش. وبات يُنظر حتى إلى الجنون على أنه شكل راقٍ من أشكال الإبداع. واكتسب كل جديد قيمة بحد ذاته. ولما كان هذا الجديد لا يلقى مقاومة، راح ينتشر بسرعة مسيطراً على جماهير غفيرة من الناس. وجاءت الإيديولوجيا رافعة راية الجديد لتقول إن الفن يجب أن يكون طليعة التقدم الاجتماعي. ولأن الأفكار السياسية الراديكالية القديمة قد استهلكت نفسها، أو حطت من قدر نفسها، لم يعد استمرار الراديكالية ممكناً في السياسة، وإنما في الثقافة. وقد أخذت الطليعة الثقافية على عاتقها هذا الدور.

وخلافاً للبنية الاجتماعية التي تتحكم بها المبادئ العقلانية في الاقتصاد، نجد الثقافة مشوشة، تهيمن فيها أمزجة لا عقلانية. لقد تخلت عن جميع القيم "البرجوازية". وانعدم فيها الانضباط الذاتي، وضبط النفس. فالثقافة المعاصرة لا تعد نفسها انعكاساً للواقع الاجتماعي، إنها تفتح الطريق لشيء جديد راديكالياً، وتسعى إلى ترسيخ أولويتها في مجال الأحكام والأخلاق. ويزداد الفن استقلالاً ذاتياً، فيما العاملون في الفن هم من يصنعون الأذواق.

على هذه الصورة تتبلور الثقافة الجديدة في الإيديولوجيا الغربية، وبأيدى خيرة أعلامها. وأنا لا أستطيع رمي كل أقوالهم بأنها كذب، ولكنني لا أستطيع أيضاً

وصف كل ما فيها بأنه الحقيقة. إنها لا هذا ولا ذاك. فهي تسجيل حقائق معروفة للجميع، وتأويل إيديولوجي (بالضبط: إيديولوجي!). وأنا أنظر إلى تلك الحقائق نفسها بطريقة أخرى.

## ثقافة الغربية

إن ذاك النمط من الثقافة الذي نحى الثقافة الأوروبية الغربية جانباً، واستحوذ على المجتمع الغربي بلا منازع، هو ثقافة الغربية. وقد تكونت هذه الثقافة على امتداد زمن طويل، زمن تاريخي، وكان لها مقدمات في الثقافة الأوروبية الغربية. وهي تدعى أنها استمرار للثقافة الأوروبية الغربية في بعض النقاط. ولكنها بمجملها العام ظاهرة جديدة، مناقضة للثقافة الأوروبية الغربية، وتقتلها، أقله لا تبقى لها إلا دوراً ثانوياً. إنها ثقافة لها جذور، وأسس، ومنابع تختلف عن تلك التي نشأت منها وعليها الثقافة الأوروبية الغربية التي كانت على درجة من القوة لم تسمح لثقافة الغربية الجديدة بالظهور والإعلان عن نفسها بصوت جهير إلا في القرن العشرين. ولم تسيطر ثقافة الغربية على حلبة التاريخ، وتصبح جزءاً لا يتجزأ من "دين الغربية" إلا في النصف الثاني من ذلك القرن.

كان سان سيمون قد عبّر عن فكرة إنشاء عبادة الفن (الثقافة) بدلاً من المسيحية. ويبدو للوهلة الأولى أن فكرته قد تحققت. إذ يستطيع المرء أن يشاهد "أيقونات" هذه العبادة الجديدة في الأماكن العامة، والمؤسسات، والمكاتب، والمطاعم، والساحات، والمنازل، والجرائد والمجلات، وعلى أغلفة الكتب، والياقطات، والإعلانات، وفي السينما، أي في كل مكان وفي كل شيء. والأرجح أن سان سيمون نفسه لو بُعث الآن حياً لما أعجبه هذا. ذلك أن هذه الثقافة التي أصبحت جزءاً من "دين الغربية"، وتلك الثقافة التي أراد سان سيمون أن يجعل منها "ديناً" بديلاً للمسيحية، ظاهرتان مختلفتان، ينقض بعضهما بعضاً في عدد من الجوانب.

سأذكر ما هي، في نظري، السمات الأساسية للثقافة الجديدة. لقد تغيرت - أولاً وقبل كل شيء، فضاءات الثقافة، ووضع الثقافة في المجتمع، ودورها في حياة الناس. إذ تسربت ثقافة الغربية إلى جميع مجالات حياة الناس، حتى باتت التخوم بين هذه المجالات والثقافة سائبة، واختفت كلياً أحياناً. وغمر العالم طوفاناً من منتجات الثقافة. فمن الصعب أن نجد أنواعاً من نشاط الناس أو مواد يستهلكونها لم ينعكس، أو يلاحظ فيها تأثير الثقافة، سواء في ذلك البيوت، والحدائق، ووسائل النقل، والإنشاءات التقنية، والملابس، والأنيّة، والأثاث، وإخراج الكتب والمجلات، والإعلانات بأنواعها، والرياضة، والخدمات، ولعب الأطفال، والطعام، ومواد الاستخدام المنزلي ... إن اقتحام الثقافة حياة الناس اليومية بهذه الطريقة مسألة لم يعرفها تاريخ البشرية من قبل في أي زمان أو مكان.

لقد أصبحت الثقافة في متناول الجميع، وتعيش الغالبية الساحقة من الناس عملياً محاطة على الدوام بالثقافة، تتعامل معها مباشرة، بل وتستطيع استخدام منجزاتها في أشكالها التقليدية، أي أن المتاحف، والمكتبات العامة، والتلفزة، والسينما، والمسارح متاحة للجميع. وأصبح في مقدور أعداد هائلة من عامة المواطنين ممارسة نشاطات ثقافية كالموسيقا، والفنون التشكيلية، والرقص، والتأليف، وكأن الثقافة جرت في شرايين المجتمع فأصبحت عنصراً ضرورياً ومألوفاً في حياة الناس بجميع شرائحهم، وفئاتهم، وأعمارهم. وهكذا، فإن علينا أن نتحدث الآن عن وسط ثقافي في حياة الناس، وليس عن مجال ثقافي خاص، مستقل عن الأغلبية، ومتاح لقلّة من الناس.

كذلك أصبح الوسط الاجتماعي في حياة الناس أكثر جمالية بما لا يقاس بأي وقت مضى من تاريخ البشرية. وامتلاً العالم بالجمال حتى بات الناس ينظرون إليه كشئ بديهي، أو لا يلاحظونه أصلاً. ولعل ما جرى هنا هو تجاوز الحد، وإفراط في إنتاج الثقافة، ما جعلها تفقد ما كان لها في نظر الناس من قيمة يوم كانت ضيقة الانتشار.

إن مستهلكى الثقافة الأساسيين اليوم هم فئات عريضة من السكان مشغولة بأعمالها اليومية، عاجزة عن تحصيل تعليم عام كاف، وعن تحسين أذواقها الجمالية، ولا وقت لديها للتعامل مع الثقافة تعامل من كانوا فى الماضى دائرة ضيقة من أناس أثرياء متبطلين، مرهفى الذوق يعيشون حياة هادئة، على مهل. وبديهى أن ينعكس هذا على طبيعة الثقافة نفسها. إن الثقافة الموجهة إلى مئات الملايين من المواطنين العاديين المنخرطين فى حياة المجتمع المعاصر الدينامية والمتوترة، أصبحت متناسبة مع مستهلكها، بل ومضت من جانبها تكون جماهير الناس وفقاً للوضع العام فى بلدانهم، وفى العالم.

والسمة الأخرى الأهم بين سمات ثقافة الغربية هى فضاءاتها كمجال لإنتاج الثقافة، أى عدد ما يعمل فيه من الناس، والمؤسسات، والمنظمات، والوسائل المادية. فلم يسبق لمجال الثقافة فى أى وقت من تاريخ البشرية أن غطى مثل هذه الفضاءات، لا نسبياً ولا بالطلق. لقد فاق عدد العاملين فى مجال الثقافة عدد العاملين فى قطاع الزراعة، ويات يقارن بعدد العاملين فى قطاع الصناعة.

ورغم الزيادة الهائلة فى عدد من يمارسون العمل الإبداعى مباشرة (من أدباء، وفنانين، وملحنين... إلخ.) مقارنة بالماضى، فإن نسبتهم تقلصت بشكل حاد بين مجمل من يعملون فى مجال الثقافة على نحو أو آخر. لقد جرى تمييع للنواة الإبداعية فى الثقافة، سواء بمعنى توزيع الوظائف الإبداعية بين عدد كبير من مبدعى الثقافة، أو بمعنى تعاضم الجزء غير الإبداعى من الثقافة، وبهذا المعنى تقلصت طاقة الإبداع فى ثقافة الغربية مقارنة بالثقافة الأوروبية الغربية.

لقد توسعت الوسائل التقنية لإنتاج الثقافة وتحسنت بشكل غير عادى. وأدى تطور الوسائل التقنية الجديدة (الصورة الفوتوغرافية، التسجيلات الصوتية، الإذاعة، السينما، التلفزة) إلى تحويل هذه الوسائل نفسها إلى أشكال جديدة من أشكال الثقافة، بعد أن احتلت الموقع الرئيس فيها. وكان محكوماً عليها أن تغدو

حَقَّار قبر القيم الاجتماعية والأخلاقية والجمالية التي جاءت بها الثقافة الأوروبية الغربية إلى العالم.

وأصبحت الثقافة مجالاً للبرنس الرأسمالي. فنشأ إنتاج لمواد الثقافة والفرجة لا يكف عن التوسع. وتحول مجال الثقافة إلى سوق. وغدت العلاقات بين العرض والطلب أعلى المعايير لقيمة منتوجات الثقافة. وحلَّ السعر الذي تفرضه السوق محلَّ القيمة الجمالية. كما أصبحت أهميَّة المبدع تقاس بمدى نجاحه في السوق، وليس بقيمة ما قدَّمه في مجاله مقارنة بأسلافه. وصارت الكلمة الفصلُ في الحكم على نوعية الأعمال الثقافية من اختصاص خبراء الإعلام الجماهيري الذين لا يسترشدون إطلاقاً بمعايير علم الجمال، والأخلاق، والتنوير، والنزعة الإنسانية. ولا حاجة للاستمرار في وصف هذا الجانب من المسألة ما دامت كلُّها معلومة للجميع.

لقد كان مؤسسو ثقافة الغربية أشخاصاً أفذاذاً، لم يكن عددهم كبيراً، ومن أسمائهم الشهيرة: ت.س. إليوت، ومارسيل بروست، وجيمس جويس، وبابلو بيكاسو، وجورج براك، وفاسيلي كاندينسكي، وأرنولد شونبيرغ، وأنطون فون فيبرن، وفرانس كافكا، وسورين كيركيغور، ويوجن يونيسكو، وصموئيل بيكت... إلخ. وعندما قبض رجال الأعمال والإعلام الجماهيري على زمام قضية الثقافة، حلَّت محلَّ هؤلاء آلاف عديدة ممن يفتقرون إلى الموهبة. وصارت الكتلة الأساسية من مبدعي الثقافة الجديدة تتألف من أناس متوسطي القدرات الذهنية والإبداعية. إذ كان الجديد الذي قدَّمه هؤلاء وهمياً، سطحياً، تافهاً، ناتجاً في الأساس عن قلة في الموهبة والبراعة، وليس عن فيض فيهما. إنها في معظمها ثقافة ينتجها أناس تنقصهم الموهبة لمستهلكين تنقصهم الموهبة أيضاً. ولا مكان في هذه الثقافة للعباقر والموهوبين إلا بنسب مزرية، وبأشكال لا تهدد ما لغير الموهوبين من سلطة شاملة. إن أغلبية أعلام الثقافة الذين يعترف المجتمع بأنهم عباقر وموهوبون ليسوا في واقع الأمر سوى تشبُّهٍ بالغت وسائل الإعلام الجماهيري في نفخه وتضخيمه متجاوزة في ذلك كلَّ الحدود.

أمّا الشخصيات الرئيسية فى الثقافة اليوم فهم رجال الأعمال والقائمون على تنظيم جانب من المجتمع تعاضمَ عددُ المشاركين فيه بشكل يفوق التصور، ويرتبط باستغلال قدرات الثقافة وتجسيدها. بل وبين هذا العدد الكبير من الشخصيات التى تؤلّف النواة الإبداعية فى الثقافة، أصبحت الصدارة لأشخاص ثانويين من حيث الإبداع كإبداع، أى للمنفذين، والمقلّدين، والشراح، والمصنّفين، والمنتحلين، ومستغلى ثقافة الماضى... إلخ. ويمكن أن نضرب مثلاً نموذجياً على ذلك بعملية صناعة الأفلام السينمائية واستخدام تلك الأفلام، وكذلك بالعمل الذى يؤديه عدد كبير ممّن لهم صلة بتلك الصناعة، على هذا النحو أو ذاك. حاولوا أن تجدوا بين عشرات آلاف العاملين فى هذا المجال شخصيات تضاهى أولئك العظماء فى الثقافة الأوروبية الغربية أمثال شكسبير، وبلزاك، وهوغو، ودوستويفسكي! فعندما يستخدمون إبداع عمالقة الماضى فى إطار ثقافة الغربية، يعطونهم مكاناً ثانوياً، ويتعاملون مع إبداعهم وكأنهم أشخاص عاديون كتبوا سيناريوهات سفيهة لأعمال هوليوودية سفيهة.

يتعذّر على هذا العدد الهائل من الكتّاب، والفنّانين، وصنّاع الأفلام وسواهم من شخصيات الثقافة أن يكونوا عباقرة كلهم، أو حتى - ولو بأقلّ الدرجات - قادرين على أن يبدعوا ما هو جديد، أو أن يكونوا رواداً يكتشفون. فهناك فى الثقافة نفسها، كثافة، حدودٌ للتجديد الأصيل فى إطار المعايير الجمالية. ذلك أن قوانين سوق الثقافة ترغم من يعمل فى هذا المجال على السعى إلى البروز بشتى الطرق، وخلق انطباعٍ حسن، وجذب الانتباه، واختطاف الشهرة والمال. لذلك لا يعتمد تحقيق النجاح على المنجزات الإبداعية الأصيلة، وإنما على تحطيم جميع الأطر المعوّقة، بما فى ذلك أطر الأخلاق والجمال. لقد وضع التجديد الدعىّ الجامح وراءه ما هو تجديد فى معنى الثقافة الأوروبية الغربية.

وقد أشار مؤلفون كثيرون إلى خلوّ الثقافة الغربية المعاصرة من أسماء كبيرة تضاهى عباقرة الماضى. ولكن ذلك لا يعنى أن العباقرة لم يعودوا يولدون. بل هم يولدون، وربما بأعداد أكبر ممّا فى الماضى. غير أنهم لا يستطيعون فى ظروف المجتمع

الغربي المعاصر إظهار أنفسهم بهذه الصفة، وأن يكونوا محطّ الأنظار. إذ يحجبهم عدد هائل من عديمي الموهبة المتشبهين بالعباقرة، والأكثر طواعية في حياة المجتمع الثقافية. إن ما كان ينجزه عبقرى واحد من عباقرة الماضي يُنبش الآن ليجسده بسرعة البرق عشرات ومئات من الشطّار الذين يتمتعون بمستوى عال من الإعداد المهني. وتساعد وسائل الإعلام الجماهيرى على نشوء نظام مشوّه لتقييم المنجزات الإبداعية، فتستفيض متجاوزة كل حدّ في تمجيد عديمي الموهبة أصحاب "الصرعات"، وتتجاهل الإبداع الحقيقى.

وقد لاحظ كثير من المؤلفين افتقار الفن الغربى المعاصر إلى المضمون. وأعتقد أنه لا يكفى أن نشير إلى هذه الحقيقة. ذلك أن مفهوم المضمون فى الفن هو نفسه قد تغير. فما كان يُعدّ فى الثقافة الأوروبية الغربية وسائل شكلية للتعبير عن المضمون، هو نفسه ما بات المضمون فى فن الغربية. والمؤثرات التعبيرية التى لا تتطلب ذكاء رفيعاً أصبحت هى جوهر الفن، وانحدر الفن من المستوى الذهنى الرفيع إلى مستوى انفعالى ساذج.

يتّصف فن الغربية بالهرب من الواقع، بعدائه الواعى للواقعية. فهو يخلق عالماً مختلّقاً، ليس بالضرورة إيجابياً، ولا سلبياً. المهم أن يكون باهراً، مليئاً بإغواءات ومغامرات متأججة الأهواء والانفعالات من كل نوع، وبمواقف مرعبة ومثيرة، وبظروف وكائنات غيبية أو خارقة. وقد أشار أحد علماء الاجتماع الألمان إلى أن الكتب والأفلام تزداد بريقاً، فيما الحياة تزداد رتابة وسأمًا. إذ يخلق الأدب، والسينما، والتلفزة انطباعاً كاذباً بأن "العامة" من الناس يعيشون حياة ممتعة وغنية من الناحية الاجتماعية. أمّا فى الواقع فإن حياتهم ضجرٌ ضيقُ الأفق، مثلما هى عمل مملٌ للحفاظ على هذا الضجر.

إن مئات آلاف من البشر يصنعون سيلاً متواصلًا من منتجات الثقافة لمئات الملايين من أمثالهم، ولا يمكن أن يفعلوا شيئاً آخر، أو أن يأتوا بجديد. ومئات الملايين ممن يستهلكون الثقافة لا يطالبون بغير ما هو موجود. ذلك أن وسائل الثقافة بلغت



مستوى عالياً من الكمال، فصارت قيمةً بحد ذاتها، وباتت هي المضمون الحقيقي للثقافة. وما البحث في الثقافة عن مضمون آخر إلا كالبحث عن النظافة في عمليات النصب والاحتياال السياسية والاقتصادية.

لقد تكيّفت ثقافة الغربونية مع الكمّ البشرى الذى تخاطبه، وفى الوقت نفسه كيّفت هذا الكمّ مع ما هى قادرة على إنتاجه. إنها تحقق النجاح لأنها تخاطب أوسع الفئات، وأبسط الحاجات والأنواق، وأكثر الذهنيات تشوّهاً. على أن الطبقات العليا والفئات المثقفة فى المجتمع لم تحتفظ لنفسها بأى ثقافة نخبوية تكون استمراراً وتطويراً للثقافة الأوروبية الغربية، بل غدت أول المستهلكين لثقافة الدّهماء المعاصرة، فشجّعت هذه الثقافة وساندتها، ورفعتها إلى مرتبة أرقى المنجزات، ويسّرت إفساد الجوّ كلّهُ فى مجال الثقافة. صحيح أنه كان للأرستقراطية فى روما القديمة أماكنها الخاصة، ولكنها كانت تشاهد العروض نفسها التى تشاهدها الدّهماء، بل وكانت تسعى لتشاهد تلك العروض من أقرب مسافة لتتمكّن من رؤية أدقّ التفاصيل.

## السينما

ظهرت السينما فى القرن العشرين، وهى بمولدها نفسها عنصرٌ فى الثقافة التى هى غربوية على نحوٍ خاص. وقد تأثرت فى بداياتها الأولى تأثراً هائلاً بالثقافة الأوروبية الغربية، وبالأدب خاصة، فوهبت العالم روائع خالدة. وبعد الحرب العالمية الثانية تألقت السينما لحظةً كاستمرارٍ لتقاليد الثقافة الأوروبية الغربية. ثم أعقبت ذلك عملية جارفة ترمى إلى غربنة السينما، ونستطيع القول: إلى قولبتها هوليودياً. وقد تضاعفت إنتاجية صناعة السينما بشكل غير عادى، وبلغت تقنيّتها، ومهارة الممثلين الفنية، والإخراج، وعموماً كلُّ ما يتعلق بتكنولوجيا صنع الأفلام أعلى المستويات. فصارت السينما النوع الرائد بين الفنون، وأخذت تمارس تأثيرها على سواها من الأنواع. بل ومن وجهة نظرٍ ما كان يعتبر رئيساً فى الفن الأوروبى الغربى، أى من

وجهة نظر مضمون الأفلام. فقد فقدت السينما جميع علائم الفن الأساسية، وتحولت إلى ما راح عدد لا حصر له من نقاد ثقافة الغربية يسمونه "نقيض الفن". إن خواء المضمون، وترويج العهر، والانحراف، والعنف، والخلاعة، والتشوه الفكري، والسذاجة الانفعالية، والابتعاد عن الواقع أو تشويبه، وسوى ذلك من الظواهر الذميمة من وجهة نظر الثقافة الأوروبية الغربية، أصبحت صفات ملازمة للسينما الغربية. أما بعض الأفلام التي يمكن اعتبارها أعمالاً فنية أصيلة فقد غدت استثناء نادراً.

## الأدب

احتل الأدب الموقع الرئيس في الثقافة الأوروبية الغربية، بالرغم من أن عدد الكُتَّاب كان قليلاً نسبياً، وكذلك عدد الكتب والنسخ المطبوعة منها، مقارنة بما هو عليه هذا العدد اليوم. فقد تزايد عدد الكُتَّاب مئات المرات مقارنة بما كان عليه في القرن التاسع عشر، وبلغ عدد الكتب أرقاماً فلكية. وإذا ما قسنا التقدم بهذه المقاييس، وبالوقت الذي تُمضيه البشرية في القراءة، توصلنا إلى استنتاج متفائل جداً لصالح التقدم الهائل في مجال الأدب تحديداً. ولكن هذا النوع من المعايير وسيلة من وسائل الإيديولوجيا. أما في الواقع فإن وضع الأدب وحالته في ثقافة الغرب المعاصرة لا يدعو إلى التفاؤل، في أحسن الأحوال. لقد فقد الأدب دوره الطبيعي في الثقافة. إذ بالرغم من إصدار ملايين الكتب والمجلات، يظل الجزء الأساسي مما تنشره المطابع نقيضاً حاداً لما كان يشكل أساس الأدب الأوروبي الغربي ونواته. إنه أدب متدنٍ للغاية من حيث مستواه الفكري والجمالي، وقد تحول من الناحية الأخلاقية إلى وسيلة لإفساد الجماهير وتضليلها. والقسم الأعظم من الكتب المطبوعة لا يحتاج تأليفه إلى عقل أو موهبة أدبية، ولا إلى جهود مديدة. ذلك أن قيمة الكتب اليوم لا تُقاس بمقاييس الإبداع الأدبي الخاصة، بل بمدى نجاحها المالي، والضجة التي تثيرها في الصحف، والمكانة الاجتماعية التي يتبوأها مؤلفوها. أما الجانب الإبداعي من الأدب فقد غدا في الدرجة العاشرة من الأهمية. وهيمن أدب مبتذل خالٍ من أية طموحات إبداعية. وإليكم

بعض الأرقام فى هذا الصدد. إذ تفيد الإحصائيات التى نشرتها الصحف عام ١٩٩١ أن مبيعات كتب هاينتس كونزاليك بلغت ٧٦ مليون نسخة، وكتب جاكى كوليتس ١٠٠ مليون نسخة، وكتب سيدنى شيلدون ١٠٠ مليون نسخة، وكتب هارولد روبنس ٢٢٠ مليون نسخة، وكتب باربارا كارتلاند ٥٠٠ مليون نسخة. على أنه لم يخطر على بال أى من عظماء كتّاب الماضى مثل هذا "النجاح" حتى فى الأحلام. بالطبع، يمكن القول: إذا كانت هذا الكتب لا تُعجبك، فلا تقرأها. ولكن ذلك ليس إلا وعظماً فارغاً. فالقارئُ العوبة، والأدب المبتذل يحتلّ مكانة فى نفوس الناس، ويُفرغ جيوبهم.

### الآلية الإيديولوجية

يتناقض حال الآلية الإيديولوجية فى الغرب، فى كثير من الجوانب، مع ما كان موجوداً حتى ثمانينيات القرن العشرين فى الاتحاد السوفيتى والبلدان الشيوعية الأخرى، حيث كان يوجد جهاز إيديولوجى مركزى واحد، وقد أقيم هذا الجهاز بشكل مصطنع بقرارات من السلطات العليا، وفُرض "من فوق". وكان جزءاً من نظام السلطة والإدارة يتميز بشكل جلى عن غيره من المؤسسات. أما مهمته الخاصة فهى كل ما له علاقة بالإيديولوجيا وصياغاتها وحمايتها، وبسقل الناس إيديولوجياً، وبالسيطرة الإيديولوجية. وكان عدد كبير من الموظفين المحترفين يعمل فى هذا الجهاز الذى تغلغل فى مجالات المجتمع كافة، وسعى للسيطرة على جميع مناحى عمل الناس وحياتهم. لقد كان يبذل جهوداً كبيرة من أجل إرغام المواطنين على دراسة الإيديولوجيا، وتوريثهم فى الفعاليات الإيديولوجية. كان ذلك واضحاً للعيان، متناقضاً مع السكان كشىء خارجى فى حياتهم، بل وغريب، حتى غدا فى نظر قسم كبير من المواطنين مادة للسخرية، بل وحتى للكراهية أيضاً.

ليس فى المجتمع الغربى آلية إيديولوجية من هذا النوع. ولكن ذلك لا يعنى عدم وجود أية آلية إيديولوجية عموماً، فللغرب أليته التى تضاهى بحجمها وطبيعتها نشاطها

ما يماثلها في البلدان الشيوعية، بل وأن تبرزه في بعض الأمور. لقد نشأت وتكوّنت بطريقة طبيعية كعنصرٍ مكوّن في مجمل صيرورة الثقافة، ونظام التربية والتعليم، ووسائل الإعلام الجماهيرى، ومؤسسات الدولة، والمجتمع المدنى. تكوّنت دون أن يلحظ أحد ذلك، من غير قرارات خاصة تُصدرها السلطات العليا. ولم يدُر في خلد السلطات أنها وهى تنشئ مؤسساتها كانت بذلك تساهم في خلق هذه الآلية التى لم تتخذ حتى الآن شكل منظومة متميزة من الأشخاص والمؤسسات. والجهات التى تقوم بوظائف هذه الآلية، بأشكال ومقادير مختلفة، هى المدارس، والجامعات، ومراكز الأبحاث، والجرائد، والمجلات، ودور النشر، والتلفزة، والأدب، والسينما، والإعلانات، وعدد لا يحصى من المنظمات، والأحزاب، والحركات... إلخ. إنها آلية مبنوثة فى المجتمع، ومختلطة بعمل عناصر فى المجتمع ليست إيديولوجية بحد ذاتها. باختصار، يخيل وكأنه لا وجود لهذه الآلية البتة.

ذلك ما يخيل لا غير، ولكنها فى الحقيقة موجودة، وإذا ما أراد المرء تحديدها فى جسم المجتمع أمكنه ذلك فى كل بلد من البلدان. تتحدث عالمة الاجتماع الأمريكية بربارة إيرينرايخ<sup>(١٢٥)</sup> عن "طبقة متوسطة محترفة" يندرج فيها المعلمون والصحفيون وأساتذة الجامعات، والمهندسون، والأطباء والموظفون الحكوميون، وترى فيها "مصنعاً لإيديولوجيا الولايات المتحدة الأمريكية وقيمها". وتضيف أن هذه "الطبقة" تشكل ٢٠ بالمائة من الشعب. وأعتقد أن هذا الرقم الكبير ناجم عن تشوش المفاهيم واختلاط معايير القياس. ومع ذلك فإنه يعكس الواقع. ذلك أن "مصنع إيديولوجيا أمريكا وقيمها" هائل حقاً. وعدد المنخرطين فيه لا يقل (إذا كان لا يزيد) عن عدد المنخرطين فى العمل الإنتاجى الفعلى. ومن هذه الناحية لا تختلف بقية بلدان الغرب كثيراً عن الولايات المتحدة الأمريكية.

---

(125) Barbara Ehrenreich. Angst vor dem Abaturz. Munchen, 1992.

إن من يقوم بوظائف الإيديولوجيين في البلدان الغربية هم الفلاسفة، وعلماء الاجتماع، وعلماء النفس، والمؤرخون، وعلماء السياسة، والصحافيون، والكتاب، والسياسة، والمستشارون في مؤسسات السلطة وفي الأحزاب، وموظفو الأجهزة السرية وأجهزة الدعاية. وتوجد مؤسسات أبحاث من نوع خاص، ووكالات ومراكز، تشتغل بقضايا الإيديولوجيا. وهناك، على أقل تقدير، في العديد من الجرائد، والمجلات، ودور النشر، والمدارس، والجامعات... إلخ. أناس يؤدون وظائف السيطرة الإيديولوجية. إنهم يقررون ما يكتب وكيف يكتب، وما يقال وكيف يقال، ما يطبع وما لا يطبع. وهم الذين يقررون ما يجب إنتاجه من أفلام، وبرامج للتلفزة، وما يجب الترويج له وكيف، والعروض التي ينبغي تنظيمها، والفعاليات الجماهيرية ذات البعد الإيديولوجي، والحفلات التي تقام، وكيف تنتقى الأخبار وتصاغ.

ومختصر القول، إن كل ما كان يجري عمله في البلدان الشيوعية بمبادرة جهاز خاص، وقسراً، يجري عمله في الغرب أيضاً، ولكن كما لو أن الأمور تسير تلقائياً، من غير إرغام ظاهر من طرف الدولة، وفي شكل مستور، ودونما جهود خاصة من طرف من يتعرضون للصقل الإيديولوجي، وكثيراً ما يكون ذلك على شكل نوع من التسلية وتزجية للوقت ممتعة، وكبزنس أيضاً.

إن الوضع في المجال الإيديولوجي يشبه، من هذه الناحية، الوضع في الاقتصاد. فهنا يمكن الحديث أيضاً عن سوق للأفكار، سوق تؤدي وظائفها وكأن "يداً خفية" تديرها. هناك من ينتجون الإيديولوجيا ويحافظون عليها، أي من يعرضون سلعاً وخدمات إيديولوجية، وبالوسائل المتاحة لهم يقومون بإيصال بضاعتهم إلى المستهلكين، أي إلى من يصقلونهم إيديولوجياً من المواطنين، وهذا استهلاك حقيقي، لا مجازي، للبضاعة الإيديولوجية، أي للاستماع، والقراءة، والمشاهدة. وفي هذه السوق يلعب الطلب دوره ويأخذ العرض بعين الاعتبار، كما أن الطلب يتشكل بواسطة هذا العرض. و"اليد الخفية" في هذه السوق ليست شيئاً من صنع الخيال، بل هي منظومة محددة من أشخاص ومؤسسات ومنظمات... إلخ، يقيمون صلات فيما بينهم، ويتمتعون بقدر جيد

من الإعداد يؤهلهم لتقييم الوضع فى السوق الإيديولوجية، وتحصيل منافع معينة. ومختصر الكلام، إن الآلية الإيديولوجية فى يد الغربية هى بالضبط آلية تقتضيها حاجة المجتمع من أجل المحافظة على ذاته كمجتمع غريبى من هذا النوع، وتتناسب مع طبيعة هذا المجتمع.

هذه الآلية الإيديولوجية لا تثير عند الناس الذين يخضعون لعملية الصقل الإيديولوجى رد فعل سلبياً كالذى كانت تثيره فى البلدان الشيوعية، إذ يُخيل أنه لا وجود لها البتة. وإذا كان ثمة ما يجعل الناس يستاءون فهو طابع الأفلام، أو البرامج التلفزيونية، وغزارة الأدبيات البوليسية والخلاعية، وتغطية الأحداث فى الصحف، والإعلان، وبرامج المدراس والجامعات... إلخ، وليس الإيديولوجيا، ولا العنف الإيديولوجى بأي حال من الأحوال. فانت حرّاً! اشترِ أو لا تشتري! شاهد أو لا تشاهد! استمع أو لا تستمع! شارك أو لا تشارك فى هذه الفعاليات أو تلك (اجتماعات، تظاهرات، محاضرات... إلخ). فانت حرّاً! أمّا حقيقة كونك عاجزاً عن الإفلات من حقل الإيديولوجيا فتبقى خفية على من يقعون تحت تأثيرها بشكل أو بآخر.

المسألة هنا كما فى سوق السلع والخدمات. أنت حر فى أن تشتري أو لا تشتري شيئاً معيناً، أنت حر فى أن تختار. لكنك مضطر لأن تشتري، أو لأن تختار شيئاً. فإمكاناتك وحاجاتك مكوّنة سلفاً طبقاً لشروط السوق. وليس بوسع الإنسان أن يعيش مغمض العينين أصمّ، ولا أن ينعزل تماماً عن كل ما يحمل معه معلومة ما. إنه مضطر لأن يشاهد ويسمع ويقرأ، وأن يشارك فى أمور ما. فالإنسان عاجز عن تفادى العقاقير والقطرات الإيديولوجية المحلولة فى كل ما يمرّ عبر وعيه. يُخيل وكأن الإنسان متروك لنفسه. غير أن البيئة التى يعيش فيها ليست متروكة لنفسها. فالبيئة فى حالة تشكّل، والإنسان يتكيف معها. إنها تشكّل الإنسان.

ليست المنظومة الغربية الخاصة بصقل الناس إيديولوجياً بحاجة إلى تعمد حشو رءوس الناس بالإيديولوجيا بطريقة قسرية، مكشوفة. فهذا الأسلوب ليس ناجعاً، ولا يعول عليه إلا لبعض الوقت. وثمة أسلوب آخر أكثر فعالية بكثير، يعتمد على إعطاء

الناس الحرية الإيديولوجية، وخلق وهم لديهم بعدم وجود حقل إيديولوجي عمومًا، بل وبأن هناك فوضى إيديولوجية، فيما جرى في الواقع تذويب القطرات الإيديولوجية في حيز الناس الحيوي من أجل جعل ابتلاعها لا يتطلب منهم أي جهود أو ذكاء. والمهم هنا هو عدم تمكين الآخرين من أن يطرحوا في حيز هذه الفوضى الإيديولوجية أي إيديولوجيا واضحة ومنظمة، أي منعهم من أدلجة الناس في هذا المعنى. ويتطلب هذا الأسلوب أيضًا أن يترافق على الدوام مع العمل بلا كلل على رقد هذه الفوضى الإيديولوجية بالأفكار المبتذلة التي تلبى حاجات المواطنين "المضللين إيديولوجيًا". فالحرية الإيديولوجية في ظروف الحقل الإيديولوجي الغربي وسيلة لتبليد الجماهير إيديولوجيًا أشد قوة بكثير من القسر الإيديولوجي.

إلا أن الإيديولوجيا والدعاية الغريبتين تسرفان في المبالغة بهذه الحرية. والأرجح أن ذلك فوضى إيديولوجية مصطنعة من أجل أوساط معينة من السكان، وفي حدود معينة، تسهل تمرير خط إيديولوجي ليس فوضويًا على الإطلاق. ويمكن القول إن هذه الفوضى ظاهرة "مقننة" لا تؤثر جوهريًا على حالة المجتمع الإيديولوجية. فأى تخطئ ("تقنين") لهذه الحدود، أى ظهور احتمال تأثير جدوى على المجال الإيديولوجي كافٍ لأن يجعل السيطرة الإيديولوجية تقوم بعملها. اكتب وقل ما تريد! ولكن ما الفائدة من ذلك؟ فلكي يسمعك ويفهمك ولو عدد قليل من الناس لا بد لك من منبر، أى من صحف، وتلفزة، وإذاعة، ودور نشر. ولكن هذا المنبر ليس متاحًا لأي كان. ذلك أن أصحاب المنابر أحرار أيضًا، أحرار بتقديم منابرهم لمن يناسبهم، ويحببها ممن لا يناسبهم. فالاستفادة من حرية التعبير عن الأفكار تتطلب أموالاً، والأموال هي محرك الآلية الإيديولوجية.

إن المتحكِّمين بالمجال الإيديولوجي يهبون جميعاً، وكأنهم تلقوا تعليمات واحدة من مركز واحد، في وجه كل ما يعدونه مخالفاً لهم من أشخاص وأفكار. ورغم أن هذا المركز غير موجود رسمياً، فإن آلية تنسيق العمل موجودة. إذ إن من يقوم بإعداد القرارات هم خبراء نافذون، ومستشارون لدى ممثلي السلطة، ومؤسسات من



نوع خاص، وهناك جمهور من الموظفين الإيديولوجيين الذين أُعدُّوا وفقاً لهذه المهمة، ويتمتعون بالخبرة الضرورية للعمل. وهكذا، لا يحتاج الأمر إلى طویل وقت، بل وتكفي أحياناً تلميحات عابرة لتبدأ آلية الإيديولوجيا بالعمل كجوقة واحدة. ومن المدهش حقاً أن الآلية الإيديولوجية الغربية، بصرف النظر عن غياب الوحدة والمركزية الشكلية، كانت في العقود الأخيرة أسرع من مثيلتها الشيوعية، وأكثر منها حضوراً ومرونة في التعامل مع الأحداث. فقد تبين أن أحد أسباب أزمة الجهاز الإيديولوجي الشيوعي يتمثل بالضبط في صرامته، وعُريه، وحرْفيته، وبيروقراطيته، وانضباطيته العسكرية.

### كنيسة الغربية

إذا كان بالإمكان مقارنة دور إيديولوجيا الغربية وثقافتها بدور الدين في المجتمع الإقطاعي، فإن نظير الكنيسة هو مجموع الأشخاص، والمؤسسات، والمنظمات، والمنشآت العاملة في مجال إنتاج منتجات "دين" الغربية وحفظه وتوزيعه. وبشيء من التعسف يمكن تقسيم جميع عناصر "كنيسة" الغربية إلى ثلاث مجموعات، تضم الأولى منها ما يمكن تسميته بقطاع "الكنيسة" الاجتماعي، أي تحديداً مختلف أنواع مؤسسات الدولة، بما فيها الأجهزة السرية، ومعاهد البحث، والأقسام الجامعية، والجمعيات، والنوادي، والوكالات، واللجان. ويندرج في المجموعة الثانية كل ما يمكن تسميته بقطاع "الكنيسة" الخاص، أي تحديداً العدد الكبير من المنشآت التي تصنع منتجات "الدين" وتمدُّ بها سوق الإيديولوجيا والثقافة، و"اليد الخفية" التي تدير آلية هذه السوق. وتشمل المجموعة الثالثة مجمل الأشخاص، والمؤسسات، والمنشآت التي تشكّل ما جرى العرف على تسميته "بالإعلام الجماهيري" (mass-media) أو مجرد "الإعلام" (medi) إنه فاتيكان "كنيسة" الغربية بمجموع مؤسساتها، وصولاً إلى أبرشياتها المحلية الصغيرة.

وقد ظهرت فى العقد الأخير من القرن العشرين مجموعة كاملة من الدراسات التى تتناول الإعلام الجماهيرى، أشير من بينها إلى مؤلفات جان - فرانسوا ريفيل، ونيل بوستمان، وفولفغانغ كراوس<sup>(١٢٦)</sup>؛ ومنها استقيت العديد من المعلومات الثمينة. إننى لا أدعى منافسة هؤلاء الباحثين فى وصف هذا المجال من مجالات الغربية، وسأكتفى تحديداً بعرض وجهة نظرى التى تشكلت بخصوص هذا المجال كعنصر من عناصر الغربية.

### الإعلام الجماهيرى

يُستعمل هذا التعبير للدلالة على جملة من الظواهر فى المجتمع الغربى المعاصر كالإذاعات، والتلفزة، والصحف والمجلات، ومختلف المنشورات الدورية والعرضية أو التى تصدر مرة واحدة، وغير ذلك من الوسائل التى تؤدى وظائف مماثلة. ويعنى هذا التعبير فى الأصل عدداً كبيراً من وسائل الإعلام الجماهيرى. ولكن وظائف هذه الوسائل تخطت حدود نشر الأخبار. وقد تبين أنها أكثر تنوعاً وأهمية. وهى - فضلاً عن ذلك - ليست الآن مجرد جملة من الظواهر المختلفة. لقد شكلت فى المجتمع الغربى مجالاً خاصاً متكاملًا له كل قوانين (قواعد) الوجود والأداء. ولذا فإننى سوف أتجاهل هنا المعنى الأصلى الاشتقاقى لهذا التعبير، وأستخدمه كمصطلح سوسىولوجى، وبدون أى تعريف، فقط كاسم للظواهر الشائعة التى مررنا على ذكرها أعلاه (الإذاعة، التلفزة، الصحف... إلخ).

---

(126) Jean-Francois Revel. Die Herrschaft der öffentlichen Meinung. Contur-en,39A.1990;

Neill Postman. Amusing Ourselves to death. New York, 1985;

Wolfgang Kraus. Neuer kontinent Fernsehen.Frankfurt/ M., 1989

لقد شهد تطور الإعلام الغربي بعد الحرب العالمية الثانية "قفزة" نوعية هائلة، فبات واحداً من أهم مجالات المجتمع، ولذلك لا ينبغي النظر إليه الآن على أنه مجرد جملة من ظواهر متفرقة لها سمات متشابهة، بل على أنه كلٌّ واحدٌ له بنية معقدة، وأجزاء ووظائف متنوعة. والظروف التاريخية لهذه "القفزة" هي ما يلي:

١- التزايد الكمي العظيم للعناصر المكوّنة لوسائل الإعلام؛

٢- تحسُّنها التقني.

٣- اختراع وسائل جديدة.

٤- تحسين عملها.

٥- ظهور علاقات متنوعة فيما بينها.

٦- توسع مجال نشاطها، وازدياد قوة دورها في حياة المجتمع.

وتعطى الأرقامُ التالية تصوُّراً ما عن الآفاق التي بلغها الإعلام، ففي أواخر الثمانينيات كان في الولايات المتحدة الأمريكية ١٦٤٥ صحيفة يومية تصدر ٦٣ مليون نسخة، و ٨٠٠٠ صحيفة أسبوعية، و ١١٢٠٠ مطبوعة دورية مصورة، وأكثر من ٩٠٠٠ إذاعة تجارية و ١٤٢٠ إذاعة غير تجارية، و ١٤٤٠ محطة تلفزيونية ( ثلاثة أرباعها تجارية)، و ٩٩٠٠ منظومة كوابل، وفي عام ١٩٨٥ كان يوجد في ألمانيا الغربية ١٢٥٣ جريدة يومية و ٦٩٠٠ مجلة. وفي العام ١٩٨٩ كان يوجد فيها ٩،٤ مليون جهاز راديو و ٢،٤ مليون جهاز تلفزيون<sup>(١٢٧)</sup>.

إن الوضع الاجتماعي - الاقتصادي للإعلام متنوع ومتغير. ففي الولايات المتحدة الأمريكية كانت تهيمن، وقت كتابة هذه السطور، الشركات التجارية في مجال التلفزة،

---

(١٢٧) Emil Hubner انظر الهامش رقم ١٠٦.

غير أنه كان هناك أيضاً شركات غير تجارية تدعمها الدولة. وفي عام ١٩٨٨ بلغ حجم الأموال الموظفة في بزنس الإعلام في الولايات المتحدة الأمريكية حوالي ٤٨٠ مليار دولار<sup>(١٢٨)</sup> وفي معظم بلدان أوروبا الغربية كانت الإذاعة والتلفزة شركات عامة تدعمها الحكومات مالياً. ثم في العام ١٩٨٠ بدأ اتجاه نحو الخصخصة (مردوخ، ماكسويل، بيرلوسكوني).

ومثل ذلك موجود في مجال تجميع وسائل الإعلام (المركزة)، واستقلالها عن بعضها البعض (نزع المركزة). فقد كانت الصحافة مركزية في بعض البلدان (النمسا، إنجلترا)، وغير مركزية في بعض آخر (ألمانيا، هولندا، السويد)، ومزيجاً من الاثنين في بعض ثالث (فرنسا، بلجيكا، الدنمارك). ثم حدث بعض التغييرات، لكن الأشكال السابقة بقيت على حالها. على أن التغييرات في مختلف أجزاء الإعلام كانت وما زالت تجرى في اتجاهات مختلفة، وتتخذ أشكالاً مختلفة.

إن مركزية الإعلام التي كانت في البلدان الشيوعية موضع انتقاد، كأحد عيوب الشيوعية، تتعايش تماماً والخصخصة. ووسائل الإعلام الأمريكي<sup>(١٢٩)</sup> شاهدٌ على ذلك. فبالرغم من أن المركزية هناك لم تكن واضحة القسومات، فإنها كانت موجودة! إذ كانت المحطات التلفزيونية المحلية، مثلاً، تابعة لشركات الإعلام القومية الكبرى في ما يتعلق بالبرامج. ذلك أن البرامج المحلية في تلك المحطات كانت أقل من ١٠٪ من إجمالي برامجها، بينما كان البث في معظمه يعتمد أساساً على برامج وأفلام من ثلاث محطات كبرى. وفي مجال الأخبار لعبت محطتا (يو. بي. آي، و. أ. آر) دور جهازين مركزيين. وكانت أربع من كل خمس محطات تلفزيونية في مئة من المناطق الأكثر اكتظاظاً بالسكان تعود لمجموعات تملك عدداً كبيراً آخر من

---

(128) The Universal Almanac. 1990.

(129) Emil Hubner.

وسائل الإعلام، وكان الجزء الأكبر من الصحف فى أيدي عدد قليل من الاحتكارات. فقد كانت شركة "هانيتى" فى العام ١٩٨٥، مثلاً، تملك ٨٦ صحيفة يومية، ولم تكن الصحف التى تتنافس فى ما بينها موجودة إلا فى خمسين مدينة من بين جميع المدن الأمريكية.

إن الميل إلى تكثيف الإعلام ومركزته تجسيد للقوانين العامة فى ظل الرأسمالية. ولكن من الخطأ حصر المسألة فى هذا القول. ذلك أن الإعلام ليس مجرد واحد من مجالات تثمير الرأسمال. إنه شىء أكبر من ذلك، يتعدى إطار البيزنس. فهو إعلام وتضليل إعلامى، تمجيد ونقد، خدمات للسلطة والبيزنس ومعارضة لهما، ترويج للأخلاق وترويج للفجور، تنوير وتعمية، صراع أفكار ومصالح، تعبير عن الحياة، وتشويه للواقع، صنع للحياة... إنه، باختصار، معادل الحياة الاجتماعية فى كل تجليات عاملها الذاتى. فالإعلام ميدان الحياة الاجتماعية الذى أصبح بحد ذاته واحداً من أهم العوامل فى هذه الحياة. وهو يتألف من عشرات آلاف المؤسسات والمنظمات والمنشآت. ويعمل فى الإعلام مئات آلاف الموظفين، ويجتذب للمشاركة فى عمله ملايين الناس من شتى الفئات الاجتماعية. فالإعلام أداة جبارة فى تكوين الوعى، والمشاعر، والأذواق لدى جماهير غفيرة من البشر، وأداة للتأثير عليهم بالاتجاه المطلوب لجهة ما. ولكنه أداة تعى نفسها بنفسها بوصفها قوة تستعمل جميع الآخرين وكل الأشياء الأخرى أداة لفرض سلطتها على المجتمع.

شكلياً، لا وجود لمركز واحد يدير الإعلام. أمّا، عملياً، فإن الإعلام يقوم بوظائفه على نحو يجعله يبدو وكأنه يتلقى تعليمات من مركز قيادى ما على غرار اللجنة المركزية فى الحزب الشيوعى السوفيتى. ثمّة "يد خفية"، وهى لم تحظ بدراسة علمية تقريباً. ونادراً ما تصل معلومات عنها إلى الصحافة. وتتألف هذه "اليد الخفية" من عدد قليل نسبياً من أشخاص يجيزون التوصيات التى تعدّها دائرة أوسع تضم سياسيين، ورجال أعمال، وعلماء سياسة، وصحافيين ومستشارين... إلخ، يعطون الإشارة للإعلام كى يبدأ نشاطاً منسقاً بصدد قضايا بعينها. ويوجد فى مؤسسات الإعلام عدد كبير

من الموظفين ذوي الخبرة الذين يتنبأون فوراً بالتوجهات والمقاصد الجديدة، بل ويستبقون "التعليمات العليا". وسرعان ما يبدأ بالعمل جيش هائل من المنفذين المهيين لتنفيذ أى مهمة وفقاً لما يتطلبه التوجه الجديد. وتقوم بين من تتألف منهم هذه الآلية اتصالات شخصية لا تحصى، ويجرى عمل هذه الآلية كله تقريباً على شكل تنظيم ذاتى وظائفي من نوع ما (كما أسميه)، وليس كمنظومة أوامر موثقة تستتبع تقارير عن تنفيذها. إن هذه الآلية مخفية وليست عرضة للتهجمات من خارجها.

لقد نشأ الإعلام على النحو الذي يتطلبه المجتمع تحديداً، وكما هو ممكن عموماً. ومن السخف لوم الإعلام على عيوبه الواضحة، وتجاهل كون الإقبال على هذه العيوب لا يقل عن الإقبال على مزاياه. فما الذي يُعدُّ من العيوب؟ وما هي معايير تقييم عمل الإعلام؟ إنه يؤدي وظائفه، بل وأفضل مما تؤدي وظائفها المؤسسات الأخرى في المجتمع. ولكن هذه الأفضلية ليست من وجهة نظر دعاة الأخلاق المتطلعين إلى صدقية وعدالة ما، بل من وجهة نظر صقل الناس بالطريقة الضرورية للمجتمع، ومن وجهة نظر تلبية حاجات الناس إلى هذه البضاعة تحديداً من أجل عقولهم ومشاعرهم.

إن التنوع الكبير في وظائف الإعلام وخصائصه يجعلنا، إذا أردنا، قادرين على رسم تلك الوظائف والخصائص في أى صورة نشاء، إيجابية<sup>(١٣٠)</sup> كانت أم سلبية، بل وبالاعتماد في كلتا الحالتين على معطيات موثوقة. وزيادة على ما قيل أعلاه سأشير أيضاً إلى بعض صفات الإعلام دون أن أعطيها أى تقييم ذاتي.

لم يصبح الإعلام أداة لجمع ونشر أخبار ينتجها طرف آخر، بل أصبح منتجاً للأخبار، مراقباً لها، ومتسلطاً عليها. ولديه، بغية تحقيق هذا الهدف، كوادره القوية

---

(130) Wolfgang Kraus. Neuer kontinent Fernsehen. Frankfurt/ M., 1989.

المدرّبة مهنيًا. فهو يسيطر عمليًا على جميع ما فى المجتمع من قوى لها أى صلة بالأخبار. إنه يصوغ الأخبار وفق قواعده، وبالشكل الذى يحقق مصالحه. وكمية الأخبار التى تُفَلت من رقابة الإعلام ضئيلة جدًا مقارنة بكمية الأخبار التى تمر عبر قنواته، فضلًا عن أن دورها أكثر ضالة بكثير. لقد جمع الإعلام تحت جناحيه التيارات والقوى الإعلامية الأساسية والأكثر تأثيرًا فى المجتمع.

يتدخّل الإعلام فى جميع مجالات المجتمع: السياسة، والاقتصاد، والثقافة، والعلم، والرياضة، ومفردات الحياة اليومية. إنه يتدخّل فى كلّ شىء، ولا يكتفى بالتأثير على عقول الناس ومشاعرهم، بل ويمارس عليهم سلطة، هى سلطة ديكتاتورية أيضًا، عبر أقنية عديدة، أشير فى ما يلى إلى ما هو أساسى منها.

يستأثر الإعلام بانتباه الأغلبية الساحقة من سكان البلدان الغربية، وذلك عبر تزويدهم بفيضٍ من كل ما يحتاجون إليه من أخبار، ونميمة، وتسليات، وإثارات، وتتوفر لديه من أجل تحقيق هذا الغرض وسائل غير محدودة، وتكنولوجيا فى غاية التطور، وأساليب متقنة. ويتعدّر إحصاء ما يهدر الناس من وقتهم وطاقتهم على مشاهدة أجهزة التلفاز، أو قراءة الجرائد والمجلات، أو الاستماع إلى المذياع. وليس هناك أى كنيسة تضاهى، من وجهة النظر هذه، "كنيسة" الغربية التى هى، فوق ذلك، مريحة أيضًا من حيث أسلوبها فى اجتذاب الناس إلى نشاطها، إذ تمكّن الإنسان من أن يستهلك منتجات الإعلام وحيدًا، فى منزله، أو فى وسيلة النقل، وحتى فى أثناء وجوده فى عمله.

إذا كانت التلفزة تسمّر إلى شاشاتها مئات الملايين من البشر فتحول دون خروجهم إلى الشارع، ودون تركهم يشكّون كتلاً جماهيرية تصعب السيطرة عليها، فإن ذلك وحده كاف لجعل الإعلام أهمّ وسيلة للتحكم بالناس فى عالمنا الحالى المكتظّ بالسكان، الجشع، الناقدِ الصبر، الذى لا يؤمن بالله.

والقناة الثانية الأهمّ التى يستقى الإعلام سلطته الكليّة منها هى سيطرته على كامل النشاط الفكرى والإبداعى فى المجتمع، وتحكّمه بهذا النشاط وتوجيهه عبر تأمين



شهرة لمبدعي نتاجات الثقافة، فهو من يقيّمهم، وينتقّيهم، ويُلقي عليهم الضوء. لقد نصّب الإعلام نفسه قاضياً عاماً يحكم على ما تنتجه الثقافة، فيقدّمه من حيث الموضوع، والتوجه الفكرى، والذائقة الجمالية. وهو من يحدّد دائرة الناس، والأعمال، والأفكار، والأزياء التى يحقّ لها الظهور على حلبة الثقافة. إن ما يحدّد مصير المبدعين فى مجال الثقافة ليس عبقريتهم ولا عقولهم، وإنما هو موقف الإعلام الجماهيرى منهم. فهو قادر على تعظيم الحقير وعديم الموهبة إذا كان ينسجم مع مصالحه وحساباته، وعلى منع الهواء عمّن هو عظيم وموهوب إذا لم يكن يحقق هذا الشرط.

والقناة الثالثة الأهمّ التى يستقى الإعلام سلطته الكليّة منها هى تقديمه منبراً للسياسيين، وحلبةً للتمثيلات السياسية. فهو يضخّم غرور السياسيين المفرط ويستغلّه، ويؤثّر على نجاحاتهم وإخفاقاتهم تأثيراً يكون مصيرياً فى بعض الأحيان. فبدون الإعلام لا معنى لأية حملات انتخابية، أو معارك برلمانية، أو لقاءات، أو زيارات، أو خطابات، أو مظاهرات، أو حركات جماهيرية، أو فعاليات حزبية، ولا لأهمّ مظاهر الحياة الاجتماعية - السياسية فى البلدان الغربية.

وأخيراً، فقد استأثر الإعلام بالرأى العام والمجتمع المدنى، إذ صار بوقاً لهما، وفى الوقت نفسه جرّدهما من الاستقلالية. لقد وجدا فى الإعلام قوتها المنظمّة، فتخلّيا له عمّا لهما من استقلالية وسلطة. وصار الإعلام شيئاً يشبه "الدولة" فى حياة المجتمع غير الحكومية.

يلفت نقّاد الإعلام الانتباه إلى أن وسائله مُلكُ قوى أخرى، وأن هناك من يوجّهه كأداة له. إننى لا أنفى هذا الرأى، ولكننى أرى أن ذلك ليس هو اللبّ. قد تعود ملكية وسائل الإعلام لأفراد، أو لدولة، أو لمنظمات اجتماعية، أو شركات كبرى، أو بنوك، ويمكن أن يستخدمه الرأسمال الكبير، والحكومة، ومجموعات وعصابات ما. غير أن ذلك كله لا يجرّده من الدور الذى يلعبه فى المجتمع، ولا من مكانته فى منظومة الظواهر الاجتماعية الأخرى. ذلك أن حجم دوره ومكانته فى المجتمع يمكنه أيضاً من أن يملأ إرادته على جميع من يتحكّم به إلى حدّ ما، وعلى من هم سادته رسمياً. فجميع من

يُعدّون مالكيه والمتحكّمين به مضطرون للخضوع للشروط ذاتها التي تمكّنهم من ممارسة سيادتهم على الإعلام وتحكمهم به. والأرجح أن هناك تواطؤاً وتقاسماً للسلطة بين شركاء أُنداد متكافئى القوّة إلى هذا الحدّ أو ذاك، أكثر ممّا هناك علاقة سيادة وخضوع. فصاحب الجريدة، مثلاً، يؤثر على خطّ جريدته السياسى، ولكنه فى الوقت نفسه يكون خاضعاً لجريدته كظاهرة تلعب دوراً متميزاً فى المجتمع.

إنّ الإعلام فى المجتمع الغربى إلهٌ عديم الملامح، ينحنى له أيضاً جميع من يُعنون، أو يتصوّنون أنفسهم مالكين أو رؤساء لهذا الإعلام. فأكثر ما يقوم به هؤلاء هو فى الحقيقة خدمة معبودهم بوصفهم كهنته، وطبعاً مقابل أجرٍ جيّد وأرباح. فالإعلام ظاهرة اجتماعية تنطوى على تجميعٍ كثيف لقوة أفراد بلا ملامح فى الكلّ الاجتماعى، هم مشاهدون، وقرّاء، وعلماء، وفنّانون، وإيديولوجيون، ورياضيون، وسواهم من المواطنين. إنه سلطتهم الجماعية التى هى سلطة مطلقة لكلّ منهم بمفرده. إذ إنّ مكنّ قوة الكنيسة فى مرحلة الإقطاعية أيضاً لم يكن فى العدد غير الكبير نسبياً من رجال الكنيسة، وإنّما فى مجمل جمهور السكان الذين كانوا يؤمنون بالكنيسة ويقدمون لها أجزاء صغيرة من "أنا" - هم المغتربة.

## الإعلان

الإعلان أداة مهمة لتكوين المادة البشرية. وهو ليس مجرد ترويج لسلع وخدمات. إنه دعاية لمنظومة قيم الغرب ونمط حياته. وتبليد الناس الإيديولوجى يتخذ فى الإعلان أكثر الأشكال ابتداءً، وبالتالي أوسعها انتشاراً وفعالية. على أن النموذج الكلاسيكى للإعلان هو النموذج الأمريكى، طبعاً. ولا يكتفى هذا النموذج بأنه يعكس نمط الحياة المترسّخ فى الولايات المتحدة الأمريكية، بل ويساهم فى تكوينه، وبقائه، والترويج له. ومواضيع الإعلان هى: الحرية، والنشاط، والنجاح، والمتعة، والرياضة، والحيوية، والشباب. ويقع النجاح الاقتصادى فى رأس قائمة اهتمامات الإعلام. والتجسيد الحى لهذا النجاح، حسب الإعلان، هو صورة الملياردير الذى يبدأ عمله من الصفر، كما

يزعمون، ثم يصبح في غضون بضع سنوات صاحب ثروة خرافية بفضل جهوده المشروعة والأخلاقية تماماً. ويروج الإعلان للوطنية التي تعنى الإعجاب بأمريكا إعجاباً مفرطاً إلى درجة لا تصدق، وتمجيد كل ما هو أمريكي، وطريقة الإعلان الأمريكية هي المبالغة القصوى بإطراء كل ما يروج له، وإسباغ مظهر القدوة والذروة على ما هو عادي ومبتذل، والعدوانية، والسعي لجذب انتباه الآخرين، والانتشار في كل مكان. إن الإعلان الأمريكي هو، من جميع النواحي المهمة اجتماعياً، جوهر إيديولوجيا الغربية ودعايتها في شكله الأمريكي المتطرف.

## الغربية والدين

تتناول إيديولوجيا الغربية المسائل ذاتها التي تتناولها العقائد الدينية. ولكنها وسّعت دائرة هذه المسائل، وراحت تطرح حلولاً لها تخالف من حيث المبدأ تعاليم الدين. ذلك أن هذه الإيديولوجيا تتطلع منذ ولادتها إلى إيجاد حل علمي لهذه المسائل، يقوّض أسس الظلامية الدينية. وتسامح الإيديولوجيا اليوم في التعامل مع الدين لا يلغى معاداتها للدين في الجوهر. إنها تحتمله وتغض الطرف عنه، لأنه غير قادر على منافستها، ولا يحول دون قيامها بوظيفتها. فالإيديولوجيا لا تسعى إلى خلق دين جديد، وإنما إلى تخليص الناس من كل ما كان الدين وما يزال يعبئ به نفوسهم. إن تدجين الإنسان إيديولوجياً يعنى، بهذا الشكل أو ذاك، إفراغه روحياً، وشكاوى الكنيسة من تدنى نسبة المؤمنين تقوم على أسس واقعية لا أعتقد بأن إزالتها ممكنة<sup>(١٣١)</sup>.

وفي الوقت نفسه ثمة من يتحدثون عن انبعاث ديني، وعن نهضة دينية<sup>(١٣٢)</sup> وهم يستندون في ذلك إلى ما جرى في بلدان أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي السابق.

---

(١٣١) عام ١٩٨٩ هجر الكنيسة في ألمانيا الغربية ٢٤٠ ألف شخص من المؤمنين.

(132) Hubert Seiwert, Das Ende des Real existierenden Atheismus. FAS

ولكن هذا الاستناد باطل، لأن هذه البلدان ليست الغرب، زد على ذلك أن أعداداً كبيرة من الناس هناك لم ينضوا تحت "رايات" الكنيسة بدوافع الحاجة إلى الإيمان، وإنما لأسباب من نوع آخر، من ضمنها الأسباب السياسية، وإنه لأكثر جدوى هنا الاستشهاد بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث الأغلبية الساحقة من السكان تُعدُّ من المؤمنين الذين يؤدُّون الصلاة بانتظام.

إلا أن وضع الدين في المجتمع لا يقيَّم بعدد الأشخاص الذين يعدُّون أنفسهم مؤمنين يمارسون الطقوس الدينية ويسددون الضرائب الكنسية، بقدر ما يقيَّم بالدور الذي يلعبه الدين والكنيسة في الحياة الاجتماعية، وبمقدار تأثير العقائد على سلوك الناس. ومن وجهة النظر هذه فإن دور الدين والكنيسة في بلدان الغرب زهيد جداً بالمقارنة مع دور عوامل الغريبة، أما دور المبادئ الدينية فأقلُّ من ذلك شأنًا في تحديد سلوك الناس.

والولايات المتحدة الأمريكية ليست استثناء في هذا الصدد. فلقد لاحظ توكفيل في حينه أن الدين كان يحكم حياة الأمريكيين الروحية. واليوم أيضاً لا يوجد بين بلدان الغرب بلد يتمتع فيه الدين بالقوة التي يتمتع بها في الولايات المتحدة الأمريكية. فهناك يتدخل الدين في حياة الناس اليومية، يتدخل في الثقافة والسياسة. ولا أهمية في ذلك لاسم الدين الذي ينتسب المؤمنون إليه، إذ يكفي أن يكون ديناً وحسب. وتشهد هذه التعددية الدينية وحدها على أن التدين الأمريكي شكلُ نشأ تاريخياً يعبر عن ظاهرة أخرى تختلف تماماً عن الدين، هي الإيديولوجيا تحديداً. ويشبه هذا الوضع وضع الملكية في الديمقراطية الإنجليزية. إنها مفارقة تاريخية تتمثل في إيديولوجيا غير دينية ترتدى ثوباً من النفاق الديني. زد على ذلك أن دور الدين هنا مبالغ فيه بشدة. فلو درسنا سلوك الناس هناك بالطرق العلمية لتوصلنا إلى نتيجة محبطة، لأن الأمريكيين، مهما صلُّوا، يظلُّ سلوكهم أقلَّ انسجاماً مع تعاليم الدين بكثير من سلوك شعوب الغرب الملحدة علناً. على أن ربَّ الأمريكيين وباقي الغربيين، سواءً بسواء، هو ما يمكن أن توفِّره لهم الحضارة الغربية في هذه الدنيا من خيرات عادية ويستطيعون هم أنفسهم أن يحصلوا عليها بفضل هذه الحضارة.

كانت مواقع الدين تتعزز على الدوام جرأء ميل الناس إلى الأوهام، والإيمان بالقوى الخارقة والمعجزات، أى باختصار، جرأء ميلهم إلى الظلامية. وقد غدَّى الدين أيضاً هذا الميل إلى حدِّ كبير، وظلَّ مستمراً عند الغربيين بصرف النظر عن التعليم وتقدُّم العلوم. ونجد اليوم حتَّى المتعلِّمين يؤمنون بالأبراج، والتبصير، والتنجيم. وقد انضافت إلى هذه المعتقدات القديمة معتقدات جديدة ظهرت نتيجة لمنجزات العلم والتقنية، كالإيمان بوجود كائنات تسكن الكواكب الأخرى، وإمكانية التنقل فى الزمان، وحتَّى بالحياة بعد الموت فى شكل من الأشكال يتخطى العلم. وكان لإيديولوجيا الغربية، المتمثلة فى نخبتها العليا، يدٌ فى تطوير هذه الظلامية الحديثة. ذلك أن الإيديولوجيا تسير فى هذا الطريق جنباً إلى جنب مع الدين.

## نمط الحياة

لعلَّ تعبير "نمط الحياة الغربى" واحد من أكثر التعابير استعمالاً فى الكلام والمقالات حول المواضيع المتعلِّقة بالغرب. فما المقصود بذلك؟ عادةً ما يقصدون به الديمقراطية، والرأسمالية، والسوق، والتعددية... إلخ، أى باختصار جميع ظواهر المجتمع الغربى المعروفة دونما حاجة إلى هذا التعبير الخاص "نمط الحياة الغربى". غير أن فى المجتمع الغربى جانباً يتميز عن سواه من الجوانب، وهو بالضبط كيفية تجلّى الغربية فى حياة الغربيين الشخصية. إن تعبير "نمط الحياة الغربى" ليس نافلاً هنا. وسوف أستخدمه لاحقاً لهذا الغرض.

والحال، ما معنى "العيش وفق الطريقة الغربية"؟ يتعذر الردُّ على هذا السؤال بجواب واحدٍ لا يقبل الجدل. فالملياردير الغربى يعيش وفق الطريقة الغربية. والمتسولُّ الشريد الذى يتعارك مع الجرذان ليقتات من نفايات المزابل يعيش وفق الطريقة الغربية. والنجمة السينمائية التى فقدت صوابها جرأء الملايين والشهرة تعيش وفق الطريقة ذاتها. وكذلك من تخرَّجت فى جامعة، وهى متفوقة، موهوبة تبحث منذ

سنوات كثيرة عن عمل ولا تجده، حتى لو كان وظيفة معلمة براتب متدنٍ، تعيش أيضاً وفق الطريقة الغربية. والمدير الذي يتقاضى ملايين الدولارات لأنه عضو في عدد لا يحصى من المجالس والهيئات واللجان يعيش أيضاً وفق الطريقة الغربية. والعاطل عن العمل للجيل الثالث على التوالي يعيش أيضاً وفق الطريقة الغربية. والوارثة ثروةً تقدرُ بالعديد من المليارات وجعلها السأم تتاجر بالمخدرات، هي الأخرى تعيش عيشة غريبة. والبنت القاصر التي تكسب لقمة عيشها عن طريق الدعارة تعيش وفق الطريقة الغربية. والكاتب عديم الموهبة الذي تباع عشرات ملايين النسخ من مؤلفاته السفيهة، يعيش عيشة غريبة. والكاتب الموهوب الذي لا يستطيع بعمله الأدبي أن يكفل لنفسه عيشةً في منتهى التواضع، يعيش عيشة غريبة. كل هؤلاء يعيشون وفق نمط الحياة الغربي.

جلى أن الجواب على السؤال: "ماذا يعنى العيش وفق الطريقة الغربية؟" ينبغى أن يأتى استخلاصاً من دراسة معمقة تتناول حياة مختلف فئات الناس في البلدان الغربية. وأنا سأكتفى هنا ببعض الملاحظات الوجيهة التي أستكمل بها فهمى للغربوية.

## مستوى الحياة

عندما ألفت نفسي في الغرب عام ١٩٧٨ وسئلت كم كنت أتقاضى في موسكو كأستاذ (بروفيسور) في الجامعة، ذكرت المبلغ الذي كنت أتقاضاه شهرياً. فحوّل المنظرّون والصحفيون الغربيون هذا المبلغ إلى دولارات، وتوصلوا إلى استنتاج مفاده أن مستوى حياة الأستاذ الجامعي في الاتحاد السوفيتي أدنى من مستوى حياة الجندي الأمريكي. وقد حاولت جاهداً أن أقنع من تحدثت إليهم بأن مستوى الحياة تحدده عوامل عديدة، وليس فقط مقدار الأجر الذي يتقاضاه الشخص. فعلى سبيل المثال، كنت في موسكو أدفع إيجار الشقة قروشاً زهيدة. وكانت الضريبة

لا تذكر. والرعاية الصحية مجانية، بل ولم تكن سيئة كما تصوّرُها الدعاية الغربية. أضف إلى ذلك أنني كنت أنفق نقودي في روسيا، وليس في أوروبا الغربية ولا في الولايات المتحدة الأمريكية. ثم إن معيار مستوى الحياة يتضمّن عوامل أخرى، منها العمل المضمون، وشروط التعليم، والعمل للأولاد، وفرص التمتع بنعم الثقافة، والمكانة وسط زملاء العمل، ومجال التواصل، والكثير غير ذلك. فإذا ما أخذنا كل ذلك بعين الاعتبار كان مستوى حياتي أعلى من مستوى حياة يعيشها جنرال، وليس جندي أمريكي.

غير أن كلامي كان عديم الجدوى، لأنه كان يتناقض مع موقفهم الإيديولوجي القاضى بأن مستوى الحياة في الغرب هو الأعلى في العالم، ويقاس بمقدار الدخل.

إذ يقاس مستوى الحياة في هذه البلاد أو تلك بالخيرات التي يحصل عليها المواطنون في البلاد المعنية، وكيف توزّع، وكيف تحصل عليها مختلف فئات المواطنين، وكيف يؤثر ذلك كله على نمط الحياة. وليس كل شيء في مستوى الحياة خاضعاً لطابع النظام الاجتماعي. بل إن أشياء كثيرة تتوقف على ظروف من نوع آخر، أى على الظروف الطبيعية، والتقاليد التاريخية، ومكانة البلد بين البلدان الأخرى. كما أن قياس مستوى الحياة بمقدار المداخل النقدية، والمقارنة بين مختلف البلدان حسب هذا المعيار، قلّما يفضي إلى استنتاجات صحيحة موضوعياً. والمجتمع الغربي، بوصفه مجتمع الشمولية النقدية، هو الوحيد الذي يقاس فيه مستوى الحياة، أساساً وقبل كل شيء، بالمبالغ المالية التي يملكها أعضاؤه لتلبية حاجاتهم. غير أنه يوجد في ذلك المجتمع أيضاً جانب نوعي، أو ذو مضمون، وسأشير هنا إلى بعض خصائص هذا الجانب.

يشكّل المستوى المادي للغربيين من مختلف الفئات سلماً يمكن أن نرى في أحد طرفيه ثروات خرافية، وفي الطرف الآخر بؤساً لا منجى منه. وبين هذين القطبين ثمة درجات عديدة تشكل انتقالاً تدريجياً بينهما. يمكننا أن نُبرز في سلّم هذه الدرجات من المداخل "نقطتين" تحدّدان مستوى الفقر ومستوى الغنى. فمستوى الفقر هو الخط الذي



لا يملك من يكون تحته من الناس ما يكفي من الموارد لتلبية الحد الأدنى من حاجاتهم المادية العادية، ومستوى الغنى هو الخط الذى يملك من هم فوقه من الناس موارد أكثر مما تتطلبه تلبية الحد الأقصى من حاجاتهم المادية العادية. أما الحاجات المادية العادية فهي جملة من الحاجات التي يعدها المجتمع معياراً، ويكفى أن تتوفر النقود لتبويتها. وحدود هذه "الجملة من الحاجات" واسعة جداً، غير أنها ليست مطلقة، بل يمكن تعيينها تقريباً عن طريق التجربة.

ينبغي الإقرار بأن مستوى الغنى ومستوى الفقر في البلدان الغربية أعلى مما هما عليه في المجتمعات الأخرى، فحدود الحاجات العادية أوسع. وطبقة الأغنياء أكثر عدداً وثروة، والأغلبية الساحقة من المواطنين تعيش فوق خط الفقر. أما طبقة الفقراء فتمثل نسبة مئوية أقل من طبقة الميسورين. وهذا يعنى أن المجتمع الغربى هو المجتمع الأكثر بحبوحه في تاريخ البشرية. لكن ذلك لا يعنى أنه يبرز غيره من المجتمعات في الجوانب الأخرى.

إن مستوى الحياة العالى بالنسبة لقسم كبير (إن لم يكن بالنسبة للغالبية) من الغربيين ليس شيئاً يمكنهم أن يختاروه وفق إرادتهم، وليس مجرد وفرة في الموارد لتلبية الحاجات، بل هو بالدرجة الأولى شىء قسرى وباهظ الثمن، وحرية الاختيار ليست إلا اختيار الاحتمال الأنسب في إطار من القسرية، بل وهى حرية موهومة بشكل عام. ذلك أنه لا ينجح إلا أفراد معدودون وميسورون جداً في محاولاتهم تقليص درجة القسرية بشكل ما، عن طريق تخفيض ساعات عملهم، وتخفيض دخلهم أيضاً.

ويعنى مستوى الحياة العالى، بالنسبة لهذا الجزء من سكان البلدان الغربية المعنوية، غلاء المعيشة. ولناخذ مشكلة السكن. بالطبع، ثمة كثيرون يملكون منازلهم بالوراثة. وهذا يخفف عليهم أعباء الحياة إلى حد كبير، لأن شراء أو استئجار مسكن أمر مكلف جداً. وكثيراً ما يتطلب هذا البند من النفقات نصف الدخل. أما شراء مسكن عن طريق الحصول على قرض فيعنى أن يصبح المرء تحت دين أبدي للبنك. زد على قرض السكن قرض السيارة التي لا يمكن تصور الحياة الطبيعية في الغرب من

دونها. ثم إن امتلاك السيارة واستعمالها يكلفان كثيراً. كما أن نفقات العلاج في المستشفيات باهظة. وحتى إذا كان المرء سليماً معافى ولا يلجأ إلى خدمات الأطباء إلا نادراً، فإنه في جميع الأحوال مضطر لدفع تأمين صحى كى يحمى نفسه من الاضطرار لدفع نفقات كبيرة مفاجئة مقابل إجراء عملية جراحية وإقامة فى المشفى. ثم هناك مصاريف الضرائب، والتأمين على الحياة والممتلكات، وأجور المحامين، والمستشارين فى شئون الضرائب، والأولاد يكفون كثيراً، إذ يتطلب تعليمهم أموالاً طائلة أحياناً. والتعليم الذى يضمن إلى حد ما عملاً بعد الدراسة ليس متاحاً إلا لقلّة من الناس. وهذا نوع من استثمار رأس المال، على أن المتاعب والهموم التى تنشأ بسبب الأولاد هى من الأسباب الرئيسة التى تؤدى إلى انخفاض معدل النمو السكاني عند الغربيين، وحتى انعدام هذا النمو تماماً. ومن الأمور عالية الكلفة أيضاً نفقات الراحة والاستجمام أثناء الإجازة، والمفروشات، وأدوات المطبخ، وغير ذلك من متطلّبات نمط الحياة المألوف. أضف إلى ذلك مستحقّات الضمان الاجتماعى، وأشياء كثيرة أخرى.

والمشكلة الأهمّ أمام الغربوى القادر على العمل، إذا كان لا يملك مبلغاً كبيراً من المال يتيح له أن يكون متحرراً من هذه المشكلة، هى العثور على عمل يعود عليه بدخل يتناسب وتطلّعاته الحياتية. وهذا ليس بالأمر اليسير. إذ حتى إذا ما وجد عملاً من هذا النوع، فإن ذلك لا يعنى أن هذا العمل مضمون بشكل دائم. لذلك ترى أن الحالة الملازمة للناس فى الغرب هى عدم الثقة بالمستقبل، والخوف من فقدان العمل والانحدار إلى مستوى حياة أدنى، والسعى الدائم لتوفير المال تحسباً لكل طارئ، وضمنان الشيخوخة. وهذا الهمّ فى الحياة يدفع الناس إلى قدر من الحرص والحساب والتقتير يقترب من البخل، ويرغم كثيرين على الجريمة. كما يحول هذا الهم كثيراً من الناس إلى كائنات مملّة للغاية، رمادية وعديمة الملامح، تفكر منذ الصبا بضمنان شيخوختها.

ويضطر الناس لبذل جهود خارقة لكي لا ينخفض حسابهم في البنك كثيراً تحت الصفر. إن النظرية التي وضعها الاقتصادي الألماني بالو مارتن، وفحواها أن القوة الأساسية المحركة في الرأسمالية هي الديون، ليست بذلك القدر من السخافة<sup>(133)</sup>، فالإنسان الغربي المتوسط ليس مجرد كائن اقتصادي (هومو إكونوميكوس) كما يوصف في الغرب أحياناً، بل هو على الأرجح كائن بنكي (هومو بانكوس)<sup>(133)</sup>، والمشكلة هنا ليست في كونه يستخدم البنك كوسيلة مريحة، بقدر ما هي في كون البنك يستخدمه هو كوسيلة لتحقيق الربح.

وما من حاجة للحديث عن نعم الحياة التي في متناول أيدي الأثرياء في الغرب اليوم. ذلك أنه لم يكن في تاريخ البشرية من قبل هذا العدد من الأثرياء وهذا المستوى من البذخ. ويتصف عصرنا بنزوع قوي إلى عقلنة قصوى لمسار الحياة وفقاً لمنجزات العلم، والطب، والتقنية. فقد بات الحفاظ على الصحة والشباب أهم عنصر من عناصر الثروة، شأنه شأن تأمين الكماليات ووسائل الرفاهية، والتمتع بمنجزات الحضارة، والقدرة على الاستمتاع بخيراتها بطريقة عاقلة. ونشأت صناعة وثقافة كاملتان تهتمان باستخدام الثروة عقلانياً، غير أن هناك أيضاً، في الوقت نفسه، آثاراً سلبية لفائض الثروة وما ينجم عنها من عيوب.

جدير بالذكر أن مستوى "عليّة القوم" الفكرية، والثقافية، والأخلاقية ليس أرفع بأي قدر من مستوى الجزء المتوسط من السكان. لقد كانت الثروة في الماضي طريقاً إلى ثقافة ونمط حياة لا سبيل إليهما بغير هذه الثروة. أما الآن، فبكل بساطة، ليس هناك ثقافة خاصة أرفع مستوى من الثقافة العامة غير متاحة لبقية المواطنين. ويدهى أن شراء بطاقات إلى مهرجان في بايروييت أو زالسبورغ مسألة تفوق طاقة أغلبية سكان

---

(133) P. Martin. Der kapitalismus. Munchen, 1986.

(134) Gebhard kirchgassner. Homo Oeconomicus. Tubingen, 1991.

البلدان الغربية من الناحية المادية. ولكن حضور هذه المهرجانات وسواها من فعاليات الترفيه عالية الثمن لا يرفع، بأيّ قدر، مَنْ يحضرها فوق بقية البشر من الناحية الثقافية، والذهنية، والأخلاقية. إنها للبعض متعة، ولكنها بالنسبة للأغلبية عنصرٌ تباهِ (بريستيج) من عناصر نمط حياتهم، على غرار العلامات التي تضعها الشركات المرموقة على الملابس. خلاصة القول، إن ما نراه في المحصّلة ليس فئةً شبيهة بأرستقراطية الماضي، وإنّما هو ضيقُ أفق من مستوى أعلى.

إن خطّ الفقر في البلدان الغربية أعلى ممّا هو في غيرها من البلدان، وهذا يعنى أن الفقراء في الغرب عامّة أغنى من الفقراء البلدان غير الغربية. ولكن إدراك هذا الواقع غير كافٍ لفقراء الغرب لكي يكونوا راضين بمعيشتهم. فهم يشعرون بأنهم محرومون بالمقارنة مع الشرائح الميسورة، وبالنظر إلى ما ينتجه مجتمعهم من خيارات يرون أن لهم الحق بنصيب منها. أضف إلى ذلك أن الفقر في البلدان الغربية يعنى ما هو أكثر من الفقر في مجتمعات من طراز آخر، نظراً لأن افتقاد الوسائل المادية يعنى افتقاد إمكانية الوصول إلى جميع القيم الأخرى في الحياة.

## الترفيه

إن معادلة: "الخبز والفرجة!" التي تنسب عادة للإمبراطورية الرومانية، تنطبق على المجتمع الغربى أيضاً، بل وأكثر ممّا على تلك الإمبراطورية بعشرة أضعاف. فالخبز متوفّر للغربويين إلى درجة جعلت الغرب إغراءً عظيماً للبشرية جمعاء. أما أنواع الفرجة فقد صنع الغرب منها فيضاً لم يكن بوسع أكثر المخيّلات اتقّاداً أن تتصوّره حتّى قبل مائة عام خلت.

على أنه ما من شيء ينبع من جوهر الغربوية: لا الإذاعة، ولا السينما، ولا التلفزة، ولا باقى الاختراعات الحديثة التي يتجسّد الترفيه من خلالها. غير أن هذه الاختراعات جاءت في الوقت المناسب تماماً. لقد جاءت متناسبة مع حاجات الغربوية إلى وسائل

الترفيه السلبى، لكل بمفرده. ولا حاجة بنا للحديث عن الدور الذى تلعبه التلفزة فى حياة الغربيين. فهى تأتى فى طليعة وسائل الترفيه من حيث عدد الجمهور الذى تجتذبه، والوقت الذى يمضيه الناس أمام شاشات التلفزيون. إنها تتيح للمشاهدين الترفيه والتسلية بسرور، فى معزل عن الآخرين، دون بذل أية جهود، وبكلفة زهيدة. أمّا من حيث تعدد العروض وتنوعها، فإن التلفزة خارج المنافسة أصلاً.

ولعل أنواع الفرجة التى تجمع حشوداً من الناس، وتشارك فيها جماهير غفيرة منهم، تأتى فى المرتبة الثانية بعد التلفزة. ويخيل للوهلة الأولى أن هذه الأنواع من الفرجة هى النقيض للنزوع نحو ترفيه الناس كل بمفرده، بينما هى فى الحقيقة ظاهرة من النوع نفسه، إنها الوجه الآخر لعملة واحدة. ذلك أن أشكال الفرجة والاستعراض ظواهر من نوع خاص تختلف عن المسارح، والأفلام السينمائية، وحفلات الغناء والموسيقى، والسيرك وغيرها من العروض الهادفة إلى الترفيه، بل وإلى الترفيه الفردى، وإن كانت تجمع أعداداً كبيرة من الناس. إذ يمكن أن يصبح فرجة كل ما يخطر على البال من أشياء ليست معدة خصيصاً للترفيه، ولكنها منظمة تنظيمياً يعطى الصدارة للجانب المسرحى تحديداً. والسمة الثانية للفرجة هى التعويل على التلقى الجماعى، أى على الناس كأعضاء فى حشد أو جمهور.

إن المباريات الرياضية تتحوّل إلى فرجة، بل وكثير منها ينظم خصيصاً لهذه الغاية. كما تتحوّل إلى فرجة عمليات الجراحة الطبية، والمحاكم، وزيارات كبار الشخصيات، والجلسات البرلمانية، وسهرات المشاهير، واجتماعات اليوبيل والاستقبالات، والاستعراضات، والمسيرات، والمظاهرات، والمواظب الكنسية، والكوارث الطبيعية، ومشاهد الجوع والدمار الحربى، وانتخابات الرؤساء. وحتى مشاهد الاغتيالات واختطاف الرهائن. فبفضل التكنولوجيا الحديثة يمكن صنع فرجات جذابة من كل شىء، حتى من الظواهر الضئيلة الشأن. كم كان نيل بوستمن صادقاً حين قال إن كل شىء يتحوّل إلى استعراض من نوع (شو بيزنس show business) فعلى الجميع أن يرفهوا من أجل أن يحظوا بالنجاح. إن ما يجرى هو جعل الحياة الاجتماعية كلها شبيهة بهوليوود (Hollywoodisation).

وعلى هذا النحو تماماً يتحوّل إلى فرجةٍ مختلفٍ أنواع التجمّعات التي ليست مخصّصة لترفيه الآخرين وحسب، بل والمشاركة في تسليات جماعية حاشدة. فعندما يتأمّل المرء هذه الفرجات والتجمّعات الاستعراضية يبدأ بالتفكير رغماً عنه بأن ما عرفته حياة الإمبراطورية الرومانية من أبهة ظاهرية، وبذخ، وفخامة استعراضية كان يخفى وراءه نمط حياة، غدت الحضارة المسيحية التي حلّت محلّه خلاصاً وفرجاً بالمقارنة معه، رغم كل ما اتصفت به في البداية من تواضع، ورمادية، وسأم.

ولا يسع المرء أيضاً إلا أن يُجرى مقارنة أخرى. فقد كانت الاجتماعات القيادية في المناسبات، والاحتفالات، والاستعراضات العسكرية في الاتحاد السوفيتي عرضةً لشتى أنواع الاستهزاء في الغرب. إلا أن ما كانوا وما زالوا يقومون به في الغرب نفسه يفوق الأوصاف المسرحية والاستعراضية والاحتفالية السوفيتية بمرات عديدة. فإذا ما قارنا احتفالات الولايات المتحدة الأمريكية بـ "النصر" في حربها السورية ضد العراق، واحتفالات إنجلترا بـ "النصر" في حربها المضحكة في جزر الفوكلاند، تبين لنا أن احتفال الاتحاد السوفيتي بالنصر في أعظم حرب في تاريخ البشرية عام ١٩٤١ - ١٩٤٥ ضد ألمانيا، كان احتفالاً باهتاً، ومتواضعاً، وزهيداً إلى درجة لاتصدق. هذه المقارنات تجعل المرء يشعر بالحزن. إذ كلما كانت الانتصارات تافهة، كان الابتهاج بها أكثر أبهة وفخامة.

إن الخواء الفكري والروحي صفة ملازمة لما في الغرب من وسائل ترفيه جماهيري فعلاً، سواءً من حيث احتشاد جموعٍ غفيرة من الناس في مكان واحد، أو من حيث اتساع دائرة المواطنين الذين يشملهم تأثيرها. إذ لا سبيل للعثور على ذرة من الفكر والروح إلا بشقّ الأنفس في جميع ما هنالك من مظاهر الترفيه: الرياضة، والسياحة، والرقص، والموسيقى، والسهر، والجنس، والطعام، والكحول، والمخدّرات. أمّا أشكال الترفيه الفكري والروحي فتجدها مشوهة، مشتتة في بحر من الترفيهات الأخرى، وهامشية. وهذه الحالة شبيهة بحالات تسمّم البيئة الطبيعية، عندما يصاب الجميع في

المحصلة ويعانون، وهكذا يكون جوّ الترفيه بمجمله فى نهاية المطاف خاويًا وفاسدًا من الناحية الروحية نتيجة مؤثرات خارجية صرف.

لقد ازداد إنتاج وعرض وسائل الترفيه مرّاتٍ عديدةً فى السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية، مقارنةً بالسنوات التى سبقتها. وصارت تلك الوسائل أكثر تنوعًا، وتفننًا، وأسهلَ منالًا. وفى الوقت نفسه ترافق ذلك مع عملية تبخيس سيكولوجى لوسائل الترفيه التى لعبت وفرثها بالطبع دورًا فى هذه العملية. إلا أن المسألة لا تقف عند هذا الحدّ. فوسائل الترفيه سطحية، لا تلامس عمق الحالة النفسية عند الناس. وهؤلاء بغالبيتهم تربوا وتعلّموا العيش بطريقة لا تؤهلهم لاتخاذ موقف آخر من الترفيه. وفى النتيجة يسيطر جوّ من السأم الشامل، وميلٌ نحو أشكال السلوك الشاذة.

## الدينامية

غدت الدينامية الفائقة صفة ملازمة لنمط الحياة الغربى بعد الحرب العالمية الثانية. فقد سيطرت إيديولوجيا التغييرات وسيكولوجيتها على المجتمع الغربى بقوة لم يسبق لها مثيل. وتحولت الحياة إلى ومضات سريعة من الأشياء، والبشر، والأفكار، والأزياء، والأفلام، والحوادث المثيرة. لكأنّ المجتمع يسرع محمومًا إلى مكان ما، وليس لديه دقيقة واحدة يتوقّف فيها ويستريح. تغييرات، تغييرات، تغييرات! التغييرات مهما كلف الأمر، وفى أىّ شىء، دونما اعتبار للعواقب. ثم إن هذه التغييرات ليست دائمًا نحو الأفضل، ونادرًا ما يكون لها مبرر منطقى. المهم تغيير شىء ما، المهم اختراع شىء جديد.

معروفٌ أن هذه الدينامية تستمدّ جذورها من طبيعة المجتمع الغربى ذاتها. وهى وسيلة ملائمة للمحافظة على سرعة الاستقلاب فى المجتمع، وعلى الإيقاع الفكرى - السيكولوجى عند الناس. ويتمُّ الحفاظ على هذه الدينامية بطريقة مصطنعة،



عن طريق جميع القوى المؤثرة فى المجتمع، أى البرزفس، والدولة، والإعلام، والإيدولوجيا، والدعاية.

ولكنها دينامية تتعايش مع العقلية الاجتماعية المحافظة. إذ سرعان ما ترتفع الأصوات لتصوّر أى جديد أو تغيير مثير إلى هذا الحد أو ذاك على أنه ثورة وعهد جديد، بينما يظلّ المجتمع فى جذوره كتيماً، طارداً لأى تحولات اجتماعية عميقة. وبذلك تكون هذه الدينامية فى الحقيقة سطحية، وإلى حدّ كبير وهمية وباطلة. ولا بدّ من جهود كبيرة للحفاظ على بقائها مدةً طويلة. ولئن كان الغربيون أقدر على ذلك من باقى الشعوب الأخرى، فإن إمكاناتهم ليست بلا حدود. ونستطيع منذ الآن أن نلمح عليهم أعراض التعب، والسعى نحو وتيرة حياة أقلّ سرعة.

### المادة البشرية

أشار العديد من الباحثين الغربيين إلى حقيقة وجود تغييرات فى المادة البشرية، وفى اتجاه سلبى عمومًا، يتمثّل فى الشكوى من تدهور الأخلاق، وتزايد الجريمة، وانعدام الشخصية، وانتفاء الإنسانية، والخواء الروحى ... إلخ. ولاشك فى أن لهذه الشكوى أسبابها فى وقائع حياة الناس اليومية. ولكن التوقّف عند هذا الحد أمر يتّصف بكثير من الأحادية والسطحية. إذ أعتقد أن ما يراه هؤلاء الباحثون انحطاطاً للإنسان، ليس إلا الوجه الآخر لتقدّم الإنسان، ونتيجة لهذا التقدم. ذلك أن النسبية هى صفة كلّ تقدّم، وكلّ تقهقر. والمهمّ هو المعايير التى نقيسهما بها.

حقاً، لقد تغيّرت المادة البشرية فى الغرب. وتمثّل ذلك، بالدرجة الأولى، كما أعتقد، فى تغييرات أصابت الغربيين أنفسهم. بينما يتمثّل، ثانياً، فى أن تركيبة سكان البلدان الغربية قد تغيّرت. وسأقوم بدايةً وأساساً بتناول النوع الأول من هذه التغييرات.

لقد تغيّر مجملُ مقومات الانتماء إلى الغربية، سواءً فى ذلك درجة تطوّر هذه المقومات، وأدوارها، ونسبتها فى مجموع الغربيين. فهناك فرقٌ بين الغربيين كشرط

لنشوء الغربوية وقيامها، من جهة، وبين الغربويين كثمرة لهذه الغربوية الظاهرة، من جهة أخرى، فقد جسد الغربويون في الحالة الأولى صفات معينة، أما في الحالة الثانية فإنهم يصنعون مع جملة من الصفات التي ليست صفات الحالة الأولى إلا جزءاً منها. وجملة صفات الحالة الثانية لا تقتصر على الصفات الضرورية لإعادة إنتاج الغربوية وحفاظ المجتمع على بقائه، بل هي تتطوى أيضاً على صفات لا تتوافق مع هذه الحاجة، ولكن يتعدّر بدونها وجود الصفات الضرورية. إلا أن المجتمع، وهو يعيد إنتاج المادة البشرية اللازمة للحفاظ على بقائه، ينتج أيضاً كثيراً مما يحسن تفاديه.

إن الصفات الأساسية التي كان من المستحيل وجود الغربوية بدونها، كالحرص في الإنفاق، والابتكار، وروح المبادرة... إلخ. معروفة للجميع، وقد وصفها الأدب العظيم في الماضي أحسن وصف. إنني أسميها صفات الانتماء الغربوي. فما هو المصير الذي آلت إليه في المجتمع الغربي المعاصر؟ لقد غدت صفات عامة، سواء من حيث انتشارها بين الناس، أم من حيث تجليها في مجمل تصرفاتهم جماعات وأفراداً. ولئن كان بالإمكان في الماضي أن تصادف بين حين وآخر ضمن جماعة من الناس أشخاصاً يتمتعون بصفات غربوية بارزة، وكانوا يجسدون هذه الصفات في ظروف استثنائية، فإن جميع سكان البلدان الغربية الأصليين أصبحوا اليوم يتمتعون إلى هذا الحد أو ذاك بهذه الصفات، وتتجلى في جميع مواقفهم الحياتية التي تتسم ولو بأقل قدر من الجدية. ولئن كان بالإمكان الحديث فيما مضى عن "محلول" الغربوية في شيء آخر، فإنه ينبغي الحديث الآن عن "محلول" شيء آخر في الغربوية الصرفة. فقد أصبح المجتمع الغربي مجتمع غربوية يتضمن ذرات غريبة وبقايا من اللا غربوية.

لقد تضاعف آلاف المرّات عدد أفعال الناس التي كان يتطلّب القيام بها توفير صفات الغربوية. غير أن الجزء الأساسي من هذه الأفعال صار ضئيلاً، قليل الشأن. إذ راحت صفات الغربوية تستخدم في عدد لا يحصى من التصرفات التي تبدو تافهة بالمقارنة مع الصفات نفسها. وتحولت الغربوية بالنسبة للجزء الأساسي من الغربيين، وبالنسبة للجزء الأساسي من تصرفاتهم إلى تباه شكلي تافه. فالشخص الذي كان

يُقدِّم فيما مضى على القيام بمشروع يجازف فيه بكل ثروته، والشخص الذي يشتري بمبلغٍ قليل من المال أسهم شركة مضمونة الربح مائة بالمائة تقريباً، كلاهما يتصرفان كغربويين.. إلا أن أمثال الأول كانوا ولا يزالون قلة، أما أمثال الثاني فعشرات الملايين. أعتقد أن الفرق واضح.

ثمة يقين يزعم أن الإنسان الغربي صار كائناً عديم الملامح. غير أن معنى كلمة "صار" يوحي بأن الإنسان لم يكن كذلك من قبل. فكيف كان إذن؟ يفترض المؤلفون الذين كتبوا عن تجريد الإنسان من الملامح أن الإنسان كان قبلئذٍ فرداً له شخصيته. بل ومنهم من يؤكد أن الإنسان يولد فرداً له شخصيته، ولكنه في المجتمع الحديث راح يفقد هذه الصفة. وكان بين من طوروا هذه النظرية كلٌّ من إريك فروم، وألدوس هكسلي، وكونراد لورنتس<sup>(١٣٥)</sup>.

أعتقد أن هذا اليقين سخيّف. وما زال للغربيين شخصياتهم بالمعنى الذي أشرنا إليه أعلاه، أى بمعنى أنهم "أنانيون عقلاء". ولكنهم فى أغلبيتهم الساحقة لم يكونوا يوماً شخصيات متفردة. بل ولم يكونوا كذلك من قبل، ولا هم الآن كذلك منذ الولادة. فالناس لا يولدون شخصياتٍ. إنهم يصبحون شخصيات بفعل ظروف وجودهم الاجتماعى، وفى حالات نادرة فقط. أما تفرد الناس منذ الولادة فلا يختلف حتى عن تفرد البقّة، والدودة. ذلك أن مشكلة الإنسان كفرد ذى شخصية هى أصلاً مشكلة اجتماعية، بل وحديثة.

إن المجتمع الغربى المعاصر هو أول مجتمع فى التاريخ ظهرت فيه إمكانية أن يصير الإنسان شخصية متفردة لا كإنسان فرد، كاستثناء، وإنما أن يصير كل إنسان

---

(١٣٥) إريك فروم. الهروب من الحرية. موسكو ١٩٩٠ (بالروسية). وكذلك:

Aldous Huxley. Brave New World Revisited. 1959; Konrad Lorenz. Der A bau des Menschlichen. 1986

شخصية متفردة، الناسُ عامة، على نطاق جماهيري. غير أن جماهيرية هذه الإمكانية، كونها متاحةً للجميع، هي بالضبط ما حال دون تحقيق هذه الإمكانية بالنسبة للأغلبية الساحقة من الناس. فإذا ما أخذنا إنساناً بمفرده، في ضوء الإمكانيات التي يوفرها له المجتمع المعاصر نظرياً، كان عليه أن يكون فرداً ذا شخصية. ولكن كثرة هؤلاء الأفراد تهبط بالجميع تقريباً إلى مستوى أفراد في جمهورٍ متشابهين، لا يتحلون بصفات فردية. ولما كانت جماهيرية هذه الظاهرة تولد عند كثيرين الحاجة لأن يكون كل منهم شخصية فريدة، فإنها تقضى على إمكانية تلبية هذه الحاجة.

ليس ممنوعاً على أحد أن يصبح مليونيراً، أو رئيسَ دولة، أو نجماً سينمائياً... إلخ، وأبواقُ الدعاية تتحدث عن تكافؤ الفرص أمام الجميع في هذا الصدد. ولكن هل يتيسر ذلك لكثيرين؟ ليس ممنوعاً على أحد أن يغدو شخصية فريدة، ولكن عدد من يتيسر لهم ذلك في الواقع قليل. فالمسألة لا تحتاج إلا لشيء "تافه" هو اعتراف المجتمع بهذا الإنسان شخصيةً. على أن للمجتمع في هذا الشأن معاييرَه في الاختيار. فالشخصيات المتفردة كانت وستبقى استثناءً. ولا يتغير إلا نمطها ونسبتها بين مجموعة "الأفراد" الذين لا ملامح لهم. وهذه النسبة في المجتمع الغربي أعلى مما هي في المجتمعات الأخرى، ولكن ليس بالقدر الكافي لإرضاء رغبة كل من يريد أن يكون شخصية.

كما يرى أولئك المؤلفون أن الإنسان جُرد من إنسانيته. غير أن التحقق من مدى صحة هذه الآراء يتطلب أن يكون لدينا قائمة دقيقة تسمى مقومات إنسانية الإنسان من أجل القيام ببحث إمبريقي لاستبيان ما اندثر، أو ضعف، منها. ولكن هذا البحث متعذرٌ عملياً، إذ لا توجد معطيات عن حالة البشر في الماضي من وجهة النظر هذه، بل وهيئات أن يمكن الحصول على معطيات عن حالتهم اليوم. ما الذي يُعدُّ إنسانية؟ فالضعف، والثأر، والظلم، والحسد وغير ذلك من صفات الناس الذميمة ليست أقلَّ إنسانية من الطيبة، والشهامة، والحب، والرافة، والشفقة وغير ذلك من الصفات الحميدة عند أولئك الناس بالذات. جربوا أن تفرّقوا بين هذين النوعين في

الواقع! ذلك يعنى أن للرأى النقيض حقاً بالوجود لا يقلُّ عن حقِّ الرأى القائل بتجريد الإنسان من إنسانيته.

ولكنَّ هناك أسساً واقعية للاعتقاد بأن الإنسان جُرد من إنسانيته. وهذه الأسس فى نظرى هى ما يلى: ففى عدد هائل من الحالات نجد أن ما كان يحصل عليه الناس بفضل ما عند غيرهم من صفات "إنسانية" (بفضل "إنسانيتهم")، يحصلون عليه الآن بفضل وسائل أكثر قوة وضمناً، وتحديداً بفضل المال، والسلطة، والشهرة، والمعايير الحقوقية، والعقود، والاكتشافات العلمية والطبية، أى باختصار بفضل وسائل فوق طبيعية، تقع خارج مجال الأخلاق، ويمكن القول إنها وسائل فوق إنسانية. وإذا ما كان قد حصل تجريد ما للإنسان من إنسانيته فإن ذلك لم يكن بسبب انحطاطه نحو الأسفل، بل بسبب تعاضم إنسانيته، أى بفضل التقدُّم. لقد كان انحطاط الإنسان ثمناً لتقدمه.

إن الحالات المعنية على قدر من الكثرة، والقدرة على إصابة الناس بعذواها جعلها تؤثر تأثيراً حاسماً على حالة المادة البشرية كلها فى المجتمع الغربى. فمثلاً، إذا كان بإمكان المرء، أى كان عمره وأياً كانت أوصافه الخارجية، أن يحصل مقابل المال على شريكٍ جميل وفى مقتبل العمر من أجل المتعة الجنسية، وإذا كان بالإمكان اللجوء إلى الطب والتقنيات الجنسية التى تتيح الحصول على متعة أكبر وأفضل مما يمنحه الحبَّ الإنسانى الذى يخلقه الأدياء ويضخِّمونه عادة، فإنه ما من إنسانية تستطيع أن تنافس بديلها ما فوق الإنسانى فى هذا المجال؟ وإذا ما أصبحت بعض الخصال الإنسانية مصدراً للمال والنجاح، فلن تجد أىَّ غربوى سوىَّ يصون تلك الخصال ويمنحها للآخرين مجاناً.

إن الحنين إلى الإنسانية يعكس حقيقةً كون الوسائل فوق البشرية لتلبية حاجات الإنسان ليست ميسرةً لكثيرين، أمّا من تتيسر لهم تلك الوسائل بوفرةٍ فيصلون إلى حدِّ الإشباع. وسأعود أدناه إلى النظر فى هذه الوسائل.

كثيراً ما يُشير الباحثون، وهم يصفون الإنسان الغربي المعاصر، إلى ما فى عالمه الداخلى من تبسيط، بل وخواء أيضاً. فما مدى صواب ذلك، ولماذا يتكوّن هذا الانطباع لديهم؟

يبدو الشخص الغربوى المعاصر مبسطاً داخلياً (فكرياً، وروحياً، ونفسياً) مقارنة بنمط من الناس ينشأ ويكون واسع الانتشار جداً فى ظروف حضارة ذات مستوى رفيع نسبياً، وطريقة حياة مرفهة، حياة لا عجلة فيها، ولا مجازفة، ولا حاجة للمبادرة... إلخ. هذا النمط من الناس يطور فى نفسه قدرة عالية على الاستجابة (ردّ الفعل)، وتقلّب المزاج، والميل إلى تجنّب الانفراد باتخاذ القرارات، وعلى غير ذلك من الصفات التى غدت تُعدُّ دلائل حياة "روحية" غنية، وبديهي أن تطوير هذه الصفات غير الغربوية يتطلّب ملكاتٍ طبيعية لا نصادفها إلا عند بعض الشعوب.

حقاً، هناك من الناحية النفسية نمطٌ من الناس يفوق النمط الغربوى تعقيداً، ومرونة، وتقلّباً، وتشوشاً من حيث الانفعالات الداخلية. ولكنه ليس نمطاً أعلى تطوراً، ولا أرفع مستوى. بل الأرجح أن العكس هو الصحيح. إذ يبدو الغربوى، بالمقارنة مع شخص من هذا النمط، تماماً مثلما تبدو غرفة نظيفة أحسن ترتيباً أثاثها بالمقارنة مع حظيرة أو سقيفة مليئة بسقط المتاع. فالغربي إنسان أكثر تنظيماً، وعقلانيةً، وفعالية من الإنسان ذى الحياة الداخلية (الروحية) المعقدة.

إن الشخصيات التى كانت حياتها الداخلية معقدة، كما صورها الأدب الغربى فى الماضى، هى إمّا وليدة مخيلة الأدباء، أو كانت موجودة كاستثناء، ولكنها لم تكن على ذلك القدر من السطوع، بل كانت فى الواقع أكثر إملالاً وسذاجة. إلا أنها رغم كل شيء شخصيات حرّة، كانت تتمتع بما يكفى من الوقت لاستبطان الذات (عموماً بطريقة اعتباطية) والتأمل، ولم تكن وسائل الاتصال كما كانت عندما بدأت تتطور بعد الحرب العالمية الأولى. فالشخص المتعلم الذى كان يُحسن تجاذب أطراف الحديث مع الآخرين كان ذا قيمة كبيرة. إذ لم تكن مؤسسات الثقافة كثيرة. وكانت الكتب نادرة وذات قيمة فى نظر الناس. باختصار، إن الحياة الداخلية الغنية تتطلب ظروفًا معينة

هي اليسر المادى ولو فى الحدود الدنيا، ووقت الفراغ، وحب الاطلاع، والإحاطة المعرفية، والجوع إلى المعلومات والثقافة، والاهتمام بالإنسان. على أن أغلبية الناس فى الغرب الآن يفتقرون إلى ذلك. فمؤسسات الثقافة موجودة بوفرة، ولا مفر للمراء من الآخرين، وهناك فيض من المعلومات، وأنواع التسلية حدثت ولا حرج، والناس مشغولون ومهووسون، لا وقت لديهم للاسترسال فى التأمل. لأن ضمانات الحياة معدومة، وينبغى على المرء أن يبذل كل طاقاته فى العمل أو الوظيفة. إن وعى الناس مبنى بطريقة أخرى، والشخصيات الاستثنائية تضع فى بحر من الأشخاص المتوسطين. إنها لا تستلفت انتباه الآخرين، ولا تلقى التشجيع ولا الرعاية. لأن الرعاية من نصيب الشخصيات التى تتماشى مع طبيعة الغربية، وهى فى معظمها شخصيات وهمية وكاذبة.

لقد عقلت الغربية الإنسان، فألغت من "عالمه الداخلى" كل ما هو نافل، وكل النفايات النفسية، والتشوش الفكرى، والميل إلى الحساسية المفرطة، والإسراف فى الربط بين الفكرة والعمل. ولكن الغربية، فى مقابل ذلك، جعلت الإنسان أكثر قدرة على بناء متمدات بشرية ذات أبعاد هائلة، وتتمتع بمستوى عال من التنظيم الاجتماعى.

إن الغربوى هو المستوى الأعلى فى سلم ارتقاء الإنسان. إنه كائن أنتج اصطناعياً، ولم يكن نتاج تطور بيولوجى محض. ولنا الحق الكامل فى أن نقول إنه إنسان خارق (سوپرمان). ما من تقدم يأتى بلا ثمن. والإنسان الخارق ليس ذلك الكائن المتطور من جميع النواحي، والكامل فى كل المجالات، ذلك الإنسان الذى تحدث عنه الحالمون فى الماضى، وإنما هو بالضبط هذا الغربوى الواقعى، أى هذا الكائن المبسط داخلياً، المعقلن، الذى يتمتع بملكات عقلية متوسطة، يسيطر على انفعالاته، يعيش نمط حياة منضبطاً، يعتنى بصحته وراحته، يعمل باستقامة وإتقان، هذا الكائن العملى، المقتصد، الذى يفكر منذ صباه بضمان شيخوخته، المنمط إيديولوجياً، ولكنه أيضاً الإنسان الذى - رغم ذلك كله - يعد نفسه كائناً أعلى مستوى من باقى البشرية (غير الغربية).



## مجتمع الإنسان الخارق

عندما تمخّضت الغربية عن نمط خاص من الناس تمخّضت أيضاً عن نمط خاص من العلاقات الشخصية بين البشر.

إننى أفرّق بين مستويين من هذه العلاقات الشخصية: مستوى بشرى، ومستوى خارق (فوق بشرى). وتندرج فى المستوى الأول تلك العلاقات الشخصية التى تقوم بين اثنين من الناس على أساس الاستلطاف أو النفور. على أن كلاً من الشخصين يستلطف أو يستقبح الطرف الآخر كما هو، كإنسان، أى بصرف النظر عن مكانته الاجتماعية (ثروته، شهرته، منصبه)، وبصرف النظر عن حسابات الآخر العملية. وتكون هذه العلاقات "قلبية"، تقوم على الثقة، مخلصه، تنفذ إلى خبايا الوعى. ولهذه العلاقات إيجابياتها، كالاهتمام بالأقربين، والتعاطف، والشفقة، والتضامن فى السراء والضراء، والنزاهة، ومدد العون، والمشاركة الوجدانية. كما أن لها سلبياتها أيضاً، كرفع الكلفة، والتدخل الفجّ فى مشاعر الآخر وحياته الخاصة، والسعى للتحكم بسلوك القريب، وإكراه الفرد من جهة المحيطين به عن طريق زيادة الاهتمام به، وإلغاء المسافة فى العلاقات معه، وفقدان احترامه نتيجة مراقبته عن كثب، وممارسة الوعظ، والإغاظة، والخشونة.

وتتّصف الغربية بعلاقات شخصية بين الناس تندرج فى المستوى الثانى، أى مستوى العلاقات الخارقة (فوق البشرية). وهذه تختلف صفاتها عن صفات العلاقات البشرية، المناقضة لها إلى حدّ كبير. لقد ظهرت هذه العلاقات كنتيجة لتكيف الغربيين مع ظروف مجتمعتهم. والجزء الأساسى من هذه الظروف هو التالى.

لقد انحصر معنى حياة الغربيين فى نهاية المطاف بنقطتين:

١ - تحقيق أعلى مستوى معيشة ممكن، أو على الأقل الحفاظ على المستوى المتحقق.

٢ - تحقيق أقصى حد من الحرية الشخصية، والاستقلال عن المحيطين، والحصانة الشخصية. على أن المسعى الأول يجعل الإنسان براجماتياً، فيما يدفعه الثانى إلى الانعزال.

يتمتع الغربى بقدر كبير من الحماية القانونية يجعله بالكاد يحتاج من الناحية العملية، أو لا يحتاج البتة، لدعم من جانب زملائه فى العمل، أو من جانب المنظمات الاجتماعية. وطبيعى أن يضعف، أو ينعدم تماماً، اهتمام هؤلاء به من الناحية الشخصية. ولئن كانت المنظمات الاجتماعية تهتم به، كما تفعل النقابات، مثلاً، فلأنها تنظر إليه كفرد فى طبقة، وليس كشخص بحد ذاته. أما اهتمام المنظمات الأخرى فيكون على قدر ما يدفع لها.

ينبغى أن نضيف إلى ما قلناه، وسائل الراحة فى الحياة اليومية، والهاتف، والتلفزة، والسيارة، والمسكن المستقل، وقدرة الفرد على خدمة نفسه، وانتفاء الحاجة إلى علاقات وثيقة مع الجيران، وضغط العمل. وقد لعبت دوراً مهماً فى هذا الخصوص ضرورة تجنب العواقب السلبية التى تنجم عن العلاقات الشخصية. وبذلك أضعف الناس بل وأخمدوا نهائياً، رغم إرادتهم، ما فى علاقاتهم الإنسانية من جوانب إيجابية وثيقة الارتباط بالجوانب السلبية.

ليس للإنسان بحد ذاته قيمة من وجهة نظر العلاقات الخارقة. وحتى عندما يخيل وكأنه ذو قيمة بحد ذاته (مثلاً، كأن يكون جميلاً، معافى، جنسياً، ذكياً)، فهو ذو قيمة كمادة لإشباع حاجة. إن قيمة قدرات الإنسان فى نظر الآخرين تتأتى من مدى فائدتها فى تحقيق نجاح له فى الحياة يعود عليهم بالنفع أيضاً.

لقد حلتُ الغربوية مشكلة "الكينونة أو الملكية" لصالح "الملكية". ولكنها لم تُلقِ "الكينونة" جانباً، بل ساوت بينها وبين "الملكية". فالمعادلة الغربوية هي: "الكينونة هي الملكية". إذا كان لديك مالٌ، ومكانةٌ اجتماعية رفيعة، بحيث يستفيد الآخرون منك، كنتَ قادراً على أن تحظى بالصدّاقة، والحب، والاهتمام، والعناية. صحيح أن هذه مجردُ بدائل عن الأصل، ولكنها ليست أسوأ من نظائرها في العلاقات الإنسانية. ولا حاجة لإضفاء الصفة المثالية على العلاقات الإنسانية. إن نوعية العلاقات الخارقة هي في العادة أرفعُ من نوعية العلاقات الإنسانية. والعلاقات الخارقة موضع ثقة أكثر من العلاقات الإنسانية. والأصدقاء الإنسانيون يخونون أكثر مما يخون الأصدقاء الخارقون. أما عن العشيقَات فحدثٌ ولا حرج. وقُلِ الشئ نفسه عن باقى العلاقات.

إن العلاقات الخارقة ليست عميقة. يسهل على المرء أن يقيمها، ولا يؤلّه قطعها. إنها محسوبة، تقوم على الفائدة والمنفعة. وهي لا تُثقلُ بأعبائها كالعلاقات الإنسانية. إذ تظلُّ هناك مسافة تحمى المرء من تدخل الآخرين الفج في مشاعره وحياته الخاصة. وتسمح هذه العلاقات بعدم هدر الوقت، والجهد، والمشاعر، والفكر، والمال. إنها مصطنعة، "معمولة". وهذا ما يمكّن الناس من إخفاء أفكارهم ومشاعرهم الحقيقية، ومن أن يكونوا "اجتماعيين"، أى أكثر تسامحاً في الحياة الاجتماعية. ومن هذا المنظور يشبه مجتمعُ الغربويين المجتمعَ الراقى، مجتمعٌ عليّة القوم، ولكن فى شكلٍ "مخلوطٍ" ومتنوع الجماهير.

لقد قُدِّر لي أن أسمع غير مرّة من أشخاص ولدوا فى روسيا أن البسمة، والدمائة، والاستعداد لتقديم الخدمة فى المتاجر، والمطاعم، والمؤسسات العامة فى الغرب نفاقٌ وتصنُّع. وهذا صحيح. ولكن، أيُّهما أفضل: الجلافة الصادقة الصادرة من القلب، أم الدماثة المصطنعة المنافقة؟ إن ابتكار علاقات شخصية مصطنعة ("منافقة") واحد من أهم منجزات الغربوية.

تُسفر العلاقات الخارقة عن برودة، وتحفُّظٍ، ولامبالاة بمصير القريب، ونقصٍ في "العاطفة"، وعزلة، وإحساس بعدم الحاجة إليك، وغير ذلك من ظواهر نمط الحياة الغربي التي وجدت أروع تصوير لها في أدب الغرب وأفلامه السينمائية. فالآباء والأمهات يستعجلون التخلص من أولادهم، ثم يستعجل الأولاد التخلص من آبائهم وأمهاتهم. الجدود والجدات لا يهتمون بأحفادهم. والاكنتاب النفسى بات حالة مألوفة عند ملايين البشر نتيجة نقص العلاقات الإنسانية. ويعوض كثيرون افتقادهم الجانب الإنسانى بالمشاركة فى عصابات إجرامية، وحركات جماهيرية، ومشاعيات بدائية، وفى تعاطى الكحول والمخدرات.

## الغربيون واللاغربيون

ليس سكان البلدان الغربية من الغربيين وحدهم، بل بينهم جماهير غفيرة من نمط آخر. وعدد هؤلاء كبير للغاية، وهو فى تزايد مستمر. إننا نشهد عملية تناقص نسبى لعدد الغربيين فى البلدان الغربية. زد على ذلك ظهور ميل نحو تناقص مطلق لعدد الغربيين نتيجة تناقص عدد الولادات بينهم. إذ يغدو هذا التقلص ملموساً فى ألمانيا، مثلاً، إلى درجة جعلت تدفق الأجانب إليها ضرورة حياتية. وقد تحول ذلك إلى عملية لا مرد لها نجمت عنها مشكلات مماثلة لمشكلات الملونين فى الولايات المتحدة الأمريكية. على أن هذا الوضع قائم فى الغرب بأسره. فالمشكلات مع الأجانب فى فرنسا لا تقل حدة عما هى عليه فى ألمانيا.

بدهى أن لنمط الحياة الغربى تأثيراً هائلاً على غير الغربيين. وفيما لا يزال الغربيون هم الأكثرية فى البلدان الغربية، وقوتهم هى الغالبة، ينشأ لديهم وهم بأن إعادة إنتاج المادة البشرية الضرورية للغربية عن طريق غير الغربيين ليست مشكلة. ويمثل تأييد الإيديولوجيا والدعاية هذا الوهم دفعا للغرب نحو الفخ. صحيح أن تأثير البيئة الاجتماعية على الناس كبير، ولكن ذلك لا يعنى أنه بلا حدود. فقد يحاكي

اللاغربيون الغربيين إلى درجة معينة، وقد يشاركونهم في نشاطهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يتحولوا إلى غربيين على نطاق جماهيري إلى حدٍّ يزيل تمامًا عدم تطابقهم مع متطلبات الغربية. على أنه لا مناص من تأثيرٍ عكسيٍّ، هو تأثير اللاغربيين على الغربيين، يسفر عن انخفاض في مستوى غربية الغربيين. على أن السقوط إلى تحت أسهل من الصعود إلى فوق.

## أفضل العوالم

ترسم الإيديولوجيا والدعاية الغربيتان صورة للغرب تجعله أفضل عالم بين العوالم التي كانت موجودة يوماً، أو هي موجودة الآن على الكرة الأرضية. ولكن الأفضل لا يعنى أنه جيد، وخالٍ من العيوب. فأطول قزم لا يعنى بعداً أنه عملاق. وأذكى غبيٍّ لا يعنى بعداً أنه حكيم.

إن الهدف من هذا الكتاب ليس وصف الغرب عموماً، بل وصف ظاهرة الغربية حصراً. لذلك تعمّدتُ أن أتجنّب جميع حقائق تحطُّ من قيمة صورة الغرب كأفضل العوالم. فلو وضعنا نُصبَ أعيننا هدفاً نرسم بمقتضاه للغرب المعاصر صورة قاتمة، لوجدنا ما لاحصر له من الكتب، والمقالات، والبرامج التلفزيونية، والأفلام، والتمثيلات، وغير ذلك من المصادر الغربية التي تقدم لنا مادةً أكثر من كافية لهذا الغرض. وسأكتفى بذكر مقطع صغير واحد، على سبيل المثال، مما قدّر لى أن أطلع عليه، شئتُ أم أبيت، إبّان إقامتى فى الغرب.

فقد بيّن استطلاع للرأى فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٠ أن حالة المجتمع الأمريكى الأخلاقية أبعد ما تكون عن تلك اللوحة الزاهية التى رسمتها الدعاية لنمط الحياة الأمريكى وروّجتها فى العالم. إذ تفيد المعلومات التى قدّمها د. باترسون و ب. كيم بأن ثلثى السكان أيّدوا العنف، وثلثين لم يشاركوا فى حياة جالياتهم،

وأكثر من ٧٠٪ لم يكونوا يعرفون جيرانهم، و٢٠٪ من الأطفال مارسوا الجنس قبل سن الثالثة عشرة، و٦٠٪ كانوا ضحايا الجرائم مرة واحدة على الأقل<sup>(١٣٦)</sup>.

وفي عام ١٩٩١ كانت الصحف الأمريكية تكتب بانتظام عن المواضيع التالية. تشاؤم عميق يسود الولايات المتحدة الأمريكية. تزايد مستمر في أعداد الأمريكيين الذين يشعرون بأنهم فقراء وغير واثقين بمستقبلهم. أكثر من ٥٠٪ يعتقدون بأن مستوى الحياة ينخفض، وأنه لا حظ أمام أولادهم بمستقبل أفضل. وثلثا الأمريكيين قلقون بسبب عدم ضمان شيخوختهم. وثلثان أيضاً غير قادرين على تسديد نفقات الرعاية الطبية. أما مداخل الطبقة الوسطى فقد بقيت في المستوى الذي كانت عليه عام ١٩٧٣، أي أدنى من مستواها عام ١٩٦٠، وارتفعت الضرائب لتصل إلى ٤٠٪ من المداخل (في عام ١٩٦٠ كانت ٢٤٪).

وفي العام ١٩٩٢ لم يطرأ أي تحسن على الوضع، بل ربما العكس هو الصحيح. فكثيراً ما كنت أقع على مقالات في الصحافة الغربية تتحدث عن تدمير البنى التحتية في الولايات المتحدة الأمريكية، وعن تزايد عدد أحياء الفقر، وعن الوضع البائس في نظام التربية والتعليم، وارتفاع الضرائب، وتقلص الفرص أمام أبناء الفئات الدنيا للارتقاء إلى فئات أعلى، وباختصار: عن أزمة "النموذج الأمريكي" لتنظيم المجتمع، وعن تدني سمعته. وفي نهاية نيسان/ أبريل ومطلع أيار/ مايو عام ١٩٩٢ هزت الولايات المتحدة الأمريكية تمردات السود في لوس أنجلوس، وسان فرانسيسكو ومدن أخرى، فاضطرت السلطات إلى استخدام الجيش لقمعها. واللافت أن هذه الأحداث وقعت في البلاد التي تصوّرها الدعاية بكل السبل وفي العالم أجمع على أنها الأغنى والأكثر ديمقراطية في تاريخ البشرية برمته.

---

(136) James Patterson and Peter kim. The day America told the truth. Prentic Hall, 1991.

ولا يقلُّ عن ذلك بؤساً ما كان ينشر من معلومات في وسائل الإعلام الجماهيرى فى بلدان أوروبا الغربية. فقد كان فى ألمانيا عام ١٩٩٢ أكثر من مليون شخص يفتقرون إلى الحد الأدنى من شروط العيش، بل وإلى مأوى، وأكثر من ثلاثة ملايين عاطل عن العمل، وأربعة ملايين شخص يحتاجون إلى المساعدة الاجتماعية. واجتاحت البلاد بأسرها موجة من الإضرابات التى شارك فيها حتى موظفو الخدمات العامة (البريد، والنقل، والتنظيفات)، معا وضع البلاد فى حالة قريبة من الفوضى والذعر. أما النمو الاقتصادى فتراجع ليصل إلى نسبة ١٪، ثم توقّف عن النمو نهائياً. فبدأ التدهور، وازدادت البطالة، وارتفعت الضرائب وأسعار المواد الاستهلاكية. وفى عام ١٩٩٣ اندلعت موجة من كراهية الأجانب هزت العالم بأسره.

وفى عالم ١٩٩٣ ازداد الوضع سوءاً فى العالم الغربى كله، حتى غدت لفظتا "الركود" و"الأزمة" عاديتين فى لغة وسائل الإعلام الجماهيرى. وانضافت إلى ذلك فضائح الفساد المنتشرة فى الطبقة السياسية. وقد حطمت إيطاليا كل الأرقام القياسية فى هذا المجال.

على أن كثيراً من الظواهر السلبية فى نمط الحياة الغربى ليس عرضياً، ووليداً المصادفة، بل هو نتائج حتمية وملازمة للغربوية على الدوام. وهذا معروف للجميع، بل وليس موضع جدال كبير فى الإيديولوجيا والدعاية هناك، وأريد أن أتطرق أيضاً إلى ظاهرتين سلبيتين أخريين من ظواهر نمط الحياة الغربى، تلامسان كثيراً من جوانب الصورة العامة للغربوية وتكملانها، وهما تحديداً الأمراض النفسية والجريمة.

### مجتمع المرضى نفسياً

يؤدى تقدّم المجتمع الغربى إلى ظهور عواقب متناقضة. فمن ناحية، تجد هناك وسائل الراحة، والتغذية، والرياضة، والطب، والوقاية الصحية، وهذا ما يساعد بكلّ جلاء فى تحسين صحة الناس وتحسين النوع البيولوجى. بينما تجد، من ناحية أخرى،



تزايداً في أعداد المعوقين منذ الولادة، والمدمنين على الكحول والمخدرات، وارتفاعاً في مؤشرات الميل إلى العنف والشذوذ، والعنّة، والحساسية، والمتلثة الجنسية، والأنواع الجديدة من الأوبئة. وهاهو مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) يهدد البشرية بخطر مريع. وباتت الأمراض النفسية هاجساً حقيقياً في الغرب. وقد كتب عن هذه المسائل كلها كثيرون.

ويفيد ما استقيته من معلومات نشرتها الصحف والمجلات الأمريكية والألمانية التي كنت أطلع عليها أحياناً في العامين ١٩٩١ و ١٩٩٢، بأن ما بين عشرة ملايين وخمسين مليون شخص في الغرب يستعينون بمعالجين نفسانيين من كل صنف ونوع (أطباء، دجالين، مشعوذين...)، ولكن ما أكثر الملايين ممن لا يستطيعون تحمل نفقات هذا الترف؟! وقليل بين من يقومون بعلاج الأمراض النفسية، ولا سيما بين من لا يستطيعون دفع كلفة العلاج، أو يتهربون منه، من له مصلحة بالكشف علناً عن حقيقة هذه المشكلة في الواقع. فمشكلة الأمراض النفسية، بالنسبة لأغلبية سكان الغرب، تشبه مشكلة أمراض الأسنان في القرون الماضية، يوم كانت حتى أضرار الملوك تُنتن وتتلف دون علاج، فيما تضطر نساء البلاط لاستخدام العطور والمنشآت (المراوح اليدوية) من أجل إخفاء الروائح التي تصدر من أفواههن... ثم إن الناس في معظم الأحيان لا يدركون أنهم مرضى نفسياً.

كثيرون من يترددون على الأطباء والمحللين النفسانيين لسببٍ وحيد هو أن يتكلموا بمنتهى الصراحة ويُفضوا بما في أنفسهم". هؤلاء بحاجة إلى جليس يتحدثون إليه فيصغي إلى حديثهم كاملاً، ويوحى لهم، ولو تظاهراً، بأنه يفهمهم. إنهم يدفعون مقابل الاستماع إليهم "بتعاطف" فهم عاجزون عن إيجاد جليس من هذا النوع في محيطهم. وما ذلك إلا نتيجة من نتائج العلاقات الشخصية الخارقة التي تمخضت عنها الغربية.

إن أغلبية من يشكون من أمراض نفسية يقعون في براثن المشعوذين والدجالين. إذ تتدلج بين حين وآخر فضائح تكشف الستر عن بواطن هذا الجانب من حياة الناس.

وعلى سبيل المثال، فقد اندلعت فى عام ١٩٩٠ فى الولايات المتحدة الأمريكية فضيحة مدوية من هذا النوع عندما انتحر أحد طلاب جامعة هارفارد. غير أن من يستغلون المجتمع فى هذه المسألة يملكون السلطة لإخماد أى انتقاد جدى.

على أن من يلعب الدور الرئيس فى مجال علاج الأمراض النفسية هم المحللون النفسانيون (الفرويديون). وقد بالغ هؤلاء فى تضخيم اكتشافات فرويد المحدودة حتى جعلوا منها عنواناً لعصر يكامله، أو أعظم اكتشافات فى التاريخ تقريباً. وتحولت الفرويدية إلى نوع من دين بديل، وإيديولوجيا بديلة. فمحلات بيع الكتب مكتظة بمؤلفات كهنة الفرويدية، وفى المدارس يحشون رءوس الأطفال بمبادئ الفرويدية، ولا يمكن أن نتخيل الأدب، والسينما، والمسرح اليوم من دون الفرويدية. ولا يستطيع أى نقد علمى أن يوقف مسيرتها الظاهرة فى العالم كله. ولا يؤثر على هيبتها الكشف عن أنها تحولت إلى نوع من أكثر أنواع الشذوذ ابتداءً.

وليس بأفضل من أولئك مطببو النفس الآخرون. فهناك المعالجة الغشتالتية (الجشطلطية)، بما يشبه الولادة (Rebirthing)، والبسيكودراما، والتنويم المغناطيسى، والإيحاء، والعلاقة البيولوجية العكسية... وكل ما يخطر وما لا يخطر على البال من طرق "العلاج" على أن لكل من هذه الطرق رسله والمؤمنين به. وقد ظهرت مؤخراً طرائق جديدة، ومنها، مثلاً، "التبعية المتبادلة" و "الإنسان البرى". إذ تشور الطريقة الأولى على الناس بأن يجدوا فى أنفسهم "الطفل المهمل والمهان"، بينما تقترح الثانية عليهم أن يحيوا فى أنفسهم "الوحشية المقموعة". وتلقى هذه الطرق نجاحاً هائلاً، حتى إنه ليصعب على المرء أن يتصور إلى أى مدى من الظلامية ينحط أولئك الناس الذين يستسلمون لتأثير هؤلاء المشعوذين. سيما وأن أولئك الناس متعلمون.

فهل الطب العلمى عاجز حقاً عن أن يحتل المكانة التى تليق به هنا؟ وأين هو هذا "الطب العلمى"؟ إنه ليس أكثر فاعلية من جميع تلك الشعوزات التى تدعى العلم. أضف إلى ذلك أن فى الطب نقطة ضعف تتمثل بسعيه إلى شفاء الناس، ولذلك يطلب الناس منه ما يطلبونه من وسيلة للشفاء. بينما لا أحد عملياً يطلب مثل ذلك من التحليل

النفسى وما شاببه من الظواهر التى يتوقع الناس منها أن تشدهم إلى نمط حياة آخر يختلف عن النمط الغربوى المألوف، أى أنهم ينتظرون أوهاماً ومعجزات. ينتظرون ما يفعله الكحول والمخدرات، ولكن بطرق أخرى.

يجرى على الدوام اختراع عقاقير طبية لعلاج الأمراض النفسية. فقد اشتهر، مثلاً، عقار "بروزاك" كدواء لمعالجة الاكتئاب النفسى. فذبّ القلق أول الأمر فى عالم "أطباء" الشعوذة الدجالين، إذ رأوا فى هذا العقار خطراً فى ثوب دواء منافس، رخيص، وفعال، وفى متناول الجميع. ولكن لم يمضِ إلا قليل من الوقت حتى عادت المياه إلى مجاريها وحافظوا على وضعهم الذى كان. وقد رفع العلاج الجينى أيضاً راية الاستسلام أمامهم، فهو الميدان الذى يحتاج إلى المشعوذين، وليس إلى العلماء والأطباء. ذلك أنه يستحيل أصلاً شفاء ما هو نتيجة طبيعية، وتجسيداً للأسس التى يقوم عليها نمط حياة المجتمع. والمجتمع الغربى محكوم عليه بالعيش مع هذه الأمراض حتى النهاية. لأن ذلك هو ثمن تحويل الإنسان إلى إنسان خارق (سوبرمان)، وتحويل العلاقات الشخصية بين الناس إلى علاقات خارقة (فوق بشرية).

## مملكة المجرمين

ما يُكتب عن الجريمة فى الغرب كثير. وتولى وسائل الإعلام الجماهيرى هذا الموضوع اهتماماً هائلاً. وما من حاجة للحديث عن المكانة التى تحتلها الجريمة فى الأفلام السينمائية، والبرامج التلفزيونية، والأعمال الأدبية. فقد كانت التلفزة الألمانية فى عام ١٩٩٢، مثلاً، تعرض أسبوعياً ٤٠٠٠ جريمة قتل (وفقاً لمعلومات جو جريبيل الباحث فى ميدان الجريمة). ولو مُنعت السينما، والتلفزة، والأدب من تصوير الجرائم لعلت كارثة محققة فى مجال الثقافة والبرنس.

تصدر دراسات متخصصة تتناول موضوع الجريمة. ولكن كيف؟ لقد حاول عالم الاجتماع الألمانى فيرنر برونس إجراء بحث إمبريقي (ميدانى) حول نوع من الجريمة

يسميه "الجريمة الاجتماعية" (تميزاً لها عن الجريمة الاقتصادية)، فشكا من تعذر البحث في هذا النوع من الجريمة بعيداً عن سطوة الإيديولوجيا، وذلك لأن الأحزاب، واتحادات رجال الأعمال، والنقابات، وغيرها من القوى النافذة متورطة في هذه الجريمة. وأعتقد أن في الإمكان قول شيء مشابه بشأن دراسة الأنواع الأخرى من الجريمة<sup>(١٣٧)</sup>.

لقد كانت ولا تزال تظهر نظريات عن الجريمة. وبوسعى أن أشير على وجه الخصوص إلى أعمال منظرين في هذا الموضوع، أمثال دوركهايم، وميرتون، ولامنك، وأوب، وساسرلند. على أن جميع النظريات التي أعرفها تعدُّ ظاهرة الجريمة شيئاً عاماً، وليس عنصراً من عناصر نمط هذا النظام الاجتماعي أو ذاك. أما أنا فأريد أن ألفت الانتباه تحديداً إلى هذا الجانب من الجريمة في الغرب.

إن المجتمع الغربي مجتمع حقوقي، بمعنى أن المعايير القانونية فيه هي التي تحدد، أولاً وبشكل رئيس، تصرفات الناس المهمة اجتماعياً، وليست المعايير الأخلاقية أو أية معايير أخرى. وهكذا فإن الجريمة ذات الخصوصية في ظلُّ الغربية تقوم أساساً على مبدئين. الأول: إذا كان الغربي قادراً على ارتكاب جريمة لما فيه مصلحته وهو واثق بأنه سيبقى في مأمن من العقاب، فإنه يرتكبها. وليس هناك ما يمنع الغربي من ارتكاب جريمة سوى الخوف من الانكشاف ونيل العقاب، وكذلك استحالة ارتكابها عملياً أو الصعوبة القصوى في فعل ذلك. والثاني: هو أن الغربي إذا ما ارتكب جريمة ولم ينكشف أمره ويحكم عليه رسمياً كمجرم، لا يعدُّ نفسه مجرمًا. فليس هناك أية مبادئ أخلاقية و"مشاعر إنسانية" تستطيع، بحد ذاتها، ردع الغربي عن ارتكاب جريمة مهمة بالنسبة له من حيث نتائجها، وغير قابلة للكشف (حسب رأيه). لا يعذب الغربي أيُّ تبكيت ضمير إذا ما ارتكب جريمة ولم تنكشف.

---

(137) Werner Bruns. Sozialkriminalität in Deutschland. Frankfurt/ M., 1993.

إن قابلية الإجرام كامنة في الغربي، من حيث المبدأ، وهو مجرم فعلى في عدد كبير جداً من الحالات.

إن القانون الغربي مبنى بطريقة تمكّن من ارتكاب جرائم يطالها العقاب شكلياً، ولكنها تُقِلت منه عملياً، بل هو يرغب الناس على ارتكاب الجرائم. إذ يضطر - مثلاً - عدد هائل من دافعي الضرائب وأصحاب المنشآت والقائمين عليها للالتفاف بشتى السبل على نظام الضرائب. وهذه السبل موجودة بكثرة في القانون ذاته. ويصعب تحديد نسبة حالات التهرب من الالتزامات التعاقدية. على أنها نسبة عالية جداً، وفقاً لمعلوماتي الشخصية. فالحالات التي يتمكّن فيها المجرمون، بفضل دفاع محامين مهرة ومقابل أجر جيد طبعاً، من تفادي العقاب المناسب تمثل ظاهرة عادية في طريقة الحياة الغربية.

وبحكم ظروف حياة الغربيين ذاتها، تشكّل الجرائم من شتى الأنواع عنصراً ضرورياً ("عادياً") من عناصر نشاطهم العملي غير الإجرامى عموماً. وبهذا المعنى فإن جميع أعضاء المجتمع تقريباً يرتكبون - بطريقة أو بأخرى، وإن في حالات نادرة - جرائم ما. وإذا تقيّدنا بنص القانون حرفياً وبدقّة مطلقة كان علينا أن نُدرج معظم المواطنين في خانة المجرمين، وأن نعاقبهم. ولكن لحسن حظ المجتمع فإن هذا لا يحدث. لأن في النظام الحقوقي ثغرات. وليس بوسعك أن تراقب الجميع.

تفرّق الأدبيات الجنائية بين نوعين من الجرائم، الأول هو الجرائم "الكلاسيكية" (القتل، السرقة، الغش... إلخ)، والثاني هو الجرائم "الاقتصادية" (التهرب من دفع الضرائب، والتلاعب بالتمويل وأسعار العملة، المضاربة بالأراضى... إلخ). ولم تصبح جرائم النوع الثاني موضوع اهتمام إلا منذ فترة قريبة نسبياً، أى عندما أخذت تلك الجرائم تُلحق بالمجتمع أضراراً هائلة. إذ يقول الخبراء إن هذه الأضرار فاقت ما يتسبب به جميع اللصوص مجتمعين، بمن فيهم من يسطون على البنوك. ومنذ بضع سنوات صنّف فيرنر برونس الذي مرّ ذكره أعلاه، الجرائم المتعلقة بالخدمات

الاجتماعية فى خانة أسماها خانة الجرائم الاجتماعية (الجرائم فى مجال الضمان الاجتماعى، وإعانات البطالة، والسكن، والمستشفيات... إلخ).

على أن هذا التصنيف لا يعكس واقع الجريمة فى الغرب إلا جزئياً فقط، بل وفى شكلٍ غامض جداً. فهو لا يشمل ما يقع من جرائم فى صفوف "الطبقة السياسية"، والجهاز الإدارى - البيروقراطى، وفى عمل الأحزاب والحكومة، والحملات الانتخابية، والأجهزة السرية، والشرطة، وفى مجال الإيديولوجيا، والدعاية، والثقافة، ووسائل الإعلام. إن الجريمة تخترق المجتمع الغربى بأسره فى جميع مجالاته، وجوانبه، وفئاته... إلخ، والحياة العادية فيه تسير على حافة الجريمة. ولكن دراسات الجريمة وتصنيفاتها تظل سطحية، مجتزأة، وغير منهجية، مثلها فى ذلك مثل الفكر الاجتماعى فى الغرب عموماً.

إننى بعيدٌ تماماً عن التطلع إلى وضع نظرية تتناول الجريمة، وعن رسم صورتها فى المجتمع الغربى. ولكننى سأزيد على ما قلته أعلاه بضع إضافات.

لقد نشأ فى الغرب ميدانٌ للجريمة من نوع خاص، شبيهٌ بالبنزس العادى. وهو يتألف من المنشآت الإجرامية، بدءاً من المنشآت الصغيرة وانتهاءً بالمجمعات (الكونسيرنات) العملاقة. ولم يبدأ الحديث عنه فى إطار الجريمة المنظمة إلا قبل مدة قريبة جداً. غير أنه بلغ من الاتساع خلال زمن قصير ما جعله يندرج اليوم فى عداد أفضع مصائب العصر. على أن الصراع الجارى ضده الآن لا يحقق نجاحاً يذكر. ذلك أنه ابنٌ شرعىٌ للغربوية، يتضافر ويتداخل مع البنزس العادى، ويكسب بشتى السبل صفة قانونية ويصبح جزءاً منه.

لقد بلغ الإجرام أبعاداً هائلة على مستوى حياة الناس اليومية. ويمكن أن يوصف بأنه جزء من الحياة اليومية. إنه فى تصاعد سريع. إذ سُجِّل فى عام ١٩٧١ فى ألمانيا، مثلاً، وقوع ٤،٢ مليون جريمة من هذا النوع، وارتفع هذا الرقم ليصل فى عام ١٩٩١ إلى ٣،٥ مليون جريمة. وسُجِّل فى فرنسا فى العام نفسه وقوع ٧،٣ مليون

جريمة من هذا النوع. غير أن هذا الارتفاع لم يتوقف. إذ لم يمضِ إلا عام واحد حتى ارتفع عدد الجرائم المسجلة في ألمانيا مليونَ جريمة. ولكن، ما هو عدد الجرائم التي لم تُسجَل؟!

يلاحظ الخبراء تصاعد قسوة المجرمين، وصغر سنهم، وتزايد نسبة الفتيات المجرمات، والانتشار الواسع للجريمة بين تلاميذ المدارس.

إن السكن المستقل، وحماية القانون للحياة الشخصية من تدخل الآخرين يُغيان عملياً إمكانية مراقبة مجال كامل من حياة الناس نشأت فيه ظروف مؤاتية للسير على حافة الإجرام، ولارتكاب الجرائم أيضاً. والحقيقة أن هذه الجرائم لا تُكتشف، ولا تُدان، ولا ينال مرتكبوها العقاب. ولا يحظى هذا النوع من الجريمة باهتمام وسائل الإعلام إلا في حالات استثنائية. مثال ذلك ما شهدته ألمانيا أوائل عام ١٩٩٣ من اعتداءات الوالدين الجنسية على أطفالهم الصغار، واستخدام الضرب المبرح ضدهم. وقبل ذلك أثارت تصرفات من هذا النوع في الولايات المتحدة الأمريكية ضجة كبيرة غير مرة.

يكتبون كثيراً عن الأسباب المباشرة لتزايد جرائم الحياة اليومية، لأن هذه الأسباب هي نفسها ظواهر ثانوية في ظلّ الغربوية، ونعني بذلك البطالة، وضعف الروابط العائلية، وتفكك الأسرة، وأزمة نظام التربية والتعليم، والفراغ الفكري... إلخ. وينظر المختصون بعين التشاؤم إلى إمكانات النجاح في مكافحة نمو الجريمة. وهم على حق في ذلك. فلا بُدَّ لنجاح هذه المكافحة من إعادة بناء أسس المجتمع بحد ذاتها، أو اللجوء إلى تدابير صارمة من شأنها تدمير الخرافة الوردية عن الديمقراطية. والحال، فإن تقوم العناصر الخارجة على المجتمع بأعمال السرقة، والنهب، والاعتصاب، والقتل خيرٌ من أن تعرض العناصر المهووسة اجتماعياً أسس المجتمع الغربي للخطر.

---

(١١) على سبيل المثال، فيرنر زومبارت، في كتابه "الرأسمالية المعاصرة"، ١٩٢٦.



فقد عاش الغرب أكثر من مائة عام في رعب من الشيوعية. وها هم قد تخلّصوا منها أخيراً، والحمد لله. فما الحاجة لرعب جديد؟! أمّا الجريمة، فمتى وأين عاش البشر من دونها؟! زدْ على ذلك أنه يكفي، كما يرى بعض المنظرين، أن نخفّف من تعريفات الجرائم لتبدو الصورة على نحو آخر تماماً، وأكثر تفاقلاً بكثير.

الملاحظة الأخيرة ليست مجرد طُرفة نظرية. إذ يلاحظ وجود ميل في الغرب نحو إدخال تعديلات على القانون تجعل تصرفات الناس التي كانت تعدّ جرائم تغدو تصرفات مشروعة تماماً. والمثال الكلاسيكي في هذا الصدد هو الموقف من المثلية الجنسية. فعلى الرغم من بقاء بعض التمييز ضد المثليين، لم تعد العلاقات المثلية الجنسية سبباً لمعاقبة الناس كمجرمين. وبديهي أن يروّج لهذا الموقف على أنه استمرار في تطوير الديمقراطية.

ويسير في الاتجاه ذاته نظام العقوبات المترتبة على الجرائم، وشروط حبس المحكومين التي تبدو رحيمة للغاية مقارنة بالجرائم التي يقترفونها. وبديهي أن المنظرين يجدون "أدلة" للتأكيد بأن تشديد العقوبات لا يخفّض مستوى الإجرام.

غير أن هذا التوجّه لا يقف حائلاً دون اتخاذ تدابير شديدة القسوة بحق بعض فئات الناس، كـ "اليمنيين" و"اليساريين" الذين يُعدّون خطراً على الديمقراطية.

والحال، فقد ظهرت أشكال جديدة من الجريمة تتصاعد باستمرار. ففي ألمانيا، مثلاً، تمّ في العام ١٩٨٣ تسجيل ما يزيد على ٥٠٧ ألف جريمة ضد البيئة، ثم ارتفع هذا الرقم في العام ١٩٩٢ إلى ٢٦ ألف جريمة تقريباً. وهذا ما تمّ تسجيله فقط. بينما يرى الخبراء أن الجزء الأعظم من هذه الجرائم لا يتمّ تسجيله. وفي العام ١٩٨٧ هزّت العالم فضائح جرائم الكمبيوتر التي سجّل منها في ألمانيا في العام نفسه أكثر من ثلاثة آلاف جريمة. وفي العام ١٩٩٢ تمّ تسجيل أكثر من ١٢ ألف جريمة من هذا النوع. وما هذا إلا جزء يسير من تلك الجرائم، لأن عدد الخبراء الكفوئين في هذا المجال ما يزال دون المطلوب.

إن تزايد عدد مختلف أنواع الجرائم، بدءاً من جرائم الحياة اليومية وانتهاء بجرائم الطبقة السياسية، بدءاً من سرقات النشالين الصغيرة وانتهاء بعمليات النصب والاحتيال عن طريق الكمبيوتر، يتطلب بالضرورة زيادة فى الأموال التى تخصصها الدولة لمكافحة هذه الجرائم، وزيادة فى الإنفاق على هذا الغرض. إلا أن الوتيرة التى يتصاعد بها الإجرام يجعل الدولة عاجزة عن مواجهته بالعدد الكافى من المختصين، والكفاءات العالية، والمعدات الفنية اللازمة. ولا تتمكن الدولة من القيام بذلك إلا فى أفلام السينما وروايات الإجرام البوليسية. لذلك تتزايد الوسائل الخاصة التى يحمى الناس بها أنفسهم من المجرمين. ففي ألمانيا، مثلاً، كان ٢٧٠ ألف شخص يعملون فى هذا المجال عام ١٩٩٣، أى ما يزيد على عدد رجال الشرطة الرسمية. على أن الوضع فى البلدان الغربية الأخرى ليس بأفضل حالاً من الوضع فى ألمانيا إطلاقاً.

إن حالة الإجرام مؤشراً دالاً جداً من وجهة نظر تقييم الديمقراطية الغربية وأفاقها. ذلك أن الديمقراطية، من ناحية، تكفل الحماية الشخصية للمواطنين ممن يتناولون عليهم وعلى ممتلكاتهم، ولكن الديمقراطية تخلق فى الوقت نفسه الظروف الملائمة للإجرام الذى يغدو خطراً على هذا الركن الأساسى بالضبط من أركان الديمقراطية. ولا يستطيع المجتمع حصر الجريمة فى نطاق أطر محددة، مقبولة إلى هذا الحد أو ذاك (فما بالك بالحديث عن اجتثاثها من جذورها!)، دون الحد من الديمقراطية. وهكذا يضطر المجتمع الغربى للتناول على الديمقراطية من أجل حماية الديمقراطية، وللتخلى عنها أحياناً. والمثال الكلاسيكى فى هذا الخصوص هو السماح للقوميين الاشتراكيين (الحزب النازى) بالوصول إلى السلطة فى ألمانيا بغية إنقاذ الديمقراطية من الخطر الشيوعى. وهكذا ينوس المرء، كما يقال، بين "الدلف والمزrab"، بين "الرمضاء والنار"... أمران أحلاهما مر.

## عللُ الرِّخاءِ

تعود أسباب جزء كبير من علل المجتمع الغربي إلى مزايا نمط الحياة الغربي ذاته. ويمكن القول إنها علل الرِّخاء. ولا غرابة في ذلك. فالبشر لا يعانون من الجوع وحده، بل ومن التخمة أيضاً، وليس من العمل المرهق فقط، بل ومن التبطل والكسل كذلك. وأياً كان الخير فإنه يؤدي إلى الشر عندما يعمُّ على نطاق واسع ويتجاوز الحد. إن السكن المستقل، مثلاً، نعمة، ولكنه كظاهرة جماهيرية يساهم في انعزال البشر بعضهم عن بعض، وفي انتشار الأنانية، والوحدة، والاكتئاب. ثم إن تحسُّن ظروف المعيشة وتقدُّم الطب يؤديان إلى ارتفاع متوسط عمر الإنسان، والشِّفاء من أمراضٍ كانت في الماضي عصيةً على العلاج. وفي المحصلة تزداد نسبة المعوقين بالولادة، والمسنين الذين يتحولون إلى عبء ثقيل على كاهل المجتمع. ويتزايد باطراد عدد المحتاجين إلى الرعاية من قبل الأصحاء. ففي ألمانيا، مثلاً، تم في عام ١٩٩٣ تسجيل مليوني إنسان غير قادرين على رعاية أنفسهم. وتنقلب حياة الغالبية الساحقة من المسنِّين إلى عقوبة قاسية، وكابوس، وإلى وجود حيوانيٍّ أو حتَّى نباتيٍّ. ويؤكد الخبراء الآن أن حياة الإنسان قد تطول لتصل إلى ٥٠٠ عام. ويصعب أن يتصور المرء كابوساً أفظع من منظر أعداد كبيرة من الطاعنين في السنُّ تجاوزوا المائة من العمر. على أن هذه "الاكتشافات" بدأت تبعث القلق منذ الآن في نفوس من يظنُّ أن طول الحياة خيرٌ مطلق. ولا حصر لعدد هذا النوع من الحالات التي يولد فيها الشرُّ بالضرورة من رحم الخير.

لا يستطيع المجتمع الغربي إلا بنسبة ضئيلة جداً مواجهة العواقب السلبية التي أدت إليها منجزاته الإيجابية، لأنها عواقبُ تنبثق من الأسس التي يقوم عليها. وهذا المجتمع مرغم على التراجع، والاعتراف تدريجياً بظواهر الشرِّ معياراً ليدرجها في عداد نِعَم الحضارة. وإذا ما هلك هذا المجتمع بمرور الزمن، فإن نجاحاته التي بلغت حدَّ العبث هي - وليس إخفاقاته - ما ستكون أحد الأسباب الأساسية في هلاكه.

## مرحلة جديدة فى تاريخ الغرب

لقد بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الغرب بعد الحرب العالمية الثانية. ففى هذه المرحلة اتخذت الغربية ذاك الشكل الذى وصفته على صفحات هذا الكتاب. وخلال هذه المرحلة أيضاً تعيَّنت الاتجاهات الرئيسة لمستقبل التطور فى الغرب.

كانت الأعوام الأربعون الأولى من هذه المرحلة، أى أعوام "الحرب الباردة" التى لم يعرف لها تاريخ البشرية مثيلاً، هى التى حسمت، إلى حدٍ كبير، مستقبل الغرب ذاته، بل ومستقبل البشرية جمعاء. وطبيعى أننى لا أستطيع أن أكتفى بالصمت إزاء هذا الحدث العظيم.

## العدوُّ التاريخيُّ

نشأت الغربية وتكوَّنت تاريخياً فى غمرة الصراع ضد الإقطاعية. ولكن نجاحاتها الأولى المهمة اجتماعياً خلقت لها عدواً جديداً لا ينتمى إلى الماضى، كما كانت الإقطاعية، بل ينتمى إلى المستقبل، كما كان يبدو لكثيرين حتى عهد قريب. هذا العدوُّ اسمه "الشيوعية".

ينبغى التفريق بين الشيوعية كإيديولوجيا من نوع خاص ("الشيوعية الإيديولوجية")، والشيوعية كنمط خاصٍ لتنظيم المجتمع ("الشيوعية الواقعية"). أما الشيوعية الإيديولوجية فيجب أن نفرِّق فيها بين الأفكار الشيوعية بصيغتها التى رأت فيها النور أول مرة، وبين الصيغة التى ارتدتا فى القرنين التاسع عشر والعشرين. لقد كان رجل الدولة والمفكرُّ الإنجليزى توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) رائد فكرة المجتمع الشيوعى بوصفها أساس الإيديولوجيا الشيوعية التى جاءت فيما بعد. فقد نشر فى عام ١٥١٦ كتابه الشهير، والذى أثق بأنه خالد، وعُرف فيما بعد اختصاراً بـ "اليوتوبيا". لقد عرض مور فى هذا الكتاب أفكاره بشأن المجتمع المثالى،

التي ضمها ماركس فيما بعد إلى وصفه "الشيوعية التامة". وبعد مضي قرن من الزمن على وفاة توماس مور (عام ١٦٢٣) وضع الإيطالي تومازو كامبانيلا كتابه الشهير "مدينة الشمس" الذي عرض فيه صورة مجتمع قريبة بأفكارها الأساسية من صورة مشروع مور. ثم طوّر الفرنسيون مابلي، وكابلي، وسان سيمون، وفورييه، والإنجليزى أوين هذه الأفكار نفسها قبل ماركس.

وأضفى ماركس على أفكار الشيوعية شكلاً غدت معه الإيديولوجيا الشيوعية أول إيديولوجيا جماهيرية، بالمعنى الصارم للكلمة، فى تاريخ البشرية، ولعبت دوراً تاريخياً هائلاً. فقد صارت الماركسية إيديولوجيا الأحزاب الثورية والإصلاحية، فـ "أنزلت" من علياء الإيديولوجيا إلى صفوف الجماهير بواسطة دعاية منهجية. لقد كانت فكرة المجتمع الشيوعى حتى العام ١٩١٧ حكرًا على المثقفين الغربيين. ومن الغرب جىء بتلك الفكرة إلى روسيا التي أصبحت فيما بعد موطن الشيوعية كما تجسّدت فى الواقع. وهكذا، فإن الغرب الذى ناصب الشيوعية عداً ضارياً كان بذلك ينقض على الوليد الذى أنجبه هو بالذات.

وينبغى التفريق أيضاً بين الإيديولوجيا الشيوعية، كإيديولوجيا جماهير وأحزاب فى البلدان غير الشيوعية، وبين الإيديولوجيا الشيوعية، كإيديولوجيا رسمية فى المجتمع الشيوعى. ففي الحالة الأولى كانت مهمتها تتلخص بإيقاظ الجماهير وتنظيمها من أجل تغيير المجتمع وفقاً للأفكار الشيوعية، بينما كانت مهمتها فى الحالة الثانية تتلخص بجعل وعى الناس مطابقاً لظروف الشيوعية الواقعية التي لم يكن يجمع بينها وبين المثال الشيوعى إلا القليل. وقد انعكس هذا الفرق على جميع توصيفات الإيديولوجيا. على أن إيديولوجيا الدولة السوفيتية لم تتضمن إلا جزءاً من تأكيدات الماركسية قبل الثورة، وحتى هذا الجزء أعيدت صياغته من جديد.

إن تحويل الماركسية إلى إيديولوجيا رسمية فى الاتحاد السوفيتى والبلدان الشيوعية الأخرى كان أحد أسباب انحطاطها. كما أن التطبيق العملى للشيوعية ثبط لمدة طويلة عزم الراغبين بها فى العالم بأسره. ومن بين الأسباب الأخرى التي أدت إلى

انحطاط الشيوعية كإيديولوجيا جماهيرية يجب أن نشير إلى كون الرأسمالية لم تغادر حلبة التاريخ كما تنبأ ماركس، بل تعززت في هذا المقطع من التاريخ وكأنها ربحت السباق مع الشيوعية. أمّا البروليتاريا التي رأى فيها الماركسيون حفار قبر الرأسمالية فأخذت تلعب دوراً ثانوياً، وتقلصت عددياً، وانتكست، وكفّت عن أن تكون ركيزة الأفكار الشيوعية.

إن سقوط الماركسية لا يعنى نهاية الإيديولوجيا الشيوعية نهائياً، لأن الأسباب التي أوجدتها لم تختف بعد. وقد استولى على جزء من برنامج الشيوعيين أنواع شتى من الأحزاب العمالية، والشعبية، والاشتراكية وغيرها، وكذلك حركات جماهيرية مثل "الخضر"، و "البديل"، والنقابات، وحتى الطوائف الدينية. لقد "ذابت" الأفكار الشيوعية في المستنقع الفكرى الموجود في هذا العصر.

كما يجب التفريق في الشيوعية الواقعية أيضاً بين محاولات متفرقة لتأسيس كومونات شيوعية صغيرة، وبين مجتمعات كاملة من النمط الشيوعى. فقد ظهرت الكومونات (النوع الأول) في الماضى، وهى تظهر اليوم في الغرب، والنموذج الكلاسيكى للنوع الثانى هو النظام الاجتماعى الذى نشأ في روسيا بعد ثورة ١٩١٧ واستمر حتى أواخر ثمانينيات القرن العشرين<sup>(١٢٨)</sup>.

تُصوّر الإيديولوجيا والدعاية الغريبتان المجتمع الشيوعى الواقعى وكأنه شىء اختلقه الماركسيون وفرضوه على شعب روسيا من فوق، بالقوة والخداع. وهذه صورة باطلة. ذلك أن المجتمع الشيوعى تنظيم اجتماعى لجماهير السكان، وليس مجرد نظام سياسى يمكن تغييره بقرارات من القيادة. كما أن هذا النظام لم ينشأ في الاتحاد السوفيتى وفق مخطط ماركسى، ولا بناء على إرادة الإيديولوجيين الماركسيين،

---

(١٢٨) تناولت هذا النموذج بإسهاب في مؤلفاتى الأخرى، وخاصة فى "الشيوعية واقعاً"، و "أزمة الشيوعية".

وإنما نشأ بفعل القوانين الموضوعية لتنظيم جماهير غفيرة من الشعب في كيان اجتماعي واحد. لقد كان ذلك النظام الشيوعي نتيجة الإبداع التاريخي الذي صنعه ملايين من الناس. غير أن من شيدوه كانوا إما يفتقرون لأي مفهوم عن الماركسية، وإما كانت معرفتهم بها شديدة الغموض فأولوها على هواهم. وما نتج عن ذلك في الواقع لا يشبه المشروع الماركسي إلا بمؤثرات معدودة. وقولي هذا، لا يشكك - في أي حال من الأحوال - بدور الأفكار الماركسية في نضال الناس من أجل الشيوعية الواقعية. ولا أريد إلا التشديد على أن الشيوعية الواقعية تتشكل وتحيا بناء على قوانينها الموضوعية الخاصة التي لا يجمعها جامع مع المثل الشيوعية، ولا تخضع لإرادة أفراد معينين.

تأتى الشيوعية إلى الحياة عبر طرق مختلفة. فقد ظهرت في روسيا نتيجة الانهيار الذي خلفته الحرب العالمية الأولى، والثورة، والحرب الأهلية. وجاءت إلى بلدان أوروبا الشرقية مع الجيش الأحمر الذي حطم ألمانيا الهتلرية. لكن على الرغم من كل تنوع الطرق التاريخية لظهور الشيوعية في هذه الزاوية أو تلك من الكرة الأرضية، ثمة قاسم مشترك هو أنها لا تظهر في الفراغ، ولا تكون غريبة بالطلق عن البلد الذي تجد نفسها مكاناً فيه.

لقد كانت جذور الشيوعية وما تزال موجودة، بهذا الشكل أو ذاك، في شتى المجتمعات وأكثرها تبايناً. كذلك كانت موجودة في روسيا قبل الثورة. وهي موجودة في بلدان الغرب أيضاً. وبدون تلك الجذور يستحيل عموماً وجود أي مجتمع على قدر كاف من الكبر والتطور. إنها ظواهر اجتماعية أسميها ظواهر الكومونالية. وهي لا تستطيع إلا في ظروف معينة أن تصبح سائدة في المجتمع، وأن تولد نمطاً شيوعياً متميزاً من أنماط المجتمع، أي شيوعية واقعية.

كانت ولا تزال الإيديولوجيا والدعاية الغربيتان تصوران المجتمع الشيوعي كبؤرة لكل ما يمكن تخيلُه من شرور ("إمبراطورية الشر" كما وصف الرئيس الإمبركي الأسبق رونالد ريغان روسيا السوفيتية). لا جدال في أنه كانت لهذا المجتمع نواقصه



وعيوبه، وكانت عرضة لأقصى الانتقاد منذ الأيام الأولى لوجوده. ولكن كانت له أيضاً مزاياه التي ظلت مدةً طويلة مثلاً يُحتذى بالنسبة لمئات الملايين من الناس في العالم. وهذه المزايا بالذات أثارت من الرعب في الغرب أكثر بكثير مما أثارت أهوال الشيوعية. وسيكون على الغرب منذ الآن أن يكافح من أجل تحقيق أمور كثيرة كانت واقعاً في روسيا السوفيتية رغم الظروف التاريخية غير المؤاتية والفضيحة التي أحاطت بتجربتها الشيوعية.

## الحرب الباردة

برزت الشيوعية منذ خطواتها الأولى على مسرح التاريخ كظاهرة مناهضة للرأسمالية. وطبيعي ألا تستدعي تعاطفاً من جانب المؤمنين بالغربوية. أما بعد ثورة عام ١٩١٧ في روسيا فقد أضحى الحقد عليها والرعب منها عنصريين ملازمين للحياة الغربية. بينما صار الاتحاد السوفيتي مثلاً يُحتذى في نظر كثير من شعوب العالم. وفي البلدان الغربية نفسها راحت الحركة الشيوعية تتنامى بشكل خطير. وتمثل ردُّ الفعل على ذلك في ظهور الاشتراكية القومية (النازية) في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا وإسبانيا، وهذا ما أوقف مؤقتاً خطر الشيوعية الداخلي في الغرب.

كان الغرب قد شنَّ هجومه العسكري الأول على الشيوعية في روسيا منذ سنوات ١٩١٨ - ١٩٢٠، ولكنه باء بالفشل. وخلال الحرب العالمية الثانية تمكَّن قادة الغرب من توجيه العدوان الألماني ضد الاتحاد السوفيتي. غير أن محاولات سحق الاتحاد السوفيتي بالطرق العسكرية وبأيدي ألمانيا لم تفلح. بل وبانتصاره على ألمانيا فرض الاتحاد السوفيتي نظامه في بلدان أوروبا الشرقية، وعزز نفوذه بشكل هائل في العالم. واشتدَّ عود الأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية. وهكذا راح الاتحاد السوفيتي يتحوَّل إلى قوة عظمى ثانية في العالم تتمتع بقدرات عسكرية متعاظمة، فأضحت الشيوعية العالمية خطراً واقعياً بالفعل.

غير أنه سيكون من الخطأ ألا نرى في العلاقات المتبادلة بين النظامين الاجتماعيين في الغرب والعالم الشيوعي إلا المواجهة حصراً. فقد أصبحت روسيا في نظر البلدان الغربية مجالاً للاستعمار قبل ثورة عام ١٩١٧ بمدة طويلة. وكانت الثورة تعنى أن الغرب فقد هذا المجال. بل وفي نظر هتلر أيضاً لم يكن الصراع ضد الشيوعية ("البولشفية") هدفاً بحد ذاته، بقدر ما كان ذريعة للاستيلاء على "مجال حيوى"، وتحويل من يعيشون في هذا المجال إلى عبيد من طراز جديد. والحال، فإن انتصار الاتحاد السوفيتى على ألمانيا، وتوسيع مجال نفوذه في العالم قلصا على نحو هائل من فرص الغرب في ما يتعلق باستعمار الكرة الأرضية. بل وخيم على الغرب خطرٌ من أن يُحشَر ضمن حدوده القومية، وكان ذلك لو تحقق مساوياً لانحطاطه، وحتى لهلاكه تاريخياً.

كان بديهياً في هذا الوضع ظهور فكرةٍ شتّى نوع خاص من الحرب - فكرة "الحرب الباردة" - ضد الشيوعية الصاعدة.

وعلى الرغم من الاعتقاد بأن "الحرب الباردة" قد انتهت، فإن صراع الغرب ضد الشيوعية العالمية لا يزال مستمراً، ولم يغدُ كلُّ ما له علاقة بهذه الحرب شيئاً من الماضى. قد يُنشر بعد زمن كتاب عن هذه الحرب صادقٌ ووافٍ. غير أن "الحرب الباردة" لا تزال حتى الآن في مجال اهتمامات السياسة، والإيديولوجيا، والدعاية. إننى سأحاول أدناه عرض تصوّرى عن "الحرب الباردة" وفق ما تبلور لدى كإنسان عاش جزءاً أساسياً من حياته في هذه المرحلة، وكان شاهداً عياناً على العديد من فصولها، واطّلع على مراجع مكتوبة عنها من باب الفضول الذهنى المحض، وليس كمشاركٍ نشطٍ ذى مصلحة في معاركها (١٣٩)،

---

(١٣٩) وقت كتابة هذا الباب تصفحتُ عدداً كبيراً من المقالات والكتب حول "الحرب الباردة"، أشير هنا إلى بعض منها:

H. Lasswell. Propaganda in War and Crisis. N. Y., 1951.

L. Frazer. Propaganda. London, 1957. =

تعود المبادرة في شنّ "الحرب الباردة" إلى الغرب، وإلى الولايات المتحدة الأمريكية بالدرجة الأولى. ولم يكن ذلك سراً، بل بالعكس، فقد جرى تبريره على أنه نضالٌ نبيلٌ ضد "الشمولية السوفيتية"<sup>(١٤٠)</sup> وفي العادة يصفون هذه الأحداث بأنها كانت بداية "الحرب الباردة". فقد طرح تشرشل في عام ١٩٤٦ فكرة "الستار الحديدي" لحماية أوروبا من النفوذ السوفيتي. وفي عام ١٩٤٧ ظهر مبدأ ترومان الذي استُخدم فيه لأول مرة مصطلح "الحرب الباردة". ودعا هذا المذهب إلى الحد من التغلغل السوفيتي (الشيوعي) في أوروبا. وفي العام نفسه صاغ جورج فروست كينان مبدأ إقامة سدٍّ في وجه التغلغل السوفيتي في أوروبا. وأقر مشروع مارشال بهدف مساعدة بلدان أوروبا الغربية على النهوض والتصدي للنفوذ السوفيتي. وفي عام ١٩٤٩ تأسس حلف الناتو. وفي عام ١٩٥٠ صاغت واشنطن موقفها الاستراتيجي الأساسي في ما يخص العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، وهذا ما عرف بتقرير مجلس الأمن القومي رقم ٦٨<sup>(١٤١)</sup>. وقد حدد هذا التقرير سياسة الولايات المتحدة الأمريكية طيلة مرحلة "الحرب الباردة"، وطبيعة هذه الحرب. وأعقب ذلك اندلاع موجة صاخبة من المذاهب، والخطط، والمنطلقات، والتوصيات، والاقتراحات، والمشاريع استمرت طيلة سنوات "الحرب الباردة" ولم تنته حتى الآن.

---

= Thomas Sorensen. Propaganda and the Cold War. Washington, 1963.

P. W. Blackstoen. Strategy and Subversion. Chicago, 1964.

Z. K. Brzezinski. Alternative zur Teilung. Koln, 1966.

Adam Ulam. Expansion and Coexistence. N. Y., 1968.

Milos Marko. Psychologische Kriegsführung. Prag, 1972.

ف. بولشاكوف. في الطريق إلى القرن الـ ٢١، موسكو، ١٩٨٦. (بالروسية)

Bob Woodward. Veil. 1987.

(١٤٠) د. يردجن. العالم المصدوم، ١٩٧٧. (بالروسية)

(١٤١) نشر أول مرة في العام ١٩٧٥

يُستَخدم مصطلح "الحرب الباردة" عادةً للدلالة على النزاع الذي نشب بين البلدان الشيوعية والبلدان الغربية، وخاصة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، فور انتهاء الحرب العالمية الثانية. وجاء وصفُ هذه الحرب بـ "الباردة" نظراً لأن القوات المسلحة لم تتدخل بكامل قوتها وبشكل مباشر في العلاقات بين الخصمين. وقد أجمع قادة الغرب السياسيون والإيديولوجيون على أن من الجنون خوض حرب "ساخنة" تُستخدم فيها الأسلحة الحديثة. فهذه الحرب كان من شأنها أن تؤدي إلى هلاك الخصمين كليهما، وجعل الكرة الأرضية غير قابلة للحياة. وإلى ذلك تكون اقتناع باستحالة إسقاط الأنظمة الشيوعية بالطرق العسكرية<sup>(١٤٢)</sup>، ولذلك فإن الحرب "الساخنة" بين الطرفين لم تتعدّ حدود إشعال حروبٍ "صغرى"، ومشاركةٍ في الحروب بين بلدان أخرى.

وفي الحقيقة فقد زهبت "الحرب الباردة" بعيداً خارج إطار كونها مجرد نزاع بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي بعد الحرب، إذ كانت استمراراً لسياسة العداء للسوفيت التي انتهجها قادة الغرب في الفترة ما بين الحربين العالميتين وإثناء حرب ألمانيا وحلفائها ضد الاتحاد السوفيتي ما بين عامي ١٩٤١ - ١٩٤٥ وامتدت هذه الحرب الباردة لتشمل الكوكب كله وجميع مجالات حياة البشر، أي الاقتصاد، والسياسة، والدبلوماسية، والإيديولوجيا، والدعاية، والثقافة، والرياضة، والسياحة، واستُخدم فيها كلُّ وسائل التأثير على البشر كالإذاعة، والتلفزة، والأجهزة السرية، والمؤتمرات، والمناظرات، والتبادل الثقافي، والرشاوى، والعلاقات العامة. واستُغلت الذرائع كافة، وجميع النقاط الحساسة عند الخصم، وكلُّ نقطة ضعف عند الإنسان، سواءً في ذلك الخلافات القومية، والخرافات الدينية، والفضول، والغرور، والنفعية، والحسد، والميول الانتقادية، والخوف، وروح المغامرة، والأنانية، والحب... إلخ.

---

(١٤٢) صرح بذلك علناً كلُّ من الرئيس الأمريكي الأسبق ليندون جونسون، ومستشار الأمن القومي ز. بزيجينسكي.

وباختصار، لعلّ "الحرب الباردة" كانت أول حرب كونية شاملة من طراز جديد في تاريخ البشرية.

لم تقتصر "الحرب الباردة" على كبح التغلغل السوفيتي في أوروبا، بل تحولت إلى صراع ضدّ زحف الشيوعية في الكرة الأرضية كلّها. وصار الهدف منها عموماً تدمير الاتحاد السوفيتي وكتلة البلدان الشيوعية كلها تدميراً تاماً. وطبيعي أن يرتدى ذلك الهدف ثوب البلاغة الإيديولوجية، والحديث عن تحرير الشعوب من نير الشيوعية، والمساعدة على اكتساب القيم الغربية (الأمريكية في المقام الأول)، والنضال من أجل السلام والصدّاقة بين الشعوب، وفي سبيل الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان.

حدثت في سياق "الحرب الباردة" مصادفات، وارتجال، وتذبذبات، وتصويبات، وحالات عفوية. غير أن أسس استراتيجيتها وتكتيكها كانت قد أُعدت سلفاً. فقد كانت هذه الحرب تخاض بانتظام، وبحداقة مذهلة، بدءاً من العمليات السياسية الكبرى وانتهاءً بأدقّ تفاصيل أفعال كل فرد في كل عملية. ولم يكن ذلك سرّاً من الأسرار الدفينة. بل كان يجد تعبيراً عنه في خطب السياسيين، ومؤلفات الإيديولوجيين الذين لا حصر لهم، وبالدرجة الأولى في كتابات جيش من المتخصصين بشئون الاتحاد السوفيتي والكرملين الذين كانوا قيادة الأركان الفكرية في هذه الحرب.

لقد لعبت الولايات المتحدة الأمريكية الدور الحاسم في هذه الحرب، وكان يقف إلى جانبها الغرب بأسره. فهي كانت حرب الغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية. على أن الغرب المتفوق على خصمه في كل شيء فرض على هذا الخصم نمط الحرب الذي يريده هو. فدارت الحرب على الطريقة الغربية الصّرف، على الطريقة التي كانت الأعمال الكبرى في الغرب ولا تزال تُنجز وفقاً لها، أي كما تُبنى السفن، والمطارات، والطائرات، وكما تُنفذ برامج غزو الفضاء.

وكانت هذه الحرب من جانب الغرب نوعاً من "البرزنس" بكلّ ما له من مواصفات. لم تكن مجرد نفقات بمعنى الخسائر على غرار ما كانت الحروب "الساخنة" في الماضي،

بل كانت استثماراً للقوى والأموال وفق قوانين الغريبة. فالتهوض غير العادى الذى عرفه الاقتصاد ومجمل الفعاليات الحيوية فى الغرب، فى الفترة الممتدة من ١٩٤٦ وحتى ١٩٨٦، كان متزامناً مع "الحرب الباردة"، ولم يكن ذلك محض صدفة. لقد كان هذا النهوض مديناً إلى درجة هائلة (إن لم تكن حاسمة) لهذه الحرب تحديداً. أما فى نهاية الحرب فقد شهد الغرب ركوداً اقتصادياً ونزوعاً عاماً نحو انخفاض فعالياته الحيوية كلها.

كانت "الحرب الباردة" حرباً من نوع خاص، لقد كانت أول حرب غربية على نحو خاص فى تاريخ البشرية. وعلى الرغم من أن الخصمين كانا يمتلكان من الأسلحة ما لم يكن يملكه أى جيش من قبل، فإنهما لم يستعملا هذا السلاح استعمالاً مباشراً ضد بعضهما البعض، وتفسير هذه الحقيقة، المتعارف عليه، هو أن استعمال السلاح الحديث من شأنه أن يؤدي إلى هلاك الطرفين كليهما معاً، وإلى كارثة عالمية. ولكن متى كان الخوف من العواقب يوقف متصارعين فى معركة قاتلة؟! فقد ألقى الأمريكيون قنبلتين نوويتين على اليابان! صحيح أن الخوف لعب دوره، ولكنهم كانوا يبالبغون فى تضخيمه بشتى الأشكال. وهذا بحد ذاته كان سلاحاً فى "الحرب الباردة". كما أن سباق التسلح، وسياسة الوقوف على حافة الحرب "الساخنة" كانا من جانب الغرب حرباً لاستنزاف العدو. لقد أرغم الاتحاد السوفيتى وحلفاؤه على تحمل نفقاتٍ تفوق طاقتهم.

وكون الخصمين لم يقوما بتدمير القوى الحية عند بعضهما البعض حقيقةً صارت أيضاً سلاحاً فى يد الغرب. إذ كان على الاتحاد السوفيتى تأمين الطعام، واللباس، والسكن، والعمل لمواطنيه الذين ظلوا على قيد الحياة بعد الحرب، وزاد عددهم خلال سنوات "الحرب الباردة" بأكثر من مائة مليون. فقد تحول هؤلاء إلى عبء إضافى على كاهله. وما كان بوسع أى دولة من الدول الغربية أن تتحمل هذا العبء، فبعد إعادة توحيد الدولة الألمانية، مثلاً، لم يزد عدد سكان ألمانيا الغربية إلا سبعة عشر مليوناً من القسم الشرقى يتمتعون بمستوى حياة مرتفع للغاية. ومع ذلك وجدت هذه البلاد

نفسها، وهى من أغنى بلدان العالم، فى حالة كارثية تقريباً. بينما ازداد عدد سكان الاتحاد السوفيتى مائة مليون إنسان لا يملكون شيئاً، "عراة" تقريباً! أضف إلى ذلك متطلباتهم العالية التى كانت الدعاية الغربية تؤججها باستمرار.

كانت وسائل الإيديولوجيا، والدعاية، والسيكولوجيا سلاحاً رئيساً فى "الحرب الباردة". فقد زجَّ الغرب بقوى بشرية وأموال هائلة من أجل تدجين سكان الاتحاد السوفيتى وحلفائه إيديولوجياً وسيكولوجياً. ولم تكن تدفعه إلى ذلك نوايا طيبة، بل كانت غايته الحطُّ من الروح المعنوية عند الناس، وتبليدهم، وإثارة أخسُّ المشاعر والرغبات وتشجيعها فيهم. إذ كان الغرب يراهن على أدنى المستويات الفكرية وأكثر النوعيات حسية بين الناس.

وضع الغرب نُصب عينيه مهمة تدمير المجتمع فكراً، ومعنوياً، وسياسياً، بالعمل على زعزعة البنى الاجتماعية والسياسية، وتجريد الجماهير من القدرة على المقاومة، وتدمير المناعة الفكرية - النفسية عند مواطنى العدو. ولتحقيق ذلك استخدم دعايته الجبارة وسيلةً تصرف اهتمام الناس عن القضايا الاجتماعية إلى الجنس، والجانب الشخصى الحميم فى حياة النجوم وعُتاة المجرمين (الغانفستر)، وعالم الإجرام، وأشكال المتعة الشاذة. وعملت على استفزاز المشاعر القومية والدينية وتضخيمها، وخلق أساطير وشخصيات نجومية كاذبة وفرضها على الناس.

لقد زجَّ الغرب فى هذا العمل بعشرات الآلاف (إن لم يكن بمئات الآلاف) من الخبراء والمتطوعين، بينهم عملاء للأجهزة السريّة، وأساتذة جامعات، وصحافيون وسيّاح. وأخذ هذا العمل بعين الاعتبار تجربة الماضى، وخاصة تجربة ماكينة غوبلز الدعائية، وكذلك منجزات علم النفس والطب، وخاصة التحليل النفسى. ويمكننا أن نستشهد بقولٍ لأحد علماء الاجتماع الغربيين (لا أذكر اسمه) فحواه أن من انتصر فى "الحرب الباردة" ليس الرأسمالية، وإنما الوسائل المثلى التى عملت باسم الرأسمالية من أجل تبليد الناس.



لقد قوّضت تجربة "الحرب الباردة" عدداً كبيراً من الخرافات التي سيطرت على عقول البشر منذ مئات السنين. إذ كان شائعاً، مثلاً، أن خداع الشعب لا يمكن أن يدوم مدةً طويلة، فجاءت "الحرب الباردة" لتقدم دليلاً قاطعاً على أن الوسائل الحديثة التي تُستخدم لتدجين الناس والتلاعب بالجمهير تجعل خداع الشعب أسهل من خداع شخص بمفرده، بل وتجعل خداع الشعب يستمرّ مدةً طويلة تدوم ما دام للخداع معنى، وما دام هناك مال لاستمراره.

لئن كان الغرب (والولايات المتحدة الأمريكية أساساً) قد برع في استخدام السلاح الإيديولوجي - النفسى والاقتصادى طيلة أربعين عاماً، وأنفق على ذلك أموالاً خيالية، فإنه تمكّن من القضاء التام على الروح المعنوية في المجتمع السوفيتى، وبالدرجة الأولى على هذه الروح لدى الفئات صاحبة السلطة والامتيازات، وكذلك لدى النخبة الإيديولوجية والإنتلجنسيا فيه. وقد أفضى ذلك بثانى أعظم دولة فى العالم إلى الاستسلام خلال فترة قصيرة إلى درجة تثير الدهشة. وأعتقد أن الغرب نفسه لم يكن يتوقّع هذه النهاية "للحرب الباردة".

هناك اعتقاد بأن هزيمة الاتحاد السوفيتى وتوابعه أثبتت فى "الحرب الباردة" إخفاق النظام الاجتماعى الشيوعى وأفضلية النظام الرأسمالى. أعتقد أن هذا الرأى خاطئ. فهزيمة البلدان الشيوعية كانت نتيجةً لجملة معقّدة من الأسباب، بينها ما فى النظام الشيوعى نفسه من عيوب لعبت دوراً فى ذلك. ولكنّ هذه النقطة ليست بعدُ دليلاً على عجز النمط الشيوعى عن تنظيم المجتمع، وعدم قابلية هذا النمط للحياة. ذلك أن انتصار الغرب الرأسمالى ناتجٌ أيضاً عن جملة معقّدة من الأسباب، بينها مزايا الرأسمالية التي لعبت دوراً فى ذلك، ولكنّ هذه النقطة ليست بعدُ دليلاً على أفضلية الرأسمالية.

لقد استغلّ الغرب نقاط الضعف لدى الاتحاد السوفيتى، بما فى ذلك عيوب الشيوعية. واستغلّ الغرب أيضاً نقاط تفوّقه، بما فى ذلك مزايا الرأسمالية. إلا أن انتصار الغرب على الاتحاد السوفيتى لم يكن انتصاراً للرأسمالية على الشيوعية. فقد

كانت "الحرب الباردة" حرباً بلدان وشعوب بعينها، لا حرباً أنظمة اجتماعية مجردة. ويمكن إيراد أمثلة معاكسة تؤلِّك "دليل" على تفوق الشيوعية على الرأسمالية. ومن بينها، مثلاً، عملية التصنيع التي جرت في الاتحاد السوفيتي بسرعة خاطفة، وإعادة تنظيم الصناعة في سياق الحرب ضد ألمانيا والانتصار عليها، وكذلك الوضع في الصين الشيوعية مقارنة بالوضع في الهند الرأسمالية. غير أن هذه الأمثلة بحد ذاتها ليست برهاناتاً على شيء.

إن المجتمع الشيوعي الواقعي عاش عمراً قصيراً جداً، وفي ظروف غير مؤاتية، يحول دون إمكانية الوصول إلى استنتاجات قاطعة تثبت عدم قابليته للحياة. فد "الحرب الباردة" ليست على الإطلاق بالظرف المناسب لإجراء تجربة مخبرية. ولكي نقرر أن الرأسمالية انتصرت على الشيوعية ينبغي أن يكون الخصمان متكافئين في كل شيء باستثناء النظام الاجتماعي. ولكن لم يكن أي شيء من هذا القبيل موجوداً في الواقع. إذ كان الغرب متفوقاً على الاتحاد السوفيتي في جميع المجالات التي لعبت الدور الحاسم في "الحرب الباردة".

لقد بين تطور الأحداث اللاحق أن فهم جوهر العملية التاريخية في مرحلة "الحرب الباردة" على أنها صراع بين منظمتين اجتماعيتين هما الرأسمالية والشيوعية، كان فهماً سطحياً، وخاطئاً في نهاية المطاف. فهذا الفهم يُحلُّ شكل العملية التاريخي محلَّ جوهرها. إذ كان الصراع في حقيقة الأمر صراعاً الغرب من أجل البقاء، أي من أجل الهيمنة على الكرة الأرضية كشرط لا بد منه لبقائه. وكانت النظام الشيوعي في البلدان الأخرى وسيلة للدفاع ضدّ تطلعات الغرب هذه، ثم انتقلت البلدان الشيوعية نفسها إلى موقع الهجوم. إلا أنها لم تكن هي صاحبة هذه المبادرة التاريخية، وإنما كان الغرب صاحبها. وقد كانت هذه المبادرة تختبئ في أعماق المسار التاريخي، بل كانت تتستر أحياناً عن عمد. على أن المبادرة التاريخية ليست برنامج أحزاب وحكومات. ونادراً ما يعيها البشر على حقيقتها. ثم إن الشيوعية باتت مادة للهجوم من قبل الغرب نظراً لأن العالم الذي كان يقاوم الغرب ويهاجمه أحياناً، اتخذ شكلاً شيوعياً. إذ لم يكن بوسع

هذا العالم أن يقاوم، بل وأن ينتصر أحياناً، إلا في هذا الشكل. ولهذا السبب بالضبط تمّ تركيز الانتباه على الشيوعية. أضف إلى ذلك أن الصراع ضد الشيوعية أعطى الغرب مبرراً لكل ما كان يقوم به على سطح الكرة الأرضية في تلك السنين. إن هزيمة البلدان الشيوعية في "الحرب الباردة" جرّدت الغرب من هذا الغطاء الذي كان يُخفى به نواياه الحقيقية.

### مشكلة المستقبل

ظهر في مطلع القرن العشرين إحساس بأن حضارة الغرب تسير باتجاه الأفول. ويُعدُّ أوزفالد شينغلر<sup>(١٤٣)</sup> أوّل من وضع نظرية في هذا المجال، ثم تبعه كثيرون، منهم ريمون آرون<sup>(١٤٤)</sup>، وكان هؤلاء يرون أسباب تدهور الغرب في السيرورة الداخلية التي يسلكها المجتمع الغربي نفسه. وفي السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية أضيفت إلى هذه المخاوف مخاوف أخرى من أن يهلك الغرب نتيجة انتشار الشيوعية الظافر في العالم، أي نتيجة أسباب خارجية. غير أن انتصار الغرب في "الحرب الباردة" ألغى الخوف من الأسباب الخارجية، وما كان يُعدُّ من قبل دلائل على انحطاط المجتمع الغربي بات يمجّد كدلائل على تقدّمه.

وفي السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية اتُّخذ مسار تطور الغرب والبشرية بأسرها منحى جعل مشكلة المستقبل، بصرف النظر عن المخاوف المذكورة أعلاه، تحتلُّ المقام الأوّل ليس في الإيديولوجيا الغربية وحسب، بل وفي حياة المجتمع الغربي الواقعية نفسها.

---

(١٤٣) أوزفالد شينغلر. أفول أوروبا. (١٩١٨ - ١٩٢٢).

(144) R. Aron. Memoires. 1983.



## مفهوم المستقبل

لم أقع في أيُّ من المؤلفات التي تتناول موضوع المستقبل على تعريفٍ دقيقٍ لمفهوم "المستقبل" تحديداً. إذ يُنظر إلى المستقبل كشيءٍ جليٍّ، ومفهومٍ تلقائياً. على أن المسألة ليست كذلك إطلاقاً.

لا بدّ، أولاً، من التفريق بين المعنى الفيزيائي، والمعنى الاجتماعي (السوسيولوجي) لمفهوم "المستقبل". فالمستقبل، بالمعنى الفيزيائي، هو الزمن الذي يلي الزمن الحاضر. وبالمعنى الاجتماعي هو حالة الناس ومُتحداتهم التي تأتي بديلاً لحالتهم الآن، في الحاضر. ومفهوم "المستقبل" في كلا المعنيين مرتبط بمفهوم "الحاضر". فما هو الحاضر؟ هل نستطيع أن نعدّ اليوم الذي نحن فيه حاضراً، ويوم الغد مستقبلاً؟ واضح أن الجواب نعم، ولكن بالمعنى الفيزيائي. أمّا بالمعنى الاجتماعي؟ فالجواب يتطلب أن نعرف: بالنسبة لمن، ومن أيُّ وجهة نظر.

إن الكائن الاجتماعي (سواءً أكان فرداً، أو مجموعة من الناس، أو مجتمعاً، أو بلداً، أو تجمع بلدان، أو البشرية) ليس فيزيائياً، ولا فيلسوفاً يفكر بمفاهيم الزمن المجردة ووسائل قياسه، وإنما هو كائن فاعل عملياً. وليس الحاضر بالنسبة له مجرد لحظة لا امتداد لها، وليس مجرد حدٍّ بين الماضي والمستقبل. بل الحاضر بالنسبة له فاصل زمني ممتدّ، يقدر فيه أفعاله ويقوم بها وكأن الزمن لا يتحول إلى ماضٍ أصلاً، كأنه شيء جامد. وهو يعدُّ حياته هذه حاضراً بالنسبة إلى أحداث وقعت في الماضي الفيزيائي الذي يتذكّره أو يعرفه عن طريق الآخرين، ولكنها أحداث لا يلتفت إليها أو يضعها بالحسبان في الحاضر، وهو كذلك يعدُّ حياته هذه حاضراً بالنسبة إلى أحداث يعدّها ممكنة في المستقبل الفيزيائي، ولكنه يستطيع ألا يلتفت إليها الآن. ومع أن كثيراً من هذه الأحداث (أحداث الماضي الذي زال، وأحداث المستقبل الذي لم يأت بعد) يكون على درجة كبيرة من الغموض، فإنه يتشكّل لديه تصوّر إجماليٍّ وحدسيٍّ ما بأن تلك الأحداث تنتمي إلى الماضي، والحاضر، والمستقبل.

ووفقاً لمرور الزمن الفيزيائي يتحرك حاضِر هذا الكائن الاجتماعي أو ذاك (أى ما يعيشه كحاضر) مخترقاً المستقبل الفيزيائي، ويمكن لجزء من المستقبل الفيزيائي أن يطول زمنه فى الحاضر. بمعنى أن الناس كلما ازدادوا تطلُّعاً إلى المستقبل الفيزيائي، ازدادوا اعتماداً فى توجيه نشاطهم الحيوى على أحداثٍ يعتقدون أنها ستقع فى المستقبل الفيزيائي. إنهم كمن يسرع نحو المستقبل، أى كأن مسار العملية التاريخية يتسارع بالنسبة لهم. ولكن ثمة احتمال آخر، إذ إن حدود الماضى الفيزيائي، الذى يندرج فى الحاضر الاجتماعي، تظل كما هى، أو تتحرك ببطء شديد يجعل الحاضر، بالمعنى السوسولوجي، يتوسَّع أساساً أو إجمالاً على حساب الماضى الفيزيائي. وعند ذلك يبدو وكأن سير الزمن التاريخي يتباطأ. بل ويمكن أيضاً لعوامل من الماضى البعيد أن تصبح جزءاً من الحاضر، وعندئذ يبدو وكأن الحاضر الاجتماعي يسرع باتجاه الماضى الفيزيائي. ويمكن أيضاً أن لا يبقى (أو أن لا يظهر) عند الناس أى شعور بأن كينونتهم كينونة فى الزمن. وتكون حياتهم عندئذ كينونة فى حاضر ممتد لا نهاية له. وفى هذه الحالة ينشأ وضع يمكن أن نعدّه توقُّفاً للزمن التاريخي بالنسبة لهذه الجماعة من الناس. وفى هذه الأثناء يمرُّ الزمن الفيزيائي من غير أن يعيش الناس حياتهم كزمن يسير نحو المستقبل. على أن معظم الشعوب التى عاشت وتعيش على كوكبنا هى من هذا النوع تحديداً. إن التطلُّع إلى المستقبل ظاهرة نادرة إلى حدِّ كبير. وقد تجسَّدت هذه الظاهرة فى الاتحاد السوفيتي قبل الحرب العالمية الثانية، وفى الغرب خلال النصف الثانى من القرن العشرين.

## توجُّه الغرب فى الزمن

وهكذا، فإن تطلُّع جماعة بشرية ما إلى المستقبل يعنى أن أعضاء هذه الجماعة بدءوا يضعون بالحسبان فى نشاطهم العملى ما يعدونه ممكناً، أو حتى حتمياً، فى المستقبل الفيزيائي ولم يكونوا يعدونه كذلك من قبل. وهذا لا يعنى أن أعضاء الجماعة متساوون كلهم فى هذه النظرة، وأنها تأتى من تلقاء نفسها ودون صراع. على أن أول

من يأتي بهذا التطلع إلى المجتمع هم قلة من المتحمسين، يتقبل المجتمع أفكارهم عادةً بعد صراع عنيف، بل ولا يكون النجاح دائماً حليف المتحمسين في هذا الصراع.

لم يكن الغرب يتطلع نحو المستقبل دائماً، كان يعيش الحاضر، شأنه في ذلك شأن الشعوب الأخرى، وقد أسقط الدين المسيحي بالكامل مشكلة المستقبل كعامل اجتماعي، إذ نقلها إلى مجال الحياة الآخرة، مثلما نقل التعويل على المستقبل إلى مجال الأخلاق الدينية.

إن بداية نزوع الغرب إلى توجه زمني جديد مرتبطة بالأفكار الشيوعية. ويتلخص أعظم منعطف في تاريخ الغرب من وجهة النظر هذه في إنزال الجنة من السماء إلى الأرض. ثم جاء بعد ذلك رفع الجحيم من القاع (من العالم السفلي) إلى السطح. حدث هذا في القرن العشرين، عندما نُقل المستقبل، كعامل اجتماعي، من مجال الغيب إلى حياة البشر العادية (إلى عالم الشهادة). لقد كانت "يوتوبيا" توماس مور، ومدينة الشمس" لكامبانيلا تاريخياً أول أفكار عن مستقبل البشرية لعبت دوراً هائلاً في مصير الغرب.

وقام كارل ماركس بالخطوة التالية في هذا الاتجاه، فحول مشكلة المستقبل من مشكلة تفكيرٍ بالمستقبل إلى مشكلة صنعٍ للمستقبل وفقاً لمشروع مُعدَّ سلفاً. فقد قال ماركس إن المفكرين كانوا يحاولون حتى الآن تفسير العالم، أما الهدف الآن فهو تغييره. وأصبح ماركس مؤسس إيديولوجيا المستقبل التي ظلت أكثر من قرن من الزمن تسيطر على عقول ومشاعر جماهير هائلة العدد، ومارست تأثيراً غير مسبوق على تطور الغرب والبشرية بأسرها. إن الغرب مدين للماركسية والحركة الشيوعية تحديداً بولادة توجهه إلى المستقبل.

لقد كانت ثورة عام ١٩١٧ وتطور المجتمع الشيوعي في روسيا أكبر حافز لهذا التوجه في الغرب. إذ راحت الشيوعية تصبح خطراً حقيقياً على وجود الغرب، فكان عليه أن يتعامل مع هذا الخطر كظاهرة تنتمي إلى المستقبل. ثم تعاظم هذا الخطر بعد



الحرب العالمية الثانية ونتاجت عنه "الحرب الباردة" التي يمكن مقارنتها، من حيث قوة التطلع إلى المستقبل، بالتطلع الذي كان سائداً في الاتحاد السوفيتي أيام ستالين. وقد أثرت هذه العملية على التقدم الاقتصادي والتقني - العلمي في الغرب بعد الحرب. وشغلت مسائل المستقبل مكانة في الوعي الاجتماعي لم يسبق أن شغلها من قبل. وبدأ الغرب يقفز في مجال الإيديولوجيا من حقبة إلى أخرى، قبل أن يتسنى له هضمُ الحقبة السابقة كما ينبغي، واستيعابُ الحقبة الجديدة بكامل حجمها. كان المجتمع الغربي يعيش زمنه وأنظاره مشدودة إلى المستقبل، لأنه كان عاجزاً عن أن يثبت في الوعي حاضره البراق. فقد سيطرت على عقول الناس فكرة تسريع الزمن التاريخي، وكانوا ينظرون إليها بمعناها الحرفي وليس المجازي. وهكذا جاءت ظاهرة علم المستقبل (Futurology) (١٤٥) لتكون تجسيدا مميّزا لهذا التطلع.

## علم المستقبل Futurology

كان في الماركسية جزء أطلق عليه الماركسيون أنفسهم اسم "الشيوعية العلمية". ويقدم هذا الجزء وصفاً لمجتمع المستقبل، مجتمع الرفاه الشامل، والمساواة، والعدالة، وغير ذلك من خيرات، أي مجتمع "الشيوعية الكاملة". وينطوي هذا الجزء من الماركسية أيضاً على استراتيجية لبناء ذلك المجتمع المنشود. فعندما كانت الماركسية تتعرض للانتقاد في الغرب، كانت "الشيوعية العلمية" على وجه الخصوص موضع استهزاءٍ ينضح سماً. غير أن الغرب نفسه شهد بعد الحرب العالمية الثانية ظهور

---

(١٤٥) الدراسات الاستشرافية، المستقبلانية Futurology . جاء في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية للدكتور أحمد زكي بدوي - بيروت ١٩٧٨ - أنه علم التكهن بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المستقبل، ويستند في دراستها على الاستقراء والاستنباط بجمع الوقائع الفردية المتعددة ليستخلص منها المبادئ العامة التي تحكمها ويخرج بعد ذلك بالصور التي سيكون عليها المجتمع في الأجيال المقبلة. - المترجم).

شيء شبيه بـ "الشيوعية العلمية" هو نوع خاص من التأليف صار اسمه "علم المستقبل" (الاستشراف)، وكان الألماني أو. فلشتهائم الخبير في العلوم السياسية أول من وضع هذا المصطلح قيد الاستخدام. ثم ظهرت مؤسسات متخصصة لا يقتصر عملها على التنبؤ بالمستقبل، بل ويرسم أيضاً مشاريع وخططاً للمستقبل، واستراتيجية لتنفيذها<sup>(١٤٦)</sup>.

كان دعاة "الشيوعية العلمية" واثقين من أنهم يستندون إلى علم صارم. ولكن الزمن بين أنه لم يكن في شيوعيتهم "العلمية" أي شيء علمي. فصار لمصطلح "الشيوعية العلمية" معنى السخرية، ولهذا بالذات أريد أن أطلق على التنبؤات الغربية ومشاريع المستقبل اسم "الغربوية العلمية"، لأن تلك التنبؤات والمشاريع التي تدعى العلمية تنتمي في الواقع إلى مجال الإيديولوجيا، وأعني إيديولوجيا الغربوية طبعاً.

إن الصفة المميزة لمؤلفات "الغربوية العلمية" هي تجاهل، أو تشويه ما لمُتَّحَدات بشرية بعينها من خصائص وقوانين موضوعية. إذ تتحدث تلك المؤلفات عن المجتمع بشكل عام، وعن الإنسان بشكل عام، وعن المستقبل بشكل عام أيضاً. ويركز مؤلفوها النظر على جوانب مجتزأة من الحياة الاجتماعية، أو على اكتشافات علمية، واختراعات تقنية مثيرة يؤولونها تأويلاً ذاتياً، ثم يرسمون لمستقبل المجتمع صورة وكأنما ليس فيه شيء آخر، أو كأن الحياة كلها تدور حول تلك الصورة.

وتبنى هذا التنبؤات بطريقة تجعل شيئاً ما يتحقق فيها دائماً، ويكون بلوغ هذا الهدف عن طريق "التنبؤ" عادة بما هو موجود إلى حد ما، وجلياً دونما حاجة إلى تنبؤات هؤلاء المستشرفين. ولكن ذلك لا ينطبق إلا على الظواهر الثانوية. أما التنبؤات التي لها أهمية اجتماعية كبيرة فتكون إما كاذبة سلفاً، أو عديمة المعنى. وفي

---

(١٤٦) منها، مثلاً: Hudson- Institute وكذلك RAND- Corporation في الولايات المتحدة الأمريكية .

الحقيقة، لا تكمن وظيفة هذه التنبؤات فى التنبؤ بحالة المجتمع فى المستقبل، بل فى كونها شكلاً إيديولوجياً للتعبير عن آمال الناس، وأمانيتهم، ومثلهم، ومقاصدهم، ومخاوفهم. ولذلك يصبح ما هو باطل، وعديم المعنى من الناحية العلمية أطول التنبؤات عمراً وديمومة. إن صنّاع التاريخ الحقيقيين لا يستترشدون فى نشاطهم العلمى بهذه التنبؤات إطلاقاً. وهم يكتفون باستخدامها أحياناً كشواهد، وكوسيلة لتبرير ما يقومون به دون أى تنبؤات.

تتناول تنبؤات "الغربوية العلمية" جوانب الوجود البشرى كافة، بدءاً من أدوات المطبخ، وطرق ممارسة الجنس، وانتهاء بالمجتمع الدولى، والتواصل مع سكان الكواكب الأخرى. بل ويجرى إعدادها باستخدام كل ما تملكه أقوى وسائل جمع المعلومات ومعالجتها ونشرها، وهى وسائل لم تخطر على بال كهنة "الشيوعية العلمية" حتى فى الأحلام. ومقارنة بهذا المدى من التبليد الإيديولوجى عالى الكفاءة الذى تمارسه الغربوية على البشرية، تبدو جهود "الشيوعية العلمية" شطاراتٍ ساذجةً يمارسها هواةُ أغرار<sup>(١٤٧)</sup>.

سأتناول بعض الأمثلة الدالة من تنبؤات "الغربوية العلمية" التى قدّر لى الاطلاع عليها فى عدد لا يحصى من الجرائد، والمجلات، والكتب، والبرامج التلفزيونية، وأحاديث الخبراء، واسترسالات السطحين الكلامية.

يتنبأ بعض علماء المستقبل بحدوث تغيرات هائلة فى ما يخصّ المطبخ. أى أن المطابخ سوف تزود بتكنولوجيا توفرّ الماء والطاقة، ويكون استخدامها أكثر سهولة وأقلّ

---

(١٤٧) تجد هذا الصنف من التنبؤات فى عدد لا يحصى من المقالات والكتب، أنكر منها هنا:

John Naisbilt & Patricia Aburdene "Megatrends" (N. Y., 1982), "Megatrends2000" (N. Y., 1990); Alexander King & Bertrand Schneider "Die globale Revolution" (Spiegel Spezial, No. 2. 1991); "P. M. - Perspektive. Der Blick in die Zukunft" (1993).

ضجيجاً. وبديهي أن يصبح للحاسوب وتقنيات الليزر دور في تحسين عمل أدوات المطبخ. فلتسخين وجبة إفطار عادية جاهزة (وهذا أيضاً يتنبأون به) تتألف من مواد أنتجت عن طريق الهندسة الوراثية والبيولوجيا الجزيئية (وهذا أيضاً يتنبأون به)، وعديمة الطعم (وهذا أيضاً يتنبأون به)، سوف تُستخدم طاقةً ذهنيةً تفوق طاقة جميع أكاديميات العلوم في البلدان غير الغربية في وقتنا الحاضر. والحقيقة، يظلُّ غامضاً كيف يمكن لمعداتٍ مزودةٍ بالليزر والحاسوب أن تكون أسهل استخداماً من الطناجر والمقليات العادية. وإلى أي حدٍّ ستكون هذه المعدات أفضل توفيراً للماء والطاقة من زيادة عادية في أسعار الماء والطاقة، ما دام لا يمكن لأيِّ تقنيةٍ حاسوبية أن تنافس ألمانياً عادياً في دقة حساباته التي تُحصى آخر درهم.

ويتنبأ آخرون باختراع وسائل جديدة لحماية النباتات، ناسين أن جميع الوسائل السابقة التي سممت الطبيعة تسميماً نهائياً لا براء منه، كانت قد اخترعت تحت هذه الأعذار نفسها. ويتنبأون أيضاً باختراع موادٍ جديدةٍ تفوق المواد الحديثة في كلِّ شيء، وستوفر السيارات والطائرات للناس مزيداً من الراحة، وتصبح أكثر لطفاً إزاء البيئة. أي، باختصار، إن النواقص سوف تقل، أو تزول نهائياً، أما المزايا فسوف تزداد، أو تظهر مزايا جديدة.

كما يتنبأون بأن الفرد سوف يحقق انتصاراً ما. وسيكون ذلك عن طريق تزويد العالم بأجهزة تلفزيون سهلة المنال، وانتشار أجهزة "الفاكس"، وزيادة حصة الشركات الصغيرة في التصدير... إلخ. غير أن البلدان الغربية متخمة بأجهزة التلفزيون الرخيصة، وأجهزة "الفاكس" متوفرة لكل من يحتاجها في عمله، وحتى لكثيرين ليسوا بحاجة إليها. ويعلن عدد كبير من الشركات الصغيرة إفلاسه تاركاً المجال لغيره. فيما يزداد انخفاض قيمة الفرد النسبية، وذلك - طبعاً - باستثناء الأفراد الذين لديهم مداخيل وثروات كبيرة، ويشغلون مناصب عالية، ويتمتعون بالشهرة والسلطة. غير أن هؤلاء الأفراد لا يندرجون إطلاقاً في عداد الفئة التي يخلقون من أجلها كل هذه التنبؤات الوردية.

ويتنبأ علماء المستقبل للفن بنهضة ما. فلماذا النهضة؟! وهل الفن فى حالة انحطاط؟! وما الذى يُعدُّ نهضة؟! هل هو ازدياد عدد المتاحف؟ أم ارتفاع ثمن لوحات الفنانين القدماء؟ أم ازدياد عدد الراقصين؟ إنك لن تعثر على أية معايير للحكم كى تجيب. وماذا عن الحقائق التى لا تتسع لها تصورات المستقبلين المتأججة، وتحديدًا: لماذا تتراكم فى العالم أكداس من الأعمال عديمة القيمة الجمالية تسمى فنًا، ولماذا المبالغة المسرفة فى تضخيم من يفتقرون للموهبة، ولكنهم يحققون نجاحًا ماليًا ويخدمون أهدافًا سياسية، ولماذا يغرق العالم بما تنتجه هوليوود من أفلام بائسة فكريًا وجمالياً تفسد البشرية وتبلدّها، لماذا لا يستطيع أهل الفن العاديون كسب لقمة العيش بعملهم الإبداعي، ولماذا تندثر أنواع من الفن بلغت قمماً غير عادية ذات يوم؟!

يتنبأون أيضاً بقيام اقتصاد عالمى واحد، وإن كان ذلك حقيقة واقعة. ولكنهم لا "ينسون" إلا الإشارة إلى أن ما يتحول إلى اقتصاد عالمى ليس اقتصاداً مجرداً لا هوية له، وإنما هو بكل وضوح اقتصاد الغرب الذى يهيمن على العالم.

يتنبأ علماء المستقبل بنهوض كبير لهذا الاقتصاد العالمى فى وقت قريب، علماً بأن حالة الاقتصاد الواقعية لا تشجع على أى نوع من التفاؤل. فوسائل الإعلام كلها تضجُّ بالحديث عن مؤشرات ركود، وأزمة اقتصادية: ازدياد غلاء المعيشة، التضخم، البطالة، ارتفاع الضرائب، إفلاس عدد كبير من المنشآت، شركات كبرى تتكبد خسائر هائلة ويتقلص إنتاجها. أما الإيديولوجيون فيمنوننا بنهوض كبير. تماماً كما كان الإيديولوجيون السوفيت يمنون الناس بأن الوفرة قاب قوسين أو أدنى، فى حين كانت الصعوبات الاقتصادية فى تزايد مستمر.

كان خبراء "الشيوعية العلمية" يعولون على ارتفاع وعى المواطنين، وروح العمل البطولية. أما خبراء "الغربية العلمية" فيعولون على التكنولوجيا. إذ يتنبأ أحدهم، على سبيل المثال، بأن عملية إنتاج خيرات الحياة وتوزيعها سوف تجرى بواسطة أجهزة تديرها الحواسيب. ولن يكون العمل مدفوع الأجر، وبدلاً من ذلك ستكون الحاجات الأساسية مضمونة للمواطنين، على أن يكون لكل منهم الحق فى كسب ما يزيد عن

الحد الأدنى المضمون من حاجاته. والحال، فما هذه التنبؤات كلها إلا إعادة كتابة لوعود الماركسية بمجتمع يحصل فيه الناس على ما يحتاجون من نعم الحياة (لكل حسب حاجته)، بل ومن غير نقود.

ويضيف ملياردير سويسرى<sup>(١٤٨)</sup>، إلى كنز "الغربوية العلمية" تنبؤاً يقول إن الكرة الأرضية ستكون في أواسط القرن الحادى والعشرين خالية من الجوع، يتمتع جميع سكّانها بالرعاية الصحية، تستعيد فيها الطبيعة عافيتها، وينخفض استهلاك الموارد الطبيعية والطاقة مرتين. فلو لم يرد في ما كتب عن كتابه من تعظيم أنه واحد من أغنى الأوروبيين لظننت أن المؤلف وضع هذا الكتاب في العهد الستالينى، وأنه كان موظفاً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى تخرج في المدرسة الحزبية العليا في موسكو بدرجة شرف.

ويتنبأ علماء المستقبل باتحاد البشرية جمعاء في "مجتمع كوني" واحد، مجتمع منسجم، تسوده الأخوة والازدهار. وسأعود فيما بعد للحديث عن فكرة "المجتمع الكوني" تخصيصاً.

## المجتمع المعلوماتى

أكثر ما يميز "الغربوية العلمية" تنبؤها بالتحول إلى مجتمع معلوماتى<sup>(١٤٩)</sup>، مرة أخرى يدور الحديث عن المجتمع بشكل عام، وليس عن مجتمع من طراز غربوى من نوع خاص. ولكن، فلندع هذا "التفصيل الصغير" جانباً، ما دام المقصود بشكل أو بآخر هو المجتمع الغربى.

---

(148) Stephan Schmidheiny. Kurswechsel. Munchen, 1992.

(١٤٩) تطوّرت نظرية المجتمع ما بعد الصناعى، أو المجتمع المعلوماتى، على أيدي كل من د. بيل، و.ز. بجزينسكى، وج. هلبرايت وآخرين. والوصف الذى أقدمه هنا وجدته فى العديد من مؤلفات الباحثين الغربيين، بينهم: Schumpeter J. A. الذى ورد ذكره فى الهامش رقم ١٠٩.

إن أغلبية الناس في مجتمع المعلوماتية سيعملون - طبقاً لهذا التنبؤ - في المجال الإعلامي الذي يتضمن ثلاثة جوانب هي:

١ - جمع المعلومات، وحفظها، ومعالجتها، وتوزيعها؛

٢ - اختراع التقنيات المعلوماتية، وإنتاجها، واستخدامها؛

٣ - إعداد الاختصاصيين، وتدريب المواطنين على التعامل مع تقنيات المعلوماتية.

وقد اعتمد هذا التنبؤ على رصد مجال المعلومات في مرحلة ظهوره في شكله الراهن ونموه العاصف. ثم عُدَّت نتائج هذا الرصد صالحة في المستقبل، إذ ظُنَّ أن الأمور نفسها سوف تتكرر في المستقبل أيضاً. ولكن ذلك كان خطأً منطقيًا واضحاً. على أن هذا الخطأ لم يكن ناجماً عن جهل منطقي، وإنما عن التوجُّه الإيديولوجي. وما إن جاء مطلع تسعينات القرن العشرين حتى أخذت الفورة المعلوماتية بالانحسار. وكان طبيعياً أن تضعف حماسة المتنبئين بالمجتمع المعلوماتي، ولكن بعد أن تسنى لهم قطف ثمار تنبؤهم، وبات يسيراً عليهم القفز بكل بساطة إلى التنبؤ بحقبة جديدة أخرى.

إن نمط المجتمع لا يحدده مجال واحد من مجالاته أياً كانت أهمية هذا المجال، ولا اكتشافاً أو اختراعاً واحد مهما كان تأثيره على نمط حياة الناس، بل تحدده جملة معقّدة من العوامل التي وصفتُ خطوطها العريضة أعلاه في معرض حديثي عن مجتمع النمط الغربي. لقد ظهرت في تاريخنا الماضي اكتشافات واختراعات علمية - تقنية لا تقل أهمية عن التقنية المعلوماتية المعاصرة. ونقصد بذلك المحرّكات البخارية، ومحركات الاحتراق الداخلي، والكهرباء، والراديو، والسيارات، والطيران، والصواريخ، والتلفزة، والطاقة الذرية.... وسوى ذلك الكثير. غير أنه لم ينجم عن تلك الاختراعات أي حقبة من نوع خاص، وإن كانت تثير ضجيجاً يتعالى كل مرة. فقد كانت الاكتشافات والاختراعات تدخل حيز التطبيق في الحياة، وكان الضجيج يخمد، فيما يواصل الغرب حياته وفق قوانينه الاجتماعية العميقة نفسها، ويصفتها الاجتماعية نفسها، أي بوصفه



مجتمع الغربية. وقد تابع تطوره بصفته هذه، ولكن تحت تأثير عوامل عديدة، ووفقاً لقوانين تطور الكيان الاجتماعية، والتنظيم الاجتماعي.

يرى علماء المستقبل أن الاكتشافات العلمية - التقنية في النصف الثاني من القرن العشرين تختلف مبدئياً عما سبقها من اكتشافات بكونها تلامس الجانب الفكري من حياة الناس والمجتمع ككل. ولكن اكتشافات الماضي أيضاً لامست فكر الناس بطريقة أو بأخرى، بينما الاكتشافات الجديدة لا تلامس إلا جانباً واحداً من النشاط الفكري هو الجانب الذهني الأكثر بدائية ويتطلب جهوداً بدنية هائلة. ولم يؤد هذا إلى أكثر من إعادة هيكلة محدودة للحياة العملية، دون أن يغير الجوهر الاجتماعي للمجتمع الغربي.

ويتنبأ علماء المستقبل بأن يكون لدى كل شخص في مجتمع المعلوماتية القادم جهاز له عقل وذاكرة يفوقان بالآلاف المرات عقل الإنسان وذاكرته. وأن الناس سيحملون دائماً في ثيابهم، أو على شكل سوار، أو خاتم، أو ميدالية أجهزة اتصال معلوماتية ذكية تتيح لهم الحصول فوراً على أي معلومة في العالم، والتواصل مع كل من يريدون.

لن أتوقف هنا لتحليل ما في هذه التنبؤات من سخافات معروفة سلفاً، كإمكانية التواصل مع أي كان من الناس، والحصول على ما ترغب من معلومات. فهل سيرغب الآخرون بالتواصل معك؟ وهل سيسمحون لك بذلك؟ وهل سيعطونك المعلومة التي تريد؟ يجب أن يكون المرء معتوهاً تماماً لكي يصدق بذلك. وأياً كان الجهاز الذي بحوزتك فإن قدرات الإنسان على التواصل، و"هضم" المعلومات، تظل محدودة. وتظل الحاجة إليها محدودة أكثر. وهكذا فإن وعد الناس بمستقبل يفيض بالمعلومات كالوعد بتمكين كل إنسان من تناول الطعام في جميع مطاعم الكرة الأرضية حالاً وفي وقت واحد، بل وبالجان أيضاً.

كان متوقعاً أن يبلغ عدد سكان العالم أواخر القرن العشرين ثمانية أو عشرة مليارات إنسان، وأن يصل إلى خمسة عشر ملياراً أواسط القرن الحادى والعشرين. ولكن، دعنا عند الرقم اليوم، وهو ستة مليارات! ولنفترض أن نصفه فقط من البالغين والأسوياء إلى هذا الحد أو ذاك. فهذا يعنى وجود ثلاثة مليارات كائن لديهم ذاكرة ودماغ يفوقان بالآف المرات دماغ الإنسان وذاكرته! إلا أن ذكاء الأغلبية الساحقة من البشر على درجة من البدائية تجعل التفوق عليه ليس بالخطوة الهائلة على طريق تطوّر البشرية. ومن كان أحمق ظلّ أحمق أيّاً كانت قوة الذكاء الاصطناعى الذى فى حوزته. بل ولا يزيده ذلك الذكاء إلا حُمقاً. فإذا كان الذكاء الاصطناعى يفوق ذكاءه بعشرة آلاف مرة، كان فى العالم عشرة آلاف وأحمق، بدلاً من كلّ أحمق واحد.

بل ولماذا التزوّد بهذه الأجهزة، إذا ما كانت الأغلبية الساحقة من البشر لا تشعر بأى حاجة إليها؟! إذا كان الناس، بشكل عام، عاجزين عن استخدام قدرة دماغهم الطبيعى، وهو زائد عن حاجتهم، فإن الذكاء الاصطناعى الذى يُفرض عليهم مثلما تفرض عليهم عموماً جميع المواد الاستهلاكية الحديثة، لا يمكن أن يكون له إلا دور واحد هو جعل الإنسان غيبياً، وكبح ذكائه الطبيعى. يوجد فى العالم عشرات الملايين، بل مئات الملايين من نوى الذكاء المتدنّى يقودون سيّارات هى ثمرة إبداع عباقره من الناس. وسيتكرّر ما يشبه ذلك أيضاً عند استخدام الأجهزة التى يعدنا بها علماء المستقبل. يصعب على المرء أن يتخيل ما هو أفظع من وجود ثلاثة مليارات من المعتوهين مسلّحين بتقنيات خارقة الذكاء.

من يدرس المعلومات التى يتبادلها الناس الآن يجد أن نصفها على الأقل لا يتمتع بأية قيمة إعلامية، وأن ٤٩٪ منها ليس بحاجة إلى الإسراع فى نقله، و١٪ فقط له معنى عملى. فحاجات الناس للتواصل ليست كبيرة إلى هذا الحد. ونتيجة لكثرة مصادر المعلومات انخفض اهتمام الناس المتدنّى أصلاً بالتواصل انخفاضاً حاداً. وإذا ما تحقّق فى الواقع هذيان علماء المستقبل فإنه لن يكون هناك كائن أشدّ مقتاً للإنسان من الإنسان نفسه، ولا شىء أشدّ مقتاً من التواصل مع الناس.

يتنبأ علماء المستقبل بأن التقنيات المعلوماتية ستسفر عن تحسُّنٍ قويٍّ في ظروف معيشة الناس، فيسهل قيادهم. وأن زيادة إنتاجية العمل ستبلغ حدًّا يمكن من تلبية جميع حاجات الناس بجهود ضئيلة. وستكون سهولة الحصول على المعلومات واستخدامها ثروة بحدِّ ذاتها، شأنها شأن امتلاك الأراضي ووسائل الإنتاج... على أن كل عبارة في هذه التنبؤات تُرهِمة منافية للعقل. والحال، لماذا ظلُّوا أكثر من مائة عام إذاً يسخرون من الشيوعية الماركسية "الناجزة"، ما داموا أنفسهم عاجزين عن ابتكار أيُّ شيءٍ آخر غير تلبية جميع حاجات الناس، وبجهود ضئيلة<sup>(١٥٠)</sup>!

وبين المؤلفين الذين بشروا بمجتمع الجنة المعلوماتية من أدركوا أن استخدام التقنيات المعلوماتية لا يؤدي إلى رفع إنتاجية العمل، ولا يفعل أكثر من تحسين الاستجابة لمتطلبات السوق (بمزيد من الدقَّة والسُرعة). فالاقتصاد المعلوماتي ليس إضافة إلى الاقتصاد الصناعي، بل هو "نسيج" جديد يتخلَّل الاقتصاد كله. أمَّا النمط الاجتماعي - الاقتصادي في المجتمع فلا يتغير، بل ويرسُخُ صفته الرأسمالية السابقة. وهكذا لن يطرأ أيُّ تغييرٍ نوعيٍّ على مبادئ توزيع الخيرات، وتلبية الحاجات، أيًّا كانت الظروف، ما دامت الرأسمالية موجودة.

لا يتوقَّف رخاء المجتمع على عقلانية الإدارة بالدرجة الأولى. ذلك أن الإدارة عقلانية دائماً بمعنى ما، وغير عقلانية دائماً في الوقت نفسه، لأنها تخضع لقوانين من نوع آخر يختلف اختلافاً كلياً عن قوانين العقل. أمَّا مستوى العقلانية (والأفضل أن نقول جدواها) فلا يتوقَّف كثيراً على وفرة التقنيات المعلوماتية، كما يعتقد الآن كثيرون. وستظلُّ فعالة تلك القواعد الخاصة بالإدارة بوصفها نوعاً خاصاً من العمل حتَّى ولو زوِّدنا كلَّ شخص في منظومة الإدارة بملايين الأجهزة المعلوماتية. إذ يتعيَّن على العاملين في الإدارة أن يتعاملوا مع أفراد لهم مصالح مختلفة، ومتناقضة تماماً في

---

(١٥٠) الترجمة الحرفية للحلم الشيوعي: "لكلِّ حسب حاجته، من كلِّ حسب طاقته". - م.

كثير من الأحيان، وحلُّ المشكلات في هذه الحالات ليس حلُّ مسألة رياضية، ولا عثوراً على الصيغة المثلى، بل هو صراع لا يأبه لأيّ من حجج العقل الميكانيكي. على أن الحالات الإشكالية التي تتطلب تدخل منظومة الإدارة في تصاعد مستمرّ عدداً وحِدّةً. ثم إن استخدام التقنيات المعلوماتية في جميع مجالات المجتمع يقدم للأطراف المتنازعة سلاحاً إضافياً في صراعها، وليس وسيلة للتخفيف من ضراوته. فاختراع السلاح الناري في حينه لم يُلغِ الحروب التي لا نهاية لها، بل أعطاها طابعاً آخر. كذلك هو الأمر في حالتنا هذه.

أمّا تحوُّل المعلومات إلى ثروة تعادل الثروة المادية فمن العسير على المرء أن يخرع ما هو أكثر بؤساً من الناحية الفكرية، وخسّةً من الناحية الأخلاقية، من هذه السلوى التي يُمنون بها الفقراء والمحرومين. إنَّ ما تغصُّ به الكرة الأرضية من معلومات غنّة لا يقلُّ عن نفايات الصناعة الغربية المتطورة التي دمّرت بها نصفَ الوسط الطبيعي إن لم يكن أكثر. ما من شيء في العالم اليوم أرخص من المعلومات. ولا مفرّ منها كما لا مفرّ من القمامة، ولكنّ ذلك لا يجعل مليارات البشر يحسُّون بأنهم أغنياء.

لقد أغفلت تنبؤات علماء المستقبل إغفالاً تاماً الجانب الاجتماعي من تنامي المجال المعلوماتي وتحسّنه. ويتلخّص هذا الجانب في أن وسائل الاتصال الفردية أضحت في العقود الأخيرة من السنوات كافية تماماً لنشر سيطرتها على سكان البلدان الغربية عن بكرة أبيهم، وجعلهم في مجال نفوذها. وقد بات عاملاً حاسماً في ذلك مضمون المعلومات التي تُغذّى بها الناس، وتنظيم تدفق هذه المعلومات، وضبط تنظيم إعداد المعلومات والأخبار وتوزيعها، ودور نظام المعلومات في حياة المجتمع ككل. لقد ظهرت في المجتمع قوة اجتماعية - سياسية - إيديولوجية جديدة إلى جانب تجمعات الشركات الكبرى والبنوك والدولة، أخضعت المجتمع كلّهُ لسلطتها. ولا تستطيع الاختراعات التقنية الجديدة إلا تعزيز وضع هذه القوة بإعطائها وسائل جديدة للسيطرة على الناس.

## تنبؤات قاتمة

تظهر بين حين وآخر تنبؤات قاتمة شبيهة بأجواء روايات جورج أورويل والدوس هاكسلي، والغريب أن الناس ينظرون إليها بعين الرضى، فلماذا؟ لأن عبثيتها المفرطة جلية للعيان. إذ ينظر الناس إليها كخيالٍ مريحٍ من جوانب كثيرة. ذلك أن هذه التنبؤات تمنح الناس مواضيعاً تناسب مستواهم الذهني ليناقشوها بتباهٍ وروحٍ وعظيمة، وكلُّ من يتطرق إلى تلك التنبؤات يبدو ذكياً وإنسانياً. إنها تُصبح الآن راياتٍ يستطيع أن يسير تحتها جميع الراغبين بالظهور مظهر المناضلين من أجل الديمقراطية، والتقدم، وضد التوتاليتارية، والتعلق بالماضى. كما تمكّنهم من أن يلصقوا بالأعداء كلُّ ما يرون من فظائع. وقد ظهرت في ظلِّ "الشيوعية العلمية" أيضاً مكاشفات في النقد الذاتى لم تكن موجّهة لأصحابها أنفسهم، بل لآخرين، أو كان يُنظر إليها كمحاربة لـ "مخلفات الماضى"، و"موروثات الرأسمالية"، و"تأثيرات الغرب العفنة".

## نماذج كونية

كثيرة هي العوامل التى تحدُّ من القدرة على التنبؤ بمستقبل المتحدات البشرية الكبيرة، ناهيك عن مستقبل البشرية بأسرها. أولاً، لأن المصالح الإيديولوجية والسياسية لا تكتفى بفرض قيودها على التعبير العلنى عن الآراء بصدد المستقبل فقط، بل وتفرضها أيضاً على عملية المعرفة ذاتها. فالمصالح العملية لمجموعاتٍ من فى أيديهم السلطة والنفوذ ترغم الآخرين على التفكير بالمستقبل ضمن أطر هذا التوجه العملى. ثانياً، حتى لو افترضنا أن المجتمع يسعى إلى معرفة الحقيقة، كلَّ الحقيقة ولا شىء غير الحقيقة عن المستقبل، ولا يتسبب بأية عقبات تمنع من بلوغها تظلُّ هناك قيود تمليها خصائص الموضوع الذى يُراد التنبؤ بمستقبله، وكذلك خصائص وسائل المعرفة. وليس هناك أىُّ تقنية أو شبكة معلوماتية تستطيع أن تحرر أحداً من هذه القيود فى يوم من الأيام.

غير أنه يكون في الغرب اقتناع بأن في وفرة المعلومات اليوم عن حالة البشرية، ووجود التقنيات الذكية الحديثة ما يتيح التنبؤ بالمستقبل بالقدر الذي نريده من الدقة والكمال. وتتمثل ذروة هذا الوهم الإيديولوجي في النماذج الكونية، أي في النماذج التي توضع للبشرية بأسرها.

لقد أحصى أو. فليشتهايم ما يزيد عن مائة نموذج كوني هدفها التنبؤ بمستقبل البشرية. وفي عام ١٩٧٣ فاز ف. ليونتيف بجائزة نوبل على إعداده نموذجاً كونياً يتألف من خمسة عشر نموذجاً جزئياً، في كل منها ١٧٥ معادلة و ٢٢٩ مقداراً متغيراً. وكان النموذج الأكثر تعقيداً هو ما اقترحه م. ميساروفيتش وى. بيستل. فقد ذكر أحد الخبراء الأمريكيين أن أهل الاختصاص أنفسهم يحتاجون إلى عدة أشهر لكي يفهموا تركيبة هذا النموذج ولو في الحدود الدنيا. ومع ذلك، كما أشار هذا الخبير، فإنه قدم تصوراً دقيقاً عن الكيفية التي يعمل بها العالم، أي البشرية جمعاء. شدة ما أريد أن أعرف إن كان هذا الخبير يتصور - ولو على نحو تقريبي إلى أبعد حد - كيف تعيش البشرية بأسرها في الواقع! أما الأمريكي إ. دويتش فقد اقترح نموذجاً أكثر تعقيداً مما سبق ذكره.

ليس لدى اعتراض على النماذج كوسيلة لفهم الظواهر الاجتماعية، وحل بعض المشكلات المعرفية. ولكن هناك حدوداً معينة لاستخدام هذه الوسيلة، وقواعد منهجية يؤدي تجاهلها إلى جعلها عديمة المعنى، بل وأداة لتزييف الواقع. وأعتقد أن هذا بالضبط ما يجري للنماذج الكونية عندما تُستخدم كوسيلة للتنبؤ بمستقبل البشرية.

إن البشرية موجودة بغض النظر عما إذا اخترعت لها نماذج أم لا. إذ إن لها بنيتها، وهي تعمل وفق قوانينها الموضوعية. فليست المسألة في أننا لا نستطيع أن نعرف كيف تعمل البشرية بالضبط إلا عن طريق بناء نموذج كوني لها، وإنما بالعكس، لا بد أن نكون على معرفة وافية بتنظيم البشرية وكيف تعمل، قبل أن نبني نموذجاً علمياً لها من أجل حل مسائل محددة. بل ويجب أن نحقق معرفة ذلك بنزاهة علمية

تامة، بعيداً عن أية قيود وتأثيرات غير علمية، سياسية كانت أو إيديولوجية أو غير ذلك. فلا يجوز أن تكون هذه المعرفة كما عشوائياً من المعلومات، بل يجب أن تكون متسقة مع قواعد المنطق ومنهجية العلوم، وأن تتضمن جملة من النظريات العلمية التي تحيط بجميع الجوانب الأساسية من حياة البشرية. ولكننا لا نجد شيئاً من هذا القبيل، وذلك للأسباب التي ذكرتها أعلاه، ويمكن أن نضيف إليها أسباباً أخرى ذات طابع معرفي محض، هي التالية.

يهدف نموذج البشرية العلمي إلى حلّ مسائل محددة، منها التنبؤ بمستقبل البشرية. ويغض النظر عما إذا كان علماء المستقبل يستخدمون نموذجاً كونياً (حتى الآن يتجاهلونه في أغلب الحالات) أم لا، فإن التنبؤات بحاجة إلى أسس. وهذه الأسس نوعان، أولاً، الأسس الإمبريقية، أي مجمل الأحكام التي تخصّ وضع البشرية لحظة التنبؤ بمستقبلها. ثانياً، الأسس النظرية، أي مجمل الأحكام العامة التي تتيح لنا أن نستخلص من الأسس الإمبريقية ووفقاً لقواعد المنطق استنتاجات صحيحة إلى هذا الحدّ أو ذاك عن حالة البشرية في المستقبل.

ليست الأسس الإمبريقية متساوية القيمة. فبعضها يمكن تجاهله، وبعضها الآخر - على العكس - يجب إيلاؤه أهمية من الدرجة الأولى، وينبغي انتقاء هذه الأسس وفقاً لمعايير محددة. على أن هذه المعايير لا يمكن أن توفرها سوى نظرية عامة عن المتحدات البشرية وتطورها، وكذلك نظرية عن أنماط محددة من المجتمعات. غير أنه لا وجود لنظريات من هذا النوع تلبّي متطلبات المنطق ومنهجية العلوم، وتكفي لحل مهمة ضخمة كاستكشاف مستقبل البشرية. وهكذا، فإن علماء المستقبل ينتقون الأسس الإمبريقية جزأفاً، ووفقاً لمتطلبات السياسة والإيديولوجيا.

إن الظواهر الاجتماعية من حيث طبيعتها (موضوعياً) لا تنطبق عليها الأسس النظرية إلا مع بعض الفرضيات. وهذه الفرضيات لا تتحقق في الواقع كاملة وبدقة، بل دائماً يكون تحققها جزئياً وتقريبياً فقط. إن الاستنتاجات التي نتوصل إليها عن طريق هذه الفرضيات تظلّ إلى حدّ ما تقريبية، احتمالية، رجراجة، أي غير أكيدة، أو موضع



شك. ولا بدّ لأنواع الظواهر الإمبريقية المختلفة من أسس نظرية مختلفة تكون فعّالة في ظل فرضيات (ظروف) مختلفة، وكثيراً ما تكون متنافية ولا تجتمع منطقياً. وكلّما ازداد الالتزام بالأسس الإمبريقية ازدادت الحاجة إلى الأسس النظرية. وهذا يؤدي إلى ازدياد الريبة بصحة الاستنتاجات. وعند لحظة معينة تأخذ هذه الريبة تتغلب على اليقين، فيفقد التنبؤ كل قيمة علمية.

يضاف إلى عامل الريبة التي تستدعيها التنبؤات نتيجة وسائل التنبؤ ذاتها عامل آخر هو أن حالة المجتمع في المستقبل ليست محكومة حتماً بحالته الراهنة. وحتى حالة الظواهر الإمبريقية منفردة ليست في المستقبل محكومة حتماً بحالتها الآن، ولا سيما عندما يكون عدد الظواهر كبيراً جداً. إن العلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر في الواقع معقدة ومتنوعة، يعدل بعضها بعضاً، وتؤثر أحياناً كثيرة في اتجاهات متناقضة. فتأثيرها مجتمعة في شكل معين يختلف عن تأثيرها منفردة وفي أشكال أخرى. ذلك أن ما هو موجود في الواقع ليس علاقات منعزلة بين مجموعتين من الظواهر، كالقول، مثلاً: إذا كان "أ" موجوداً، ففي الظرف "ب" بعد "ج" من الزمن نحصل على "د". أمّا هذه السلاسل من العلاقات فتكون فيها الظروف والمدة الزمنية مختلفة ومتغيرة. وعدد هذه السلاسل هائل. إنها تتشابك، وتتوافق مؤقتاً، وتتلاقى، وتفترق. يزول بعضها، ويظهر بعض آخر، بعضها يحيد عن مسار الأحداث الرئيسي، وبعض آخر يصب فيه. باختصار، هناك اختلاط وتداخل بين الظواهر... إلخ، يشتد فيه عامل الاحتمية إلى أبعد حد، ويتسع مداه كلما ازداد حجم مجال الظواهر والمدة الزمنية بين الحاضر وزمن المستقبل المنتبأ به.

إن حتمية تحكّم الحاضر بالمستقبل لا تكون عالية نسبياً إلا في حيز مغلق من الأحداث، وشريطة أن يكون الزمن بين الحاضر والمستقبل قصيراً إلى أقصى حد، أي قريباً من الصفر. ولكن علماء المستقبل يتحدثون عن مجمل البشرية التي تشكل حيزاً غير مغلق من الظواهر، وعن مستقبلها البعيد، حيث مستوى الاحتمية عالٍ وغير قابل

للتحكّم. فلا يمكن التنبؤ بما ليس حتمياً الوقوع أصلاً، مثلما لا يمكن أن نرى منذ الآن الدور الذي سوف تلعبه في المستقبل عوامل غير معروفة سلفاً.

إن النماذج الكونية ليست عاجزة فقط عن تحريرنا من الصعوبات المذكورة أعلاه، بل هي تقويها أيضاً. وهذه النماذج الكونية كوسائل لتصوير آلية عمل البشرية بأسرها (!!) والتنبؤ بمستقبلها، بعيدة عن الواقع أيضاً، مثلها مثل التصورات السخيفة التي كانت عند أكثر الناس جهلاً وظلامية في الماضي. وليس من قبيل المصادفة أن يكون كشف المستقبل بورق اللعب (الكوتشينة)، والتبصير بفنجان القهوة، وقراءة الكف، والتنجيم والأبراج، وتأويل تنبؤات نوستراداموس... وغير ذلك من الوسائل التي يستعملها أذعياء التنبؤ بالمستقبل (كشف الغيب) أشياء تلاقى في الغرب نجاحاً لا يقل (إن لم يكن يزيد) عن النجاح الذي تلاقىه النماذج الكونية. هذه النماذج هي "ثفل القهوة"، وورق "الكوتشينة"، والنجوم في عصرنا، ولكنها ليست في متناول الأذعياء بالقدر ذاته. فأذعياء "علم المستقبل" رفعوا تنبؤاتهم إلى مقام أرقى منجزات الحضارة، وهي تنبؤات تحميها هيبة العلم، ووسائل الإعلام الجماهيرى والسلطة.

## مشاريع كونية

لا تكتفى "الغربية العلمية" بتقديم التنبؤات، بل وتشتغل بمشاريع المستقبل، وذلك على غرار ما سبقتها إليه "الشيوعية العلمية" من قبل، مع فارقٍ هو أن الأولى تعددية في هذه المسألة أيضاً. وهي تنطلق من اقتناع يزعم بأن البلدان الغربية تمتلك قوة تقنية واقتصادية كافية لجعل مستقبل البشرية على الصورة التي تراها ضرورية، أى طبقاً للمعايير الغربية.

تأسس "نادى روما" فى عام ١٩٦٨ على أيدي مجموعة من العلماء فى مختلف الاختصاصات، ومن بلدان غربية مختلفة، بهدف القيام بدراسات متكاملة تحيط بأهم مشكلات العصر. وكانوا ينشرون تقارير دورية عن نتائج أبحاثهم. وقد أصابت هذه

التقارير نجاحاً باهراً، فترجمت إلى العديد من اللغات، ونشرت بملايين كثيرة من النسخ. وصدر أول هذه التقارير في كتاب من تأليف الزوجين دينيس ودونيللا ميدوز، عنوانه "حدود النمو" (أى النمو الاقتصادي)، عبّراً فيه عن المسائل التي يريان أنها تقرر مصير البشرية، وهى: النمو السكاني، ووسائل التغذية، والمواد الخام، ونمو الصناعة، وتدهور أحوال جماهير من الناس، وتلوّث البيئة. وأثار الكتاب ضجة غير مسبوقة بالنسبة لكتب من هذا النوع، على الرغم من تفاهة مضمونه، وبالأحرى بفضل تفاهة مضمونه التي لا غنى عنها فى كتاب إيديولوجى. على أن أهم أسباب نجاحه، كما أعتقد، لا يعود إلى تناول مؤلفيه على واحد من معتقدات الإيديولوجيا الغربية، أى على الثقة بنمو اقتصادى غير محدود، بقدر ما يعود إلى أن الكتاب قدّم أسباباً سهلة الفهم للقيام بحملة إيديولوجية، ولولادة اتجاه كامل فى إطار "الغربية العلمية".

سأتوقف هنا عند تقرير آخر من تقارير نادى روما، كنموذج لأسلوب تفكير إيديولوجيا الغربية<sup>(١٥١)</sup> يؤكد مؤلفا هذا التقرير أ.كينغ وب. شنايدر، أن العالم يشهد ثورة كونية تنبثق عنها مرحلة جديدة من مراحل المجتمع العالمى. وتأتى هذه الثورة نتيجة لجملة من الأسباب الاجتماعية، والاقتصادية، والتكنولوجية، والثقافية، والإثنية. فما هى هذه الأسباب تحديداً؟ إنها:

١- الاكتشافات العلمية التقنية التي تحوّل المجتمع إلى مجتمع ما بعد صناعى، أو معلوماتى.

٢- انهيار الاقتصاد الشيوعى، وتفكّك الاتحاد السوفيتى، وإعادة هيكلة النظام العالمى برمته.

---

(151) Alexander King und Bertrand Schneider. Die globale Revolution. Spiegel

Spezial, No 2, 1991.

- ٣- ظهور ثلاث كتل عملاقة: أوروبية، وأمريكية شمالية، وآسيوية.
- ٤- الانفجار السكاني فى بلدان الجنوب.
- ٥- التغيرات المناخية التى تهدد بعواقب كارثية.
- ٦- نقص المواد الغذائية.
- ٧- نقص موارد الطاقة.
- ٨- تزايد التفاوت الاقتصادى متمثلاً فى تزايد الفقر فى مناطق وتزايد الغنى فى مناطق أخرى من الكوكب.
- ٩- تدفق أعداد كبيرة من الناس من المناطق الفقيرة إلى المناطق الغنية.
- ١٠- تلوث البيئة على نحو كارثى.
- ١١- سقوط الإيديولوجيات.
- ١٢- تدهور الإيمان.
- ١٣- الفراغ الفكرى والفوضى.
- ١٤- الأزمة الأخلاقية.
- ١٥- الإرهاب.
- ١٦- العنف.
- ١٧- المافيا.
- ١٨- والمخدرات.

هذا العرض يوضِّح أسباب "الثورة الكونية" الجارية المزعومة، ولكن، ما هى هذه الثورة ذاتها؟ هذا ما ينسى أن يتحدث عنه واضعو التقرير، والأرجح أنه ليس لديهم ما يقولونه فى هذا الموضوع. إن ما يحجب جوهر هذه الثورة هو أسبابها، وتدبيرها

التي يعتقد المؤلفان أنها مدعوة لحل المسائل الكونية الناضجة، ونقل العالم إلى الحالة المتوخاة. فكلمة "ثورة" تستعمل هنا جُزافاً. وليس مؤلفا التقرير وحدهما من يفعل ذلك، لأن كلمة "ثورة" وكلمة "حقبة" ليستا أكثر من تعبير إيديولوجي فارغ، واسع الاستعمال.

لقد صاغ مؤلفا التقرير استراتيجية عالمية لحل المشكلات المشار إليها أعلاه. وسأتوقف عند ثلاث نقاط منها. النقطة الأولى: إن المشكلات التي يدور الحديث حولها هي مشكلات على النطاق العالمي، لا يمكن حلها بجهود بلدان بمفردها. ولا بد من مجتمع عالمي موحد قادر على انتهاج استراتيجية على نطاق العالم تهدف إلى خلق انسجام عالمي شامل. والنقطة الثانية: إن العالم الجديد الطامح لأن يكون بديل العالم الراهن يحتاج إلى شكل جديد من الإدارة. إذ إن البنى، والحكومات، والمؤسسات التقليدية عاجزة عن حل المشكلات الملحة. وإمكانات الديمقراطية واقتصاد السوق محدودة بالمقارنة مع ما يتطلبه حل مشكلات كونية. والنقطة الثالثة: إن تنقية الأجواء الروحية، وتحقيق وحدة فكرية بين البشر يتطلبان أسباباً جديدة، أي فكرة "العدو المشترك". وهذا العدو المشترك هو تلوث البيئة، والجوع، والبطالة، والفقر وغير ذلك من أمراض المجتمع المعاصر.

وعلى الرغم من أن من وضع "مشروع العصر" هذا هم علماء، فإنه ظاهرة إيديولوجية، وليست علمية. إنه مشروع لتحقيق تغيير العالم، وليس تحليلاً لاتجاهات تطوره الموضوعية. ولكنه يتجاهل الأسباب الفعلية التي أوصلت البشرية إلى الحالة التي وجدت نفسها فيها، أي يتجاهل أفعال الغرب نفسه، بوصفها تجسيدا للغربوية. كما يتجاهل القوانين الداخلية في المتحدات البشرية الكبيرة وطرق إدارتها. وما الكلام عن "انسجام عالمي شامل"، إلا نموذج كلاسيكي للموقف الإيديولوجي من الواقع. والكلام عن ضرورة أشكال جديدة للإدارة صوت فارغ. إذ لا يمكن التحكم بجماعات بشرية هائلة العدد، مختلفة الأنواع والأجناس عبر دمجها في كل واحد إلى هذا الحد أو ذلك، إلا بإقامة نظام عديم الرحمة يفرض سيادة بعض الشعوب على بعضها الآخر بواسطة

الخداع، والتبليد، والعنف، والظلم، والتفرقة والإفساد... إلخ. إن الأشكال الجديدة فى الإدارة، الأشكال التى لا يأتى المؤلفان على ذكرها فى تقريرهما إلا بغموض، قد تكون أشكالاً قديمة للعنف الاجتماعى، والاقتصادى، والسياسى، والعسكرى، والثقافى، والإيديولوجى سبق أن استعملت مراراً. وتمثىل العدو المشترك فى صورة تلوث البيئة، والجوع، والبطالة... إلخ، فكرة على قدر مدهش من البؤس. إذ وفقاً لقوانين نشوء الإيديولوجيا وعملها لا يمكن أن تكون هذه الظواهر المجردة أعداء لملايين ومليارات من البشر. فالأعداء لا يكونون إلا الآخرين (شعوباً، وبلداناً، ومناطق) الذين يرى فىهم الطرف المقابل أسباب شقائه، أو تهديداً لرخائه. والدور الإيديولوجى الذى تلعبه هذه الدعوة أكثر من شفاف، إنه إلهاء جماهير البشر عن التفكير بالأسباب الفعلية لما فى العالم من شرور.

انعقد فى ريو دى جانيرو عام ١٩٩٢ أول مؤتمر عالمى، ودارت أعماله فى أجواء الاستراتيجية التى وصفناها أعلاه، لمناقشة المشكلات الناجمة عن عدو البشرية المشترك المتمثل بتلوث البيئة، ووضع تدابير لمجابهة هذا العدو. وكان ذلك أضخم مؤتمر من نوعه فى تاريخ البشرية، استمرت أعماله اثنى عشر يوماً، وحضرته وفود ضمت ثلاثة آلاف عضو من أكثر من ١٧٠ بلداً. وشارك فيه أيضاً رؤساء مائة دولة. وتجاوز عدد الصحافيين الذين غطوا فعالياته ثمانية آلاف شخص. وجاء المؤتمر بعد تحضير له دام عامين، وصدر عنه ٢٤ مليون صفحة من شتى الأنواع. وتعجز التكنولوجيا المعلوماتية فى كوكبنا كله عن معرفة حجم المساحة التى شغلتها أخبار هذا المؤتمر فى وسائل الإعلام الجماهيرى، وعدد ملايين الصفحات التى أنفقت على طباعة قراراته، وحجم الجهود التى بذلها ملايين الناس فى الحديث عنه والتفكير فيه. وقد أشار كثير من عقلاء المراقبين إلى أن هذا المؤتمر كان أضخم وأعلى عمل فارغ فى تاريخ البشرية، وأفخم مهرجان للتضليل، والثروة الفارغة غير المسئولة. وعلى الرغم من أن كل قرارات المؤتمر لم تكن ملزمة بشىء، وطويت إلى أجل غير مسمى، فقد عدَّ هذا المؤتمر

على الصعيد الرسمي أهم خطوة على طريق إقامة اقتصادٍ "صديقٍ للطبيعة". انظر: صديق للطبيعة، وليس للإنسان! وسرعان ما نسى أمر المؤتمر. ولم تقم أية صداقة بين الإنسان والطبيعة. ولم يأتِ العدو المشترك حتى الآن كظاهرة إيديولوجية.

على أن جميع ما تقوم عليه المشاريع الكونية الأخرى من أفكار استراتيجية هو في الحقيقة من هذا القبيل. وفرص الناس في أن يبنوا مستقبلهم وفق مثلهم ورغباتهم ليست بالكبيرة، كما يبدو. إن بعض المشكلات منفردة يبدو قابلاً للحل. ولكن المشكلات كثيرة جداً. وهي في الواقع أكثر تعقيداً مما يظن المنظرون والسياسيون. فالصناعات الحديثة التي تؤدي إلى تلوث البيئة تتطلب إذا ما أُريدَ تحويلها، مثلاً، إلى طراز جديد من الصناعات الصديقة للطبيعة، حشدَ جميع ما تملك البشرية من قوى الإنتاج المتوفرة لديها لحل هذه المشكلة. وهذا يعنى نهاية الرأسمالية، وما يتبع ذلك من انخفاض حادٍ في إنتاجية المجتمع، وعجز تام عن حل هذه المشكلة بالذات.

## مستقبل الغريوية

إن المادة التي أحلَّها ليست الغرب أصلاً، وإنما هي مجتمع النمط الاجتماعي الغربي، أي مجتمع الغريوية. أمّا الغرب كمجموعة محددة من الشعوب والبلدان فيعني هنا بوصفه تجسيدا للغريوية. وما يهمني، بهذا المعنى، هو مصير الغريوية كما هي، وليس كل ما يمكن أن يحدث في الغرب أو للغرب في العالم.

وأياً كان ما اخترعه الإيديولوجيون من الحقب وما بعد الحقب، فإن المجتمع الغربي صار مجتمع الغريوية الشاملة، أو الكلية، بتعبير آخر. وسيكون عليه أن يعيش بهذه الصفة حتى موته الذي سيأتي ذات يوم. غير أنه لا معنى للتكهن بذلك اليوم الآن. فالغرب لم يبلغ درجة النضج كمجتمع غريوي إلا الآن. وهو مفعم بالقوة، نزاعاً لوضع يده على الكوكب بأسره، وعلى التاريخ القادم كله.



لا يعنى ما قيل أعلاه إن الغربوية لن تطراً عليها بعد الآن تغييرات جوهرية، كما يعتقد اليوم كثيرون. إنها لا تزال مؤهلة لعملية تطور داخلى، بل وهى مرغمة على ذلك. والمهم هو أن نعرف ما هى العوامل التى تؤثر على هذا التطور، وفى أى اتجاه سيسير.

لقد تناولتُ العناصر البنيوية والوظيفية الأساسية ونزعاتها فى الغربوية. إنها نزعات بالضبط، وليست برنامجاً سوف يتحقق بإرادة القدر. وهى تعمل بين عدد كبير من العوامل الأخرى التى تعوق تحققها. كما أنها عرضة للانقطاع، والتشوّه، والخمود، لأن المستقبل لا يقرره الحاضر على نحو قدرى محتوم. ولكنه مع ذلك تجسيد لنزعات الحاضر.

سأذكر القارئ سريعاً ببعض هذه النزعات التى تحدثنا عنها أعلاه. إذ تجرى فى المجال الاقتصادى تغييرات ينجم عنها إعادة هيكلة لعلاقات الملكية الخاصة، و"ذوبان" لها فى علاقات من نوع آخر. وعندها لا تعود الملكية نفسها تلعب الدور الرئيس فى المجال الاقتصادى، وإنما تلعبه تلك العلاقات الداخلية فى نظام الملكية المعقد التى تشبه علاقات الكومونالية. كما أن علاقات القيادة التى هى كومونالية أساساً، تكتسب أهمية حاسمة. ويخضع تنظيم كامل مجال البنوك والبنوك الكبير لمبادئ البيروقراطية.

وتتغير بنية السكان الاجتماعية بطريقة تؤدى إلى انخفاض نسبة العاملين مباشرة فى المجال العملى، وإلى ازدياد نسبة العاملين ودورهم فى مجال الكومونالية، أى فى مجال السلطة والإدارة، وفى الإيديولوجيا والدعاية، ووسائل الإعلام، والثقافة... الخ. ويظهر عدد لا يحصى من التجمعات، والمنظمات، والحركات فى مجال المجتمع المدنى تؤدى بطريقة أو بأخرى إلى تزايد انتشار وسائل التلاعب بال جماهير والسيطرة عليها. وتظهر علائم محدودية "حرية" السوق متمثلة فى نزعة الركود الاقتصادى والأزمة المالية، ما يرغم سلطة الدولة على سلوك يشبه سلوك الدولة الشيوعية، ويرغم السلطة الاقتصادية على سلوك يشبه سلوك السلطة السياسية. إن التقدم العلمى - التقنى

يتطلب توحيد جهود كل البلاد والدولة معاً. فقد بات العلم والتقنية أهم عنصر من عناصر قوى الإنتاج فى أيدي سلطة الشركات والمؤسسات الكبرى التى تتصرف على غرار الدولة، أو تعمل فى سلطة الدولة مباشرة.

ويزداد قوة وانتشاراً مجال الإيديولوجيات، والثقافات، ووسائل الإعلام التى هى إلى حد كبير (أو بالكامل) ظواهر فى مجال الكومونالية. ويجرى تلاحم بين السلطتين السياسية والاقتصادية، وكذلك هيكله للسلطة العليا مع تغليب الوظائف الكومونالية فيها. ومختصر القول، إنه إذا ما نظرنا إلى مجموع عوامل الغربية ونزعاتها كافة أمكننا أن نرى نزوعها الإجمالى باتجاه تنامى الجانب الكومونالى فى المجتمع، و باتجاه تصاعد دور قوانين الكومونالية فى جميع مجالات المجتمع، بما فيها الاقتصاد.

ويتلخص نزوع الغربية الأساسى من الناحية الاجتماعية - الاقتصادية، أولاً، فى السعى لخلق ضمانات (وظائف ومداخل) لمن لا يمارسون العمل الإنتاجى مباشرة (أى إنتاج القيم والخدمات المادية)، وثانياً، فى السعى لتقوية العمل الحر بوصفه الوسيلة الأكثر فعالية لإرغام الناس على العمل ورفع إنتاجيته.

## العوامل الخارجية

ينبغى أن نضيف إلى ما تناولناه أعلاه من عوامل داخلية فى تطور الغربية عاملين يتصفان بطابع خارجى. ويتلخص أولهما فى أنه، بعد انتصار الغرب فى "الحرب الباردة"، لم يبق فى العالم - على الأقل لسنوات قليلة قادمة - قوى فكرية ومادية جدية تستطيع أن تضع الغربية موضع شك، ناهيك عن نفيها. ذلك أن خصمها ومنافسها التاريخى الجدوى الوحيد، أى الشيوعية، أُخرج من حلبة التاريخ لزمان طويل. فلكى تستطيع الشيوعية العودة من جديد وبلوغ مستوى يمكّنها من التطلع إلى السيطرة على البشرية ومنافسة الغربية، لا بد من ظروف استثنائية وعدد كبير من

السنين، حتى في حال توفّر أفضل الظروف المواتية لذلك. وقد لا يحدث هذا أبداً. أما باقي الأنظمة الاجتماعية الأخرى، كأنماط من بناء المجتمع، فليست بقادرة على منافسة الغربية أصلاً وأياً كانت الظروف، ما لم تقع كارثة عالمية غير متوقّعة تُنهك الغرب أو تقضى عليه قضاء تاماً.

لقد أدى الصراع ضد المعسكر الشيوعي إبان "الحرب الباردة" إلى تعزيز خارق لفعالية السلطة السياسية في البلدان الغربية، وإلى بناء قوات مسلحة جبّارة، وتطوير الصناعات الحربية والأبحاث العلمية لأهداف عسكرية، وإلى توسيع وتقوية الأجهزة السرية وجهاز الدعاية. على أن الانتصار في "الحرب الباردة" لم يعن أن الصراع قد انتهى، وأصبح في الإمكان الآن تخزين أو إتلاف ما تمّ صنعه. وعلى الرغم من كثرة ما قيل بهذا المعنى، وما تمّ اتخاذه من خطوات عملية في هذا الاتجاه، فإن ذلك كلّه دعائي أكثر ممّا هو عملي. بل وسرعان ما كفّوا عن إخفاء النوايا بالاحتفاظ بأدوات الحرب وتحسينها. فقد كان الانتصار في "الحرب الباردة" بداية مرحلة جديدة ليست وسائل الحرب فيها أقلّ أهمية ممّا كانت عليه من قبل. كان لا بدّ من الحفاظ على ما تم احتلاله من مواقع، ولذلك لم يكن كافياً إبراز أفضليات نمط الحياة الغربي. إذ سرعان ما ستغدو هذه الأفضليات موضع شكّ، ولن يعطى نشرُ الغربية ما كان منتظراً منه من نتائج في البلدان الشيوعية السابقة. ولذلك يجب الإبقاء على جهاز "الحرب الباردة" عاملاً دائماً الفعالية في المستقبل أيضاً. وهذا يعنى تعزيز الجانب الكومونالي في الغربية.

لقد أدت هزيمة العالم الشيوعي في "الحرب الباردة" إلى دفن الثورة الاجتماعية كإمكانية، وحتى كفكرة، لمدة زمنية طويلة. وبهذا المعنى يمكن أن نوافق الرأي من يقول من المنظرين الغربيين بحلول حقبة ما بعد الثورة.

إن فكرة الثورة الاجتماعية التي تقضى على الرأسمالية والملكية الخاصة عموماً، هي فكرة غربية كسائر ما ظهر من أفكار تتّصف بهذا القدر أو ذاك من الأهمية في القرون الأخيرة، وغربية أيضاً فكرة الشكل العنفي التي تتخذها هذه الثورة وديكتاتورية

البروليتاريا، وقد اتضح منذ أواسط القرن العشرين أن التربة غير مواتية لفكرة الثورة الاجتماعية كثورة بروليتارية، ولا لفكرة دكتاتورية البروليتاريا. ولكن مرت بضعة عقود من السنين قبل أن تستهلك هاتان الفكرتان نفسيهما كفكرتين فاعلتين.

أعتقد أن فكرة التخطيم الثورى للنظام الاجتماعى فى البلدان الغربية عن طريق انتفاضة "الجماهير الكادحة" من تحت ليس لها أى أمل بالنجاح. ولكن لا يجوز أن نستبعد بصفة قطعية احتمال إقامة نظام اجتماعى لأرأسمالي ("اشتراكى") فى البلدان الغربية. أمّا إذا ما قدرٌ لذلك أن يحدث، فسيكون إمّا عن طريق تدمير الغرب بأيدى قوى خارجية، وإمّا بقرار من أصحاب السلطة العليا، من فوق. على أن هذا الاحتمال ما يزال ضئيلاً إلى أبعد حد.

تبرز، عادةً، فى دعاوى حقبة ما بعد الثورات حُجَّتَان، هما: التجربة السلبية التى قدمتها الشيوعية الواقعية؛ وعدم وجود فئة على قدر كافٍ من القوة ولها مصلحة فى تغيير النظام الاجتماعى. ويمكن أن نضيف إليهما حُجَّتَيْن أُخْرَيْن. أولاً، لقد تعلم الغرب تفادى الحركات الجماهيرية الخطيرة، والتلاعب بالحركات الحديثة العهد أو التى ما تزال قيد النشوء بطريقة تجعل محاولات تكرار الحركات الشيوعية محكوماً عليها عملياً بالفشل سلفاً. وثانياً، إن تنظيم أى حركة جماهيرية متينة لا بدُّ له من المال، بل من مبالغ كبيرة من المال. فمن سيقدمُ المال؟ من يمولُّها؟ فى الماضى كانت البلدان الشيوعية قادرة على دعم الأحزاب الشيوعية فى بلدان أُخرى. أما الآن فلا وجود لبلدان شيوعية قادرة على تحمل هذه النفقات، ولا لأحزاب شيوعية مستعدة للنضال فى سبيل القضاء على الرأسمالية. وثالثاً، لقد اختلطت الغربية نفسها المبادرة من أيدى الشيوعيين بخصوص ما يتعلق بتغيير المجتمع. فبعد إلحاق الهزيمة بالشيوعية فى شرق أوروبا، والتخلص من جميع المعوّقات، أخذ الغرب نفسه يكشف عما فيه من صفات الخصم المهزوم.

أمّا ثانى العاملين الخارجيين اللذين أشرنا إليهما فى بداية هذا الفصل، فهو عملية التكامل بين البلدان الغربية ضمن متحدات اجتماعية أكثر تعقيداً، وكذلك عملية

عولة الجوانب الأساسية من النشاط الحيوى فى تلك البلدان، وهى العملية التى نتجت عنها النزعة نحو إقامة مجتمع كونى. وتعطى هذه العملية الصدارة للدولة كجهاز ينظم العلاقات المتبادلة بين بلادها والبلدان الأخرى فى متحد جديد، معقّد للغاية، ملئ بالنزاعات، ويخلق أيضا بُنى اجتماعية جديدة تكون القوانين الكومونالية القوة المهيمنة فيها. سأتناول أدناه هذه النزعة بالتفصيل.

## نزعة التكامل فى الغرب

إن "الحرب الباردة" ساعدت فى تكامل الغرب، ولكنها لم تكن هى ما نتجت عنه نزعة التكامل. فقد ظهرت هذه النزعة إلى الوجود قبل الحرب، وكان لها حوافز أخرى. إلا أن "الحرب الباردة" زادت هذه النزعة قوة، وورسختها حتى جدّتها نوعياً. لقد كانت "الحرب الباردة" أول عملية عالمية مشتركة يقوم بها الغرب. ومنذ تلك الفترة تحديداً بات صحيحاً أن نتحدث عن الغرب ككتلة واحدة.

إن عملية تكامل الغرب عملية معقدة ومتناقضة. فهى جزء من العملية العالمية لهيكل البشرية. وهى لم تبدأ إلا لتوها. ومن الصعب التكهّن كيف ستسير لاحقاً، وما ستنتهى إليه. ولكن بعض سماتها واضح منذ الآن.

## البيت الأوروبى

جرى العرف على التأريخ لظهور فكرة أوروبا المتحدة ("البيت الأوروبى"، "الولايات المتحدة الأوروبية") ابتداء من خطاب ونستون تشرشل عام ١٩٤٦، فقد تحدث تشرشل فى خطابه يومها عن تشكيل فدرالية تضمّ البلدان الأوربية ويكون لها برلمان واحد، وأحزاب أوروبية واحدة، وتشريع واحد، وأجهزة قضائية واحدة، وجيش واحد، وشرطة واحدة، ونظام مالى واحد. ولسبب ما لا يريد أحد أن يتذكّر أن ليون تروتسكى أفصح عن هذه الأفكار نفسها حتى قبل الحرب العالمية الأولى، وأن تشرشل لم يضيف إلى

أفكاره هذه كلمة واحدة من عنده. أمّا فلاديمير لينين فقد رأى في عام ١٩١٥ أن فكرة الولايات المتحدة الأوروبية فكرة معادية لأمريكا، ومعادية لليابان.

فلماذا أصبحت فكرة "البيت الأوروبي" تتمتع بهذه الحيوية الآن بالذات، بل ويضم إليها بعض المتحمسين سيبيريا وصولاً إلى فلاديفوستوك؟ إن هذا ما يمليه الوضع العام في العالم. إذ يدور صراع ضارٍ على مصادر الخامات والطاقة، وأسواق تصريف البضائع، ومجالات توظيف رءوس الأموال، والمجال الحيوي، والأيدى العاملة الرخيصة، وتتقاطع أوروبا الغربية في هذا الخصوص مع عملاقين اقتصاديين كالولايات المتحدة الأمريكية واليابان، ثم إن فكرة الولايات المتحدة الأوروبية تعبر عن الطموح إلى تقاسم العالم، وبذلك نرى أن نزعة التكامل الأوروبي نزعة متناقضة. إذ هي في الوقت نفسه نزعة إلى شق العالم.

بديهى أن العالم شهد كثيراً من التغيرات خلال السنين التي انقضت بعد ما دار من جدل بين لينين وتروتسكى حول فكرة الولايات المتحدة الأوروبية. ونشأ عامل لم يكن يعرفه تروتسكى أو لينين، لأنه لم يكن موجوداً بعد. فقد تشكلت في بلدان أوروبا الغربية قوى ضاقت بها حدود "الدول القومية"، ١٥٢ وبدأ يتشكل مجتمع خارق (سوبر مجتمع) بالنسبة لهذه "الدول القومية". إنها المصانع والمؤسسات التي جعلت من أوروبا كلها ميداناً لنشاطها، وراحت تتصرف في العالم خارج أوروبا كظواهرات فوق قومية، أوروبية عامة. إن عددها وعدد المنخرطين في نشاطها هائل حقاً. وهائل أيضاً تأثيرها على حياة بعض البلدان في أوروبا الغربية. على أن هذا العامل بالذات هو ما يقرر مصير مسار التكامل الأوروبي، رغم أنه يتعارض في كثير من الجوانب مع مصالح فئات عريضة من السكان (١٥٣).

---

(152) Karl Jetter . Patrons, Protektionisten und Europa- Apostel. FAZ, 19.09.1992.

(١٥٣) تحدث النائب الفرنسى فى البرلمان الأوروبى جان كلود مارتينيز عن عواقب التكامل الأوروبى القاسية بالنسبة لفرنسا. أنظر المقابلة التى أجرتها معه الصحيفة الروسية ("بوليتيكا" فى العددين ٢ و ٤ عام ١٩٩١).

إن "البيت الأوروبي" ممكن التحقيق، وهو قيد البناء. غير أن من السخف التعويل على انسجام تام بين المشاركين فيه. فأوضاعهم ومصالحهم تنفى ذلك. وأعتقد أن البنية الأكثر احتمالاً لهذا "البيت" هي أن تتأسس ألمانيا الموحدة، وبعدها بدرجة تأتي فرنسا، وإيطاليا، وإنكلترا. وعلى درجة أخرى تقف النمسا، وبلجيكا، وهولندا وغيرها. يلي ذلك مستوى أدنى لدول كإسبانيا، والبرتغال، واليونان وغيرها. وفي أسفل هذا السلم تأتي البلدان الشيوعية سابقاً، أى أفراد "الصنف الثالث" من "الأسرة" الذين يقتاتون بفئات المائدة التي يحتفل حولها أهم أفراد "الأسرة" (١٥٤).

والسؤال هو: وماذا بشأن ملايين البشر فى شرق أوروبا الذين يتطلعون إلى أوروبا الغربية بحثاً عن ظروف حياة أفضل، مستعدين أن يعملوا لقاء أجر زهيد، وأن يرفدوا جيش المجرمين والعاطلين عن العمل، رغم ضخامته أصلاً؟ لماذا تتخذ بلدان أوروبا الغربية ضدّ هذا الغزو تدابير حماية تعنى عملياً الإبقاء على حدود "الدول القومية" أمام غالبية المواطنين فى عدد من الدول الأعضاء فى "البيت الأوروبي"؟ وماذا بشأن الملايين من نوى الأصول غير الأوروبية، سواء من باتوا جزءاً لا يتجزأ من الحياة الأوروبية، ومن يصعب - إن لم يكن يتعذر - وقف تدفقهم على أوروبا؟

لا بد أن نأخذ بالحسبان أيضاً شخصيات الشعوب التى تقطن أوروبا. فهل يمكن أن يغدو وعى الانتماء إلى الوحدة الأوروبية أقوى من وعى الانتماء إلى شعب بعينه؟ وهل يمكن أن تتحقق فى الواقع شخصية أوروبية واحدة كشخصية الفرنسيين، والitalians، والألمان وغيرهم من الشعوب الأوروبية؟ ألن يغدو تكامل الشعوب الأوروبية بداية لأسوأ تصدع، يكون شبيهاً بما يمكن أن نراه فى الاتحاد السوفيتى السابق؟

---

(١٥٤) انظر، مثلاً: Hans - Joachim Hoffman-Nowotny. Die neue Volkerwaderung. Con-  
turen. 15. 1991.



وأخيراً، فإن عملية التكامل الأوروبي ليست معزولة عن عملية أخرى أضخم منها، وهي عملية التكامل العالمى. لقد فقدت السوق الأوروبية استقلالها قبل أن تتكوّن. فهي عرضة منذ الآن لتأثير السوق العالمية. وثمة ما يشبه ذلك فى بقية مجالات الحياة الأوروبية. إن عملية التكامل الأوروبي تدخل فى نزاع مع التكامل الكونى الذى هى جزء منه.

إن عملية التكامل جارية، وستظلّ الآن فى صعود. ولكنّ هذا التكامل ليس خيراً بالمطلق. إنه عملية تاريخية موضوعية تتطوى على عيوب جليّة لا يزال معظمها مستتراً حتى الآن.

## نظام السلطة والإدارة

إن اتحاد البلدان الغربية ضمن أحلاف واتحادات وتجمعات، وحتى ضمن مجتمعات أكثر تعقيداً، يضع فى مقدمة اهتمامه مشكلة إقامة نظام سلطة وإدارة لتسيير ظاهرات اجتماعية جديدة تفوق "الدول القومية" تعقيداً. فالنظام القائم فى "الدول القومية" (الديمقراطية الغربية) لا يمكن تعميمه ألياً على تجمع يتألف من بلدان عديدة من هذا النوع.

أمّا البرلمان الأوروبي فمن الصعب أن نعدّه برلماناً بالمعنى الذى للبرلمان فى بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا وغيرها من البلدان الغربية. فسلطته شديدة الضآلة، ووهمية أساساً. وهو لا يلعب دور جهازٍ للسلطة بقدر ما يلعب دور جهازٍ للإيديولوجيا والدعاية. صحيح أن أهميته ستزداد بعض الشيء بعد اتفاقية ماستريخت، ولكنّ ليس إلى درجة القيام بوظائف برلمانات "الدول القومية". ويساورنى الشك فى أن يثمر هذا البرلمان شيئاً شبيهاً بالحكومة الفيدرالية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ما أظنّه أكثر طبيعية فى هذه الحالة هو أن تتشكل أجهزة السلطة والإدارة من ممثلى أجهزة السلطة والإدارة فى "الدول القومية"، بل وبطريقةٍ غير ديمقراطية. وهذا

ما يجرى فى واقع الأمر، والنتيجة المحتومة لهذا المسار هى تشديد الجانب اللاديمقراطى فى نظام سلطة الغربية عموماً، وإذا كان ما يزال بالإمكان التظاهر بالديمقراطية فى إطار الجماعة الأوروبية، فإن النزعة اللاديمقراطية تظهر بجلاء فى مجال أكثر اتساعاً، أى فى الغرب ككل (بما فيه الولايات المتحدة الأمريكية وكندا)، وفى المجتمع الدولى على الأخص.

### على الطريق إلى المجتمع العولمى

إن فكرة توحيد البشرية فى مجتمعٍ عولمى له حكومة عالمية واحدة وباقى مستلزمات المجتمع الواحد، أضحت جزءاً مكوناً من الإيديولوجيا الغربية، وهى، بالطبع، تلاقى التسويغ المناسب بحُجج كثيرة، أهمُّها: أولاً، تعداد المشكلات التى يُزعم أن حلها لا يكون إلا بجهود دول الأرض مجتمعة (كما جاء، مثلاً، فى تقرير نادى روما الذى سبق ذكره). ثانياً، القول بأن هناك اقتصاداً عالمياً قيد التشكُّل، يخرق حدود "الدول القومية" ويمارس على اقتصادها تأثيراً حاسماً<sup>(١٥٥)</sup> وثالثاً، القول بأن العالم أصبح الآن محاطاً بشبكة من الاتحادات والمؤسسات الدولية جعلت من البشرية كلاً واحداً. ولم يبقَ فى العالم زاوية واحدة تعيش فيها حياةً معزولة أى مجموعة بشرية كبيرة إلى هذا الحد أو ذاك، ويتعاضم تأثر حياة البشر بما يقع من أحداث بعيداً عن الأماكن التى يعيشون فيها. لقد تحققت عولة وسائل الإعلام الجماهيرى، وتشكُّل نظام دولى لإنتاج المعلومات، وتوزيعها، واستهلاكها، ويعود الفضل لهذا النظام فى كون البشرية فى شتى أنحاء الكرة الأرضية تشعر بأنها تعيش فى متَّحدٍ عالمى واحد، وهناك ثقافة عالمية واحدة قيد التشكُّل.

---

(١٥٥) من الأعمال التى صدرت فى السنوات الأخيرة أشير إلى:

Robert B. Reich. The Work of nations. N.Y., 1992

يخيل وكأن كل شيء على ما يرام. غير أن جميع من يكتبون عن هذا الموضوع ، إلا ما ندر<sup>(١٥٦)</sup>، يقللون من قيمة الحقيقة التي تقول بأن فكرة المجتمع العولمي هي فكرة غريبة، وليست فكرة عالمية مجردة، أو هم يتجاهلون هذه الحقيقة تماماً. على أن الحركة باتجاه هذا المجتمع مبادرة تنطلق من الغرب، وهي في أساسها لا تقوم على طموح مختلف الشعوب إلى الاتحاد ( لا يظهر هذا الطموح إلا في حالات نادرة جداً) بقدر ما تقوم على طموح قوى محددة في الغرب لاحتلال موقع السيادة في الكرة الأرضية، وتنظيم البشرية بأسرها وفقاً لمصالحها المحددة، وليس لمصالح بشرية مجردة ما. والاقتصاد العالمي، كما سبق أن قلت، هو قبل كل شيء احتلال العالم من قبل شركات الغرب العابرة للقوميات، وذلك لتحقيق مصالح هذه الشركات بالضبط، وليس لتحقيق مصالح الشعوب الأخرى التي لا بد أن تصيب بعض النفع، طبعاً. ولكن الدافع المحرك لعولمة الاقتصاد ليس مصلحة الشعوب، إن معظم المنظمات الدولية غير الربحية هي منظمات غربية تسيطر عليها قوى الغرب، وتتأثر بهذه القوى على نحو من الأنحاء. ثم إن النظام الإعلامي العالمي نظام أقامته بلدان الغرب، وفي طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية. وقد سبق لكثير من المؤلفين الغربيين الذين لا يمكن الاشتباه بأنهم يتعاطفون مع الشيوعية، أو بأنهم يكرهون الغرب ( بما فيه الولايات المتحدة الأمريكية)، أن أثبتوا منذ زمن بعيد أن شركات الولايات المتحدة وحكومتها تفرض سيطرتها على الاتصالات الكونية، وأن وسائل الإعلام الغربية هي المهيمنة في العالم<sup>(١٥٧)</sup>، والثقافة العالمية هي بالدرجة الأولى أمركة ثقافة شعوب الكرة الأرضية، وفرض الثقافة الغربية عليها. وجدير بالذكر أن من اخترع عبارات من قبيل: "الإمبراطورية الإعلامية"، و"الإمبراطورية الثقافية العالمية" هم الإيديولوجيون الغربيون أنفسهم، وليس الشيوعيون.

---

(156) Hans-Joachim Hoffman-Nowotny. Die neue Volkerwanderung. Conturen, 15, 1991.

(157) Herbert Schiller. Mass Communication and American Empire. N.Y, 1969.

## النظام العالمى الجديد

إن فكرة المجتمع العالمى فكرة أمريكية قبل كل شىء. وقد عبّر الرئيس الأمريكى جورج بوش عن جوهرها عام ١٩٩١، فبعد الانتصار على العراق فى حرب لم تُسْفَك فيها دماء الأمريكين وحلفائهم، أعلن بوش عن نهج يرمى إلى إقامة نظام عالمى جديد على الطريقة الأمريكية وتحت رعاية الولايات المتحدة الأمريكية. ولم تكن هذه النية محاطة بالكتمان، بل على العكس من ذلك، كانت الدعاية تقدّمها كنشر للقيم الأمريكية تحديداً فى جميع أرجاء المعمورة. إذ كان الأمريكيون قادرين على أن يسمحوا لأنفسهم بمثل هذه الصراحة، ما دامت الحرب فى الخليج أكّدت للعالم أجمع وبكامل الجلاء حقيقة كون الاتحاد السوفيتى لم يعد الدولة العظمى الثانية فى العالم، وأن الولايات المتحدة الأمريكية ظلّت الدولة العظمى الوحيدة الساعية إلى فرض نظامها على الكرة الأرضية كلها.

ولكن فكرة النظام العالمى الجديد ليست فكرة أمريكية صرفة. إنها فكرة الغرب عامة. ولكى تقيم الولايات المتحدة الأمريكية النظام العالمى المرغوب يتعين عليها أن تعبئ جهود العالم الغربى كله. إذ إنها غير قادرة بمفردها على حل هذه المسألة. ومن ناحية أخرى، فإن بلدان الغرب منفردة ليس بوسعها الحفاظ على وضعها فى العالم، ولا سبيل أمامها للحفاظ على المستوى الذى بلغته إلا بجهود مشتركة. أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد احتلت الصدارة فى الحركة المشتركة نحو الهيمنة العالمية.

ولافت للنظر أن أشدّ الناس نقداً لطموح الولايات المتحدة الأمريكية إلى أمركة الكرة الأرضية هم الأمريكيون أنفسهم. وأستطيع أن أضرب مثلاً ب راسل كيرك (مستشار الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريغن)، وبالعالم المعروف نعوم تشومسكى<sup>(١٥٨)</sup>. أما المؤلفون فى البلدان الغربية الأخرى فأغلب الظن أنهم يتهيبون الإفصاح عما يُضمرون من أفكار.

(158) Russel Kirk. Neue Weltordnung: Pax Americana. Epoche, N 1, 1992; Noam Chomsky. Die Funfte. Berlin, 1988.

## غربة الكرة الأرضية

وُضِعَتْ خلال سنوات "الحرب الباردة" استراتيجية لإقامة نظام عالمي جديد. وأنا أطلق عليها اسم "الغربة"، وليس "الأمركة"، نظراً لأن هذه الاستراتيجية لا تخص الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، بل العالم الغربي كله. أضف إلى ذلك أن كلمة "الأمركة" تحجب المعنى الاجتماعي من هذه الظاهرة.

والغربة محاولة يقوم بها الغرب لجعل البلدان الأخرى شبيهة به من حيث النظام الاجتماعي، والاقتصاد، والنظام السياسي، والإيديولوجيا، والسيكولوجيا، والثقافة. ويجرى تصوير ذلك من الناحية الإيديولوجية على أنه رسالة إنسانية، تحريرية، نزيهة يضطلع بأدائها الغرب الذي يمثل ذروة التطور الحضاري، وبؤرة جميع الفضائل التي تخطر على البال. ويحاول الغرب بطريقة أو أخرى تلقين شعوب البلدان التي يعمل على غريبتها بأن الغربيين أحرار، وأثرياء، وسعداء يريدون مساعدتكم في أن تكونوا أحراراً، وأثرياء، وسعداء أيضاً. إلا أن جوهر الغربة الحقيقي لا يمت إلى ذلك بأي صلة. فالغربة تهدف إلى إيصال الضحايا المعنية إلى حالة تفقد فيها القدرة على التطور المستقل، واحتوائها في مجال نفوذ الغرب، لا كشركاء أنداد في الحقوق والقوة، بل كتابعين أو - بتعبير أصح - كمستعمرات من طراز جديد. على أن هذه الدور قد يكون مرضياً، ولكن لبعض الوقت فقط، ولجزء من المواطنين في تلك البلدان لا أكثر. ذلك أن الأنوار المرسومة للبلدان المعنية في نطاق سلطة الغرب ثانوية وتابعة. فالغرب يملك من القوة ما يكفي لمنع قيام بلدان مغربة مستقلة عنه، تهدد سيادته في جزء من الكرة الأرضية اقتطعه لنفسه.

إن غربة بلاد ما لا تعنى مجرد تأثير الغرب عليها، ولا مجرد قيام تلك البلاد باستعارة بعض مظاهر نمط الحياة الغربي، ولا مجرد استعمال ما ينتجه الغرب من قيم مادية وثقافية، ولا مجرد القيام برحلات إلى الغرب، وإنما هي شيء أكثر عمقاً وأهمية. إنها إعادة بناء تشمل أسس حياة تلك البلاد، والتنظيم الاجتماعي، ونظام

الإدارة، والإيديولوجيا، وذهنية السكان. هذه التحوّلات هي الوسائل لتحقيق الهدف الذي تحدّثنا عنه أعلاه.

وليس مستبعداً أن تكون الغربية اختياراً طوعياً من جانب البلاد الخاضعة للغربنة، بل ورغبة جامحة بالسير في هذا الطريق. على أن هذا بالضبط ما يسعى إليه الغرب، أى أن تزجّ الضحية بنفسها بين فكّيه، بل وأن تشعر بالامتنان على ذلك. إذ تلك هي الغاية من وجود منظومة جبّارة من الإغراءات ووسائل التدجين الإيديولوجي. ولكنّ الغربية، في شتّى الظروف، عملية فعّالة يقوم بها الغرب، ولا تستبعد استعمال العنف. وأن تختار بلادُ طريقَ الغربية طوعاً لا يعنى بعدُ أن سكانها جميعاً راضون بالسير في هذا الطريق إلى المستقبل. فهناك صراع داخل تلك البلاد بين أنصار هذا الاختيار ومعارضيه من المواطنين. ثم إن الغربية لا تنجح دائماً. ويكفى أن نضرب مثلاً بكلّ من فيتنام وإيران.

هناك أيضاً تكتيك للغربنة يقوم على الأسس التالية: الحطّ من قيمة جميع مقوّمات النظام الاجتماعي الأساسية في البلاد. زعزعة الاستقرار. تأزيم الاقتصاد، وجهاز الدولة، والإيديولوجيا. بثُّ التفرقة والعداوة بين السكان وتفتيتهم، ودعم أيّ حركاتٍ معارضة، شراء النخبة المثقفة وشرائح أصحاب الامتيازات. الترويج في الوقت نفسه لمزايا نمط الحياة الغربي، وإثارة حسد السكان على ما في الغرب من وفرة، وإيهامهم بأنهم يستطيعون التمتع بهذه الوفرة أيضاً في أقصر الآجال، إذا ما سلكت بلادهم طريقَ التحوّلات وفق النماذج الغربية. إصابتهم بعدوى أمراض المجتمع الغربي وعيوبه عبر تصويرها كفضائل وتجسيدٍ لحرية الفرد الحقيقية. إمداد البلاد التي تستهدفها الغربية بمساعدات اقتصادية تتناسب مع درجات تخريب اقتصادها، وزرع الطفيلية فيها، وإكساب الغرب سمعةً المنقذ النزيه لهذه البلاد من أمراض نمط حياتها القديم.

إن الهدف الوحيد الذي كانت بلدان الغرب تسعى إليه في الماضي من كلّ نشاطها التحريري والحضاري هو السيطرة على الكرة الأرضية لنفسها لا لغيرها، وتكليف

العالم وفقاً لمصالحها لا لمصالح الغير. وقد غيّرت هذه البلدان محيطها وأعدت بناءه بطريقة تجعل العيش فيه مريحاً. وعندما كانت تواجهها عقبات على هذا الطريق لم تكن تتورع عن استخدام أية وسيلة كانت. أما الآن فقد تغيّرت الظروف في العالم. تغيّر الغرب نفسه. تغيّرت استراتيجيته. ولكن جوهر القضية ظل كما كان. ولم يكن ممكناً أن يتغيّر، إذ إنه قانون الطبيعة. وراحت الإيديولوجيا الغربية تروج لحل المشكلة سلمياً. غير أن هذه الأساليب السلمية تتّصف بخاصية واحدة، إنها أساليب إرغام سلمية. ذلك أن الغرب يملك قوة اقتصادية، وسياسية، وإيديولوجية تكفي لإرغام المتفطرسين بالطرق السلمية على القيام بما يريد الغرب. ولكن الوسائل السلمية لا تعنى شيئاً إذا لم تستند إلى قوة عسكرية. وتُبين التجربة أن الغرب لا يتردد، عند الضرورة، في استخدام السلاح ما دام واثقاً من تفوقه الكبير.

تقودنا غربنة العالم إلى جعله خالياً من أية "منابت" يمكن أن ينمو فيها شيء قادر على اتخاذ شكل جديد من التطور يختلف عن التطور على قاعدة الغريزية. وفيما يُخضع الغرب العالم لسلطانه يُبيد جميع ما يمكن احتمالاً أن يكون أجنة حضارات أخرى قادرة على منافسته. إن العالم يتحول إلى صحراء عقيم أمام التطور.

## الديمقراطية الاستعمارية

عرف تاريخ البشرية أنواعاً مختلفة من الاستعمار، كاستيطان الأراضي غير المأهولة، والاستيطان عن طريق الاختلاط بالسكان المحليين، والاستيطان عن طريق إبادة السكان الأصليين، وتحصيل الجزية دون القضاء على النظام الاجتماعي - السياسي في البلد المستعمر، وضمّ الأراضي إلى الدولة المستعمرة، والاحتلال المترافق مع تغيير قسري لجعل البلاد شبيهة بمستعمرها... إلخ. والغريزة شكل خاص من أشكال الاستعمار يؤدي بالقوة إلى إقامة نظام اجتماعي - سياسي من الديمقراطية الاستعمارية في البلد المستعمر. وهذا، وفقاً لعدد من المؤشرات، استمرار



للاستراتيجية الاستعمارية التي طبقتها بلدان أوروبا الغربية، ولكن الغربية بمجملها ظاهرة جديدة، سأتطرق هنا إلى بعض مقوماتها.

ليست الديمقراطية الاستعمارية نتيجةً لتطورٍ طبيعيٍّ في بلاد أملت عليها ظروف نظامها الاجتماعي - السياسي وقوانينه الداخلية التي تكوّنت تاريخياً، بل هي شيء مصطنع، مفروض على البلاد من الخارج بخلاف ما تكوّن فيها تاريخياً من إمكانات التطور ونزعاته، وتستمر هذه الديمقراطية بقوة التدابير التي يفرضها الاستعمار، فيما جرى اقتلاع البلاد المستعمرة من علاقاتها الدولية السابقة، ويتحقق ذلك بواسطة تدمير الأحلاف بين البلدان، وكذلك عن طريق تقويض التكامل بين البلدان الكبيرة على غرار ما وقع للكتلة السوفيتية، والاتحاد السوفيتي، ويوغسلافيا. كما يتم ذلك أحياناً في شكل تحرير للشعب من اضطهاد غيره من الشعوب، على أن فكرة التحرير والاستقلال القومي تكون في أغلب الأحيان وبالدرجة الأولى وسيلة إيديولوجية للتلاعب بالبشر.

ويظل للبلاد المقتلعة من علاقاتها السابقة سيادةً ظاهرية، وتقام معها علاقات توصف بأنها شراكة ندية، فيما تظل أشكال حياة الأغلبية من سكان البلاد على حالها إلى هذا الحدّ أو ذاك، وتظهر مواقع اقتصادية من النمط الغربي تحت إشراف البنوك والاحتكارات الغربية، ويكون جزء كبير منها غريباً أو مشتركاً، وتُستخدم أشكال مؤسسات الديمقراطية الغربية كوسائل في أيدي نظام غير ديمقراطي بتاتاً، وكوسائل للتلاعب بالجماهير، على أن استغلال البلاد لمصلحة الغرب يتحقق بأيدي قوى تمثل جزءاً ضئيلاً من السكان، وهي قوى تُثري عن طريق وظيفتها هذه، وتتمتع بمستوى حياة عالٍ يضاها نظيره عند الفئات العليا في الغرب.

وتصل البلاد المستعمرة في جميع المجالات إلى حالة تصبح فيها عاجزة عن العيش باستقلال، ويبلغ إضعافها من الناحية العسكرية حدّاً يجعل قدرتها على أي نوع من المقاومة ضرباً من المستحيل، فمهمة قواتها المسلحة ردع احتجاجات السكان، وقمع

التمردات المحتملة. كما ويستهان بثقافتها القومية إلى أقصى حد، فتحل محلها ثقافة الغربية، بل والأرجح هو التشبه بثقافة الغربية.

وتقدم لجمهير السكان نسخة زائفة من الديمقراطية على شكل انحلال أخلاقي، ورقابة ضعيفة من جانب السلطة، وتسليات سهلة المال، وانفراد بالقرارات الشخصية، ومنظومة قيم تريح الناس من مشقة التحكم بأنفسهم ومن القيود الأخلاقية.

## الغرب والعالم الخارجي

تكونت البلدان الغربية تاريخياً في "دول قومية"، ككيانات اجتماعية تتمتع بتنظيم أرقى مستوى من باقى البشرية، كنوع من "البنية الفوقية" بالنسبة لباقى البشرية. وطورت فى داخلها قوى وقدرات ساعدتها فى التفوق على الشعوب الأخرى، وإخضاعها. ووفر لها اجتماع جملة من الظروف التاريخية فرصة لقطف ثمار هذا التفوق. وكان غير طبيعى لو أنها لم تفعل ما فعلت. إذ إن تاريخ البشرية صراع ضار بين البشر والبلدان والشعوب من أجل البقاء. وما الكلام عن الاهتمام النزيه بخير الإنسان والإنسانية فى هذا الصراع إلا وسائل لتحقيق أهداف أنانية، وقناع يخفى النوايا الحقيقية. ولا أرى فى هذا شيئاً إجرامياً، يتنافى مع الأخلاق. فمعايير الأخلاق والحق عديمة المعنى تماماً فى ما يخص مسارات التاريخ.

إن سعى البلدان الغربية إلى السيطرة على العالم ليس مجرد نية شريرة عند أوساط معينة فى هذه البلدان، أى عند "الإمبرياليين". وإنما هو سعى تمليه قوانين الوجود الاجتماعى الموضوعية. على أن تأثيره على تطور البشرية متناقض. فقد كان هذا السعى نفسه مصدراً جباراً للتقدم، مثلما كان مصدراً للويلات، إذ تسبب بعدد لا يحصى من الحروب الفتاكة، بينها حربان عالميتان. ولم يكتف هذا السعى بالبقاء مستمراً بمرور الزمن، بل ازداد قوة. ولم يتغير فيه شىء إلا ارتداؤه أشكالاً جديدة. زد على ذلك أن الاستيلاء على البلدان والشعوب الأخرى بات شرطاً ضرورياً لبقاء بلدان

الغرب وشعوبه. إن مأساة التاريخ العالمي لا تتمثل في أن أناساً سيئين، جشعين وأغبياء يدفعون البشرية في طريق مكروه، وإنما في أن البشرية مرغمة على سلوك هذا الطريق ضدَّ إرادة ورغبات الناس الطيبين، النزيهين والأذكياء.

إن الحركة نحو المجتمع الكوني ليست تجلياً لحلم، أو منفعة، أو غرور، أو جنون، أو أنانية، أو نزعة إنسانية، أو حبُّ للبشر، أو لأيِّ من صفات الناس الإيجابية أو السلبية. إنها ضرورة حياتية للبلدان الغربية، ووسيلة إرغام من أجل الحفاظ على ما تحقَّق لها، وعلى البقاء في ظروف تاريخية محقوفة بالمخاطر. إن الغرب مرغم، بحكم مجمل مسار تطوره التاريخي، على إقامة نظام عالمي يناسب مصالحه. وهو لا يملك الإمكانات والقوى الكافية من أجل ذلك وحسب، بل ولم يعد قادراً على التراجع عن تحقيق هذه المهمة التاريخية.

لقد تشكَّلت الغريزية في ظروف تاريخية محدَّدة. ثم جاء تطورها اللاحق ليغيِّر الكرة الأرضية. وكان الغرب نفسه يتغير أيضاً بمقتضى الظروف الجديدة. إلا أن قدرته على التكيف محدودة بالمقدمات الأساسية التي انطلقت منها الغريزية وباتت طبيعة اللوثيان<sup>(١٥٩)</sup> الغربي على امتداد تاريخه. فعلى الرغم مما يبدو تطوراً عاصفاً، لم يغير المجتمع الغربي صفة كونه مجتمع الغريزية. ولم يفعل إلا الكشف عن قدراته الكامنة بصفته هذه. إن النتيجة الحتمية لقوانين التطور الاجتماعي الموضوعية هي أن الكيان الاجتماعي يفقد، ابتداءً من لحظة معينة، قدرته على التكيف مع الظروف المتغيرة. وعند ذلك لا يظل أمامه إلا الهلاك، أو السير على طريق تكيف الظروف نفسها مع طبيعته الأبدية.

---

(١٥٩) " Leviathan اللوثيان"، أي التتین، عنوان كتاب للفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩)، وهو تشبيه للدولة بالتتین الذي يحتوى جميع الأفراد في جوفه، فتمحى شخصياتهم وإراداتهم أمام شخصيته وإرادته. وبذلك يكسب طاعتهم التي تقوم على الخوف والكره، وعلى النفاق وعدم الاحترام. - م.

G. Hardin. Living on a Lifeboat. Bioscience, Oct., 1974. 160

وبفضل الغربية طور اللوثيان الغربي مقدرته الاستقلالية إلى درجة فائقة الفاعلية والنشاط جعلته بحاجةٍ تتعاضم باستمرار إلى مواردٍ طبيعية، وأسواقٍ لتصريف السلع، ومجالات لتوظيف رءوس الأموال، وقوة عمل رخيصة، ومصادرٍ طاقة. غير أن إمكانات تلبية تلك الحاجة ليست بلا حدود. ولذلك فهو بحاجة إلى الكوكب كله. بينما يعيش في العالم الآن ستة مليارات إنسان، ويعدُّنا علماء المستقبل بأن يصل عددهم إلى عشرة مليارات إنسان بعد عقدين من الزمن. أمَّا الخامات ومصادر الطاقة فإنها، حسب معطيات الأمم المتحدة، لا تفي إلا بحاجات مليارٍ واحد من البشر كي يعيشوا حياة طبيعية. وقد رسم أحد المفكرين الغربيين<sup>(١٦٠)</sup> لهذه الحالة صورة ناطقة تقول: إن الأمم الغنية تجلس في قارب نجاة وسط بحر من الجوع والحاجة. والسماح لمن يحتاج إلى مساعدة بالصعود إلى القارب معناه الغرق.

### بنية المجتمع العالمي المحتملة

هناك إمكانية لقيام عالمٍ بشري واحد، ولكن ليس كتعايش سلمى بين بلدان وشعوب متساوية، بل ككلٍ اجتماعي مبني على هيكل هرمي بين هذه البلدان والشعوب. ولا مناص في هذه الهرمية من علاقات السيادة والخضوع، والزعامة، والقيادة، أي لا مناص من علاقات تقوم على عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ولا يعود ذلك إلى أسباب بيولوجية ما وأفكار عنصرية سيئة، وإنما إلى القوانين الداخلية الاجتماعية الموضوعية التي تحكم تنظيم الكتل البشرية الكبيرة. على أن معرفة هذه القوانين الداخلية لا تعنى إطلاقاً أن على الناس أن يستسلموا أمامها. فقد خاض الناس في الماضي، ويخوضون الآن، وسوف يخوضون في المستقبل صراعاً ضد سعى الآخرين إلى السيطرة عليهم، وضد التفوق عليهم عموماً. كما لعبت وستظل

---

(160) G. Hardin. Living on a Lifeboat. Bioscience, Oct., 1974.

تلعب أفكار المساواة والعدالة الأخلاقية دورها في هذا الصراع. غير أن من السذاجة، على أقل تقدير، إغماض العين عن تلك النزعة الموضوعية إلى هيكل هرمية عامودية للبلدان والشعوب، إذ إن البشرية الواحدة تتألف من شعوب تخضع لمفعول القوانين الكومونالية التي تنطبق على أي من المتحدات البشرية، وهذا يعني أن سعى بلاد ما، سواء أكان صريحاً أو مستوراً، إلى الهيمنة العالمية هو أحد أركان تلك النزعة إلى توحيد البشرية.

إننى أتحدث عن الهيكل العامودية تحديداً، وليس عن مجرد تقسيم المجتمع الدولي إلى مناطق<sup>(١٦١)</sup>، بل ولا أتصور ذلك على شكل خط هرمى واحد، وإنما كتشابك خطوط كثيرة لا تبرز فيه الهرمية العالمية الواحدة إلا كنزعة لا غير. وتقع البلدان الغربية على قمة هذا الهرم العالمى، ولكن وفق هيكلتها هي. فهناك المنطقة الأوروبية الغربية التي تحدثت عنها، وهناك المنطقة الأمريكية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. وكل منهما يغرز مجسّات استشعاره في جسد المجتمع العالمى، وتوجد فى البلدان الغربية نفسها هرمية متعددة الأبعاد. كما توجد فى البلدان الأخرى هيكلتها العامودية الخاصة. إن الشرائح العليا فى مختلف البلدان تشكّل شرائح عالمية على طريقتها، وأوساط الأعمال الحرّة، والسياسة، والثقافة تتهيكل بشكل مستقل إلى حد معلوم، وموجز القول، إن المجتمع الدولي مجموعة من البنى الهرمية المتشابكة تشابكاً عجبياً إلى أقصى حد، والساعية بمجموعها إلى تشكيل بنية من هذا النوع بالذات.

---

(١٦١) فى كتابه "The Modern World System" .N.Y. 1974. قسّم والرشتاين Wallerstein اقتصاد العالم إلى أربع مناطق، هي: المتروبول أو المركز (بريطانيا، وفرنسا، وهولندا، وألمانيا وغيرها من البلدان الأوروبية الغربية)، وشبه الأطراف (بلدان حوض المتوسط)، والأطراف (بلدان أوروبا الشرقية)، وما تبقى من العالم.

ولكن هذا ليس إلا جانباً واحداً من جوانب توحيد عدد كبير من البلدان والشعوب المتنوعة في كل واحد. إذ تترافق عملية الهيكلية العامودية هذه مع عملية أخرى هي عملية قيام مستويات اجتماعية جديدة ضمن البنى الموجودة أصلاً. وتتشكل هذه المتحدات (البنى) الفرعية الجديدة من عدد كبير من الناس لا ينحصر ميدان نشاطهم الحياتي في بلد واحد، بل يتعداه إلى عدد من البلدان. فهناك الآن آلاف عديدة من المنشآت والمؤسسات غير الربحية التي تمتدُّ مجالات نشاطها لتشمل أقاليم مختلفة من الكرة الأرضية، ومجموعات مختلفة من الشعوب، والكرة الأرضية برمّتها عملياً. ويسير نشاطها بعيداً إلى حدٍّ كبير عن سياسة دول وحكومات محددة. فهو نشاط مستقل إلى حدٍّ ما.

تتشكل تجمعات كثيرة من هذا المستوى الثاني (بالنسبة إلى "الدول القومية") تشكل بمجموعها شبكة معقدة ومتعددة الأبعاد. وهذه الشبكة (أشدُّ على أنها شبكة بالضبط!) تحيط ببلدان الغرب وغيرها، تخترقها في نقاط مختلفة، وتستخدمها ميداناً لنشاطها.

ما من دولة تستطيع بمفردها أن تبقى مدّة طويلة سيدة المجتمع الدولي في ظل وجود هذه البنية الشبكية التي لا مكان فيها لمثل هذا الدور. وما من دولة تستطيع أن تصبح مركزاً لإمبراطورية عالمية شبيهة بالإمبراطوريات التي أقامتها البلدان الأوروبية في الماضي. يمكن للبلدان الغربية أن تشغل مواقع قيادية في عدد لا حصر له من خلايا الشبكة العالمية. ولكنها ستكون هي نفسها مضطرة عندئذ لأن تصبح ميداناً لنشاط شبكة من مستوى أرقى، أي لمجتمع عولمي حقيقي وليس من صنع خيال الإيديولوجيين.

## ولكن

ولكن مصير البشرية ليس محسوماً بطريقة قدرية. وهناك كثير من هذه الـ "ولكن..." التي يمكن أن تقوِّض نوايا المتحمسين للمجتمع العالمى وأعمالهم. وسأذكر بعض الأمثلة.

لا تزال مصالح مجتمع الدرجة "الأولى" (بلدان الغرب وشعوبه) قائمة، وهى تدخل فى نزاع مع مصالح مجتمع الدرجة "الثانية" ومع مصالح الطامحين إلى دور الهيمنة. ولا تزال النزعات الانفصالية قائمة، ثم إن ازدهار الغرب ليس أبدياً، وقد لا يتسنى للغرب متابعة مهمته الهوسية الهادفة إلى تنظيم البشرية بأسرها فى مجتمع واحد على النمط الغربى، إذا ما تبين له أن هذه المهمة تفوق طاقته.

لا يجوز أن نُسقط من حسابنا ما هناك من تناقضات اجتماعية ونزاعات داخل البلدان الغربية. فخبرة السنوات الأخيرة تقول إن "المصالحة الطبقية" لا يبقى منها أثر عندما تتعرض مصالح مجموعات من السكان لتجاوز الحد. ولا تزال التناقضات بين التجمعات الاقتصادية، والبلدان، والأحلاف موجودة أيضاً.

لا تزال الصين الشيوعية حية، وليس من السهل أن يتعامل معها الغرب بطريقة تشبه تعامله مع الاتحاد السوفيتى. وفى شتى الأحوال يتطلب ذلك وقتاً وإنفاقات هائلة ليس الغرب بقادر عليها الآن. ولا يوجد ما يضمن ألا ينبعث فى بلدان الاتحاد السوفيتى السابق نظام اجتماعى قريب - على الأقل - من النظام الشيوعى. لقد مرت موجة الانتشاء بانتهاء الشيوعية، وأحسُّ الناس بأنهم فقدوا أكثر مما كسبوا. وسيدركون فى نهاية المطاف جوهر عملية الغربية ويبدءون بمقاومتها. فما هو العالم العربى يستجمع قواه ويتكاتف، وباختصار، تظل المسافة هائلة بين مشاريع المجتمع الكونى وتنفيذ هذه المشاريع.

ويجدر بنا ألا ننسى العامل البشرى أيضاً، فإذا ما استمرت عملية التناقص المطلق والنسبى فى عدد الغربويين، والتراجع فى خصائصهم النوعية كغربويين، على



غرار ما يجرى فى الآونة الأخيرة، فإنهم سيفقدون وضعهم القيادى فى العالم، ١٦٢  
وعندئذ سيذهب هباءً منثوراً ما حققه الغرب بفضل جهوده العملاقة.

إن أبناء الجنس الغربوى بعد أن أنجبوا الغربوية والحضارة القائمة على  
أساسها، وحقّقوا للغرب السيادة فى الكرة الأرضية، وأعطوا دفعاً جبّاراً لغربنة  
البشرية وأوجدوا من يحاكي غربويتهم، سيفادرون حلبة التاريخ منقرضين أو ذائبين  
فى كتلة كائنات من جنس آخر. وسيكون ذلك عالماً جديداً لا مكان فيه لظاهرة فريدة لا  
تتكرر، أسمها "الغرب".

### الغربوية والشيوعية

تعرّضت أعماله غير مرة للعلاقات المتبادلة بين الغربوية والشيوعية. وأريد أن  
أسجّل هنا عدداً من الإضافات والتوضيحات لما سبق سبق أن قلته.

لا تُعرّف الغربوية أو الشيوعية بصفة واحدة، ولا حتى بعدد من الصفات، وإنما  
بجملة من الصفات المترابطة التى تشكل كلاً واحداً. فقد تتشابه الغربوية والشيوعية  
بعدد من الصفات المنفردة مع مجتمعات من أنماط أخرى، وفيما بينهما أيضاً. غير أن  
لكلّ منهما صفاته الخاصة التى تشكّل وحدةً شديدة التميّز تجعلها مختلفة عن الأخرى.  
ولا يستطيع أن يصف أيّاً منهما إلا نظريةً سوسيوولوجية على قدرٍ كافٍ من الاكتمال  
والترباط المنطقي، وليس مجموعة من كلمات مؤلّفة على نحوٍ ذاتي ظهر ويظهر أمثالها  
بغزارة فى المؤلفات التى تتناول المواضيع الاجتماعية.

ليست مهمة النظرية العلمية أن تصف بلداناً وشعوباً محدّدة يكون نظامها  
الاجتماعى غربوياً أو شيوعياً، بل أن تصف الغربوية أو الشيوعية كما هي، بصرف  
النظر عن خصوصيات البلدان والشعوب، أى ان ترسم صورتها المجردة. كما أن  
المقارنة بينهما على مستوى النظرية العلمية يجب أن تبتعد عن الخصوصيات المذكورة،  
أى يجب أن تكون مقارنة مجردة أيضاً.

لقد قلتُ في بداية هذا الكتاب بإمكانية التفريق بين جانبيين داخل أى مجتمع على قدر كاف من التطور، هما: الجانب العملى والجانب الكومونالى. والغربوية هى وحدة هذين الجانبين التى يلعب الجانب العملى الدور الأقوى فى لحظة انطلاقها تاريخياً، وفى أسسها. أما الشيوعية فهى وحدة هذين الجانبين التى يلعب الجانب الكومونالى الدور الأقوى فى لحظة انطلاقها تاريخياً، وفى أسسها. وهذه الدرجة من القوة تعنى أن قوانين الجانب العملى هى صاحبة التأثير الأقوى على جميع ظواهر المجتمع المهمة حياتياً فى الحالة الأولى، بينما تكون قوانين الجانب الكومونالى هى صاحبة التأثير الأقوى فى الحالة الثانية. علماً بأن ظواهر كل من الجانبين تتخذ شكل الجانب الآخر، وتعدو أداة له.

إن المقارنة بين الغربوية والشيوعية على المستوى العلمى ليست بهذه البساطة. فقد كانت تجربة الشيوعية أقصر زمنياً من أن تكفى لأن نطلق عليها أحكاماً قطعية. كما أنها ظهرت وعاشت فى ظروف قاسية إلى أبعد حد. وكان تاريخها كله صراعاً متواصلاً من أجل البقاء فى مواجهة قوى الغرب المتفوقة عليها. ويصعب الآن أن نفرق بين ما ينبغى أن نعدّه ظواهر عابرة فى عملية نضجها، وما ينبغى أن نعدّه ظواهر جوهرية مستمرة فى مرحلة النضج. فقد كان نظام السلطة فى روسيا الشيوعية، مثلاً، ينطوى على سلطة مزدوجة من نوع خاص. فهناك السوفيتات (المجالس) التى كانت تنتخب بطريقة مباشرة، عامة، وسريّة. وهناك الجهاز الحزبى الذى كان يتشكل بطرق أخرى مختلفة تماماً. والحال، هل نعتبر هذا ظاهرة عابرة، أم شكلاً ناضجاً للسلطة الشيوعية؟ لم يعطِ التاريخ إجابة عن هذا السؤال، أمّا من الناحية النظرية فثمة احتمالات مختلفة فى هذا الشأن.

إن فهم الشيوعية فهماً علمياً يتطلب التفريق بين بلدان معينة ظهرت فيها الشيوعية وعاشت بوصفها كذلك، أى كظاهرة اجتماعية مستقلة عن خصوصيات هذه البلدان. فليس كل ما كان قائماً فى هذه البلدان خلال المرحلة الشيوعية من تاريخها مرتبطاً بالشيوعية بالضبط. وليس كل ما ينبغى أن يندرج فى وصف الشيوعية العلمى

يمكن أن نجده في كل بلاد كانت شيوعية. ذلك أن الشيوعية لم تكن موجودة "في شكلها الخالص" في أي مكان، بل كانت في كل مكان تصطبغ ببيئة من نوع مختلف. وحتى في روسيا التي كانت أقرب الجميع إلى النموذج "الخالص"، يستحيل الفصل عملياً بين ما كان وليد خصوصيات التاريخ الروسى وطبيعة سكانها، وما كان وليد الشيوعية بوصفها كذلك. غير أن نقاد الشيوعية وخصومها ينظرون إلى جميع المساوئ التي وقعت في المرحلة السوفيتية من تاريخ روسيا على أنها وليدة الشيوعية، رغم أن هناك أسباباً أكثر للتأكيد بأن روسيا تمكّنت بفضل الشيوعية تحديداً من تفادي ويلات أكثر هولاً. ولا توجد هنا أية معايير علمية لإطلاق أحكام حقيقية.

على أن فهم الشيوعية فهماً علمياً يتطلب التفريق بدقة بين ما هو ناتج عن القوانين الاجتماعية العامة التي تؤثر في النظام الاجتماعى من أي نمط كان، وما هو ناتج عن القوانين الشيوعية الخاصة. فتطور جهاز الدولة البيروقراطى في البلدان الغربية، مثلاً، لم يكن أقل قوة مما في البلدان الشيوعية، وكان يتّصف بالعيوب نفسها. بينما لا وجود إطلاقاً لأي نظرية سوسيوولوجية عامة من شأنها أن تضطلع بمعالجة هذا الموضوع. وجميع النظريات السوسيوولوجية التي أعرفها كانت منحازة ومؤدجة إلى درجة تجعل منها عقبة أكثر مما تجعل منها عوناً في هذا المجال.

وليس الأمر بأفضل حالاً في الغربية. إذ يمكن أن نقول عنها شيئاً شبيهاً بما قلته عن الشيوعية للتو. إذ على الرغم من أن الغربية بدأت منذ بضعة قرون تلتفت الأنظار إليها كنمط خاص من أنماط النظام الاجتماعى، فإن قفزتها النوعية لم تحدث إلا في القرن العشرين، وبوضوح كبير بعد الحرب العالمية الثانية. وكان للصراع ضد العالم الشيوعى دور في هذه العملية لا يستهان به. والحال، فإن الغربية ظاهرة اجتماعية فنية لم يكتمل تشكّلها حتى الآن.

إن علاقة الغربية المتطورة (المعاصرة) بتاريخ ماضى الغرب تشبه في كثير من الجوانب علاقة الشيوعية في روسيا بأوضاع هذه البلاد قبل الثورة. غير أن قيام النظام الاجتماعى الشيوعى بطريقة ثورية هو ما حجب هذه العلاقة، أى ما أخفى

حقيقة استمرار عملية التطور في روسيا. أمّا في الغرب فإنّ الطريقة غير الثورية (الطريقة الإصلاحية) في تحول المجتمع إلى مجتمع غربي شامل هي ما أدّى إلى حجب قفزة التطور النوعية، أي حقيقة أن الانقلاب الاجتماعي الهائل الذي وقع في النصف الثاني من القرن العشرين يضاهاى التحول في عهد الثورات الشيوعية. ذلك أن ما تتصف به طريقة التفكير الإيديولوجية في الغرب من عداً عامّاً للديالكتيك زاد من صعوبة الفصل بين الغربية المعاصرة والمجتمع الغربي في المرحلة التي سبقتها.

إن إشارتي إلى طريقة التفكير ليست من باب المصادفة. لأن جميع العوامل التي تحدّد نمط النظام الاجتماعي تعمل في الواقع مجتمعة، ولها تأثيرات متنوعة، ومتناقضة أحياناً، وأدوارها في حياة المجتمع تتغير، وتكون متناقضة في بعض الأحيان... إلخ. ولفهم الغربية والشيوعية على حدّ سواء فهماً علمياً لا مفرّاً من الحاجة المطلقة إلى ذلك الديالكتيك الذي شاركت في الإساءة إليه وتشويهه وابتذاله جهودُ المفكرين الاجتماعيين سواء في البلدان الشيوعية أو في البلدان الغربية. وأشير في هذا الخصوص إلى أن مقاومة الحقيقة العلمية في فهم الظواهر الاجتماعية في الغرب لا تقلّ شدة عما كانت عليه في روسيا الشيوعية (بل وما بعد الشيوعية أيضاً).

وهنا أريد أن أقارن بين بنية المجتمعين الشيوعي والغربي على ثلاثة مستويات، هي: البنية الصغرى، والبنية الكبرى، والبنية العظمى. على أن ما أقصده في الحالة الأولى هو المادة البشرية وخلايا المجتمع، وفي الحالة الثانية الاقتصاد ومؤسسة الدولة ومجالات المجتمع الأخرى عموماً، وفي الحالة الثالثة توحيد البلدان ذات النمط الواحد في أحلاف ومجتمع عالمي يتشكل تحت رعايتها.

تمارس جوانب المجتمع المذكورة أعلاه تأثيراً مختلفاً على صفات الناس. فاستمرار هيمنة واحد من تلك الجوانب مدّةً طويلة من الزمن يؤدي حتماً إلى تشكيل نمط معين من المادة البشرية يتكيف مع شروط هذا الجانب. ولذلك لا غرابة في أن ما يبني مجتمعاً غربياً كان أم شيوعياً، ويحافظ على بقائه هو مادة بشرية مطابقة له (أناس على شاكلته، يتكيفون مع ظروفه). كما أن المجتمعين، الغربي والشيوعي،

يعملان بكل السبل على تطوير ذلك الجانب من المجتمع فيولدان ويعيدان إنتاج المادة البشرية المطابقة لهما، أى أن هناك علاقة من التبعية المتبادلة. فنمط المجتمع والمادة البشرية المطابقة له يتطوران معاً.

مثلاً أسميت أفراد المادة البشرية التى صنعت الغربية بالغربويين، سأستخدم هنا كلمة (الشيوعيين) للدلالة على عموم سكان الدول التى كانت شيوعية، وليس على أعضاء الأحزاب الشيوعية فى تلك البلدان. وبعد أن تحدثت من قبلُ باستفاضة عن صفات ممثلى الجنس الغربوى، أقول إن الشيوعيين (السكان عامة) لا يجارونهم فى التحلّى بتلك الصفات، بل وهم النقيض لهم فى كثير منها. وأريد أن أشددُ بشكل خاص على فرقين اثنين لعبا دوراً حاسماً فى التباعد بين تطور الطرفين.

كلُّ إنسان يعى نفسه بصفته فرداً (بصفته "أنا")، وفى الوقت نفسه بصفته عضواً فى متَّحدٍ يضمُّ كثيراً من الأفراد (بصفته "نحن"). إلا أن أشكال هذا الوعى تتباين، مثلاً تختلف نسبة الـ "أنا" والـ "نحن" فى ذهنية البشر. ويتَّصف النمط الشيوعى بتغليب الـ "نحن" على الـ "أنا"، بل ويتضخيمها. ويتجلّى ذلك فى الميل إلى سيكولوجيا الجماعة، ونمط الحياة الجماعى. أمّا الغربية فتتَّصف بتغليب الـ "أنا" على الـ "نحن"، وتُضخِّمها. ويتجلّى ذلك فى الميل إلى سيكولوجيا الفردية، واستقلال المرء عن الآخرين، وتطوير وسائل الدفاع الفردى عن النفس، وحتى إلى الانعزال.

وثانى صفات المادة البشرية التى أريد أن ألفت الانتباه إليها هنا هى مقدرة البشر على تنظيم أنفسهم من أسفل المتحد، ومن داخله، ودرجة طاعتهم للقوة التى تنظّمهم من أعلاه ومن خارجه. إن قدرة الشيوعيين على التنظيم الذاتى ضعيفة جداً، ودرجة طاعتهم التنظيم القسرى عالية. أما الغربويون فبالعكس: أى أن قدرتهم على التنظيم الذاتى قوية جداً، ودرجة طاعتهم التنظيم القسرى ضعيفة نسبياً.

إن التنظيم الذاتى الطوعى للبشر من تحت ومن الداخل ليس الصفة الغالبة فى نمط المتحدات البشرية الكبيرة الذى تنتمى إليه الشيوعية، كما كان خلال تاريخ

صيرورة الولايات المتحدة الأمريكية، مثلاً. بل هي تنتمي إلى النمط الذي يغلب فيه التنظيم القسرى من فوق ومن الخارج، كما كان خلال تاريخ روسيا منذ أول أيام وجودها، مثلاً. وتنظيم المجتمع من فوق لا يمتُّ بصلته إلى التأكيد الإيديولوجي الذي يزعم أن الشيوعية اختلقها في البداية أحدهم، ثم فُرضت على الناس من فوق بواسطة العنف والخداع. ففي هذا الشكل من أشكال التنظيم يعود الدور الحاسم في توحيد البشر في كلِّ واحد إلى الدولة والسلطة العليا عموماً، وليس إلى عوامل أخرى، ومنها الاقتصاد.

والنمط الشيوعي في تنظيم المجتمع هو بالنسبة لمادة بشرية معينة وظروف معينة طبيعيٌّ ومناسب، مثلما هو النمط الغربي في التنظيم بالنسبة لمادة بشرية وظروف أخرى. وأعتقد أن أحد أهم الشروط التي كانت وراء تعاضم مفهوم الدولة في الإمبراطورية الروسية وتغليبها على بقية القوى الاجتماعية، هو العامل البشري تحديداً، وجوهر الشعب الروسى في المقام الأول. وكذلك كان مستحيلاً قيام مجتمع من النمط الغربى بمادة بشرية أخرى غير تلك المادة التي هي شعوب البلدان الغربية. ويعود جزء كبير من الفضل في نجاح الشيوعية في روسيا إلى ما يتَّصف به الشعب الروسى من طباع قومية، وإلى ضعف قدرته على التنظيم الذاتى والانضباط الذاتى، وميله إلى الجماعية والطاعة العبودية أمام السلطة العليا، وميله إلى رؤية نِعَم الحياة وكأنها هبة من فوق، وليست نتيجة للجهود الشخصية، والإبداع، والمبادرة، والمغامرة... إلخ.

ينقسم كل مجتمع كبير بقدرٍ كافٍ إلى جماعاتٍ متنوّعة من الأعضاء، وبعض هذه الجماعات يشكّل أساس المجتمع بأسره، ويلعب دوراً جوهرياً في تحديد صفاته الرئيسية. والجماعات هي خلايا المجتمع التي من خلالها، وفيها، وبفضلها يُستخدم غالبية أعضاء المجتمع القادرين على العمل قواهم وقدراتهم، فيحصلون وسائل عيشهم، ويلبّون حاجاتهم الحياتية، ويحققون النجاح، ويرتقون في المناصب، ويقيمون علاقات اجتماعية.



تُصَف الخَلايا الأساسِية في المِجتمَع الشِيعِوي بأنَّها تنشأ بقرار من السُّلطات. فهي التي تحدّد لتلك الخَلايا وظائفها العمليّة وعلاقتها بالخَلايا الأخرى. وموظَّفو السُّلطة هم من يستأجرون من بين أعضاء الخَلايا عاملين مهنيين دائمين. وهؤلاء لا يملكون الموارد التي تحت تصرفهم، أو نتائج عملهم. فالقانون هو الذي يحدّد أجور كل منهم وفقاً للمنصب، ومستوى الكفاءة، والمزايا الشخصية. ويحصل العاملون على أجورهم بغضِّ النظر عن تصريف ناتج عمل الخلية. أمّا مدراء الخلية فتعيّنهم أجهزة السُّلطة والإدارة وفقاً لقدراتهم المهنية وخبرتهم العمليّة.

وهذه الخَلايا موجودة وبأعداد كبيرة في المِجتمَع الغربيّ، ومنها، على سبيل المثال، مؤسسات الجهاز الإداري، والشرطة، وأجهزة الأمن السريّة، والجيش... إلخ، وكذلك العديد من مؤسسات البحث والتعليم، والمنظمات الخاصّة بتطبيق البرامج المهمّة وطويلة الأجل، وغيرها. ولكن خصائص الخَلايا الشِيعِوية لا تقتصر على ما ذكرت أعلاه. فالعاملون في الخَلايا الشِيعِوية يشكّون جماعات اجتماعية لها بنيته وقواعد حياتها، بغضِّ النظر عن العمل الذي تؤديه. والعناصر الأهم في هذه البنية هي المنظمات الحزبية، والشبابية، والنقابية. وهناك أيضاً مجموعات ومنظمات أخرى لا علاقة لها بالعمل. وهذه جميعها عناصر ذات صفة قانونية تتألف منها بنية الخَلايا.

يُضَى المواطنون العاملون في المِجتمَع الشِيعِوي الجزء الأساسِ من حياتهم في هذه الخَلايا / الجماعات التي لا يعملون فيها فقط، بل ويقضون فيها الوقت أيضاً مع معارفهم وأصدقائهم، ويتبادلون المعلومات، ويتسلّون، ويسعون إلى تحقيق النجاح المهني، ويمارسون الرياضة والنشاط الاجتماعي، ويشاركون في حلقات الإبداع الاختياريّة، ويحصلون على السكن والأماكن لأطفالهم في رياض الأطفال، وعلى بطاقات للراحة والاستجمام بأسعار رمزية، وعلى الإعانات... إلخ. وتقوم الخلية الشِيعِوية بمهامّ تربية المواطنين فكرياً وأخلاقياً في المِجتمَع، وتجذبهم إلى دوائر



النشاط في الحياة الاجتماعية، وبهذا المعنى تضعهم تحت رقابتها. أما الخلايا الغربية فليس فيها شيء من هذا القبيل.

إن الخلايا الغربية تنقسم إلى مجموعتين، تضم المجموعة الأولى منهما الخلايا التي تنشأ بقرار من السلطات. وينطبق على هذا النوع من الخلايا ما ذكرته أعلاه عن الخلايا الشيوعية، باستثناء ما قلته بعد ذلك عن جماعات العمل الشيوعية. بينما تضم المجموعة الثانية تلك الخلايا التي تنشأ بمبادرة من الأفراد والمنظمات، وليس بأوامر السلطات. ولكن ذلك لا يكون اعتباطاً، ولن يشاء. فلا بد لهذه الخلايا من الحصول على موافقة السلطات، وأن تسجل رسمياً طبيعة عملها. إنها تنشأ وتعيش في إطار القانون. ويكون عليها الالتزام أيضاً بالقانون في تحديد شخصياتها الاعتبارية، أي الشخصيات أو المنظمات التي تتولى نشاط هذه الخلايا، وتحمل المسؤولية عن ذلك أمام الدولة والقانون. والشخصيات الاعتبارية لها الحرية في تحديد طبيعة عمل الخلايا، وتنظيمها الداخلي وعلاقاتها مع المحيط، ولكن في إطار المعايير القانونية. على أن وجود مثل هذه الخلايا في المجتمع الشيوعي أمر ممكن، إنما من باب الاستثناء، وفي أدوار ثانوية. أما في المجتمع الغربي فلهذه الخلايا دور بالغ الأهمية. إنه لمن الصعب التكهن بمصير هذه الخلايا في المستقبل، ولكنها ما تزال الأكثر عدداً في البلدان الغربية حتى الآن.

إن القاسم المشترك بين الخلايا الغربية هو أنها تنشأ وتوجد حصراً من أجل هدف محدد واحد، لا غير. وهذا ينطبق على خلايا المجموعتين. فقد تكون بنيتها الداخلية معقدة ولها وظائف منفصلة. إلا أن هذه البنية تمليها ظروف العمل حصراً. ولا يُسمح بوجود أي شيء آخر في الخلايا الغربية. لا يُسمح بأية مجموعات أو منظمات لا علاقة لها بالعمل، ولا بأية علاقات شخصية بين العاملين، ولا بأية تدخلات خارجية في عمل الخلية (كمدخلات المنظمات الحزبية والنقابية في الخلايا الشيوعية). ومختصر القول، إن الخلايا الغربية بعيدة إلى أقصى حد عن تأثير كل ما ليس له صلة مباشرة بعملها.

لأن كانت الخلايا الشيوعية غنيةً من الناحية الاجتماعية، ومعقدةً إلى أقصى حدٍّ كمتحدات بشرية، فإن الخلايا الغربية على العكس من ذلك، إذ إنها فارغة من الناحية الاجتماعية، ومبسطة إلى أقصى حدٍّ بهذا المعنى. فالخلايا الشيوعية متحدات بين الناس من أجل الحياة المشتركة، بينما الخلايا الغربية نوع من آلات العمل. أى أن العاملين فى الخلايا الغربية أجزاءً (قطع) فى آلة عمل، مستقلٌ بعضها عن بعض. وهم لا يحصلون من الخلايا إلا على المال وفرص الارتقاء فى العمل. وعليهم أنفسهم تقع مسئولية تأمين كلِّ ما عدا ذلك. فالمجتمع لا يضمن لهم العمل، والسكن، والرعاية الطبية، وكثيراً غير ذلك من خيارات الحياة المكفولة للعاملين فى الخلايا الشيوعية.

ويوجد فى داخل الخلايا الشيوعية نوع خاص من الديمقراطية على شكل صنوف شتى من الاجتماعات، والمشاورات، والجلسات، واللجان... إلخ، التى يعقدها العاملون العاديون. وتؤثر هذه الديمقراطية على سير الأمور وأوضاع العاملين. بينما تنطوى الخلايا الغربية فى داخلها على انضباط صارم، ولا وجود فيها لأى نوع من الديمقراطية.

هذه العقلنة العملية القصوى للخلايا الغربية لا تعنى أن تخليص الخلية من كلِّ ما ليس ذا صلة بالعمل يوازيه تخليص المجتمع ككلِّ منه أيضاً. إن كلِّ ما له قيمة ما بالنسبة للمجتمع، ويمكن أن يكون مصدر دخل، أو موضوعاً للنشاط الاجتماعى، يصبح هنا قضية نوع خاص من الخلايا، أو وظيفة من وظائف نوع خاص من المنظمات الاجتماعية (أحزاب، نقابات... إلخ). ويجرى فى المجتمع ككلِّ أقصى حدٍّ ممكن من تقسيم أعمال الناس، وقدراتهم، ووظائفهم. إن بعض خصائص الناس وامتداداتهم تنفصل عنهم على شكل خلايا من نوع خاص.

يبين تحليل البنى الصغرى Microstructures فى المجتمعين، الغربى والشيوعى، أنهما فى أساسهما مختلفان، لا يلتقيان. ومن المستحيل أن يجرى تحولٌ طبيعى بينهما، أى أن يتحول أحدهما إلى أحدهما الآخر تحولاً طبيعياً (عن طريق

تطور تدريجى تمليه القوانين الاجتماعية الداخلية). وليس مصادفة أن يكون النسيان قد طوى النظرية التي قالت بالتقارب بين الشيوعية والرأسمالية انطلاقاً من وقائع سطحية يتشابه فيها المجتمعان السوفيتى والغربى بعدد من المؤشرات. إذ إن التشابه بين نظامين اجتماعيين مختلفين لا يعنى تحوُّل نظام إلى نظام آخر. فالثدييات التي تعيش فى الماء تتشابه مع الأسماك فى كثير من الجوانب، غير أنها لم تتحول إلى أسماك.

إن تحويل خلايا المجتمع الأساسية إلى خلايا شيوعية لا يتطلَّب البدء من تلك الخلايا، أى من تحت، بل يوجب البدء من فوق، أى من إعداد الجماهير إيديولوجياً، واستيلاء منظمة من الثوريين على مقاليد السلطة، على غرار ما فعل الشيوعيون الروس تحت قيادة لينين. ثم، وعلى هذا الأساس فقط، يأتى التدرُّج ببناء خلايا شيوعية، على غرار ما فعلت السلطة الشيوعية تحت قيادة ستالين فى روسيا. وهذا فى حال قيام نظام شيوعى ثابت. أمّا الطريق الآخر فهو أن تقوم قوّة خارجية بفرض النظام الشيوعى فى بلدٍ ما بعد استيلائها عليه، كما جرى فى بلدان أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية. إن كلا الطريقين، الأوّل والثانى، مستحيلان فى الغرب. وتأتى استحالة الطريق الأوّل من عدم وجود أى شروط أو قوى فى الغرب للقيام بمثل هذا التحول. وسبب استحالة الطريق الثانى هو أن الغرب نفسه يسعى الآن إلى فرض سيادته على العالم، ويملك القوى المطلوبة لتحقيق هذا المسعى.

أمّا تحويل المجتمع الشيوعى السوفيتى إلى مجتمع غربوى فكان يتطلَّب من الإصلاحيين السوفيت أن يقوموا أولاً بتحويل الخلايا الشيوعية إلى خلايا غربوية، أى البدء من تحت، وفقاً لطبيعة المجتمع الغربى، وليس من قمة السلطة. غير أن ذلك كان مستحيلاً سلفاً، لأنه يتطلب مادة بشرية لا وجود لها فى روسيا، ولا أمل بوجودها فى المستقبل. كما أن الهدف المذكور يتطلب خبرة فى تنظيم العمل وفقاً لمبادئ الغربوية، وهذا بدوره يحتاج إلى زمن تاريخى. فلا بدّ من آلاف مؤلّفة من الشروط التي يبدو كلُّ منها بمفرده قابلاً للتحقيق، ولكنها مجتمعةً لن تتحقق فى روسيا فى يوم من الأيام، ولا

فى أى ظرف من الظروف. ولن تصبح روسيا بلداً غربوياً أبداً إلا بعد إعادة خلق المجتمع على مستوى البنى الصغرى فيه. وكل ما تستطيعه هو أن تصبح مجرد مجال كولونىالى للغرب، كما يجرى حقيقة فى أعقاب تدمير النظام الشيوعى من فوق (بجهود السلطة)، ومن الخارج (بجهود الغرب).

إن الجانبين (العملى والكومونالى) من بنية المجتمع الكبرى يتمثلان فى الاقتصاد ونظام مؤسسة الدولة، أساساً وقبل كل شىء. ولئن كان الجانب الأول (العملى) هو الغالب فى المجتمع الغربوى، فإن ذلك لا يعنى أن الجانب الثانى (الكومونالى) ضعيف. ثم إن مجال مؤسسة الدولة فى الغرب لا يقلّ بأى قدرٍ عما كان عليه نظيره فى الاتحاد السوفيتى السابق، حيث كان هو المهيمن على الاقتصاد. غير أن مسائل الاقتصاد هى بالضبط ما يلعب، فى معظم الحالات، الدور الأهم فى نشاط الدولة. وأشدُّ على القول: فى نشاط الدولة تحديداً، بوصفه أداء الدولة وظائفها.

يُعدّ المجتمع الغربى من وجهة النظر الاقتصادية مجتمعاً رأسمالياً. فهل هذا صحيح أم لا؟ يتوقف جواب هذا السؤال على تحديد المفاهيم. إذ يمكن أن نأخذ بتعريفات من قبيل: رأس المال هو مقدار من المال يستخدم بهدف الحصول على أموال إضافية (ربح). والعلاقات الرأسمالية بين البشر هى العلاقات التى تقوم فيما بينهم عندما تكون النقود موظفة كرأسمال. ويكون المجتمع رأسمالياً إذا كانت العلاقات الرأسمالية فيه متطورة بدرجة كافية من القوة، أو سائدة. ولكننا نستطيع أن نأخذ أيضاً بتعاريف أخرى مفادها أن الرأسمالى شخصٌ (أو مجموعة أشخاص) يحصل مقابل المال على وسائل العمل، ويستأجر عمالاً لتشغيلها، وينظّم إنتاج السلع أو الخدمات ثم يبيعهها. وهو يفعل ذلك أخذاً بالحسبان أن يغطّى جميع نفقاته، ويدفع الضرائب، ويبقى لديه ما يكفل معيشته. بل ويجب عليه أن يقوم بذلك كلّ خلال مدة زمنية طويلة، وبطريقة منتظمة، أى أن ذلك يجب أن يصبح عمله الدائم. والرأسمالى، باختصار، شخص (اتحاد أشخاص) يعيش على الربح الناجم عن تنظيم عملٍ ما بواسطة شراء وسائل عمل واستئجار قوة عاملة. ومصدر دخله هو

استغلال العمل المأجور، ويكون المجتمع رأسمالياً إذا كان الرأسماليون يلعبون الدور الغالب فى اقتصاده.

هاتان المجموعتان من التعريفات التى أوردناها أعلاه ليستا متناقضتين بحد ذاتهما، ولكنهما تعكسان موضوعاً واحداً من وجهتى نظر مختلفتين. لذلك، فإن استخدامهما فى مقارنة موضوع واحد قد يؤدي إلى نتائج متناقضة. وهذا هو بالضبط حال مقارنة المجتمع الغربى المعاصر، فهو مجتمع رأسمالى من وجهة نظر بعض التعريفات، وغير رأسمالى من وجهة نظر بعضها الآخر. ولما كان هناك عشرات من التعريفات المختلفة للرأسمالية، فإن الجانب الاصطلاحي المحض يمكن أن يُعقد أبسط المشكلات إلى حد التعمية.

إن المجتمع الغربى (الغربوى) المعاصر هو مجتمع الشمولية النقدية، من وجهة نظر الاقتصاد. وقد تناولت هذا الموضوع بكثير من الاستفاضة فى فصول سابقة. وسأضيف ما يلى. لقد تكونت فى مجتمع الشمولية النقدية آلية ضخمة تحقق هذه الشمولية، وتحافظ عليها. وباتت هذه الآلية واحدة من أهم دعائم المجتمع الغربى. إنها وليدة النظام المالى العملاق الذى يحكمه الآن، بالدرجة الأولى، ما لا حصر لعدده من العمليات المالية التى تشمل جميع نواحي حياة الناس والمجتمع ككل. إنها آلية جزءٍ خاص من الجانب العملى فى المجتمع، أى من العمل المالى. ولكنها تحولت، بفعل ما لهذا العمل من دورٍ خاص، إلى آلية تحرك المجتمع ككل وعناصره كافة. لقد أضحت ظاهرة تتعدى الاقتصاد وتتعدى السياسة، وليست مجرد ظاهرة فى إطار الاقتصاد كالاقتصاد.

والآلية النقدية فى ظل الغربوية هى رأسمال عملاق استحوذ على المجتمع بأسره. ولكنها مزودة بطاقم كامل تقريباً يتألف من عاملين مأجورين ليس واحد منهم بمفرده أكثر من خادم لها. وتسود داخلها علاقات تقوم على الأوامر، والتواطؤات، والتنسيق وغير ذلك من الظواهر التى لا تمت بأى صلة للعلاقات الاقتصادية الصرفة. إنها آلية معادية للديمقراطية. ويسود فى كل قسم من أقسامها انضباطٌ عديم الرحمة، شبيه بانضباط

الروبوتات. وهي استبدادية إزاء بقية المجتمع، وليس في العالم كله أى سلطة ديكتاتورية تستطيع أن تضاهيها في هذه الصفة.

يتطلب قيام هذه الآلية النقدية وجود نظام اقتصادى غنى ومتطور من جميع النواحي، له أليته المتقنة في مجال التنظيم الذاتى، ويتطلب وجود دولة قوية شديدة الدقة في أداء وظائفها المالية، أى تكون مشاركة في هذه الآلية ذاتها، مثلما يتطلب عملة قوية وأشياء أخرى لا وجود لها في ماضى روسيا، ولا في حاضرها، ولا أمل بوجودها في مستقبلها أيضاً. إذ إن أقصى ما يمكن أن ينشأ في روسيا هو أشباه بنوك هجينة تقوم على اللصوصية والنهب، وخاضعة بالكامل لآلية الغرب النقدية.

أما الآلية النقدية ودورها وموقعها في المجتمع الشيوعى عموماً، فمن المستحيل مبدئياً قيام شيء يشبه الآلية النقدية الغربية، وذلك بسبب أسس وقوانين التنظيم الشيوعى للمجتمع ذاتها. إن هذه الآلية ماكينة عمل عملاقة تفرض سيطرتها التامة والكاملة على الجانب الكومونالى في المجتمع، وبذلك تقتل أية ظاهرة مهمة من ظواهر الشيوعية.

ليست الرأسمالية مُعطى ثابتاً أبدياً. فقد عرف تاريخها مرحلتين، هما مرحلة الرأسمالية "القديمة"، ومرحلة الرأسمالية "الجديدة". وأرى أن الفرق بينهما يكمن في ما يلي:

كانت الرأسمالية "القديمة" تتألف في معظمها من عدد كبير من رؤوس الأموال الفردية المنتشرة في مجتمع غير رأسمالى من حيث نمطه العام. وبالرغم من أن الرأسماليين كانوا متنقذين في المجتمع، فإن هذا المجتمع لم يكن بعد رأسمالياً، لأن درجة انخراط السكان في العلاقات النقدية وفق قوانين الرأسمالية لم يكن شاملاً بعد، ولم يبدأ المجتمع الغربى يتحول إلى مجتمع رأسمالى في كل شيء، أى إلى مجتمع غربوى، إلا في القرن العشرين. إذ برزت بعد الحرب العالمية الثانية نزعة

واضحة نحو تحول مناطق واسعة وبلدان بكاملها إلى تجمعات تعمل كمنظومات نقدية ورءوس أموال ضخمة. ولا يعود السبب هنا إلى مركزة رؤوس الأموال، وإن كان لها دور، بل إلى تنظيم حياة أغلبية سكان هذه التجمعات بطريقة جعلت هذه الأغلبية أشبه بوسيلة عمل فى يد الرأسمال وحده. وعرف تطور الرأسمالية قفزة جديدة ترجع أسبابها إلى اجتذاب جماهير السكان إلى العمليات النقدية التى تجرى وفق قوانين رأس المال، وإلى تزايد عدد هذه العمليات وتقوية دورها فى حياة الناس. وكانت هذه العملية مرتبطة بتعزيز دور الدولة فى العمليات النقدية، وتعاظم القوانين النقدية، وضبط وتنظيم العلاقات بين أرباب العمل والعاملين المأجورين، وبهيكله العمل الحر، وتقليص المنافسة وحرية الأسعار، أى - باختصار - كان مرتبطاً بالتنظيم الاجتماعى، وضبط مجمل نظام الحياة فى المجتمع وفق قوانين وظيفه النقود بوصفها رأسمالاً.

ونتيجة لهذا المسار، فإن غالبية أعضاء المجتمع الغربى الذين لديهم مصادر دخل ما وجدوا أنفسهم مشاركين فى نشاط البنوك، يضعون أموالهم تحت تصرفها، أى يقومون بالجزء الأساسى من أعمالهم النقدية عبر البنوك.

ولكن ذلك لم يكن إلا واحداً من خطوط المنعطف الذى جرى. أما الخطُ الآخر فهو تغيير العلاقة بين الملكية الخاصة والعمل الحر. إذ تنقسم منشآت اقتصاد الغربوية، من ناحية صفة الأشخاص الاعتباريين، إلى مجموعتين. تضم المجموعة الأولى المنشآت التى يكون الأشخاص الاعتباريون فيها أفراداً، فيما تضم المجموعة الثانية تلك المنشآت التى يكون الأشخاص الاعتباريون فيها مؤسسات مؤلفة من أفراد كثيرين. وفى كلتا الحالتين لا يكون الأشخاص الاعتباريون فى المنشآت رأسماليين بالمعنى الذى كان سائداً فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وفى الحالة الأولى يقيم رجال الأعمال مشاريعهم الخاصة على أساس القروض التى يحصلون عليها من الآلية النقدية. إذ لا يشكّل رأس مالهم الخاص إلا جزءاً ضئيلاً للغاية من مجموع رؤوس الأموال. ولا تجد رجل أعمال مستقلاً يجازف بمفرده بإقامة مشروع تقع مسؤوليته عليه وحده إلا كاستثناء نادر أو حالة مؤقتة. وفى الحالة الثانية تقوم بوظائف



الرأسمالي مؤسسة مؤلفة من أشخاص لا يكون أى منهم مالكاً للمنشأة بكاملها، بل هم جميعاً أشخاص مأجورون.

وبذلك، لم يعد العمل الحرّ فى اقتصاد الغربية وثيق الارتباط بحجم الملكية الخاصة، وبالمالكين الأفراد. ذلك أن الرأسمالي تلاشى فى جمهور من الناس الذين ليس كل واحد منهم بمفرده رأسمالياً، أو تحوّل إلى مؤسسة من الأشخاص المأجورين، أو أصبح شخصاً خاضعاً للآلية النقدية. لقد فقد مفهوما "الرأسمالي" و "الرأسمالية" معناهما السوسيولوجي. ولم يعودا صالحين لإعطاء وصفٍ مطابق لخصوصية المجتمع الغربى وجوهره. إن المساهم الصغير، ورجل الأعمال، ومن يملك حساباً فى البنك ويسير أعماله عبر البنك، والمتقاعد، والمؤجّر (أرضاً، بيتاً، أى عقار...)، ومن يملك مبلغاً كبيراً من المال، ورئيس البنك، والمدير الذى يتقاضى راتباً ضخماً، والعامل الذى يُجرى عمليات مالية عبر البنك... إلخ، جميع هؤلاء يمثّلون مختلف الفئات الاجتماعية، على الرغم من أنهم جميعاً مشاركون فى عمل رأسمالٍ ضخم واحد عديم الملامح.

إن الإصلاحيين السوفيت الذين كانوا ينوون تحويل المجتمع السوفيتى الشيوعى إلى مجتمع رأسمالى فى أيام معدودة بواسطة أوامر القيادة "من فوق"، لم يأخذوا بتأتا بالحسبان حقيقة هذا التغير الذى طرأ على الرأسمالية. فقد كانوا يتصوّرُونَ الرأسمالية نسخة عن رأسمالية القرن التاسع عشر البالية، بل ونسخة بالية عن صورتها الماركسية. ولئن كانوا قد تمكّنوا من تجهيز عدد كبير من المجرمين الرأسماليين، من أجل التشبّه بالرأسمالية البالية (رأسمالية ما قبل الطوفان)، فإن الرأسمالية المعاصرة تتطلب عملية تاريخية جدية لا يتوفّر فى روسيا أى من شروطها الضرورية.

لقد أصبح "اقتصاد السوق" ("السوق") هوساً متحكماً بالإصلاحيين الروس. فتشبّثوا به وكأنه ترياقٌ يشفى من كل داء، دون أن يكون لديهم أبسط مفهوم عن حقيقة ذلك فى الواقع. إذ كانت تصوراتهم كلّها عن "السوق" مستقاة من الإيديولوجيا والدعاية الغربيتين اللتين رسّمتا للاقتصاد الغربى صورة مشوهة.

ينبغي التمييز بين الصورة الإيديولوجية لاقتصاد السوق، وواقع اقتصاد السوق. إذ تتشكل الصورة الإيديولوجية عن طريق اجتزاء بعض ملامح الحياة الاقتصادية في المجتمع من بيئتها المعقدة، ثم جمعها بشكل مجرد في كل ما. ويقدمون هذه الملامح وكأنها تمثل النظام الاقتصادي كله، أو أنها، على أقل تقدير، ملامحه الرئيسية. والهدف من ذلك هو استغلال البسطاء في البلدان غير الغربية بغية إيهامهم بأن بداية الازدهار الاقتصادي لا تحتاج من الناس إلا أن يقوموا بتصفية نظامهم الاقتصادي "المتخلف" في بلدانهم ويحلوا محلّه اقتصاد السوق "المتقدم"، كما تصوّره الإيديولوجيا والبروباغندا. أما في الواقع فإن إدخال هذه "السوق" إلى اقتصاد بلد شيوعي يؤدي إلى تدمير الاقتصاد القائم، والطبيعي بالنسبة لظروف هذا البلد.

إن اقتصاد السوق الحقيقي في البلدان الغربية يمثل تشابكاً بالغ التعقيد يتقاطع فيه كل ما أمكن من الوسائل المطلوبة لتنظيم عملية هائلة، وكل ما أمكن من الأساليب لإدارة هذه العملية. وما من أحد، إلا السذج، يصدق بأن هذا المجال الاقتصادي الأهم في حياة المجتمع الغربي يسير تلقائياً، مطلق العنان، متروكاً لنفسه ولـ "يد خفية" خرافية من نوع ما. وأعتقد أنه لو أمكن قياس كل ما يبذل من جهود ذهنية، إرادوية، حسابية، تخطيطية، وأوامرية في مجال اقتصاد السوق في الغرب ومقارنتها بما يقابلها من جهود في اقتصاد النظام الشيوعي التخطيطي - الأوامري، لذهلنا من شدة ضالة الجهود الرأسمالية مقارنة بالجهود الشيوعية، وتحديدًا ما كان منها موضع نقد في الغرب.

هناك اعتقاد عام بأن اقتصاد المجتمع الغربي فعّال، والاقتصاد الشيوعي غير فعّال. وأعتقد بأن هذا الرأي عديم المعنى تماماً من وجهة النظر العلمية. لأن المقارنة بين ظاهرتين مختلفتين تتطلب معايير قياس دقيقة. ذلك أن النتائج سوف تختلف باختلاف ما نختار من معايير. على أن هناك معايير اقتصادية واجتماعية محضة لتقييم إنتاجية الأفراد، والمنشآت، والنظم الاقتصادية، ومجتمعات بكاملها. ولئن كانت المعايير الاقتصادية تعتمد أساساً على التناسب بين نفقات العمل ونتائجه، فإن المعايير

الاجتماعية تستند إلى مدى التوافق بين نشاط المنشآت ومصالح المجتمع ككل. ويتمتع المجتمع الغربي، من وجهة نظر المعايير الأولى، بفعالية اقتصادية أعلى، أما من وجهة نظر المعايير الاجتماعية، فإن المجتمع الشيوعي هو الأكثر فعالية. إذ يستمد الاقتصاد الشيوعي فعاليته الاجتماعية من القدرة على إلغاء البطالة في المجتمع، وحماية المنشآت غير الربحية اقتصادياً من الإفلاس، وظروف العمل السهلة نسبياً، والقدرة على التحكم بحجم الإنتاج تجنباً لمواجهة فائض لا يحتاجه المجتمع، وحشد قوى وموارد كبيرة لحل المسائل المهمة تاريخياً، وغير ذلك من العوامل غير الاقتصادية.

إن فعالية الاقتصاد الغربي العالية اقتصادياً لا تقتصر على المزايا فقط، بل ولها عيوبها الصارخة أيضاً. فهي لا تحمي المجتمع من البطالة، ولا من الفقر الجماعي والتشرد، ولا تقضى على ظروف العمل الشاقة، وأسباب التوتر العصبي وباقي الأمراض المعروفة التي لم تعد في العقود الأخيرة تؤخذ بالحسبان عموماً عند تحديد السلبيات والإيجابيات في هذا النظام الاجتماعي أو ذاك.

إن الفعالية الاقتصادية في المجتمع الغربي لا تتوقف على العوامل الاقتصادية المحضة وحدها. بل تساهم فيها عوامل من نوع آخر، ومنها، مثلاً، استخدام موارد الكرة الأرضية كلها، واستخدام أشكال العمل شبه العبودية (العمال الأجانب)، واستخدام الضغط العسكري والسياسي على البلدان الأخرى... إلخ. وبالمقابل، فإن تدنى الفعالية الاقتصادية في البلدان الشيوعية ليس وليد عيوب النظام الاجتماعي فقط، وأحياناً ليس وليد تلك العيوب بقدر ما هو نتيجة للظروف الطبيعية القاسية، ولوضع تاريخي محدد في العالم.

لكل نمط من أنماط المجتمع نمطه الخاص في الاستقلاب. وما الفعالية الاقتصادية إلا واحد من مؤشرات هذا الاستقلاب الكثيرة العدد. فهو يتجلى في حياة شعوب معينة عبر مليارات من أفعال ملايين الناس التي تشكل نمط الحياة الثابت لدى هذه الشعوب. على أن تغيير نمط الاستقلاب في المجتمع مستحيل عملياً بدون عواقب كارثية على المجتمع نفسه. وعندما حاول الإصلاحيون السوفيت تغيير نمط

الاستقلاب الشيوعي في مجتمعهم إلى نمط غربي تجاهلوا كلياً هذا الواقع الذي يفترض أنه جلي للعيان.

وفضلاً عن ذلك كله، لا بد من الانتباه إلى العامل الأهم في عصرنا، وهو قيام "سوق" عالمية. ذلك أن هذه "السوق" ليست مجرد توسيع لمجال النشاط الاقتصادي، وإقامة علاقات محددة بين شركاء متكافئين، بل هي قيام إمبراطوريات اقتصادية فوق قومية، عولمية، أي قيام ما فوق اقتصاد (اقتصاد أعلى)، إذا جاز التعبير. وقد اكتسبت هذه الإمبراطوريات من القوة ما جعل مصير اقتصاد "الدول القومية" في الغرب الآن رهناً بها، ناهيك عن اقتصاد بقية دول العالم. ويسيطر الاقتصاد الأعلى (ما فوق الاقتصاد) على الاقتصاد بمعناه التقليدي، أي على اقتصاد المستوى الأول. وهنا بدأت وسائل من خارج الاقتصاد تلعب دوراً متعاضداً، وتتمثل تحديداً في ما تستخدمه بلدان الغرب من ضغط سياسي وقوات مسلحة.

والحال، فإن تحويل الاقتصاد الروسي إلى اقتصاد سوق بالشكل الذي يتمناه الغرب يعنى في هذه الظروف تحويله إلى تابع للاقتصاد الأعلى، يلعب الدور الذي يرسمه له سادة المجتمع العالمي الفعليون.

عندما دمر الإصلاحيون السوفيت مؤسسة الدولة السوفيتية بغية تطبيق ديمقراطية من الطراز الغربي تحل محله، لم يفكروا بهذه الديمقراطية كما هي في الواقع، بل كما هي في الصورة المؤمثلة التي صنعتها الإيديولوجيا الغربية من أجلهم. على أن هذه الصورة الإيديولوجية للديمقراطية وصورة اقتصاد السوق صنعتا بأدوات وطرق واحدة، فبعد اجتزاء عدد من مكونات النظام الفعلي للسلطة والإدارة (نظام مؤسسة الدولة) في المجتمع الغربي، كالتعددية الحزبية، والفصل بين السلطات، وانتخاب أجهزة السلطة وتدوالها... إلخ، جرت معالجة تلك المكونات بأساليب الإيديولوجيا، ثم أطلق عليها اسم الديمقراطية، وأعلن أنها جوهر نظام مؤسسة الدولة كله. وظل أسلوب استعمال هذا التزييف الإيديولوجي للواقع كما كان، أي ظل يعنى

تلقين الحمقى غير الغربيين فكرةً تزعم بأنه يكفي تبني هذه "الديمقراطية" الرائعة بديلاً لمؤسسة الدولة عندهم، حتى تبدأ في البلد حياة النعيم.

والحقيقة هي أن الديمقراطية ليست كل نظام مؤسسة الدولة الغربية، بل ولا هي بالعنصر الأهم في الغربية. إنها تثير كثيراً من الضجيج افتعلاً، ويروج لها بشتى الوسائل والأشكال، وتعطى نفسها قيمة أكثر مما تستحق، ولكنها ليست إلا السطح من نظام السلطة الحقيقي.

هناك قوانين كئيبة تفعل فعلها في أى نظام من أنظمة مؤسسة الدولة، سواء في المجتمع الشيوعي أو الغربي. ولناخذ، على سبيل المثال، الحدود التي بلغتها مؤسسة الدولة. إنه مجال واسع للغاية في البلدان الغربية من حيث عدد الناس العاملين فيه، وحجم الإنفاق عليه، ودوره في المجتمع. ولا يعود ذلك إلى التعقيد الهائل في إدارة المجتمع (التزايد السريع في عدد "نقاط" الإدارة) فقط، بل ويجرى بمعزل عن حاجات الإدارة، بحكم قوانين التنامي الذاتى المستقلة. وهناك تعاضم لحجم وظائف الدولة أيضاً. فليس في الغرب الآن مجال من مجالات الحياة الاجتماعية إلا وتشارك فيه الدولة بهذا الشكل أو ذاك. وما من عيب في مؤسسة الدولة الشيوعية إلا ونجد مثيلاً له، وبدرجة مضاعفة، في مؤسسة الدولة الغربية. وعبئاً علق المواطنون السوفيت آمالهم على الإصلاحيين متوهمين أنهم كانوا قادرين على إنقاذهم من هذه البلية أصلاً. فبعد أن حطم الإصلاحيون في روسيا جهاز السلطة والإدارة السوفيتي، واقتنعوا بعجزهم الكامل عن تسيير البلاد من دونه، راحوا يحاولون بسرعة هستيرية وذعرٍ اختراع أى بديل عنه. ولكن ذلك ليس بالأمر اليسير. لأن بناء جهاز الحكم والإدارة يحتاج إلى عشرات السنين من العمل المضني، وليس إلى سيل من أوامر يصدرها أغرارٌ متبجحون فقدوا صوابهم، أوصلتهم المصادفة إلى سدة الحكم.

يمكن التمييز في مجال مؤسسة الدولة الغربية، وكذلك في مجال الاقتصاد بين مستويين، هما: مستوى مؤسسة الدولة بمعناها العادى، أى المستوى الذى تظهر فيه الديمقراطية، ومستوى ما فوق مؤسسة الدولة. على أن بنية هذا المستوى الثانى لم

تحظّ بما يستحقّ من الدراسة، وبالأحرى فإن معرفتها من أكبر المحرّمات فى المجتمع الغربى. إذ يشاع رسمياً أنه لا وجود لها أصلاً. إلا أن وسائل الإعلام تسرّب بين الحين والآخر أدلّة دامغة على وجودها وقوتها الفعلية.

هذا النظام الأعلى (ما فوق مؤسسة الدولة) الذى يتحكّم بنظام السلطة والإدارة الغربوى ينشأ ويتوالد عبر أنساق كثيرة، سائير إلى (ما أعتقده) أهمّها، إذ يتألف نظام مؤسسة الدولة من عدد كبير من البشر، والمؤسّسات، والمنظّمات، وهو نفسه بحاجة إلى إدارة، ويمكن القول إنه بحاجة إلى سلطة داخلية. ولا يشار إلى هذه السلطة الداخلية بنصّ رسمى، أى بوصفها جهازاً فى سلطة الدولة معترفاً به قانونياً. إنها تتألف من شتى أصناف الناس: من ممثلى الإدارة العليا، وموظفى الدواوين الشخصية، وموظفى الأجهزة السرية، والأقرباء، وممثلى السلطة العليا، والمستشارين... إلخ. ويلى هؤلاء، ويندرج جزئياً فى صفّهم، عدد كبير من المقرّبين من الحكومة هم ممثّلو المصالح الخاصة، وجماعات اللوى، ومجموعات المافيا، والأصدقاء الشخصيين... إلخ. وهذا هو "مطبخ السلطة".

ويتألف النسق الثانى من مجموع المؤسّسات السرية التابعة للسلطة الرسمية، وعموماً من جميع من يخطّطون وينفّذون الجانب الخفى من نشاط سلطة الدولة. ولا يمكن معرفة حدود هذا الجانب، ولا الوسائل التى يستخدمها. على أن السلطة العلنية لا تقوم بأية خطوات مهمة دون علمه.

والنسق الثالث هو تشكيل أنواع شتى من تجمعات تضم عدداً كبيراً من الشخصيات الناشطة وتشغل مكانة رفيعة فى سلّم المواقع الاجتماعية. وهذه الشخصيات هى الأكثر نفوذاً فى المجتمع بحكم مكانتها، والموارد الخاضعة لها، ووضعها القانونى، وثروتها، وشهرتها وشعبيتها... إلخ. ويندرج فى عداد هذه الشخصيات كبار رجال الأعمال، والمصرفيون، وكبار ملاك الأراضى، وأصحاب الصحف، وزعماء النقابات، والمنتجون السينمائيون، وأصحاب الفرق الرياضية، ومشاهير الممثلين، ورجال الدين، والمحامون، وأساتذة الجامعات، والعلماء،



والمهندسون، وأصحاب وسائل الإعلام ومدراءها، وكبار الموظفين، والسياسيون... إلخ. وقد عُرف هذا الوسط باسم النخبة الحاكمة.

ورابع الأنساق الأساسية التي يتألف منها النظام الأعلى (ما فوق مؤسسة الدولة) هو إقامة ما لا يحصى عدده من المؤسسات والمنظمات، والتحالفات والاتحادات بين البلدان الغربية، بالإضافة إلى منظومة من الوسائل من أجل إقامة مجتمع كوني وإدارته.

ليس في النظام الأعلى ذرة من السلطة الديمقراطية. لا وجود فيه لأية أحزاب سياسية، ولا لأي فصل بين السلطات، ولا للشفافية في حدها الأدنى، أو هي غائبة تماماً، والغالب هو مبدأ السرية، والجماعة المغلقة، والتواطؤات الشخصية. إن مؤسسة الدولة الشيوعية تبدو منذ الآن لعبة أعرار، مقارنة مع تلك السلطة الديمقراطية. ففيها ينشأ نوع خاص من "ثقافة الإدارة" التي تُنذر بأن تصبح بمرور الزمن السلطة الأكثر طغياناً في تاريخ البشرية. وأنا لا أقول ذلك من باب التعريض أو اللوم، اللهم قنا شرّاً ذلك! فالقوانين الموضوعية الخاصة بإدارة متحدات بشرية هائلة العدد، بل بإدارة البشرية جمعاء، وهو ما يطمح إليه الغرب، تجعل الديمقراطية التي تصورها الإيديولوجيا والدعاية الغربيتان غير صالحة إطلاقاً. وهذا ما يتحدث عنه الآن علناً كثيرون من المنظرين الغربيين.

إن نظام مؤسسة الدولة ظاهرة كومونالية. ولكن تعاضمه واشتداد قوته لا يعنى أن الجانب الكومونالي بدأ يهيمن في المجتمع الغربي. إذ يزداد نظام مؤسسة الدولة في الغرب اتساعاً كتطور للجانب العملي، ومبادئ الجانب العملي هي التي توجه، بهذا الشكل أو ذلك، نشاط خلاياه أو متحدات هذه الخلايا. ولا تبدو مؤسسة الدولة الشيوعية أكثر جبروتاً من نظيرتها الغربية إلا بقدر ما هي مكشوفة وتتعاظم مع ظروف أكثر بساطة في ما يخص الإدارة، بينما في الحقيقة تفوقها مؤسسة الدولة الغربية في جميع الجوانب الأساسية. فلو أن مؤسسة الدولة الشيوعية كانت موجودة



فى ظروف المجتمع الغربى لظهرت عاجزة، ولأفلسـت سريعا، فحـتـى ظروف الاتحاد السوفيتى كانت شديدة الصعوبة عليها.

لقد تجمعت البلدان الشيوعية فى أحلاف، وكانت تتطلع إلى تحويل كل ما فى الكرة الأرضية من بلدان وشعوب إلى عقيدتها، وإلى فرض الهيمنة على العالم. على أن هذه التطلعات نفسها كانت وما تزال موجودة فى بلدان الغرب الذى يطبقها الآن بنجاح. وهناك، بالطبع، بعض الملامح المشتركة بين القطبين فى تشكيل هذه البنى الاجتماعية العليا، غير أننى أودّ تركيز الانتباه هنا على ما بينهما من فروق.

لقد اتخذت البلدان الغربية تاريخياً شكل "دول قومية" بوصفها كيانات اجتماعية أرقى مستوى من باقى البشرية، ونوعاً خاصاً من "بناء فوقى" يعلو على باقى البشرية. وقد طوّرت قواها وإمكاناتها لتهيمن على الشعوب الأخرى، وتسيطر عليها. بينما أعطاهـا تقاطع الظروف التاريخية فرصة لاستخدام هذه القدرات.

لم تتشكل البلدان الغربية من تلقاء نفسها، ولا بمعزل عن العالم المحيط، وإنما تشكلت كأجزاء من بنى كبرى ( Super-structures ) لها بنية هرمية من التبعية والخضوع:

١- بلدان المتروبول.

٢- البلدان والشعوب التابعة بدرجات متفاوتة .

٣- المستعمرات من شتى المستويات. وينبغى التفريق بين معنيين لكلمة "مستعمرة" و"استعمار". المعنى الأول هو نزوح جزء من سكان بلد معين إلى أرض أخرى واستيطانها. والمعنى الثانى هو غزو بلدان وشعوب أخرى وإخضاعها. ولئن عرفت الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وبلدان غربية أخرى هذين النوعين (المعنيين) كليهما من الاستعمار، فإن ذلك ليس استثناء من القاعدة العامة. فتطلع البلدان الغربية إلى تشكيل بنية كبرى لم يختف، وإنما اتخذ شكلاً جديداً وازداد قوة. وقد ناقشت هذه الظاهرة أعلاه. والصفقتان الأساسيتان للمرحلة الجديدة من هذه العملية هما:

١- قيام البلدان الغربية بإخضاع كوكبنا دفعة واحدة، وليس كأجزاء. ٢- سعيها الآن إلى تنظيم العالم كله وفقاً لما تقتضيه مصالحها. ولا بد من الاعتراف بأن الغرب حقق نجاحات ضخمة في هذا المجال.

إن البنى الكبرى التي أقامتها البلدان الغربية من قبل، والبنية العالمية الكبرى التي يسعى الغرب لإقامتها الآن، هي بنى إمبراطورية "عمودية". ولكن المجتمع الشيوعي لا تتوفر فيه الشروط الضرورية لذلك. فلا وجود فيه للمادة البشرية التي تتصف بصفات الشعب السيد، وهي صفات متوفرة بكثرة عند الغربيين. ولا وجود في التنظيم الاجتماعي الشيوعي نفسه لمقدمات من أجل إقامة هيكله عمودية للبلدان والشعوب. لقد كان الاتحاد السوفيتي إمبراطورية في نظر الإيديولوجيا والدعاية الغربيتين، وكان ذلك كذباً صارخاً. وإذا كان فيه أي شيء إمبراطوري، فقد كان إمبراطورياً بالعكس (بالمقلوب)، ذلك أن الشعب الأساسي في هذه "الإمبراطورية" - أي الروس - كان يعيش في ظروف أسوأ بكثير من بقية الشعوب التي يزعمون أنه كان يستغلها. والحقيقة أن روسيا هي التي كانت في الواقع مجالاً يستعمره عدد من الشعوب، بينما قُضى على الجزء الأساسي من الشعب الروسي بأن يعيش حياة بائسة في أدنى درجات الهرم الاجتماعي. لقد كانت الإيديولوجيا الشيوعية خالية في الأصل من فكرة بنية كبرى عمودية تنتظم شعوب العالم وبلدانه. أمّا ذلك التجمع العالمي الذي ظهر على الكرة الأرضية رداً من الزمن بين البلدان الشيوعية والبلدان التي كانت تتطلع إلى الشيوعية، فكان تجمّعاً "أفقياً" ضمّ بلداناً تربط بينها علاقات تبعية متبادلة.

لا يزال من السابق لأوانه القيام بوضع استنتاجات قاطعة بشأن آفاق المجتمع العالمي، وبنيته، ودور الغرب فيه. ولكن الأرجح، في تصوُّري، هو مجتمع شبيه بالمجتمع الغربي من حيث جوهره الاجتماعي.

ميونيخ، آذار، ١٩٩٣

المترجمان فى سطور :

نوفل نيوف/ سوريا

ماجستير فى اللغة الروسية وأدابها (جامعة لنجراد).

دكتوراه فى نظرية الأدب (جامعة موسكو الحكومية).

ترجماته :

ل. أندرييف ، يهوذا الإسخرى و قصى أخرى.

أ. تشاك. قلب على الرصيف (شعر).

أ. س. بوشكن. مسحية "الضيف الحجرى" (شعر).

م. بولجاكف. قلب كلب (رواية).

غ. جاتشيف. الوعى والفن.

الثقافتان العربية والروسية (بأقلام روس معاصرين).

نظرية الرومانسية فى الغرب (دراسات).

الذئب والحرية، قصى للأطفال. (بالاشتراك).

دراسات أدبية فى النظرية والتطبيق (مجموعة مؤلفين).

م. جرايتشنيكو، ذات الكاتب الإبداعية وتطور الأدب (بالاشتراك).

## مؤلفاته :

- مسودات القلب (شعر).
- أناحيل الخراب (رواية).
- تقطير الروح (قصص قصيرة).
- روسيا من الداخل (دراسات سياسية).
- أفاق الرواية، حدود القصة (دراسات تطبيقية).

## عادل إسماعيل / سوريا

ماجستير ودكتوراه في الصحافة (جامعة موسكو الحكومية).

## ترجماته :

دميتري ميكولاسكى، المسعودى هيروودوت العرب، مراجعة د. نوفل نيوف.

## ترجمات مشتركة مع د. نوفل نيوف

سورية فى رحلات روسية خلال القرن التاسع عشر.  
إيجر شَفْرِيفتش. لغزُ عمره ثلاثة آلاف عام (تاريخ اليهود من منظور روسيا المعاصرة).

نودار دومبازه، الرايات البيضاء (رواية).

## المؤلف فى سطور :

ألكسندر زينوفيف (١٩٢٢ - ٢٠٠٦)

- فيلسوف وأديب، دكتوراه فى الفلسفة (١٩٥٤).
- رئيس قسم المنطق فى جامعة موسكو (١٩٦٥ - ١٩٦٨).
- طُرد من الاتحاد السوفيتى عام ١٩٧٨ وعاد إلى روسيا عام ١٩٩٩.
- نال جائزة ألكسيس دى توكفيل بتزكية من ريمون ارون.

## من مؤلفاته :

- "المشكلات الفلسفية فى المنطق المتعدد الدلالات".
- "منطق الأقوال ونظرية الاستنتاج".
- "أسس النظرية المنطقية للمعافر العلمية".
- "المنطق المركب".
- منطق العلم".
- "الفيزياء المنطقية".
- "القواعد المنطقية فى اللغة".
- "العقل المنطقى".
- "هوموسوفيتيكوس".
- "الشيوعية واقعاً".

- "نحن والغرب".
  - "لا حرية ، لا مساواة، لا إخاء".
  - "الكارتوسترويا".
  - "روسيا ما بعد الشيوعية".
- تُرجم قسم من أعماله إلى أكثر من عشرين لغة.

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز  
الإشراف الفنى : حسن كامل









اتخذت عملية ارتقاء البشرية شكلاً يوصف  
عموماً بمفاهيم "التغريب"، و"الأمركة"، و"العولمة".  
وسوف يملأ هذا الشكل تاريخ البشرية كله في القرن  
الحادي والعشرين. ولعل ذلك سيكون تاريخاً تفوق  
مأساويته كثيراً كل ما عرفه الماضي من المأسى.

"ما هذه الظاهرة التي تسمى "الغرب"، الظاهرة  
التي أنزلت تلك الضربة الماحقة بدولة عظمى جبارة  
دون أن تطلق طلقة واحدة؟ فيم يكمن مصدر قوتها؟  
ما آفاق تطور البشرية تأسيساً على هذا المأل الذي  
ألت إليه معركة الغرب التاريخية ضد الشيوعية؟  
وهل هذا الانتصار نهائي حقاً؟ هل الغرب في الواقع  
كما تصوّره آلات الدعاية الغربية المزهوة بنفسها،  
والدعاية الموالية للغرب في روسيا؟  
ما الذي تحمله حقاً هيمنة الغرب العالمية لبقية  
البشرية؟"

تلكم هي الأسئلة التي يطرحها على نفسه  
الكاتب، وعالم الاجتماع، والفيلسوف الروسي  
الكبير ألكساندر زينوفيف. وهو يجيب عن هذه  
الأسئلة في كتابه "الغرب"، الذي نقدمه اليوم  
 للقارئ العربي.